تاريخ الحضارة المصرية

المجلد الثاني

العصر اليوناني و الروماني و العصر الإسلامي

تأليف : نخبة من العلماء



وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

تاريخ الحضارة المصرية

العصر اليوناني والروماني
والعصر الإسلامي

المجلد الثاني

ألفه
نخبة من العلماء

أمين الخولي
محمد مصطفى زيادة
إبراهيم نصحي
مراد كامل
حسين مؤنس
جمال الدين الشيال
محمد عبد العزيز مرزوق

الموزع
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي (الفجالة)

القسم الأول

العصر اليوناني والروماني

مصر في عصر البطالمـــــة

للدكتور ابراهيم نصحي

الفصل الأول ـ دولة البطالمة

الفتح المقدوني ـ قيام دولة البطالمة ـ الفتح الروماني

حبا الله مصر بوفرة من موارد الخير وأسباب الحياة الكريمة ما جعلها مهد الحضارة والعرفان ، ويسر على الراشدين من حكامها اعلاء شأنها ، ولفت أنظار الطامعين اليها حتى أصبحت قبلة كل دولة تنشد بناء امبراطورية عالمية . فلا عجب انه حين زالت دولة الفرس وقامت على أنقاضها امبراطورية المقدونيين طويت صفحة من تاريخ مصر الطويل وفتحت صفحة جديدة التقت فيها الحضارتان المصرية والاغريقية جنبا الى جنب . فالي أي مدى صدق العلامة ابن خلدون في قوله ان المغلوب مولع دائما أبدا بالاقتداء بالغالب ؟ سنحاول بقدر ما تسمح لنا المصادر القديمة ، أن نبين الى أي مدى تغيرت أم بقيت على حالها مختلف نواحي الحياة في مصر على عهد حكامها الجدد .

ورث الاسكندر الأكبر عن أبيه توحيد الاغريق في عصبة كورنثا بزعامة مقدونيا ومشروع محاربة الفرس ، ذلك العدو المشترك لمقدونيا والاغريق ، لدعم زعامة مقدونيا . ولما كان الفرس يتمتعون بسيادة البحار فان الاسكندر قرر أن يقضي على سيادتهم البحرية بالاستيلاء برا على قواعد الأسطول الفارسي . ولذلك سرعان ما استولى على شواطىء آسيا الصغرى وفينيقيا ومصر وقدمت له برقة فروض الطاعة .

اولا ـ الفتح المقدوني

١ ـ الاسكندر في مصر :

فتح الاسكندر مصر في خريف عام ٣٣٢ ، وما كاد يصل الى منف حتى سارع الى تقديم القرابين للآلهة الوطنية ، وتتويج نفسه في معبد فتاح على نهج الفراعنة القدماء ، لكي يظهر أمام المصريين في ثوب ملك شرعي خليفة الفراعنة القدماء ؛ فيضمن اخلاص المصريين وخضوعهم له . لكن الاسكندر لم ينس أيضا أنه يوم خرج من بلاد الاغريق قاصدا فتح الشرق قد أعلن انه رافع لواء الحضارة الاغريقية ، ولذلك أقام في منف حفلا اغريقيا : رياضيا وموسيقيا .

وبعد أن فرغ الاسكندر من مهامه في منف وضع أساس مدينة الاسكندرية ثم حج الى معبد آمون في واحة سيوة ، فقد كان

ذلك المعبد يتمتع بشهرة عالمية تضارع ما كان لأعظم معابد الوحي عند الاغريق . ويبين ان الاسكندر كان يستهدف من وراء زيارة ذلك المعبد التالي تحقيق ثلاث غايات : أولاها : اثبات صلة نسبه بالآلهة امام الرأي الدولي العام ، فقد كان على وشك بناء امبراطورية واسعة مترامية الأطراف تضم بين جوانبها عناصر شرقية وعناصر غربية ، وكان يرى ان تأليه أقوى ضمان لسيطرته على عناصر الامبراطورية . وقد كانت غايته الثانية من الحج الى معبد الوحي في سيوة الحصول على تأييد الاله آمون لمشروعاته التي كانت ترمي الى بسط سيادته على العالم . أما غايته الثالثة فكانت اشباع ميوله للمخاطرة ورغبته في اقتفاء أثر بطلي الأساطير الاغريقية برسيوس وهرقل اللذين شاع الاعتقاد قديما ان الاسكندر كان ينحدر من سلالتهما وورد في الأساطير انهما تزودا بمشورة آمون سيوة قبل الاقدام على جلائل أعمالهما .

وحين عاد الاسكندر الى منف أقام حفلا اغريقيا ثانيا ووضع نظاما دقيقا لحكم مصر ثم تركها في ربيع عام ٣٣١ ق م حاملة جيش وأسطول مقدونيين ليستأنف منازلة الفرس . وفي العام نفسه أنزل الاسكندر بدارا ملك الفرس هزيمة فاصلة في موقعة جوجميلا Gaugamela ، ثم أوغل في أواسط آسيا حتى قلب اقليم البنجاب للاستيلاء على ولايات الامبراطورية الفارسية . وحين عاد الى بابل وافته المنية في ١٣ من يونية سنة ٣٢٣ ولما يتم الثالثة والثلاثين من عمره . وبوفاة الاسكندر يبدأ في العالم الاغريقي العصر الذي اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر الهيلينستي . ولما كان تاريخ مصر منذ الفتح المقدوني قد أصبح متصلا اتصالا وثيقا بالعالم الاغريقي فان عهد البطالمة ينتمي الى العصر الهيلينستي الذي ينتهي بموقعة اكتيوم في عام ٣١ ق . م ، تلك الموقعة التي بسط الرومان في أعقابها سلطانهم على مصر : آخر ممالكة هيلينستية .

مؤتمر بابل

وغداة وفاة الاسكندر اجتمع قواده في بابل ليبحثوا مشكلة حكم الامبراطورية المقدونية التي توفى مؤسسها قبل أن ينظم وراثة العرش وطريقة الحكم فيها ودون أن يترك وصية أو يرشح خلفا له . وبعد خلاف عنيف تم الاتفاق على أن يرتقي العرش شاب معتوه يدعى فيليب ارهيدايوس Arrhidaeus كان أخا غير شقيق للاسكندر ، مع الاعتراف بحق جنين روكسانا Roxana (زوجة الاسكندر الفارسية) اذا كان ذكرا في مشاركة فيليب الملك بمثابة شريك تحت الوصاية . وبهذا الحل أمكن الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية لكنها لم تكن الا وحدة في الشكل فقط اذ انها تضعضعت في الفعل بين قواد الاسكندر نتيجة للقرار الذي اتخذه أولئك القواد بتوزيع ولايات الامبراطورية

فيما بينهم ليحكموها بصفة كونهم ولاة من قبل الأسرة المالكة القدوية . وقد كانت الأطماع التى تجيش فى صدور أغلب هؤلاء القــــواد واضــحة جلية ، ولذلك فانهم لم يكونوا على استعداد لقبول أوامر الذين كانوا سيحكمون باسم الملكية متى توافرت لديهم القـــوة الكافية لتأيــد رغبتهم فى الاســتقلال . وقد كان كذلك بين قرارات مؤتمر بابل : أن يكون برديكاس القائد العام للجيش والمهيمن على شئون الامبراطورية ، وأن يكون كراتروس وصيا على الملك المعتوه وكذلك على طفـل روكسانا عندما يولد ، وحامي شخصيهما وحامل أختام الدولة . لكن المؤتمر لم يقرر لمن تكون السـيطرة والكلمة النافذة ، ألبرديكاس أم لكراتروس ، وبذلك أضاف عاملا آخر من عوامل الشقاق.

ثانيا ــ قيام دولة البطالمة

وقد كانت مصر من نصيب قائد فذ يدعى بطلميوس . فمــا كانت أهــداف بطلميوس مؤســس أسرة البطالمة التى حكمت مصر من عام ٣٢٣ حتى عام ٣٠ ق . م . ؟ وما كانت أهداف خلفائه ؟ لكى نتفهم سياسة البطالمة الداخلية على حقيقتها يجب أن نلقي أولا نظرة عاجلة على سياستهم الخارجية وذلك لأن النظم التى وضعوها لحكم مصر تأثرت الى حد كبير بالدور الذى أرادوا أن يلعبوه فى العالم الاغريقى .

ومن الجـلى أن سياسة مصر الخارجية تتكيف عادة بمجـــوعتين من العوامــل : احداهما هى العوامل الطبيعية التى جعلت مصر أولا جزءا من وادى النيل ، بل جعلت حياتها متوقفة على مياه هذا النهر ، وجعلت مصر ثانيا وفيرة الخيرات فى بعض النواحى ، مع فقرها الشديد فى بعض النواحى الاخرى ، وجعلت مصر ثالثا حلقة الاتصال بين افريقيا وآسيا وأوربا . ويترتب على ذلك أن تسعى مصر الى انشاء عـلاقات خارجية لتصريف ما يفيض على الحاجة من منتجاتها واستيراد ما تفتقر اليه ، وأن يكون لنشاط السـياسة المصرية ثلاث جهــات : احــداها افريقيــة والأخــــرى آسيوية والثالثة أوربية . ومن الطبـعى أن يتباين اهتمام مصر بكل جهة تبعا للظروف الدولية المحيطة بها فى كل عصر . وهذه الظروف الدولية هى المجموعة الثانية من العوامل التى تتكيف بها سياسة مصر الخارجية .

وفى ذلك الصدد منذ عهد الفراعنة حين كانت مصر ، أو كانت أن تكون ، المركز الأوحد للحضارة ، كان طبيعيا أن تستنفد الجبهة الافريقية نشاط السياسة المصرية . وحين قامت الى جانب مصر مراكز للحضارة فى آسـيا ، كان طبيعيا أيضا أن يكون للجبهة الآسيوية كذلك شأن كبير فى السـياسة المصرية ، ومن ثم لم تعد الجبهة الافريقية تستأثر باهتمام السياسة المصرية . وعنــدما أخذت تظهر فى شمال البحر الأبيض المتوسط

مراكز جديدة للحضارة استرعت هذه المراكز في الحال انتباه مصر ، لكنه لما لم يكن لهذه المراكز الحضارية الأوربية حينذاك شأن يذكر بجانب مراكز الحضارة الشرقية فانه لم يكن للجبهة الأوربية الا حظ يسير من اهتمام مصر قبل العصر الصاوي .

وعلى عهد البطالمة كانت الظروف الدولية المحيطة بمصر قد تغيرت تغيرا محسوسا اذ انه حين كان نجم الحضارات الشرقية قد أفل كانت حضارة الاغريق قد قفزت الى الأمام قفزات خاطفة أوصلتها سريعا الى ذروة المجد حتى تضاءلت الى جانبها الحضارات القديمة طرا ، وغدا بحر ايجة أهم مركز للحضارة في العالم القديم . وقد ازدادت دعائم هذا المركز رسوخا حين أنشأ الاسكندر امبراطوريته وأدخل في حظيرتها كل مراكز الحضارة القديمة . وعندما توفى الاسكندر في شرخ الشباب واقتسم قواده امبراطوريته كان لذلك نتائج عديدة يعنينا من أمرها ثلاث : احداها أن عرش مصر آل الى أسرة مقدونية الأصل اغريقية الحضارة ، والنتيجة الثانية ، نشوب صراع عنيف بين قواد الاسكندر دام أربعين عاما وتمخض آخر الأمر عن قيام ثلاث دول فتية على انقاض الامبراطورية المقدونية : هى دولة البطالمة فى مصر ودولة السليوكيين فى سوريا وبابل ، ودولة مقدونيا . والنتيجة الثالثة هى احتدام المنافسة بين هذه القوى الثلاث ولا سيما بين البطالمة والسليوكيين .

١ ـ تفكك الامبراطورية المقدونية

ومهما اختلف المؤرخون فى تفسير سياسة البطالمة الخارجية فلا خلاف فى أمرين : أحدهما أن الجبهة الأوربية فى نشاط سياسة مصر الخارجية على عهد البطالمة قد غدت الجبهة الرئيسية ، والأمر الآخر ان البطالمة كانوا يرمون انشاء امبراطورية . وسواء أكان بطلميوس الأول وابنه وحفيده من بعده يرمون انشاء امبراطورية عالمية أم امبراطورية بحرية فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، فقد كان يتعين أولا وضع الأساس الذى يقام عليه هذا الصرح ، أى بناء دولة قوية غنية مستقلة فى مصر . ولا ريب فى أن بناء مثل هذه الدولة كان يحتم فصم عرى الامبراطورية المقدونية ومكافحة كل من تحدثه نفسه بأحيائها لحساب الأسرة المالكة المقدونية أو لحسابه الخاص . ولذلك فان بطلميوس الأول اشترك فى عدة محالفات كانت أهمها ثلاث : احداها ضد پردكاس الذى أراد أن يلم شعث الامبراطورية ويوحدها وقرر غزو مصر ليجعل من واليها عظة للولاة الآخرين لكنه قتل أمام خط النيل الحصين ولقى حتفه هناك (عام ٣٢١) وكانت المحالفتان الأخريان ضد أنتجونوس Antigonos الذى أصبح بدوره خطرا يتهدد سلامة الولاة الآخرين وانتهى الأمر بالقضاء عليه فى موقعة إبسوس Ipsos عام ٣٠١ ق . م . وبموت أنتجونوس ماتت معه فكرة احياء الامبراطورية المقدونية، وكان قد أكد انحلالها واستقلال الولاة كل

منهم بولايته انهم حذوا حذو اقتيجونوس ولقبوا أنفسهم ملوكا (عام ٣٠٦ — ٣٠٥ ق . م .) .

وبسط الأطماع الجامحة التي كانت تجيش في صدور خلفاء الاسكندر استشعر بطلميوس الحاجة الى جيش كبير واسطول قوي ليفوز باستقلال مصر ويحافظ على هذا الاستقلال ويحرز مكانة سامية في السياسة الدولية . ولما كانت تحت امرة ماضي البطالمة جيوش وأساطيل من الطراز الأول ، اذ كانت مؤلفة من خيرة جنود العصر ، وأعني المقدونيين والاغريق ، فقد اعتقد بطلميوس وخلفاؤه الأوائل انه لتحقيق سياستهم الخارجية بل المحافظة على كيان دولتهم ، لابد من أن يكون لهم جيش واسطول من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم ، ومعنى ذلك ضرورة استخدام الاغريق وأتباعهم للخدمة في قوات البطالمة المحاربة . ولما كانت ثروة مصر الطبيعية قاصرة عن الوفاء بحاجات الجيش والأسطول فانه كان يتعين استيراد الأخشاب والمعادن اللازمة من الخارج . وقد كانت الطريقة المثلى لضمان الحصول على هذه الضروريات هي الاستيلاء على بعض الأقاليم القريبة الغنية بالأخشاب والمعادن .

٢ — بناء امبراطورية البطالمة

ولما كانت وفرة المال شرطا أساسيا لبناء الجيوش والأساطيل ، وكانت مصر مع غنى مواردها الطبيعية لا تستطيع مواجهة المطالب الجديدة اذا بقيت شئونها الادارية وحالتها الاقتصادية على ما كانت عليه عند الفتح المقدوني ، فانه لم تكن هناك مندوحة عن اعادة تنظيم شئون الادارة ، والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقا ، وتصدير أكبر قدر ممكن من منتجاتها . وللقيام بهذه الأعمال الانشائية الواسعة كان بطلميوس الأول وخلفاؤه في حاجة الى رؤوس أموال والى أعوان مخلصين يستطيعون فهم مراميهم والتفاني في خدمتهم . ومعنى ذلك ان البطالمة الأوائل كانوا يستشعرون الحاجة أولا الى الاغريق لا لبناء جيوشهم وأساطيلهم فحسب ، بل أيضا لاعادة تنظيم شئون البلاد الادارية والاقتصادية ، فقد كانت تتوافر لديهم رؤوس الأموال وكذلك الخبرة بأحدث الأساليب الاقتصادية ونظم التجارة السائدة في عالم البحر الأبيض المتوسط . وثانيا الى السيطرة على الطرق البحرية لحماية مصر وتنشيط تجارتها الخارجية . فلا عجب ان اعتبر بطلميوس الأول وخلفاؤه سيادة بحر ايجه عماد كيانهم السياسي ومصدر قوتهم وأساس استقلالهم .

وازاء كل هذه العوامل نرى ان بطلميوس الأول حين كان معنيا بالفوز باستقلاله لم بالذود عنه قد : (١) استولى على برقة لحماية حدود مصر الغربية ، (٢) استولى على جوف سوريا (فلسطين وفينيقيا وجزء من سوريا) وقبرص وبعض الأقاليم الواقعة على شواطىء

آسيا الصغرى الجنوبية وذلك لحماية حدود مصر الشرقية والحصول على المعادن والأخشاب التي يفتقر اليها وادي النيل ، والسيطرة على بعض منافذ الطرق التجارية الآتية من الشرق الأقصى ، وضمان سيادة مصر في بحر ايجه . و (٣) سبق الدول الحديثة الى الاتجار بالحرية فانه تحت ستار انقاذ عصبة بحر ايجة من ربقة انتيجونوس ، طرد حاميات انتيجونوس من عصبة الجزر ووضع مكانها حاميات بطلمية للذود عن « الحرية الاغريقية » ، ثم سارع الى بلاد البلوبونيز فوضع حاميات بطلمية في سكيون وكورنثا حماية للحرية الاغريقية من أعدائها الظالمين ! ولا شك في أنه لم يهدف من وراء ذلك الا الى الفوز بسيادة بحر ايجة وكسب عطف الاغريق فيسيطر على الطرق التجارية في العالم القديم ويحصل من العالم الاغريقي على ما يحتاج اليه من الرجال ورؤوس الأموال .

ويجب أن نلاحظ أن السيطرة على عصبة جزر بحر ايجة كانت لا تكسب البطالمة الا سيطرة جزئية اقتصادية وسياسية على بحر ايجة ، وان استكمال السيطرة على هذا البحر كان يقتضي فرض حماية مصر على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية وكذلك الاستيلاء على موانى فلسطين وفينيقيا وقد شيد بطلميوس الأول جانبا مهما من هذه الامبراطورية وترك لخلفائه استكمال بنائها الا أن السياسة التي وضع هو أساسها لم يحد عنها أحد من خلفائه الأوائل .

وهكذا يتضح لنا انه على عهد بطلميوس الأول اتجهت سياسة مصر الخارجية اتجاها جديدا لم يكن لها به عهد من قبل ، فقد غدت الجبهة الأوروبية أو ان شئت الجبهة الأوربية الشرقية أو الجبهة الشمالية محور نشاطها الرئيسي . وقد أفضت الظروف الى اتجاه جديد آخر كان نحو آسيا . حقا ان الجبهة الآسيوية كانت منذ أمد بعيد موضع اهتمام مصر لكن آسيا الصغرى لم تكتسب قبلا من الأهمية في هذه الجبهة مثل ما اكتسبت تكتسبه منذ أيام بطلميوس الأول . وفضلا عن ذلك فان الاتجاه الآسيوي لم يكن يوما وثيق الاتصال بالاتجاه الأوربي للسياسة المصرية على النحو الذي نراه منذ بداية عهد البطالمة .

وعندما ارتقى عرش مصر بطلميوس الثاني كانت دولته أقوى دولة في العالم الهيلينستي . وكانت تليها دولة السليوكيين وكانت تشمل ولايات امبراطورية الاسكندر في بلاد ما بين النهرين وأغلب الولايات الشرقية البعيدة وجانبا كبيرا من آسيا الصغرى وسوريا (فيما عدا جوف سوريا) . وكانت الدولة الثالثة هي مقدونيا وكانت تسيطر على بعض المدن الاغريقية في شبه جزيرة البلقان . وقد عنى بطلميوس الثاني أولا بدعم حدود مصر الغربية ، وثانيا بارسال حملة تأديبية الى قبائل النبط في البتراء ، واخضاع الأدوميين والبحر الميت وشرق

الأردن . وذلك لضمان الحصول على التجارة الشرقية القادمة بطريق البحر الأحمر وبلاد العرب . ويتصل بالهدف نفسه اهتمامه بالطرق التى تربط وادى النيل بالبحر الأحمر . وثالثا وطد حدود مصر الجنوبية واهتم بطرق أعالى النيل . ورابعا دعم سلطان مصر فى جنوب سوريا . وخامسا استرد ممتلكات مصر على شاطىء آسيا الصغرى الجنوبى التى كان أبوه قد فقدها فى عام ٣٠٦ وأضاف اليها ممتلكات جديدة هناك ، وعلى شاطىء آسيا الصغرى الغربى. وسادسا بسط نفوذه على كريت وثبت سلطانه على عصبة جزر بحر ايجة .

وهكذا يبين أن الاتجاهين الجديدين اللذين ظهرا فى أفق السياسة المصرية على عهد بطلميوس الأول قد استمرا مسيطرين على هذه السياسة فى عهد بطلميوس الثانى أيضا . بل لعل سيطرتهما قد ازدادت قدرا ما فى عهد بطلميوس الثانى على نحو ما يتضح من اتساع نطاق فتوحه فى بحر ايجة وعلى شواطىء آسيا الصغرى . لكن لعهد بطلميوس الثانى ميزة خاصة ، ففى عهده بدأ اتجاه



رأس تمثال من المرمر لبطلميوس الثالث .



رأس من المرمر يظن أنها تصور برنيكى الثانية زوجة بطلميوس الثالث .

جديد كل الجدة في سياسة مصر الخارجية . وبيان ذلك أن مصر في عهد هذا الملك كانت أول دولة هيلينستية أنشأت علاقات سياسية مع روما ، ففي عام ٢٧٣ ق . م . أرسل بطلميوس الثاني بعثة الى روما نجحت في عقد اتفاق بين الدولتين . ويبدو أن هذا العمل كان جزءا من سياسة عامة انتهجها بطلميوس الثاني مع الدول الغربية ، إذ تنهض الأدلة على وجود علاقات قوية حوالي ذات الوقت بين مصر وسيراكوز أعظم دولة في صقلية وكذلك بين مصر وقرطجنة . ومن المحتمل أن الدوافع التي أملت على بطلميوس الثاني سياسته الغربية كانت دوافع اقتصادية قبل كل شيء لأن الأسواق الغربية كانت تستطيع المساهمة بقدر كبير في رخاء مملكته .

ان السياسة الخارجية التي وضع بطلميوس الأول أساسها وسار بطلميوس الثاني على نهجها أصبحت سياسة تقليدية لدى ملوك البطالمة الأوائل . وآية ذلك أن بطلميوس الثالث أيضا لم يكد يرتقي العرش حتى وضع نصب عينيه تحقيق هذه الأهداف نفسها والوصول بها الى نتيجتها المنطقية . فهو لم يستعد فقط الممتلكات التي فقدتها مصر أيام أبيه على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والغربية بل أضاف اليها أملاكا أخرى على تلك الشواطئ وكذلك على شاطئ الدردنيل وفي غاليبولي وتراقيا . أما الحملة التي قام بها بطلميوس الثالث حتى سليوكيا على نهر الدجلة في مستهل حكمه — عندما توفى أنطيوخوس الثاني ملك سوريا ونشب خلاف عنيف بين زوجه الأولى لاوديكي وزوجه الثانية برينيكي شقيقة ملك مصر — فانها لم تكن الا في سبيل نصرة أخته والدفاع عن حقوق ابنها ، فهو لم يحاول منذئذ الاحتفاظ بالفتوحات التي تمخضت عنها هذه الحملة كما أنه لم يحاول فيما بعد استغلال الأزمات التي قلقلت أوصال امبراطورية السليوكيين لتوسيع رقعة امبراطوريته داخل آسيا ، مع أن الفرصة كانت مواتية له اذ ذاك لاقتطاع ما يشاء من الولايات الشرقية في تلك الامبراطورية . ولا جدال في أن امبراطورية البطالمة قد وصلت في عهد بطلميوس الثالث الى أقصى اتساعها ولا في أن هذه الامبراطورية كانت امبراطورية بحرية . أما فكرة تكوين امبراطورية عالمية فانها كانت بعيدة عن أذهان البطالمة لأنها حتى اذا كان من الميسور تحقيقها فانه لم يكن من الميسور المحافظة عليها . وجملة القول ان بطلميوس الثالث اقتفى بدقة خطوات أبيه في اتجاهات السياسة الخارجية نحو الشمال والشرق والغرب .

٣ — بداية النهاية

وعندما ارتقى بطلميوس الرابع عرش مصر وأطلق العنان لشهواته الجامحة ، اعتقد أنطيوخوس الثالث أن الفرصة قد سنحت لسلب مصر جوف سوريا ، غير أنه عندما تهيأ

لتحقيق ذلك ترك بطلميوس عبثه ومجونه وهب للدفاع عن امبراطوريته . ومن اجل ذلك اعاد تنظيم الجيش وادمج للمرة الأولى في قواته المحاربة عددا كبيرا من المصريين دربهم وسلحهم وفقا لأصول فنون الحرب الحديثة فكان لهم الفضل الأكبر في الانتصار في موقعة رفح في عام ٢١٧ ق . م . ولما كان جيش انطيوخوس يتكون من الاغريق والمقدونيين الذين كانوا يعتبرون سادة فنون القتال في ذلك العصر ، فان النصر الذي احرزه المصريون في هذه المعركة ينهض دليلا على أن الجندي المصري لا ينقصه الا التدريب والسلاح لاثبات كفايته في ميدان القتال ، اعاد الى المصريين ثقتهم بأنفسهم وحفزهم على القيام في وجه حكامهم الطغاة الذين أوسعوهم ظلما وارهاقا .

ويتضح مما أسلفناه انه كان للسياسة الخارجية التي اتبعها البطالمة الثلاثة الأوائل هدفان رئيسيان وهما : استقلال مصر استقلالا تاما سياسيا واقتصاديا ، والتمتع بأكبر قسط من السيطرة على عالم بحر ايجة . وقد نجح أولئك البطالمة والى حد بعيد في تحقيق هذين الهدفين ، وكان لسياستهم الخارجية اول الأمر جبهتان رئيسيتان احداهما في الشمال والأخرى في الشرق ثم اصبحت لها جبهة ثالثة في الغرب . أما منذ منتصف عهد بطلميوس الرابع فان مصر لم تحاول الا تحقيق الهدف الأول ، اذ أنها اضطرت تدريجيا الى طرح تحقيق الهدف الثاني جانبا ازاء ضغط ثلاث قوى فتية وثابة وهي روما وفيليب الخامس وانطيوخوس الثالث ، وازاء الضعف الكامن في البطالمة الأواخر وفي رجالهم الذين القيت اليهم مقاليد التحكم ، وازاء الثورات المصرية الخطيرة التي كانت تكاد لا تنقطع منذ عودة المصريين مظفرين من معركة رفح ، وأخيرا ازاء الخلافات العنيفة بين أفراد أسرة البطالمة منذ عهد بطلميوس السادس .

فلا عجب أن اتفق المؤرخون على اعتبار موقعة رفح حدا فاصلا بين العهد الذي بلغت فيه دولة البطالمة أقصى اتساعها وأوج مجدها ، والعهد الذي أخذت فيه عوامل الضعف والاضمحلال تدب اليها حتى سقطت هيبتها وذهبت سطوتها ففقدت املاكها في الخارج وتزعزع سلطانها في الداخل ، وأصبحت تتناوبها الغزوات والثورات الى أن انتهى بها الأمر الى افول نجمها وزوال استقلالها .

زوال امبراطورية البطالمة

وقد أثار مخاوف مصر الكباب أنطيوخوس الثالث على لمّ شمل امبراطوريته وتوسيع رقعتها ، فعملت مصر على التقرب من مقدونيا وروما ، لكن اضطرابات مصر الداخلية وخور عزيمة حكامها وفساده شجعت اصحاب المطامع ، أعداءها منهم والحلفاء ، فان فيليب الخامس ملك مقدونيا وسيد مصر اتفق مع عدوها اللدود

أنطيوخوس الثالث عـلى اقتسام ممتلكاتها الخارجية . وهكذا سرعان ما فقدت مصر ممتلكاتها الخارجية ولم يبق لها منها سوى قبرص وبرقة . وقد أفزعت روما أطماع فيليب وأنطيوخوس ، ولذلك فانها ما كادت تخـرج في عام ٢٠٢ ق . م . منتصرة من صراعها مع قرطجنة حتى اشتبكت مع فيليب ثم مع أنطيوخوس وهزمتهما ، الأول في عام ١٩٧ والثـاني في عام ١٨٩ ، وذلك بحجة الدفاع عن حرية الاغريق وأملاك بطلميوس المسلوبة .

٤ — وقد مهدت الأحداث السبيل أمام روما لبسط سلطانها الفعلي على مصر وان احتفظت مصر باستقلالها الاسمي . ويعـزى تغلغل النفوذ الروماني في مصر الى عاملين : أحدهما الأخطار الخارجية التي استهدفت لها مصر ولا سيما من ناحية السـليوكيين فانهـا ما كادت تخلص من مخاطـر أنطيوخوس الثالث حتى أقدم أنطيوخوس الرابع عـلى الاستيلاء على قبرص وغزو مصر نفسها مرتين ولم ينقذها من براثنه الا تدخل روما التي أرغمته على الانسحاب من مصر ورد قبرص اليها . والعامل الآخر هو استحكام النزاع بين بطلميوس السادس وأخيه الأصـغـر بطلميوس السابع واتخاذهما روما فيصـــلا وحكما في هذا النزاع الدموي الذي استغلته روما الى أقصى حد لتحقيق أغراضها . وبرغم هـذه الأحداث الداخلية الجسيمة وكابوس النفوذ الروماني الثقيل ، فان مصر لم تنس جوف ســـوريا وحاولت مرارا اسـتغلال الاضطرابات التي كانت تقطع أوصـــــال امبراطورية السـليوكيين لاستعادة ذلك الجزء الجميل من ممتلكاتها السابقة ، لكنها باءت بالفشل . ولم تلبث أن فقدت أيضا برقة ، اذ أن بطلميوس الثامن ايوارجيتيس الثاني كان قد نزل عنها لابنه غير الشرعي بطلميوس أبيون وهذا أورثها لروما في عام ٩٦ ق . م .

٥ — صحوة الموت

وحين بدا محققا ان أسرة البطالمة ستزول في ظرف ستين قلائل كما زالت من قبـل أسرة السـليوكيين ، شـاء القدر أن تشرق شمس البطالمة من جديد اشراقا يخطف الأبصار قبل أن تغيب الى الأبد . وبيان ذلك أن ارتقت عرش مصر عندئذ فتاة موهوبة تمكنت من اسـتخدام قوة روما لتنفيـذ أغراضها حتى كادت أن تجني من وراء ذلك امبراطـورية عاتية . فقد سيطرت كليوبترة أولا عـلى يوليوس قيصر الى حد انه أصبح مؤكدا انه عندما يقيم نفسـه ملكا على روما سيعلن زواجه منها رسميا فتشاركه سلطانه الواسع . لكن نبلاء الرومان لم يلبثوا أن أجهزوا على آمال كليوبترة عنـدما أجـهـزوا على قيصر في عام ٤٤ ق . م .

ومع ذلك لم تلبث كليوبترة أن أوقعت في شباكها مارك أنطونيوس حين أصـبـح الحــــاكم المطلق في النصف الشرقي من

الامبراطورية الرومانية . وقد وضــــع أنطونيوس نفسه وكل ما يملك تحت امــرة كليوبترة ، فانه تزوجهــا وقسم بينها وبين أولادها كل الولايات الرومانية في آسيا ولما لم تقنع كليوبترة بالنصف الشرقي في العالم الرومانى فانها دفعت أنطونيوس لمنازلة أوكتافيوس من أجل الفوز بالنصف الغربي أيضا وحكم العالم الرومانى بأجمعه . وهكذا بدا لكليوبترة بعد عشر سنين من تبــديد أحــلامها بمقتل قيصر أنهــا اصبحت قاب قوسين أو أدنى من أن تصـبح امبراطورة العالم . لكنه لم يكن مقدرا لها أن تحقق أحلامها فقد بدد أوكتافيوس تلك الأحــلام بانتصاره في موقعة اكتيوم (عام ٣١ ق. م.) ودخوله الاسكندرية في العام التالي وضمه مصر الى حظيرة الامبراطورية الرومانية .

ولابد من أن يستوقف النظر فيما قدمناه أن البطالمة لم يولــوا الجبهة الجنوبية من عنايتهم قدر ما أولاها الفراعنة منــذ أقدم العصور . وقد كان ذلك أمرا طبيعيا بالنسبة للبطالمة الأواخر الذين اكتنفتهم المخاطر من كل جانب حتى شلت حركتهم . فكيف نفسر ذلك بالنسـبة للبطالمة الفاتحين ملوك الأسرة الأوائل ؟ لقــد عرفنــا ان البطالمة الأوائل انصرفوا بوجه عــام الى تكوين امبراطورية بحرية حول شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقية مدفوعين الى ذلك بعدة عوامل أهمها ظروف النضال مع خلفــاء الاسكندر الأكبر على اقتسام الامبراطورية المقدونية ، وطبيعة أصلهم ونشأتهم ، وما بينهم وبين الاغريق من الوشائج حتى انهم جعلوا اعتمادهم على الاغريق في تشييد صرح دولتهم ، وتقديرهم ان امبراطوريه تتألف من أقاليم تمت بصلة الى الحضارة الاغريقية وتقع بالقرب من مراكز هذه الحضارة تكون أبقى على الدهر وأجدى عليهم وخير نصير لهــم في تحقيق ما كانوا يهدفون اليه من لعب الدور الأول في سياسة البحر الأبيض المتوسط الدولية .

ولا ريب في أن البطالمة قد استشعروا أن مكانتهم الدوليــة — في عــالم تعتبر فيه الحضارة الاغريقية أرقى الحضارات طرا — كانت تتوقف الى حد كبير على ظهورهم في ثوب رافعي لواء الحضارة الاغريقية بخلع مسحة ولو ظاهرية من هذه الحضارة عــلى دولتهم . واذا تصوروا ان ذلك كان أمــرا ميسورا فيما يخص مصر فيبدو انهم اعتقدوا انه كان ضربا من المحــال فيما يخص كل وادى النيل . ولعل البطالمة أن يكونوا قد قدروا ان تحقيق وحدة وادى النيــل كان من الممكن ان يحمل في طياته خطرا داهمــا عليهم باعتبارهم ملوكا اغريقا أخرجوا من أفق تفكيرهم بناء دولة قومية وذلك لأن وحــدة الوادى بما تنطوى عليه من احياء ســيرة الفراعنة العظام ومجد وادى النيل القديم قد تفضى الى بعث أمة وادى النيل من جديد ، فيتلاشى في أرجاء بلادها الفسيحة رســل الحضارة الاغريقية ولا يلبث أن يرتقى فرعون

وطنى عرش وادى النيل . ومن ثم فان البطالمة بوجه عام اكتفوا بالمحافظة على سلامة حدود مصر الجنوبية وعقد أواصر الصداقة مـع جنوب الوادى والاهتمام بتجارة الجنـوب والشرق .

ويتضح لنا من كل ما مر بنا انه ازاء الظـروف التى اكتنفت البـطالمة اتخذت سياستهم الخارجية وجهات جديدة صـوب الشمال والشرق والغرب ، فقد قدروا انه كان بمكنهم الاستغناء عن وحدة وادى النيـل بامبراطوريتهم البحرية وبالعلاقات التجارية التى أنشأوها مع الغرب وكذلك مع الجنوب والشرق . لكن يبين ان التوفيق قد أخطأهم فى هذا التقدير ، فمن ناحية كلفهم انشاء هذه الامبراطورية جهـودا مضنية وأموالا طائلة ودفعهم الى ممالأة الاغريق عـلى حساب المصريين واستنزاف موارد البلاد واستثارة عداء الكثيرين عليهم .

ومن ناحية أخرى عندما اشـتد ساعد منافسيهم وأخذت روما تـنمو باطراد فى شرق البحر المتوسـط فقد البطالمة امبراطوريتهم البحرية ولم يجدوا فى داخل دولتهم عضـدا كافيا حتى للاحتفاظ بملكهم من العـدوان الخارجى . وهـكذا استنفد البطـالمة قوتهم وأضاعوا ثروتهم فالتهمت روما دولتهم .

الفصل الثاني — إدارة الحكم

السلطة المركزية — المدن الاغريقية — السلطة المحلية — قوات البطالمة

أولا — السلطة المركزية

١ — الملك

منذ انتصر بطلميوس الأول على برديكاس اعتبر البطالمة مصر ضيعة آلت اليهم بحق الفتح ، لكن لكي يكون سلطانهم دائماً وسيادتهم راسخة استغلوا المعتقدات الدينية السائدة بين رعاياهم ونصبوا أنفسهم آلهة لهم ، وبذلك أصبح سلطانهم لا يستند الى حق الفتح فحسب بل أيضا الى حق الملوك الالهي . فلا عجب ان الملك بطلميوس كان يعتبر صاحب مصر وسيد رعيته المطلق . فقد كان على رأس الأداة الحكومية وكبير القضاة والقائد الأعلى للجيش والأسطول ومصدر القوانين التي يخضع لها جميع سكان البلاد والدساتير التي تعيش في كنفها المدن الاغريقية وكذلك الجاليات الأجنبية التي تكونت خارج تلك المدن .

٢ — الوزراء

ولما كان يتعذر على الملك أن يباشر بنفسه كل السلطات التي يتمتع بها فانه كان يعتمد على مساعدة عدد من الشخصيات الكبيرة . وكان الملك يختار أغلب مساعديه الرئيسيين من بطانته التي تكون أفرادها على مضي الزمن بلاطا ينقسم طبقات يميز كل منها عن الآخر ألقاب فخرية . ولما كان أول هم للملك هو أن تفيض عليه ضيعته بالبركات ، فقد كان وزير المالية أخطر مساعدي الملك شأنا وأوسعهم نفوذا الى حد أنه كان يكاد يسيطر سيطرة تامة على كل نواحي الحياة العامة في البلاد . وكان هـذا الوزير الخطير يدعى ديويكيتس Dioiketes — وهو لقب يحمل معنى « مدير الضيعة » ولذلك يتخذه العلماء دلالة واضحة على أن البطالمة كانوا يعتبرون مصر ضيعتهم الخاصة .

وليضمن الملك استدرار الخيرات من ضيعته كان يجب أن يولي اهتمامه لتصريف العدالة حتى يستتب الأمن وينصرف الناس الى مزاولة أعمالهم ، ولذلك فان الموظف الكبير الذي يدعى أرخديكاستس Archidicastes ، ومعناه كبير القضاة يعتبر المساعد الثاني للملك .

وعلى عهد البطالمة الأوائل الذين وجهوا عناية كبيرة الى النهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها على نحو لم يسبق له مثيل كان يوجد وزير للأشغال Architecton

كانت مهمته تحسين نظم الري وصيانة وسائله ويرجح انه كان يوجد كذلك وزير للحرب يقوم بالاشراف على تجنيد الجيوش ودفع مرتبات الجنود ومنح الاقطاعات .

ولما كان الملك مصدر جميع السلطات والمرجع الأول والأخير في تنفيذ القوانين ، تستمد منه السلطات المركزية والمحلية نفوذها واليه شخصيا كان يتوجه فيض الشكاوى والالتماسات ومنه شخصيا كان يصدر سيل من الأوامر ، فقد كانت له سكرتيرية خاصة كانت تنقسم قسمين يختص أحدهما بشئون مراسلات الملك ، ويختص القسم الآخر بالأوامر وفيما يظن أيضا بالتوقيع على الشكاوى المرفوعة الى الملك .

وبطبيعة الحال كان يتعذر على الملك وسكرتيريته ووزرائه النهوض بشئون حكم وضعت له نظم دقيقة معقدة في بلاد غنية متحضرة دون الاستعانة بهيئة كبيرة من الموظفين المدربين . ويعتبر من أعظم أعمال البطالمة نجاحهم في انشاء هذه الأداة الحكومية الدقيقة في بلد أجنبي من عناصر لم تتوافر فيها المؤهلات اللازمة لمثل هذا العمل . ولا شك في أن هذه الأداة الحكومية كانت الى حد ما من تراث الماضي لكنها غدت في مجموعها أداة اغريقية منظمة تنظيما دقيقا ، ويتألف رؤساؤها ومديرو مصالحها المختلفة وأقسامها المتعددة من اغريق لم يسعفهم ماضيهم للاضطلاع بمثل هذه الأعمال

المعقدة . واذا كان التوفيق قد حالف هذه الأداة الحكومية على عهد البطالمة الأوائل فانها فسدت في الشق الثاني من عصر البطالمة وأصبح كل همها ارهاق الأهالي وابتزاز أموالهم . غير أن مرد ذلك ليس الى عيوب في تصميم الأداة الحكومية ذاتها وانما الى الظروف التي كانت تعمل فيها والأهداف التي وجهت اليها .

ثانيا ــ المدن الاغريقية

وقد كانت في مصر البطلمية ثلاث مدن اغريقية ، وهي الاسكندرية وقراطيس وبطوليميس . وبالرغم من انشاء هذه المدن في مماكة يقوم على رأسها ملك مستبد مطلق السلطة ، ووسط مدن مصرية تخضع لهذا الملك وموظفيه خضوعا تاما وليس لها أي رأي في حكم نفسها ، فان المدن الاغريقية وان شاركت المدن المصرية في خضوعها للملك وذلك بوصفه الها لأنه لم يكن لسلطان الآلهة حد ، وفقدت تبعا لذلك سيادتها ، فانها لم تفقد حق ادارة نفسها بنفسها ، أو بعبارة أخرى حق تمتعها باستقلال ذاتي يعطي مواطنيها حق حكم أنفسهم .

وقد كان هذا الاستقلال الذاتي أهم فروق يميز المدينة الاغريقية عن المدينة المصرية والمواطن الاغريقي عن المواطن المصري ، فقد كان الاغريقي يرى أنه يعيش في مدن ويشترك في حكم الجماعة التي ينتمي اليها ، أما المصري وغيره من الشرقيين فانهم في نظره كانوا

لا يعيشون الا فى قرى لأنه مهما كان اتساع مواطنهم ومهما جاورت هذه المواطن المدن الاغريقية فانها لم تتمتع بأى نوع من أنواع الاستقلال وانما كانت تخضع لأى حاكم موفد من قبل السلطة المركزية . واذا كان انشاء المدن الاغريقية فى مصر لم يؤد الى أى تأثير فى نظم المدن المصرية فان نظم هـذه المدن الاغريقية كذلك لم تتأثر نتيجة لوجودها الى جانب المدن المصريه . واذا قيل ان مدن مصر الاغريقية لم تكن دولا ذات سيادة فانه يمكن الرد بأن ذلك لم يكن خاصة انفردت بهـا مدن مصر الاغريقية فقد كان شأنها شأن كافة المدن الاغريقية التى قامت فى الممالك التى أنشئت على أنقاض الامبراطورية المقدونية .

وقد كان انشاء المدن الاغريقية فى مصر أمرا ضروريا ، لأن الاغريق تشبعوا بالفكرة القائلة بأن المدينة هى البيئة الأساسية لحياتهم العامة ، وانتظام الطبيعى الوحيـد الذى يستطيع أن يعيش فى كنفه الرجال الأحرار ، لأن نظم المدينة الحرة كانت تكفل لمواطنيها حرية القول والرأى والعمل وتبيح لهم المشاركة فى ادارة دفة شئونها وتوفر لهم من أسباب الحياة ما هو خليق بانسان يحترم نفسه وجدير بالاستمتاع بحياته . فلاعجب ان كان الاغريق ينشئون مدينة لانفسهم حيثما نزلوا فى مكان واتخذوه مستقرا دائما لهم .

١ ــ الاسكندرية

وهى أول مدينـة نعرف عن يقين ان الاسكندر قد أنشأها فى خلال حملته . ولعل الاسكندر أن يكون قد توخى من وراء تشييد الاسكندريه ثلاثة أهداف : أحدها انشاء مدينة اغريقية تكون مصدرا لاشعاع الحضارة الاغريقية بين ربوع مصر ، وثانيها أن تخلف هذه المدينه صور فى العالم التجارى ولا سيما ان مصر برغم ازدياد علاقاتها مع العالم الاغريقى ازديادا مطردا لم يكن لهـا على شواطئه البحر الأبيض المتوسط ميناء جدير بها ، وثالثها اقامة قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر ايجه وشرق البحر الأبيض المتوسط .

وقد جعل بطلميوس الأول مقره فى منف الى أن اطمأن ، بعد انتصاره فى عام ٣١٢ على ديمتريوس ، الى قدرته على الدفاع عن شواطىء مصر الشماليه . وعندئذ نقل مقره الى الاسكندريه التى أصبحت منـذ ذلك الوقت مقر البلاط وعاصمة مصر . وسرعان ما غدت الاسكندرية أكبر مدينه اغريقيه فى العالم تفوق فى اتساعها أكبر المدن الاغريقية القديمة ، وغدت كذلك فى طليعة عواصم الحضارة الاغريقية ونالت مخلفة بمكان الصدارة طوال القرنين الثالث والثانى قبـل الميلاد الى حد أن حضـارة هذين القرنين عرفت باسم « حضارة الاسكندرية » . واذا كان ما كشفت الحفريات عنه لا يمكن ان يصور حقيقة ما كانت عليه هذه المدينة فى عصرها الزاهر ، لأن أكثر معـالم المدينة

القديمة لا يزال مطمورا تحت مباني المدينة الحديثة فاننا نستطيع أن نتبين مما كتبه شعراء القرن الثالث انهم كانوا يعتبرونها أعظم مدينة في العالم حيث تتوافر كل نعم الحياة ومباهجها . وحسبنا أن نستشهد بما أورده هيرونداس Herodas على لسان امرأة عجوز تتحدث الى شابة رحل عنها زوجها الى الاسكندرية : « لقد انقضت عشرة شهور منذ سافر ماندريس Mandris الى مصر لكنه لم يرسل اليك كلمة واحدة . ولا شك في أنه قد نسيك وانتهل من معين سرور آخر ! مصر ! (يقصد الاسكندرية) هناك حيث يوجد معبد الالهة (ارسينوى) وكل شيء يمكن وجوده في أي مكان آخر : ثراء وملاعب ومجد وراحة وعظمة ومباهج وفلاسفة وذهب وشبان وملك كريم ودار العلم وخمر وكل الأشياء الطيبة التي يمكن أن تتوق اليها النفس ، ونساء يفقن في عددهن ويضارعن في جمالهن الالهات اللائي احتكمن الى باريس » .

ويبدو ان الاسكندر قد اختار المكان الذى شيدت عليه الاسكندرية لبعده عن رواسب فرع النيل الكانوبي ، ولسهولة وصول مياه الشرب اليه وقرب بحيرة مريوط وجزيرة فاروس منه ، فقد كانت البحيرة تتصل بالنيل وتهيء للمدينة ميناء يربطها بداخلية البلاد ، كما أنه بمد جسر من الجزيرة الى الشاطيء يصبح للمدينة مرفآن على البحر ، هما الميناء الكبير والميناء الغربي ، وكان يمكن استخدام أيهما تبعا لهبوب الريح.

وقد وضع تخطيط الاسكندرية المهندس الرودسى دينوكراتس وفقا لأحدث قواعد فن تخطيط المدن . وكانت المدينة مستطيلة الشكل يمتد جانباها الطويلان في محاذاة البحر من ناحية وبحيرة مريوط من ناحية أخرى . وكانت تشق المدينة شوارع تتقاطع عموديا مع بعضها بعضا موازية بوجه عام الشارعين الرئيسين فيها ، وكان أحدهما يمتد من باب كانوب (أبو قير) في الشمال الشرقي الى باب الغرب في الجنوب الغربي . أما الآخر فكان يجري من باب الشمس عند بحيرة مريوط في الجنوب الشرقي الى باب القمر شرقي جسر الهبتاستاديوم الذى أنشيء لربط جزيرة فاروس بالبر .

وقد كانت المدينة تتألف من خمسة أحياء أطلق على كل منها اسم حرف من حروف الهجاء الاغريقية الخمسة الأولى . وكان أهم هذه الأحياء جميعا هو حي القصور الملكية وكان يشغل ربع مساحة المدينة أو ثلثها تقريبا ويطل على الميناء الكبير ويمتد حتى شارع كانوب ويحتوي أهم معالم العاصمة ، فقد كانت توجد فيه القصور الملكية ودار العلم والمكتبة والجيمنازيوم والمحكمة ومدافن الاسكندر الأكبر والبطالمة . أما مضمار

سباق الخيل وساحة الألعاب فاصبا كانا يقعان في أطراف المدينة ، أولهما في الناحية الشرقية ، وثانيهما في الناحية الجنوبية الغربية ، في حي راكوتيس حيث أقيم معبد السيرابيوم .

وفي مواجهة حي القصور الملكية وعلى صخرة شرقي جزيرة فاروس شيدت منارة الاسكندرية المشهورة التي كانت احدى عجائب العالم القديم . وبرغم اندثار معالم هذا البناء الشامخ منذ عدة قرون فانه بفضل نتائج الأبحاث الحديثة تستطيع أن تكون فكرة تكاد أن تكون تامة عن هذه المنارة .

ولقد كان يربط الجزيرة بصخرة المنارة جسر مائل يرتفع رويدا رويدا ويقوم على ستة عشر قوسا ويبلغ طوله ٦٨ مترا تقريبا . وشيد حول القسم الأول من المنارة ، لحمايته من طغيان البحر ، سور ضخم يبدو انه كان يحيط بكل جوانبه من الخارج افريز لا يشرف عرضه . وفي الوسط داخل هذا السور أقيمت المنارة نفسها ، وكانت تتألف من ثلاثة أقسام يعلوها المصباح . وكان القسم الأول رباعي والثاني ثماني والثالث اسطواني الشكل . أما المصباح فانه كان يتكون من ثمانية أعمدة تظلها قبة أقيم عليها تمثال يبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار تقريبا ، يرجح أنه كان تمثال يوسيدون اله البحار . وقد بنيت المنارة من الحجر وزخرفت بلوحات منحوتة من المرمر والبرونز .

واذا كان كليومنيس النقراطيسي هو أول من بدأ في تشييد الاسكندرية فانه كان لبطلميوس الأول والثاني أكبر نصيب في ذلك حتى ليبدو أنه في عهد بطلميوس الثاني كانت المدينة قد استكملت أهم المظاهر التي اشتهرت بها في عصر البطالمة والرومان . ومع ذلك فان كل البطالمة تقريبا قد أسهموا في تجميل الاسكندرية .

ولم يتألف سكان الاسكندرية منذ فجر تاريخها من الاغريق والمقدونيين فقط ، اذ أن هذه المدينة بما توافر فيها من أسباب الكسب والحياة البهيجة الرغدة بوصفها عاصمة البطالمة وثغرا مهما ومركزا صناعيا كبيرا جذبت اليها الناس من كل فج وغدا سكانها سريعا خليطا عجيبا من مختلف الأمم مما جعل استرابون يصفها بأنها « خزان عام » . واذا كان من العسير تتبع ما مر بسكان الاسكندرية من تطورات فانه يمكن الجزم على الأقل بأمرين : أحدهما انهم كانوا مجموعة جاليات من أجناس مختلفة يستمتع بعضها بقدر من الاستقلال الذاتي . ولعل هذا هو ما حدا بالفيلسوف فيلون الى القول بأن الاسكندرية « عدة مدن داخل مدينة واحدة » ، والأمر الآخر انهم كانوا ينقسمون دائما طبقات تأتي في مقدمتها : طبقة المواطنين ، وكانت تتألف من أفراد أقدم الأسر الاغريقية وأعظمها شأنا ، وكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة . ومثل ما كانت الحال في أكثر المدن الاغريقية كان المواطنون ينقسمون قبائل وأحياء ووحدات .



لوحة من الفسيفساء وجدت في الدلتا والآن في متحف الاسكندرية ، وهي تصور الاسكندرية بوصفها سيدة البحار . وقد صورت الاسكندرية في شكل سيدة ترتدي عباءة حربية وتزين رأسها بتاج بحري وتمسك في يدها اليسرى زينة مؤخر سفينة ٠

والرأي السائد اليوم أنه في عهد البطالمة الأوائل كان لطبقة المواطنين مجلس للشورى Boulé وجمعية شعبية ، لكن يبدو أنه في عهد أحد البطالمة الأواخر ألغيت هاتان المنظمتان اللتان كانتا تعتبران من أهم مظاهر الحياة العامة في المدن الاغريقية . ولما كانت الاسكندرية تتمتع باستقلالها الذاتي وكان الاستقلال السياسي يستتبع حتما وجود استقلال قضائي ، فانه كانت للاسكندرية محاكم مستقلة . وبوصف الاسكندرية مدينة مستقلة كان لها حكامها المحليون الذين ينتخبهم أفراد طبقة المواطنين .

٢ ـ نقراطيس

أما نقراطيس ، تلك المدينة الاغريقية القديمة التي تأسست في عهد ابسمتيك الأول فانها كانت شديدة الشبه في مظهرها الخارجي بأي بلد مصري ، فقد كانت تتألف من بيوت مبنية من اللبن على جوانب شبكة معقدة من الشوارع والأزقة . لكن نقراطيس مثل الاسكندرية وبطوليميس كانت تختلف عن المدن المصرية اختلافا بينا من الناحية السياسية اذ أن مدن مصر الأغريقية لم تخضع للسلطة المحلية ، وان لكل مدينة منها كيانها المستقل ودستورها الذي يكفل لمواطنيها حقوقا سياسية تمكنهم من الاشتراك في حكم مدينتهم وتحد من استبداد السلطة المركزية وممثلها . وتشير القرائن الى أن نقراطيس قد احتفظت في عصر البطالمة بنظمها بوصفها مدينة اغريقية حرة . ويسود الاعتقاد أن دستورها كان يشبه دستور مسيليا Massilia ويسار بمجلس أرستقراطي . وقد كان طبيعيا أن تتضاءل أهمية نقراطيس التجارية بعد تأسيس الاسكندرية لكن مخلفاتها الأثرية تدل على أنها كانت لا تزال مزدهرة في عصر البطالمة الذي احتفظت فيه كذلك بثقافتها الاغريقية وأنجبت عددا من أبرز رجال الأدب الاغريقي .

٣ ـ بطوليميس

أما بطوليميس التي أنشأها بطلميوس الأول غربي النيل في أقاصي الصعيد (المنشأة بالقرب من أخميم) لتكون مهدا للحضارة الاغريقية في الوجه القبلي ومركزا لمقاومة نفوذ العاصمة المصرية القديمة طيبة . فقد عفا عليها الزمن الى حد أنه يتعذر علينا الجزم اذا كانت تشبه نقراطيس أو الاسكندرية ، وان كان الأرجح أن مهندسي بطلميوس الأول اتخذوا من الاسكندرية نموذجا يحتذونه في تشييد بطوليميس .

ولا تدع الوثائق سبيلا الى الشك في أن بطوليميس كانت تنعم بكل النظم الدستورية المألوفة في المدن الاغريقية ، فقد كان لها مجلس شورى وجمعية شعبية ومحاكم مستقلة وحكام تنتخبهم هيئة المواطنين . وكان المواطنون ينقسمون قبائل وأحياء ووحدات وتتوافر لديهم ما كانوا يتمتعون به في بلادهم الأصلية من المعابد والملاعب والمسارح .

أخذ البطالمة عن الفراعنة نظام تقسيم البلاد الى مديريات ، فقسموا الدلتا ووادي النيل – فيما عدا المناطق التي خصصت للمدن الاغريقية – الى مديريات ، كان كل منها يؤلف وحدة ادارية منفصلة عن الأخرى واستحدث البطالمة من التعديلات في التفاصيل ما يضمن لهم حسن تطبيق هذا النظام والسيطرة على البلاد سيطرة تامة . ومن أمثلة ذلك انه حتى انتصح المقدوني كان يحكم كل مديرية مدير Nomarch لكن البطالمة لم يلبثوا أن اعتبروا كل مديرية منطقة عسكرية يسيطر عليها قائد Strategos أجنبي ومدير . ولما كان من اختصاص القائد الاشراف على شئون المنطقة العسكرية والمدنية جميعا ، فقد أصبح المدير مرءوسا للقائد وتضاءلت أهميته حتى لم يعد له في القرن الثاني قبل الميلاد نصيب في الادارة .

وكانت كل مديرية تنقسم الى عدد متفاوت من الأقاليم topoi . وكما كان لكل مديرية عاصمتها كذلك كان لكل اقليم عاصمة حيث تتركز ادارته ، وكان كل اقليم ينقسم الى عدد من القرى Komai ، كان لكل منها حاكمها الاداري epistates وممثلو الادارة المالية . وكان يشترك في ادارة شئون القرية جماعة من شيوخها كانوا يعرفون في خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد باسم شيوخ المزارعين أو شيوخ مزارعي الملك .

ويجدر بالملاحظة أولا أن مديرية الفيوم وكان ثلث سكانها من الاغريق ، قد اختصها البطالمة بنظم لم تعرفها بقية المديريات ، اذ كانت تنقسم ثلاثة أقسام merides على رأس كل قسم منها ابيستاتس . وحوالي منتصف القرن الثالث غيرت الأسماء الى توبارخيات ، والتوبارخيات الى أقاليم ، والأقاليم الى قرى . وثانيا ان المنطقة الممتدة من الحدود الجنوبية لمديرية هرموبوليس حتى أسوان كانت تعرف باسم منطقة طيبة ؛ وأنها منذ عهد بطلميوس الخامس وضعت تحت سلطة حاكم عام ، وذلك فضلا عن تقسيمها الى عدة مديريات أسندت ادارتها الى عدد من القواد كان لكل منهم نائبه على رأس كل مديرية تقع في دائرة اختصاصه . وثالثا ، ان بطلميوس الخامس ذهب الى حد اقامة حاكم عام على كل أقاليم مصر بسبب ما ساد البلاد من اضطراب . ومرد النقاء الاداري الذي انفردت به منطقة طيبة ويزيد فيه القيود والضوابط الى الثورات القومية التي اندلع لهيبها على عهد البطالمة الأواخر وكانت مدينة طيبة أهم معاقلها .

رابعا – قوات البطالمة

١ – الجيش

عرفنا أن مصر كانت جزءا من امبراطورية الاسكندر التي اقتسمها قواده بعد وفاته ، وأن بعض هؤلاء القواد أرادوا بسط سلطانهم على الولايات الأخرى ليمثوا تلك

الامبراطورية من جديد ، وأن بطلميوس الأول كان ينشد الاستقلال بمصر وبناء دولة قوية غنية فيها . ولذلك رأى هذا العاهل ضرورة تكوين جيش وأسطول قويين يمكنانه من الذود عن حياض مملكته ومن تحقيق أهدافه الخارجية

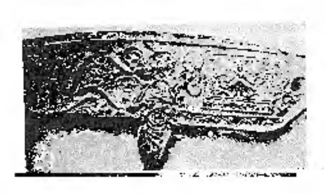
وقد اتخذ بطلميوس من القوات التى كان الاسكندر قد تركها فى مصر نواة لبناء قوات أكبر من ذلك وأعظم . واذا كنا لا نعرف كيفية تكوين الجيش البطلمى فاننا نعرف على الأقل انه بعد ما تم تكوينه كان يتألف من ثلاث فئات رئيسية وهى : الفرق النظامية والفرق المرتزقة والفرق المصرية . وتشير القرائن الى أن أكثر أفراد الفرق النظامية كانوا يجندون من مختلف أنحاء شبه جزيرة البلقان وجزر بحر ايجه . ومع ذلك فان هذه الفرق كانت تدعى مقدونية بسبب انها كانت فى الأصل كذلك . وبسبب اعتزاز البطالمة بأصلهم المقدونى ؛ ولا سيما ان الجيش كان يعتبر قبل كل شيء جيش الملك بطلميوس . وتدل الوثائق على أن الفرق النظامية كانت قسمين وهما فرق الفرسان وفرق المشاة ؛ وعلى أن فرق الفرسان كانت مرتبتين : أولاهما أرفع مكانة من الثانية . وقد كانت فرق المرتبة الأولى تميز بالأرقام ؛ أما فرق المرتبة الثانية فانها كانت تميز بحسب جنسية أفرادها . وكانت فرق المشاة النظامية تميز بالأرقام وتعتبر أقل مرتبة من فرق الفرسان النظامية وتكون قلب الجيش الى ما قبل معركة رفح فى عام ٢١٧ ق . م .

وكانت الفرق المرتزقة فى جيوش الاسكندر وخلفائه فئتين رئيسيتين . أما الفئة الأولى فتشمل تلك الفرق القومية التى كانت تحتفظ فى الجيش الذى تنضم اليه بملابسها وأسلحتها القومية وتدمج فى ذلك الجيش بسبب نوع السلاح الذى اشتهرت به . وكانت هذه الفئة تكون فرق مشاة خفيفة العدة وتعرف أحيانا باسم سلاحها وأحيانا باسم جنسيتها وأحيانا بالاسمين معا . أما الفئة الثانية فانها كانت تتكون من أولئك الجنود المرتزقة الذين كان يجندهم ضباط مرتزقة اما من بين مواطنيهم واما من أسواق الجنود المعروفة فى العالم الاغريقى . وكان يمكن استخدام جنود هذه الفئة مشاة أو فرسانا . واذا كان الجنود المرتزقة لا يتعاقدون فى الأصل الا على القيام بحملة واحدة ضد عدو معين فانه فيما يبدو أصبح بعض الجنود المرتزقة يكونون فرقا دائمة فى خدمة البطالمة .

وحين وفد بطلميوس على مصر وأخذ يشيد فيها صرح مملكته كانت لا تزال توجد تلك الطبقة الوراثية من المحاربين المصريين . ومن ناحية أخرى كانت تحت امرة مناضى البطالمة جيوش وأساطيل مؤلفة من خيرة جنود العصر وأعنى المقدونيين والاغريق ، الذين أثبتت حملات الاسكندر وخلفائه



نموذجان من العصر الحجري للمسكوكات المدورة عثر عليها بين اطلال منف (ميت رهينة) حيث وجدت نماذج مماثلة كثيرة .



جزء من الخوذة التي توجد الى اليسار في الصورة العليا - لاحظ تفاصيل الزخرفة .

تفوقهم على محاربين مماثلين كالفرس . فماذا فعل البطالمة ؟ لا شك فى أن البطالمة الثلاثة الأوائل اعتمدوا الى أقصى حد فى تكوين جيوشهم على المقدونيين والاغريق لتفتهم فى كفايتهم ، ولخوفهم من الا يخلص المصريون الطاعة لهم ، ولرغبتهم فى عدم استنفاض همة المصريين وانعاش روحهم القومية ، فالجيش فى كل دولة وفى كل عصر قلب الأمة النابض ، لكن لابد من أن أولئك البطالمة كانوا يخشون ايضا اغفال أمر الجنود المصريين كلية ، وذلك لكيلا ينشر أولئك الجنود روح التذمر فى البلاد . فكيف حل البطالمة الأوائل هذه المشكلة ؟ يبين ان البطالمة الثلاثة الأوائل لم يسرحوا العسكر المصرية لكنهم كانوا لا يعتمدون عليها فى القتال بل يعهدون الى بعضها بأعمال النقل وما أشبه ذلك من الأعمال الثانوية ويسلحون بعضها الآخر بالأسلحة الخفيفة أو بأسلحتها المصرية العتيقة استعدادا للطوارىء فى حالة الضرورة القصوى ، الى أن تهددت بطلميوس الرابع أزمة خطيرة فى وقت نضب فيه معين الرجال فى بلاد الاغريق ، ونقص فيه عدد الجنود الأجانب الذين كان البطالمة قد أنزلوهم فى مصر ، فاضطر بطلميوس الرابع ، لمواجهة هذه الأزمة ، الى تدريب المصريين وتسليحهم مثل الاغريق والمقدونيين وتكوين قلب الجيش منهم . ويحدثنا بوليبيوس بأن ما فعله بطلميوس الرابع كان عملا صائبا فيما يخص الحاضر لكنه كان بدعة خطيرة تهدد المستقبل . ووصف عمل بطلميوس الرابع بأنه بدعة يدل على أنه لم يسبقه الى ذلك أحد من البطالمة . والخطر الكامن فى هذه البدعة هو ان انتصار المصريين فى معركة رفح على قلب جيش أنطيوخوس المؤلف من الاغريق والمقدونيين أشعل روح الوطنية الكامن فى صدور المصريين وأعاد اليهم الثقة بأنفسهم فانتفضوا ثائرين على البطالمة .

واذا كان المصريون قد أدمجوا فى صلب الجيش على عهد بطلميوس الرابع فانهم كانوا يؤلفون فرقا مستقلة بهم واستمروا يكونون جزءا مستقلا من الجيش حتى نهاية أسرة البطالمة فيما يبدو . ولابد من أن ثورات المصريين على البطالمة الأواخر قد جعلت هؤلاء البطالمة يأسفون على بدعة بطلميوس الرابع ، وذلك لأنهم لم يعتمدوا ثانية على المصريين فى تكوين قلب الجيش ، لكنهم لم يجرأوا على اخراج المصريين من الجيش .

٢ ـ الاسطول

لما كان البطالمة الأوائل قد بنوا امبراطورية بحرية واسعة واحرزوا انتصارات بحرية كبيرة ، فلا سبيل الى الشك فى أنه كان لهم أسطول بحرى قوى ، لكن ليست لدينا معلومات عن كيفية تكوين هذا الأسطول ولا عن قوته فى العهود المختلفة .

وعلى كل حال يجب أن نفرق بين عنصرين من رجال الأسطول وهما : عنصر المجدفين وعنصر المحاربين . وحيث ان بحارة الأساطيل القديمة كانوا يتألفون من أدنى طبقات السكان ، وان البطالمة وضعوا المصريين فى أسفل الدرك ، فلابد من أن بحارة الأسطول البطلمى كانوا يتألفون من المصريين وهذا هو ما تؤكده الوثائق . ولما كان البطالمة الأوائل قد وضعوا جل اعتمادهم على المقدونيين والاغريق فى تكوين قواتهم البرية فلابد من أنهم فعلوا الشيء نفسه فى تكوين

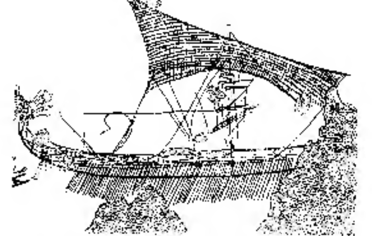
قوائم البحرية ، اذ لا يعقل ألا يمتد أولئك البطالمة على المصريين في تكوين قوائم البرية ثم يمتدون عليهم في تكوين قوائم البحرية . وعندما أصبح البطالمة المصريين في صلب الجيش منذ عهد بطلميوس الرابع ، لا يبعد أنهم فعلوا ذلك أيضا في الأسطول . ومع ذلك فاننا نعتقد أنه كما كان الحال في الجيش، كان أكثر جنود البطالمة البحريين وأرفعهم مقاما ، حتى بعد عهد بطلميوس الرابع ، من الاغريق ومن على شاكلتهم .

٣ ـ الشرطة

وكان رجال الشرطة يتصلون بالجيش اتصالا وثيقا ، اذ أنه منذ القرن الثالث كان يوجد بين رجال الشرطة محاربون مصريون ، ومنذ القرن الثاني كان رجال الشرطة يساهمون في تكوين القوات المحاربة .

ويمكن تقسيم رجال الشرطة بوجه عام ثلاث فئات رئيسية ، وهي : أولا ، أولئك الذين كانت مهمتهم ضمان الاحترام اللازم لكبار الموظفين والدفاع عنهم اذا اقتضى الأمر . وثانيا ، رجال الشرطة بأدق معاني الكلمة . وثالثا فئة يقوم أفرادها بمهام مختلفة يصعب تحديدها .

ويبدو أنه في القرن الثالث كان الضباط وأرفع رجال الشرطة مقاما من الاغريق ، ثم أفسحوا مكانهم تدريجا للمصريين . أما رجال الشرطة العاديون فانهم كانوا في الغالب من المصريين منذ القرن الثالث ، وكان رجال الشرطة المصريون يمنحون اقطاعات متواضعة منذ بداية الأمر ، أما غير المصريين فانهم كانوا يستحقون مرتبات ، لكن يبدو أنه بمضي الزمن أخذ يتسع نظام منح اقطاعات لرجال الشرطة حتى شملهم جميعا ، سواء أكانوا مصريين أم غير مصريين .



هذه صورة احدى سفن ثلاث خطّطها شخص في جدار منزله ديونيزوس مريديلوس ، والصورة تمثل سفينة حربية اغريقية مما كانت تمخر عباب بحر ايجة في أواخر العصر الهيلينستي .

لقد عرفنا كيف كان البطالمة يعتبرون أنفسهم سادة مصر بحق الفتح ، لكن لكي يكون سلطانهم دائما وسيادتهم راسخة رأوا أن يقيموا حكمهم كذلك على حق الملوك الالهي ، وأن يحترموا المعتقدات الدينية السائدة بين كافة رعاياهم ، ولذلك كان التسامح الديني أبرز ما تتصف به سياسة البطالمة الدينية بوجه عام .

أولا ــ البطالمة والمصريون

١ ــ اتخاذ صفات الفراعنة

لما كان المصريون يعتبرون فرعون واهب النعم والحياة ومالك الأرض والسيد المطلق على أهلها ، فقد كان من الفطنة وأصالة الرأي أن يتخذ البطالمة صفات الفراعنة ، ليتمتعوا بمكانتهم العظيمة وسلطاتهم الشاملة المطلقة ، ويكسبوا ولاء المصريين ويدعموا مركزهم بصبغة شرعية في نظرهم ، ولا سيما أن الاسكندر الأكبر كان قد رسم نفسه فرعونا في منف ، وحمل ثلاثة من الألقاب الخمسة التي درج الفراعنة على حملها منذ غابر الزمن . وتشير القرائن الى أن البطالمة اتخذوا صفات الفراعنة بالتدريج ، ففي الوثائق الهيروغليفية والديموتيقية ما يثبت أن بطلميوس الأول قد حمل بعض ألقاب الفراعنة التقليدية ، وان بطلميوس الثاني والثالث قد حملا هذه الألقاب جميعا . ويستخلص من القرار الذي أصدره الكهنة في منف عقب موقعة رفح أن بطلميوس الرابع قد ذهب الى مدى أبعد من أسلافه في التشبه بالفراعنة ، فهو لم يكتف بحمل كافة ألقاب الفراعنة التقليدية بل انه توج أيضا على نهج الفراعنة القدماء ، فكان بذلك أول ملك من ملوك البطالمة اتخذ صفات الفراعنة كاملة . وقد كان طبيعيا أن يقتفي سائر البطالمة المتأخرين أثر بطلميوس الرابع لأنهم كانوا جميعا ملوكا ضعافا ويميلون على سلالة المصريين .

٢ ــ احترام الديانة المصرية

وازاء رغبة البطالمة الملحة في أن يظهروا أمام المصريين في ثوب الفراعنة الحقيقيين اعترفوا بالديانة المصرية دينا رسميا ، وسمحوا للمصريين بحرية عبادة آلهتهم القديمة . ولكي يثبتوا اجلالهم واحترامهم للديانة المصرية حذوا حذو الفراعنة في تقديم القرابين للآلهة الوطنية ، ومنح المعابد هبات مالية وعقارية وكذلك حق حماية اللاجئين اليها ، وانشاء المعابد والهياكل أو اصلاحها وزخرفتها ،

وتصور ألقسهم على جدرانها وكذلك على النقود والأحجار الكريمة فى شكل آلهة مصرية .

ان نبوءة مثل نبوءة « صانع الفخار » التى تتحدث عن تحرير الوطن واجلاء الأجانب واعادة العاصمة الى منف واقامة فرعون وطنى لتعبر تعبيرا بليغا عما كان يجيش فى صدور المصريين من الآلام والآمال وتصور لنا حقيقة مشاعرهم نحو هؤلاء الفراعنة الجدد . وان دلت هذه النبوءة على شىء فهى تدل على أنه مهما أنفق البطالمة من جهد فى الظهور أمام المصريين فى ثوب أسلافهم الفراعنة الوطنيين فان قلوب المصريين لم تطمئن اليهم ولم تعتبرهم فراعنة حقيقيين ولم تر فى الاسكندريه عاصمة للبلاد . فلا عجب ان كان المصريون يتوقون الى فرعون وطنى يقيم فى عاصمة وطنية بعد أن يحرر الوطن من مغتصبيه الأجانب .

٣ ـ موقف البطالمة من الكهنة المصريين

كان رجال الدين المصريين يحتلون منذ عهد بعيد مركزا رفيعا وأهمية خطيرة فى حياة البلاد ، يحسب الملوك حسابهم ويعتبرهم الأهالى مرشديهم وزعماءهم الروحيين ، يستمعون الى نصحهم وينزلون على ارادتهم . وازاء ذلك استقر رأى البطالمة على أن يتخذوا منهم أداة لنشر الهدوء والسكينة فى البلاد ، ولذلك فانهم حين أظهروا اجلالهم واحترامهم للديانة المصرية استنوا من النظم ما يكفل تقليم أظافر رجال الدين وخضوعهم لهم . وقد كان العامل المادى من أهم الوسائل التى لجأ البطالمة اليها للحصول على طاعة الساوسة فانهم أسندوا ادارة أراضى المعابد الى الحكومة ، واستولوا على دخل الضريبة التى كانت المعابد تجبيها من زارعى الكروم والفاكهة والبقول ، وألغوا احتكار المعابد وصناعتى الزيت ونسج الكتان لكى يقللوا من قوة الكهنة ويبسطوا لهم أيديهم أو يكفوها تبعا لموقف الكهنة منهم .

ويبدو أن تضييق الخناق على الكهنة قد زج بهم فى صفوف الثوار مما حدا بالبطالمة الأواخر الى محاولة كسب ود الكهنة بشتى الوسائل . ومع ذلك يبدو من تجويد المنح للكهنة فى عهود مختلفة بل فى العهد الواحد نفسه ان الكهنة لم يفلحوا فى استرداد كل حقوقهم وامتيازاتهم السابقة التى كان البطالمة الأوائل قد سلبوهم اياها . وذلك لأنه عندما ضعفت السلطة المركزية وفسدت الأداة الحكومية كثيرا ما عجزت السلطة المركزية عن حمل الموظفين على تنفيذ قراراتها .

ويبدو أن الكهنة قد انقسموا فرقا وأشياعا ازاء سياسة البطالمة نحوهم ، اذ حين كانت العلاقات متوترة بين البطالمة وكهنة آمون فى طيبة كانت العلاقات حسنة بين البطالمة ومتناصى أولئك الكهنة ولا سيما كهنة منف .

ثانيا ـ البطالمة والاغريق

١ ـ عبادة البطالمة عبادة اغريقية عامة

وكما عنى البطالمة بكسب ولاء المصريين وودهم عنـوا أيضا بكسب ولاء الاغريق وعطفهم . وقد كان الاغريق يدينون للبطالمة بالامتيازات التي منحوها ، لكن لما كانت غالبيتهم رجالا أحرارا نشئوا في جمهوريات اعتادوا الاشتراك في حكمها ، وكانت مصر في عهد البطالمة ملكية تقوم على حكم الفـرد المطلق ، فقد لجأ البطالمة لتبرير مركز هـذا الحاكم المطلق الى انشاء عبادة الملوك عبادة اغريقية رسمية عامة في الدولة حتى لا يرى الاغريق غضاضة في تمتع أولئك الملوك بتلك السلطة المطلقة .

ورغم ما يكتنف انشاء هذه العبادة من الغمـوض ، فاننـا نستطيع أن نتبين أربع خطوات . أما الخطوة الأولى فقـد خطاها بطلميوس الأول عندما جعل عبادة الاسكندر الأكبر دينا اغريقيا رسميا عاما في مصر ، له كاهن مقدوني أو اغريقي يتمتع بمكانة رفيعة ويعينه الملك كل عام وتؤرخ باسمه كافة الوثائق في طول البلاد وعرضها ، سـواء ما كان منها مكتوبا باللغة الاغريقية أم المصرية ولما كان بطلميوس خليفة الاسكندر في حكم مصر ، فقـد أصبحت سلطته بمـد تأليه الاسكندر مستمدة من مصدر الهى ، وبذلك حق له أن يتمتع بالسلطة الشاملة في مملكته . وفضلا عن ذلك فان بطلميوس قد وضـع على هذا النحو سنة تأليه حاكم مصر بعد وفاته ، وسنرى توا الآثار البعيدة التي ترتبت على اتباع هذه السنة .

وتشـير كل الدلائل الى أن بطلميوس الثاني هو الذي خطا الخطوة الثانية في هذه العبادة . وقد كان أول ما فعله هـذا الملك انه اتبع سنة أبيه ، فرفعه الى مصاف الآلهة بعد وفاته . ولم يكن ذلك بدعة فقـد كان الاغريق يألهون تأليه موتاهم الذين أسسوا مدنا حرة ، وبطلميوس الأول لم يؤسـس مدينة فحسب بل مملكة عظيمة . ويبدو أنه عندما توفيت برنيكي أم بطلميوس الثـاني أشركها في العبادة مع أبيه المؤله .

وقد مهد تأليه بطلميوس الأول السبيل لتأليه سلالته ، لأن تأليه رأس أسرة البطالمة أكسـب سلالته صفة غير عادية سمت بهم فوق مستوى سائر البشر ، فلم يكن عسيرا عليهم بعد ذلك أن يرفعوا أنفسهم الى صف مؤسس هـذه الأسرة . لكن على حين أن بطلميوس الأول وزوجه رفعا الى مرتبـة الألوهية بعد وفاتهما رفع سلالتهما من ملوك مصر الى هذه المرتبة في حياتهم واحتفظوا بها بعد مماتهم . ولم يعد اليوم سبيل الى الشك في أن بطلميوس الثاني رفع نفسه وزوجه الى مصاف الآلهة في أثناء حياتهما وعبد الاثنـان معـا باسـم الالهين الأخـوين (ادلفوي Adelphoi) ، وأقيم لهمـا معبـد خاص في الاسكندرية وقرنت عبادتها بعبادة الاسكندر

الرسمية العامة فكان يشرف على طقوس العادتين كاهن واحد أصبح لقبه عندئذ « كاهن الاسكندر والالهين الأخوين » ، على حين أن عبادة بطلميوس الأول وزوجه برنيكي لم تقترن بعد مع عبادة الاسكندر .

وقد خطا بطلميوس الثالث الخطوة الثالثة فانه سمح باستمرار قرن الالهين الأخويين في العبادة مع الاسكندر بعد وفاتهما ؛ ولذلك عندما اقتفى خطوات أبيه ورفع نفسه وزوجه في حياتهما الى مصاف الآلهة قرن عبادتهما بعبادة سلفيهما والاسكندر . فكانت هذه هي المرة الأولى التي نعرف فيها عبادة الملك الحاكم وزوجه بعبادة سلفيهما وعبادة الاسكندر . ومنذ ذلك الوقت أصبحت القاعدة ان كل بطلميوس وزوجه يرتقيان العرش يؤلهان ويخلع عليهما لقب الهي يميزهما عن غيرهما من البطالمة المؤلهين وتقرن عبادتهما بعبادة أسلافهما وعبادة الاسكندر ، فنشأت على مر السنين وتعاقب ملوك وملكات البطالمة سلسلة جديدة من الآلهة . وعندما لاحظ بطلميوس الرابع ان سلسلة البطالمة المؤلهين الذين يقرنون مع الاسكندر الأكبر في العبادة الرسمية العامة تبدأ ببطلميوس الثاني وزوجه ، على حين انه كان من حق مؤسس الأسرة وزوجه أن يكونا في المقدمة ، خطا الخطوة الأخيرة في تحويل هذه العبادة الى عبادة أسرية بوضع بطلميوس الأول وزوجه على رأس سلسلة البطالمة المؤلهين الذين يقرنون في العبادة مع الاسكندر .

٢ ــ احترام الديانة الاغريقية

وقد كان البطالمة مثل غيرهم من المقدونيين اغريقا في كل نواحي حياتهم : في ثقافتهم ودياناتهم والى حد كبير في أسمائهم ؛ بل انهم ادعوا انهم من سلالة الآلهة الاغريقية . وازاء عواطفهم الدينية وأصلهم السماوي الاغريقي وتعاليمهم الاغريقية ، كان طبيعيا أن يظهروا احترامهم للديانة الاغريقية ويعترفوا بها ديانة رسمية في دولتهم .

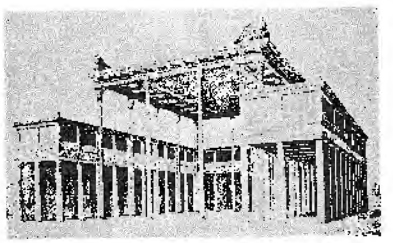
وفضلا عن كل ذلك كان يوجد دافع سياسي له وزن كبير في نظر البطالمة ؛ فقد كانوا في حاجة الى رجال ورؤوس أموال من بلاد الاغريق لتحقيق مشروعاتهم الخارجية والداخلية . ولذلك كان يتعين عليهم كسب عطف الاغريق ، بأن يظهروا أمامهم في ثوب حماة الحضارة الاغريقية ، وأن يثبتوا للملأ أجمع اجلالهم للديانة الاغريقية . فلم يكتف البطالمة بالاعتراف بالديانة الاغريقية دينا رسميا في مصر ؛ بل أسبغوا عليها شتى مظاهر العطف ، فشيدوا المعابد لآلهتها ، ومنحوا الضياع لمعابدها ، وأباحوا للاغريق حرية اقامة شعائرها ، وأقاموا صلات وثيقة مع أشهر مراكز العبادة في بلاد الاغريق ، وأنشأوا حفلات دينية على نمط الحفلات الدينية الأولمبية أو الحفلات الأثينية الجامعة ، كان يحج اليها الشعراء والمتبارون من كافة أنحاء العالم الاغريقي . وتصور لنا أشعار ثيوكريتوس كيف كانت تجوب في شوارع

الاسكندرية فى أثناء اقامة هـذه الحفلات اصداء مختلف اللهجات الاغريقية . وتدل الآنية الجنائزية التى عثر عليها فى الاسكندرية وكانت تضم رماد جثث بعض المبعـــوثين الرســـميين الى هذه الحفلات انهم توفوا فى الاسكندرية فى أثناء أداء واجبهم الرسمى .

وكانت أهم هذه الحفـــلات حفـلات البطوليمـــايا Ptolemaea التى أنشـأها بطلميوس الثانى تخليدا لذكرى أبيه المؤله . ويحتمل أن هذه الحفلات التى كانت مثـل الحفلات الأوليمبية تقام كل أربع سنوات ، قد أقيمت لأول مـرة فى عام ٢٧٩ ق . م . بمناسـبة الذكرى الرابعـــة لوفاة بطلميوس الأول . ويبدو أن المهرجان الذى وصـــفه كاليكسـنوس Callixenos كان بمناســـبة احياء هذا الحفل أول مرة .

وقد بدأ كاليكسـنوس وصــــفه الرائع بوصف قاعة الولائم وكانت على شـــكل سرادق مستطيل شيدت أربعة من أعمـــدته المصنوعة من الخشب على طراز مصرى فى شكل النخيل . ولم يدخر الملك جهدا ولا مالا فى تجميل هذه القاعة وتزيينها ، فقد علقت حولها ستائر مزركشة وجلود حيــــوانات مفترســـة وصفت على جانبيهـا مائة أريكة موشاة بالذهب وفرشت أرضـــها بالطنافس الفارســـية ونثرت بالورود والأزهار وزين السرادق بأبدع ما أخرجه المبرزون من المثالين والمصورين وأجمل ما ابتكره أمهر الصـــناع من الأقمشة المزركشـــة بالذهب والدروع الموشاة بالذهب والفضة ووضعت فى مكان بارز من السرادق أريكة عرضت عليها آنية كثـــيرة من الذهب ومرصعة بالأحجـــار الكريمة .

ويحدثنا كاليكسـنوس بأن المهرجان اقيم فى مضمار السباق ودام من الصـــباح حتى



جناح ولائم بطلميوس الثـــانى على نحو ما وصفه كاليكسينوس وتصوره أحد العلماء المحدثين

الليل ، ولذلك كان يتقدمه ذلك القسم من المهرجان الذى يمثل نجم الصباح ، ويأتى فى المؤخرة القسم الذى يمثل نجم المساء . وقد تبع نجم الصباح القسم الخاص ببطليموس الأول وزوجه المؤلهين ، ثم تلت ذلك أقسام أخرى خصص كل منها لإله واحد أو أكثر ، وكان أحدهما للإله ديونيسوس ، وآخر للالهين الاسكندر الأكبر وبطلميوس الأول ، وآخر للاله زيوس وغيره من الآلهه ، وكان يصور كل قسم جمهـــرة من التماثيل والأشخاص تحملهم عربات يتقدمها ويسير خلفها أعـداد غفيرة من النساء والرجال والأولاد ، يمثل بعضهم مناظر من القصص الدينية الاغريقية ، ويرتدى بعضهم الآخر أبهى الثياب ويحملون أكاليل الورد أو آنية من الذهب أو الفضة تفيض بالنبيذ أو المأكولات أو البخـــور أو العطور .

وقد عرضت فى المهرجان أنواع كثـيرة من الحيوان والطيور النادرة واشـترك فيه ٢٣٫٢٠٠ فارس و ٥٧٫٦٠٠ راجل كاملى العدة . ولعل القسم الذى يمثل عـــــودة







صورة آنية جنائزية مما دفن فيها الصغار الأجانب الذين توفوا فى الاســـكندرية عند تمثيل بلادهم فى حفل البطوليمايا .

ديونيسوس مظفرا من الهند كان أروع ما في هذا المهرجان الفريد الذي كان يسوده روح اغريقي بحت ويغلب عليه طابع حفـلات ديونيسوس . واذا كان ملك مثل بطلميوس الثاني لم يتصف بالسفه والاسراف بل عرف بحرصه ودقة نظمه المالية قد أنفق على اقامة هذا المهرجان ما قيمته اليوم حوالي نصف مليون جنيه مصري ، فان هذا يدلنا على مدى الأهمية التي كان يعلقها على اظهار اهتمامه بمظاهر الحياة الدينية الاغريقية وكذلك على استعراض دلائل ثراء دولته وقوتها أمـام مبعوثي الدول الأجنبية .

ثالثا — الاغريق والديانة المصرية

وقد كان الاغريق ينظـرون الى الديانة المصرية نظرة اجلال واحترام ، بسبب قـدم عهـدها وغموض أسرارها . ودرج الاغريق منذ عهـد هيرودوتوس على تشبيه الآلهـة المصرية بالآلهة الاغريقية ، لكن لا ريب في أن هذا التشبيه لم يكن الا تشـبيها سطحيا لم ينفذ الى أعماق عواطف الاغريق الدينية بحيث تحتل الآلهة المصرية مكان الآلهـة الاغريقية ، وآية ذلك ان الاسكندر الأكبر والبطالمة شيدوا معابد مختلفة لكل من آلهة الاغريق وآلهة المصريين . وتشير القرائن الى أن اغريق مصر سواء أكانوا ينزلون في مدن مصر الاغريقية أم في خارج تلك المـدن قد استمسكوا بعبادة آلهتهم القديمة : زيوس وهيرا وديميتر وافروديتي وغيرها . ولعله قد ساعد على استمساك الاغريق بآلهتهم ، وعدم اقبالهم بوجه عام على الآلهة المصرية تصوير هذه الآلهة في أشكال تجافي ذوقهم وعقليتهم وتصورهم لما يجب أن يتوافر في صـور الآلهة من صـفات تلائم مكانتها الرفيعة . ومع ذلك فان بعض الاغريق ، نتيجة لتلك التشبيهات ، وباعتبارهم نزلاء في تلك البلاد التي تتمتع بحماية هذه الآلهة ، رأوا من الفطنة واصالة الرأي كسب عطف هذه الآلهـة . ولذلك فانهم عبدوا بعض الآلهة المصرية تحت أسماء اغريقية ، كما عبدوا أيضـا بعضـها الآخر بأسمائها المصرية حين لم تكن لهـا مرادفات بين آلهتهم ، لكنها كانت تتمتـع بمحبة كبيرة بين المصريين استرعت أنظـار الاغريق ، ومثل ذلك بيس Bes وتورت Taurt وسـبك . ولا يبعد أن تبعد فريق من الاغريق للآلهة المصرية على هذا النحو قد أفضى الى مزج بعض الآراء الدينية الاغريقية بالآراء الدينية المصرية ، لكن يجب الا نبالغ في قيمة ذلك ، لأنه اذا كان بعض الاغريق لم يروا غضاضة في بعض الأحيان في عبادة الآلهة المصرية فان الاغريق جميعا لم ينقطعوا عن عبادة الآلهة الاغريقية حتى خارج المـدن الاغريقية . فقد كان المجال متسعا أمامهـم لعمل ذلك ، اما في الجاليات أو الجمعيـات الاغريقية أو في بيوتهم الخاصة .

ومن ناحية أخـرى استمسـك المصريون على الدوام بدياناتهم ، التي كانوا يفاخرون بها

ويعتبرون المذاهب الاغريقية صـــورة مقنعة لها ، لكنها حديثة العهد ويشوبها كثير من النقص الى حد يستنفر مشاعرهم ضــــد اتباعها . فلا عجب انه لم يقم دليل واحد على أن الديانة الاغريقية استهوت ولو نفرا قليلا من المصريين .

رابعا ــ البطالمة وعنـــاصر الســـكان الاخرى

١ ــ اليهود

وكان اليهود أهم العناصر الأجنبية بعــد الاغريق في دولة البطالمة . ويرجع استقرار اليهود في مصر الى عهد بعيد يســبق عصر البطالمة كثيرا ، لكن عددهم ازداد زيادة كبيرة في أعقاب الفتح المقدوني وكذلك بعد ضم فلســطين الى مصر في بداية عصر البطالمة . وتشير المصادر القديمة الى انتشار اليهود في مختلف أرجاء مصر ، لكن أكثرهم كانوا يعيشون في الحي الرابع في الاســكندرية . وكان يهـــــود مصر يزاولون مختلف المهن والحرف ، وكان من بينها الاشتغال بالتجارة واقراض الأموال ، لكن ذلك لم يكن وقفا عليهم ولا عملهم الرئيسي . وقد منح البطالمة الجالية اليهـودية في الاسكندرية قسطا من الحكم الذاتي لم يمنحوه لأى جالية أخرى في أى مدينة اغريقية ، لكنهم لم يمنحوهم حقوق المواطنين .

وقد كانت السياسة الدينية التي اتبعهـا البطالمة بوجه عام ازاء اليهود ، تقوم عـلى أساس التســـــامح الديني الذى قامت عليه سياستهم الدينية ازاء المصريين والاغريق ، فانه باستثناء بطلميوس الرابع ، الذى أراد أن يفرض على اليهود عبـــادة ديونيسوس واضطهدهم عندما رفضوا الارتداد عن دينهم ترك سائر البطالمة الآخرين لليهود حـرية العبادة .

ويبدو أن سياسة البطالمة بوجه عـــام كانت مشبعة بروح العطف على اليهود ، لأن فلسطين كانت واقعة بين شـــقى الرحى ، أو بعبارة أخـرى كانت ميدان سلسـلة من الحــروب الضروس بين البطالمة ومنافسيهم السليوكيين ، الذين كانوا يتطلعون دواما الى حرمان مصر اياها . وبطبيعة الحال كان عطف البطالمة على يهود مصر يكسبهم تأييد يهود فلسطين ويساعدهم على تنفيذ سياســـتهم الســورية .

٢ ــ الفرس

وتتحدث الوثائق عن كثيرين ممن يدعون « فرسا » أو « فرس السلالة » مـع أن أقلهم فقط يحملون أسماء ايرانية ، على حين ان أكثرهم يحملون أسماء اغريقية أو مصرية أو اسما اغريقيا ولقبا مصريا . وتشير الوثائق الى وجود عدد كبير من الفرس بين الجنود وأبناء الجنـود في مصر البطلمية والى أن هؤلاء الفرس استمروا يكونون طبقة خاصة حتى في العصر الرومـــاني . ومهما اختلف المؤرخون في تفسير كثرة عدد الفرس فلا شك في أن الفرس كانوا يتمتعون بالحرية الدينية في مصر البطلمية .

٣ ـ عناصر أخرى

وتشير القرائن الى أن ســائر العناصر الأجنبية الأخرى التي استقرت في مصر ، مثل التراقيين والفريجيين والسوريين والفينيقيين والعرب ، قد أحضرت معها عباداتها وآلهتها كما فعل الاغريق واليهود ، وانها قد تمتعت جميعا بحريتها الدينية في ظل ذلك التسامح الديني الذي كان أحد الدعائم الأساسية التي قام عليها البطالمة سياستهم الدينية .

خامسا ـ ديانة سيرابيس

لما كان بطلميوس الأول يعتقد ان ثروة مصر تتوقف على مساهمة المصريين والاغريق معا في العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ، وان استمرار النفور الديني الذي كان هيرودوتوس قد لاحظه من قبل لابد من أن يعوق الالفة بين الفريقين ، فانه رأى من الضروري أن يؤلف بين قلوبهما بانشاء ديانة جديدة تكون رابطة وحــدة ووئام بين المصريين والاغريق عندما يشتركون جميعا في التعبد الى آلهتها ، وبذلك يدركون انهم يتعبدون الى نفس الآلهة وانما كل فريق منهم على النحو الذي كان يألفه . ولابد من ان بطلميوس كان يدرك أن تحقيق هدفه كان يتوقف على نجاح الديانة الجديدة في أن تخلف ديانة المصريين والاغريق ، وهذا يفسر ذلك الاهتمام الكبير الذي وجهه هو وسلالته الى الديانة الجديدة .

ويحدثنا بلوتارك بأن بطلميوس الأول كون لجنة من علماء الدين المصريين والاغريق لتنفيذ فكرته . وقد استقر رأي اللجنة على أن يكون محور الديانة الجديدة ثالوثا يتألف من سيرابيس Serapis وزوجتــه ايزيس وابنهما هاربوكراتس Harpocrates ويتفق الجميــع عــلى أن ايزيس وهاربوكراتس كانا الهين مصريين . أما سيرابيس ، كبــير آلهة الثالوث ، فقد تضاربت الآراء حــول أصله ، لكن الرأي السائد اليوم انه كان أصلا الاله المصري أوزيريس ابيس ، اله العــالم الآخــر في منف الذي ترينا بردية ارتيميسيا Artemisia ان الاغــريق حتى قبل عهــد بطلميوس الأول كانوا ينـادونه باســم أوسيرابيس Oserapis . وعــلى كل حال فان آلهة الثالوث قدمت للاغريق في شــكل اغريقي وللمصريين في شكل مصري يبــدو التباين بينهما في أجلى صوره في حــالة سيرابيس الذي تقدم للاغريق في شــكل رجل كهل يشبه عن قرب الاله زيوس وأضفت عليه كثير من صفات الآلهة الاغريقية ، على حين عبده المصريون في شكل العجل ابيس ، وكان يعرف بعد وفاته باسم أوزيريس ابيس .

واذا كان بطلميوس الأول هو الذي أنشأ عبادة سيرابيس واخفاء الصورة التي قدم فيها هذا الاله لرعاياه الاغريق : فان الأدلة الأثرية تثبت ان بطلميوس الثالث هو الذي شــيد المعبــد الكبير الذي أقيم لهذا الاله في حي راقوده بالاسكندرية على ذلك التل الذي



تمثال لسرابيس .



تمثال للعجل آبيس أهداه
الامبراطور هادريان لسيرابيوم الاسكندرية .

لا يزال قائما حتى اليوم في حي كرموز . وقد ذاعت شهرة مباني هذا المعبد بما كانت تضمه من مكتبة وأروقة وأبنية تقوم فيها الأعمدة والتماثيل ويؤدي اليها سلم كبير يتألف من مائة درجة .

ولا جدال في أن الديانة الحديثة قد نجحت من حيث فوزها بعدد كبير من الاتباع فانها لم تنتشر في مصر فقط بل انتشرت أيضا في أرجاء البحر الابيض المتوسط ، ثم تخطت نطاقه ووصلت شرقا حتى الهند وغربا حتى بريطانيا . لكن النجاح الحقيقي لهذه الديانه يجب أن يقاس بمقدار ما أفلحت في تأدية الغرض المنشود من اقامتها . فهل حققت هذا الغرض ؟ حقا ان المصريين عبدوا آلهة الثالوث المقدس ، ولكن في ثوبها المصري وباعتبارها في عداد الآلهة التي ظلوا على ولائهم لها ، ولم تصبح يوما آلهة هذا الثالوث الآلهة الوحيدة التي يتعبد المصريون اليها . وكذلك اعتنق الاغريق ديانة هذا الثالوث فقد قدمت لهم آلهته في ثوب اغريقي بل على انها نظيرة لآلهتهم الاغريقية . ومع ذلك وبرغم ما أظهره الاغريق لآلهة الثالوث المقدس من رعاية واحترام فانهم لم ينصرفوا الى عبادته دون غيرها ، بل ان هذه الآلهة لم تحتل المكان الأول في عبادتهم . وآية ذلك انهم حيثما كانوا ينزلون في كثرة ، سواء في مدن مصر الاغريقية أم في خارجها ، كانوا يقيمون المعابد لآلهتهم الاغريقية . ويكاد يكون من المحتمل أن الديانة الحقيقية للاغريق طوال عصر البطالمة كانت الى حد عبادة آلهة المدن التي

أتوامنها ، والى حد كبير عبادة المذاهب ذات الأسرار التي كانت معروفة في بلاد الاغريق وبين اغريق آسيا وانتشرت اذ ذاك في كل أنحاء العالم الاغريقي ، مثل مذهب ديمتر ومذهب ادونيس ومذهب ديونيسوس تزاجريوس Zagreus .

ولا شك في أن الديانة الجديدة قد تمتعت بمكانة كبيرة ، لكن لما كانت تلك المكانة نتيجة لايحاء الحكومة ، وكانت تلك الديانة ديانة مفتعلة ، وكان البطالمة قد أباحوا لسائر رعاياهم حرية العبادة ، وكانت الديانة الحقيقية لكل من المصريين والاغريق هي الديانة التي كان يألفها كل من الفريقين ، فلا عجب ان الديانة الجديدة لم تحقق الغرض المنشود من اقامتها .

الفصل الرابع

السياسة الاقتصادية

الزراعة — الصناعة — التجارة — النقود

أملت اعتبارات كثيرة على البطالمة سياستهم الاقتصادية ، فقد كان تحقيق أهداف سياستهم الخارجية يتطلب أموالا طائلة لبناء الجيوش والأساطيل واكتساب ود الدول ورجال السياسة . وكانوا في حاجة الى المال أيضا لتنفيذ مشروعاتهم العمرانية . ولما كانت قد استقرت في البلاد عناصر جديدة من السكان وكان أغلب هذه العناصر من الاغريق أو ممن لهم ميول اغريقية فانه كان يجب توفير سبل العيش لهذه العناصر وسد حاجاتها .

وقد رأى البطالمة ان الاستجابة الى كل مطالبهم كانت تقتضي زيادة الانتاج المصري ، ورفع مستوى المنتجات المصريه ، بحيث تسد مصر حاجة كل سكانها ، وتصدر مقادير كبيرة من منتجاتها تكسب بها الأسواق الخارجيه ، فتفيض عليها الذهب والفضة وغير ذلك مما تفتقر اليه البلاد من المواد مثل الأخشاب والمعادن وازاء ذلك عمل البطالمة على زيادة مساحة الأرض المنزرعة ، واستغلال الأرض المنزرعة استغلالا لم يسبق له مثيل ، والاكثار من المصانع واستخدام كافة الوسائل الفنية المعروفة وتنظيم الانتاج تنظيما دقيقا ، يستغل الى أقصى حد مجهودات الأهالي والنزلاء الأجانب تحت اشراف ادارة مالية يقظة ، وتداول النقد ، وتصدير المنتجات التي تفيض عن حاجة البلاد ، واستيراد المواد التي تفتقر اليها ، وتأمين طرق الملاحة .

أولا — الزراعة

ولما كانت الزراعة في مصر تتوقف على ضبط مياه النيل وحسن تصريفها ، فقد عنى البطالمة بشق القنوات واقامة الجسور وصيانة هذه المنشآت وقد عنوا أيضا بايصال المياه الى الأراضي المرتفعة ، وابتكر الاغريق آلتين جديدتين لهذا الغرض وهما الساقية والطنبور ، وسارع المصريون الى الافادة من هاتين الآلتين الى جانب شادوفهم العريق . واستغل البطالمة الأوائل مهارة الاغريق الهندسية ، ودراية المصريين بالزراعة في استصلاح مساحات واسعة من الأراضي في الفيوم ، وكذلك في مناطق أخرى مشابهة لها . وهكذا توفر لدى البطالمة من الأراضي

ما مكنهم من افراء الكثيرين من الاغــــريق بالاستقرار في البلاد . ولم يدخر البطالمة وسعا في استغلال الأرض الصالحة للزراعة استغلالا لم يسبق له مثيل : لكنهم لكيلا يضعفوا التربة وضعوا نظاما دقيقا للدورة الزراعية ، بحيث كانت الأرض لا تزرع زراعة ثقيلة ثلاثة أعوام متتابعة . وقد كان الحديد من بين المواد التي اهتم البطالمة باستيراد كميات وفيرة منها لسد حاجة البلاد ، وترتب على ذلك أن أغلب الأدوات الزراعية كالفأس والجاروف والمنجل والبلطة ومحلج العربات أصبحت تصنع كلها أو بعض أجزائها من الحديد .

ولم يدخر البطالمة جهدا في توفــــير الأسباب التي تكفل الاكثار من زراعــــة الحبوب وغرس الكروم والفاكهة ومختلف أنواع الأشجار ، وتحسين أصناف كل هذه المزروعات بأقلمة أنواع جديدة منها ، وادخال أنواع عديدة من الحاصلات التي لم يكن لمصر بها عهد من قبل . فتحدث الوثائق عن زراعة القمح الســـوري والفارسي والحمص البيزنطي ، وعن استيراد أشجار التين من خيوس وليديا ، وأشجار رمان ليس لثمرها بذور ، وأشجار مشمش تثمر في العام مرتين ، وكروم تنتج أصنافا متعـــددة من العنب ، واستنبات ثوم ليكيا وكرنب رودس وأنواع كثيرة من الأزهار .

ولما كانت الثروة الحيوانية تخدم مطالب الزراعة ومطالب الديانة ومطالب الحيـــاة اليومية من غذاء وكساء ، فان البطالمة عنــوا بتنمية هذه الثروة ، وساعدهم عــلى ذلك وفرة المراعي في البلاد . ومن أجل تحسين الأصواف المصرية استقدم بطلميوس الثاني من الخارج نوعا من الأغنام كانت لأصوافها قيمة كبيرة جدا الى حـــد انها كانت تغطى لوقايتها وانها كانت تنزع منها بدلا من أن تجز . وقد أولى البطالمة عنايتهم كذلك الى تربية النحل ، فقد كان عسله يستخدم حيث نستخدم السكر اليوم ، والى تربية الدواجن ، وخاصة الحمام ، لأنه كان أرخص أنواع الترف في غذاء الأهالي ، وفضلا عن ذلك كانت له أهمية خاصـــة بسبب غنى روثه ووفرته .

وقد كللت جهود البطالمة الأوائل بالنجاح اذ كان أبرز نواحي الحياة الاقتصادية في مصر في خلال القرن الأول من حكم أولئك الملوك ازدياد مســـاحة الأراضي المزروعة ، وازدياد الحاصلات الزراعية بوجه عام والحبــوب بوجه خاص . لكنه كان من المحال وضــد طبيعة الأشياء أن تدوم هـــذه النهضـة الاقتصادية . ولا أدل على ذلك مما نلاحظه منذ آخر عهد بطلميوس الثالث من نقص مطرد في مساحة الأراضي المزروعة وكذلك في الماشية وفي عدد سكان القرى . فقـد كان طبيعيا أن تتدهـــور الزراعة في كنف ذلك النظام المالي الكريه الذي وضعه بطلميوس الثاني ، لأنه أبهظ كاهل الأهالي ، ولا سيما

عندما قام على تنفيذه موظفون غير أمنـــاء مما دفع الأهالي الى الفرار من مزارعهم أو تراخيهم فى أداء عملهم ، بل الى الثورة فى وجه الحكومة . وحين كانت نيران الثورات القومية تسري فى كل أنحاء البلاد سريان النار فى الهشيم ، ووسط الاضطرابات العنيفة التى أثارتهـا الانقسامات بين أفراد أسرة البطالمة ورجعت البلاد أصداءها ، أهملت وســائل الري بل عمد الأهالي الى تخريبها . وزاد الطين بلة أعمال التخريب والتدمير والسلب والنهب التي نجمت عن غزوة أنطيوخوس الرابع . وقد بذلت الحـــكومة كثيرا من المجهودات لاصلاح الحالة لكن التوفيق لم يحالفها بوجه عام في وقف تيار التدهور الذي جرف اقتصاديات البلاد .

ثانياً ـ الصناعة :

كفلت الطبيعة لمصر العوامل التيجعلتها مهد الحضارة ، فقد منحتها موفرة فى موارد الثروة وفى عدد السكان الذين امتـــــاز الكثيرون منهم بالمهارة اليدوية فلا عجب أن قامت فى مصر منذ أمد بعيد صناعات كثيرة ناجحة لم يكن لها منافس فى بعضها ومثل ذلك ورق البردي والمنســـــوجات الكتانية والزجاج والخزف اللامع وغير ذلك مما كانت مصر تصدره الى الكثير من بلاد العـــــالم القديم .

لكن بلاد الاغريق ما كادت تتقـــدم فى شوط الحضارة حتى أخذت صناعاتها تنافس الصناعات المصرية وأصبحت مركز الجاذبية الاقتصادي ، غير انه عقب وفاة الاسكندر الأكبر انتقـــل ذلك المركز الى الممـــالك الهيلينستية العظيمة التي قامت فى مقدونيـا وآسيــا ومصر واسترعت أنظار الاغريق ، فهرعت أفواجهم اليها وشــاركوا فى انعاش صناعاتها وباقى نواحي حياتها الاقتصادية . وقد كان لمصر نصيب كبـير من أولئـــك المهاجرين الذين نزحوا اليها من مختلف بلاد شبه جزيرة البلقان وجزر بحر ايجة وآسـيا الصغرى .

وقد كانت المشاكل التى واجهها البطالمة فى ميدان الصناعة مماثلة لما واجهوه فى ميدان الزراعة ، وهى توفير سبل العيش لكثير من المهاجرين ، ورفع مستوى الصناعة ، وسد حاجة الســوق المحلية والسوق الخارجية . فقد استقرت فى البلاد عناصر جديدة كثيرة اغلبها من الاغريق أو ممن لهم ميول وعادات اغريقية ، وازدادت القوة الشرائية لدى الدول الهيلينســتية ، وكذلك اقبالها عــلى المنتجات المصرية . ومن أجل مواجهة كل هذه المطالب واستيراد ما تفتقــر اليه مصر بحيث يكون الميزان التجاري فى صالحها ، أنشأ البطالمة مصانع كثيرة ، واحتكروا انتـــاج بعض الصناعات ، وأشرفوا على انتاج وبيـــع البعض الآخر ، وعملوا أيضا على زيادة انتاج صناعات جديدة ، وتحسين أصنافها ومراعاة ذوق المستهلكين .

وبفضل مهارة المصريين ومواهب الاغريق استطاعت مصر أن تستجيب لكل مطالب الصناعة . وقد ساعد على ذلك أن تداول النقد وفر رءوس الأموال اللازمة للنهوض بالصناعة ، وان الحركة العلمية في معهد الاسكندرية غزت الصناعة بثمرة تقدم العلوم وان البطالمة الثلاثة الأوائل اهتموا بتنشيط الصناعة اهتماما لم نعرف له مثيلا في أي عهد من عهود تاريخها الطويل . وقد كانت من أهم الصناعات شأنا في عهد البطالمة صناعة المنسوجات المختلفة وصناعة الزيت والنبيذ والآنية الفخارية والمعدنية والأخشاب والورق والزجاج . ونستطيع أن نتبين اهتمام البطالمة بسد حاجة الاغريق من انتعاش صناعة المنسوجات الصوفية وتحسين أنواع النبيذ المصرى وانتشار صنعه واستثناء زيت الزيتون من الزيوت التى كانت الحكومة تحتكر استخراجها وبيعها .

وقد اقتبس الاغريق فى عهد البطالمة فنون الصناعة التي كان المصريون قد بلغوا بها فى عهد الفراعنة حدا يقرب من الكمال . وبطبيعة الحال كان شأن الاغريق فى مصر شأنهم فى أى مكان آخر اتصلوا فيه بأساليب الحضارة الرفيعة القديمة ، ومعنى ذلك انهم اقتبسوا أولا فن الصناعة الوطنى ، وتعلموا كل مالم يعلموه منه قبلا ، وكذلك أخذوا عنه بعض المظاهر وأشكال الزخرفة ، ثم صبغوا كل ذلك بالصبغة الاغريقية وجعلوه موائما لذوق الاغريق محببا اليهم . فامتلأت أسواق العصر الهيلينستى بأدوات مصنوعة على أساس الأساليب المصرية فى الصناعة والزخرفة ، وان كان طراز المصنوعات اغريقيا ، ونجد أمثلة طريفة لذلك فى الآنية الفخارية والزجاجية والمعدنية التى كشفت الحفريات عنها .

واذا كان يبين ان أكثر الصناع المصريين بسبب طبعهم المحافظ واعتزازهم بتقاليدهم القديمة ورغبتهم فى سد حاجة عملائهم الذين بقيت غالبيتهم العظمى بعيدة عن كل مظاهر الحضارة الاغريقية ، لم تستهوهم بوجه عام فنون الصناعة الاجنبية ولذلك استمروا فى انتاج سلعهم التقليدية ، فانه يبين كذلك ان بعض الصناع المصريين كانوا ينتجون أيضا سلعا تقلد نظيراتها الاغريقية تقليدا كاملا أو فى بعض نواحيها فقط مثل الشكل أو عناصر الزخرفة أو أساليب الصنعة لكنها مصطبغة بالصبغة المصرية ، فاننا نجد بين الآنية الفخارية والخصصرية التى صنعها المصريون فى عصر البطالمة أشكالا كانت مألوفة بين الاغريق . ولا يبعد أن ما حدث فى هذه الصناعة قد حدث كذلك فى صناعات أخرى .

وقد كان من بين نتائج ازدهار الصناعة فى المدن نزوح الكثيرين من الريف اليها ، وكانت الاسكندرية فى مقدمة المدن التى هرعت اليها أعداد كبيرة من العمال والصناع . ومما يجدر بالملاحظة ان أرباب

كل حرفة كانوا يتجمعون معا فى أحياء معينة ويؤلفون نقابات تعاونية . وتدل الوثائق على انه قبل مجيء الاغريق الى مصر لم يسهم العبيد اطلاقا فى حياتها الاقتصادية لكن الحال كان على عكس ذلك فى بلاد الاغريق ، فهل أدت مساهمة الاغريق فى حيـــاة مصر الاقتصادية الى ادخال نشاط العبيـــد فى الصناعة ؟ لا يبدو انه فى مدن مصر الاغريقية ، وخاصة فى الاسكندرية ، حيث يرجح انه كان يعيش ٢٠٠،٠٠٠ عبد ، كانت توجد مصانع يعمل العبيد فيها . أما خارج المدن الاغريقية ، أو على الأقل خارج الاسكندرية ، فاننا لا نجد فى نصوص القوانين الخاصة بنظام العمل سواء فى الزراعة أم الصناعة ما يستدل منه على استخدام العبيد فيهما . ومعنى هذا ان الاغريق لم يغيروا قواعد الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد بوجه عام .

وقد ترتب على كل العوامل التى سلفت الاشارة اليها ازدهار الصناعة فى القرن الأول من حكم البطالمة ، ولما كانت أغلب الصناعات المصرية صناعات زراعية ، فان تدهور الزراعة منذ أواخر عهد بطلميوس الثالث كان يستتبع حتما تدهور الصناعة . وفضلا عن ذلك فان الأسباب التى كان لها أبلغ الأثر فى تدهور الزراعة قد تمخضت عن نتائج مماثلة فى ميدان الصناعة ، حيث فشلت أيضا كل الجهود التى بذلتها الحكومة لوقف تدهورها والنهوض بها من جديد .

ثالثا ـ التجارة :

وقد كان طبيعيا أن يوجه البطالمة عنايتهم الى تجارة مصر الخارجية ، اذ كان ذلك جزء من سياستهم الاقتصادية العـامة التى كانت تستهدف زيادة الانتاج الزراعى والصناعى ورفع مستواه لسد حاجة الســـوق المحلية وكسب الســوق الخارجية ، لتفيض عليهم الأموال وكذلك السلع التى تفتقر اليها مصر . ومن أجل تأمين تجارة مصر الخارجية ورواجها عملوا عـــلى السيطرة على الطرق البحرية المؤدية الى مصر ، كما عملوا على الا تقتصر علاقات مصر التجارية على ممتلكاتها فقط بل أن تكون لمصر علاقات تجارية مع بلاد أجنبية أخرى فى ثلاث نواح وهى : أولا بحر ايجة والبحر الأسود وثانيا الغرب والشمال الغربى وثالثا الجنوب والشرق .

ويجب أن نلاحظ انه لم يكن فى وســـع ممتلكات مصر استيعاب كل صادراتها ، وانه اذا كان فى وسع مصر بفضل مواردها الخاصة ووارداتها من ممتلكاتها أن تستغنى الى حد بعيد عن صادرات الدول الأجنبية لســـد حاجاتها الحيوية ، فانها كانت لا تزال تفتقر الى بعض حاجاتها الهامة التى لم تتوافر فى امبراطوريتها : كالذهب والفضـــة اللازمين لمسلة البطالمة وشراء حاجاتهم فى مصر وفى خارجها ، وكذلك القصدير والحديد اللازمين لسد حاجة الجيش والزراعة والصناعة . وقد كانت مصر فى حاجة أيضا الى العطور والبخور

والبهار والأقمشة النادرة والأخشاب الثمينة ، مما كانت تتطلبه بكثرة الطقوس الدينية وحياة الرفاهية والترف لا فى مصر وحدها بل كذلك فى عالم البحر الأبيض المتوسط . وفضلا عن كل ذلك كان البطالمة يهتمون برواج تجارة مصر الخارجية للفوز بثراء عريض يقيمون عليه دعائم قوتهم ، وكذلك لنشر نفوذهم فى أرجاء العالم المتمدن ، فالتجارة دائما تسبق العلم . وقد أسلفنا ان البطالمة كانوا ينشدون ضمان تفوقهم الاقتصادى على منافسيهم ولعب الدور الأول فى السياسة الدولية .

وقد حالف التوفيق البطالمة الأوائل ، فتمتعوا حقبة من الزمن بسيادة سياسية وتجارية فى بحر ايجة ، وأصبحت الاسكندرية من أهم المدن التجارية فى العالم . وكانت أهم المواد التى تصدرها مصر الى أسواق بحر ايجه هى الحبوب الغذائية وورق البردى والمنسوجات الكتانية ؛ فقد كانت مصر أكبر مركز لانتاج الغلال فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، كما انها كانت تحتكر صناعة لفائف البردى وتصديرها الى كافة أنحاء العالم القديم ، وكذلك كانت تشتهر منذ عهد بعيد بمنسوجاتها الكتانية الدقيقة . وكانت بلاد الاغريق وآسيا الصغرى تصدر الى مصر الكثير من منتجاتها ، وكان من أهمها القطران والأخشاب والحديد والنبيذ والفاكهة والأسماك المجففة وزيت الزيتون ، لكن المكوس الواقية التى فرضها البطالمة حدت من كمية تلك الصادرات وجعلت الميزان التجارى فى صالح مصر . ولا شك فى أن البطالمة كانوا يأخذون فضة نقية لقاء الجانب الأكبر من صادرات مصر ، بمعنى أن تجارة مصر مع بحر ايجة كانت تمدها بجانب كبير مما تحتاج اليه من الفضة .

ومنذ أواخر القرن الثالث تأثرت تجارة مصر مع بحر ايجة بثلاثة عوامل رئيسية وهى : أولا ، ضياع سيادتها البحرية ؛ وثانيا ، الشلل الذى أصاب اقتصادها من جراء الاضطرابات الداخلية ؛ وثالثا ، ما أحرزته برجام وبيثينيا وبونتوس والقرم من التقدم الاقتصادى ، ولا سيما فى الزراعة ، فى خلال القرن الثانى قبل الميلاد . وليس معنى ذلك انه قد قضى على تجارة مصر مع بحر ايجة قضاء تاما ، اذ أن القرائن تشير الى أن مصر كانت لا تزال تصدر الى هذه الأرجاء بعض الحبوب فضلا عن بعض منتجاتها الأخرى مثل ورق البردى والمنسوجات الكتانية والمصنوعات الزجاجية . وتشير القرائن كذلك الى أن مصر أصبحت تستورد من بحر ايجة كميات كبيرة من الزيت ، لعله كان من زيت الزيتون

وقد نجح البطالمة الأوائل فى انشاء علاقات تجارية وثيقة مع الأسواق الغربية ، وجنوا من وراء ذلك فوائد طائلة ، لأن هذه الأسواق كانت تستطيع استيعاب الكثير من المنتجات المصرية ، وكذلك سد الكثير من المطالب المصرية بمد مصر بالخيول من قرطجنة

وصقلية ، وبالفسفور من ايطاليا وصقلية ، وبالفضة من اسبانيا ، وبالقصدير من بريطانيا عن طريق قرطجنة ومسيليا ، وبالحديد من ايطاليا ، والأدلة متعددة على أن علاقات مصر التجارية مع البلاد الغربية كانت ضئيلة بوجه خاص في القرن الثالث قبل الميلاد حتى نشبت الحرب البونية الثانية فشلت هذه العلاقات ، لكن يتبين من القرائن المحددة انه بعد أن وضعت هذه الحروب أوزارها أخذت تنشط ثانية تجارة مصر مع الأسواق الغربية ، التي احتلت منذ القرن الثاني مكان بحر ايجه وغدت أهم مجال لاستيعاب الطابع الهيلينستي ومما يجدر بالملاحظة أن ايطاليا لم تكن عندئذ في حاجة الى حبوب مصر قدر حاجتها الى منتجات الصناعة المصرية ومواد الترف التي كانت مصر تستوردها من الصومال وبلاد العرب والهند . وقد ساعد على رواج تجارة مصر مع الغرب تدمير قرطجنة تدميرا كاملا بعد الحرب البونية الثالثة .

وقد أظهر البطالمة اهتماما كبيرا بالتجارة مع الجنوب والشرق من أجل تصريف المنتجات المصرية مثل المنسوجات والزيوت والآنية الزجاجية والأسلحة وغيرها من معدات القتال فضلا عن النبيذ المستورد من البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك من أجل الحصول من أعالي النيل على العاج وجلود التماسيح وعجول البحر والعبيد وريش النعام ، ومن بلاد الصومال ومن بلاد العرب الجنوبية والهند (وكان العرب يحتكرون التجارة الشرقية القادمة بحرا) على العطور والبهار والبخور والمر والقرفة والعاج والأرز والأصداف واللآلئ والأصباغ والقطن والحرير .

وكانت منتجات أعالي النيل تصل مصر اما عن طريق النيل أو طرق القوافل أو هضبة اكسوم والبحر الأحمر . أما التجارة الشرقية فانها كانت تسلك ثلاثة طرق رئيسية في سبيلها نحو البحر الأبيض المتوسط : وهي أولا ، طريق الشمال ، وكان يتجه من أواسط آسيا نحو بحر قزوين والبحر الأسود والبسفور والدردنيل . وثانيا ، طريق الوسط ، وكان يأتي من الهند برا أو بحرا الى سليوكيا على الدجلة ثم يتجه الى دمشق وصور ، أو الى انطاكية ومنها الى افيسوس . وثالثا ، طريق الجنوب ، وكان طريقا بحريا من الهند الى الموانى في جنوب بلاد العرب أو جنوبيها الغربي ، وكانت أهمها في عهد البطالمة اداناً وجزيرة سقطرى . وكانت المراكب الهندية تفرغ حمولتها في قبضة الاعراب ، فقد كانوا يحرصون أشد الحرص على هذه التجارة الى حد انهم كانوا لا يسمحون للمراكب الهندية بدخول بوغاز باب المندب .

ولما كانت منافذ هذه الطرق الثلاثة تقع في آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وفينيقيا ، وكان ملوك مصر يحرصون على وضع التجارة الشرقية في قبضتهم ، فان البطالمة وجهوا عنايتهم في خلال القرن الثالث الى

للاستيلاء على الأقاليم التي تمسح فيها تلك المنافذ . وعندما تلاشى سلطان البطالمة من بحر ايجة وطردوا من آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وفينيقيا في خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد ، اتجه اهتمام البطالمة ولا سيما في عهد بطلميوس الثامن عند منتصف هذا القرن الى البحر الأحمر ذاته للسيطرة على تجارة طريق الجنوب قبل بلوغها منافذ ذلك الطريق . ولم يلبث أن امتد هذا الاهتمام الى المحيط الهندي أيضا .

وقد جنى بطلميوس الثامن أطيب الثمار من وراء الجهود التي بذلها لتنظيم الطريق الجنوبي وتأمينه اذ ازدادت باطراد مقادير التجارة الشرقية التي كانت تمر بمصر في عهده عما كانت عليه في عهد سلفه وقد ساعد على رواج تجارة مصر الشرقية عدة عوامل وهي : (١) الاقبال المتزايد على السلع الشرقية (٢) كشف طرق الاستفادة من الرياح الموسمية مما يسر الابحار مباشرة الى الهند دون الالتجاء الى الاعراب ، (٣) ضعف مملكة السليوكيين باطراد (٤) انهيار مملكة سبأ في عام ١١٥ ق . م .

وهكذا أحيى البطالمة الأواخر سيرة البطالمة الثلاثة الأوائل في تأمين وتنظيم الطريق البحري بين مصر ومضاز باب المندب ، لكن بينما كان البطالمة الأوائل يستهدفون من وراء ذلك تيسير صيد الفيلة واستئناسها ونقلها من أجل استخدامها في جيوشهم ، وضمان الاتصال بحرا ببلاد النوبة حيث توجد مناجم الذهب ، وبلاد الصومال حيث تتوافر مواد لم يكن لمصر عنها غناء منذ عهد الفراعنة ، كان البطالمة الأواخر يستهدفون تنشيط التجارة مع بلاد الصومال وبلاد العرب الجنوبية والهند . أما صيد الفيلة فقد أصبح غير ذي موضوع نتيجة لاستغناء البطالمة عن استخدام الفيلة في جيوشهم .

وجملة القول أنه في خلال القرن الأول من حكم البطالمة ، ازاء ازدهار الزراعة وتقدم الصناعة وتداول النقد ، واضطلاع ملك البطالمة وعنايتهم بالسيطرة على الطرق البحرية المؤدية الى مصر وعلى منافذ طرق التجارة الشرقية ، وانتهاء العلاقات مع الدول الخارجية ، راجت تجارة مصر الخارجية فوصلت منتجاتها شرقا حتى الصين وغربا حتى اسبانيا وشمالا حتى بريطانيا وجنوبا حتى أواسط افريقيا .

وقد صاحب تدهور الزراعة والصناعة ، وانكماش ممتلكات البطالمة الخارجية ، وضعف نفوذهم في السياسة الدولية انكماش تجارة مصر مع بحر ايجة وكذلك مع الشرق . وازاء نقص موارد مصر نقصا خطيرا وزيادة الاقبال على السلع الشرقية وجه البطالمة الأواخر وخاصة بطلميوس الثامن اهتمامهم لتنشيط تجارة مصر مع الجنوب والشرق . وقد حالف التوفيق أولئك البطالمة فغدا لتلك التجارة شأن كبير كان له أثره في انماء تجارة مصر مع الأسواق الغربية بعد أن كانت

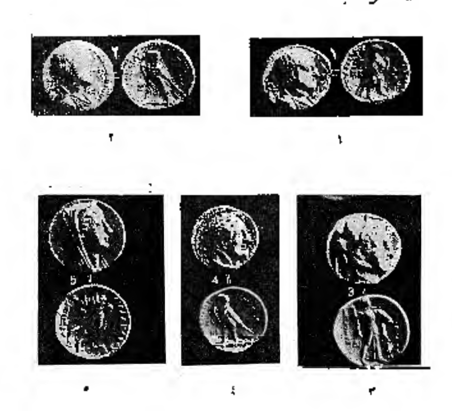
الحرب البونية قد شلتها والحقت بها ضررا خطيرا .

رابعا ــ النقود :

حين كانت المدن الاغريقية وبلاد الفرس تستخدم النقود منذ عدة قرون ، لم تكف مصر عن تنظيم معاملاتها على أساس التبادل ، الا أن هذا لا يعني أنها كانت تجهل تماما استخدام النقود ، فقد كشفت الحفريات في تمراطيس وسمنود وبني حسن في طبقة من الأرض سابقة على العهد المقدوني عن نقود اغريقية وفارسية ، بعضها أصلية وبعضها تقليدات محلية ، مما يدل على أن هاتين العملتين كانتا متداولتين في مصر وشكلتا فيها قبل الفتح المقدوني ، وان كان تداولها محدودا ، ويبدو أنه كان مقصورا على الاغريق والفرس . فقد كان ملوك مصر في العصر الصاوي يستخدمون جنودا مرتزقة من الاغريق كانوا يأخذون أجرهم نقدا ، وفي عهد الفرس كانت توجد في مصر حامية فارسية وكانت مصر تدفع لحكامها الجدد جزية نوعية من الحبوب وجزية نقدية .

ويعزى الى الاسكندر الأكبر والبطالمة الفضل في سك عملة أخذ تداولها ينتشر في مصر رويدا رويدا وان لم يقض كلية على نظام التبادل . وتتألف العملة البطلمية من نقود ذهبية ونقود فضية ونقود برونزية . ومما يجدر بالملاحظة ان النقود الذهبية والنقود الفضية نوعان : أحدهما عادي وكان يسك في عهد الملك الذي تحمل صورته والآخر تذكاري لتخليد بعض الملوك السابقين وكثيرا ما تحمل العملة الفضية العادية على الوجه صورة بطلميوس الأول مؤسس الأسرة ، واسم بطلميوس الذي حمله كل ملوك هذه الأسرة . وبطبيعة الحال تحمل النقود الذهبية والنقود الفضية غير العادية صور مختلف ملوك وملكات البطالمة الذين سكت هذه النقود لتخليد ذكراهم . وتحمل النقود البرونزية على الوجه في حالات كثيرة صورا مأخوذة من الأساطير ، كانت أغلبها رأس زيوس آمون ، وفي بعض الحالات رأس الاسكندر أو أحد ملوك أو ملكات البطالمة . وقد كان الطابع الذي يميز كل نقود البطالمة ، فيما عدا قلة محدودة أغلبها تذكاري ، يشتمل على الظهر ويتألف من نسر واقف على صاعقة ، وأمامه أو فوق جناحه قرن واحد أو قرنان للرخاء . ونرى على ظهر النقود البرونزية التي سكت عندما كان ابولايوس ولنايوس يتوليان الوصاية على بطلميوس السادس نسرا واقفا على صاعقة وتحت جناحه الأيسر صولجان والى يساره زهرة اللوتس التي تعتبر أهم طابع لنقود بطلميوس السادس البرونزية . ويميز ظهر النقود الفضية التي سكها بطلميوس الثاني عشر وابنته كليوبترة السابعة بوجود فرع نخلة تحت الجناح الأيسر للنسر وتاج ايزيس أمامه .

أمثلة لنقود البطالمة :



١ ـ قطعة ذهبية تحمل على الوجه صورة نصفية لبطليموس الرابع ، وعلى الظهر نسرا واقفا على الصاعقة .

٢ ـ قطعة ذهبية تحمل على الوجه صورة نصفية لبطليموس الخامس ، وعلى الظهر نسرا واقفا على الصاعقة .

٣ ـ قطعة فضية من عهد بطليموس الأول تحمل على الوجه رأس الاسكندر ، وعلى الظهر أثينا برومانوس .

٤ ـ قطعة ذهبية من عهد بطليموس الأول تحمل على الوجه رأس بطليموس الأول ، وعلى الظهر نسرا واقفا على صاعقة .

٥ ـ قطعة ذهبية سكت تذكارا لأرسينوي الثانية ، وتحمل على الوجه رأس هذه الملكة ، وعلى الظهر قرني الرخاء .

وقد كانت العملة الفضية أكثر عملات البطالمة شيوعاً على عهد البطالمة الثلاثة الأوائل ، وحتى منتصف عهد بطليموس الثاني لم تكن العملة البرونزية سوى عملة رمزية ، لكن في النصف الثاني من عهد هذا الملك سكت كميات كبيرة من العملة البرونزية الثقيلة الوزن ليستخدمها الناس بحسب قيمة ما فيها من معدن . وتشير الأدلة الأثرية والبردية التي ترجع الى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد الى أن العملة البرونزية الجديدة قد صادفت نجاحاً كبيراً .

ومنذ الفتح المقدوني كانت العملة تسك في مصر على قاعدة النظام الأتيكي ، لكن بعد أن اتخذ بطليموس الأول لقب ملك (حوالي ٣٠٥ ق . م .) بسمين قليلة أصدر عملتين ، فضية وذهبية ، أقل وزناً من العملة القديمة لتنشيط التجارة الخارجية والتوفيق بين العملة وأسعار المعادن النفيسة التي كانت تزداد باطراد في حالة الفضة وتتناقص في حالة الذهب . ولم تعن قاعدة العملة الجديدة اتفاقاً تاماً مع قاعدة أي عملة معروفة عندئذ ، لكنها كانت تقترب جداً من قاعدة النظام الرودسي . وبعد ذلك أنقص بطليموس وزن العملتين الفضية والذهبية ثانية باتخاذ قاعدة العملة الفينيقية . وقد احتفظ البطالمة حتى نهاية أسرتهم بهذه القاعدة التي اتبعتها أيضاً امبراطوريتهم البحرية وكذلك كل البلاد التي خضعت لنفوذهم بأي طريقة كانت .

وحتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد كانت الفضة هي القاعدة الأساسية للعملة البطلمية . لكن عندما قلت الفضة التي كانت مصر تحصل عليها من تجارتها مع بلاد الاغريق وقرطجنة نتيجة لانكماش تجارتها الخارجية بسبب سوء حالتها الاقتصادية ، وضياع ممتلكاتها الخارجية ، وتقلص سيطرتها على الطرق التجارية ، ودخول الحرب السورية الثانية مرحلتها الحاسمة ، اضطرت مصر الى اتخاذ البرونز قاعدة أساسية لنقدها . واذا كان هذا التغيير قد أفضى الى ازدياد تداول العملة البرونزية مع ما يقابل ذلك من نقص تداول العملة الفضية ، فانه لم يؤد الى القضاء كلية على قاعدة الفضة .

ولما كانت حال البلاد الاقتصادية قد أخذت تسير من سيء الى أسوأ ، ونقصت تبعاً لذلك موارد البطالمة بينما لم تنقص التزاماتهم ، فانهم لتخفيف عبء الالتزامات على حساب سكان البلاد لجأوا الى زيادة القيمة الاسمية للعملة البرونزية ثلاث مرات منذ حوالي عام ١٨٢ ق . م . حتى سقوط دولتهم ففي آخر عهد بطليموس الخامس بلغت الأجور والأسعار ١٢٠ مرة كالأجور والأسعار السائدة في عهد بطليموس الثاني والثالث . وعند منتصف القرن الثاني ارتفعت الأجور والأسعار الى ٢٤٠ مرة مثل ما كانت عليه في عهد بطليموس الثاني والثالث . وفي خلال القرن الأخير من حكم البطالمة بلغت الأجور والأسعار ٤٨٠ مرة مثل ما كانت عليه في عهد بطليموس الثاني والثالث .

الفصل الخامس

النظام المالي

الادارة المالية — نظام الأراضي — تنظيم الصناعات والحرف — نظام التجارة — ضرائب شتى — نظام جباية الضرائب

أولا — الادارة المالية

يجدر بنا أن نشير أولا الى أن نظم البطالمة المالية كانت شرقية في جوهرها ، فقد كانت تستند الى أن الملك صاحب الأرض وما عليها وما في باطنها ، والى أن الأهالي يطيعون هذا الملك الاله طاعة عمياء . ومع أن البطالمة صبغوا هذه النظم بصبغة اغريقية قوية تتضح في دقة صياغتها واصطلاحاتها وحرصها تنظيم الضرائب واشراف الادارة المالية على موارد الدولة المختلفة ، وخاصة في نظام المحاسبة والمراجعة الذي لم يكن لمصر عهد بمثله من قبل ، الا أن هذه النظم أغفلت الى حد كبير جوهر النظم الاغريقية ، وهو يتلخص في مبدأين أساسيين : الامتلاك الخاص وحرية النشاط الاقتصادي .

وقد كان يختص بحسابات الدخل والخرج خزانة مركزية أطلق عليها اسم « خزانة الملك » . وكان مدير هذه الخزانة يدعى ديويكيتس ، ويمكن تشبيهه بوزير المالية عندنا ، فقد كان مسئولا عن كل الادارة المالية في مصر وفي كل ممتلكاتها الخارجية . وكانت اختصاصات هذا الوزير فضفاضة واسعة ، فهو الذي كان ينظم بأوامره كل شئون الادارة المالية دخلا وخرجا في مصر وفي ولاياتها . ويعين موظفي الادارة المالية ورواتبهم ويعاقب المقصرين منهم ، وتمتد سلطاته على كل الذين يشتغلون باستغلال موارد الدولة مثل الأراضي والاحتكارات .

ونستمد معلومات وفيرة عن وثائق زينون البردية عن ابولونيوس وزير مالية بطلميوس الثاني . ويبدو ان ابولونيوس عين في منصبه الكبير حوالي عام ٢٦٢ ق. م. وانه بقى فيه حتى وفاة بطلميوس الثاني ، وانه عزل وصودرت أملاكه قبل العام الخامس من عهد بطلميوس الثالث . ويتبين بوضوح من وثائق زينون أن ابولونيوس لم يقصر نشاطه على مهام منصبه فقط ، فهو لم يكن وزيرا فحسب بل كان أيضا تاجرا وصاحب ضياع ومصانع ويملك أسطولا بحريا وآخر نهريا . ولعل

ابولونيوس كان فى طليعة أولئك الوزراء الذين لا يكتفون بالاضطلاع بأعباء مناصبهم فى مكاتبهم ، اذ تحدثنا الوثائق عن طوافه بالمديريات من أجل الاشراف على أعمال مرءوسيه والبت فيما يعرض عليه من المشاكل . وكان يتغيب فى بعض الأحيان عن العاصمة بضعة أشهر ، وتصحبه فى هذه الرحلات حاشية كبيرة من الأعضاء والموظفين فقد كانت لوزير المالية حاشية تبدو كأنها صورة مصغرة لحاشية الملك .

وكان يوجد الى جانب وزير المالية وتحت اشرافه مراجع عام للحسابات والاحصاءات eklogistes كان له ممثلون محليون فى المديريات . وكان لوزير المالية مساعدون كثيرون hypodioiketai يبدو ان كل واحد منهم كان يختص بالاشراف على شئون منطقة معينة تشمل عددا من المديريات . وكان للادارة المالية المركزية مفتشون كثيرون ينتشرون فى المديريات والأقاليم والقرى ، ويختص كل منهم بمهام معينة تحت اشراف رقابة دقيقة . وكان هذا الجهاز المعقد يكفل للدولة بسط رقابتها على مختلف مرافق البلاد الاقتصادية ، وتطبيق النظم التى وضعت لتلك المرافق ، وجمع كافة البيانات الخاصة بالموارد التى تستمدها الدولة من كافة أنحاء كل مديرية ، وضمان الحصول على كل ما تستحقه الدولة من تلك الموارد .

وقد لجأ البطالمة الى وسائل مختلفة لضمان أداء الموظفين واجباتهم بأمانة ، مثل حلف اليمين ، وتعيين مختلف المراقبين ، لكن هذه الوسائل فشلت فى تحقيق الغاية المنشودة . ومرد ذلك الى ثلاثة عوامل وهى : أولا المسئولية الملقاة على عاتقهم عن دخل الملك ، وثانيا الرشاوى التى كانوا يقدمونها لمسئولين من أجل الحصول على مناصبهم . وثالثا السلطة المطلقة التى كانوا يتمتعون بها على شعب أذله الحكم الأجنبى وأخضعته القسوة فلا عجب ازاء ذلك ان أساء الموظفون استغلال سلطتهم الى حد انهم أصبحوا فى الواقع أشد خطرا على البطانة من التعسفى الذين وقعت عليهم المظالم وهبوا ثائرين لعرض شدتها فى وجه البطالمة .

ثانيا ــ نظام الاراضى :

لقد عرفنا ان البطالمة كانوا يعتبرون مصر ضيعة لهم بحق الفتح وحق الملوك الالهى وقد ترتب على ذلك ان الملك كان من الناحية النظرية المالك الوحيد لهذه الضيعة ، ومن ثم يمكن تقسيم الأرض فى عهد البطالمة قسمين رئيسيين وهما : أرض الملك ، وأرض العطاء .

١ ــ أرض الملك :

وتشمل كل أرض مصر الصالحة للزراعة التى كان الملك يستثمرها مباشرة بتأجيرها بالمزاد العلنى لمزارعين كانوا يدعون « مزارعى الملك » . وكانت علاقات هؤلاء المزارعين بالملك ترتكز على عقود كانت فى القرن الثالث قبل الميلاد لمدد قصيرة الأجل ، لكنه

كان من بين النتائج التي ترتبت على تدهور الحالة الزراعية وفرار المزارعين من أراضيهم اطالة مدة العقود .

ومع ان مزارعي الملك كانوا رجالا أحرارا ، الا أنه كان يتعين عليهم زراعة الأرض التي استأجروها وعدم مبارحة قراهم طوال موسم الزراعة وحتى يسددوا للملك جميع التزاماتهم قبله . وفضلا عن ذلك فانه لم يكن في وسع المستأجر أن يزرع الأرض التي استأجرها كما يشاء ، وانما وفقا لتعليمات التي كانت الحكومة تصدرها سنويا لتحدد بمقتضاها المساحة التي يجب زراعتها في كل مديرية قمحا وشعيرا وأذرة وكتانا وحبوبا زيتية . ولكي تضمن الحكومة زراعة الأرض وجودة البذور ، كانت تفرض على المستأجر أن يقترض منها البذور لقاء فائدة قدرها ٥٠٪ . وكان يتعين على المزارع أن يجمع المحصول وينقله الى المخزن الملكي ويدرسه تحت رقابة حراس مسئولين ، والا يمس منه شيئا قبل أن يأخذ الملك كل ما يستحقه . وكان ذلك عبارة عن الايجار السنوي مضافا اليه أجر استخدام مواشي الملك والفائدة عن قرض البذور وسلسلة من الضرائب ، فكان لا يتبقى للفلاح بعد ذلك الا أقل من نصف المحصول في مقابل كل ما أنفقه من جهد فلا عجب انه لم يكن سعيدا راضيا عن حاله .

وعندما تدهورت الزراعة ازدادت حالة مزارعي الملك سوءا حتى ان الكثيرين منهم لم يجدوا منفذا أمامهم الا ترك العمل والهرب . وعندما أعيت الحكومة شتى الحيل لضمان استغلال أرض الملك ، اضطرت الى الالتجاء الى الاكراه لتحقيق بغيتها ، لكنها بقدر ما أوغلت في استخدام هذه الوسيلة استفحل داء هرب المزارعين حتى أصبح وباء متفشيا في كل أنحاء مصر .

٢ ـ أرض العطاء :

ويبدو أنه لم يكن لعبارة « أرض العطاء » مدلول متفق عليه دواما حتى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد عندما أصبحت تشمل الأنواع التالية من الأرض :

ا ـ الأرض المقدسة :

كانت ثروة المعابد نوعين ، وكان النوع الأول ملكا خاصا للآلهة . وكانت أهم أملاك الآلهة عبارة عن الأرض التي كان الملوك يمنحونها منذ غابر الزمن لمختلف الآلهة ، حتى أصبحت لأولئك الآلهة ممتلكات واسعة كانت مصدر ثراء الكهنة وأحد أسباب قوتهم ونفوذهم . فقد كان كهنة كل معبد يتولون ادارة أرض معبودهم . الى أن أسند البطالمة الأوائل ادارة أراضي المعابد المصرية الى الحكومة ليجعلوا العمل المادي سيفا مسلطا على رقاب الكهنة يضمن خضوعهم لسلطانهم . ولا يبعد أن البطالمة كانوا يستفيدون أيضا ماديا من وراء قيام الحكومة بادارة أرض المعابد . وعلى كل حال يبدو ان الحكومة كانت ترد الجانب الأكبر من دخل أراضي

المعابد فى شكل المرتبات التى كانت تدفعها للكهنة. ويبين أنه حوالى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد، ازاء ضعف البطالمة الأواخر وازدياد نفوذ الكهنة، استرد رجال الدين ادارة الأرض المقدسة.

أما النوع الثانى من ثروة المعابد فكان الكهنة يملكون أو يتسلمون بدخله للقيام بشئون العبادة، فقد كان يتصل ببعض مناصب الكهنة موارد مختلفة تدر على شاغلى تلك المناصب دخلا معينا. ويلوح انه قبل عصر البطالمة كان الكهنة يستطيعون التصرف فى دخل هذه الموارد بالبيع او التوريث، لكن البطالمة جعلوا الحكومة هى التى تبيع مناصب الكهنة وما يتبعها من الموارد دون أن تعطى المشترين حق التصرف فى تلك الموارد. وقد حرص البطالمة على هذا الحق حتى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد، ومع ذلك تشير بعض الوثائق الى أن الكهنة درجوا فعلا على بيع مناصبهم ورهنها وتأجيرها وتقسيمها وتوريثها.

ب ـ الاقطاعات العسكرية:

لقد سلف القول ان البطالمة، ولا سيما أوائلهم، اعتمدوا الى حد كبير على متطوعين من الأجانب فى بناء قوتهم العسكرية. وقد درج البطالمة على منح أولئك المتطوعين اقطاعات كانت تعتبر بمثابة مرتباتهم فى وقت السلم. وكان البطالمة يتوخون من وراء ذلك: أولا، ضمان سد حاجتهم الى الجند المدربين كلما اقتضى الأمر ذلك، دون تحمل نفقات الاحتفاظ بجيش قائم. وثانيا، ادخال وسائل اقتصادية جديدة فى مصر. وثالثا، نشر الحضارة الاغريقية فى أنحاء البلاد.

وكانت مساحة الاقطاع تختلف بحسب مرتبة الشخص، وهل هو فى فرق المشاة، أم فرق الفرسان ذات الأرقام، أم فرق الفرسان القومية، وهل هو فى الفرق النظامية، أم فى فرق الجنود المرتزقة، أم فى الفرق المصرية.

وفى أول الأمر كان الاقطاع ملكا للتاج، فكان الملك يستطيع استرداده ولا سيما اذا أهمل رب الاقطاع فى أداء واجباته أو توفى. ولما كان من صالح الملك أن يخلف رب الاقطاع المتوفى جندى جديد فى الجيش وفى الاقطاع، وكان من صالح أسرة رب الاقطاع أن تستمر فى استغلال الاقطاع، فقد أدت على هذا النحو مصالح الملك وأرباب الاقطاعات الى جعل الاقطاع وراثيا.

وفى القرن الثالث كان الملك يمنح الاقطاعات عادة من الأرض التى استصلحتها الحكومة. لكن عندما تطورت ملكية كثير من الاقطاعات الى ملكية خاصة، وأفضى تدهور الزراعة الى نقص مساحة الأرض المنزرعة، لم يبق هناك مجال لاعطاء الجنود الجدد سوى تلك الأراضى التى أصبحت بسبب ما خلال سنين الاضطرابات العصيبة فى القرن الثانى قبل الميلاد ضعيفة أو غير مثمرة. ولما لم يكن لكثير من أرباب

الاقطاعات خبرة بالزراعة ، وكانوا كثيرا ما يدعون للخدمة العسكرية ، أو القيام بأعمال الحاميات في مصر أو في الخارج ، أو للقيام بالمناورات ، فانهم كانوا عادة يفضلون تأجيرها لمزارعين مصريين .

والى جانب الاقطاعات كان الجنود يمنحون مسكنا . وفي القرى الجديدة كان الملك أو أصحاب الضياع يشيدون لهم بيوتا ، أما في المدن والقرى الجديدة ، فان الجنود كانوا يمنحون مساكن في بيوت الأهالي . واذا كان المصريون باعتبارهم الغالبية العظمى من سكان البلاد ، قد تحملوا الجانب الأكبر من عبء ايواء الجنود ، فان الاغريق كانوا يشاركونهم تحمل هذا العبء منذ القرن الثالث قبل الميلاد .

جـ ـ أرض الهبات :

وهذه الأرض نوعان ، كان أحدهما عبارة عن أرض يتمتع دخلها بمثابة مرتب موظف الحكومة الذي منح هذه الأرض . أما النوع الآخر فكان عبارة عن الضياع الكبيرة التي أغدقها البطالمة على أصحاب الحظوة لديهم من كبار موظفيهم المدنيين والعسكريين ، الذين اتصفوا بوفرة النشاط وحسن التدبير .

وتشير الوثائق الى أن الهبات قد تشمل أرضا زراعية فقط ، أو أرضا زراعية وقرية واحدة ، أو عدة قرى فقط ، والى أن الهبة كانت منحة شخصية لا يجوز التصرف فيها بالبيع أو الرهن أو التوريث ، والى أن الأرض الصالحة للزراعة في الضياع الموهوبة كانت تعامل مثل أرض الملك ، أي انها كانت تدفع للتاج ايجارا وضرائب .

د ـ أرض الامتلاك الخاص :

تبين من الوثائق انه كانت توجد في جهات متفرقة في مصر مساحات كبيرة من الأرض يمتلكها الأفراد . وتشير الوثائق الى انه في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد كانت زراعة الكروم وبساتين الفاكهة في الأرض التي هجرت بسبب جفافها أو طغيان المياه عليها تكسب الزراع حق امتلاك هذه الأرض امتلاكا تاما . ولا يبعد ان هذه القاعدة كانت متبعة منذ القرن الثالث أيضا . وكان الأفراد يمتلكون كذلك امتلاكا حرا أراضي البناء وما عليها من مبان . ويبدو أن البطالمة قد عملوا منذ بداية عهدهم على ازدياد مساحة أرض الامتلاك الخاص . فقد كان ذلك يساعد على اتساع مساحة الأرض المزروعة ، وعلى نشر غرس الكروم وبساتين الفاكهة ، وعلى وجود طبقة من أصحاب الأملاك تمد البطالمة بأعداد وفيرة من الموظفين والملتزمين وضامنيهم الذين يمكن الرجوع على ممتلكاتهم في حالة عدم الوفاء بالتزاماتهم .

ولتبين من الوثائق انه كانت توجد في جهات متفرقة ، وخاصة في الوجه القبلي ، مساحات من الأرض تزرع حبوبا ويمكن التصرف فيها بالبيع والشراء والرهن

والثورييت . ومع ذلك لا نستطيع اعتبارها ملكا حرا لأربابها لعدة أسباب ، أهمها ان أرباب هذا النوع من الأرض كانوا يدفعون عنها ايجارا للتاج ، وان الملك كان يستطيع استرداد هذه الأرض . وازاء ذلك لا يعد ان أرباب هــذه الأرض كانوا لا يملكون أرضهم ملكا حرا وانما يملكون فقط حق استغلالها ويستطيعون التصرف فى هذا الحق مما جعل هذا النوع من الأرض شديد الشبه بالأرض المملوكة امتلاكا حرا .

ثالثا ــ نظام الصناعات والحرف

وقد كانت فى حوزة البطالمة كميات وفيرة من المواد الخام ، كما كانت تحت امرتهم أعداد كبيرة من الصناع المهرة ؛ وهكذا توافر لديهم العاملان الأساسيان اللذان يكفلان ادرار أرباح وفيرة من الصناعة . وقد ترتب عــلى استغلال هذين العاملين استغلالا منظما دقيقا الى ما يعرف باحتكارات البطالمة أو بالاقتصاد الموجه فى ميدان الصناعة البطلمية . فقد كان البطالمة يحتكرون بعض الصناعات والحرف احتكارا كليا ، مثل استخراج الزيت والملــح والجعة واستغلال المناجم والمحاجر ودباغــة الجلود والمصارف المالية ؛ ويشرفون عــلى البعض الآخــر ويحتكرونه احتكارا جزئيا مثل صناعة النسيج والورق وتربية النحــل والماشية والدواجن . وسنكتفى فى هذا الصدد بالكلام عن صناعتى الزيت والنسيج وعن المصارف المالية .

١ ــ صناعة الزيت :

كانت لهذه الصناعة شأن كبير فى مصر منذ عهد بعيد ، لكنها ازدادت شأنا فى عصر البطالمة ، فقد صاحب استصلاح الأرض البور زراعة مساحات واسعة نباتات زيتية ؛ ووجه البطالمة عناية كبيرة الى تنظيم هذه الصناعة تنظيما دقيقا ؛ لزيادة الانتاج وتحســـــين الصنف . ومعلوماتنا عن هذه الصناعة أوفى منها عن أى صناعة أخرى .

ويتبين من اللوائح الخاصة بتنظيم هذه الصـــــناعة ان البطالمة كانوا يتوخون ثلاثة أهداف رئيــية وهى : أولا ؛ قصر استخراج الزيت عــلى الملتزمين الذين اشــــتروا من الحــكومة حق التزام صـــــناعة الزيت من السمسم أو الخــــروع أو القرطم ، لكن الحكومة كانت تسمح للمعابد بأن تصنع من زيت السمسم فى خلال شهرين ما تحتاج اليه فى عام واحد . وثانيا ، ألا يستخرج أحد الزيت خفية والا قدم لمحاكمة وفرضت عليه عقوبات صارمة ، وثالثا ؛ أن تتوفر المادة الخام والأيدى العاملة لدى ملتزمى هــذه الصناعة فقد كانت تحدد كل عام مساحة الأرض التى تزرع نباتات زيتية ، وتفرض على الأهالى بيع المحصول كله بسعر معين لملتزم صناعة الزيت فى المنطقة ، ويحظر عــلى عمــــال صناعة الزيت مبارحة المديرية الى مديرية أخرى .

وكان الملتزم يشـــــترى حق الالتزام فى

منطقة معينة لمدة عامين ، ويتعين عليه عندئذ استخراج الزيت من كل الحبوب الزيتية التي يشتريها ، بل اختزان كمية معينة منها بمثابة احتياطي للعام التالي .

ولكي يستفيد الملك من احتكار الزيت الى أقصى حد لم يتوان في حماية الانتاج الداخلي من المنافسة الخارجية الشديدة : فقد كان سعر الزيت في العالم الاغريقي أقل تكلفة منه في مصر . ولذلك تقرر الا يسمح لأحد باستيراد الزيت من الخارج للمتاجرة فيه أو أكثر من استهلاكه الشخصي لمدة ثلاثة أيام ، وفي هذه الحالة كان عليه دفع ضريبة تعادل ٥٠٪ تقريبا من سعره : لكن يبين انه في القرن الثاني قبل الميلاد رفعت الحكومة الحظر الذي كانت قد فرضته من قبل على استيراد الزيت الأجنبي . وتقدر الأرباح التي كان البطالمة يجنونها من وراء احتكار صناعة الزيت وبيعه بسبعين في المائة في حالة زيت السمسم و ٣٠٠٪ في حالة زيت الحنظل .

٢ ـ صناعة النسيج :

ويتبين من الوثائق المختلفة ان الحكومة كانت تحدد مساحة الأرض التي يجب زرعها كتانا ، وتحتم أن يباع لها بسعر معين مقدار معين فقط من محصول الكتان . وكانت الحكومة تبذل قصارى جهدها حتى يزاول النسيج في كل مديرية أكبر عدد ممكن من الأنوال . وكان على كل مديرية أن تقدم للحكومة كمية معينة فقط من الأقمشة والملابس التي أنتجتها . ويبدو ان هذه الكمية كانت نسبة معينة من انتاج الأنوال العاملة . وفي حالة العجز عن السداد كان يتعين دفع ثمن المنسوجات بحسب ما حددته اللوائح . وكذلك في حالة هبوط المنسوجات عن المستوى المطلوب كانت تفرض غرامات من أجل المحافظة على مستوى الصناعة . وفضلا عن ذلك كانت الحكومة تفرض على الناسجين دفع ضريبة لحسابها كانت ضريبة الترخيص بمزاولة النسيج .

ولما كانت الحكومة لا تشترى كل محصول الكتان ولا تفرض على الناسجين أن يقدموا لها كل منتجاتهم فانه تتبين من ذلك انها كانت لا تحتكر هذه الصناعة احتكارا كليا مثل صناعة الزيت ، وان كانت تشرف عليها وتسهم فيها . ولابد من ان الكتان الذي كانت تفرض بيعه لها بسعر معين كان يصنع في مصانع ملكية غير مصانع الأهالي .

ويمكننا أن نتبين مما أوردناه ان دخل الحكومة من الصناعات التي كانت لا تحتكرها احتكارا كليا كان عبارة عن نسبة معينة من انتاج المشتغلين بها ، وضريبة لمزاولة هذه الصناعات .

٣ ـ المصارف المالية :

ويبدو ان عملية استبدال النقود وسائر الاعمال المصرفية قد وجدت في بلاد الاغريق

منذ أخذ تداول النقد ينتشر ويعم فى تلك البلاد . أما مصر فانها لم تعرف المصارف المالية بأدق معانى الكلمة الا عندما أنشئت فى كل أرجائها بعد الفتح المقدونى .

وكان وزير المالية يشرف على المصرف الملكى الرئيسى فى الاسكندرية وفروعه فى عواصم المديريات والأقاليم والقرى . وكانت توجد صلة وثيقة بين هذه المصارف الملكية وبين فروع الخزانة الملكية فى أنحاء البلاد ، لكن يجب عدم الخلط بينهما لأنهما وان اتفقا فى الاسم كان لكل منهما اختصاص معين . فقد كانت المصارف الملكية تقوم بالأعمال المصرفية العادية ، أما أعمال فروع الخزانة الملكية فانها كانت مقصورة على تسلم كافة الأموال الأميرية على اختلاف أنواع مصادرها سواء من الأهالى أم من الملتزمين أم من الموظفين المكلفين بجمعها . وعندما أنشئ فى القرن الثانى قبل الميلاد ادارة حساب الملك الخاص أدى ذلك الى انشاء خزائن جديدة تدعى « خزائن الحساب الخاص » الى جانب الخزائن الملكية .

وكان الملك يبيع حق ادارة المصارف الملكية لملتزميه بمقتضى عقود كانت مدة سريانها أحيانا سنتين وأحيانا خمس سنوات وأحيانا أكثر من ذلك . وكان الملك يضمن للملتزمين احتكار بيع النقود وشرائها واستبدالها ، ويقدم لهذه المصارف على الأقل جانبا من أموالها . فقد كان يتعين على الخزائن الملكية فى القرى وفى المدن دفع ما تتسلمه من الأموال العامة الى المصارف الملكية ، كل فى منطقته كل عشرة أيام . ومن ثم يتبين لنا أن بيع التزام أعمال المصارف كان يمثل الأرباح التى يجنيها الملك من صافى دخله .

وقد كان مديرو المصارف أو على الأصح ملتزمو ادارتها من الاغريق ، وكذلك كان أيضا عملاؤهم . ولعل اقتصار أعمال المصارف وحركة تعاملها على الاغريق يرجع الى قصر غالبية المصريين وقلة الفتهم باستخدام النقود . ولا يبعد أنه كان يرجع كذلك الى أن المصريين كانوا يفضلون أن يحذوا حذو آبائهم وأجدادهم ويضعوا أموالهم فى حماية الآلهة . فقد كانت المعابد منشآت مالية هامة تقوم بالكثير من أوجه نشاط المصارف المالية .

رابعا ــ نظام التجارة

١ ــ التجارة الداخلية

ويتبين من الوثائق ان تجارة الحبوب الغذائية فى مصر كانت حرة فيما عدا الكميات التى كان الملك يحتم على بعض الزراع أن يبيعوها اياه بسعر معين ليسد بها فيما يبدو حاجة المديريات التى تفتقر الى ما يكفيها من الحبوب . ومعنى ذلك ان الاتجار فى الحبوب الغذائية كانت تشوبه بعض القيود ، ومن ثم لا يمكن القول بأنه كان حرا حرية مطلقة .

أما الحبوب الزيتية فان الحكومة كانت تفرض بيع كل محصولها بسعر محدد لملتزمى صناعة الزيت . وكان حق بيع الزيت يباع

للملتزمين بمقتضى مزاد علني . ومما يجدر بالملاحظة ان المزايدة لم تكن على سعر الزيت لأن الملك كان يحدد سعر البيع بالتجزئة ، وانما على كمية الزيت التي تباع يوميا في كل مكان .

وكانت الحكومة تحتم بيع مقدار معين لها من محصول الكتان بسعر معين . أما بقية المحصول فلم يكن خاضعا لأي قيد ، وكان يباع في الأسواق بأسعار متفاوتة .

ويتبين من كل ما سلف صحة ما يذهب اليه البعض من أنه لم يكن للتجارة الحرة وجود في مدن مصر وقراها ، اللهم الا اذا استثنينا الاسكندرية فيما يلوح .

ويبدو انه في حالة السلع التي كانت الحكومة تحتكر صنعها وبيعها أو تحتم اعطاءها نصيبا معينا منها كانت الحكومة تعتبر تجارة التجزئة بمثابة عملائها الذين يساعدونها على بيع السلع للأهالي . والمرجح ان كل أصحاب الحوانيت كانوا يضطرون الى الحصول من الحكومة على تراخيص لمزاولة البيع ، والى اعطاء الحكومة في مقابل ذلك جانبا كبيرا من أرباحهم .

ويتضح من احدى وثائق القرن الثالث قبل الميلاد ان وزير المالية كان يقسم السلع قسمين : أحدهما ، السلع التي حددت الحكومة أسعارها ، ويبدو أن هذه السلع كانت عبارة عن منتجات الصناعات التي كانت الحكومة تحتكرها كليا أو جزئيا ، مثل الزيت والمنسوجات ، ومن المرجح أيضا الملح والمعادن والعطور . أما القسم الثاني فكان يشمل السلع التي لم تحدد الحكومة أسعارها وكان يبيعها الأشخاص الذين اشتروا من الحكومة حق انتاجها وبيعها . فقد كان كثير من الحرف والصناعات خاضعا لنظام قوامه أن يستأجر ملتزم من الحكومة حق انتاج سلعة وبيعها في منطقة معينة مثل صناعة الجعة . لكن في بعض الأحيان كان حق البيع وحده هو الذي يستأجر مثل بيع اللحوم والعدس المطهي . ولا شك في أن أغلب هؤلاء الملتزمين كانوا يحددون السعر وفقا لحالة العرض والطلب ، لكنه لكيلا يغالي التجار في أرباحهم ، رأى وزير المالية الا يترك لهم الحبل على الغارب ، ولذلك طلب الى وكلائه أن يحددوا لهم أرباحا معقولة ، ومعنى ذلك انه حتى في حالة السلع التي كانت الحكومة لا تحدد أسعارها وربما لم يكن الاتجار مطلقا ومحررا من كل قيد ، لأن الأسعار كانت خاضعة لنوع من الاشراف . وليس معنى ذلك ان كافة السلع التي لم تكن لها أسعار محددة كانت خاضعة لاشراف الحكومة ، اذ تشير الوثائق الى أن أسعار الحبوب الغذائية كانت تتفاوت من وقت الى آخر ومن مكان الى مكان ، كما تشير الى أن الأثرياء كانوا يجنون منها أرباحا فاحشة ، ولعل مرد ذلك الى أن الملك كان أكبر تاجر للحبوب الغذائية .

ويمكن أن توجز موارد الحكومة من التجارة الداخلية في :

(أ) الأرباح التجارية التي تجنيها من المواد التي كانت تحتكر صنعها وبيعها أو استيرادها وبيعها .

(ب) الأجر الذي تجبيه نظير السماح بالتزام صنع وبيع السلع أو بيعها فقط .

(جـ) الضرائب التي كانت تفرضها على تجار التجزئة .

(د) الضرائب التي كانت تفرضها على الأهالي لقاء شراء مادة كانت الحكومة تحتكر صنعها أو استخراجها مثل الملح والجعة .

(هـ) المكوس والعوائد التي كانت الحكومة تحصلها عند نقل السلع من منطقة الى أخرى .

٢ ـ التجارة الخارجية :

ويمكن تقسيم واردات مصر من ممتلكاتها ومن سائر بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبلاد الشمالية الغربية قسمين . وأحدهما المواد التي كانت مصر تفتقر اليها مثل الأخشاب والمعادن والخيول ، ونرجح ان اللازم منها لسد حاجة الجيش والأسطول وباقي مصالح الحكومة والمنشآت العامة كان استيراده وقفا على الملك ، أما ما يلزم من هذه المواد لسد حاجة الأفراد فكان التجار هم الذين يستوردونه ويدفعون عنه مكوسا جمركية معقولة . وكان القسم الآخر يشمل سلعا تنتج مصر مثلها ، وكان التجار هم الذين يستوردون هذه السلع ويدفعون عنها مكوسا مرتفعة . ويتبين من الوثائق ان البضائع المستوردة من الخارج على الأقل في عهد بطلميوس الثاني كانت أربع فئات بحسب المكوس الجمركية التي تجبى عنها ، وكان قدرها ٥٠٪ عن الفئة الأولى و ٣٣٪ عن الفئة الثانية و ٢٥٪ عن الفئة الثالثة و ٢٠٪ عن الفئة الرابعة . وكانت الفئة الأولى تشمل الزيت وعدة أنواع من النبيذ الفاخر فيما يبدو ، والفئة الثانية نبيذ خيوس وثاسوس وكذلك التين ، والفئة الثالثة العسل والجبن واللحوم والأسماك المجففة والكوامخ والاسفنج والجوز والرمان والآنية الفخارية ، والفئة الرابعة الصوف .

ومما يجدر ملاحظته انه اذا كانت هذه المكوس الجمركية تبدو مرتفعة جدا بالقياس الى المكوس التي كانت تجبى في باقي بلاد البحر الأبيض المتوسط ، فان هذه المكوس البطلمية كانت تقابل الضرائب المفروضة على منتجات البلاد ، فقد كانت ضريبتا ٥٠٪ و ٣٣٪ اللتين تدفعهما مستورد النبيذ الاغريقي تقابلان ضريبتي النصف والثلث المفروضتين على زراعي الكروم ، وكذلك كانت ضريبة ٢٥٪ المفروضة على العسل الأجنبي تقابل ضريبة الربع المفروضة على النحالين في مصر ، وضريبة ٢٥٪ المفروضة على الأسماك المجففة تقابل ضريبة الربع المفروضة على صائدي الأسماك المحليين .

أما الزيت فقد كان استيراده محظورا فى القرن الثالث قبل الميلاد الا للاستعمال الخاص ، وكان يفرض عليه مكوس قدرها ٥٠٪ ويتمن بيعه فى الحال للملك بسعر محدد.

ويبين مما أسلفناه ان المكوس الجمركية المرتفعة لم يقصد بها حماية المنتجات المصرية لذاتها ، وانما قصد بها حماية موارد الحكومة من تلك المنتجات .

اما عن واردات مصر من الجنوب والشرق فانه يرجع ان الملك كان يحتكر شراء هذه السلع عندما كان التجار ينقلونها الى مصر أو ممتلكاتها . ومما يبدو ان الملك كان يحتم بيع هذه السلع له بسعر محدد بمجرد وصولها. ولم تكن العطور والبخور والمر تستهلك عادة فى شكلها الخام بل تدخل الى روائح ومساحيق وأدوية ، لكننا لم نجد بعد فى الوثائق شيئا عن النظام الذى كانت تقوم عليه صناعتها ، وان كنا لا نستبعد ان البطالمة كانوا يحتكرون هذه الصناعة . ولا نستبعد أيضا ان البطالمة كانوا يحتكرون تصدير هذه السلع فى شكلها الخام وكذلك بعد صنعها .

ويحتدم اليوم جدل عنيف بين العلماء حول من كان يقوم بتصدير السلع الأخرى من مصر ، فقد سبق أن عرفنا ان صادرات مصر الى العالم الغربي لم تقتصر على سلع الجنوب والشرق فحسب بل كانت تشمل أيضا منتجات مصرية كانت أهمها الحبوب والورق والمنسوجات الكتانية ، وان مصر كانت تصدر الى الجنوب والشرق كثيرا من مصنوعاتها مثل المنسوجات والزيوت والآنية الزجاجية والأسلحة وغيرها من معدات القتال ، وكذلك النبيذ المستورد من البحر الأبيض المتوسط . ونحن نرى ان الملك كان يسهم فى تجارة الصادرات لكنه لم يحتكرها ، وان كان يشرف عليها اشرافا دقيقا من أجل الحصول من التجار على ضرائب نظير مزاولتهم هذا العمل ، وكذلك من أجل الحصول على المكوس الجمركية ، وقبل كل شيء من أجل ضمان عدم استنزاف كل منتجات البلاد فى التصدير ، خشية أن يقل المعروض فى الأسواق المحلية فترتفع أسعار المعيشة تبعا لذلك مما يفضى حتما الى زيادة تكاليف الانتاج فتقل أرباحه !

خامسا ـ ضرائب شتى

وبالاضافة الى الضرائب المتعددة التى فرضها البطالمة على مزارعى الملك ومختلف أرباب الأراضى والمشتغلين بالحرف والصناعات والتجارة ، فرضوا على رعاياهم ضرائب شتى درت عليهم دخلا وفيرا . ولعل أهم هذه الضرائب المتنوعة كانت الضرائب التى فرضوها على : (١) المبانى (٢) العبيد (٣) تسجيل العقود (٤) البيع والشراء (٥) المزادات (٦) انتقال ملكية الأملاك الثابتة (٧) الميراث (٨) استخدام الموانى (٩) استخدام الطرق الخ .. وذلك فضلا عن السخرة وعدد من الضرائب الاضافية .

سادساً ـ نظام جباية الضرائب

وقد لجأ البطالمة الى نظام الالتزام في جباية الضرائب نوعية كانت أم نقدية . وكان الملتزمون لا يقومون بجباية الضرائب ، لكنهم كانوا يسهمون في الاشراف على جبايتها ، لأنهم بمقتضى تعاقدهم مع الملك كانوا يضمنون له الحصول على ما التزموه من الضرائب على قدر معين من المواد أو المال .

وكان يشهر سنوياً في المزاد دخل كل ضريبة على حدة في منطقة معينة لم تزد اطلاقاً في أي حالة على مديرية واحدة ، وكان يعين الاعلان عن المزاد وكل ما ينطوي عليه مدة كافية تسمح للراغبين في المزايدة بمعرفة دقائق ما سيشهر في المزاد . وكان المزاد يرسو على من يضمن للحكومة أكبر حصيلة ممكنة من ضريبة بعينها . وتشير الوثائق الى أنه كان يمكن السماح بفتح باب المزايدة من جديد بعد انتهائها ، بشرط ألا تقل الزيادة المعروضة عن ١٠٪ مما كان المزاد قد رسا عليه . وكان يتعين على الملتزمين الذين يرسو المزاد عليهم أن يقدموا أشخاصاً يضمنون الوفاء بما تم التعاقد عليه . وكان يتعين على الضامنين أن يقدموا ممتلكاتهم رهناً للوفاء بالالتزام المتعاقد عليه ، بشرط أن تكون هذه الممتلكات خالية من أي التزامات أخرى .

وكان يقوم بجباية الضرائب موظفون حكوميون تحت اشراف مراقبين مختلفين وكذلك ملتزم الضريبة . ولما كانت مصالح هؤلاء جميعاً واحدة ، بسبب ما فرضه عليهم القانون من العقوبات اذا أخفقوا في أداء مهامهم ، فقد كان طبيعياً أن يتمالأوا جميعاً على دافعي الضرائب . وهكذا كان هؤلاء الدافعون تحت رحمة أشخاص كل همهم هو الخلاص من المسئولية الملقاة على عاتقهم ، دون نظر الى صالح دافعي الضرائب الذين ساءت حالهم على مضي الزمن بسبب ما أرهقوا به .

وكان ما يجمعه المحصلون يودع لحساب الملتزم في الخزائن الملكية ان كان نقداً ، وفي المخازن الملكية ان كان عيناً . واذا تبين بعد الحساب الختامي آخر العام وجود زيادة في ايراد حصيلة الضريبة ، فانها كانت تؤول الى الملتزم . أما اذا وجد عجز فانه كان يطلب الى الملتزم وضامنيه المساهمة في سداده . وكان ذلك يستتبع الاستيلاء على أملاك الملتزم والضامنين حتى يسدد العجز .

ويبدو ان مهنة التزام الضرائب كانت مصدر ربح غير قليل في بداية عهد البطالمة ، بدليل التنافس في المزايدة وكثرة عدد الملتزمين . لكن يبدو ان الحال قد تبدلت في الشطر الثاني من عصر البطالمة ، والا لما نصت لوائح بطلميوس الخامس على اعطاء الملتزم مرتباً في حالة وفائه بما التزم به وعدم حصوله على مكسب من عمله .

الفصل السادس

القضـــــاء

القانون المدني — القانون الجنائي — الهيئات القضائية

لما كان المصريون أهالي البلاد ويؤلفون الغالبية العظمى من سكانها ، ولهم عادات وتقاليد راسخة وقوانين ونظم جللها الزمن بالمهابة والوقار ، وكان الاغريق أكثر العناصر الأجنبية عددا وأجلهم شأنا وأوفرهم حظا من الحضارة ، فقد أدخل البطالمة كل هـــذه الاعتبارات في حسابهم عند وضـــع نظامهم القضائي . وبيان ذلك انهم احتفظوا للمصريين بقدر ما تسمح الظروف ، بقوانينهم ونظمهم الموروثة ، فكانت تطبق عليهم قوانينهم المدنية التقليدية التي أطلق الاغريق عليها اســـم « قوانين البلاد » .

أما اغريق مصر فانهم كانوا ثلاث فئات وهي فئة مواطني المدن الاغريقية ، وفئة أعضاء الجمعيات القوميـــة وفئة الاغـــريق الذين لم يكونوا مواطنين في المـــدن الاغريقية ولا أعضاء في جمعيات قومية . ولما كان لكل مدينة وجمعية مجموعة من القوانين الاغريقية الخاصة بها وتعرف « بقوانين المواطنين » وكانت قوانين كل مجموعة تختلف عن الأخرى فانه من أجل التيسير بين القوانين وكذلك من أجل تنظيم معاملات الاغريق الذين لم ينتموا الى تلك المدن والجمعيات كان البطالمة يصدرون أوامر ملكية مختلفة الأنواع .

واذا كان البطالمة قد سمحوا للمصريين والاغريق بتنظيم معاملاتهم وفقا لأحـــكام القوانين المدنية التي كان يألفها كل منهما ، فانهم أصدروا للفريقين قانونا جنائيا موحدا وفرضـــوا عليهما اتباع قواعد موحـــدة للاجراءات القضائية .

أولا ــ القانون المدني

١ ــ الأحوال الشخصية :

لقد كان طبيعيا أن توجد فوارق عديدة بين التشريعين المصري والاغريقي ، ونرى مثلا واضحا لهذه الفوارق في نظرة كل منهما الى المرأة ، فقد كانت المرأة تتمتع في كنف القانون المصري بمكانة اجتماعية وقدر من الاستقلال لم تعترف بهما الشرائع الاغريقية . وآية ذلك ان المرأة المصرية كانت لا تتزوج الا بمحض ارادتها وبشروط كانت عادة ثقيلة على الزوج الى حد انها كانت تجعل تعدد الزوجات أمرا متعذرا في الواقع وان كان مباحا من حيث

مليدا . وكانت أيضا تستطيع الانفصال عن زوجها متى شاءت ، ومطالبته بالصداق الذي نص عليه في عقد الزواج ، والتصرف في نفسها وفيما تملك دون أي قيد أو شرط . على حين ان المرأة كانت في نظر القانون الاغريقي قاصرا ، ومن ثم في حاجة الى وصي شرعي عليها في كل تصرفاتها . لكن البطالمة ساووا بين المرأة المصرية والمرأة الاغريقية ، لا برفع الثانية الى المكانة الأولى ، وانما بالهبوط بالأولى الى مستوى الثانية حتى لا تضيق المرأة الاغريقية بحالتها . ونلمس الأثر الاغريقي أيضا في بعض الشئون الخاصة بالميراث مثل استخدام الوصايا ، وحق أحد الزوجين في أن يرث الآخر ، وحق الشخص في قبول الميراث أو رفضه . ومن ناحية أخرى أثر القانون المصري في القانون الاغريقي الخاص بالأحوال الشخصية ، فقد أخذ الاغريق عن المصريين عقود الزواج الخاصة باثبات كل المسائل المالية ، والقواعد الخاصة بسيطرة الأبوين على أبنائهما ، وبعض أحكام الميراث مثل حق البنت في الارث بالتساوي مع الولد وانما بشرط عدم وجود وصية تنافى ذلك .

ويعتقد كثير من العلماء ان القانون المصري كان يعترف بنوعين من الزواج يدعو العلماء أحدهما « الزواج الكامل » والآخر « زواج المتعة أو التجربة » . ويتميز النوع الأول بأنه زواج يثبت وجوده عقد رسمي ينقش الوعد بأن يحيى الطرفان معا حياة زوجية وكذلك شروطا خاصة بالصداق وغير ذلك من العلاقات المادية بين الطرفين ولا سيما حقوق الأولاد . أما النوع الثاني من الزواج فيتميز بأنه زواج لفترة محددة قد يتحول بعدها الى زواج كامل أو قد ينتهي في آخر تلك الفترة ، دون أن تترتب عليه التزامات دائمة بين الطرفين . ويتفق العلماء اليوم على أن الزواج بين المصريين كان يقوم على اتفاق شفوي بين الطرفين ، أما العقد الذي يصحبه فانه كان لا ينتم الزواج وانما يثبت وجوده وينظم العلاقات المادية بين الطرفين ويحفظ حقوق الأولاد .

أما عن الزواج بين الاغريق ، فانهم في الاسكندرية وبطوليميس كانوا يحررون عقدين أحدهما مدني والآخر ديني . وكان الاغريق الذين يعيشون خارج هاتين المدينتين يعرفون نوعين من العقود وهما « عقود الاتفاق » و « عقود المعاشرة » . وقد كان هذان النوعان من العقود يمثلان نوعين من التوثيق لنوع واحد من الزواج ، ويقصد بهما تنظيم العلاقات الشخصية والمادية بين الطرفين واثبات حقوق الأولاد .

ووفقا للقانونين المصري والاغريقي كان لكل من الطرفين حق الطلاق . وكان الطلاق يتم بمجرد انفصال الطرفين وتحرير وثيقة من صورتين يثبت فيهما انه لم يعد لأحد الطرفين حقوق قبل الطرف الآخر .

ويفرق القانونان المصرى والاغريقى تفريقا واضحا بين الأحرار والعبيد . وكان العبيد ثلاث فئات وهى : عبيد الملك ، وعبيد الأفراد ، وعبيد المعابد .

وقد كان من حق المصريين والاغريق على السواء عمل وصيات . ولكي تكون الوصية صحيحة كان يتعين أن يحررها موثق العقود ، لكنه كان فى وسع الموصى أن يقوم بذلك ثم يقدمها الى موثق العقود : وفى الحالتين كان يجب اتمام ذلك بشهادة الشهود . وفى حالة عدم وجود وصية كان القانون المصرى يرتب الورثة طبقات تأتى فى مقدمتها طبقة الأولاد ، وكان يحق للابن الأكبر أن يأخذ نصيبا يعادل ضعف نصيب أخيه الأصغر الذى كانت أخته تتساوى معه فى مقدار النصيب . وكان من حق الأحفاد الحصول على نصيب أبيهم اذا توفى قبل جدهم . وفى حالة عدم وجود وصية كان القانون الاغريقى يعطى الأبناء الأحقية فى وراثة آبائهم ، وكانت أنصبة الأبناء متساوية ويحق للبنات المشاركة فى الارث اذا لم يكن قد اخذن مهورهن .

٣ ـ الاحوال العينية :

ويعتبر تحرير العقود وتسجيلها أيسر السبل لاثبات حقوق الملكية فى جماعة متحضرة . وقد كان تحرير العقود فى مصر الفرعونية وقفا على كتبة ينتمون الى الجماعات المقدسة ، أما فى عصر البطالمة فان تحرير العقود لم يعد مقصورا على أولئك الكتبة ، فقد احترف هذه المهنة أفراد من سائر الناس . وقد كانت العقود تحرر اما وفقا لأحكام القانون المصرى أو أحكام القانون الاغريقى . والى جانب العقود المكتوبة كان العرف المصرى يعرف الاتفاقات الشفوية ، وكان على المدعى الذى ينكر أنه تعاقد شفويا على دين أن يقسم على صحة ما يقول .

ولضمان تنفيذ العقود بأمانة كان المصريون والاغريق يضمنون فيها شروطا جزائية كانت مألوفة فى القانون الاغريقى ، مما يدل على ان قانون الدين الاغريقى قد طبق فى مصر على المصريين والاغريق سواء بسواء منذ بداية عصر البطالمة . ولابد من أنه قد سبق ذلك الغاء قانون الملك المصرى بوكخوريس الذى كان لا يسمح بحبس المدين أو استعباده .

ومن أجل ضمان حقوق الدائنين كان القانون المصري يعترف بوسائل أخرى قديمة العهد غير تسجيل العقود والنص فيها على شروط جزائية ، فانه منذ القدم كان الدائنون يحتاطون بوسائل متعددة ضد سوء نية المدينين أو عسرهم المالى . واحدى هذه الوسائل تشبه ما نسميه اليوم « برهن الحيازة » ، ومعنى ذلك أنه عند عمل القرض يقدم المدين للدائن بمثابة ضمان عينا تعادل قيمتها على وجه التقريب المبلغ الذى استدانه على أن يتعهد الدائن برد العين عندما يستوفى دينه . أما الوسيلة الثانية فتشبه

ما نعرفه « بالرهن الضماني » وهو في معناه القانوني حق الدائن على عين تبقى في قبضة المدين غير ان قيمتها تضمن سداد الدين . أما الوســيلة الثالثة فانها تماثل ما نعرفه « بالبيع الوفائي » وتتخلص في أن يبيع المدين للدائن العين المقدمة ضمانا للدين مع احتفاظ الأول بحق استرجاع عقاره عند ســداد الدين .

ووفقا لأحكام القانون المصري كان التزام المدين قبل الدائن لا ينتهي بسداد الدين بل استرداد العقد الذي منح الدين بمقتضاه . أما وفقا لأحكام القانون الاغريقي فان التزام المدين كان في الأصل ينتهي بســداد الدين لكن لم يلبث أن ساد بين الاغريق المبدأ المصري القائل ببقاء الالتزام قائما طالما بقى العقد سليما . ولذلك كانت تتخذ عدة وسائل لمواجهة ذلك ، كان من بينها حصول المدين على ايصال يثبت فيه انه لم يعد للدائن حقوق قبله ، أو رد العقد مصــحوبا بعقد جديد يتضمن النص فيه عــلى زوال كل التزامات الدائن لدى المدين .

ويتصل اتصالا وثيقا بالقروض الفوائد التي تجبى عنهــا . وتدل الوثائق البردية الحديثة على أن أقصى سعر مســموح به رسمياً للفائدة على القروض كان ٢٪ شهريا أي ٢٤٪ سنويا . وبرغم ارتفاع هــذا السعر فانه لم يكن كافيا لسد جشع المرابين ، ولذلك فانهم لكيلا يقعوا تحت طائلة القانون كانوا يلجأون الى الحيلة بادماج الفائدة في المبلغ الواجب سداده دون النص في العقد عــلى سعر الفائدة . وفي حالة عدم الوفاء بالدين في الوقت المحدد كان يفرض على المدين غرامة معينة ينص عليها في العقد . وكان القانون الاغريقي يسمح بأن تصل هذه الغرامة الى مثل الدين الأصلي ، أما القانون المصري فكان يكتفي بنصف ذلك ، وهــو مــا كان يحدث عادة حتى في حالة العقود الاغريقية .

وكان القــانونان المصري والاغريقي يعترفان بحق الأفراد في مباشرة أعمالهم عن طريق الوكلاء ، وبالالتجاء الى التحكيم في حالة حدوث خلاف على تفسير أحكام العقود ، وبتأليف شركات تجارية أو صناعية لمباشرة أعمال عامة أو خاصة . وكانت الأعمال العامة التي تتكون الشركات من أجل مباشرتها تشمل التزام الضرائب واحتكارات الحكومة ، وكان الشركاء مســئولين أمام الدولة عن العجز الناجم عن عدم الوفاء بالتزاماتهم . وسـواء أتألفت الشركة لمباشرة أعمال عامة أم خاصة كان يحدد علاقة الشركاء بعضهم ببعض عقد كتابي يثبت فيه حقوق كل شريك وواجباته .

وكان القــــانونان المصري والاغريقي يتضمنان أحكاما مــشابهة تبين حقوق الطرفين اللذين يتعاقدان على استئجار أراض أو مبان أو عبيد أو ماشية أو عمال . وكان يستطيع مستأجر أي نوع من أنواع الأرض أن يؤجر الأرض من الباطن الا اذا نص في عقد الايجار الأصلي على خلاف ذلك .

ولكل صفقة من صفقات البيع المصرية كان يحرر عقدان ، يطلق علي أحدهما « عقد المال » وعلى الآخر « عقد التنازل » . وكان ينص في الأول على تسلم البائع ثمن العين المبيعة وعلى أن « قلبه راض » للدلالة على اتمام الاتفاق بين الطرفين عن طيب خاطر . وكان ينص في العقد الثاني علي تنازل البائع للمشتري عن كل ماله من حقوق على العين المبيعة .

وكما كان التفاعل كل من التشريعين المصري والاغريقي مع بعضهما بعضا نتائج واضحة في قوانين الأحوال الشخصية ، كذلك كان لهذا التفاعل نتائجه في قوانين الأحوال العينية . وتبدو مظاهر الأثر الاغريقي فيما أدخل على القوانين المصرية من الأحكام وحماية الملكية الفردية . أما الاغريق فانهم أخذوا عن المصريين بعض أحكام القانون المصري الخاصة بالالتزامات و « الرهن الضماني » و « البيع الوفائي » وأهم نصوص عقدي المال والتنازل التي أدمجوها في عقد واحد شاع استخدامه في البيوع .

وتبين من الوثائق انه في عصر البطالمة كان الحكم الذي تصدره محكمة مصرية لا يعتبر قاطعا ونهائيا الا اذا صحبه عقد تنازل من المدعي . ويبدو ان العرف الاغريقي قد تأثر بهذا المبدأ المصري في بعض الحالات .

ثانيا — القانون الجنائي :

وكان القانون الجنائي البطلمي يفرق بين خمسة أنواع من الجرائم وهي :

١ — الجرائم التي ترتكب ضد شخص الأفراد أو ممتلكاتهم . وكانت هذه الجرائم تشمل القتل والاعتداء على الغير بالقول أو الاشارة أو الفعل أو التهديد بالاعتداء واستخدام القوة لتحقيق مأرب معين والسرقة والحاق الضرر بممتلكات الغير والغش والتزوير والتدليس .

ومما يسترعي الانتباه انه في كل هذه الجرائم كانت اقامة الدعوى من شأن المعتدى عليه الى حد أنه اذا لم يمثل أمام المحكمة ليتولى مهمة الاتهام برئت ساحة المتهم .

٢ — الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة الملكية . وكانت هذه الجرائم فئتين رئيسيتين: احداهما الجرائم التي تؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر في دخل الدولة من الضرائب ، وكان يمكن أن يرتكبها دافعو الضرائب أو عمال المالية أو الملتزمون أو غيرهم ممن يسهمون في التزام الضرائب .

وكانت الفئة الأخرى تشمل الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة الملكية لمساسها بمصالح أرض الملك والاحتكارات .

ومما يجدر بالملاحظة انه في حالة اختصام فرد مع الخزانة الملكية حظر علي المحامين الدفاع عنه ضد مصالح الخزانة والا تعرضوا لعقوبة صارمة .

٣ — جرائم الخيانة العظمى ، وقد كان القانون البطلمي لا يفرق بين الدولة والتاج ، ومن ثم يعتبر الجرائم التي ترتكب ضد الدولة جرائم ضد التاج . وقد ترتب على فكرة حق الملوك الالهي انه أضفيت على هذه الجرائم صبغة دينية وكان يفصل فيها على هذا النحو . وكانت هذه الجرائم تشمل عدم تقديم الاحترام الواجب للملك وأسرته ، والثورة ضد الملك ، والحنث بالقسم الملكي .

٤ — اساءة استخدام الحقوق العامة ، كأن يغير الشخص بدون وجه حق لقبه الجنسي والسياسي .

٥ — الجرائم الدينية ، وتتحدث الوثائق البردية البطلمية عن انتهاك حرمة الأماكن المقدسة ، وعن اساءة استخدام حق الالتجاء الى المعابد .

ثالثا — الهيئات القضائية :

وكان الملك يعتبر كبير القضاة في البلاد ، لكنه كان عادة ينيب عنه قضاة آخرين للفصل في المنازعات بين رعاياه . ونحن نعتقد انه لم توجد عندئذ تفرقة بين القضاء المدني والقضاء الجنائي ، وان كنا نعتقد انه كانت توجد تفرقة بين الجرائم الخطيرة أو العامة مثل الخيانة العظمى والقتل ، وبين الجرائم العادية أو الخاصة مثل مختلف أنواع الاعتداء على الأشخاص أو أموالهم . ولعل ترجع اذ سائر المحاكم كانت تنظر في القضايا المدنية وكذلك القضايا الجنائية العادية ، أما الجرائم الخطيرة فلا يبعد انها كانت من اختصاص محكمة خاصة لعلها كانت ما تدعوها المصادر القديمة « محكمة الملك » .

ويمكن تقسيم الهيئات القضائية في عهد البطالمة الى أربعة أنواع وهي : (١) محاكم المصريين ؛ (٢) محاكم الاغريق ؛ (٣) المحاكم المختلطة ؛ (٤) محاكم القضاء الخاص .

١ — محاكم المصريين

وتبين من وثائق القرن الثاني قبل الميلاد ان محاكم المصريين كانت تتألف من ثلاثة قضاة من الكهنة المصريين ، فضلا عن عضو آخر لم يكن قاضيا ولكنه كان يقوم بدور هام جدا ، وهو تلخيص القضايا وتحضيرها وتلاوة الوثائق أمام المحكمة عند انعقادها وتنفيذ ما تصدره من الأحكام . ويدل اسم هذا العضو واسم متصبه على انه كان اغريقيا . ولعل البطالمة قد استحدثوا مهمته تيسيرا لتصريف العدالة في المحاكم الوطنية ، ولا سيما بعد أن وضعوا قانونا جنائيا موحدا للمصريين والاغريق . وكانت هذه المحاكم تختص بالفصل في قضايا المصريين وكذلك القضايا المدنية التي يكون موضوع النزاع فيها عقدا مصريا حتى ولو كان أحد طرفي الخصومة اغريقيا .

٢ — محاكم الاغريق

وكانت توجد في مصر عدة أنواع من المحاكم الاغريقية ، وأكثر المعلومات التي

لديا تختص « محاكم القضاة الأغريق » ، وكانت محاكم متنقلة للفصل في قضايا الأغريق وغيرهم من الأجانب الذين ينزلون في مختلف أرجاء مصر ولم يكونوا مواطنين في احدى مدن مصر الاغريقية . ويبدو ان مهمة هؤلاء القضاة الاغريق لم تكن مستديمة وانما لمدة معينة لا نعرف مداها على وجه التحديد ، وان كل هيئة من هذه الهيئات القضائية الاغريقية كانت تتألف من ثلاثة قضاة وعضو يلخص القضايا ويحضرها وكاتب ومحضر . وكانت كل هيئة تختص بالفصل في قضايا منطقة معينة تشمل عددا من المديريات . ويرجح ان المحكمة كانت لا تنعقد الا في عواصم المديريات المختلفة والمدن الكبيرة .

ويذكر وثيقة بردية مشهورة نوعين جديدين من المحاكم الاغريقية في الاسكندرية كان أحدهما يتألف من عشرة محلفين وملخص القضايا ومحضرها ، وكان الآخر يتألف من محكمين يعملون تحت اشراف حارس القوانين . ولعل النوع الأول هو الذي كان يفصل في قضايا هيئة المواطنين عندما يفشل النوع الثاني في فض الخلاف وديا بين المتخاصمين . واذا كنا نسلم بوجود محكمة القصر أو محكمة الملك في عهد البطالمة ، فاننا لا نعرف كيفية تكوينها ولا نستطيع الجزم باختصاصاتها .

وكانت لبطوليميس أيضا محاكمها الخاصة بالفصل في قضايا مواطنيها باعتبارها مدينة اغريقية . وفضلا عن ذلك فان محكمة القضاة الاغريق المتنقلة كانت تنعقد فيها مثل ما كانت تنعقد في الاسكندرية للفصل في قضايا الاغريق وغيرهم من الأجانب الذين ينزلون هناك . أما المدينة الاغريقية الثالثة في مصر ، وهي نقراطيس ، فاننا لا نعرف شيئا على الاطلاق عن القضاء فيها .

٣ ـ المحكمة المختلطة

وقد كان طبيعيا أن يؤدي التعامل بين المصريين والاغريق الى نشوب قضايا يكون طرفا الخصومة فيها من جنسيتين مختلفتين . وتحدثنا وثائق القرن الثالث قبل الميلاد عن محكمة مختلطة لا نعرف كيفية تكوينها ولا مدى اختصاصاتها ، لكننا نرجح أنها كانت تختص بالفصل في القضايا المدنية وكذلك القضايا الجنائية العادية بين المصريين والاغريق . ولا يبعد أن هذه المحكمة قد فقدت كثيرا من أهميتها عندما قصت اختصاصاتها نتيجة لأحكام القرار الذي أصدره بطلميوس الثامن ايوارجتيس الثاني في عام ١١٨ ق . م . بأنه اذا نشب خلاف بين مصري واغريقي نتيجة لعقد محرر بينهما فان لغة هذا العقد هي التي كانت تقرر نوع القانون الذي يطبق وتبعا لذلك نوع المحكمة التي يعرض الخلاف عليها . فاذا كان العقد مصريا فان القانون المصري هو الذي كان يطبق ومحكمة القضاة المصريين هي التي كانت مختصة بالفصل في الموضوع . أما اذا

كان العقد اغريقيا فان القانون الاغريقي هو الذي كان يطبق ومحكمة القضاة الاغريق هي التي كانت صاحبة الاختصاص في الفصل في الدعوى . أما اذا نشب خلاف بين طرفين مصريين فانه كان يتعين عرض الأمر على محكمة القضاة المصريين . ويبدو ان القرار لم يشر الى القضايا التي تنشأ بين طرفين اغريقيين لانه لم يكن هناك أى لبس في أن ذلك كان من اختصاص محاكم القضاة الاغريق . ولما كان هذا القرار خاصا بالقضايا المدنية فلابد من أن القضايا الجنائية بين طرفين ينتميان الى جنسيتين مختلفتين قد بقيت من اختصاص المحكمة المختلطة .

٤ ـ محاكم القضاء الخاص

وقد كان يدخل في نطاق « القضاء الخاص » أولا الشكاوى الموجهة ضد موظفي الادارة وعمال المالية وثانيا القضايا التي يمس موضوعها موارد الملك وثالثا القضايا التي تخص الأشخاص الذين يخضعون موارد الخزانة حتى اذا كان موضوع هذه القضايا لا يمس تلك الموارد . وقد كان يفصل في كل هذه المشاكل الملك وكبار موظفيه أو هيئات قضائية يرأسها هؤلاء الموظفون . ولما كان لأكثر هذه القضايا صبغة مالية ، فقد كان يقوم بدور كبير في القضاء الخاص وزير المالية ومساعدوه .

ويبدو ان البطالمة قد أنشأوا أيضا محاكم خاصة لرجال الجيش ، فقد وصلت الينا من القيوم وثائق تحدثنا عن نظر قضايا بين رجال من الجيش أمام محكمة مثل محكمة العشرة التي مر بنا ذكرها عند الكلام عن القضاء في الاسكندرية .

الفصل السابع

الحيـــاة الاجتماعيـــة

الاغريق – المصريون – الثورات القومية المصرية

اولا – الاغريق

١ – حالهم في عهد البطالمة الاوائل

عرفنا ان البطالمة الثلاثة الأوائل كانوا في حاجة ملحة الى الاغـريق لتكوين جيوش وأساطيل من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم وكذلك لاعادة تنظيم شئون الادارة والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقا . وازاء كل ذلك كان يتعين على البطالمة ألا يكتفوا فقط بفتح أبواب مصر على مصاريعها للاجانب ، بل أن يجزلوا لهم العطاء ويمنحوهم مركزا ممتازا في وطنهم الجديد ، ليضمنوا استمرار وفودهم على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام . وينبغي أن نتذكر انه في ذلك الوقت كان العـالم الاغريقي هو كل شيء ، وان الحضـارة الاغريقية كانت أسمى الحضـارات وارفعها شأنا ، وان حضارة الناس كانت تقاس بمقدار حظهم من تلك الحضارة ، وان البطالمة كانوا لا يستطيعون ان يبنوا لأنفسهم مجدا شامخا في نظر العالم الاغريقي باعتبارهم فراعنة مصر مهما أنفقوا في بلاد الاغريق من الأموال . ولذلك كان يجب أن يكون مظهر مصر اغريقيا وأن تبرز مصر في ذلك العالم باعتبارها دولة اغريقية لا دولة شرقية .

وازاء الظروف الخـارجية التي أحاطت ببطلميوس الأول حين كان يرسي قواعـد دولته في مصر ، كان يتعين عليه أن يعمل على اجتذاب الاغريق الى مصر والاستقرار فيها بشتى الوسائل ، دون أن يهمل في الوقت نفسه مشاعر المصريين . ولعله لم يتخذ منف عاصمة له في بادىء الأمر ارضـاء للمصريين فحسب ، بل أيضا أو قبل كل شيء لأنه كان أكثر أمنا فيها من الاعتداءات الخارجية ، اذ أنه ما كاد يستشعر مقدرة جيشه وأسطوله على تأمين مركزه في الاسكندرية حتى نقل مقره الى هذه المدينة الاغريقية . واذا كان قد استخدم بعض المصريين في المناصب الادارية الهامة أو سمح لهم بالاستمرار فيها ، فانه يبدو محتملا أنه اتخذ أغلب مساعديه الاداريين من رجال على شاكلته في التدريب والتفكير . وقد ضمن لهؤلاء الاغريق والمقدونيين مثـل ما ضمن لاخوانهم في شتى نواحي الحيـاة المصرية أجرا طيبا ومركزا ممتازا .

ولا جدال في أن السياسة العامة التي اتبعها بطلميوس الثاني كانت تستهدف محاباة الاغريق على حساب المصريين ونشر الحضارة الاغريقية في أرجاء البلاد . وتشير كل الدلائل الى أن بطلميوس الثالث قد سار على نهج سياسة أبيه . ويبين ان البطالمة الأوائل قد أقاموا حكمهم في مصر باعتبارهم غزاة فاتحين فلم ينسوا أو يتناسوا اطلاقا أصلهم الأجنبي ولم يعتمدوا في تأييد سلطانهم الا على الاغريق والمقدونيين الذين كانوا يشاركونهم المختار بأصلهم والاعتزاز بحضارتهم .

وقد كان أول مظاهر عطف البطالمة الأوائل على الاغريق تهيئة البيئة المناسبة لمعيشتهم ، ولذلك عنوا ببناء الاسكندرية ومنحها مظاهر الحياة الخليقة بالمدن الاغريقية حتى غدت أعظم هذه المدن في البحر الأبيض المتوسط . وأنشأ بطلميوس الأول مدينة بطوليمايس ووفر لها كل أسباب الحياة الاغريقية . وفضلا عن ذلك فان نقراطيس ، تلك المدينة الاغريقية القديمة ، استمرت تنعم بما ألفته من نظم الحياة الاغريقية وأساليبها . وقد كان هدف البطالمة من وراء كل ذلك أن يحتفظ الاغريق الذين ينزلون في هذه المدن بحضارتهم الاغريقية في طول مصر وعرضها .

أما الاغريق الذين ضاقت بهم مدن مصر الاغريقية ، فانهم تفرقوا بين جنبات الوادي واستقروا في المدن والقرى المصرية القديمة أو في القرى الجديدة التي أنشأها لهم البطالمة وخاصة في الفيوم . واذا كنا نجد بين هؤلاء الاغريق عددا من مواطني مصر الاغريقية ، فان أكثرهم كانوا أصلا مواطني مدن أخرى في العالم الاغريقي . وعند استقرار هؤلاء الاغريق في وطنهم الجديد حتم البطالمة عليهم الاحتفاظ بلقبهم السياسي القديم عند ذكر أسمائهم في الوثائق الرسمية . وقد كان سكان مصر من غير أهلها الوطنيين ينقسمون طبقات متفاوتة في المرتبة تميزها ألقاب سياسية وجنسية . وكان محظورا الانتقال من احدى طبقات السكان الى طبقة أخرى دون الحصول على اذن بذلك من الملك .

وقد كان الاغريق يؤلفون جماعات كانت أهمها شأنا تلك الجماعات القومية التي كان أغلبها يتصل اتصالا وثيقا بالجيش ، ويتألف كل منها ممن ينتمون الى قومية بعينها . وقد كان لكل جماعة من هذه الجماعات مجموعة قوانينها الخاصة ويظهر فيها بوضوح أثر المدن الأيونية والدورية والأيولية التي وفد منها أعضاؤها في الأصل . واذا كان البطالمة قد اعترفوا بقوانين هذه الجمعيات فانهم مع ذلك عملوا على التنسيق بينها بما كانوا يصدرونه من مختلف أنواع الأوامر الملكية . وقد كانت هذه الجماعات منظمة على نمط المدن الاغريقية ، وتتمتع بقدر من الحكم الذاتي ، ولكل منها حكامها وكهنتها ومقرها في مكان معين .

وكانت تلي هذه الجمعيات في الأهمية

أو لعلها كانت تتصل بها جمعيات رجال الجمنازيوم فقد كان الاغريق ، حيثما نزلوا سواء في المدن الاغريقية أم في المدن والقرى المصرية ، يتمتعون بهذه المعاهد الجليلة الشأن التي كانت قوام الحياة الاجتماعية والفكرية في بلاد الاغريق منذ أقدم العصور .

وكانت تأتي بعد ذلك في الأهمية جمعيات اغريقية كان لها طابع ديني أو اجتماعي . ويعزى انتشار هذه الجمعيات بين اغريق مصر الى ميل هؤلاء الاغريق الى لون من الحياة الاجتماعية يعيضهم الى حد عن جانب من حياة « المدينة » كان عزيزا عليهم قريبا الى قلوبهم ولكنهم حرموه في مصر ، اذ لم يكن أغلب اغريق مصر مواطنين في مدن يشتركون في مجالسها وانتخاباتها ، فلا عجب أن شغفوا بتلك الجمعيات لتوفر لهم الاجتماع والمناقشة والانتخاب .

٢ ــ علاقاتهم بالمصريين

ولا جدال في أن أولئك الأجانب ، الذين وفدوا على مصر أفواجا تلو أفواج في خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، كانوا يكونون طبقة منفصلة من سكان البلاد تفصلهم فوارق شاسعة عن أهليها . فقد كان مركز هؤلاء الأجانب الاجتماعي والسياسي والاقتصادي مختلفا عن مركز المصريين وأكثر منه امتيازا . وحين كان الاغريق في القرن الثالث يؤلفون الطبقة العليا في البلاد ، ويقبضون على أرفع المناصب ، ويستمتعون بخيرات مصر ، ويعتبرون أنفسهم أهل حضارة رفيعة دونها كافة الحضارات الأخرى ، ويعيشون في أوساط خاصة بهم ، ويحيون حياتهم التي اعتادوا أن يحيوها في بلادهم ، كان المصريون يؤلفون الطبقة السفلى ، ويشعرون بأنهم سلبوا كرامتهم كما سلبوا خيرات بلادهم ، ومع ذلك استمروا يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم ويذكرون مجدهم التالد . وازاء كل ذلك نستطيع أن نوقن تماما بأن الزواج بين المصريين والاغريق في الشطر الأول من حكم البطالمة كان أمرا بعيد الاحتمال . ومع ذلك لا يجوز الجزم بأنه لم يحدث عندئذ أي تزاوج على الاطلاق .

٣ ــ حالهم على عهد البطالمة الاواخر

وهكذا كان قوام سياسة البطالمة الأوائل أن يشركوا الاغريق في حكم البلاد والسيطرة على المصريين ، وان يوفروا لأولئك المحظوظين أسباب الرزق المتسع وأساليب الحياة التى توافق مزاجهم الرقيق ، ففاز الاغريق بكل الغنم وتحمل المصريون كل الغرم . أما منذ عهد بطلميوس الرابع فقد أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة في معاملة المصريين تنطوي على افساح بعض المجال لهم الى جانب الاغريق أملا في كسب ودهم وولائهم ، لكن البطالمة لم يذهبوا الى حد مساواة المصريين بالاغريق . ولا أدل على ذلك من أنه ما زال أغلب رجال الجيش وقوادهم وكبار الحكام من الاغريق ، وما زالت الضياع تمنح للاغريق ، وما زالت

أكبر الاقطاعات تمنح للاغريق ، ولم يعتبر في عداد الطبقة العليا الممتازة من سكان البلاد الا الاغريق والمصريون المتأغرقون الذين اصطبغوا بصبغة اغريقية .

واذا كان بعض المصريين قد تأغرقوا ، نتيجة لاقبالهم على التعليم الاغريقي حتى أصبحوا يكتبون الاغريقية ويقرأونها بسهولة ولاتخاذهم ملابس اغريقية وأسماء اغريقية فاكسبتهم هذه المسحة الاغريقية مكانة ممتازة هي مكانة الاغريق ، فان بعض الاغريق أيضا قد تأقلموا اذ أنهم تعلموا اللغة المصرية وعبدوا آلهة مصرية واتخذوا أسماء مصرية وعادات مصرية .

٤ — علاقاتهم بالمصريين

ويبدو أنه في الشطر الثاني من حكم البطالمة عندما انقطع وفود أفواج جديدة من الاغريق ، وتأغرق بعض المصريين وتأقلم بعض الاغريق حدث شيء من التقارب بين العنصرين المصري والاغريقي ، ونشأ عن ذلك في اعتقاد كثير من المحدثين أسر مختلطة اغريقية — مصرية . ويستدل على هذه الظاهرة بأن الوثائق تحدثت عن كثيرين ممن يحملون أسماء مصرية واغريقية ، ولذلك لم يعد الاسم منذ القرن الثاني قبل الميلاد دلالة على الجنسية . ونحن لا نرى ان الجمع بين الأسماء المصرية والاغريقية يدل حتما في كل حالة على تزاوج بين المصريين والاغريق ، فلم يصل الينا بعد وثيقة زواج أو طلاق واحدة بين طرفين أحدهما مصري والآخر اغريقي . وقد يكون الجمع بين الأسماء المصرية والاغريقية نتيجة لاصطباغ بعض المصريين بالصبغة الاغريقية أو أقلمة بعض الاغريق ، مما حدا بالفريق الأول الى اضافة أسماء اغريقية الى أسمائهم المصرية ، وبالفريق الثاني الى اضافة أسماء مصرية الى أسمائهم الاغريقية . ولسنا في حاجة الى الذهاب بعيدا للتدليل على صحة ما نراه ، فلا يزال بين ظهرانينا كثير من المصريين ممن لم يكونوا ثمرة تزاوج مختلط وانما ثمرة أبوين مصريين كانت ثقافتهما انجليزية أو فرنسية فأعطيا أبناءهما أسماء انجليزية أو فرنسية . ومع ذلك لا نستبعد أن يكون قد حدث في الشطر الثاني من عصر البطالمة تزاوج بين المصريين المتأغرقين والاغريق المتمصرين . لكننا نستبعد أن يكون ذلك التزاوج قد حدث بالكثرة التي يتوهمها البعض ، اذ أن تلك الفئة من المصريين والاغريق لم تكن الا أقلية بالنسبة للغالبية العظمى من الاغريق والمصريين الصميمين ، وانه اذا كان الشطر الثاني من عهد البطالمة قد شهد تقاربا بين المصريين والاغريق ، فقد شهد أيضا ثورات المصريين القومية على البطالمة والاغريق ، ولابد من أن تلك الثورات قد حدت من أثر ذلك التقارب . ولو صح أن التزاوج بين العنصرين المصري والاغريقي قد شاع في الشطر الثاني من عصر البطالمة ، لما بقي سكان البلاد مقسمين طبقتين مختلفتين في المرتبة ،

احداهما عليا وتتألف من الاغريق وأشباههم والأخـــرى سـفلى وتتكون من المصريين الصميمين .

٥ ــ فئات الاغريق

وقد كان الاغريق ومن على شاكلتهم من الأجانب المقيمين فى مصر يتألفون من الفئات التالية :

أولا — فئة الموظفين ، وكانت تشـــمل الموظفين المدنيين والعسكريين .

ثانيا — فئة أرباب المهن الفنية ، وكانت تشمل العلماء ورجال الأدب والأطباء والمحامين والمعلمين والمعماريين والمصـــورين والمثالين والفنانين ومحترفى الألعاب الرياضية .

ثالثا — فئة رجال الأعمال ، وكانت فئة كبـــيرة من الأثرياء متوسطى الحـــال الذين يمتلكون أراضى وعقارات ويشتغلون بالتزام بعض الحـــرف أو الصناعات أو جبـــاية الضرائب .

رابعا — فئة أرباب الحرف اليدوية ، وكانت فئة كبيرة تتألف ممن كانوا يتكسبون قوتهم من الأعمال المضنية فى الزراعة والصناعة والتجارة كعمال وصناع وما أشبه ذلك .

٦ ــ حضارة اغريق مصر

ولما كان الاغريق قد أحضروا معهم من بلادهم دياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وكانوا يخضعون لقوانين اغريقية ويحاكمون أمـــام محاكم اغريقية ، ويعيشون عادة فى أوساط اغريقية يتلقون فيها مدارســـهم ومنتدياتهم وجمنيازياتهم ، وكانت أفواج الاغريق تفد على مصر باستمرار حتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد لتطعمهم بدماء جديدة ، وكانت لاتوجد قرينة على تزاوجهم مع المصريين حتى نهاية القرن الثالث ، وكانوا يعتزون بحضـــارتهم الاغريقية ، ولا سيما انها كانت مصـــــــدر ما يتمتعون به من الخير العميم فى مصر ، فلا شك فى أنه وسط هذه الظروف قد حافظ اغريق مصر على ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم فبقوا اغريقا خالصين حتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد .

ولا جـــدال فى أن اغـــريق مصر كانوا يعيشون فى أوساط اغريقية بوجه عام ، لكن يجب ألا ننسى ان هذه الأوساط ، حتى فى المدن الاغريقية ، كانت تقوم فى بيئة غريبة عن الحياة الاغريقية الى أقصى حد ، ولذلك فان المحافظة على قوة الروح الاغريقى بين اغريق مصر كانت لا تتوقف عـــــلى استمساكهم بثقافتهم وعـــاداتهم وتقاليدهم فحسب ، بل كذلك على تغذية هؤلاء الاغريق على الدوام بدماء اغريقية جديدة من بلاد الاغريق تكون بعيدة عن كافة المؤثرات الغريبة عن الروح الاغريقى . لكن منذ أواخر القرن الثالث قبل الميـــلاد انقطع وفود أفواج جديدة من الاغريق بسبب نقص عـــددهم فى بلادهم ، فكان طبيعيا أن يضعف الروح الاغريقى تدريجيا بين اغريق مصر . ومع ذلك فانه مهما ضعف هذا الروح قد بقى اغريق مدن مصر

الاغريقية اغريقا خالصين نتيجة لعدم الاعتراف بالزواج بينهم وبين المصريين في هذه المدن ، ونتيجة لاستمرار المعاهد والمدارس الاغريقية في متابعة نشاطها ، ولا سيما ان الاسكندرية كانت لا تزال منارة الحضارة الاغريقية وتتمتع بشهرة عظيمة في العلوم والفلسفة والآداب .

ان العامل الذي أدى الى ضعف الروح الاغريقي في مدن مصر الاغريقية كان له أثر أقوى بطبيعة الحال خارج هـذه المـدن ، ولا سيما انه منذ أواخر القرن الثالث أصبحت اقطاعات الاغريق وراثية ، وبذلك أصبحت لأرباب هذه الاقطاعات مصـالح دائمة في البلاد . وقد كانت رعاية هذه المصالح تتطلب منهم أن يداروا أهل البلاد والا يسخطوا ذوفهم عليهم . وفي الوقت نفسه أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة في معاملة المصريين ، فاخذ منذ عهد بطلميوس الرابع أخـــذوا يمنحون المجال أمام المصريين ويمنحونهم من الامتيازات ما رفع من شأنهم وضيق شقة الفارق بينهم وبين الاغريق وساعد على التقرب بين العنصرين ، حتى لا يبعد أن يكون قد تكون عدد من الأسر المختلطة المصرية — الاغريقية .

وقد أسهمت هـذه العوامل المختلفة في اضعاف الروح الاغريقي بين اغريق الأقاليم ، غير انه لما كانت الصبغة الاغريقية تكسب صاحبها مركزا ممتازا مهما كانت جنسيته ، فهل نشك في أن غالبية الاغريق استمسكوا بحضارتهم الاغريقية ؟ يبدو لنا انه مهما ضعف روح اغـريق الأقاليم حتى كانوا يختلفون اختلافا كبيرا عن الاغريق القدماء ، وانه اذا كان بعض الاغريق قد عبدوا آلهـة مصرية وتعلموا اللغـة المصرية وتزوجوا مصريات واتخذوا أسماء وعادات مصرية ، فإن أغلبهم بقوا اغريقا خالصين ، وذلك بفضل أثر مدن مصر الاغريقية ، وأثر معـــاهد الاغريق وجمعياتهم ومدارسهم التي كانت توجد حيثما وجد عدد كاف من الاغريق ، وكذلك بفضل ما كان الاغريق يتمتعون به من مكانة ممتازة في البلاد .

ثانيا — المصريون :

١ — البطالة والطبقات المصرية المختلفة

ولا ريب في أن العناصر الأجنبية لم تكن سوى أقلية تعد بالآلاف بالنسـبة الى المصريين الذين كانوا يعدون بالملايين . وكانت تأتي في مقدمة المصريين الطبقة الأرستقراطية بشقيها الدنيوي والديني . ويبدو أن بطلميوس الأول سمح للأرستقراطية المصرية الدنيوية بالاحتفاظ بممتلكاتها وبشيء من السلطان في الادارة . لكننا لا نسمع شيئا على الاطلاق عن هـذه الأرستقراطية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، مما يبعث على الاعتقاد بأن البطالمة عملوا منذ أواخر عهد بطلميوس الأول على حرمان هذه الأرستقراطية بالتدريج أملاكها ومناصـبها الادارية . ولعله لم يبق من هذه الأرستقراطية الا نفر كان قليل العدد محدود الثروة يتولى مناصب في الفرق المصرية في الجيش .

وتشير الأدلة الأثرية الى أن الأرستقراطية المصرية الدينية كانت تتمتع فى بداية عصر البطالمة بممتلكات واسعة . وحين أدرك البطالمة ما كانت تتمتع به هذه الأرستقراطية من نفوذ كبير وثروة عريضة عملوا على تقليم أظافرها وإذلالها . ومع ذلك كان الكهنة المصريون ، حتى فى الشطر الأول من حكم البطالمة ، يكونون فئة ممتازة بين الأهالى ، فقد كانوا عادة يعفون من الأعمال الجبرية ويؤدون مهام عملهم دون تدخل الحكومة فى شئونهم . وبعد موقعة رفح واشتعال لهب الثورات القومية ، اضطر البطالمة الى النزول عن صلفهم وجبروتهم واتباع سياسة جديدة فى معاملة رجال الدين ردت اليهم أغلب امتيازاتهم .

ولا ريب فى انه ازاء انقراض الأرستقراطية الدنيوية تقريبا ، وازاء المنح التى اضطر البطالمة الأواخر الى اجزالها للكهنة المصريين ، وازاء مكانة هؤلاء الكهنة ونفوذهم بين الأهالى فى طول البلاد وعرضها أصبحت طبقة الكهنة أهم الطبقات المصرية .

وقبل عصر البطالمة كانت تلى الأرستقراطية بشقيها الدينى والدنيوى ، طبقة المحاربين المصريين . وقد رأينا كيف فقدت هذه الطبقة مكانتها الممتازة فى حياة البلاد على عهد البطالمة الأوائل ، بسبب اعتماد أولئك البطالمة فى تكوين قواتهم البرية والبحرية على العناصر الأجنبية ، وعدم استخدام الجنود المصريين حتى موقعة رفح الا فى أعمال الجيش الثانوية ، وقصر منح البطالمة الأوائل على جنودهم المقدونيين والاغريق . فلا عجب ان شعر الجنود المصريون ، كغيرهم من سائر طبقات المصريين بذل الاحتلال الأجنبى وذاقوا مرارة الاهانة والحرمان ، فأسهموا فى الثورات القومية حتى بعد الامتيازات التى منحوها عقب موقعة رفح . ولا شك فى أن حال هذه الطبقة قد تحسنت فى الشطر الثانى من عهد البطالمة لكنه كان تحسنا نسبيا بالقياس الى ما كانت عليه قبل ذلك ، فقد كان الجنود الأجانب لا يزالون يكونون الجانب الأكبر من القوات البطلمية ، ويتمتعون بأرفع المناصب وأكبر الاقطاعات .

وكانت طبقة الموظفين تلى هذه الطبقة قبل عصر البطالمة . وكانت هذه الطبقة تتألف من كتبة متفاوتى الدرجات . ويبدو أن فئتهم العليا اختفت تدريجا ولم يبق فى خدمة الحكومة من الموظفين المصريين الا فئة صغار الكتبة الذين اضطروا الى تعلم اللغة الاغريقية وتقبل المثل الجديدة والخضوع لرؤسائهم الجدد . ولم تكن المناصب الحكومية المتواضعة التى يستطيع المصريون توليها فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد مصدر خير عميم لشاغليها ، فقد كانت مسئولياتها أكثر من غنمها . أما فى الشطر الثانى من عصر البطالمة فقد سمح للمصريين بتولى بعض المناصب الرئيسية فى الادارة المحلية .

وكان يأتي في مؤخرة الطبقات الاجتماعية ملايين المصريين ، وكان يشتغل أكثرهم بالزراعة وبعضهم بالصناعة والتجارة ، وكانوا كالعادة عماد حياة البلاد الاقتصادية ، ولذلك كانوا أكثر تأثرا من غيرهم بذلك النظام الاقتصادي الكريه الذي وضعه البطالمة للبلاد . ولما كان الهدف الرئيسي لهذا النظام جعل الدولة أو بعبارة أخرى الملك غنيا ، فقد كان يتعين توجيه كل جهود الأهالي نحو تحقيق هذا الهدف .

وفي كنف هذا النظام الصارم ، اذا كانت الفرص أمام الطبقات المختلفة للاثراء فيها ضئيلة فانها كانت منعدمة بالنسبة لغالبية المصريين الذين ألقيت عليهم أثقل الأعباء ، فقد كان ينبغي على هذه الغالبية أن تخدم موارد الحكومة بطريقة من الطرق ، اما بمثابة زراع الملك ، أو عمال في مصانعه أو في مصانع تعمل لحسابه أو في مصانع تؤدي له ضرائب معينة فضلا عما تقدمه له من انتاجها ، أو تجار تجزئة ، أو رعاة ، أو صيادين ، أو يشتغلون بالنقل البري أو المائي ، ويدفعون جميعا ضرائب معينة نظير مزاولتهم أعمالهم . والى جانب كل هذه الأعمال العادية التي كانت الحكومة تستمد منها دخلا كبيرا ، كان يتعين على الأهالي أداء كثير من الخدمات الاجبارية . ورغم كل الأعباء التي أثقل بها كاهل غالبية الزراع والصناع والعمال المصريين ، وكانت أشد وطأة مما اضطلعوا به في أي وقت مضى ، فان حالهم لم تتحسن ، لأن الملك لكي يفوز بأكبر قدر من الربح عمل على انقاص تكاليف الانتاج الى أدنى حد ممكن ، وتبعا لذلك على عدم رفع مستوى معيشة الطبقة الكادحة .

ونتيجة للتبعات الثقيلة التي كان المصريون يرزحون تحتها يبدو انه لم يكن على شيء من اليسر من ملايينهم المشتغلين بالزراعة والصناعة والتجارة الا نفر قليل ، كان بعضهم زراعا ناجحين شاءت ارادة الله أن تمنحهم الحكومة اذنا باستصلاح بعض الأراضي وزرعها كروما أو فاكهة ، وبذلك أصبحوا في عداد أرباب أراضي الامتلاك الخاص أما البعض الآخر فانهم كانوا صناعا ناجحين يزاولون صناعات لم تحتكرها الحكومة احتكارا كليا ، وبذلك لم تغلق دونهم باب الكسب اغلاقا كاملا .

وهكذا نرى انه لم تتسع من بطش البطالمة فئة واحدة من فئات المصريين ، وذلك حين كان أولئك الملوك يوفرون للاغريق وأشباههم أسباب الحياة الرغدة الكريمة . واذا كانت حال الكهنة والجنود وموظفي الحكومة ونفر قليل من الزراع والصناع في الشطر الثاني من عصر البطالمة أفضل من حال الغالبية العظمى من المصريين ، فان حال هؤلاء القلائل من المصريين ، الذين كانوا أسعد حظا من سائر مواطنيهم ، كانت أسوأ كثيرا من حال العناصر الأجنبية . ومن

ثم نستطيع أن نتصور الفارق الهائل بين حال الأجانب وحال المصريين بوجه عام .

٣ ـ حضارة المصريين

وتشير جميع القرائن الى أن المصريين بوجه عام استمروا يعيشون كما كان يعيش أجدادهم من قبل ، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ، يعبدون آلهتهم ، ويخضعون الى حد كبير لقوانينهم الفرعونية . وكان المصريون يلتقون اما في أندية جمعياتهم ، أو في بيوت الأعيان كما هي الحال اليوم في الريف ، أو في المعابد ليستمعوا الى عادتهم الروحيين ويعبروا لهم عن مظالمهم .

ولما كانت الأمية فاشية بين المصريين ، وكانت أعرق المدارس المصرية وأوسعها انتشارا وأبعدها أثرا في الناس هي المدارس الملحقة بالمعابد ، وكانت هذه المدارس هي المعاقل العصبية للثقافة المصرية ، وكان رجال الدين الحراس الأوفياء على تراث الماضي ، فاننا نستطيع أن نوقن أن غالبية المصريين كانوا بعيدين حتى عن مظاهر الحضارة الاغريقية ، وان مدارس المعابد قد أغلقت أبوابها دون الثقافة الاغريقية . ومع ذلك لا شك في ان المصريين الذين شغلوا مناصب في الحكومة قد اضطروا الى تعلم اللغة الاغريقية لأنها أصبحت اللغة الرسمية ، ولا شك أيضا في ان أكثر أولئك الموظفين الذين تعلموا الاغريقية لم يكن حظهم من الحضارة الاغريقية الا يسيرا . ولعل الطبقة العليا من المصريين رأت في تعلم الاغريقية والانتهال من موارد الثقافة الجديدة استكمالا لمؤهلات أفرادها ، فاستخدمت مدرسين خصوصيين أو ادخلت أبناءها في المدارس الاغريقية المنتشرة في مختلف أرجاء البلاد . ولعل ذلك كان أيضا شأن تلك الفئة القليلة من المصريين الذين أخذوا على عهد البطالمة الأواخر يعملون على صبغ أنفسهم بصبغة اغريقية طمعا في الفوز بمركز يعادل مركز الاغريق . لكن لما كانت الطبقة العليا وكذلك فئة الوصوليين قليلتي العدد ، وكان حظ أكثر موظفي الحكومة المصريين من الثقافة الاغريقية تافها ، وكانت الغالبية العظمى من المصريين أميين ، فلابد اذن من أن تغلغل الثقافة الاغريقية بين المصريين كان محدودا .

وقد أسلفنا انه لم يحدث تزاوج بين المصريين والاغريق في القرن الثالث قبل الميلاد وانه في الشطر الثاني من عصر البطالمة تمصر بعض الاغريق وتأغرق بعض المصريين ، مما جعل من الميسور حدوث تزاوج بين المصريين المتأغرقين والاغريق المتمصرين ، وانتشار الأسماء المختلطة بين هذين الفريقين . ولابد من انه قد صحب ذلك أن استبدل أولئك المتأغرقون بثيابهم المصرية ثيابا اغريقية . لكن اذا كان من المسلم به ان أغلب المصريين لم يعرفوا شيئا من اللغة الاغريقية وآدابها ، وانهم بطبيعة الحال لم يتزاوجوا مع الاغريق على الأقل لكثرة عددهم وقلة عدد الاغريق ،

فلابد أيضا من أنهم لم يتخذوا أسماء اغريقية ولا ثيابا اغريقية .

وجملة القول ان المصريين بوجه عام ، وقد كانت لهم عادات ثابتة تقوم على أسس حضارة وديانة ترجعان الى أقدم العصور بقوا مصريين خالصين فى مجموعهم ، على حين أن نفرا منهم اصطبغوا فى تعليمهم وملبسهم وأسمائهم بصبغة اغريقية تدل القرائن على انها لم تمسس قوميتهم ولم تكن أكثر من طلاء خارجى لم يمس جوهرهم .

ثالثا — الثورات القومية

١ — الاسباب

وليس من العسير أن نتصور شقاء المصريين بعد أن عرفنا كيف سلبهم البطالمة استقلالهم ، وكيف أثقلوا كاهلهم بالضرائب الفادحة والتكاليف المرهقة ، وكيف وضعوا أيديهم على كل موارد البلاد بشكل لم يسبق له مثيل ، وكيف قضوا على الارستقراطية المصرية الدنيوية ، وكيف أذلوا الأرستقراطية الدينية والمحاربين المصريين ، وكيف وفروا للاغريق أسباب الحياة التى يألفونها فى بلادهم ومنحوهم أرفع المناصب وأخصب الضياع وأوسع الاقطاعات . ولم يتحمل المصريون كل ما لقوه من عنت وعسف فى سبيل آلهتهم أو ملوكهم الوطنيين ، الذين يعتنقون نفس المعتقدات الدينية ، ويتكلمون نفس اللغة ، ويحيون نفس الحياة ، وانما فى سبيل ملك أجنبى وجنس أجنبى بأسره اصطفاه ذلك الملك لمشاركته فى حكم البلاد، وارغام أبنائها على بذل أقصى الجهد فى استغلال مرافق البلاد الاقتصادية . فلا عجب اذن أن نبضت قلوب المصريين بكراهية الأجانب ، وان انفجر مرجل غضبهم فى وجه مغتصبى بلادهم ، فقد تضافرت فى اشعال لهيب الثورات المصرية ثلاثة عوامل لها أبعد الأثر فى حياة الناس فى كل زمان ومكان ، وهى العامل الدينى والعامل القومى والعامل الاقتصادى .

ووسط هذه الظروف كان من اليسير أن يندلع لهيب الثورة لأى سبب ، فقد امتلأت النفوس غضبا وحقدا ، وتوفر جيش الثورة من ملايين الزراع والصناع والعمال الذين كانوا يضيقون أشد الضيق بالنظام الاقتصادى الصارم الذى استحدثه أو أحكم ضوابطه بطلميوس الثانى . ولم يفتقر الثوار الى قادة وزعماء ، فان النبلاء المصريين ، وقد عصف البطالمة بمكانتهم وثروتهم وامتيازاتهم ، وكذلك رجال الدين ، وقد كسر البطالمة ولا سيما أوائلهم شوكتهم ، كانوا جميعا يحنون الى استعادة ما كانوا ينعمون به فى الماضى من الكرامة والعزة والثراء .

٢ — الثورات

ونستخلص من الوثائق ان المصريين قد أظهروا نقمتهم على ذلك النظام الاقتصادى البغيض منذ عهد بطلميوس الثانى ، اذ تحدثنا الوثائق عن تكرار وقوع اضطرابات عندئذ بين المزارعين ، كانت تنتهى باضرابهم عن

العمل وفرارهم الى المعابد للاحتماء بالآلهة . وقد أخذت هـذه الاضطرابات تزداد عنفا على مضي الزمن ، فوقعت في عهد بطلميوس الثالث أول ثورة شعبية . لكن أشد ثورات المصريين عنفا وأطولها بقاء لم تقم الا بعـد انتصارهم في موقعة رفح ، فقد كان ينقص المصريين الحافـــز الذي يعيد اليهم ثقتهم بأنفسهم ويزكي روح الوطنية الكامن في صدورهم فيخلصوا بلادهم من نير الأجنبي مثل ما تخلص أجدادهم من الهكسوس بعد حكم دام مدة قرن تقريبا .

لقد صبر المصريون على بلائهم كارهين الى أن تبين لهم من انتصارهم في موقعة رفح ان تفوق الاغريق عليهم لم يكن الا وهما ، وانهم على الأقل ند لأولئك السادة الذين أوسعوهم بطشا واستغلالا . فلا عجب انه ما كاد الجيش يعود من رفح حتى تأججت نار الثورة بين المصريين . وقد بدأت الثورة في الدلتا في عام ٢١٦ ق . م . ولم يأت عام ٢٠٦ حتى كانت قد اشتدت وامتد لهيبها الى مصر الوسطى ومصر العليا . وقد بقيت نار الثورة مستمرة في البلاد حتى عام ١٨٤ / ١٨٣ ق . م . عندما وقعت سايس في قبضة بطلميوس الخامس الذي مثل بالزعمـــاء المصريين أفظع تمثيل بعد أن أمنهم عـلى حياتهم ليشجعهم على التسليم .

ولم يكد بطلميوس السادس ينجو من شبح انطيوخوس الرابع المخيف حتى واجه في عام ١٦٥ / ١٦٤ ق . م . الثورة التي قام بها زعيم مصري متأغرق يدعى ديونيسيوس بتوسيرابيس كان يتولى منصبا كبيرا في القصر الملكي ، ويتمتع بنفـــوذ كبير بين المصريين ، وقام بدور ممتاز في الحرب ضد انطيوخوس . ويبدو أن ديونيسيوس كان يريد استغلال الشقاق الأسري بين بطلميوس السادس وأخيه الصـغير لتخلص من الأخ الأكبر باستثارة خواطر الاسكندريين ضده ، حتى اذا ما تم له ذلك استقر ومعه المصريين ضد الأخ الأصغر ، وبذلك يتقد البلاد من مغتصبيها . لكن التوفيق بين الأخوين أفسد عـلى ديونيسيوس خطته ومكن بطلميوس السادس من عزيمته . غير أن ديونيسيوس تمكن من الفرار واشعال لهيب الثـورة في البلاد ، فاضطر بطلميوس السادس الى القيام بحملة حتى انتهت لاخماد هذه الثورة .

ويرى بعض المؤرخين ان مصر رجعت أصداء الخلاف بين بطلميوس الثامن وأخته كليوبترة الثانية وانقسمت فريقين ؛ وانه كان يؤيد كليوبترة الثانية الاسكندرية أو عـلى الأقل جانب من الاغريق وكذلك اليهــــود وجانب من الجيش ، عـلى حين كان يؤيد بطلميوس الثامن بقية الجيش وكثـير من المصريين ومن المحتمل غالبيتهم بزعامة الكهنة وان هذه الحرب الأهلية كانت مزيجا من النزاع الأسري والثورة القـومية . ونحن نعتقد ان هذه الحرب كانت فعلا مزيجا من

النزاع الأسرى والثورة القومية ، وان تفسير ما حدث هو انه كان لكليوبترة الثانية حزب يضم الجانب الأكبر من اغريق مصر والمتأغرقين وخصوم كهنة آمون ، ولذلك كان الموقف الطبيعي لغالبية المصريين هو مناهضة ذلك الحزب اشفاء لغليل حقدهم على الاغريق ومن هادتهم من المصريين ، فبدوا كما لو كانوا يناصرون بطلميوس الثامن ، أو بعبارة أخرى لم يكن تأييد غالبية المصريين لبطلميوس الثامن حبا فيه وانما كراهية لأنصار خصمه .

وقد تجددت الثورة في عهد بطلميوس التاسع وكانت مثل سابقاتها وليدة عوامل دينية وقومية واقتصادية . وقد تفاقمت الحال في منطقة طيبة الى حد ان بطلميوس التاسع رأى أن الطريقة المثلى لقطع دابر الثورة هي القضاء على طيبة لأنها كانت دائما مهد الثورات ومعقل الثائرين ، ولذلك فانه بعد حرب دامت ثلاث سنوات استولى على طيبة وخربها تخريبا شديدا (عام ٨٥ ق . م .) .

ويبين ان تخريب طيبة قد قصم ظهر الثورة لكنه لم يقض عليها قضاء مبرما ، اذ تشير الدلائل الى حدوث اضطرابات في عام ٧٩/٧٨ وفي عام ٦٤/٦٣ وكذلك في عام ٥٨ ق . م .

وقد خرج المصريون من كفاحهم الطويل يجرون أذيال الخيبة بسبب افتقارهم الى ما امتازت به عليهم قوات البطالمة من النظام والأسلحة والعتاد والأموال ، وبسبب عدم اتحادهم ، فان فريقا مهما من المصريين بدلا من أن يشتركوا في مناهضة الحكم الأجنبي الجائر اشتركوا في مناهضة مواطنيهم ، أو على الأقل وقفوا منهم موقفا سلبيا ، وذلك اشباعا للأحقاد الشخصية وسعيا وراء مصالحهم المادية ، فكانوا بذلك مطية للأجنبي وجزءا من أداة تنفيذ سياسته الاستعمارية .

واذا كان المصريون قد فشلوا في التخلص من طغاتهم الأجانب ، فانهم على الأقل ارغموهم على النزول عن صلفهم وجبروتهم والنظر اليهم بعين جديدة في الشطر الثاني من حكمهم . وفضلا عن ذلك فان الثورات القومية كانت من أهم الأسباب التي أضعفت دولة البطالمة وعجلت بالقضاء عليها .

الفصل الثامن

الآداب — العلوم — الفنون

سنقصر الكلام في هذا الفصل على الآداب والعلوم الاغريقية ، لأن مصادرنا تغفل اغفالا تاما الآداب والعلوم المصرية في خلال هـذا العصر .

اولا — الآداب :

١ — دار العلم والمكتبة

يرجع ان بطليموس الأول هو الذى خطا حوالى عام ٢٩٠ ق . م . الخطوة الأولى فى سبيل انشاء دار العلم والمكتبة ، فقد فطن ذلك العاهل الأديب الى أنه اذا كانت القوة ضرورية للذود عن حياض مملكته وتوسيع رقعتها ، فان رعاية العلم والفن كانت أنجع وسيلة لكسب سلالته المجد والخلود . ومن ثم أخذ يدعو الى الاسكندرية الكثير من نجوم شعراء الاغريق وادبائهم وعلمائهم وفلاسفتهم وفنانيهم . وقد كان فى طليعة ضيوفه ديمتريوس الفليرى الذى أوحى اليه بانشاء دار العلم (الجامعة) والمكتبة .

وقد أنشئت دار العلم على نمط مدارس أثينه الفلسفية ، اذ يبدو أن بطليموس الأول اقتفى أثر المدارس الفيثاغورثية فجعل دار العلم فى الاسكندرية تلتف حول عبادة آلهات العلم والفن ، ولذلك سميت موئل هـذه الآلهات . وقد شيد بطليموس لهذه الدار مبنى فى الحى الملكى ، أعد بحيث يكون مركزا للبحث العلمى وفى الوقت نفسه مسكنا للعلماء ، حيث كان الملك يستضيفهم عـلى نفقته فضـلا عـما كان يجريه عليهم من المرتبات ، لكيـلا تشغلهم مطالب الحياة عن الانصراف كلية الى البحث والدرس . ولم يكن الهدف الأول لهذا المعهد التعليم وانما البحث العلمى ، ومـع ذلك كان العلمـاء يلقون المحاضرات فى القاعات العامة وما شبه ذلك فى المدينة . ويبدو من الدور الذى قامت به الاسكندرية فى الحركة العلمية أن كل فروع البحث العلمى كانت ممثلة فى جامعتها .

ولكى يتيسر للعلماء الاضطلاع بمهمتهم أنشئت المكتبة الكبرى . واذا كان بطليموس الأول هو الذى وضـع نواة هـذه المكتبة بجوار دار العلم فان بطليموس الثانى هو الذى تعهد المكتبة برعايته حتى غدت أعظم المكتبات فى العالم القديم . ويبدو أنه أنشأ كذلك المكتبة الصغرى التى كانت تكون جزءا من معبـد السـيرابيوم . ونحن نميل الى الأخـذ بما تذكره بعض المراجع القديمة من أنه عندما أحرق يوليوس قيصر

الأسطول المصري في خـلال « حـرب الاسكندرية » ، وامتد اللهب الى رصيف الميناء وأحرق المباني المجاورة له ، ذهبت المكتبة الكبرى طعما للنيران ، بدليـل ان أنطونيوس عوض كليوبترة عن تلك الخسارة الفادحة باهدائها ٢٠٠,٠٠٠ مجلد من مكتبة برجام .

وقد أدى علماء الاسـكندرية خدمات جليلة للأدب الاغريقي ، عندما ابتدعوا فن نقد النصوص القديمة بمقارنة المخطوطات المختلفة ، وحققوا أصول كثير من المؤلفات القديمة . ولعـل أهم ما يدين به المحدثون لعلماء الاسكندرية ما بذلوه من الجهد في تحقيق الأشعار الغنائية والمسرحيات ، وكان فن النقد الاسكندرى يرتكز عـلى قواعد ثابتة قويمة تخالف تماما قواعد فن النقـد التخيلي الذي ابتدعه الرواقيون فيما بعـد في برجام .

٢ ــ الشعر

وتعتبر الاسكندرية بحق عاصمة الأدب الاغريقي في العصر الهيلينستي ، حتى انه يندر ان نسمع أن أحدا من فحول شـعراء ذلك العصر لم يزر الاسكندرية أو يعيش فيهـا لينعم برعاية ملوكها وينهل من موارد علمها فلا عجب أن كافة أنواع الشعر الاغريقي ، فيما عدا الكوميديا ، قد تأثرت في خلال هذا العصر بالشعر الاسكندري .

وكانت أحب ألوان الشـعر الى قلوب الاسكندريين الشعر القصصي والمرثيـات والشعر الغنائي والمقطوعات القصيرة . وقد كان هذا الشعر اغريقيا خالصا ، واستمد بعضه من الفنون القديمة ، والبعض الآخر من عواطف المعاصرين وخيالاتهم . ولذلك فانه بينما يعتبر بعض الشعر الاسكندري تجديدا لبعض فنون الشعر القديمة ، يعتبر البعض الآخر مبتكرات جديدة في شكلها وفكرتها .

وعلى كل حال فان جميع ألوان الشـعر الاسـكندرى لا تمت بصـلة الى مصر أو شعبها ، حتى ان ثيوكريتوس عندما كان يتغنى بوصف الطبيعة كان لا يصف جمـال الطبيعة في مصر وانما في جـزيرة كوس أو مدينة سيراكوز . وكان الشعراء الاغريق لا يعرفون عن مصر ، حتى بعد ما عاشوا فيها ، الا ما قرأوه في القصص الاغريقية أو ما كتبه هيرودوتوس وأفلاطون ، وكانوا لا يوجهون عنايتهم الى شيء من المـميزات المحلية الا ما لا يستطيعون استخدامه في اطراء الملك الذي يرعاهم .

ولعل أهم مميزات الشعر الاسكندري انه كان خاليا من العواطف السياسية والشعور بالتقوى نحو الآلهة القديمة ، في حين انه كان كلفا بآفاق العلم المتسعة ، وتصوير المشـاعر الانسانية ، وامتداح الحياة البسيطة التي تخالف حياة الناس اليومية المعقدة وتصوير الواقع تصويرا دقيقا .

ويعتـبر كاليماخوس أبرز شـعراء

الاسكندرية في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، وكان لا يزال يقرض الشعر في الشطر الأخير من حياته في عهد بطلميوس الثالث . ولم يولد في مصر شاعر هيلينستي من الطراز الأول الا ابولونيوس الذي أطلق عليه لقب الرودسي ، لأنه استقر في رودس وأصبح أحد مواطنيها بعد طرده من منصب أمين المكتبة الكبرى .

وكان من أشهر شعراء القرن الثالث ثيوكريتوس السيراكوزي ، الذي عاش فترة في الاسكندرية وأصبح شاعر بلاط بطلميوس الثاني . واذا كان العصر الذهبي للشعر الاسكندري لم يعمر أكثر من نصف قرن يمتد من حوالي عام ٢٩٠ الى عام ٢٤٠ ق . م . ، فان الشعر الذي يصور حياة الريف بقي منتعشا حتى القرن الأول قبل الميلاد .

٣ ـ النثر

ولم يكن للاسكندرية في النثر الهيلينستي من الأثر مثل ما كان لها في الشعر . وقد تأثر النثر في هذا العصر بعاملين كان لهما أسوأ الأثر فيه . أما العامل الأول فهو أثر المشائين ، اذ أن غرامهم بجمع الحقائق كما هي أفضى الى الخلط بين الحقائق والقصص دون أي تمييز بينها . أما العامل الثاني فهو أثر ايسقراط وتلاميذه وكانوا يختلقون الوقائع ليكون أثر الحوادث في النفس عميقا ، أو يحورون الحقائق ليكون لها مغزى ظاهر . ويعتبر ساتيروس أشهر مؤرخي الاسكندرية الذين تأثروا بالمشائين ، وكلايتارخوس أبرز مثل لمؤرخي الاسكندرية الذين تأثروا بمدرسة ايسقراط .

ومن حسن الحظ انه في الوقت الذي خضع فيه التاريخ لتلك المؤثرات التي أفسدته ، وجد أشخاص يميلون الى الحقيقة وشاركوا فعلا في الأحداث التي كتبوا عنها ، مثل بطلميوس الأول الذي استمد معلوماته فيما كتبه عن الاسكندر من الوثائق الرسمية ومن مذكراته ومشاهداته الخاصة ، فكان كتابه فريدا في بابه يومئذ ، لكنه مع الأسف لم يصل الينا الا بعض منه عن طريق اريانوس .

وفي عهد بطلميوس الأول كتب هكاتايوس من أبدرا عن تاريخ مصر من وجهة نظر الاغريق . والتاريخ المصري الذي يمكن أن يوثق به من ذلك العصر هو ما كتبه مانتو كبير كهنة هليوبوليس ، واعتمد فيه على الوثائق الهيروغليفية وأهداه لبطلميوس الثاني ، وكان كتابا ضخما يقع في ثلاثة أجزاء .

واذا كان التاريخ يحتل مكان الصدارة في نثر العصر الهيلينستي ، فقد كان للجغرافيا مكان هام فيه ، الى حد أن ما كتبه فيها العالم الجغرافي اراتوستينس يعتبر أعظم مثل للنثر الاسكندري . وقد كانت سعة اطلاع هذا العالم وتبحره في مختلف العلوم والفنون مضرب الأمثال ، فانه كتب في الشعر والفلسفة وقواعد اللغة وفقه اللغة والتاريخ والجغرافيا ،

* لكن مؤلفاته في العلمين الأخيرين فاقت سائر ما كتبه . وأهم مؤلفاته في الجغرافيا كتابان كان احدهما بحثا « في قياس أبعـــاد الكرة الأرضية » قدر فيه محيط الكرة الأرضية تقديرا يثير الاعجاب .

ثانيا — العلوم :

١ — الطب والجراحة :

وقد بلغ العلوم الاغريقية شأوا بعيدا في العصر الهيلينستي بعد الخطوات المرموقة التي خطتها قبل ذلك العصر . وقد تقـــدم الطب بوجه خاص تقدما كبيرا ، وكان أبرز علماء الطب في الاسكندرية هروفيلوس العالم في التشريح ، وارابســـتراتوس العـــالم في وظائف الأعضـــــاء . وقد كانت أبحـــاث هروفيلوس التشريحية تدور حـــــول المخ والأعصاب والكبد والرئتين وأعضاء التناسل ووجه هذا العالم عناية كبيرة الى دراسة المخ والأعصاب والقلب وضربات النبض . وتدل الأبحاث على انه كان يستخدم أداة مدينة لتقدير سرعة النبض . وقد كان طبيعيـــا أن يؤدي تقدم التشريح الى تقدم الجراحة . ومن أسباب مجد طب الاسكندرية اختراع آلات جديدة للجراحة ، واستخدام هـــذه الآلات بمهارة فائقة .

وكان ارابسيستراتوس أكثر توفيقا من هروفيلوس في أبحاثه عن القلب والمـــخ ، وذهب الى مدى أبعـــد منه في التفرقة بين الأعصاب الحســاسة والأعصاب المحركة .

وحوالي عام ٢٨٠ ق . م . أسس فيلينوس مدرسة طب جديدة في الاســـكندرية تدعى المدرسة التجريبية . وقد كان فيلينوس أحد تلاميذ هروفيلوس ، لكن مدرسته تغاضت عن التشريح والفســـيولوجيا ، لأنها كانت ترى ان الطب ليس مختصا الا بعلاج الأمراض دون الوقوف عـــلى أسبابها . ولذلك فان واجب الطبيب هو أن يعطي العلاج الذي يشفي أعراض الداء التي يراها ، عـــلى أن يهتدي الى ذلك بملاحظاته الشخصية والتعليم والحالات المتشابهة . ولا يبعد أن المدرســـة التجريبية قد أدت للطب خدمة كبيرة بمناهضة الميول النظرية التي كانت على الدوام أحـــد مواطن الضعف في الطب الاغريقي .

٢ — علما الحيوان والنبات

وقد كان على رأس المشتغلين بدراســـة علمي الحيوان والنبات في العصر الهيلينـــي عالمان بارزان ، كان أحـــــدهما تلميذا تابعا لأرسطو يدعى ثيوفراسطوس ، وقد فضـــل بطلميوس الأول في استمالته ، والآخر يدعى استراتون وكان معلم بطلميوس الثاني . وأهم ما أصابته دراسة الحيوان في هذا العصر أن العالم الاغريقي أصبح يألف عددا كبيرا من الحيوانات . ولا شك في أنه قد ساعد على ذلك حديقة الحيوان التي أنشأها بطلميوس الثاني ، وكانت تضم عددا كبيرا من مختلف أنواع الحيوان والطيور والزواحف .

أما علم النبات فقد كان أكثر توفيقا بفضل

أبحاث ثيوفراسطوس التي رفعت دراسة النبات الى مستوى العلم البحت ، وتمخضت عن معلومات تثير الدهشة في كثير من الأحيان لأن الميكروسكوب لم يكن معروفا عندئذ ، ولأن علم الكيمياء كان لا يزال في المهد . ومهما كان من أمر كشوف هذا العالم فانها لا يمكن أن تقارن بفضله في وضع أساس علم النبات وفي تمهيد السبيل لمن أتى بعده من الباحثين المتأخرين .

٣ ـ العلوم الرياضية

وتحتل الهندسة مكانة سامية بين رياضيات العصر الهيلينستي ، التي فاقت في تقدمها سائر فروع العلم الأخرى . فان الهندسة كانت أساس كل الرياضيات عند الاغريق لعدم درايتهم بالأرقام . ولعل ما طلقته الهندسة من الاتقان كان سببا في عدم تفكير الاغريق في اختراع الأرقام ، ولا سيما أن الهندسة كانت تشمل الكثير مما يعتبر اليوم من علم الجبر . ولا يمكن المبالغة في تقدير الخدمات التي أسداها اقليدس الى الرياضيات . ويبدو أن هذا العالم كان يعاصر بطلميوس الأول ، وعلى كل حال فانه أسس في الاسكندرية مدرسة تعلم فيها كثير من الرياضيين البرزين . ويقترن اسم اقليدس بأشهر مؤلفاته وهو كتاب في الهندسة يعرفه باسم « العناصر » . ولم يعمر كتاب في العالم ، باستثناء الكتب السماوية ، مثل ما عمر هذا الكتاب ، الذي استمر تلاميذ الهندسة في مختلف أنحاء العالم يستخدمونه منذ العصر الهيلينستي حتى عهد قريب جدا . وأهم ما يمتاز به هذا الكتاب ما اختاره فيه اقليدس من المعلومات المسلم بها كالتعاريف والفروض والبديهيات ، ولا سيما النظريات التي تستحق أن تسمى « عناصر » ، لأنها أساسية وتفوق غيرها في الأهمية وفي التطبيق . وقد وضع اقليدس كتبا أخرى لم تكن مقصورة على الهندسة ، بل شملت فروع الرياضيات كما كانت معروفة عندئذ .

ويتصل علم الفلك بالهندسة اتصالا وثيقا ، ويدين الاغريق العصر الهيلينستي بقدر من الفضل غير قليل لعلماء بابل ، الذين جمعوا منذ عهد بعيد ملاحظات تجريبية عن الأجرام السماوية . وقد كان من أبرز علماء الفلك أريستارخوس من ساموس ، الذي عاش في القرن الثالث وكان أول من نادى بأن الأرض لا تدور حول نفسها فقط وانما تدور أيضا مثل الكواكب حول الشمس . أما أعظم علماء الفلك في الاسكندرية وفي العالم القديم قاطبة فقد كان يعيش في القرن الثاني قبل الميلاد ويدعى هيبارخوس ، وقد كان أعظم كشوفه تحديد الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وتقدير متوسط طول الشهر القمري تقديرا يبعث على الدهشة ، لأنه لا يقل الا بثانية واحدة عن التقدير المقبول اليوم .

وكان أرخميدس السيراكوزي أعظم عبقرية مبتكرة بين علماء الرياضيات الاغريق .

وقد اخترع أرخميدس لولبه المشهور (الطنبور) لرفع الماء عندما كان يقيم في مصر، لكنه كان لا يعلق أهمية كبيرة على مثل هذه الأشياء التي كان يعتبرها مجرد تسلية، فقد كان يتفق مع أفلاطون في الرأي القائل بأن الفيلسوف يجب ألا يستخدم علمه في الأشياء العملية. وحسبنا أن نذكر أنه وضع أساس علم التفاضل والتكامل في اللانهاية وعلم دراسة الموائع والمبادىء الأولية في الميكانيكا.

وقد نشطت كذلك في عهد البطالمة الأوائل دراسة الميكانيكا وكان أبرز علمائها كتسيبوس الأكبر، الذى يحتمل انه عاش في عصر بطلميوس الثاني أو الثالث. وقد ابتكر هذا العالم آلات تعمل بالقوة الهوائيه وأخرى بالقوة المائيه. ويأتي بعد هذا العالم بحوالي ربع قرن فيلون البيزنطي الذي وضع كتابا في تسعة أجزاء على الأقل يدعى مجموعة الميكانيكا.

ثالثا ــ الفنون

وستقصر الكلام هنا على فني المعمار والنحت، لأننا لا نعرف عن موسيقى العصر الهيلينستي أكثر من أنها كانت تلعب دورا هاما في حياة العامة والخاصة، ولأنه لم يبق من التصوير الا القليل النادر الذي نراه على جدران المقابر.

١ ــ المعمار

سنتناول في ايجاز أقسام هذا الفن وهي: المقابر والمنازل والمعابد عند الاغريق وعند المصريين، وسنتبين اذا كان الفن المصري والفن الاغريقي قد تأثر أحدهما بالآخر أم بقى كل منهما خالصا نقيا.

ا ــ المقابر

وتدل نتائج الحفريات على أن اغريق مصر قد استخدموا مقابر من ثلاثة أنواع: كان أولها عبارة عن حفر تنحت في الصخر أو تحفر في الأرض، وتجد أمثال هذه المقابر البسيطة في مختلف أنحاء العالم الاغريقي. واهم مظاهر النوع الثاني الدفن في فجوات مستطيلة الشكل تبنى أو تنحت في جوانب دهليز أو غرفة. واذا كان هذا النوع فينيقي الأصل، فقد خلع الاغريق عليه طابعا اغريقيا. والنوع الثالث مقدوني الأصل، لكنه اغريقي في تخطيطه وعمارته وزخرفته ويسمى مقابر الأرائك.

وتمتاز مقابر الأرائك التي ترجع الى القرن الثالث والنصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد بأنها تتألف من سلم وفناء مكشوف وغرفة أمامية وغرفة خلفية تقع جميعها على محور واحد. أما مقابر الفترة التي تمتد من منتصف القرن الثاني حتى نهاية عصر البطالمة فقد كانت أبرز عناصرها هي فناء أوسط تحيط به الغرف. وقد تطورت هذه المقابر من مقابر ذات أريكة مثل مقبرة سوق الوردیان حيث كان الدفن يتم في تابوت على شكل الأريكة يوضع في الغرفة الخلفية، الى مقابر ذات أريكة وفجوات مثل مقبرة الشاطبي

مقبرة الشاطبي



مقبرة حديقة أنطونيادس

حيث استعملت الأريكة والفجوات فى الدفن الى مقابر ذات فجوات وأريكة مثل مقبرة سيدى جابر ومقبرة حديقة أنطونيادس حيث استخدمت الفجوات فقط فى الدفن ولم تكن الأريكة الا زخرفة بارزة ، وأخيرا الى مقابر ذات فجوات ومحاريب حيث اختفت الأريكة تماما وكان الموتى يدفنون فى الفجوات وفى توابيت كالصناديق كانت توضع فى المحاريب .

ومما يجدر بالملاحظة انه اذا كان طابع عمارة هذه المقابر وزخرفتها اغريقيا ، فانها لم تخل أحيانا قليلة من بعض العناصر المصرية ، وكذلك كانت أيضا حال النصب الجنائزية .

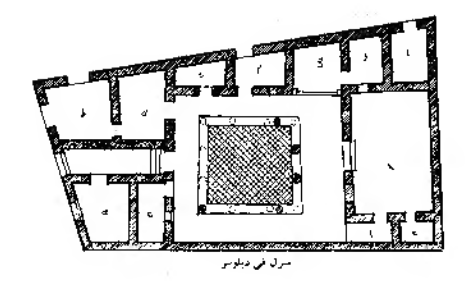
أما المصريون فانهم ، سواء أكانوا يعيشون فى الاسكندرية أم فى المدن والقرى المصرية ، قد احتفظوا بأساليب دفنهم التقليدية . فكانوا يدفنون موتاهم اما فى مقابر قديمة أعادوا استخدامها ، أو فى مقابر حديثة كانت على نوعين . وأحد هذين النوعين بسيط يتألف من بئر تنشأ فى قاعها فجوة يدفن فيها الميت . وكان هذا النوع المتواضع من المقابر شائعا جدا فى عصر البطالمة . وكانت مقابر النوع الثانى تتألف من هيكل جنائزى صغير تنزل من أرضيته بئر كان الميت يدفن فى قاعها . ولما كانت مقابر هذا النوع أغنى من مقابر النوع الأول ، فان هذا يفسر قلة عدد مقابره فى عصر يمتاز بفقر أهالى البلاد بوجه عام فقرا مدقعا .

وباستثناء مقبرة بتوزيريس التى اختلط فى زخرفة بعض أجزائها الطراز المصرى مع الطراز الاغريقى كانت المقابر المصرية البطلمية مصرية خالصة فى عمارتها وزخرفتها ونصبها الجنائزية .

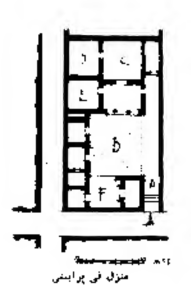
ومن ثم يمكن القول بأن المصريين والاغريق قد احتفظوا بوجه عام بطراز عمارتهم الجنائزية



صورتان كانتا تزينان جدران منزل فى بومبيى . لكن يبدو من خصائص عمارة المبانى التى فى الصورتين ان هذه المبانى كانت هلينستية وتماثل ما أقيم منها فى مصر أو آسيا الصغرى وسوريا .



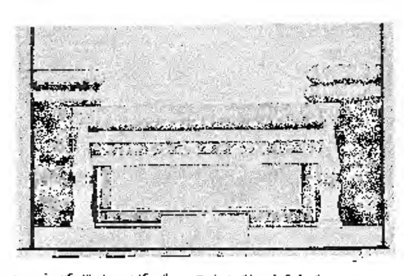
منزل في دبلوس



منزل في پرابينی



لوحة تزخرف فناء المقبرة رقم ١ بمصطفى كامل برمل الاسكندرية ، وتصور اللوحة ثلاثة فرسان بينهم سيدتان ، ويبدو أنهم كانوا جميعا أفراد أسرة مقدونية نبيلة دفنت في هذه المقبرة.



تابوت في شكل أريكة في المقبرة رقم ٢ بمصطفى كامل برمل الاسكندرية ، وهيئة الأريكة الجنائزية ، وقد صنعت من الحجر وطليت بالجص والألوان ، تعطينا صورة رائعة عن المستوى الرفيع الذي بلغته صناعة الأرائك ، التي كانت تستخدم في الحياة الدنيا ، وتصنع من الخشب وترصع بالعاج والمعادن والخشب النفيس ، وتفرش بالطنافس والوسائد .

خاليا من التأثيرات الأجنبية ، فيما عدا بعض العناصر الطفيفة التي تسللت في بعض الحالات من أحد الطرازين الى الآخر ، وتنهض بذلك دليلا على المدى المحدود الذي بمته محاولة مزج طرازي العمارة المصري والاغريقي .

ب ـ المنازل

ومع أنه لم يعثر في مصر كلها الا على عدد قليل من المنازل الاغريقية في الفيوم ، فانه بفضل معلوماتنا عن المنازل الاغريقية في باقي أنحاء العالم الاغريقي ، والأدلة المستمدة من الوثائق البردية ومقابر الاسكندرية وسفينة بطلميوس الرابع التي كانت تعتبر قصرا عائما ، نستطيع أن نستخلص أن اغريق الاسكندرية قد استخدموا ، مثل معاصريهم في سائر أنحاء العالم الاغريقي ، نوعين من المنازل يشبه أحدهما النوع الذي كان شائعا في برايني بالاناضول في القرن الثالث قبل الميلاد ، بدليل ان مقابر سوق الورديان والشاطبي والأنفوشي وسيدي جابر تتألف من العناصر الرئيسية التي كانت توجد في ذلك النوع من المنازل . أما النوع الثاني فيشبه ذلك النوع من المنازل الذي اشتهرت به جزيرة ديلوس في القرن الثاني قبل الميلاد ، ووجدت عناصره الرئيسية في مقبرتي حديقة أنطونيادس والمكس .

وتشير القرائن الى أنه كانت توجد منازل اغريقية في بطوليميس وبعض مدن الفيوم ، ومن المحتمل أيضا في نقراطيس . أما فيما عدا ذلك فيبين ان الاغريق وكذلك المصريين كانوا ينزلون في منازل مصرية لم تكن الا استمرارا لأنواع المنازل التي كشفت عنها الحفائر في تل العمارنة ، فهي مثلها تتألف من مدخل وصالة وسطى وغرفة للنوم ومطبخ ومخازن ، ويجب أن نبين أن اتخاذ الاغريق في الريف منازل من الطراز المصري لا يرجع الى تأثيرات حضارية وانما الى الظروف وحدها التي أملت ذلك ، فقد كان أغلب هؤلاء الاغريق جنودا وبعضهم تجارا ، وكان الجنود ينزلون مساكن في بيوت مصرية . ومن المحتمل أن هؤلاء الجنود والتجار لم يعيشوا من قبل في منازل تختلف كثيرا عما وجدوه من المنازل المصرية . ولذلك يبدو طبيعيا أن اغريق الأقاليم بوجه عام استعملوا المساكن المصرية التي وجدوها فيما نزلوا به من المدن والقرى المصرية . ولعله بمضي الزمن وتناسب هذه المنازل مع البيئة ألف الاغريق سكناها .

أما عن طابع عمارة المنازل البطلمية وزخرفتها فان القرائن توحي بأنه قد بقي بوجه عام مصريا خالصا أو اغريقيا خالصا .

جـ ـ المعابد

وتحدثنا المصادر القديمة بأن الاسكندر الأكبر والبطالمة قد شيدوا معابد للآلهة الاغريقية مثل ما شيدوا للآلهة المصرية ، لكن لسوء الحظ لم تكشف الحفائر عن بقايا أي معبد اغريقي كبير ، وان كانت قد كشفت عن بقايا معبد دوري صغير يبدو أن طرازه الاغريقي لا تشوبه أي تأثيرات مصرية ، كما




كشفت أيضا عن بقايا كل طرز الأعمدة الاغريقية . واذا كانت هذه البقايا تمتاز بطابعها المحلي ، وهو طابع الاسكندرية ، فان أغلبها اغريقي بحت . ومع ذلك فقد عثر على بعض تيجان للأعمدة تختلط فيها العناصر المصرية والاغريقية ، لكن يستبعد انها كانت مستخدمة فى معابد اغريقية أو مصرية لأن مثل هذه العمائر الدينية تتصف دائما بالمحافظة والاستمساك بالتقاليد . واذا كان الأفراد من سائر الاغريق قد حرصوا بوجه عام على أن يكون طابع مساكنهم فى الدنيا وفى الآخرة اغريقيا ، فاننا لا نشك فى أن معابد الآلهة الاغريقية كانت أكثر استمساكا بتقاليد العمارة الاغريقية .

وقد كشف عن عدد كبير من المعابد التي أقيمت فى هذا العصر للآلهة المصرية ، وهي مصرية صميمة فى تخطيطها وعمارتها وزخرفتها ، ولا أدل على ذلك من أن الأثريين لم يستطيعوا تأريخها تأريخا صحيحا قبل حل طلاسم اللغة المصرية القديمة . وتمتاز هذه المعابد بظاهرتين وهما : أولا ، كثرة ما استخدم فيها من الأعمدة التي يطلق على رءوسها الرءوس المركبة ، ونعتقد أن المصريين ابتكروها فى أثناء نهضة العصر الصاوي . وثانيا ، كثرة ما استخدم فى صالات الأعمدة بوجه خاص من جدران قصيرة تبلغ نصف ارتفاع الأعمدة تقريبا . وليست هذه الجدران القصيرة غريبة على العمارة المصرية ، اذ نجد أمثلة لها فى معابد الدولة الحديثة .

وجملة القول ان العمارة الدينية فى عصر البطالمة ، سواء أكانت مصرية أم اغريقية ، لم يتطرق اليها أي تأثيرات أجنبية .

٢ ـ النحت :

وتشير الدلائل الى أنه كانت للاسكندرية مدرسة للنحت الاغريقي ذات مميزات خاصة تختلف عن مميزات سائر مدارس النحت الهلينستية ، والى أنه اذا كانت هذه المدرسة ، مثل المدارس الأخرى المعاصرة ، قد استمدت طرازها من تراث أساطين الفن الاغريقي فى القرن الرابع ، فانها لم تلبث أن انفردت بطابع معين كان أخص مميزاته عدم ابراز عظام الوجه والجسم ، وعدم معالجة تفاصيل الشعر ، وعدم استخدام الزوايا الحادة ، وصقل السطح صقلا شديدا . لكن الاسكندرية لم تستخدم هذا الطراز المثالي فحسب ، لأنها يوم ابتكرت فرعا جديدا من فن النحت تمخضت عنه الأبحاث التي مارست قديما فى جامعتها ، وكان عبارة عن دراسة أجناس الناس وطباعهم وحرفهم ، ابتكرت طرازا واقعيا يوائم هذا الفرع من الفن .

وتدل المخلفات التي كشفت عنها الحفريات على أن الفنان الاغريقي لم يحتكر فن النحت فى مصر على عهد البطالمة . فقد استمر الفنان المصري يزاول نشاطه لا على جدران المعابد ونصب الموتى فحسب ، بل فى شتى الميادين التي كان أسلافه يألفونها منذ غابر الزمن .

وتنكشف دراسة فن النحت في عصر البطالمة عن : أولا ، ان أكثر النقود التي سكها البطالمة وأغلب قطع النحت التي ابتكرتها مدرسة الاسكندرية اغريقية في طرازها وعناصرها وصنعتها ، وان أكثر قطع النحت المصرية مصرية بحتة في صنعتها ومظهرها وجوهرها .

وثانيا ، ان الكثير من النقود وقطع النحت تختلط فيها العناصر دون الطرز ، مثل تصوير زهرة اللوتس أو قرص الشمس وسط قرنين على نقود بعض البطالمة ، فهذه عناصر مصرية ومع ذلك فان طراز تلك النقود اغريقي . ومثل قطعة تصور رأس الاسكندر الأكبر بطراز اغريقي ، لكن القطعة مصنوعة من الجرانيت أو البازلت وهما مادتان غريبتان عن الفن الاغريقي . ومثل تمثال يصور ملكا أو ملكة من أسرة البطالمة بطراز مصري . ولما كان المقياس الحقيقي في أي فن من الفنون هو الطراز ، لأنه أبرز صورة لأفكار الفنان وأفصح مظهر لطابع حضارته ، فان اختلاط العناصر أو الصنعة لا يمكن أن ينهض دليلا على امتزاج الطرازين المصري والاغريقي وتبعا لذلك على امتزاج تلك الحضارتين وتفاعلهما . لقد كان اختلاط العناصر نتيجة طبيعية لاجتماع الاغريق والمصريين في بيئة واحدة ، وكذلك لقدرة الفنان على أن يكيف

مثالان لقطع النحت التي تختلط فيها العناصر دون الطرز



رأس للاسكندر الأكبر مصنوعة من الجرانيت لكن طرازها اغريقي .



تمثال لبطلميوس الزمار مصنوع من الجرانيت وطرازه مصري .

نفسه حسب الظروف التي يعيش في كنفها ، وليس نتيجة لتفاعـــل الحضارتين المصرية والاغريقية ، لأن هذه العناصر ظواهر سطحية على حين ان الجوهر نفسه وهو الطراز قد بقى مصريا أو اغريقيا خالصا .

وثالثا : ان في عدد قليل من قطع النحت محاولات بالغـــيرة لمزج الطرازين المصرى والاغريقي ، لكن قلة عدد هـــذه القطع يدل على أن المصريين والاغريق قد أدركوا بذوقهم الفني الرفيع عبث مثل هذه المحاولات لبعد الشقة بين الطرازين . وتدل مقارنة هذه القطع بالقطع الأخرى التي كان طرازها مصريا بحتا أو أغريقيا بحتا على أن الأخـيرة لا تفوق الأولى في العدد فحسب بل كذلك في القيمة الفنية . ولعل أولئك الفنانين الذين حاولوا في عصر البطالمة مـــزج الطرازين المصرى والاغريقي في فن النحت يشبهون الموسيقيين المصريين الذين يحاولون اليوم عبثا مـــزج الموسيقى الشرقية بالموسيقى الغربية .

انه لم توجد الا طريقة واحدة ناجحة لمزج مثل هذين الفنين اللذين كانا يختلفان عن بعضهما اختلافا بعيد المدى . أما هذه الطريقة فهى أن يفنى أحدهما في الآخر بأن يتغلب أحدهما على الآخر بحيث يقضى عليه قضـاء مبرما . لكن ذلك كان عزيزا عـلى الاغريق باعتبارهم سادة البلاد وأصحاب حضـارة كانوا يعتبرونها أسمى الحضارات جميعا ، كما كان عزيزا أيضا على المصريين ، فقد كانوا

لا يزالون يذكرون مجدهم التالد ويعتزون بتقاليدهم ولا سيما ان الفن عندهم كان وثيق الصـــلة بالديانة والهم كانوا شـــديدى الاستمساك بديانتهم .

ومما يجدر بالملاحظة أن القيمة الفنية لقطع النحت الاغريقية أخذت تقل بعد بداية القرن الثاني قبل الميلاد . وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لضعف الروح الاغريقي بين اغريق مصر في الشطر الثاني من عصر البطالمة : لكن كما بقى الاغريق محتفظين بطابعهم خالصا نقيا برغم ما اعتور روحهم من الضعف ، فان فنهم قد بقى كذلك محتفظا بنقاء طرازه برغم ما طرأ عليه من تدهور .

وقد كان طبيعيا أيضـا انه حين انتعش الروح القومي بين المصريين عقب موقعة رفح أن ينتعش فنهم كذلك ، لكنه لم يكن انتعاشا طويل الأمد بسبب الفشل الذي انتهت اليه ثورات المصريين .

ولما كانت النقود ترينا انهـا قد بقيت اغريقية خالصة في طرازها حتى نهاية عصر البطالمة ، وكانت النصب الجنائزية ولوحات المعابد قد بقيت كذلك مصرية خالصـة في طرازها حتى آخر هذا العصر ، فاننا لا نعدو الحقيقة حين نقرر ان كلا من الفنين المصرى والأغريقي قد احتفظ بوجه عام ابان ازدهاره وابان تدهوره بطابعه خالصا نقيا من أثر الفن الآخر ، طالما بقى هذان الفنان منتعشين في مصر البطلمية ، اذ يبدو أن النـــاس كانوا

يدركون ادراكا صحيحا انه تفصل بين الفنين فوارق لا يمكن تخطيها ، وان قطع الفن التى تختلط فيها العناصر دون الطرز تعكس أثر البيئة لا أثر الحضارة التى يعبر عنها الطراز . أما تلك المحاولات التى كانت تستهدف مزج الطرازين فانها قليلة فى عددها محدودة فى جهدها ضئيلة فى قيمتها الفنية بحيث يمكن اعتبارها انعكاسا لنزوات فردية أو ذوق فنى ينقصه التهذيب .

* * *

ولا ريب فى أن الفن البطلمى يعطينا صورة صحيحة عن الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر البطالمة . لقد شهدنا أن غالبية الفن الاغريقى وغالبية الفن المصرى كانت اغريقية خالصة أو مصرية خالصة . ولذلك لابد من أن أغلب الاغريق وأغلب المصريين قد بقوا خالصين فى جوهرهم .

وترينا بعض الآثار عناصر خليطة لم يكن لها أثر فى طابعها الجوهرى . وهذا يدل على أن الجنسين قد التقيا واختلطا ، لكن لم ينقل أحدهما عن الآخر الا بعض المظاهر الشكلية فقط .

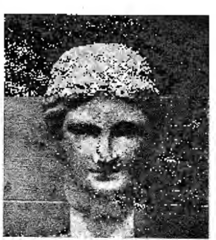
ونرى كذلك محاولات قليلة غير ناجحة لمزج الطرازين المصرى والاغريقى . وهــــذا يشير الى أن محاولة مزج الجنسين كانت كذلك محدودة وغير موفقة .

وبما انه يبدو جليا واضحا ان تدهور الفن الاغريقى قد حدث فى أعقاب انقطاع وفود الاغريق على مصر ، فانه يمكن القول ان ضعف الروح الاغريقى فى مصر لم يبدأ قبل القرن الثانى قبل الميلاد ولم يكن نتيجة لاختلاط الاغريق بالمصريين .

وكما بقى الفن الاغريقى اغريقيا حتى نهاية عصر البطالمة مهما انحط مستواه ، فلابد من أن الروح الاغريقى قد بقى كذلك اغريقيا مهما اعتوره من الضعف .

ويبدو اذن من كل ما مر بنا ان نتائج الأدلة المستمدة من الآثار ، تؤيد النتائج التى استخلصناها من مختلف المصادر الادبية .

امثلة لمراحل تطور فن النحت الاغريقى فى عصر البطالمة .

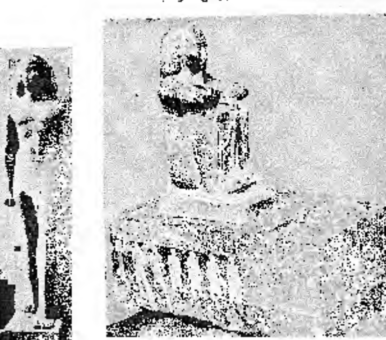




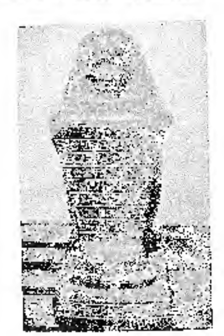




أمثلة لمراحل تطور فن النحت المصري في عصر البطالمة .

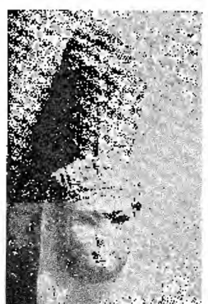






امثلة لمحاولة مزج الطرازين المصرى والاغريقى







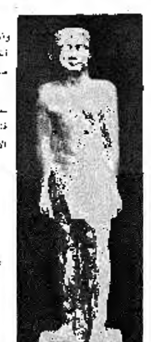




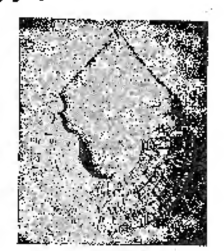


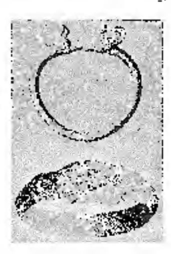
تمثالان صغيران من البرونز لقزمين : زنجي وامرأة ، يؤديان رقصة . عثر عليهما مع أشياء أخرى في قاع البحر عند المهدية بالقرب من صفاقس في تونس .

وقد كان استخدام الأقزام وتصويرهم شائعين في مصر على عهد الفراعنة وكذلك البطالمة فإنه لا يبعد أن هذين التمثالين كانا من صنع الاسكندرية .



تمثال كاهن وهو مصري في ثيابه وحركاته وطرازه





١ ٢

١ - عقد صغير من الذهب مرصع بالاحجار الثمينة . وهو مصرى فى الشكل والصناعة والطراز .

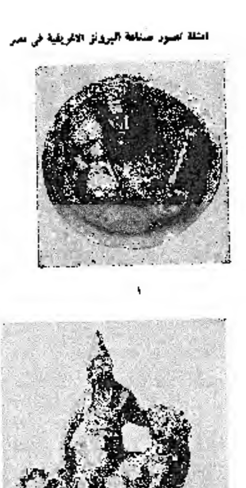
٢ - سواران من الذهب ينتهي أحدهما بجزء من حول عنخ وهو مصري في نوعه لكنه اغريقي في تصفيف شعره . أما السوار الآخر فينتهي بمشبك في شكل عقدة يوجد في تجويفها ايروس مجنح .





سواران من الفضة عثر عليهما فى البلاموزبمديرية الدقهلية . والسوار الأول على شكل ثعبان طوى جسمه حلقات ، والسوار الثاني يتألف من أسلاك تلتف وتتشابك مع بعضها ثم تنتهي برؤوس ثعابين وهلال . والأساور التي تحاكي الثعابين فى شكلها شائعة فى الفن الاغريقي . وقد وجدت فى مصر وفى بلاد ما بين النهرين امثلة تحاكى السوار الثاني فى شكله وزخرفته .

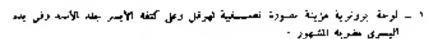
امثلة لعصور صناعة البرونز الاغريقية في مصر





٢ ١

٤ ٣



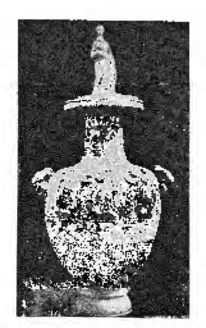
١ — لوحة برونزية مزينة بصورة نصفية لهرقل وعلى كتفه الأيسر جلد الأسد وفي يده اليسرى مضربه المشهور .

٢ — نموذج من الجبس للوحة برونزية مزينة بصورة نصفية لبطليموس الأول

٣ — تمثال صغير يصور ايروس على ظهر أسد .

٤ — رأس مشبك شعر على شكل أفروديتي وهي تحزم شعرها .

امثلة من الأوانى فى عصر البطالمة





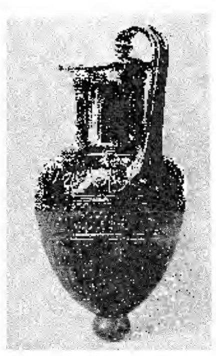
نوعان من الآنية الفخارية الجنائزية التي كانت شائعة فى القرن الثالث قبل الميلاد فى الاسكندرية •



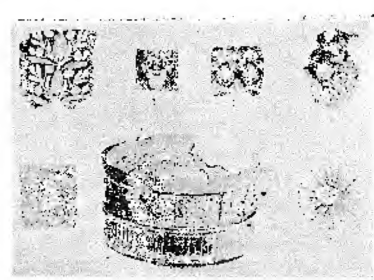
اناء من الخزف اللامع كان يستخدم فى القرن الثالث قبل الميلاد فى تقديم القرابين فى المعابد والهياكل المخصصة لعبادة البطالمة الآلهة •



اناء من البرونز من العصر الهلينستي المتأخر



اناء زجاجي من العصر الهلينستي المتأخر



نرى في وسط هذه الصورة كأساً من الزجاج ذات يدين . وحولها لوحات زجاجية صغيرة كانت تستخدم للزخرفة .



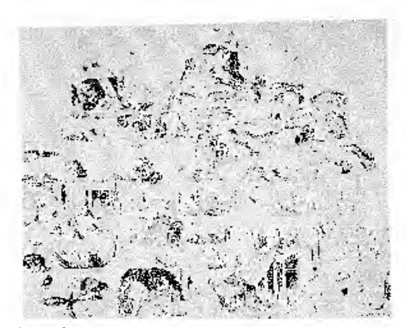
(٢)



(١)

١ ــ كأس من الفضة فى شــكل قرن ينتهى بجزء حيوان خرافى مجنح - صناعة اغريقية .
٢ ــ وعاء من الفضة اغريقى فى شكله ، فهو يشبه الآنية الجارية لكنه مصرى فى صــناعته وطرازه .

ــ تضم هذه اللوحة تمثالا صغيرا من الصلصال المحروق مصنوعا محليــا لكن طرازه اغريقى - وتضم كذلك عددا من الآنية الفخارية بعضــها اتيكى وبعضها اغريقى مصنوعة محليا وبعضها مستورد من ايطاليا . وتصور هــذه اللوحة ازدهار الفن الاغريقى فى مصر البطلميــة ، وكذلك قيام علاقات تجارية نشيطة بين مصر واثينــا وكذلك فيما يبدو بين مصر وجنوب ايطاليا .



لوحة من الفسيفساء تصور في جزئها العلوي مناظر وحيوانات سودانية وفي جزئها الاسفل منظرا عاما لمصر وقت الفيضان .



الفصل الأول

مصر في عصر الرومان (٣٠ ق م — ٢٨٤ م)

للدكتور ابراهيم نصحي

مصر تصبح ولاية رومانية

١ ـ الفتح الروماني :

أخذ نفوذ روما يزداد تدريجيا في مصر منذ أيام بطلميوس الخامس ، بل أصبح مصير مصر متعلقا بمصير الصراع الحزبي في روما منذ وفاة بطلميوس التاسع في عام ٨٠ ق . م . لكن بالرغم من كل ذلك ظل البطالمة يحتفظون على الأقل باستقلالهم الاسمي . وعندما ارتقت كليوبترة السابعة عرش مصر في عام ٥١ ق . م . واندلع لهيب الحروب الأهلية في روما لعبت كليوبترة دورا كادت تحيي من ورائه امبراطورية واسعة على حساب الرومان مما أفضى الى صراع روما مع كليوبترة وهو الصراع الذي تمخض عنه القضاء على دولة البطالمة .

وبيان ذلك ان كليوبترة مدت يد المساعدة الى بومبي الأكبر في صراعه مع قيصر ، لكن لم يكن نصيب بومبي سوى الهزيمة ففر الى الاسكندرية حيث قتله رجال البلاط ليبرهنوا لقيصر الذي تبعه الى هناك ان مصر قد قطعت علاقاتها مع أعدائه وبذلك لم يبق ثمة داع لغزو مصر . الا أن قيصر دخل الاسكندرية ، وبعد حرب قصيرة عنيفة تعرف « بحرب الاسكندرية » وطد مركز كليوبترة على العرش بينما وطدت كليوبترة سيطرتها على قيصر فأصبح طوع أمرها . ويبدو انهما اتفقا على أن تعلن كليوبترة زواجهما في مصر حسبما يرجىء قيصر اعلان هذا الزواج في روما حتى ينصب نفسه ملكا هناك ، فعندما أنجبت كليوبترة طفلا من قيصر سجلت على جدران معبد أرمنت انها أنجبت طفلا من قيصر الذي خالطها في صورة آمون رع ومعنى ذلك انها في نظرها ونظر رعاياها المصريين كانت زوجة قيصر الشرعية . وسرعان ما خفت كليوبترة الى روما وأقامت الى جانب قيصر انتظارا لليوم الموعود الذي يقيم فيه نفسه ملكا ويعلن رسميا زواجه منها وترتقي معه عرش الامبراطورية الرومانية . لكن هذه الآمال العراض لم تلبث أن انهارت عندما استثارت مطامع قيصر غضب الجمهوريين الرومان فقضوا عليه في مارس عام ٤٤ ق. م.

وقد بادرت كليوبترة بالهرب الى مملكتها واخذت ترقب في قلق الصراع الذي نشب في العالم الروماني بين قتلة قيصر واعوانه دون أن تناصر فريقا على آخر ، حتى اذا ما انتصر أصدقاء قيصر وكان على رأسهم أنطونيوس وأوكتافيوس (أغسطس) في خريف عام ٤٢ ق . م . ذهب أنطونيوس يتولى أمر الجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية وأرسل هذا القائد المغوار الى كليوبترة يستدعيها الى كيليكيا لتجيب عن تحيزها معاونة أنصار قيصر . وما كادت كليوبترة تصل الى طارسوس حتى أحرزت نصرا حاسما على قلب أنطونيوس . وعندما عاد الى الاسكندرية سارع الى اللحاق بها وقضى في صحبتها شتاء عام ٤١/٤٠ ق . م . مستمتعا بتلك « الحياة الفريدة » التي خلد الكتاب والشعراء ذكراها في النصوص وفي الآداب ، والتي منذ تلك اللحظة شدت على الدوام وثاق قلبه وعقله الى الاسكندرية . لكن الأحداث الخطيرة التي وقعت في العالم الروماني في ربيع عام ٤٠ ق . م . انتزعته كارها من جانب كليوبترة واضطرته الى العودة الى روما حيث أصلح ما بينه وبين أغسطس وتزوج من أخته أوكتافيا وحصل على الاعتراف بسلطانه على الولايات الشرقية . وقد ظل أنطونيوس بعيدا عن كليوبترة حتى عام ٣٧ ق . م . عندما ذهب الى سوريا ليتولى الاشراف على حملته ضد بارثيا . ولما كان شوقه الى كليوبترة قد استبد به فانه استدعاها الى جانبه وأعلن زواجه منها واعترافه بالتوأمين اللذين أنجبتهما منه . وبعد انتهاء حملته الفاشلة عاد الى مصر في أوائل عام ٣٥ .

وفي العام التالي وجه حملته الى أرمينيا وعاد منها مظفرا الى الاسكندرية حيث أقام مهرجان انتصاره ، وكان القواد الرومان المنتصرون يقيمون مهرجاناتهم عادة في روما . وقد أثار ذلك غضب الرومان لأنهم رأوا فيه دليلا على ان أنطونيوس كان يريد جعل الاسكندرية عاصمة للامبراطورية واشتد غضب الرومان عندما أتاهم نبأ حفل آخر أقيم بعد ذلك بأيام قليلة في الاسكندرية واشترك فيه أنطونيوس ونودي فيه بكليوبترة ملكة الملكات ووزعت على أبنائها الولايات الرومانية في الشرق . وهكذا رأت كليوبترة للمرة الثانية انها كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح امبراطورة العالم ، فقد كانت تسيطر عندئذ على النصف الشرقي من العالم الروماني وكذلك على أعظم قائد في هذا العالم ولم يبق الا أن ينتصر أنطونيوس على أغسطس في الصراع المقبل المحتوم بينهما لكي تحقق كليوبترة حلمها الذي بدده أول مرة مقتل قيصر . ولذلك لم تدخر كليوبترة وسعا في تحريض أنطونيوس على اتخاذ العدة لمنازلة أغسطس . وقد أجاب أغسطس على ذلك باثارة الرأي الروماني ضد غريمه واعلان الحرب على ملكة مصر لا على أنطونيوس لكيلا يتهمه أحد باشعال نار حرب أهلية .

ويعد أن حشد أنطونيوس قوات كبيرة في بلاد اليونان أضاع فرصته باتخاذ موقف الدفاع فساءت حال قواته ماديا ومعنويا . وعندما التحم الفريقان في سبتمبر عام ٣١ ق . م . عند اكتيوم انتصر أغسطس وفرت كليوبترة وأنطونيوس الى الاسكندرية . وقد استبد اليأس بأنطونيوس من جراء خيانة رجاله الذين انضم كثيرون منهم الى جانب أغسطس فلم يقم بأي اجراء للدفاع عن مصر عندما زحف عليها أغسطس . ولما رأت كليوبترة عبث المقاومة عرضت على أغسطس أن تنزل عن عرشها والتمست منه اقامة أحد أبنائها مكانها فأجابها بعبارات ملتوية لكي لا يكشف النقاب عن حقيقة نواياه نحــوها . وفي اليوم الأول من شهر أغسطس عام ٣٠ ق . م . قبل أن يدخل أغسطس الاسكندرية قضى أنطونيوس على حياته بينما كانت كليوبترة قد اختبأت في مقبرتها حيث أودعت كنوزها وهددت بأن تشعل النار في المقبرة فتقضي عــلى نفسها وكنوزها وكذلك على آمال أغسطس اذا لم يقم أحد أبنائها على العرش . ولما كان أغسطس يريد أن يعرض كليوبترة في مهرجان انتصاره ويستشعر حاجة ملحة الى كنوزها فانه ما كاد يدخل الاسكندرية حتى لجأ الى الحيلة واستولى عـــلى الملكة وكنوزها . وعندما لم يعد لدى كليوبترة أدنى شك في أن أغسطس ينوي أن يقودها أسيرة الى روما واجهت الموقف بشجاعتها المعتـــادة وأنقذت نفسها من ذلك العار والهوان بالقضاء على حيـــاتها (١٠ أغسطس) . وسرعان ما تخلص أغسطس من أبناء كليوبترة ليطوي صفحة الماضي ويبدأ فصلا جديدا في تاريخ مصر التي أصبحت منــذ ذلك الوقت ولاية رومانية . وقد قرر السناتو الروماني اعتبار أول أغسطس عام ٣٠ ق . م . — وهو يوم ســقوط الاسكندرية في قبضة الرومان — عيدا وطنيا في روما وبداية للتقويم المحلي في مصر .

ولا أدل على مقدار كراهية الرومـــان لكليوبترة وخوفهم منها من روح الشماتة والسخافة التي تكشف فيما كتبه فحـــول شعراء عصر أغسطس للاشادة بانتصار هذا الامبراطور وهزيمة كليوبترة . ولما كانت روما تسيطر عندئذ ولعدة قرون بعد ذلك على كل العـــالم المتمدين وكان الكتاب والشعراء المعاصرون قد تباروا في كسب ود الامبراطور المنتصر بتلطيخ سمعة كليوبترة ورميها بكل نقيصة يمكن أن يصورها الخيال المريض دون أن يجرؤ أحد من أنصـــار كليوبترة على الدفاع عنهـــا فان كتابات خصومها قد ظلت حتى اليوم المصدر الوحيد الذي يستقي منه تاريخها وتبعا لذلك كان لهذه الكتابات أبلغ الأثر في كل ما كتب عنها منذ العصور القديمة حتى اليوم ولا سيما ان الصورة التي صورت فيها استهوت الشعراء

وكتاب القصة . لكن عندما أخــذ بعض الباحثين المحدثين في تمحيص أقوال القدماء ومقارنة بعضها ببعض تبين لهم ان هــذه الصورة مزيفة وان كليوبترة كانت ملــكة طموحة أبية وأما رموها وغية وانها لم تكن أكثر من غيرها من نساء الاسكندرية أو روما تبذلا واستهتارا بل لعلها كانت أكثر من غيرها من ســيدات الطبقة الراقية وقارا واحتشاما .

٢ ــ سياسة اباطرة الرومان في مصر :

عنــدما فتــح أغسطس مصر أثبت في السجلات الرسمية العبارة التالية : « ضممت مصر الى سلطان الشعب الروماني » . ويرى كثير من الباحثين ان معنى ذلك واضــح لا لبس فيه ولا غموض وهو ان أغسطس ضــم مصر الى الامبراطورية الرومانيــة وأصبحت احــدى ولاياتها ، تستغل روما مواردها مثل موارد غــيرها من الولايات الرومانية لصالح الشعب الروماني . ولا أدل على وضوح هذا المعنى في ذهن القدماء من ان المؤرخين سويتونيوس وتاكيتوس وديون كاسيوس وغيرهم وكذلك الجغرافي استرابون وصفوا مصر بأنها ولاية رومانية . ومع ذلك ما زال بعض البــاحثين يعتقدون ان مصر لم تكن ولاية بالمعنى المعروف وانما كانت ملكا خاصا للامبراطور وترتبط بشخصه . وذلك لأنها كانت تخضع مباشرة لــلطانه ولأن نظــام حكمها كان يختلف اختــلافا جوهريا عن نظام الحــكم في الولايات الأخرى ، ولأن اسم مصر لم يرد في السجلات الرســمية المعاصرة مقرونا بكلمة ولاية ولاسيما انه في « اثر أنقرة » المشــهور — الذى اقتطفنا منه العبارة التى أوردناها في صدر هذه الفقرة — لا يصف أغسطس مصر بأنها ولاية مع انه يتحدث في الفقرة التالية لذلك عن احتمال تحويل أرمينيا الكبرى الى ولاية . ويعتقد البعض الآخر من الباحثين ان مصر كانت ولاية يتولى الامبراطور ادارتها باسم الشعب الروماني على هدى تقاليدها ومقتضيات ظروفها .

والواقع ان مصر لم تكن ملكا خاصــا للامبراطور كما أنهــا لم تكن ولاية عادية كسائر الولايات الرومانية ، فقد أخضــل أغسطس في تقديره عدة اعتبارات : أولا ، ان مصر بلاد غنية آهلة بالسكان تتمتع بمركز استراتيجى من اليسير الدفاع عنه ، وثانيا ان موارد هذه البلاد طائلة وتستطيع أن تســد حاجة الشعب الروماني الى الحبوب وأن تملأ خزائن روما بالأموال بعــد أن استنزفتها تكاليف الحروب الأهلية . وثالثا ، ان هذه البلاد في حاجة الى حكومة قوية لنشر الأمن في أرجائها والنهوض بمرافقها الاقتصادية بعد تدهورها من جراء ضعف البطالمة الأواخر وما عانته من آثار الثورات القومية والغزوات الأجنبية والانقسامات بين أفراد أســرة البطالمة . ورابعا انه يجب اتخاذ الحيطة دون

وقوع هذه البلاد فى قبضة شخصية تستطيع الاستقلال بها وحرمان روما مواردها بل تهديد كيان روما ذاتها على نحو ما حدث فى عهد كليوبترة .

وإزاء هذه الاعتبارات كان لولاية مصر الرومانيـــة مركز فريد فى الامبراطوريه الرومانية فقد وضع فيها أغسطس من الفرق الرومانيـــة والقوات المســاعده ما يؤمن سلامتها . وفضلا عن ذلك وضعها أغسطس تحت اشرافه المباشر . وفى عام ٢٧ ق . م عندما قسمت الولايات الرومانية الى ولايات خاضعة للســناتو وولايات خاضعه للامبراطور كانت مصر فى عـــداد الولايات الأخيرة . ولم تقم أغسطس على مصر حاكما عاما من طبقة الســناتو وانما من طبقة الفرسان ولم يحمل هـــذا الحـــاكم كغيره من حـــكام الولايات الرومانيـــة لقب نائب أغسطس أو قائمقام قنصـــل (proconsul) أو قائمقـــام بريتور (propraetor) وانما لقب برايفكتوس (praefectus) أى وال أو حاكم عام ، وكان لقبه الرسمى « حاكم عام الاسكندرية ومصر » فقـــد اعتبر الرومـــان إثر الاغريق فى اعتبـــار الاسكندرية وحدة منفصلة عن مصر ومجاورة لها (ad aegyptum) .

والى جانب كل ذلك وضـــع أغسطس قاعدة تقرر بمقتضاها ألا يزور مصر أحـــد من رجال السناتو و لا أى رجل ذائع الصيت من طبقة الفرسان يملك نصاب أعضـــاء السناتو الا باذن خاص من الامبراطور . وقد احترم خلفاء أغسطس هذه القاعده الى حد أنه عندما أنفذ الامبراطور تيبريوس ولى عهده جرمانيكوس الى الشرق لتنظيم بعض ولاياته وانتهز هـــذه الفرصة لزيارة مصر ومشاهدة آثارها ، آخذه الامبراطور مؤاخذة شديده لأنه دخل مصر دون استئذانه متخطيا تلك القاعدة التى وضعها أغسطس .

وقد ظل الأباطرة يحرصون على مراعاة القواعد التى وضعها أغسطس الى أن فلت نفوذ مصر ولم تعد المصدر الرئيسى لقمح روما فلم يعد الأباطرة يرون حرجا فى تعيين أحد من رجال السناتو فى مصر خطـــرا يتهددهم . وكان الامبراطور ماكرينـــوس (٢١٧ — ٢١٨) أول من خرج على القواعد التى وضـــعها أغسطس بأن عين الى جانب حاكم مصر مساعدا له من رجال السناتو ولا أدل على نقص أهميه مصر فى القـــرن الثالث مما فعله الامبراطور سفروس اسكندر (٢٢٢ — ٢٣٥) اذ أنه عندما ثار عليه بعض الجنود عين زعيمهم حاكما على مصر لا ارضاء له وانما لاقصائه الى مكان لا يستطيع فيه أن يهدد مركزه .

وقد اعتمد الرومان فى توسيد سلطانهم فى مصر على القوه قبل كل شىء فأقاموا حاميات عـــسكرية فى الأماكن الرئيسية التى تمكنهم من السيطرة على كافة أنحاء البلاد . ولذلك

وضعوا حامية رومانية في نيقوبوليس (Nicopolis) على بعد أربعة أميال شرقي الاسكندرية (ما بين مصطفى كامل وجليم برمل الاسكندرية) ، لتلقي الرعب في سكان العاصمة التي أثبتت الحوادث انها كانت أشد معاقل الثائرين خطرا في الدلتا في أيام البطالمة الأواخر . وأقام الرومان حاميات أخرى في بابيلون باعتبارها مفتاح الوجه البحري ، وفي منطقة طيبة التي كانت مركز الثورات الوطنية ضد البطالمة ، وفي أسوان لحماية حدود مصر الجنوبية ، وعلى الطرق المؤدية الى البحر الأحمر ، وكذلك على شواطيء هذا البحر لضمان سلامة التجارة الشرقية التي استرعت انتباه حصيفي الرأي من الأباطرة مما حدا بهم منذ عهد أغسطس الى العمل على بسط النفوذ الروماني على الشواطيء الأسيويه والافريقية للبحر الأحمر لتحويل التجارة في هذا البحر الى موانيه المصرية على نحو ما فعل البطالمة من قبل .

ولم يكتف الرومان بالاعتماد على القوة وحدها لتأييد حكمهم في مصر بل لجئوا أيضا الى الأساليب السياسية . فقد كان أهم عناصر السكان بعد فئة الرومان المصريون والاغريق واليهود ، وكان يقطن في الاسكندرية أكبر مجموعة من الاغريق واليهود ، ورأى الأباطرة في اخضاع الاسكندرية أكبر ضمان لاخضاع مصر . ولتحقيق هذا الهدف اتبعوا مبدأهم المعروف، مبدأ « فرق تسد » . فعلى حين رفض أغسطس ومن خلفه من أباطرة القرنين الأول والثاني أن يعيدوا الى اغريق الاسكندرية « مجلس الشورى » الذي عرفته مدينتهم منذ تأسيسها الى أن ألغاه أحد البطالمة الأواخر منحوا اليهود كافة الحقوق والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في عصر البطالمة . وقد والى الأباطرة هذه المنح على اليهود على الرغم من أن الاغريق التمسوا من سادتهم حرمانهم اياها فاستمر اليهود ينتظمون في جالية مستقلة لها رئيس ومجلس من شيوخهم ودار لسجلاتهم وبيع لممارسة شعائرهم الدينية . فتملك الغضب قلوب الاغريق الذين عز عليهم زوال ملك البطالمة وخضوعهم لأمة لم ترتفع الى مستوى حضارتهم ومحاباة الرومان لليهود . وقد زاد في نقمة الاغريق على اليهود ان هؤلاء بادروا الى الترحيب بالرومان والالتفاف حولهم فحقد الاغريق على الرومان واليهود واخذت عداوة الاغريق لليهود كرهم الدفين للرومان . لكن اذا كان الأباطرة قد أباحوا لليهود التمتع بامتيازاتهم وحقوقهم القديمة فانهم أبوا عليهم التمتع بالحقوق المدنية التي كان الاغريق يتمتعون بها ، فحقد اليهود أيضا على الاغريق ولا سيما ان الأباطرة بوجه عام لم يخفوا عطفهم على الحضارة الاغريقية فقد شملوا برعايتهم معاهد الاغريق ومنشآتهم وأبقوا اللغة الاغريقية لغة البلاد الرسمية

ولم تستعمل اللغة اللاتينية الا فى الجيش واللوائح المتعلقة بالقانون الرومانى . ومن ثم لم يكن هناك مفر من وقوع صدام بين الاغريق واليهود . وسنرى ان الشقاق بين اليهود والاغريق كان كالحمى الخبيثة المتقطعة التى تخف وطأتها وتهدأ حينا ثم تعود الى الظهور وتشتد حينا آخر ، وان سياسة « فرق تسد » كانت سياسة خرقاء لم يكتو بنارها الاغريق واليهود فحسب بل الرومان أيضا .

ولم يكد يمضى عام على الفتح الرومانى حتى شبت فى طيبة نار ثورة يبدو انها كانت خطيرة مما حدا بأول حاكم عام رومانى لمصر — كورنيليوس جاللوس — الى أن يقود بنفسه القوات الرومانية لقمعها . ويحدثنا استرابون بأن الحاكم العام أخمد فى وقت قصير نيران الثورة التى اشتعلت فى طيبة بسبب الضرائب . وقد سجل كورنيليوس على النصب الذى أقامه فى جزيرة فيلة انه واصل زحفه جنوبا حتى جزيرة فيلة حيث استقبل سفراء ملك النوبة وان هذا الملك قبل الحماية الرومانية وعينه حاكما على الاقليم الممتد من الشلال الأول حتى الشلال الثانى وكان يعرف باسم ترياكونتا سخوينوس .

ويبدو أن الثورة لم تنشب فى مصر العليا فحسب بل فى أنحاء أخرى من مصر اذ يقول استرابون انه عندما ثارت هيروونبوليس (تل المسخوطة فى شرق الدلتا) هاجمها كورنيليوس جاللوس وأخضعها بعدد قليل من الجنود .

وعندما رأى أغسطس ان نشوة النصر قد أسكرت كورنيليوس جاللوس عزله وولى مكانه ايليوس جاللوس وعهد اليه فى الاتفاق مع القبائل التى كانت تنزل على شواطىء البحر الأحمر فى بلاد العرب والصومال والحبشة لذا لم يتمكن من اخضاعها ، وذلك لتأمين سلامة تجارة مصر مع أواسط أفريقيا والهند . ولما لم يوفق ايليوس فى حملته كان نصيبه العزل ولا سيما ان تغيبه عن مصر مع جانب كبير من حاميتها شجع النوبيين على نقض اتفاقهم مع كورنيليوس جاللوس وعلى الاغارة على أسوان وفيلة والفنتين ونهبها وأسر بعض الأهالى والاستيلاء على تماثيل أغسطس .

وقد سارع الحاكم الجديد بترونيوس الى كبح جماح النوبيين وردهم على أعقابهم والاستيلاء على عاصمتهم نباتا . وعندما استرد الأسرى والتماثيل قفل راجعا صوب الشمال حيث حصن قصر ابريم وترك فيها حامية ثم عاد الى الاسكندرية . لكن بعد ذلك بعامين استرد النوبيون قصر ابريم فانبرى لهم بترونيوس وانتزعها منهم وعزز تحصيناتها . ولم يلبث النوبيون أن طلبوا الصلح فاستجاب أغسطس الى مطلبهم وكان الصلح ينص على اعفاء النوبيين من دفع الجزية وعلى احتلال الرومان المنطقة الممتدة

بين أسوان والمحرقة حيث أقام الرومان بعض مراكز عسكرية ودام السلام فترة طويلة فى الجزء الشمالى من النوبة . وينهض كل هذا دليلا على السياسة التى وضع أغسطس أساسها واتبعها خلفاؤه من بعده وتتلخص فى العناية بطرق التجارة مع الشرق والجنوب وتأمين الحدود الجنوبية دون الاهتمام بتوسيع نطاق الامبراطورية فى تلك الأصقاع .

ولم يكد پترونيوس تفرغ من النوبيين حتى شغل باخماد ثورة فى الاسكندرية . وعندما عادت السكينة الى البلاد وجه عنايته الى الأعمال الداخلية وخاصة تطهير الترع القديمة وشق ترع جديدة واصلاح الآبار التى تقع على الطرق الصحراوية التى تربط النيل بالبحر الأحمر مما أدى الى انتعاش حالة البلاد الاقتصادية . ويلوح ان أغسطس شعر بضرورة اضعاف رجال الدين المصريين الذين ازدادت قوتهم وممتلكاتهم فى أواخر عصر البطالمة ، فقد أمر پترونيوس بالاستيلاء على جانب من أراضى المعابد واسناد ادارة جانب آخر منها الى الحكومة مع السماح للكهنة بزراعة جزء من هذه الأراضى لسد حاجة المعابد .

وقد ساد السلام فى مصر فى خلال أواخر حكم أغسطس ومعظم حكم خليفته تبريوس (١٤ — ٣٧) مما أدى الى انقاص عدد الحامية الرومانية فى مصر . وقد ساعد على استتباب الأمن سهر تيبريوس على حماية سكان البلاد من جور الحكام وملتزمى الضرائب اذ أنه شدد الرقابة على الحكام واستبدل فى حالات كثيرة بنظام التزام الضرائب تعيين موظفين لجباية الضرائب فأخذت ثروة البلاد فى الانتعاش .

وفى عهد كاليجولا (٣٧ — ٤١) آتت سياسة « فرق تسد » أكلها فقد استعرت عندئذ نار العداء بين الاغريق واليهود ، اذ أن الاغريق سخروا من الأمير اليهودى اجريپا Agrippa عند مروره بالاسكندرية (أوائل أغسطس عام ٣٨) فى طريقه الى ارتقاء عرش مملكة صغيرة على حدود بلاد اليهود فى فلسطين . ولما كان الاسكندريون قد عرفوا اجريپا منذ بضع سنين رجلا معدما متلافا يتهرب من سداد ديونه ، فانه هالهم أن يصبح ذلك اليهودى المتلاف ملكا بين عشية وضحاها وأن يروا اليهود يستقبلونه استقبال الملوك الفاتحين ، ولذلك استقر رأيهم على انتهاز هذه الفرصة للنيل من اجريپا ومن اليهود فى شخصه . فنظموا موكبا هزليا تقدمه رجل معتوه عصبوا رأسه باكليل من لحاء البردى ووضعوا فى يده صولجانا من ساق البردى وطافوا به فى شوارع المدينة وهم يرددون كلمة سريانية معناها الملك . لكن ما أن أفاق الاسكندريون من نشوتهم حتى خشوا عاقبة سخريتهم من اجريپا فقد كان صديق الامبراطور وصاحب حظوة

لديه ، فرأوا انه لن ينقذهم من ورطتهم الا أن يوقعوا بين اليهود والامبراطور . ولما كان الامبراطور قد أمر باقامة تماثيله في جميع المعابد وكان اليهود لم ينفذوا أمر الامبراطور لأن اقامة تماثيل البشر في معابدهم كان يدنسها ، فان الاسكندريين ادعوا بأنهم لم يتظاهروا ضد اجريبا الا لعدم امتثال اليهود لأمر الامبراطور . واتخذوا من ذلك ذريعة ليدخلوا المعابد اليهودية ويقيموا فيها تماثيل الامبراطور . وعندما قاومهم اليهود اتهموهم بعدم الولاء للامبراطور وبذلك أفلحوا في حمل الحاكم الروماني فلاكوس على حرمان اليهود امتيازاتهم . واتهز الاسكندريون فرصة وقوف الحاكم الروماني الى جانبهم للتنكيل باليهود ونهب حوانيتهم وتخريب دورهم وبيعهم . وبطبيعة الحال لم يقف اليهود بلا حراك وانما هبوا للدفاع عن أنفسهم وذويهم وبيعهم وممتلكاتهم : فاشتبك الفريقان في صراع عنيف دون أن يتدخل الحاكم الروماني فلاكوس لوضع الأمور في نصابها اذ أننا لا نعرف انه فعل شيئا سوى تجاوزه حدود الحكمة بالقاء القبض على ثمانية وثلاثين من أعضاء مجلس شيوخ اليهود والأمر بجلدهم في الحادي والثلاثين من أغسطس بالرغم من انهم كانوا معفين من هذه العقوبة . وعندما تمكن اجريبا من اقناع الامبراطور بعزل فلاكوس أرسل كل من الفريقين المتنازعين وفدا لعرض قضيته أمام الامبراطور لكنهما لم يظفرا منه بطائل .

وعقب ارتقاء كلاوديوس (٤١ — ٥٤) العرش أصدر منشورين اعترف في أحدهما ليهود الاسكندرية بالحقوق التي كانوا يتمتعون بها قبل عهد كاليجولا ، ومنح بمقتضى المنشور الآخر الحقوق ذاتها لكل الجاليات اليهودية في كافة أنحاء الامبراطورية الرومانية . وعندما علم اليهود بذلك ظنوا ان الفرصة مواتية للثأر من الأغريق ، فاستعر القتال بين الفريقين لكن الامبراطور أمر الحاكم باخماده بكل وسيلة ممكنة . وما أن هدأت الحال حتى بادر كل من الاغريق واليهود بارسال وفد الى روما . ويستخلص من « رسالة كلاوديوس الى الاسكندريين » ان الوفد الاغريقي قدم فروض الطاعة والولاء للامبراطور وسرد مظاهر الحفاوة التي كان الفريق الاسكندرية يريدون اغداقها عليه وطلب اعادة امتيازاتهم القديمة كما عرض قضيتهم ضد اليهود . ويبدو أن الاغريق أرادوا أن يستخدموا مع كلاوديوس الوسيلة نفسها التي استخدموها مع كاليجولا بتقديسه لكنه اقتفى أثر سياسة تيبريوس فرفض أن يؤله ولم يقبل مما عرضوه عليه ما يرفعه فوق مستوى البشر وأيد ما كانوا يتمتعون به من حقوق وامتيازات لكنه تهرب من منح الاسكندرية مجلسا للشورى . فقد جاء في هذه الرسالة « أما أن المجلس كان مجمعا مألوفا بين ظهرانيكم على عهد ملوككم القدماء فهذا ما لا علم لي به لكنكم تعلمون جيدا انه

لم يكن لكم مجلس فى عهد الأباطرة الذين سبقوني . ومن الواضح ان هــذا المطلب الجــديد الذى تتقدمون به لأول مرة قد يكون مفيدا للمدينة ولحكومتي ولذلك فانى كتبت الى ايميليوس ركتوس لبحث الموضوع وموافاتى بما اذا كان يجب انشاء هذا المجلس وطريقة تكوينه اذا كان ثمة داع لذلك » . ومن اليسير أن تبين من هذا الرد ان الاسكندريين استندوا فى طلبهم الى أنهم كانوا يتمتعون بمجلس فى عهد ملوكهم القدماء . ولعل امبراطورا مؤرخا مثل كلاوديوس لم يجهل نظم الاسكندرية فى عهد ملوكها القدماء لكنه تظاهر بالجهل لأنه لم يشأ اتخاذ تقاليد الملوك القــــدماء سابقة تلزمه بما يجب اتباعه . ومع ذلك فانه لكى لا يبدو متعسفا وعد بالفصل فى مطلب الاسكندرية على ضوء المصـــلحة العامة وعهد فى بحث الأمـــر الى الحاكم العام . ومن ثم يعتبر رد كلاوديوس فرصة على تمتع الاسكندرية بمجلس فى عهـــد البطالمة .

وقــد أيد كلاوديوس كذلك ما كان اليهود يتمتعون به من حقــوق وامتيازات لكنه رفض منحهم الحقوق المدنية ونصح الاغريق واليهود بالتسامح وحذرهما تحذيرا شديدا من العــودة الى تطاحنهما الدموى . واذا كانت الحال قد هدأت بعد ذلك ببضع سنين فان النزاع لم يلبث أن تجدد ثانية .

وتجاوب أصداء هــــذا النزاع فى تلك البرديات التى يدعوها الباحثون المحدثون « أعمال الاسكندريين » أو « أعمـــال الشـــهداء الوثنيين » بسبب ما بينها وبين « أعمال الشهداء المسيحيين » من تشـــابه مرده فى الحالين الى صياغة الوثائق فى قالب مضابط لمحاكمات يلقى فيها المتهمون خطبا طويلة ويندون بمثالب الحـــكم الرومانى ويتبادلون مع الامبراطور عبارات قارصــة عنيفة . و « أعمال الاسكندريين » تعبر عن كراهية الاغريق الشديدة اليهود وكراهيتهم الأشد للرومان ولذلك صادفت رواجـــا كبيرا لا فى الاسكندرية فحسب بل فى كل أنحاء مصر وتعتبر نموذجا للأدب الاغريقى الشعبى الذى كان يرمى الى الاشادة ببطولة زعماء الاسكندرية واثارة البغضاء ضـــد الحكم الرومانى . ولا يبعد أن تكون هــذه الوثائق قد نقلت على نحو ما من مذكرات الامبراطور وترجمت الى الاغريقية وأضيفت اليها بعض العناصر الخيالية التى استمدت من التمثيليات الفكاهية المعاصرة والقصـــة الاغريقية الطويلة وذلك لجعلها أكثر مواءمة للدعاية السياسية . وتشير القرائن الى أن « رجال الجيمنازيوم » — وكانوا اوسع الاسكندريين ثقافة وأعرقهم أصلا وأرفعهم مكانة وكذلك أعمقهم كرها للحكم الرومانى — هم الذين كانوا الرأس المفكرة واليــد العاملة وراء صدور «أعمال الاسكندريين» .

ولما كانت هذه الوثائق تختلف عن بعضها بعضا اختلافا كبيرا في الأسلوب والانشاء فانه لا يمكن قبول الرأي القائل بأنها من تأليف كاتب واحد ولا سيما ان بعضها يرجع الى القرن الأول أو مطلع القرن الثاني وان كان أكثرها يرجع الى أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث عندما اشتد عداء الاسكندريين للرومان وخاصة الامبراطور كركلا .

ومهما كان من أمر «أعمال الاسكندريين» فانه ما ان هدأت الحال بين الفريقين حتى جمع الرسل من جديد الى روما ، لكن النصر كان حليف اليهود هذه المرة اذ أن الامبراطور أمر باعدام زعيمي الاغريق . وقد أثبتت هذه الأحداث انه بينما كانت الاسكندرية في حاجة الى حامية عسكرية كبرى لاستتباب الأمن فيها كان يكفي بقية البلاد عدد يسير من الجنود ، ولذلك فانه منذ ذلك الوقت نقلت الى معسكر نيقوبوليس الحامية التي يرجع انها كانت تنزل عند قفط أو طيبة .

ويبدو أنه في عهد كلاوديوس نشطت تجارة الاسكندرية مع الهند نشاطا كبيرا نتيجة للعناية التي أولاها الرومان لتأمين الملاحة في البحر الأحمر بقطع دابر القراصنة ونشر نفوذهم في تلك الأصقاع . ويقال انه حوالي هذا الوقت استولى الرومان على عدن ، وان ذلك كان احدى الخطوات التي اقتضاها تأمين التجارة مع الهند ازاء ازدياد قوة مملكة اكسوم منذ منتصف القرن الأول الميلادي لأنها من ناحية أخذت تتوغل في أعالي وادي النيل على حساب مملكة مرو وتبعا لذلك هددت الطريق البري بين مصر وأواسط افريقيا . ومن ناحية أخرى كانت تحاول الحصول على قاعدة لها في جنوب بلاد العرب وكان ذلك يمكنها من قطع الطريق البحري مع الشرق ، لكن الرومان قضوا على هذه المحاولة ببسط حمايتهم على مملكة الحميريين والاستيلاء على عدن وجزيرة سقطرى . ولدرء الخطر الذي كان يتهدد أعالي وادي النيل يقال ان نيرون (٥٤ — ٦٨) أرسل في عام ٦١ بعثة عسكرية لاستكشاف بلاد النوبة الجنوبية تمهيدا لارسال حملة كبيرة الى تلك البلاد وانه بينما كان الجنود يحتشدون في الاسكندرية لهذا الغرض اندلع لهيب الثورة في جوديا مما استدعى استخدام أولئك الجنود في اخمادها وان حامية الاسكندرية شغلت بالمحافظة على الأمن فيها لأن النزاع القديم بين الاغريق واليهود تجدد مرة أخرى اذ ذاك ولم ينته قبل القضاء على عدد كبير من اليهود يزعم المؤرخ اليهودي يوسف انهم كانوا يبلغون خمسين ألفا . واذا كانت هناك قرائن كثيرة تؤيد ما قيل عن اتساع مملكة اكسوم ونشاط الرومان لوقفه ، فان ثمة قرائن أخرى تثير الشك حول ذلك ، وفي ضوء معلوماتنا الراهنة يتعذر ترجيح كفة على أخرى .

وعندما احتدم الصراع على العرش في روما عقب وفاة نيرون قامت مصر لأول مرة منذ أصبحت ولاية بدور سياسي هام في تاريخ الامبراطورية الرومانية ، اذ انها شقت عصا الطاعة على فيتليوس (Vitellius) وشاركت في اقامة فسباسيانوس (Vespasianus) ، حاكم جوديا وقائد الحملة ضد اليهود ، امبراطورا (٦٩ - ٧٩) وقد زار فسباسيانوس الاسكندرية في طريقه الى ارتقاء العرش فكان أول امبراطور شهدته العاصمة القديمة بعد أغسطس منذ قرن تقريبا . وقد استقبله الاسكندريون استقبالا حافلا لم يلبثوا أن ندموا عليه عندما فرض عليهم ضرائب جديدة وأحيا ضرائب كانت قد ألغيت .

وقد عني تيتوس (٧٩ - ٨١) باظهار اجلاله واحترامه للآلهة المصرية اذ انه زار منف واشترك في حفل تنصيب عجل ابيس جديد وارتدى التاج التقليدي على نحو ما جرى عليه الفراعنة في مثل هذه المناسبات . فكان ذلك بدء سياسة جديدة تتميز باظهار العطف نحو الآلهة المصرية . لكن تيتوس لم يعمر طويلا ليتعهد السياسة التي وضع أساسها ونلمس أثرها في الرعاية التي أسبغها دوميتيانوس (٨١ - ٩٦) على عبادة ايزيس في ايطاليا ذاتها ، وكذلك في ظهور الآلهة المحلية على نقود الاسكندرية منذ ذلك الوقت .

وقد نعمت مصر بالسكينة والهدوء خلال حكم نرفا (Nerva) (٩٦ — ٩٨) ولم يقع فيها شيء ذو بال في الشطر الأول من حكم ترجان (٩٨ — ١١٧) الا محاكمة جايوس فيبيوس ماكسيموس (C. Vibius Maximus) — وكان الحاكم العام من ١٠٣ الى ١٠٧ — لاتهامه بالربا وابتزاز الأموال واستغلال النفوذ وافساد خلق غلام قري يدعى ثيون . وتكشف الوثائق التي تتناول هذه المحاكمة عن مثالب الحكم الروماني في مصر ومدى السلطة الواسعة التي كان يتمتع بها حاكمها العام وكانت لا تقل عن سلطة الملوك فلا عجب ان أساء استغلالها كثيرون ممن أسندت اليهم ويبدو انه كان نصيب هذا الحاكم الفاسد العزل من منصبه والاعدام فقد وجد اسمه مطموسا في بعض النقوش وكان ذلك هو الاجراء الذي يتبع عادة في حالة الذين كانوا يدانون لارتكابهم جريمة ضد الدولة كالخيانة العظمى ويحكم عليهم بالاعدام .

ولم تنقض بعد ذلك بضع سنين حتى تجدد النزاع بين اليهود والاغريق في عام ١١٠ أو ١١٣ واحتكم الفريقان الى تراجان فآخذ الاغريق على مسلكهم وهدأت الحال حتى العام التالي عندما ثار اليهود الا أن الحكومة تمكنت من القضاء على تلك الفتنة بسهولة . لكن اليهود كانوا يشعرون بقلق شديد لأن الرومان كالوا لهم ضربات شديدة منذ ثورتهم في فلسطين في عام ٦٦ ، فقد دمروا

معبدهم الأكبر فى أورشليم وأرغموهم على دفع ضريبة الدينـــارين لمعبـــد جوبيتر كابيتولينوس فى روما بدلا من معبد أورشليم وأغلقوا معبد ليونتوبوليس فى مصر وصادروا جميع ممتلكاته ، وأخذوا يعتبرونهم جماعة مشاغبة يجب أخذها بالحزم . ازاء كل ذلك أضمر اليهود حقدا دفينا للرومان وأخـذوا يتطلعون الى الفرصة التى تتيح لهم الخلاص من ربقتهم . وقد ظن اليهود ان فرصتهم قد سنحت عندما تحرج مركز الامبراطور فى أثناء الحملة التى قام بها فى الشرق ؛ ففى عام ١١٥ اندلعت نيران ثورة اليهود فى قبرص وفى مصر وفى قورينايئة (برقة) ، وفى عام ١١٦ انقلبت الثورة الى حرب ضروس راح ضحيتها اعداد كبيرة من الاغريق والرومـــان فى قبرص وقوريناية . لكننا لا نعـــرف ما حدث فى الاسكندرية فى بداية الأمر وان كنا نعرف ان اليهود أعملوا القتل بين الاغريق المقيمين فى ريف مصر مما حدا بهم الى الالتجـــاء الى الاسكندرية حيث شاركوا الاسكندريين فى القضاء على كل من وصلت اليه أيديهم من اليهود . وفى شتاء ١١٦ زحف يهود قوريناية على مصر لكنهم بدلا من أن يحاولوا اقتحام الاسكندرية اتجهوا نحو الأقاليم وانضموا الى اليهود المقيمين هناك وسيطروا على بعض الجهات فسلبوا ونهبوا وحرقوا وخربوا كما سولت لهم نفوسهم . وقد تفاقمت الحال الى حد أن الحكومة اضطرت الى تجنيد فرق من المزارعين المصريين لكن القتال بقى مستمرا حتى منتصف أغسطس عام ١١٧ عندما أنهكت حرب جوديا الثانية قوى اليهود بعد وفاة ترجان وارتقاء هادريان العرش .

وقد أحدثت فى عهد ترجان عدة تغييرات على نظم مصر الحربية كان أهمها بنـــاء قلعة جديدة على شاطىء النيل عند بابليون قرب قبضة الرومان على الدلتا وحصن بداية القناة التى أمر ترجان بحفرها لربط النيـــل بالبحر الأحمر ، وكانت تخرج من النيل عند بابليون وتمر بهليوبوليس وتلتقى بمجرى القناة القديمة التى حفرها بطلميوس الثانى قبل دخولها وادى الطميلات .

وعندما انتهت ثورة اليهود وجه هادريان (١١٧ — ١٣٨) عنايته الى اصلاح ما أتلفته الثورة فأقام عـددا من المبـانى العامة فى الاسكندرية وأمر باعادة النظر فى الضرائب مما أدى الى انخفاض جانب كبير منها فى حالات عديدة . وفى عام ١٣٠ زار هادريان مصر وكان أهم آثار تلك الزيارة الرعـاية التى أولاها الامبراطور لمدينة الاســـكندرية وفنائها وكذلك تأســيس مدينـــــة أنطينوؤبوليس (الشيخ عبادة) حيث غرق فى النيل خليله أنطينوؤس (Antinoos) . ولا شـك فى ان هادريان قد أراد بتأسيس هذه المدينة ان يخلد ذكرى خليله الوفى ، وكذلك اقـامة مركز جديد للحضارة الاغريقية فى قسم من البلاد كان يفتقر اليه اذ أنه على حين كانت

توجـد في مصر السفلى مدينتان اغريقيتان وهما الاسكندرية ونقراطيس ، كما كانت توجد في مصر العليا مدينة اغريقيـة وهي بطوليميس (المنشاة بالقرب من أخميم) لم توجد مدينة اغريقية واحـدة في مصر الوسطى ، وتحقيقا لهذا الغرض استخدمت المدينة الجديدة عددا غير قليل من مواطنيها من بطوليميس التي كانت معقـلا قديما للحضـارة الاغريقية في مصر العليا . وقد أنشئت المدينة الجديدة على نمط اغريقي ومنحت مجلسا للشورى ودستورا اغريقيا

وقسم مواطنوها ، مثل مواطني المدن الاغريقية الأخرى الى قبائل وأحياء . لكن بالرغم من الصبغة الاغريقية الصـارمة التي اتسمت بها هذه المدينة فانها لم تخل من عناصر مصرية وتأثيرات مصرية اذ ان أنطينوؤس ، الذي نصب فيها الها محليا ، كان يعبد تحت اسـم أوزير أنطينوؤس (Osirantinoos) ، وشبه بالمعبود المصري بس (Bes) . هـذا الى أنه أبيح لسكان المدينة الجـديدة حق التزاوج مع المصريين وهو ما كان محظورا في المدن الاغريقية الأخرى . وتشجيعا لتجارة أنطينوؤبوليس أمر الامبراطور بانشاء طريق جديد بين النيل والبحر الأحمر ليصـل بين الثغر المشهور برنيقي وبين المدينة الجديدة . وقد أفلح الطريق الجديد في اجتذاب جانب من التجارة التي كانت تمر بالطريق القديم بين برنيقي وقفط لكنه لم يمض وقت طويل حتى كانت الأمور قد عادت الى سابق عهدها .

وعند أواخر أيام هادريان شهدت مصر آخر ثورات اليهود لكن يبدو انها لم تكن ذات بال . وقد سـادت السكينة في عصر أنطونينـوس بيـوس (Antoninus Pius) (١٣٨ — ١٦١) اللهم الا اذا استثنينا فتنة وقعت في الاسكندرية وقتل في أثنائها الحاكم العام (١٥٣) مما أثار نقمة الامبراطور على المدينة الا أنه يقال انه زارها بعد ذلك وشيد فيها مضـمار سباق الخيل (Hippodrome) وبوابتي « الشمس » و « القمر » عند طرفي الشـارع الرئيسي الذي كان يجتـاز الاسكندرية من الجنوب الى الشمال .

واذا كان المصريون قـد أخلدوا الى السكينة منذ الثورات التي قاموا بها في أوائل حكم الرومان فانه في عهد ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠) نشبت بينهم في الدلتا ثورة عنيفة عرفت « بحرب الرعاة » وهزمت في خلالها الفرق الرومانية وكادت الاسكندرية أن تقع في قبضة الثائرين الا أن النجدة التي قدمت من سوريا بقيادة افيديوس كاسيوس قضت عـلى تلك الثورة (١٧٥) ونادت بافيديوس كاسيوس امبراطورا لكنه لم يلبث أن قضي عليه بعد ذلك بقليل . وبرغم أن الاسكندرية لم تدخر وسعا في تأييد كاسيوس فان الامبراطور عفا عنها ، بل ان الذين قاموا بأدوار رئيسية في هذه الحركة مثل أسـرة كاسيوس وحاكم مصر العام عندئذ جايوس

كالفيسيوس ستاتيانوس (C. Calvisius Statianus) لم يلقوا الا ذلك الا عقابا طفيفا بالقياس الى تهمتهم الخطيرة . لكن عندما ارتقى كومودوس (Commodus) (١٨٠ — ١٩٢) العرش أعدم كل أفراد أسرة كاسيوس وكذلك قادة الاسكندريين الذين أسهموا في هذه الحركة .

وقد خلف كومودوس على العرش لمدة ثلاثة شهور (يناير — مارس ١٩٣) الامبراطور برتيناكس (Pertinax) . ولوثائق هذا العهد القصير أهمية خاصة فهي ترينا كيف أن نبأ هاما مثل ارتقاء امبراطور جديد العرش كان يستغرق وقتا طويلا للانتقال من روما الى مصر ، وذلك انه نودى بالامبراطور الجديد في روما في اليوم الأول من شهر يناير سنة ١٩٣ على حين ان حاكم مصر العام لم يصدر أوامره للاحتفال بهذه المناسبة لمدة خمسة عشر يوما الا في السادس من شهر مارس . ونعرف ان برتيناكس قتل في روما في الثامن والعشرين من شهر مارس ومع ذلك فان اسم هذا الامبراطور يظهر في تاريخ وثيقة من الفيوم في التاسع عشر من شهر مايو .

وعندما قتل برتيناكس نادت مصر بحاكم سوريا بسكنيوس نيجر (Pescennius Niger) امبراطورا لكن ما كاد الأمر يستتب في روما لسفيروس (١٩٣ — ٢١١) حتى قضى على نيجر . وعندما زار سفيروس مصر اقتفى أثر هادريان فيما أقامه من الأبنية العامة في الاسكندرية وفي سك النقود تخليدا لزيارته وفي زيارة آثار مصر . وأهم من ذلك انه في عام ٢٠٢ منح الاسكندرية وكل عواصم المديريات مجالس للشورى . ولعل ذلك كان جزءا من سياسة تستهدف من ناحية دعم النفوذ الروماني باعطائه في المدن صبغة اغريقية ، ومن ناحية أخرى تحسين أداة جمع الضرائب . وفضلا عن ذلك فانه أدخل تعديلات كثيرة على القوانين التي كان معمولا بها في مصر .

وعندما ارتقى كركلا (٢١١ — ٢١٧) العرش ومنح في عام ٢١٢ حقوق المواطنة الرومانية بمقتضى قانونه المشهور (Constitutio antoniniana) لسكان الامبراطورية الرومانية بما في ذلك المصريين لم يؤد ذلك الى تغيير وضعهم فقد ظلوا أدنى الطبقات الاجتماعية شأنا في مصر . وعندما زار كركلا الاسكندرية في عام ٢١٥ وسخر منه أهلها لظهوره بمظهر أبطال عظام مثل الاسكندر وقتله أخيه جيتا ، صب عليهم جام غضبه فأعدم زعماءهم وأطلق جنوده على المدينة فخربوها وأعملوا القتل بين سكانها ، كما انه ألغى الحفلات العامة وأقام حاميات في المدينة ذاتها وأوقف الانفاق على الجامعة .

وأهم ما يمتاز به عهد ماكرينوس (٢١٧ — ٢١٨) هو ما سبقت الاشارة اليه من انه كان أول من خرج على القاعدة التي وضعها أغسطس وتقرر بمقتضاها الا يتقلد أحد من رجال السناتو مناصب ادارية في مصر ، اذ أن ماكرينوس عين لحاكم مصر مساعدا من رجال السناتو مما يدل على نقص أهمية مصر عما كانت عليه في بداية العهد الروماني . وأبلغ من ذلك في الدلالة على نقص أهمية

مصر فى القرن الثالث انه عندما وقعت فتنة فى الحرس الامبراطورى على عهد سفروس اسكندر (٢٢٢ — ٢٣٥) عين الامبراطور زعيم الثوار حاكما عاما لمصر لا ارضاء له وانما لاقصائه الى مكان لا يستطيع فيه ان يهدد مركزه .

وكانت نتيجة نقص أهمية مصر انها لم تلعب أى دور فى سلسلة المنازعات التى وقعت فى أواخر النصف الأول من القرن الثالث من أجل ارتقاء عرش الامبراطورية وتبلت عن طيب خاطر ارتقاء امبراطور بعد آخر وغلب على احداث مصر سبات عميق استغرقت فيه حتى كان عهد دكيوس (Decius) (٢٤٩ — ٢٥١) الذى تشبعت فيه حركة المسيحية فى مصر مما حـــدا بالحكومة الى توجيه اهتمامها اليها واتخاذ العدة لمنع انتشارها وفى هذا العهد أيضا أغارت قبائل البلمبس على الحدود الجنوبية لأول مرة بعد اغاراتها السابقة فى عهد أغسطس . ولعل هذه الاغارة تتصل باتســـاع مملكة اكسوم التى دعمت مركزها فى وادى النيل على حساب مملكة مرو وكانت تضغط على القبائل النوبيـــة من الجنوب فتدفعها نحو الحدود المصرية . وبعد ذلك استأنفت مصر سباتها عندما دبت المنازعات فى الامبراطورية من جديد خــلال المدة التى دامت من عام ٢٥١ الى عام ٢٦٨ وتعاقب فيها الأباطرة بسرعة غريبة .

وقد كان اهم ما حدث بعد ذلك هو أن زنوبيا ملكة پالميرا (تدمر) زحفت على مصر واستولت عليها (٢٦٩ — ٢٧٠) وبرغم أنها بعد عدة محاولات أفلحت فى صد الجيوش الرومانية فانها لم تشأ أن تستقل بمصر بل اعترفت بسلطان روما ، لكن لم يكد ينقضى عـــلى ذلك عامان حتى أفلح أورليانوس (٢٧٠ — ٢٧٥) فى القضاء على نفوذ پالميرا فى مصر واستولى على پالميرا ذاتها ، لكن عقب عودة أورليانوس الى روما ثارت پالميرا وبعد ذلك الاسكندرية لارتباط البلدين بصلات تجارية وثيقة فعـاد الامبراطور الى الشرق وقضى على الفتنة فى پالميرا ثم فى الاسكندرية وبعد ذلك ترك مصر تحت امرة پروبوس وعهد اليه برد قبائل البلمبس على أعقـابها وكانت قد انتهزت فرصـــــة تلك الأحداث للزحف على مصر العليا حتى قفط . وقبـــل انتهاء پروبوس من طـرد البلمبس وتهدئة الوجه القبلى نودى به امبراطورا (٢٧٦ — ٢٨٢) عقب وفاة أورليانوس (٢٧٥) وحكم تاكيتوس القصير (٢٧٥ — ٢٧٦) .

ولم يضع انتصار پروبوس على البلمبس الا حدا مؤقتا لمناوشاتهم فقد أخذوا يجددون اغاراتهم كل عام ممـــا اضطر الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) الى جعل حدود مصر الجنوبية عنـــد أســـوان بدلا من هيراسيكامينوس (المحرقة) ودعــوة بعض قبائل الصحراء التى كانت تعرف باســـم النوباداى للسكن فى وادى النيل لحمـاية حدود مصر الجنوبية .

الفصل الثاني

أداة الحكم

لم يترتب على تحول مصر حظيرة الامبراطورية الرومانية تغييرات هامة فى ادارة البلاد لأن سياسة روما بوجه عام فى خلال فتوحاتها فى الشرق كانت تقضى بتجنب التدخل ما أمكن فى نظم البلاد التى كانت تتمتع بادارة منظمة ، ولذلك اتبع الرومان فى حكم البلاد النظام نفسه الذي وضعه البطالمة اللهم الا اذا استثنينا بعض التعديلات التى اقتضت الظروف ادخالها ، فكأن قدوم الرومان لم يكن أكثر من انتقال الحكم من أسرة الى أخرى انتقالا لم يكن مصحوبا بانقلابات أو اضطرابات أكثر مما كان يحدث عادة على عهد الفراعنة عندما كانت أسرة حاكمة جديدة تخلف أسرة أخرى .

١ ـ السلطة المركزية :

ولما كانت روما فى حاجة ملحة الى الانتفاع بموارد مصر الطائلة فى تخفيف عبء ماليتها وفى امداد شعبها بمقادير وفيرة من القمح ، وكان فى وقوع مصر فى يد قوية مناوئة للامبراطور أو فى قيام اضطرابات بين الأهالى ، خطر يهدد كيان الامبراطور ، فقد حرص الأباطرة الأوائل على أن تكون مصر خاضعة لاشرافهم مباشرة وعلى ألا يتولى رجال السناتو أو من فى مرتبتهم مناصب ادارية فى مصر أو يدخلوها دون استئذانهم ؛ وعلى أن يكون نظام الحكم فيها أوتقراطيا ؛ وعلى أن يتولى المناصب الرئيسية فى السلطة المركزية رومان يوفدهم الأباطرة من قبلهم ويستبقونهم فى مناصبهم أو يعزلونهم كما يتراءى لهم .

وقد وضع على رأس السلطة المركزية حاكم عام (praefectus) كان يتمتع بمعظم السلطة التى كانت من نصيب الملك فى عهد البطالمة ، فانه كان يهيمن على ادارة البلاد العامة وشئونها المالية والقضائية والعسكرية تحت اشراف الامبراطور مباشرة . وكان يتحتم عليه عدم مغادرة مصر فى خلال مدة حكمه ، كما كان يجب عليه عند انتهائها انتظار وصول خليفته . وفى حالة خلو منصبه فجأة بسبب الوفاة أو لأى سبب آخر كان ينوب عنه عادة مساعده فى الشئون القضائية

وكان يدعى بالاغريقيـــة ديكايودوتس (Dikaiodotes) ، وبالاتينيـة يوريديكوس (Juridicus) ، فقد كان يساعد الحاكم العام على الاضطلاع بمهام منصبه فئة صغيرة من كبار الموظفين الرومان من الجلي أن هـــذا المساعد أو المستشار القضائي كان أخطرهم شأنا وأرفعهم مقاما . وكان للحاكم العـــام مساعدان في الشئون المالية وهما الديويكيتس (dioikeres) والايديولوجوس (idiologos)

ومن أجل تسهيل الادارة العامة قسمت البلاد منـــذ أوائل أيام الامبراطورية ثلاثة أقسام وهي مصر السفلى ومصر الوسطى ومصر العليا ، وأسندت ادارة كل قسم الى ابيستراتيجوس (epistrategos) روماني ؛ وكان الامبراطور هو الذي يعين حكام هذه الاقسام الا أنهم كانوا يخضعون للحـــاكم العـــام مباشرة ويستمدون منـــه معظم سلطتهم ، وكان اختصاصهم اداريا بحتا ، غير ان الحاكم العام كان ينيبهم عنه في الفصل في القضايا وكان لهم حق مطلق في دراسة الشكاوى والتحكيم في المنازعات . ولم يكن لهم أي اختصاص في الادارة المالية أكثر من سماع الشكاوى بسبب اجحاف في تقـدير الضريبة أو ما شابه ذلك . وكان لهم شأن كبير في تعيين موظفي المديريات ، ويرجع ان قراراتهم كانت نهائيـة فيما يختص بتعيين الصغار من هؤلاء الموظفين لكن يبـدو ان موافقة الحـــاكم العـــام كانت ضرورية فيما يختص بتعيين كبارهم .

٢ - السلطة المحلية في القرنين الاول والثاني :

وكان كل قسم من أقسام مصر الثلاثة ينقسم الى مديريات ، على رأس كل منها قائد (strategos) كان يلي حاكم القسم في المرتبـة ويتلقى منه جميع الاوامر فيما عدا ما يتصل منها بالشئون المالية اذ كان يرجع في ذلك الى الادارة المالية المركزية في الاسكندرية . ولم يكن للقائد أي اختصاص حربي ، لكن نفوذه كان يمتد الى جميع نواحي الادارة المدنية ، اذ كان رئيس الشرطة وكثيرا ما كان ينوب عن الحاكم العام في الفصل في القضايا . وكان للقائد دائما الحق في القاء القبض على مخالفي القانون وفي النظر في الشكاوى واجراء تحقيق ابتدائي في القضايا ومحاولة فض النزاع وديا أما اذا تعذر ذلك فانه كان يحيل المتخاصمين الى المحاكمة وقد كان القائد مسئولا كذلك عن تقـدير وجمـع الضرائب في مديريته وعن استغلال أراضي الحكومة واحتكاراتها .

وكان النومارخ لا يزال معروفا في عهد الرومان الا أنه ازاء سلطة القائد المدنية كان أهم ما تبقى له من اختصاصات هو الاشراف على تقدير وجمع الضرائب المختلفة . وقد أدى نقص أهمية مركزه الى ازدياد عـــدد النومارخين اذ كان يعين لكل مديرية اثنان أو أكثر .

وكان يلي القـائد في المرتبة « الكاتب

الملكي ، وكان ينوب عن القائد في أثنـــاء تغيبه أو خلو مركزه . وكانت أهم اختصاصاته تتعلق بالشئون المالية في الادارة المحلية مما حمل البعض على الاعتقاد بأنه كان بمثـــابة مراقب على تصرفات القائد في الشئون المالية . وكان يجيء بعد الكاتب الملكي رؤســـاء دار السجلات الرسمية ، فقد أنشأ الرومان الى جانب دار السجلات المركزية بالاسكندرية دورا مماثلة في عواصم المديريات . وعلى مر الزمن أصبحت كل من هـــذه الدور تنقسم قسمين ، يختص أحدهما بحفـــظ جميـــع المكاتبات الرسمية وكشوف الضرائب وقوائم التعداد وسجلات الأراضي ، ويختص القسم الآخر بتسجيل الأراضي والمنـــازل والعبيد . وكان يشرف عادة على كل من هذين القسمين رئيـــسان .

ومما يجدر بالملاحظة ان مناصب الادارة المحلية ، ابتداء من القائد ، كان يشغلها اغريق فيما عدا المناصب الدنيا منها فقد كان يتولاها مصريون . واذا كان يبدو من ذلك ان الموظفين كانوا يختارون بوجه عام من الطبقات ذاتهـــا التي كانوا يختارون منها في عصر البطالمة فانه مع ذلك قد طرأ تغيير هام على طابع الخدمة الحكومية ، ففي عهد البطالمة كان موظفو الحكومة يتألفون من موظفين دائمين اختاروا خدمة الحكومة مهنة لهم يتكسبون منهـــا قوتهم ، أما في عهد الرومان فانه لم يأت القرن الثاني حتى كان موظفو الحكومة ، باستثناء كبارهم ، يتألفون من رجال لا يتولـــون مناصبهم الا لفترة قصيرة وقسرا عنهم .

وكان مقر ادارة كل مديرية في عاصمتها ، ولم تتمتع تلك العواصم باستقلال محلي في القرنين الأولين من حكم الرومان اذ كانت ضرائبها ورجال شرطتها تحت اشراف القائد لكن يبدو أن الفـــطي أنشأ في كل منهـــا عـــــددا من المناصب البلدية التي استعيرت أســـماؤها واختصاصاتها من نظم المـــــدن الاغريقية . وفي بداية الأمر كان يتولى كل منصب سنويا متطوع ثري كان ينفق من ماله الخاص على كل ما يتطلبه النهوض بأعبـــاء منصبه وكان تولي هذه المناصب يعتبر شرفا يعتز به الناس ويتطلعون الى الحصول عليه ، فكان الأهالي عندئذ ينتخبون أفضل المرشحين لتولي هذه المناصب . لكن بمضي الزمن لم تعد هناك حاجة الى الانتخاب ، فقد ازدادت على مر الأيام صعوبة الحصول حتى عـــلى مرشح واحـــد لكل منصب بسبب ما كانت هذه المناصب تفرضه على شاغليها من أعباء مالية كانت تتزايد باستمرار في الوقت الذي سارت فيه حالة البلاد الاقتصادية من سيء الى أسوأ . فمن أجل التغلب على صـــعوبة شغل هـــــذه المناصب لجأت الحكومة الى الارغام والحث على انقاص نفقات هـــــذه المناصب كما لجأت الى اشراك أكثـــــر من شخص واحد في تحمل أعباء كل منصب . ففي القرن الثاني جرت العادة بأن يتولى أعباء

منصب مدير الجيمنازيوم شخصان كانا يتناوبان كل شهر مباشرة مهام هذا المنصب. ونعرف أنه في أوكسيرينخوس بلغ عدد مراقبي السوق العامة في خلال القرن الأول خمسة ، وكان عدد مراقبي التموين عند نهاية القرن الثاني أربعة . وكان التطور الطبيعي لهذه الخطوة انشاء لجنة لكل منصب عند أواخر القرن الثاني .

وكان هؤلاء الحكام هم مدير الجيمنازيوم (gymnasiarch) ، وكان يتولى رعاية شئون الجيمنازيوم الذي كان مركز الحياة الاجتماعية ومعهدا للتربية البدنية والعقلية ، وثانيا (exegetes) ، وكان يشرف على الحاق الشبان بمنشأة تدريبهم (ephebeia) وتعيين الأوصياء للسيدات والمربين للقاصرين ويبحث الشروط الواجب توافرها فيمن يضمون الى طبقة المتمتعين بالامتيازات ؛ وثالثا مراقب التعليم (kosmetes) ، ورابعا الكاهن الأكبر (archiereus) ، وخامسا مراقب التموين (eurhetiarch) ، وسادسا مراقب السوق العامة (agoranomos) ، وكان يتولى أيضا توثيق العقود . وكان يوجد الى جانب هؤلاء نفر من الحكام يرجح المؤرخون انهم كانوا يعينون فقط عندما كانت الظروف تستدعي ذلك مثل (epimeletai) وكان يعهد اليهم في الاشراف على الأشغال العامة . وكان يوجد في كل عاصمة من هذه العواصم ما يشبه الجمعية العامة للمواطنين .

وكان يمثل السلطة المركزية في ادارة تلك العواصم قائد المديرية وكان يهيمن على نظامها المالي ويشرف على حفظ الأمن فيها ، وكذلك الكاتب الملكي وكان مسئولا عن امداد السلطة المركزية بكافة المعلومات التي تحتاج اليها لفرض الضرائب ، كما كان مسئولا عن اعداد أسماء الأشخاص اللائق اختيارهم للوظائف المحلية التي كانت وظيفته من بينها . وكان يوجد عادة في كل مدينة كاتبان يتوليان العمل فيها لمدة ثلاث سنوات .

وكانت كل مديرية تنقسم الى عدد من القرى يدير الشئون المحلية في كل منها جماعة من شيوخها يبدو أن عددهم كان يتفاوت تبعا لعدد سكان كل قرية . وكان شيوخ القرية بمثابة حلقة الاتصال بين الأهالي والحكومة في دفع الضرائب . وكان عليهم أيضا أن يراقبوا فلاحة أراضي القسرية وأن يمدوا الحكومة بما تطلبه من العمال أو الجنود لخدمتها وقت الحاجة . وكانوا كذلك مسئولين أمام القائد عن حالة الأمن في قراهم ونحن لا نعرف كيف كانوا يختارون لكن يرجح أن خدمتهم كانت فرضا اجباريا على نزلاء كل قرية لمدة سنة دون أي مقابل . ولعل منشأ هذا النظام يرجع الى رغبة الحكومة الرومانية في ايجاد وسيلة محلية تزيد من اطمئنانها الى الحصول على ضرائب القرى فقد كان اولئك الشيوخ مسئولين شخصيا عن سداد ضرائب قراهم .

وكان يمثل السلطة المركزية في كل قرية رئيس الشرطة (archephodos) وكان يهيمن على حفظ الأمن فيها ، وكاتب القرية وكان مسـؤولا عن موافاة السلطة المركزية بكل ما يلزمها من بيانات لأغراض الضرائب فهو الذي كان يعد قوائم بسكان القرية ومقدار ما يملكه كل منهم وموارده . وكان أيضـا مسـئولا عن اعداد بيان بالأشخاص الصالحين لاختيارهم للوظائف المحلية التي كانت وظيفته من بينها. وكان القائد يختاره بالقرعة من قائمة الأشخاص التي أعدها سلفه ، وكان يشغل وظيفته لمدة ثلاث سنوات ، وكان لكل قرية عادة كاتبها لكن في بعض الحالات كان يعهد في شئون قريتين أو ثلاث قرى الى كاتب واحد . وكان يخصص دخل بعض الضرائب لمواجهة ما يتطلبه منصبه من تكاليف .

واذا كان البطالمة قد حرصـوا على أن يدرجوا في قوائم أسماء سكان البلاد وجنسية كل منهم والطبقة التي ينتمي اليهـا ، فان الرومان أدخلوا نظام التعداد وكان يجرى كل أربعة عشر عاما ويعرف باسم « التسجيل المنزلي » ، فقد كان يتعين على مالك كل منزل أو مستأجره أن يتقـدم الى الموظفين المختصين اقرارا بجميع سكان منزله ويقسم على صحة البيانات التي قدمها . وكان أولئك الموظفـون يقـومون بفحص (epikrisis) هذه البيانات والتأكد من صحتها لأنه بناء عليها كانت السلطات المختصة تعد سجلات وافية بأسماء جميع سكان البلاد تبين بدقة الطبقة التي ينتمي اليهـا كل منهم وكذلك حالته من حيث الاعفاء من الضرائب جميعها أو بعضها أو الالزام بدفع الضرائب كاملة . وفي الفـترة الواقعـة بين تعدادين كانت شهادات الوفاة والميلاد تستخدم سنـويا لتصحيح البيانات الواردة في هذه السجلات وجعلها مطابقة للواقع .

ولما كانت الحكومة ترغب بحرص شديد الانتماء الى الطبقات الممتازة بسبب ما كان يترتب على ذلك من التمتع بامتيازات لهـا أهميتها لا من حيث أداء الضرائب فحسب بل أيضا من حيث دخول منظمة تدريب الشباب (ephebeia) والجيمنازيوم ، فانهـا كانت لا تسمح بتسـجيل أي شخص في طبقة من هـذه الطبقات الا بعد فحص (epikrisis) الطلب المدعم بالمستندات الذي كان والد الشخص أو الوصي عليه يتقدم به عادة في الثالثة عشرة من عمره أي قبل تسجيل اسمه في منظمة تدريب الشباب وفي قوائم دافعي الضرائب ، ففي سن الرابعة عشرة كان الشبان يسجلون في منظماتهم ويتعين دفـع ضريبة الرأس وبعض الضرائب الأخرى . وقد كان الانتماء الى طبقة من الطبقات الممتازة يقتضي اثبات انتماء والدى الشخص الى تلك الطبقة . وكان في استطاعة العبيد الانتماء الى تلك الطبقات اذ كان القانون يسمح لهم بالتمتع بوضع سادتهم القانوني بعد فحص حالتهم .

٣ ـ المدن الاغريقية :

وقد كانت الاسكندرية ونقراطيس وبطوليميس وأنطينوؤپوليس هي المدن الوحيدة التي تتمتع بقدر من الاستقلال الذاتي في حكمها المحلي ، وبرغم ان معلوماتنا عن دستور كل منها ضئيلة الا أنها تكفي لترينا انها كانت تتمتع بمزايا خاصة تختلف في كل منها عن الأخرى باختلاف أصلها وتاريخها .

اما الاسكندرية فيجمع الباحثون على أن الأباطرة منذ أغسطس حتى سبتميوس سفروس لم يسمحوا لها بمجلس للشورى لكي لا يتيحوا لأهلها المغرمين بالثورات مجالا لثوراتهم ولكي يجعلوهم تحت سلطان الحاكم العام مباشرة . واذا كانت بعض القرائن تشير الى أنه منذ أوائل العصر الروماني كان لمواطني الاسكندرية مجلس يتألف من ١٧٣ عضو ، والى أن هذا المجلس كان حلقة الاتصال بين روما ومواطني الاسكندرية فان الدلائل لا تدع مجالا للشك في أنه لم يكن مجلسا له صفة رسمية أو سلطة تشريعية فهو لم يكن أكثر من هيئة اجتماعية . ومثل ما كانت عليه الحال في عهد البطالمة كانت نخبة اغريق الاسكندرية تنقسم الى قبائل وأحياء وتتكون هيئة المواطنين الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة ، وكان لهما ان التمتع بهذه الحقوق كان شرطا أساسيا للحصول على حقوق المواطنة الرومانية وللاعفاء من ضريبة الرأس ومن تولي المناصب العامة قسرا خارج الاسكندرية . وفي العصر الروماني أيضا كانت توجد كذلك فئة انصاف المواطنين وكانوا لا يسجلون في الأحياء ولا يتمتعون بكل امتيازات المواطنين الكاملين . وكان للاسكندرية جماعة من الحكام يتألفون من مثل حكام عواصم المديريات فضلا عن ممثلي السلطة المركزية . ولسنا نعرف كيفية اختيار حكام الاسكندرية، لكن لما كانوا يقومون بدور بارز في ثورات هذه المدينة ضد الحكومة ، وكانت « أعمال الشهداء الوثنيين » تصورهم في شكل زعماء المدينة ، فان كل ذلك يوحي بأنه لم يكن للحكومة يد في تعيينهم . وقد كان الامبراطور هو الذي يمنح حقوق المواطنة ، وكان الحاكم العام هو الذي يحاكم من يلحق في هيئة المواطنين أشخاصا لم تتوافر لديهم شروط التمتع بحقوق المواطنة وكذلك الذين يمارسون هذه الحقوق دون وجه حق . ويبدو انه لم يعد لحاكم المدينة وجود فقد أصبح الفصل في القضايا من اختصاص الحاكم العام والذين كان ينيبهم عنه على نحو ما سنرى عند الكلام عن النظام القضائي . وبطبيعة الحال كان شأن المدن الاغريقية الأخرى شأن الاسكندرية من حيث انه لم يعد لها محاكم قضائية خاصة . وكان يحفظ الأمن في المدينة قائدها ورئيس شرطتها . والواقع ان الحكومة الرومانية هي التي كانت تشرف على كافة نواحي الادارة في المدينة ، أما النواحي الثقافية والدينية وتدريب الشباب واقامة الحفلات وتنظيم الألعاب فان حكام المدينة (archontes) هم الذين كانوا يتولون أمرها .

أما قراطيس فيظهر أنها ظلت تستمتع بدستورها القديم بدليل ما تحدثنا به المصادر القديمة من أن هادريان أعطى أنطينوﭬوليس دستورا على نمط دستور نقراطيس . وكانت أبرز عناصر هذا الدستور وجود هيئة مواطنين وعدد من الحكام ومجلس للشورى .

ويبدو أن بطوليميس أيضا احتفظت بدستورها الاغريقي القديم أي أنه كان لها مجلس للشورى وجمعية شعبية وهيئة حكام تتخبهم هيئة مواطنين كانوا ينقسمون الى قبائل وأحياء . وفي عصر هادريان وثانية في عصر أنطونينوس بيوس قامت باهداءات وصفت نفسها فيها بأنها مدينة اغريقية (polis) . وبالرغم من أن بطوليميس كانت عاصمة مديرية ثينة (Thinis) ، أي مقر حكومة تلك المديرية ، الا أنه يرجح أن تلك الحكومة لم تتداخل في شئون المدينة .

وقد مر بنا أن أنطينوﭬوليس أنشئت على نمط اغريقي ومنحت مجلسا للشورى ودستورا اغريقيا وقسم مواطنوها ، مثل مواطني المدن الاغريقية الأخرى ، الى قبائل وأحياء . وبطبيعة الحال كان يدير شئونها جماعة من الحكام يختارون من مواطنيها . ومما يجدر بالملاحظة أن دستور هذه المدينة سمح بالتزاوج بين مواطنيها والمصريين على حين أن هذا التزاوج كان غير مشروع في المدن الاغريقية الأخرى .

٤ — التعديلات التي ادخلت في القرن الثالث :

شهد القرنان الأول والثاني من حكم الرومان زيادة مطردة في الزام الأشخاص القادرين بتولي المناصب الحكومية والبلدية . ومن حيث المبدأ كان النظام يقضي بألا يرغم شخص على تولي وظيفة قبل انقضاء ثلاث سنوات على توليه وظيفة مماثلة مرة سابقة . وكان يعفي من الارغام على تولي الوظائف المواطنون الرومان وقدماء المحاربين ومواطنو الاسكندرية وأنطينوﭬوليس المقيمون خارج هاتين المدينتين ، وكذلك الأطباء العموميون وأساتذة دار العلم في الاسكندرية والفائزون في المباريات العامة والمجزة وعدد معين من كهنة كل معبد . لكن عندما قل عدد الأشخاص اللائقين لتولي هذه الوظائف ازداد تدريجيا تغاضي الحكومة عن هذه الاعفاءات .

وعندما زار الامبراطور سبتيموس سڤروس مصر في عام ١٩٩/٢٠٠ ورأى أن الاضمحلال قد أخذ يدب الى موارد البلاد وأن الادارة المحلية على وشك التداعي ، أدخل بعض التعديلات على نظام الادارة المحلية ، مؤملا أن يصلح بذلك ما أفسده الدهر . وقد كان أهم هذه التعديلات منح الاسكندرية وعواصم المديريات مجالس للشورى . واذا كانت الاسكندرية قد حققت على هذا النحو أمنية قديمة عزيزة عليها فانه انتقص من قدر هذه المنحة اسباغها على العاصمة المجيدة القديمة وعلى عواصم المديريات سواء بسواء . ولم يترتب على فوز

عواصم المديريات بهذه المنحة تمتعها بالحكم الذاتي تمتعا كامــلا فقد ظل القائد صاحب السلطة العليا في المديرية فضلا عن أنه كان يسيطر على مجلس الشورى وعاصـــمة المديرية حيث كان مقره الرسمي . واذا كان النظام الجديد قد بدا في صورة ميزة جاد بها الامبراطور فانه في الواقع كان عبئا جديدا ألقي على عاتق الموسرين الذين كان أعضـــاء مجالس الشـــورى يختارون من بينهم وكان عددهم يبلغ المائة في كل عاصمة مديرية . وقد انتقلت الى كل مجلس من هـــــذه المجالس المسئولية عن الشـــئون المالية في المديرية بأجمعها وتعين وضمان حكام العاصمة ومدير المصرف الرئيسي في المديرية وجباة الضرائب في كل أنحاء المديرية ومراقبي دخل الحكومة من كافة أنواع الأراضي (dekaprotoi) ، ومما يجـــدر بالملاحظة ان المسئولية غـــدت مسئولية جماعية فقد كان كل حاكم من حكام العاصمة وكل عضو في مجلس الشـــورى مسئولا عن تقصيره الشخصي وتقصير زملائه سواء بسواء . وقد كان مجلس الشـــورى يتولى الاشراف العام على الادارة في عاصمة المديرية في حين ان حكام العاصـــمة كانوا يقومون بتنفيذ ما يدخل في دائرة اختصاص كل منهم . وقد أصبحت القـــاعدة انه لا يمكن التحلل من تولي منصب من مناصب الحكم المحلي أو عضوية مجلس الشورى الا بتنازل المرشـــح عن ثلثي ما يملكه للشخص الذي رشحه ليحل مكانه .

ويرجح بعض المؤرخين انه عندما أنشئت مجالس الشورى عين أعضاء فيها أولئك الذين لم يسبق ترشيحهم لتولي مناصب الحـــكم المحلي في عواصم المديريات في حين انه يتبين من بردية من منتصف القرن الثالث الميلادي انه لم يكن هناك أي فارق من حيث النصاب المالي بين أصحاب مناصب الحكم المحـــلي وأعضاء مجلس الشورى العاديين . لكن هذا لا يستتبع حتما أنه عند انشـــــاء مجالس الشورى لم يعين أعضاء فيها أولئك الذين لم يرشحوا من قبل لمناصب الحكم المحلي . وعلى كل حال اذا كانت هناك أي فوارق بين الفريقين في بداية الأمر فانه ما وافت نهاية القرن الثالث حتى كانت هـــذه الفوارق قد زالت تماما الى حـــد أن كلمة حاكم محلي (archon) أصبحت ترادف كلمة عضو مجلس الشورى (bouleutes) .

وقد أدى انشـــاء مجالس الشورى الى انشاء مناصب ادارية جديدة كان أهمهـــا منصب رئيس المجلس (prytanis) ، وكان يرأس المجلس وينفذ قراراته ، ومنصب أمين المدينة (hypomnematographos) ، ومنصب (syndikos) وكان مستشار المجلس فيما يتعلق بالشئون الدستورية ، ومنصب tamias ، وكان يختص بشئون المدينة المالية ، ومنصب رئيس الشرطة في المدينة (nuktostrategos) .

وقد تضمنت التعديلات الادارية الجديدة تقسيم المديرية الى أقاليم ، وتبع ذلك احياء

وظيفة حاكم الاقليم (toparch) ، وكان يعين لكل اقليم مراقبان على دخل الحكومة من كافة أنواع الأراضي (dekaprotoi) ، وعدد من جباة الضرائب (praktores) .

وكان أهم التعديلات التي أدخلت على ادارة القرى احياء وظيفة حاكم القرية (komarch) ، والقضاء تدريجيا على اختصاص الشيوخ وكاتب القرية ، فقد أسندت شئون الادارة الى حكام القرى وكانوا عادة اثنين في كل قرية ، يبدو انهما كانا يتوليان هذا المنصب لمدة عام واحد . وكان حكام القرية يرشحون خلفاءهم ومن تحتاج اليهم الادارة من موظفين ، لكنهم كانوا لا يتولون مهامهم قبل موافقة قائد المديرية وحاكم القسم على اختيارهم .

ولا شك في أن التعديلات التي أدخلها سبتميوس سفيروس على نظام الادارة اعتراف صريح باخفاق النظام القديم ، ولا شك أيضا في أنه لم يبغ من وراء منح الأهالي قدرا من الاستقلال المحلي الا انعاش حالة البلاد الاقتصادية وايجاد وسيلة تعطي الامبراطور ضمانا أكبر للحصول على الضرائب ، لكن لا هذه التعديلات ولا الحقوق الرومانية التي منحها كركلا لسكان البلاد أفلحت في انعاش الحالة الاقتصادية ، بل أخذت تسير من سيء الى أسوأ مما حفز الامبراطور دقلديانوس الى اعادة تنظيم الادارة من أسفلها الى أعلاها .

ولا مراء أن السبب الأساسي فيما أصاب البلاد من فقر وتدهور يرجع الى أن الرومان لم يستهدفوا من وراء كافة النظم التي وضعوها لحكم مصر وكافة التعديلات التي أدخلوها على تلك النظم الا استغلال البلاد الى أقصى حد وضمان الحصول على ما فرضوه عليها من مختلف الالتزامات دون نظر الى صوالح الشعب ورفاهيته . وليس مرد ذلك الى أن الرومان كانوا يريدون التنكيل بمصر وانما مرده الى أن تفانيهم في أن تفيض مصر بالخيرات على روما أعماهم عن مراعاة صوالح مصر . ولو انهم كانوا بعيدى النظر لقدروا أن افقار مصر سيؤثر عاجلا أو آجلا فيما تجنيه روما من مصر لكن ازاء تبعة المسئولية الملقاة على عاتق الحكام وقصر مدة حكمهم لم يفكر كل منهم الا في يومه وكأنه اتخذ شعارا له « ومن بعدي الطوفان » .

٥ ــ الشرطة :

اكتفى الرومان أثر البطالمة أول الأمر في حفظ الأمن والنظام في أنحاء البلاد بحراس (phylakitai) مسلحين ومنظمين على أسس حربية . وتشير القرائن الى أن هذا النظام بقي متبعا في الدلتا حتى القرن الثاني . لكن يبدو أن الرومان لم يلبثوا أن استبدلوا بهذا النظام نظاما مزدوجا القيت بمقتضاه تبعة حفظ الأمن والنظام على شرطة مدنيين كانوا يعينون من أهالي كل منطقة وكذلك على الجيش

الروماني . وكان رجـــال الشرطة المدنيون يدعون بوجه عام حراسا أو خفرا أو حفظة الأمن (phylakes)، لكن كثيرا ما كانت تطلق ألقاب خاصة على الذين يناط اليهم عمل معين مثل حفـــظ الأمن في ساحات الأسواق أو السجون أو الطرق الصحراوية ، غير انهم كانوا جميعا يختارون للخـدمة في الأقاليم التي يعيشون فيها ويرجح ان مدة خدمتهم كانت عاما واحدا . وكان يتعين عليهم أن يؤدوا يمينا للخدمة بأمانة ونزاهة وأن يقدموا للحكومة ضـــامنين لحسن أدائهم مهمتهم . وكانوا ينقسمون وحدات أساسها المدينة أو القرية . وكانوا في المدينة تحت رياســة القائد مباشرة ، أما في القرية فانهم كانوا تحت رياسة موظف خاص يدعى(archepodos) ولم يكن لهذا الموظف اختصاص قضــائي برغم أنه كان يتداخل بين المتخاصــــمين لمصالحتهم وان المتخاصمين كانوا يلجأون اليه لفض منازعاتهم . وكان يكلف بالقاء القبض على المجــرمين بناء على أوامر يتلقاها من السلطات المختصة ، كما كان يكلف بتنفيذ أوامر الحكومة .

وقد صحب انشاء مجالس الشورى في عواصــــم المديريات تنظيم قوة للشرطة في عاصمة كل مديرية كانت مستقلة عن قــوة الشرطة في المديرية فقد ظهر في القرن الثالث على رأس رجال الشرطة في عاصمة كل مديرية موظف يدعى (nuktostrategos) بينما استمر رجال الشرطة في كل قرية تحت امرة الموظف الذي مر بنا ذكره (archepodos) . وليس هنالك دليل على أن رئيس شرطة عاصـــمة المديرية كان يعين من قبل مجلس الشـــورى أو يخضــــع لتوجيهـــاته . وأغلب الظن ان الحكومة الرومانية كانت تهيمن دائما عــلى رجال الشرطة في كافة أنحاء البلاد بما في ذلك الاسكندرية وغيرها من المدن الاغريقية .

وكان الجيش الروماني يخصص لحفظ الأمن والنظام فئة قليلة من الجنود يبدو انها كانت أفضـــل أثرا من الشرطة المدنيين . وفي أغلب الأحوال كانت كل فئة من هؤلاء الجنود تحت قيادة ضابط (centurion) كانت تقدم اليه الشكاوى كما كانت تصـــدر منه الأوامر لالقـــاء القبض على المتهمين . وتشير القرائن الى أنه في بعض الأحيان كان يصدر الى شرطة القرية ما يتراءى له من التعليمات .

٦ ـ الجيش الروماني :

عندما فتح أغسطس مصر كانت حامية مصر الرومانية تتألف من ثلاث فرق رومانية (legiones) ، وتسع كتائب مساعدة من المشاة (cohortes) ، وثلاث فصـــائل من الفرســـان (alae) وزعت على المراكز الاستراتيجية في البـــلاد لنشر السكينة والنظام في أرجائها ولضمان حمايتها من الاعتداءات الخارجية . فوضعت في نيقوبوليس احـــدى الفرق الرومانية وثلاث كتائب مساعدة لالقاء الرعب

في قلوب الاسكندريين الذين اشتهروا بميلهم الى الشغب والثورة ، ووضعت فرقة رومانية أخرى في بابليون للسيطرة على الوجه البحري ويرجح ان الفرقة الثالثة وضعت في منطقة طيبة التي كانت مهد الثورات الوطنية ضد البطالمة ، ووضعت ثلاث كتائب مساعدة عند أسوان للدفاع عن الحدود الجنوبية ووزعت الثلاث الكتائب المساعدة الباقية والثلاث الفصائل في مختلف أنحاء البلاد لحماية الحدود الشرقية وتأمين الطرق الصحراوية وحراسة المناجم . لكن سرعان ما تبين ان هذه القوات كانت تزيد على الحاجة ولا سيما بعد اطمئنان الرومان الى سلامة الحدود الجنوبية فأمر تيبريوس بسحب احدى الفرق الرومانية الثلاث . وعندما أثبتت الأحداث ان الاسكندرية كانت أخطر على الرومان من منطقة طيبة أمر كلاوديوس بنقل الحامية الرومانية التي كانت تنزل عند قفط أو طيبة الى معسكر نيقوبوليس .

وفي عهد نيرون حشدت مؤقتا في الاسكندرية فرق رومانية أخرى للقيام في رأى الباحثين بالحملة التي كان هذا الامبراطور يعتزم توجيهها ضد مملكة اكسوم لكن حال دون القيام بها اندلاع الثورة في جوديا مما استدعى استخدام تلك الفرق في اخمادها . وفي عهد تراجان أدخلت عدة تغييرات على نظم مصر الحربية كان أهمها بناء قلعة جديدة على شاطىء النيل عند بابليون واضافة فرقة جديدة (فرقة تراجان الثانية) يرجح أنها حشدت للخدمة في الشرق وانزلت مؤقتا في مصر لكنها لم تغادرها حتى سحبت الاشتراك في حرب الدانوب .

ولم يأت عهد أنطونينوس بيوس (١٣٦ — ١٦١) حتى كان عدد الفرق الرومانية في مصر قد انقص الى فرقة واحدة لكن يبدو من ناحية أخرى ان عدد الكتائب المساعدة والفصائل قد زيد . ويتبين من الوثائق انه على مر الأيام اتجه الرومان باطراد الى التجنيد محليا لملء الأماكن التي تخلو في صفوف الحامية الرومانية في مصر . وليس معنى ذلك انهم اعتمدوا على المصريين في ذلك وانما الأرجح على مواطني المدن الاغريقية وعواصم المديريات .

وكان يحرس شاطىء الدلتا أسطول (classis Augusta Alexandrina) يرجح أن أغسطس هو الذي أنشأه وان كان لا يرد له ذكر في مصادرنا قبل عصر نيرون . وكانت المهمة الأولى لهذا الأسطول الدفاع عن البلاد وحراسة القمح المنقول من الاسكندرية الى ايطاليا ، لكننا نسمع منذ عصر هادريان انه كان يقوم كذلك بحراسة النقل المائي في داخل البلاد .

الفصل الثالث

السياســـة الدينية

لما كان الرومان قد دأبوا فى الظـــروف العادية على اتباع سياسة التســـامح الدينى مـــع رعاياهم ما دام ذلك لم يتعـــارض والاحتفـــاظ بسيطرتهم عليهم ، فانهم تمشيا مع هذه السياسة لم يتدخلوا فى المتعقدات الدينية لرعاياهم فى مصر سواء أكانوا من المصريين أم الاغريق أم اليهـــود . فلا عجب اذن اذ استمر كل عنصر من هذه العنـــاصر فى اقامة شعائر دياناته القديمة . ولا أدل على أن أغلب المصريين بقوا على ولائهم لآلهتهم القديمة من ان الأقنان الأوائل للمسيحيـــة وجهوا حملات لاذعة ضد عبادة الحيوان بل انه بعد انتشار المسيحية فى مصر واعتراف الدولة بها رسميا فى القرن الرابع للميلاد بذل المسيحيون جهودا كبيرة للقضاء على الوثنية فى مصر وساعدهم على ذلك انه عندما ارتقى الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٩ — ٣٩٥) العرش فرض المسيحية قسرا فى جميع انحاء الامبراطورية الرومانية . وقد نفـــذ قرار الامبراطـــور دون هوادة فى الاســـكندرية والوجه البحـــرى حيث ذهب الرهبـــان فى تنفيـــذه الى ابعـــد مدى ومن ورائهم رجال الادارة يشدون أزرهم ، اذ كان القرار يقضى باغلاق كل المعابد التى كانت القرابين تقدم فيها ، لكن الرهبان استمدوا من ذلك القرار الســلطة ليهدموا المعابد . اما فى الوجه القبلى فان سلطة الحكومة لم تكن من القوة بحيث تستطيع تنفيذ ذلك القرار ، حتى اذا شـــاء رجال الادارة تنفيـــذه ، وكان أغلبهم فى الواقع مسيحيين غـــير متحمسين أو اداريين متبصرين لم يروا من الحكمـــة فرض دين معين على الشعب دون رغبته . ومع ذلك مازلنا نرى حتى اليوم على جدران المعـــابد آثار المحاولات التى بذلت لمحو صور الآلهة القديمة . ولا جدال فى ان كل ذلك يتمض دليـــلا على ان جانبـــا كبيرا من المصريين استمســكوا أمدا طويلا فى العصر الرومانى بعباداتهم القديمة . ويجب الا يغيب عن البال ان أهل الريف وهم يؤلفون دائما جانبا كبيرا من السكان فى مصر أكثر محافظة من أهل المدن وكذلك أكثر منهم تمســـكا باهداب الدين .

وقد احتفظ كثير من اغريق مصر أيضا بعباداتهم القديمة . ويجب ألا يتبـــادر الى

الذهن ان ذلك كان مقصورا على مدنهم الاغريقية فحسب بل يبدو ان ذلك كان شأنهم أيضا حيثما وجدت لهم مراكز حضارية خارج تلك المدن . فالقرائن تشير الى انهم كانوا يقيمون شعائر عبادتهم القديمة لا فى الاسكندرية ونقراطيس وبطوليميس وانطينوؤبوليس فحسب بل أيضا فى الفيوم وهرموبوليس (الاشمونين) واوكسيرنخوس (البهنسة) . لكن لا جدال فى ان عدد اغريق مصر الذين بقوا على ولائهم لآلهتهم القديمة قد تناقص على مر الزمن . فقد مر بنا ان الاغريق منذ عهد هيرودوتوس وطوال عصر البطالمة كانوا يشبهون الآلهة المصرية بالآلهة الاغريقية وانهم كثيرا ما عبدوا الآلهة المصرية الى جانب آلهتهم الاغريقية باعتبارهم نزلاء البلاد التى كانت تستمتع بحماية تلك الآلهة . ونستطيع ان نتصور انه كلما اصبح الاغريق أكثر ألفة بالآلهة المصرية نتيجة لطول استقرارهم فى البلاد والاختلاط بأهلها أو التزاوج معهم كثر تقربهم الى هذه الآلهة وتبع ذلك تسرب بعض الافكار الاغريقية الى بعض المذاهب المصرية التى كان يمارسها الاغريق والمصريون المتأغرقون . واذا كان من الجائز بوجه عام ان اغريق المدن الاغريقية وعواصم المديريات لم يصدفهم التعبد الى الآلهة المصرية عن التعبد الى آلهتهم الاغريقية فما لا شك فيه ان عامة الاغريق المنتشرين فى أرجاء البلاد أصبحوا بالتدريج أقرب الى المصريين منهم الى الاغريق ولم ينقض وقت طويل قبل أن تستوعبهم الأمة المصرية فيمن استوعبتهم على مر العصور . ومن ثم نقص عدد أتباع الديانة الاغريقية تبعا لعدد الذين تمصروا وبطبيعة الحال أيضا تبعا لعدد الذين اعتنقوا المسيحية .

ولما كان اليهود يقفون فى الشئون الدينية بمعزل عن كافة سكان مصر سواء أكانوا من المصريين أم من الاغريق أم من الرومان، فانهم استمروا يتابعون عباداتهم دون ان تتأثر طقوسهم أو معتقداتهم بأى تأثيرات أجنبية . وقد انتشرت بيعهم فى أغلب مدن مصر الكبرى واستمر معبدهم الكبير فى ليونتوبوليس يباشر نشاطه الى أن أمر فسپاسيانوس فى عام ٧٣ باغلاقه بعد تدمير أورشليم ومعبدها فى أعقاب ثورة اليهود على روما . وذلك لكى لا ينتقل نفوذ المعبد الكبير فى فلسطين بعد زواله الى معبد ليونتوبوليس . وقد شهدت مصر التطور الوحيد الذى طرأ على الأفكار اليهودية وكان يتمثل فى تكوين طائفة من النساك أنشأت لنفسها بيعة بالقرب من بحيرة مريوط حيث أخذت تمارس حياة من التقشف والزهد منصرفة عن أمور الدنيا الى الدرس والتأمل . وكان يسمح للرجال والنساء على السواء بالاندماج فى هذه الطائفة ، وكان يخصص لكل عضو من أعضاء الطائفة صومعة صغيرة ينزوى فيها وحيدا لمدة ستة

أيام ولا يخرج منها للالتقاء مع اخوانه فى البيعة الا فى يوم السبت من كل أسبوع وكذلك فى يوم الحفل الذى كان يقام كل خمسين يوما . ولم يكن هذا اللون من حياة التنسك غير معروف فى مصر من قبل . وآية ذلك أولئك النساك الذين تحدثنا الوثائق بأنهم كانوا ينقطعون للعبادة فى سيرابيوم منف فى عهد البطالمة . ويعتقد بعض الباحثين ان المبشرين البوذيين هم الذين نقلوا من الهند الى مصر فكرة التنسك . لكن البعض الآخر من الباحثين وان كانوا يسلمون بأن مثل أولئك المبشرين كانوا يفدون على مصر فى عهد البطالمة وبان مذهب سيرابيس كان يتألف من مزيج عجيب من الأفكار ، الا انهم يجدون من العسير أن يتصوروا أن يكون اليهود مع شدة تمسكهم لدياناتهم قد اقتبسوا أى عادات من ديانة أجنبية ، ويرجحون أن تكون طبيعة مصر هى التى أوحت لليهود بعادة التنسك . فالصحراء فى مصر شديدة القرب من أى شخص يريد اعتزال العالم ، وللصحراء جاذبية خاصة الاحساس بها أسهل كثيرا من وصفها ، ومن اليسير أن تستهوى أفئدة الذين شغلوا بالتعمق فى أمور الدين . ومهما يكن من أمر فان التطور نفسه قد حدث بعد ذلك بقليل بين المسيحيين فى مصر فانتشرت بينهم عادة التنسك فى الأديرة ، وهى العادة التى انتقلت من مصر الى كل أنحاء أوربا ويعتبرها البعض أهم خدمة أسدتها المسيحية المصرية للمسيحية الأوربية .

وازاء استمساك المصريين بمعتقداتهم الدينية رأى ان الأباطرة الرومان لكى يصبغوا مركزهم بصبغة شرعية فى نظر المصريين حذوا حذو البطالمة من قبل فاتخذوا صفة الفراعنة . بل ان حاكم مصر الرومانى أيضا كان يتشبه بالفراعنة ، فلا يركب النيل وقت الفيضان ، ويقدم القرابين عند بلوغ النيل أقصى ارتفاعه ويمثل دور فرعون فى غير ذلك من شتى المظاهر . وشيد الأباطرة المعابد للآلهة المصرية أو أضافوا الى مبانى المعابد القائمة أو أكملوا مبانيها أو زخرفتها وصوروا على جدرانها وعلى النصب الرسمية فى زى الفراعنة وأوضاعهم .

وقد كان الرومان فى بادىء الأمر ينظرون الى معتقدات المصريين الدينية نظرة احتقار وازدراء لكنهم لم يلبثوا أن أخذوا يتطلعون الى تعرف أسرارها فاستهوتهم تلك الأسرار وما يقترن بها من أساطير . وما عتم الغزاة الفاتحون أن خضعوا لسلطان تلك الآلهة وشاركوا رعاياهم المغلوبين على أمرهم فى عبادتها وتقديم القرابين اليها بل أقاموا التماثيل والمعابد لبعضها حتى فى روما العظيمة ذاتها . ولعل أبلغ ما يدل على التغير الفكرى الذى طرأ على الرومان من حيث تقديرهم للآلهة المصرية البحت أن أغسطس أبى واستكبر أن يرى العجل المقدس ابيس ،

لكن تيتوس شهد الاحتفال بتكريسه ولم يتأخر وسعا فى اظهار احترامه لآلهة المصريين، فوضع بذلك أساس سياسة جديدة ظهر اثرها فى بدء تصوير الآلهة المحلية فى المديريات على نقود الاسكندرية منذ عصر دوميتيانوس (٨١ — ٩٦) وكذلك فى تشبيه زوجة تراجان بالآلهة حاتحور .

واذا كان الرومان منذ وطأت أقدامهم مصر لم يتعرضوا لمعتقدات المصريين الدينية فانهم فى الوقت نفسه حرصوا ، كما فعل البطالمة الأوائل ، على ألا يتركوا الحبل على الغارب لرجال الدين المصريين لكى لا يصبحوا اداة لنشر روح الثورة فى البلاد ، كما حدث فى عهد البطالمة الأواخر . ولذلك قضى أغسطس بحرمان المعابد جانبا من أراضيها واستناد ادارة جانب آخر الى الحكومة لكنه سمح للكهنة بزراعة جزء من هذه الأراضى لتوفير حاجات المعابد . وفضلا عن ذلك وضعت ادارة المعابد تحت اشراف الحكومة ويرجح ان الحاكم العام الرومانى هو الذى كان يتولى هذا الاشراف حتى عصر هادريان عندما أصبح ذلك من اختصاص موظف رومانى كبير كان يدعى ايديولوجوس (idiologos) ، ويحمل لقب « كبير كهنة الاسكندرية ومصر بأجمعها » . وتربنا الوثائق كيف كان هذا الموظف يشرف اشرافا دقيقا على كل ما يجرى فى المعابد فقد كان يخضع لتعليماته ترتيب الوظائف الكهنوتية وتوليها ومباشرة الكهنة مهامهم بل الملابس التى يرتدونها . وكان يبعث بمفتشيه الى المعابد ليبحثوا شئون اداراتها ويأمر بالقبض على الذين يعصون أوامره وبارسالهم الى الاسكندرية . وكان يتولى الادارة الفعلية فى المعابد جماعة من الشيوخ يختارون سنويا من بين الكهنة وعندما أنشئت مجالس الشورى فى مستهل القرن الثالث آل الاشراف على شئون المعابد المالية الى موظفين كانت المجالس تعينهم وتراقب أعمالهم .

ومما يجدر بالملاحظة ان ما عرفناه من أمر الرومان حيال الآلهة المصرية لا يعنى انهم انصرفوا عن عبادة آلهتم الاصلية ، فقد ادخلوا عبادة هذه الآلهة فى مصر كما أدخل الاغريق من قبل عبادة آلهتم الاغريقية . وقد أخذ الرومان أيضا عن الاغريق تأليه الملوك فقرنوا الأباطرة بالآلهة — مثل أغسطس بزيوس اليوثريوس(Eleutherius)ونيرون باجاثادايمون (Agathodaimon) — وشيدوا المعابد للاباطرة فلكننا تفتقر الى أدلة قاطعة على عبادة الأباطرة وانشاء المعابد لهم فى أثناء حياتهم . وعلى كل حال فان الرومان لم يفرضوا على المصريين هذه العبادات خشية الاصطدام بالشعور القومى وهو ما كان الرومان يبذلون جهدهم لاتقائه . وقد أخذ الرومان كذلك عن الاغريق عبادة ثالوث الاسكندرية المقدس — سيرابيس وايزيس وحاربوقراط

— وعبادة الآلهة المصرية التي أسبغت عليها أسماء اغريقية .

لقــد عرفنا ان الرومان أقاموا سياستهم الدينية على أساس التســامح الديني وانهم أباحوا للمصريين والاغريق واليهـود حرية الاحتفــاظ بعباداتهم القديمــة . فما كان موقفهم من المسيحية عندما أخذت تنتشر في مصر ؟ ان معلوماتنا ضئيلة عن بدء انتشــار الدين الجديــد في مصر لكن الباحثين لا يميلون الى قبول القصة القائلة بأن القديس مرقس هو الذي أسس كنيسة الاسكندرية وان كانوا يعتقــدون ان قرب مصر من فلسطين جعلها في طليعة البــلاد التي تسرب اليها الدين الجديد في خلال القــرن الأول وأخذ ينتشر خفيــة هنــاك ولا سيما في الاسكندرية والوجه البحري ، وأصبح عدد المسيحيين كافيــا لتنصيب أســاقفة للاسكندرية . وقد ازداد أعوان المسيحيــة في القرن الثاني وخاصــة عنــدما نصب ديمتريوس في آخر عهد كومودوس (١٨٠ — ١٩٢) أسقفا للاسكندرية وعلى يده تمت رسامة قسس كثيرين تبعا لانتشار المسيحية. ومع ذلك فان المسيحية لم تترك أي أثر فيما عثر عليه حتى الآن من برديات القرن الأول ولا نستمد من برديات القــرن الثــاني الا معلومات طفيفة عن مدى تأثير المسيحية وان كنا تبين منها ان المسيحية توغلت في مصر الوسطى ومصر العليا .

وقد أدى انتشـــار المسيحية الى اثارة مخاوف الرومان ومن ثم عملوا على اضطهاد دعاتها وأنصارها باعتبــارهم عنصرا خطرا يهدد سلامة الدولة لعدم مشاركتهم في اقامة شــعائر الديانة الرسميــة ، فقــد كانوا لا يقدســون تماثيــل الأباطرة ولا يجلون « الروح الحارس » للامبراطور ولا « روما المؤلهة » . وقد كان بدء اضطهاد المسيحيين في مصر اضطهادا منتظما في خــلال حكم سبتميوس سفروس (١٩٣ — ٢١١) وبلغ أشده في أواخر عصر دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) . وتركت هــذه الاضطهادات أثرا عميقا في النفوس الى حد ان الكنيسة المصرية استمرت بضــعة قرون تستعمل لتأريخهــا « عصر الشــهداء » ابتداء من حــكم دقلديانوس . لكن وسائل الاضطهاد المختلفة لم تقف في سبيل انتشار الدين الجديد حتى تمت له الغلبــة في عصر قسـطنطين الأول (٣٢٣ — ٣٣٧) عنــدما اعترفت الدولة رسميا بالمسيحية .

ومما يجدر بالذكر انه في القرنين الثاني والثالث قامت الاسكندرية بدور كبير في التقريب بين أســمى الأفكار في الوثنيــة والأفكار التي انبثقت من المسيحيــة . فالى جانب « الجامعــة » القديمة التي استمرت تتابع دراساتها الوثنية نشأت المدرســة المسيحيــة الكبرى التي أسسها بنتاينوس (Pantaenus) ، وكانت أصــول الايمان تعلم فيها عن طريق السؤال والجواب .

الفصل الرابع

السياسة الاقتصادية

١ ـ الزراعة والصناعة والتجارة :

لما كان الرومان في حاجة ملحة الى الانتفاع بموارد مصر الطائلة وكان مقدار ما يجتونه منها يتوقف على مقدار ثروة مصر وكانت أحوال مصر الاقتصادية قد تدهورت في عهد البطالمة الأواخر من جراء ضعفهم وتخاذلهم وما عانته البلاد من آثار الثورات القومية والانقسامات الأسرية والغزوات الأجنبية ، فقد وجه الرومان عنايتهم الى اقامة حكومة قوية نزيهة والى النهوض بمرافق البلاد الاقتصادية .

ففي الزراعة عني أغسطس وحصيفو الرأي من خلفائه بضبط مياه النيل وحسن تصريفها وما يتطلبه ذلك من كرى الترع القديمة وانشاء ترع جديدة والمحافظة على الجسور فلا عجب ان استرابون يحدثنا بأنه قبل الفتح الروماني كان يتعين ارتفاع منسوب مياه النيل الى ١٤ ذراعا لانتاج محصول وفير في حين ان بلوغ منسوب المياه ثماني أذرع كان يؤدي الى حدوث مجاعة . اما بعد الفتح الروماني فقد أصبح ارتفاع منسوب المياه الى اثني عشر ذراعا كافيا لانتاج محصول وافر جدا وفضلا عن ذلك فان البلاد كانت لا تشكو من أي ضائقة حتى عندما كان منسوب المياه لا يبلغ أكثر من ثماني أذرع .

وكانت مصر تنتج عددا كبيرا من المحاصيل الزراعية كان القمح أهمها ثم يأتي بعد ذلك الشعير والكتان والخضروات والنباتات الزيتية والبردي والكروم والبلح والزيتون . ويقال ان مصر كانت تزرع أيضا القطن لتستخدم تيلته في صناعة ملابس الكهنة .

وقد عني الأباطرة المصلحون بالنهوض بالصناعة لسد حاجات السوق المحلية من ناحية وتصدير كميات كبيرة من ناحية أخرى تعوض مصر على هذا النحو جانبا من الجزية التي كانت تدفعها لروما سنويا . ويبدو ان حكام مصر من الرومان حيثما وجدوا الاحتكار الحكومي باهظ النفقات قليل الأرباح نزلوا عنه للأهالي فكانت الحكومة تحتكر بعض الصناعات مثل استخراج الملح والمعادن وقطع الأحجار وتترك صناعات أخرى لنشاط الأفراد .

لكن من العسير في ضوء معلوماتنا الحالية اعطاء صورة كاملة صحيحة عن مدى حرية النشاط الاقتصادي في الصناعة . وتشير القرائن الى ان الاسكندرية ظلت مركزا صناعيا كبيرا لكنها لم تتفرد بالنشاط الصناعي فكانت توجد مراكز صناعية في مختلف أنحاء البلاد مثل ارسينوى (الفيوم) وأوكسيرينخوس (البهنسة) وبانوبوليس (اخميم) وطيبة . ومن المرجح ان قرانيس احتفظت على الأقل ببعض ما كان لها من الأهمية الصناعية القديمة . وتحدثنا البرديات عما كان هنالك نشاط صناعي في قرية تبتونيس بالفيوم ويرجح انها لم تتفرد دون غيرها من قرى مصر بمثل هذا النشاط . فتذكر البرديات ان أهل تبتونيس كانوا يشتغلون بنسج الأقمشة وصباغتها وصنع الزيت والجعة والحلى والأدوات المعدنية .

وكانت صناعة الزجاج من أرقى الصناعات المصرية حتى انه ليعزى الى مصر ابتكار فن تشكيل الزجاج بالنفخ حوالي بداية العصر المسيحي ، ويحتمل ان مصر كانت تحتكر صناعة المكعبات الزجاجية الصغيرة اللازمة للفسيفساء . وكانت مصر تحتكر كذلك صناعة الورق وتنتج منه أصنافا عديدة راقية . واشتهرت مصر أيضا بمنسوجاتها الكتانية الدقيقة وبصناعة العطور والمساحيق والأدوية والصحاف والكؤوس المصنوعة من الفضة أو الذهب .

وقد اهتم الرومان كذلك بتجارة مصر الخارجية فراجت رواجا كبيرا ولا سيما بعد تطهير البحر الأبيض المتوسط من القراصنة ونشر نفوذ الرومان على شواطىء البحر الأحمر واصلاح الآبار الواقعة على الطرق الصحراوية التي تربط النيل بالبحر الأحمر وشق طرق جديدة لهذا الغرض واقامة الحاميات على جوانب هذه الطرق لاستتباب الأمن في تلك الجهات .

٣ ـ النقود :

لما كان أغسطس وخلفاؤه قد حرصوا على ابقاء مصر وحدة سياسية واقتصادية منعزلة عن باقي الامبراطورية الرومانية فانهم اصدروا لمصر عملة خاصة بها لم يكن لها أية قيمة خارجها ولم يسمحوا بتداول العملة الرومانية البرونزية والفضية فيها وان كانوا فيما يبدو قد سمحوا بتداول العملة الرومانية الذهبية لكن لما كانت الأدلة على التعامل في مصر بهذه العملة طفيفة فانه يبدو ان تداولها هناك كان محدودا جدا ، وهكذا انفردت مصر بوضع لم يكن له مثيل في أي ولاية رومانية أخرى . ففي الولايات الغربية غدت العملة الرومانية سريعا الوسيلة الوحيدة للتعامل وفي الولايات الشرقية برغم انه كانت تسك محليا عملة برونزية (وفي قيصرية وانطاكية بعض فئات العملة الفضية) فان الناس كانوا دائما يتداولون فئات العملة

الرومانية الفضية والبرونزية . ولما لم تكن العملة التي تسك في مصر قيمة خارجيـــا وكانت روما تحصل على جانب من الجزية المصرية نقـــــدا فلا بد من ان رومـا كانت تحصـــل على هـــذه الجزية النقـدية من أرصدة صادرات مصر الخارجية ومن ثم كانت الجزية النوعية والجزية النقدية تلقيان عبئا كبيرا على موارد مصر .

وقد كان الرومان يسكون العملة المصرية في الاســـكندرية وتشـير الادلة الى انه ثم تصدر عن دار السكة في هذه المدينة أي عملة فضية او ذهبية في العصر الروماني . ففي عهد أغسـطس كانت تسك فئات مختلفة من العملة البرونزية ومع ذلك كان يطلق على العمـــلة ذات الأربع دراخمات عملة فضـــية من باب الـادب فقط .

وفي عام ١٩/٢٠ ميلادية قرر تيبريوس أن تســـك الاســـكندرية عمـلة ذات أربع دراخمـات من مـــزيج يتألف مـن البرونز والفضة بنسبة ٣ : ١ وان تستمر الاسكندريه في سك الفئـــات الصغرى من العمـــلة البرونزية . وقد بقي معمولا بالنظــام الذي وضعه تيبريوس حتى عام ٢٩٦ مع تعديلات طفيفـة في نسبة مزيج القطـع ذات الأربع دراخمات وكذلك في شكل العملة فقد كان على نمط طرز العملة البطلميـة حتى عصر فسباسيانوس عندما اخذت تسك على نمط العملة الرومانية. ومنذ أواخر القرن الثاني أخذت قيمة العملة ذات الأربع دراخمات في الهبوط باستمرار ، واسرعت خطى هـــذا الهبوط في النصف الثاني من القرن الثالث الى حد ان وزن هذه العملة أصبح لا يزيد الا قليلا على نصف وزن مثيلاتها في عهـــد تيبريوس فضلا عن انه لم يعد فيها من الفضة الا قدر طفيف جدا ينقص كثيرا عمـا كان عليه في الماضي . وقد صحب هبوط قيمـة هذه العملة نقص العملة البرونزية سريعـا وسك عملات من الرصـــاص باسم المديريات المختلفة حلت محل العملة البرونزية . وتشير الوثائق البردية الى أنه قـد صحب هبوط العملة كذلك ارتفاع الأسعار والأجور "يضا لكن الأجور لم ترتفع بالمعدل ذاته مما كان له دون شك أثر في ضيق الناس بحالهم .

٣ ــ المصارف المالية :

كان يوجـــد مصرف رئيسي عــام في الاسكندرية ومصرف مركزي عام في عاصمة كل مديرية . وكانت هذه المصارف العـامة تؤدي مهمتي اســـتلام أمـوال الـدولة وصرفها ، وكان يقوم على ادارة كل مصرف مواطن مـن أثرياء عاصمـة المديرية كانت تفرض عليه مهمة ادارة المصرف مدة معينة . وتحدثنا الوثائق عن ثلاثة أنواع أخرى من المصارف فتطلق على أولها اسم مصـــارف التسجيل (chrematistike trapeza) ويبـــدو انها كانت تباشر مهمتي مكاتب التسجيـــل والمصارف المالية . وتطلق الوثائق على النوع

الثــاني اسم مصــــارف استبدال النقــود (Kollybistike trapeza) ويبدو ان مهمتهـــا الأولى كانت استبدال النقــود المصرية بأي عملة أجنبية ترد من الخـارج . اما النوع الثالث فيسمى المصارف الخاصــة (idiotike trapeza) ، ويبين انهـا كانت تستمد رءوس أموالهـا من الأفراد وتؤدي مختلف أنواع الأعمال المصرفية ، ولم يقتصر نطاقهـا على عمليات الأفراد فحسب بل كان يشمل أيضا عمليات حكومية .

ويعتقــــد بعض الباحثين ان الحكومة كانت تحتكر كافة الأعمال المصرفية وتؤجر ادارة المصارف الخاصـــة لمن يتقدم بأكبر عطاء لقاء ذلك لكن المعلومات التي لدينـا حتى الآن لا تـسمح بتأييـد هـذا الرأي أو تفنيده وان كان يبدو معقولا ومحتملا .

ومما يجدر بالملاحظة ان المعابد لم تنقطع عما درجت عليه منذ أقدم العصر من مباشرة أعمال شبيهة بالأعمال المصرفية مثل اقراض النقود واستلام الودائع . وفي مجتمع زراعي مثل مصر الرومانية كان أمناء مخازن الحبوب (sitologi) ، كذلك يؤدون مهمـة المصارف الخاصة .

٤ ـ حالة البلاد الاقتصادية :

لقد كانت النتيجة الطبيعية لقيام حكومة قوية قديرة لا تنقصها النزاهة مكان حكومة عاجزة فاسدة ازدياد الرخاء على الفور لكن استناد الحكومة القوية القـادرة الى نظرية فاسدة كان لا بد من أن يجعلها على مر الأيام أشد خطرا على البـــلاد وأكثر ضررا من حكومة أقل منها قوة ومقدرة . فقـــد كان الرومان لا يبغــون مــن وراء سـياستهم الاقتصادية في مصر الا غرضا واحدا وهــو استغلالها لمنفعتهم الخاصة . واذا كانت آراء بعض الأباطرة قد تفـاوتت عن آراء البعض الآخر فان ذلك التفاوت لم يكن في المبـدأ نفسه وانما في مقدار ذلك الاستغــلال ، اذ بينما كانت الحكمة تملي على بعضهم تجنب تكليف البلاد ما يزيد على طاقتها لا شفقـة بالبلاد أو أهلها بل شفقة بأنفسهم كيلا يجف معين البلاد نرى أن البعض الآخر قد ضرب بتلك الحكمة عرض الحائط وراح يبتز كل ما تملك البلاد . وحسبنا انه حتى في عهـد أغسطس كانت الجزية النوعية أربعة أمثال ما كان البطـالمة الأوائل يجبونه . ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد كان هنــاك فارق آخر هام بين البطالمة والرومان وهو ان معظم ما كان البطالمة يبتزونه من مصر كان يبقى فيهـا اما معظم ما كان الرومان يستنزفونه من مصر ، عينا كان أم نقدا ، فانه كان ينقل الى روما وتحـرم منه مصر كلية .

ويبدو لأول وهلة ان القرن الأول من حكم الرومان (من أغسطس الى آخر حكم نيرون أي من ٣٠ ق . م . — ٦٨ م) حمل في طياته رخاء عميما . لكن اذا دققنا النظـر

وجدنا ان ذلك الرخاء كان من نصيب روما قبل كل شيء ومن نصيب الاسكندرية الى حد . اما مصر ذاتها فقد كانت البقرة الحلوب التي درت تلك الخيرات حتى أخذت تظهر بوادر اضمحلالها ، اذ ان كل نظام الحكومة كان موجها الى غاية واحدة هي تمكين الدولة من استعباد الفلاح في خدمتها وابتزاز أموال دافعي الضرائب . وترينا القواعد المالية التي كان الايديولوجوس يسهر على تنفيذها والقوانين الخاصة (Gnomon Idiou Logou) بتأجير الأراضي أو جباية الضرائب شدة حرص الحكومة على مطالبة مزارعيها بأعلى الايجارات دون أن يمنعها في قليل أو كثير ان كان لم يتبق لهم بعد ذلك الا أقل القليل لقاء كل جهدهم المضني الشاق . ولا غرو فقد كان شعار كل رجال الحكومة مراعاة صوالح الخزانة العامة دون أي اعتبار آخر . وتنبئنا الوثائق بأنه في عصر تيبريوس (١٤ — ٣٧م) كان المزارعون يهربون من ضريبة الرأس والسخرة ويحتمون في الأدغال والمستنقعات حتى ان بعض القرى هجرت بأكملها تقريبا . وتحدثنا بردية من عهد نيرون (٥٤ — ٦٨م) بأن سكان ست قرى من قرى الفيوم قد نقص عددهم نقصا شديدا . وترينا بردية من هذا العهد أيضا بأن العبء لم يسقط كاهل دافعي الضرائب فقط بل جامعيها أيضا سما حدا بالجباة الى أن يجأروا بالشكوى من سوء الحال والا اضطروا تحت ضغط عجزهم المالي الى عدم القيام بتحصيل الضرائب . وتتجاوب أصداء هذه الحال فيما كتبه الفيلسوف اليهودي فيلون الذي عاصر الامبراطورين كاليجولا (٣٧ — ٤١) وكلاوديوس(٤١—٥٤) فهو يحدثنا عن قرى بأكملها بل بلاد اقفرت من سكانها بسبب شدة وطأة الضرائب ، وعن الزج في السجن بالزوجات والأطفال والتنكيل بهم للارشاد عن الأماكن التي آوى اليها الهاربون من تسديد الضرائب ، ويروي كيف ان جباة الضرائب كانوا لا يتورعون حتى عن الاستيلاء على جثث الموتى الذين لم يؤدوا ما عليهم من ضرائب لارغام ذويهم على سداد المتأخرات . وتحدثنا وثيقة من حوالي عام ٦٩ م عن ارغام الناس على التعهد بالتزام جباية الضرائب وعلى استئجار الأراضي العامة وعن « العيون » الذين وجدوا مرتعا خصبا في التبليغ عن المتهربين من الوفاء بالتزاماتهم للايديولوجوس وعن مزارعين في مختلف أنحاء البلاد أرهقتهم ضرائب جديدة غير مشروعة . وقد ناء الأهالي أيضا بعبء امداد العاملين الرومانية بما كانت تحتاج اليه وامداد رجال الادارة بحاجاتهم في أثناء تنقلاتهم من مكان الى آخر وذلك فضلا عن سلسلة من الضرائب الثقيلة المرهقة .

وفي خلال القرن الثاني من حكم الرومان (من جلبا الى آخر حكم ماركوس أوريليوس أي من ٦٨ — ١٨٠) عني الأباطرة

المستنيرون بعدم ايقاظ كاهل مصر فانتعشت حالها الاقتصادية بعض الوقت لكن بما انهم لم يعملوا على استئصال شأفة الداء باصلاح نظام الحكم اصلاحا جوهريا فان الحال لم تلبث أن عادت الى سيرتها الأولى . ومنذ منتصف هذه الفترة بدأت تظهر البوادر التي تدل على أن ثروة البلاد كانت آخذة في التدهور . ولا أدل على ذلك التدهور من التوسع في تطبيق مبدأ الالزام (Leitourgia) . وقد كان البطالمة عادة يمهدون في جباية الضرائب الى ملتزمين يتقدمون طواعية للاشتراك في مزادات تعقد لكل ضريبة على حدة ، وكان المزارعون يقبلون عن طيب خاطر على استئجار أراضي الملك ، اما في أوقات الأزمات فان البطالمة لم يحجموا عن ارغام الأشخاص اللائقين على تولي الوظائف أو التزام الضرائب أو استئجار أراضي الملك . غير ان التجاء البطالمة الى وسيلة الارغام لم يكن القاعدة السائدة ولم يحدث الا في ظروف استثنائية . واذا كان الرومان قد اقتفوا أثر النظام البطلمي أول الأمر فانهم لم يلبثوا ان طرحوه جانبا وأخذوا يتبعون بالتدريج في خلال القرن الأول مبدأ « الالزام » وتوسعوا في اتباع هذا المبدأ توسعا كبيرا في خلال القرن الثاني .

وتريبنا الوثائق البردية انه عندما تدهورت حال البلاد الاقتصادية وكان المشتغلون بالتزام الضرائب لا يتقدمون بعطاءات مرتفعة كالتي كانوا يتقدمون بها في أيام الرخاء كانت الحكومة اما ترغمهم على التعاقد معها بالشروط القديمة أو تجبي الضرائب مباشرة عن طريق جباة تعينهم في مناصبهم قسرا . ويبدو ان الأمر لم يستدع الالزام في حالة الوظائف الكبرى مثل وظيفتي القائد والكاتب الملكي لكن الحال كانت مختلفة في كل الوظائف الحكومية الصغرى فقد كان يشترط فيمن يتولى كل وظيفة من هذه الوظائف نصاب مالي معين وكلما خلت وظيفة في احدى القرى أو عواصم المديريات كان على كاتب القرية أو كاتب العاصمة أن يرسل الى القائد قائمة بأسماء الأشخاص اللائقين لتولي الوظيفة الشاغرة ، أو بعبارة أخرى بأسماء الأشخاص الذين تتوافر فيهم شروط تولي الوظيفة ولا يحق اعفاؤهم من توليها . وبعد أن يبحث القائد قائمة الأسماء كان يرسلها الى حاكم القسم (epistrategos) الذي تقع المديرية في نطاقه ويختار الحاكم بالقرعة الشخص الذي يتولى الوظيفة الشاغرة . وكان على هذا الشخص أن يشغل المنصب الذي اختير له مدة تتراوح بين عام واحد وثلاثة أعوام . ويرجح أن أولئك الموظفين كانوا يتقاضون أجرا الا انه لم يكن كافيا لمواجهة ما تتطلبه وظائفهم من نفقات . وفضلا عن ذلك فانهم كانوا مسئولين بأملاكهم بل بأشخاصهم عن كل

ما يحدث من تقصير أو عجز أو خسارة مالية للحكومة . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك القضاء على طبقة الفلاحين الموسرين .

ولكي نتبين لماذا ناء الموسرون بعبء مناصب حكام عواصم المديريات وأخذوا يتهربون من توليها كلما استحكمت حلقات الأزمة الاقتصادية يجب أن نذكر بعض هذه الأعباء . ففي حالة مدير الجيمنازيوم مثلا كان عليه أن يتحمل ثمن ما يحتاج اليه الجيمنازيوم من الزيت لتدليك الذين يمارسون الرياضة هناك وكذلك ثمن الوقود اللازم للاستحمام وقد كلف البند الأخير وحده أحد مديري الجيمنازيوم في خلال العام الذي تولى فيه منصبه ٢٠٠٠ دراخمة. وكان على مراقب التموين أن يتحمل نفقات صيانة طواحين الحبوب والمخابز فضلا عن أي عجز في امداد عاصمته بحاجتها من الحبوب .

وتحدثنا احدى البرديات عن أن مراقبا سابقا للتموين ترك دينا قدره ٢٠٨٠ دراخمة « ثمنا للقمح » الذي اشتراه عندما كان يتولى منصبه . وفضلا عن ذلك كان ينتظر من حكام العواصم أو على الأقل كبارهم مواجهة أي نفقات تتطلبها احتياجات مدنهم حتى ولو لم تتصل مباشرة بمهام أعمالهم اذ نعرف مثلا أن كبار حكام ارسينوي كانوا يسهمون شهريا في دفع نفقات المياه التي تحتاجها المدينة . ولا أدل على ثقل أعباء هذه المناصب مما تحدثنا به الوثائق من المحاولات التي بذلها شخص يدعى اخيليوس (Achilleus) لكي لا يتولى في عام ١٩٢ منصب مراقب التسليم في هرموبوليس لأن حالته المالية كانت لا تساعده على مواجهة تكاليفها . ويبدو أن تكاليف هذا المنصب كانت باهظة جدا لأن اخيليوس طلب اعفاءه من تولى هذا المنصب مع استعداده لتولي منصب .... على ألا يتفق أكثر من ١٢٠٠٠ دراخمة على أعباء هذا المنصب لكن محاولات اخيليوس ذهبت أدراج الرياح و « توج » في منصبه . وتدل الوثائق على أن أعباء وظيفة مدير الجيمنازيوم كانت أثقل من أعباء وظيفة مراقب التسليم فقد كانت تبلغ في هرموبوليس بعد الاقتصاد الشديد في النفقات ٢٤٠٠٠ دراخمة . فلا عجب أن ازدادت باطراد صعوبة الحصول على مرشحين لتولي هذه المناصب طواعية مما أفضى تبعا لذلك الى الالتجاء الى الارغام لشغل هذه المناصب وان كانت الحكومة قد حرصت باستمرار على الاحتفاظ بمظاهر التطوع للخدمة وعلى اسدال ستار كثيف حول مناوراتها لارغام ذوي اليسار على شغل هذه المناصب . واذا كانت أعباء المناصب الادارية الصغرى قد قضت على طبقة الفلاحين الموسرين فان أعباء مناصب حكام عواصم المديريات قد قضت كذلك

على طبقة الموسرين في تلك المواسم . ولا أدل على ذلك من أن كثيرين منهم كانوا يؤثرون الفرار من مواطنهم لأنه وإن كان فرارهم سيؤدي الى مصادرة أملاكهم فقد كان سيترتب على بقائهم وتولى مناصبهم تحمل متاعب هذه المناصب فضلا عن تكاليفها التي كانت ستستنفذ تلك الاملاك .

وقد امتد الارغام الى تأجير الأراضي كذلك لأنه بقدر ما ساءت حال الزراعة وناء الأهالي بثقل الأعباء المفروضة عليهم حتى فر الكثيرون منهم من قراهم ، ازدادت تبعا لذلك مساحة أراضي الدولة التي لم يتقدم أحد لاستئجارها وزراعتها . ومع ذلك استبقت الحكومة الضرائب والايجارات بالمعدل القديم ذاته وأخذت تلجأ الى وسيلتين ، واحداهما ارغام احدى القرى على زراعة الأراضي غير المستأجرة الموجودة في قرية مجاورة واعتبار القرية الاولى بأجمعها مسئولة عن زراعة تلك الأراضي ودفع ايجارها . اما الوسيلة الأخرى فكانت عبارة عن الحاق قطع من أراضي الدولة بالاراضي الخاصة وارغام أصحاب هذه الأراضي على زراعة تلك القطع وتأدية ايجارها . وفي هذه الحالة كانت المسئولية اول الأمر مسئولية فردية لكنها غدت مع الزمن مسئولية جماعية . وترينا الوثائق ان ايجار أراضي الأفراد هبط هبوطا كبيرا في النصف الثاني من القرن الثاني . ولعل تفسير ذلك انه عندما توسعت الحكومة في الاتجاه الى الارغام لتأجير اراضيها أصبح يتعذر على الأفراد الحصول على مستأجرين لأراضيهم فاضطروا الى انقاص ايجارها تبعا لنقص الاقبال على استئجارها .

وليس تاريخ مصر الاقتصادي في خلال القرن الثالث من حكم الرومان (من كومودوس الى أول حكم دقلديانوس أي من ١٨٠ — ٢٨٤) سوى سلسلة متصلة الحلقات لاضمحلال مستمر يسير من سيء الى أسوأ بسبب ازدياد عبء الضرائب والتوسع في تطبيق مبدأ الالزام في مختلف النواحي ، مع اهمال نظام الري فازداد حال الزراع سوءا وأصبح عملهم غير مثمر حتى ان كثيرين منهم لم يجدوا مناصا من أن يفعلوا ما فعله غيرهم من قبل أي الفرار من مواطنهم مفضلين اما العمل في المدن أجراء أو تكسب قوتهم من السطو والنهب ، ومن ثم تركت مساحات واسعة من الأراضي دون زرع . مما حدا بالامبراطور كركلا الى أن يصدر في عام ٢١٥ . قرارا يقضي بطلب الزراع من الاسكندرية ليعودوا الى الأرض التي هجروها . واذا كان هذا القرار قد نجح في تحقيق الهدف الذي أصدره من أجله فلا بد من أن يكون قد ترتب عليه ارتفاع أجور العمال وتكاليف الانتاج في الاسكندرية . وعلى كل حال نستبعد أن يكون قد نجح طويلا في وقف تيار الهجرة الى الاسكندرية،

فقد كان يساعد على هذه الهجرة عاملان رئيسيان وأحدهما حاجة المراكز الصناعية بوجه عام والاسكندرية بوجه خاص الى اليد العاملة ، والعامل الآخر شظف المعيشة وثقل الأعباء وسوء الحال فى المناطق الريفية حيث كان يزيد الحال سوءا على سوء ان الحكومة كانت لا تنقص قيمة الضرائب المطلوبة من مختلف نواحى البلاد حتى بعد فرار الاهالى . وكانت نتيجة ذلك أن أخذت قيمة الضرائب تزداد على من بقوا فى بلادهم بنسبة الذين كانوا يفرون منها وان أمعنت الحكومة فى الالتجاء الى سلاح الارغام لزراعة الأراضى المهجورة . ولعل أكبر العبء كان يقع على التاعسين الذين كانوا يرغمون على الاشراف على جباية الضرائب فى قراهم ، اذ ان الحكومة كانت تستولى على ممتلكاتهم حتى تسدد الضرائب جميعها ، وليس أبلغ فى الدلالة على تصوير سوء الحالة الاقتصادية فى خلال القرن الثالث من القرائن المتعددة على اقفار الريف من سكانه ، وما تحدثنا به الوثائق عن فرار المكلفين بتولى المناصب الحكومية المحلية أو تهديدهم بالفرار وعن الصعوبة المتزايدة فى شغل المناصب البلدية الى حد ان السلطات فى ارسينوى عندما عجزت عن ايجاد المرشحين اللازمين من مواطنيها لشغل المناصب البلدية هناك لجأت الى اجبار القرويين على ذلك برغم القانون الذى كان سبتيموس سفروس قد أصدره لتحظير ذلك ، فرفض القرويون الاستجابة الى ما أمروا به ورفعوا شكواهم الى الحاكم العـام فنظر القضية فى النصف الأول من عام ٢٥٠ . وعندما حاول محامى ارسينوى الدفاع عن تصرفها بقوله : ان القانون الذى يتذرع القرويون بحمايته قد صدر عندما كانت المدن لا تزال تنعم بالرخاء رد عليه الحاكم العام « ان حجة الرخاء ، أو على الأصح تدهوره ، قائمة بالنسبة للقرى والمدن سواء بسواء » ؛ مما يدل على ان الأزمة الاقتصادية كانت عامة شاملة . ولا أدل على تدهور مرافق البلاد الاقتصادية بوجه عام من تدهور قيمة العملة سريعا فى خلال هذا القرن ، فكانت لذلك أيضا آثار بعيدة المدى فى الصناعة والتجارة الخارجية فقد صحبه غلاء المعيشة واستبدال نظـام الاقتصاد الطبيعى تدريجيا بالنقود . واذا كانت قد بذلت بعض المحاولات فى أواخر القرن الثالث على عهد الامبراطور بروبوس (٢٧٦ - ٢٨٢) لاصلاح وسائل الرى مما أدى الى انتعاش كثير من القرى فان هذا الانتعاش كان محدودا قصير الأمد ولم يفلح فى وقف تيار التدهور بدليل انه قد جاء فى خطاب رسمى من حوالى عام ٢٨٩ ان منصب « مراقب التموين » فى أوكسيرينخوس بقى شاغرا فترة طويلة قبيل ذلك التاريخ . فلا عجب اذن أن نضب معين البلاد بسبب السياسة الخرقاء التى اتبعها الرومان فى

خلال الثلاثة القرون الأولى من حكمهم مما حدا بالامبراطور دقلديانوس الى ادخال تعديلات جديدة على نظام الحكم فى مصر .

واستكمالا للصورة التى حاولنا اعطاءها لحالة مصر الاقتصادية فى خلال العصر الرومانى يجب أن نذكر شيئا عن العبيد . وتشير القرائن الى أن نشاط العبيد فى الزراعة كان قليلا نسبيا ويكاد أن يكون مقصورا على الضياع الكبيرة وحتى فى هذه الضياع لم يستخدم العبد على نطاق واسع. وكيف يمكن تفسير ذلك فى ضوء ما تحدثنا به الوثائق عن فرار الأهالى من الأرض وترك مساحات واسعة غير منزرعة ؟ أو بمعنى آخر لماذا لم يلجأ الناس أو الحكومة الى العبيد لاستثمار الأرض التى هجرها المزارعون الأحرار ؟ لعل خير تفسير لذلك ان الناس كانوا يخشون اضافة تبعات جديدة الى تبعاتهم دون الحصول على ما يعوضهم عن ذلك ، وان الحكومة كانت تفضل الالتجاء الى سلاح الارغام لاستثمار تلك الأراضى فمن ناحية كانت هذه الوسيلة أقل كلفة وأكثر ربحا وأضمن عاقبة من استخدام العبيد ، ومن ناحية أخرى لعل الحكومة كان يراودها الأمل فى أن يؤدى اشفاق الهاربين من ازدياد التبعات على ذويهم الذين بقوا فى قراهم الى وقف فرار الزارعين .

ويبدو ان مساهمة العبيد فى النشاط الصناعى كان مقصورا على المدن الاغريقية وخاصة الاسكندرية ، لكن ليس معنى ذلك أن الصناعة فى تلك المدن لم تقم الا على أكتاف العبيد وانما معناه ان العبيد أسهموا مع الأحرار فى الصناعة هناك . اما فى المراكز الصناعية الأخرى فيبدو بوجه عام انه لم يوجد للعبيد مجال فيها بسبب وفرة اليد العاملة وقلة أجرها ودرايتها المتوارثة بفنون الصناعة . ويبين ان عددا كبيرا من العبيد كانوا يشتغلون خدما فى المنازل وكتبة ومحاسبين فى المصانع والمتاجر وراقصين وموسيقيين فى الفرق التى كانت تجوب البلاد للترفيه عن الناس فى الأعياد والحفلات العامة .

وكان العبد يعامل معاملة صاحبه من حيث الضرائب والأعمال المسخرة فى تطهير القنوات وصيانة الجسور . ولا توجد لدينا أدلة كثيرة عن تجارة العبيد فى مصر وان كانت الوثائق تشير الى وجود تجارة نشيطة فيهم والى أن الحكومة كانت تشرف اشرافا دقيقا على تصديرهم وتفرض غرامات معينة على الذين يخالفون تعليماتها . وكانت قيمة العبد تتفاوت تفاوتا كبيرا تبعا لعمره وصفاته ومهاراته وكذلك تبعا لنوعه ذكرا كان أم أنثى .

الفصل الخامس

النظـــــام المـــالى

أولا ــ الادارة المالية :

كان الحاكم العام برأس الادارة المالية فى مصر مثل ما كان يرأس كافة فروع الادارة الأخرى ولم يكن من اختصاصه تحديد مقدار الجزية التى تدفعها مصر فقـد كان من اختصاص الامبراطور الذى كان يقرر سنويا مقدار الدخل ويصدر أوامر مفصلة عن كيفية جمعه وكانت هـذه الأوامر توجه الى الحاكم العام فيبلغها الى قواد المديريات وسائر المختصين فى المدن والقرى ، ويسهر على تنفيذها . لكن لما كان الحاكم العـام مسئولا آخـر الأمر عن جمـع الضرائب وموافاة روما بنصيبها وكانت تطـرأ عوامل فوق طاقة البشر تؤثر فى المحصول وتستتبع انقاص الضرائب فانه أوكل الى الحاكم ربط الضرائب فى كل منطقة وتعديلها تبعا لمقتضيات الأحوال على ضوء التقارير التى كانت ترفع اليه من المختصين . وكان للحاكم العـــام مساعدان رئيسيان فى الشئون المالية وهمـا الديويكيتس والايديولوجوس اللذان يبدو جليا أنهما ورثا لقبيهما من عصر البطالمة وان كان قد طرأ على اختصاصاتهما بعض التغيير الذى اقتضاه تغير الظروف . ففى عصر البطالمة كان الديويكيتس على رأس الادارة المالية وكان الايديولوجوس مرءوسـه المختص بجانب معين من الشئون المالية . أما فى عهـد الرومان فقـد انتقلت سلطة الديويكيتس الى الحاكم العام وانحط مركزه الى المرتبة الثـانية ويرجح أنه أصبـح مسـاويا للايديولوجوس فى مرتبته وان كان يتعذر تحديد الصلة بينهما ومعرفة مدى اختصاص كل منهما لكن يبدو ان الديويكيتس كان الرئيس الفعـلى للادارة الماليـة وان الايديولوجوس كان يختص بالفصـل فى قضايا الخزانة العامة ، وبادارة الأراضى التى آلت الى الخزانة العامة وكذلك بالاشراف على أراضى المعابد ودخلها ، ولكى يتاح له الاضطلاع بهذه المهمة الأخيرة كان يحمـل لقب كبير كهنة مصر . وعلى كل حال ليس من الاسراف فى الرأى اعتبار الديويكيتس والايديولوجوس مستشارى الحاكم الفنيين فى الشئون المالية ولا يبعد أنهما كانا يرقبان تصرفاته مراعاة لصوالح الامبراطور . وكان هذان الموظفان يشرفان على عـدد كبير من المرءوسين الذين كانوا ينتشرون فى مختلف

أنحاء البلاد لكنهم يبقون على اتصال مباشر بالادارة المالية المركزية فى الاسكندرية ، واذا كان من الممكن تبين مهام بعض هؤلاء المرءوسين مثل بروكيراتور (procurator) نيابوليس وكان يشرف على نقل القمح من داخل البلاد الى المخزن العام على مقربة من الاسكندرية توطئة لشحنه الى روما ، ومثل البروكيراتور أو سيتولوجوس (procurator sitologus) ، وكان المساعد الأول للايديولوجوس فى الاضطلاع بمهام منصبه ؛ فانه يتعذر معرفة اختصاص البعض الآخر من هؤلاء المرءوسين .

وقد سبقت الاشارة الى أن قائد كل مديرية كان مسئولا عن تقدير الضرائب وجمعها واستغلال أراضي الحكومة واحتكاراتها فى مديريته والى انه كان لكل مديرية نومارخيان كانا يشرفان على تقدير وجمع مختلف الضرائب فى المديرية . وكانت الادارة المالية المركزية فى الاسكندرية هى التى تقدر فئات الضرائب المختلفة التى تجبى من كل مكان وشخص فى مصر على ضوء البيانات التى يقدمها كاتب القرية والكاتب الملكى فى المديرية ويراجعها النومارخيان والقائد بعد أن يفحصها عدد من عمال المالية المحليين مثل الـ epikrates والـ laographos وكانا يختصان ببحث حالة الأشخاص الذين تفرض عليهم ضريبة الرأس والـ geometres والـ horiodeiktes والـ episkeptes .

وكانوا يختصون بالبيانات المتعلقة بمساحة الأراضى وحدودها وانتقال ملكيتها أو تغيير غلتها من أجل تقدير الضرائب على الأراضى . وتحدثنا الوثائق عن اشتراك الموظفين الأخيرين فى لجان يبدو انها كانت تؤلف سنويا من السكان المحليين لبحث حالة الأراضى بعد الفيضان وتقدير الضريبة المستحقة عليها .

وقد ذكرنا آنفا انه بعد انشاء مجالس الشورى فى عواصم المديريات انتقل الى كل مجلس من هذه المجالس المسئولية عن الشئون المالية فى المديرية بأجمعها .

ثانيا ـ هدف النظام المالى :

وتختلف القواعد التى أقام عليها الرومان نظامهم المالى فى مصر اختلافا جوهريا عن القواعد التى اتبعها البطالمة وذلك لعدة أسباب أهمها أولا ان البطالمة كانوا يستهدفون بناء دولة قوية غنية فى مصر تكفى نفسها بنفسها وتستطيع الذود عن حياض استقلالها السياسى والاقتصادى فكانوا يريدون ملء خزائنهم لتحقيق أهداف سياستهم وسد تكاليف حكومتهم ونفقات قصورهم وربما لذلك كانوا ينفقون فى مصر أكثر ما يجمعونه منها . اما على عهد الرومان فان مصر غدت جزءا من امبراطورية تحكم من روما وكان الأباطرة يستهدفون تقوية مركزهم وتقوية الامبراطورية وملء خزائن

روما بعد أن نضب معينها من جراء الحروب الأهلية وتدهور حالة ايطاليا الاقتصادية بوجه عام والزراعة بصفة خاصة فعملوا على استغلال مصر الى أقصى حد ونقل جانب كبير من ثروتها الى روما لتحقيق تلك الأهداف . والسبب الثاني ان البطالمة كانوا يستمدون جانبا كبيرا من دخلهم من الحرف والصناعات الكثيرة التي احتكروها وكذلك من المكوس والعوائد الجمركية التي فرضوها على الواردات . اما الرومان فكانوا يريدون ارضاء الطبقات الاجتماعية الجديدة في ايطاليا من أصحاب رءوس الأموال الذين كانوا يستغلون ثروتهم في الصناعة والتجارة ويتطلعون الى استغلال السوق المصرية . فلا عجب ان النظام المالي الذي وضعه الرومان لمصر لم يكن الا اداة لاعتصار ثروة البلاد بطريقة أو أخرى ، وانه لم يكن من شأن التعديلات التي أدخلت على تطبيق هذا النظام الا جعله أشد فتكا وضراوة كلما ازدادت البلاد فقرا .

ثالثا ـ نظام الأراضي :

ولكي نتبين موارد الدولة من الزراعة يجب أن نأتي أولا على نظام الأراضي . ولا يقل نظام الأراضي في عهد الرومان تعقيدا عنه في عهد البطالمة . وان كان قد احتفظ ببعض مظاهر النظام القديم فانه قضى على بعضها الآخر وأدخلت عليه مظاهر جديدة .

وكل ما يمكننا استنتاجه من أكداس الوثائق عن هذا النظام يتلخص في تقسيم الأراضي على النحو التالي في ضوء معلوماتنا الحالية :

١ — أراضي الدولة ، وكانت تتألف من فئتين من الأراضي احداهما « الأراضي الملكية » التي كانت فيما سبق ملكا للبطالمة وأصبحت منذ الفتح الروماني أرضا أميرية تملكها الدولة . وكانت الفئة الأخرى عبارة عن الأراضي التي انتزع الاباطرة ملكيتها من المعابد ومن بعض أرباب الاقطاعات العسكرية ومن بعض الرومان أصدقاء انطونيوس . وقد كان يباع جانب من هذه الفئة من الأرض ويفرض عليه من الضرائب ما كان يفرضه على أراضي أرباب الاقطاعات وغيرها من أراضي الامتلاك الخاص لكنه كان يحتفظ بالجانب الأكبر من هذه الفئة من الأرض ويطلق عليه اسم « الأراضي العامة » (ager publicus) . وكان الديويكيتيس يشرف على ادارة « الأراضي الملكية » والاديولوجوس على ادارة « الأراضي العامة » وكان هذان الموظفان يؤجران هذه الأراضي الى مستأجرين اما يقومون بأنفسهم على استغلالها أو يؤجرونها من الباطن . ويرينا كثير من عقود الايجار انها كانت لمدة خمس سنوات . وكان مزارعو « الأراضي الملكية » يدعون « المزارعين الملكيين » ومزارعو « الأراضي العامة » يدعون « المزارعين العموميين » الا انه بمرور

الزمن زالت الفوارق بين الفريقين وأصبح اللقب الثاني يطلق على جميع مزارعي هذه الأراضي كافة . وقد كان يحق للدولة طرد المستأجر في أي وقت تشاء ولأي سبب تراه. واذا لم يتقدم أحد لاستئجار بعض هذه الأراضي كانت الحكومة تلجأ الى وسيلة من اثنين واحداهما ارغام احدى القرى على زراعة الأراضي غير المستأجرة الموجودة في قرية مجاورة واعتبار القرية الأولى بأجمعها مسئولة عن زراعة تلك الأراضي ودفع ايجارها وضرائبها . أما الوسيلة الأخرى فكانت عبارة عن الحاق قطع من أراضي الدولة بالأراضي الخاصة وارغام أصحاب هذه الأراضي على زراعة تلك القطع وتأدية ايجارها وضرائبها .

٢ — أملاك الأباطرة الخاصة ، (ousiake ge) ، وكانت تتكون من الأراضي التي كان البطالمة قد أغدقوها على أصحاب الحظوة لديهم وانتزعها أباطرة القرن الأول منهم ، ويرجح انهم احتفظوا ببعضها ومنحوا البعض الآخر نفر من كبار الرومان . وقد كان بعض من تمتعوا بهذه المنح أفراد من أسرة الامبراطور مثل دروسوس وزوجته ، وأصدقاء الامبراطور مثل ميكناس ، وأفراد من الأسرة المالكة في جودايا ، وكذلك بعض أعيان الاسكندرية . وقد كانت هذه الأراضي الممنوحة في أغلب الأحيان معفاة من الضرائب .

ومنذ النصف الثاني من القرن الأول الميلادي أخذ الأباطرة يستردون أغلب تلك المنح لأنهم رأوا ان في منح نبلاء الرومان هبات واسعة ما يساعد على تقوية شوكتهم ويجعلهم في مركز يهدد سلطان الامبراطور بل قد يصل بهم الى حد التطلع الى العرش ، كما رأوا بوجه عام ان منح الأراضي لأشخاص يقيمون بعيدا عنها يؤدي الى اهمال الأرض ونقص غلتها فلم يأت عهد تيبريوس حتى كان أغلب هذه الأراضي — ان لم يكن كلها — قد عاد الى حوزة الامبراطور. وقد اتبع الأباطرة سياسة جديدة بمنح طائفة من المزارعين حق استغلال تلك الأراضي لمدد طويلة . وكانوا يرمون من وراء ذلك الى تحقيق غرضين : وأحدهما ، ايجاد طبقة من المزارعين الموسرين تسند اليهم المناصب ؛ والآخر ، الاطمئنان الى حسن استغلال الأراضي وما يتبع ذلك من ازدياد دخل الحكومة .

٣ — أراضي الامتلاك الخاص (idiotike ge ousiai) وكانت تتكون من عدة فئات:

أ — الاقطاعات العسكرية التي لم تنتزع ملكيتها ولا يعرف بعد الأساس الذي اتبع في نزع أو تثبيت ملكية أراضي أرباب الاقطاعات . وكل ما نعرفه هو ان جانبا من هذه الأراضي بقي في قبضة أشخاص مختلفين كان امتلاك تلك الأراضي يعطيهم حق الاعفاء من الخدمة في الجيش الروماني ومن ضريبة

الرأس ومن الارغام على استغلال الأراضي الملكية أو العامة المجاورة لهم اذا لم يتقدم أحد لاستئجارها . وكان عليهم عند انتقال ملكية ما بيدهم من أراض ان يدفعوا ضريبة خاصة (katalochismos) ، وكان أرباب هذه الأراضي يؤدون الضرائب التي فرضت عليها منذ عهد البطالمة .

ب — الاقطاعات التي منحت لقدماء المحاربين الرومان .

ج — الضياع التي كان الأباطرة في بعض الأحيان يقتطعونها من أراضي الدولة ويمنحونها لبعض الأفراد مع احتفاظ الدولة بحق اسمي لملكيتها . ويصعب تحديد كيفية معاملة هذه الضياع من حيث الضرائب لكن يرجح أنها لم تدفع جميعا الضرائب بمعدل واحد وان هذا المعدل كان يتوقف على شروط المنحة في كل حالة .

د — جانب من الأراضي التي انتزعت الدولة ملكيتها وباعتها .

ويبدو ان نطاق أراضي الامتلاك الخاص قد اتسع تدريجيا ولا سيما في القرنين الثاني والثالث . ولعل توسع الحكومة في الزام الأهالي بتولي المناصب قد شجع هذا الاتجاه اذ كان يتعين على الذين يتولون المناصب ان تكون لديهم أملاك خاصة اذا أريد تحميلهم تبعة عدم النهوض بالتزامات مناصبهم .

٤ — أراضي المعابد ، يرى بعض المؤرخين ان بترونيوس ، ثالث حكام مصر في عهد أغسطس ، انتزع ملكية جميع أراضي المعابد وأصبحت جزءا من «الأراضي العامة» واذا كان لا شك في ان ملكية جانب كبير من أراضي المعابد قد انتزع ، فان الأرجح أن أغلب ما انتزع ملكيته كان من الأراضي التي منحها البطالمة الأواخر للمعابد وكان الكهنة أنفسهم يقومون بادارتها . أما الأراضي المقدسة القديمة فقد بقيت ملكا للمعابد الا أن الحكومة هي التي كانت تتولى ادارتها على نحو ما كانت عليه الحال في الشطر الأول من عصر البطالمة ، لكنه سمح للكهنة بزراعة جزء من الأراضي المقدسة لسد حاجات المعابد ، وكانت الحكومة تجبي ضرائب محددة عن هذا النوع من الأرض في حين ان ذلك الجزء من أراضي المعابد الذي انتزع ملكيته كان يؤجر مثل غيره من أراضي الدولة ولم تحصل الحكومة منه الا على الايجار .

٥ — أراضي الدخل ge prosodou ويمكن ارجاع نشأة هذه الفئة من الأراضي الى منتصف القرن الأول على الأقل لكن ماهيتها مازالت مثار الجدل بين الباحثين . ومع ذلك يبدو محتملا انها كانت أراضي آلت الى التاج ملكيتها أما مؤقتا أو دائما لسبب أو لآخر وكانت تؤجر مثل أراضي الدولة وانما لقاء ايجار مرتفع جدا .

٦ — أراضي المدن ، ويرجح أن هذه الأراضي كانت تتكون من الأراضي التي كان يملكها مواطنو تلك المدن وآلت الى مدنهم

بسبب اقراض لـ أصحابها أو تركهم اياها هبة لتلك المدن والقرى ، ففي القرن الثانى كانت مدينة الاسكندرية تملك أرضـا قرب قرية بوهمريا فى الفيوم ، وفى القرن الثالث كـانت كـل مـن مـدينتى ارسـينوى وهرموبوليس ماجنا تملك أرضا . وكانت هذه المدن تؤجر أراضيها وتعتبر مسئولة عن الضرائب المستحقة عليها أمام حكومة المديرية التى توجد فيها الأراضى شأنها فى ذلك شأن الأفراد الذين يملكون أراضى ويؤجرونها .

وقد كان دخل الدولة من الأراضى يتألف من ايجار أراضيها ومن الضرائب التى كانت تفرضها على أنواع الأراضى الأخرى وبعض الضرائب التى كانت تفرضها على أراضيها . وكانت الضرائب التى تفرضهـا الدولة على الأراضى تتوقف على نوع المزروعات ومقدار جودة الأرض وحالة فيضان النيل . ولذلك كانت الأراضى تقسم قسـمين رئيسـيين واحدهما أراضى البساتين والآخر الأراضى الزراعية . وكان القسم الأخير ينقسم أيضـا قسمين أحدهما الأراضى التى تغمرها المياه والآخر الأراضى التى لا تغمرها المياه . ولا جدال فى أن الأراضى التى تغمرها المياه كانت عبارة عن الأراضى التى تقـع فى الحياض وتغطيها مياه الفيضـان . اما القسم الآخر فأغلب الظن انه كان عبارة من أراضى تقع فى الحياض ولكنها مرتفعة فلا تصلها المياه اذا كان منسوب الفيضان واطئـا ، لكن بعض الباحثين يرى انه من الجائز أن هـذه الأراضى أو بعضها كانت تقع خارج الحياض وتروى ريا دائما

ومن أجـل ذلك كله كان كاتب القـرية مكلفا باعـداد سجل بكافة أنواع الأراضى التى فى زمام قريته وبموقع كل نوع منهـا ومساحته وأربابه ومقدار استحقاق الحكومة من ايجارات أو ضرائب عن كل قطعة أرض فى منطقته وكذلك باعـداد تقرير سنوى عن محاصيل تلك الأراضى وعما كان يطرأ على حالتهـا من تغيير . وكان السجـل يراجع سنويا لجعله مطابقا للواقع . وتوجـد أمثلة كثيرة لالتماسات قدمها أصحاب الأراضى أو مستأجروها يصفون فيهـا حالة أراضيهم ويطلبون تخفيض الايجـار أو الضرائب بسببها . وفى الظروف غير العادية مثل تأخر الفيضان عن موعده أو هبوطه دون منسوبه العادى كان الحاكم العام يصـدر تعليمات لتقديم مثل هذه الالتماسـات وكانت توجه القائد أو الكاتب الملكى أو كاتب القرية . وكان كاتب القرية أو شيوخها يقومون ببحث أولى يقدم على أثره كاتب القرية تقريرا عن حالة أراضى قريته والضرائب أو الايجارات المستحقة من كل جزء منها . وكان هـذا التقرير يتخذ أساسا للفحص الذى تقوم به لجنة تشكل لهذا الغرض وتقـدم لكاتب القرية تقريرا بنتائج عملهـا فيقوم بتعديل سجله وفقا لهذا التقرير ويبلغ النتيجة للقائد

والكاتب الملكى لتصحيح قوائم الضرائب والايجارات .

ويبين من القرائن المختلفة ان كاتب القرية كان يعتمد على جهوده الشخصية لجعل سجلاته مطابقة للواقع من حيث التغيرات فى ملكية الأراضى أو استئجارها أو مستأجرها .

وكانت أهم ضرائب الأراضى هى ضريبة الحبوب وكانت تجبى نوعا من كل ما يزرع حبوبا من أراضى الامتلاك الخاص وأراضى المدن والأراضى المقدسة التى كان الكهنة يقومون على استغلالها ، وكان دخل هذه الضريبة يكوّن جانبا من جزية القمح التى كانت مصر تدفعها لروما . وكان دخل الدولة من ايجار أراضيها يدفع أيضا نوعا ويكون الجزء الباقى من الجزية . وكان معدل هذه الضريبة يتراوح بين ثلاثة أرباع الأردب وأردبين عن كل أرورة تبعا لحالة الأرض والنوع الذى تنتمى اليه . وكان على الزراع أن ينقلوا كل محصولهم الى جرن القرية حيث يدرس تحت اشراف موظفى الحكومة وشيوخ القرية وبعد حصول الدولة على استحقاقها من ضرائب أو ايجارات كان يطلق سراح باقى المحصول لكن المزارعين كانوا مسئولين عن نقل استحقاقات الدولة الى المخزن المحلى للقمح تمهيدا لنقله الى الاسكندرية ولا تنتهى مسئوليتهم الا بعد حصولهم من أمين المخزن (Sitologos) على ايصال باستلام المستحق عليهم .

وكان نقل القمح يتطلب جمالا وحميرا لنقله من المزارع الى المخزن المحلى ثم من المخزن الى أقرب مجرى مائى حيث كانت تحمله سفن صغيرة الى النيل فتقوم بنقله سفن كبيرة الى الاسكندرية . وكانت الدولة تملك بعض دواب الحمل لكن يبدو انها لم تكف لسد الحاجة فى وقت المحصول ولذلك كانت السلطات المحلية تفرض على أصحاب الجمال والحمير والسفن الصغيرة أن تضع تحت تصرفها ما يكفيها من هذه الوسائل لنقل القمح الى النيل حيث كانت تتولى أمر شحنه ونقله منظمات الملاحين تحت اشراف الحكومة التى كانت تلزمهم بذلك ويبدو ان اليهود والاسكندريين كانوا يسهمون فى هذه العملية . ولكى نبين ضخامة هذه العملية حسبنا أن نذكر انه فى عام ٤٢ نقل من أحد أقسام مديرية الفيوم ربع مليون أردب من القمح ، وانه فى عهد أغسطس كان مقدار الجزية النوعية التى تدفعها مصر سنويا يبلغ عشرين مليون (modii) ، أى ستة ملايين أردب . وفى كل ربيع كانت نقابات أرباب السفن فى الاسكندرية تتولى نقل هذه الجزية النوعية من الاسكندرية الى روما . وليس من اليسير أن نبين على وجه الدقة من الذى كان يتحمل نفقات نقل الايجارات والضرائب النوعية من المزارع حتى تصل الى روما لكن يبدو أن مستأجرى

أراضي الدولة وأرباب الأراضي كانوا يتحملون نفقات النقل حتى النيل على حين كانت الحكومة تتحمل نفقات النقل من الموانى النيلية حتى المخزن الرئيسي عند الاسكندرية ومن هناك الى روما .

وكان الذين يلحقون أرضهم بساتين أو كروما أو تينا او بلحا أو زيتونا يخضعون لسلسلة من الضرائب تدفع نقدا . وكانت احدى هذه الضرائب (geometria) تدفع في الفيوم بمعدل ٥٠ دراخمة عن كل أرورة من أراضي الكروم و ٢٥ دراخمة عن كل أرورة من باقي انواع أراضي البساتين . لكن هذا المعدل لم يكن واحدا في كل مكان ولا على كل نوع من انواع الأراضي التي تدفع هذه الضريبة . وكانت أراضي البساتين تدفع ضريبة أخرى (apomoira) لا نعرف شيئا عن معدلها في مصر العليا لكننا نعرف انه كان في الفيوم ٣٠٠٠ دراخمة برونزية عن كل أرورة من أراضي الكروم و ١٥٠٠ دراخمة عن كل ارورة من باقي أنواع أراضي البساتين . وعندما كانت هذه الضريبة تجبى بالعملة الفضية كانهذان المبلغان يعادلانعلى التوالي عشر دراخمات وخمس دراخمات فضية . وكانت تجبى عن كافة أراضي البساتين سواء أكانت ملكا للدولة أم للأفراد ضريبة ثالثة (eparourion) بمعدل واحد قدره ٢٠٠٠ دراخمة برونزية (أي ٦ دراخمة فضية) عن كل أرورة من هذه الأراضي باستثناء الأراضي المغروسة بأشجار الزيتون فانها كانت تدفع ألف دراخمة عن كل أرورة .

وكانت تفرض على كافة أنواع الأراضي، ما عدا الأراضي القليلة فيما يبدو ، ضريبة (naubion) كان مقدارها لا يحدد تبعا لنوع غلة الأرض وانما تبعا لنوع ملكيتها . وكان أرباب هذه الأراضي يؤدون هذه الضريبة لقاء اعفائهم من العمل شخصيا في السخرة على الجسور والقنوات . وتروى الوثائق انه في مديرية الفيوم كان أرباب الاقطاعات يدفعون ١٠٠ دراخمة برونزية عن كل أرورة وباقي أرباب أراضي الامتلاك الخاص يدفعون ١٥٠ دراخمة برونزية عن كل أرورة لكن احدى وثائق أوكسيرينخوس من عام ١٠٧/١٠٨ تريبا ان معدل هذه الضريبة كان ٣٠٠ دراخمة عن كل أرورة . ويستوقف النظر ان مزارعي الأراضي الملكية كانوا يدفعون أيضا ١٥٠ دراخمة عن كل أرورة مما يوحي بأن هذه الفئة من الزارعين كانت تعفي من السخرة لقاء دفع هذه الضريبة التي لم تكتف بها الحكومة الرومانية من أجل انشاء وصيانة الجسور والقنوات . فقد كانت تفرض لهذا الغرض أيضا ضريبة (chomatika) بمعدل ثابت قدره ٦ دراخمات و ٤ أوبول على كل شخص غير معف من الضرائب .

وازاء الصلة الوثيقة بين الزراعة

والحيوان لعل هنا أنسب مكان للكلام عن موارد الحكومة من الحيوان في العصر الروماني . وقد مر بنا أن الدولة كانت تملك دوابا للحمل وليس في الوثائق ما يدل على أن الحكومة كانت تؤجر هذه الدواب للأفراد . وكانت الدولة تملك أيضا عددا كبيرا من الأغنام والماعز تشير الأدلة إلى أن الحكومة كانت تؤجرها لمستأجرى أراضيها لقاء أجر معين سنويا . وكذلك في القرن الثالث عندما أخذت الضياع الكبيرة تبتلع الملكيات الصغيرة وتلك الأجزاء من أراضى الدولة التى أصبح يتعذر استغلالها استغلالا مثمرا كان أصحاب هذه الضياع يؤجرون أغنامهم وماعزهم لمستأجرى أراضيهم.ويتبين من الوثائق أن عامة الأهالى كذلك كانوا يملكون الكثير من الحيوانات المستأنسة وأنه كان يتعين عليهم أن يقدموا سنويا للادارة المالية في المديرية التى يعيشون فيها تقريرا عما يملكونه منها وأن الحكومة كانت تجبى ضرائب على الأغنام والماعز والخنازير والجمال والعجول والحمير والخيول بمعدل معين في كل مديرية عن كل رأس من كل نوع .

رابعا ــ الحرف والصناعات :

لما كان هدف البطالمة هو أن يستمدوا من الصناعات والحرف أكبر قدر ممكن من الدخل فإنه لم يمل سياستهم في تنظيمها إلا تحقيق هذا الهدف . ومن أجل ذلك كانوا يتبعون ثلاث وسائل فقد كانوا إما يحتكرون بعض الصناعات والحرف احتكارا كاملا أو يبيعون لأحد الأفراد حق احتكار مزاولة صناعة أو حرفة ما في منطقة بعينها ، أو يسمحون لمن يشاء مزاولة صناعة أو حرفة بذاتها ويفرضون عليهم أداء ضريبة عن مزاولة عملهم ودفع نسبة من أرباحهم . وفي الحالة الأخيرة كان لا يحدد عدد المشتغلين في كل صناعة أو حرفة إلا عاملان كان أحدهما مقدرة كل منطقة على استيعاب انتاج أرباب الحرف والصناعات هناك . وكان العامل الآخر نقابات أرباب الحرف والصناعات فقد درجت نقابة أرباب كل حرفة أو صناعة على تحديد عدد المشتغلين بهذه الحرفة أو الصناعة .

وما زال تنظيم الحرف والصناعات في مصر أيام الرومان مثار جدل وخلاف بين العلماء بسبب قلة الأدلة وغموضها بحيث يتعذر الوصول الى نتائج قاطعة في ضوء معلوماتنا الحالية . وإذا كان يمكن القول بوجه عام بأنه في العصر الروماني اتبعت الحكومة في تنظيم واستغلال الحرف والصناعات الوسائل ذاتها التى كانت متبعة من قبل في عصر البطالمة فلا جدال في أنه قد طرأت بعض التغييرات على تلك الوسائل ، ولا في أن الحكومة نزلت عن عدد كبير من احتكاراتها الكاملة في عصر البطالمة ، فقد أورد هايشلهايم قائمتين بالاحتكارات الكاملة

في هذين العصرين ويتبين من هاتين القائمتين ان عدد هذه الاحتكارات كان تسعة عشر في عصر البطالمة وأحد عشر في العصر الروماني . وعلى كل حال فان قلة الأدلة عن نظم الاحتكارات في العصر الروماني يوحي بتناقص أهميتها في هذا العصر .

وليس في الأدلة ما يشير الشك في أن الحكومة الرومانية اقتفت أثر البطالمة في احتكار استغلال المناجم والمحاجر واستخراج الملح والصودا (nitron) والشبه (alum) . ولدينا أدلة محدودة على أن الرومان كانوا كالبطالمة يفرضون ضريبة على المستهلكين لقاء حق شراء الملح . ويبدو انه حينما كانت تجبى ضريبة لقاء استهلاك سلعة من السلع كانت الحكومة تحتكر صنع هذه السلعة أو استخراجها في تلك المنطقة . ويبدو أن صناعة الجعة في عصر البطالمة اتخذت بالتدريج شكل نظام يقوم على بيع حق انتاجها للأفراد أو المعابد وفرض ضريبة على المستهلكين ، وان هذا النظام ظل قائما في العصر الروماني وان كانت الدولة لم تعد تمد صناع الجعة بما كانوا يحتاجون اليه من الشعير على نحو ما كانت تفعل في عصر البطالمة .

وتوحي الأدلة بأنه في العصر الروماني لم تعد الحكومة تحتكر صناعة الزيت احتكارا كاملا على نحو ما كانت تفعل في عصر البطالمة ، فكل ما لدينا من الأدلة يشير الى أن معاصر الزيت كانت ملكا للأفراد أو المعابد والى أن المنتجين بوجه عام كانوا يقومون بدور تجار التجزئة . ويرى بعض الباحثين ان سيطرة الحكومة على هذه الصناعة في الفيوم كانت لا تتعدى الزام المنتج الذي يريد بيع زيته أن يحصل على ترخيص بذلك من التومارخ . والواقع اننا نعرف ان صاحب معصرة زيت في قرية عرقليا بالفيوم دفع لقاء حق البيع في عام واحد ٨٠ دراخمة فضية و ٨٠ أوبول الى جانب بعض الرسوم الاضافية . لكن الوثائق ترينا أيضا انه كانت تجبى أكثر من ضريبة واحدة على صناعة الزيت في الفيوم وغيرها من أنحاء البلاد . واذا كنا نعرف ان احدى هذه الضرائب كانت تجبى عن الأدوات المستخدمة في استخراج الزيت فانه يتعذر معرفة ماهية البعض الآخر . ولا يبعد ان الحكومة كانت تبيح الاشتغال بصناعة الزيت لمن يشاء على أن يدفع على الأقل ضريبتين كانت احداهما ضريبة مزاولة هذه الصناعة وكانت الأخرى ضريبة على الانتاج وتقدر على أساس الأدوات المستخدمة في ذلك ، هذا الى جانب ضريبة عن الترخيص ببيع الانتاج .

وتشير الأدلة الى أنه في بداية العصر الروماني كانت بعض مستنقعات الدلتا في حوزة الأفراد والى أنه في الفيوم كانت بعض المستنقعات على الأقل تكون جزءا من ضيعة الامبراطورة يوليا أغسطا وورثة جرمانيكوس ويتبين من الوثائق ان الامبراطورة كانت

تبيع منتجات هذه المستنقعات عن طريق ملتزم كان يشترى منها حق بيع هذه المنتجات وكان هذا الملتزم يبيع حقه لآخرين ، وان هــذا النظــام ظل متبعا بعــد ان آلت ضيعة الامبراطورة الى التاج . ويتبين من الوثائق أيضا ان الحكومة كانت تجبى ضريبة على الورق فى الفيوم وفى الاسكندرية . ولا يبعد أنه مثل ما كانت عليه الحال فى القرن الثانى من عصر البطالمة كانت توجــد فى العصر الرومانى مصانع حكومية وكذلك مصانع أهلية للورق وان هذه المصانع الأخيرة كانت تباع من الحكومة حق مزاولتها هذه الصناعة .

وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار فى مصر لكن أمــر تنظيمها يكتنفه غموض شديد وان كنا نعرف انه فى الوجه القبــلى كان المشرف عــلى الأنوال (histonarch) يعطى للناســجين تراخيص باقامة أنوالهم ومزاولة عملهم ، وان شخصا يدعى هرون قدم طلبا الى د اســون والتسعة المشرفين الآخرين ، عــلى تأجير احتــكار الدباغة للحصول على حق الاشراف لمدة عام واحــد على الأنوال فى قرية ارخلايس (Archelais) بالفيوم نظير أجر قدره ٣٠٠ دراخمة فضية تدفع على أقساط شهرية متساوية الى جانب بعض الرسوم الاضافية . ونعرف كذلك ان الناسجين سواء فى الفيوم أم فى مصر العليا كانوا يدفعون على أقساط شــهرية ضريبة يميل أغلب المؤرخين الى اعتبــارها ضريبة ترخيص لمزاولة المهنة لكنهم لا يتفقون عــلى الأساس الذى كانت هــذه الضريبة تربط بمقتضاه ولا على تفسير ما يبدو فى الوثائق من تفاوت فى قيمة هذه الضريبة من مديرية الى أخرى . ولما كانت أقمشة الفيوم تلعب دورا هاما فى الصادرات الى البلاد الشرقية على حين انه لم يرد ذكر أقمشة الوجه القبلى فى التجارة الخارجية فان أحــد الباحثين لا يستبعد ان الانتاج من أجل التصدير فقط كان يخضع لرقابة المشرف على الأنوال وقد كنا نقبل هذا الرأى لو أن المشرف عــلى الأنوال لم يوجد الا فى الفيوم وحدها لكننا وجدناه فى الوجه القبلى كما مر بنا ذكره . ومن ناحية أخرى تبين من وثائق لم يعثر عليها فى الفيوم فحسب بل أيضا فى أوكسيرنخوس وهرموبوليس ان الحكومة كانت تفرض على المشتغلين بالنسيج فى كل منطقة امدادها بقدر معين مما تحتاج اليه من ملابس لرجال الجيش والشرطة وغيرهم لقاء أجر معين ، مما يوحى بأن هــذه التيمة لم يتحملها الناسجون فى مديرية بعينها فقط وانما فى كل أنحــاء البلاد . واذا كان ما لدينا من أدلة لا يدع مجالا للشك فى اشراف الحكومة على صناعة النســيج واستغلالها اســتغلالا كبيرا فان غموض الأدلة لا يدع مجالا لتبين أمــر تنظيمها الذى يبدو انه كان أكثر تعقيدا من صناعة الدباغة التى كانت تتصل بها اتصالا وثيقا ويبدو ان الحكومة كانت تبيع لشخص

واحد أو أكثر حق الاشتغال بها فى منطقـــه بعينها . ويلوح ان ذلك كان الحال أيضا فى صناعات الآجر والحلى الذهبية والعطـــور والمساحيق . فالوثائق تحدثنا عن تعهد شخص بأن يدفع للحكومة ثمانين دراخمة فضية الى جانب بعض الرسوم الاضافية نظير حق صنع وبيـع الآجـر لمدة ســنة فى كركتويريس (Kerkethoeis) بالفيـــوم مع السمـــاح له بامضاء هذا الحق لآخرين ؛ وعن رجلين كانا يدفعان للحكومة ٣٦٤ دراخمة فضية سنويا نظير صـــناعة الحلى الذهبيـــة فى يوهيميريا (Euhemeria) بالفيـــوم لمدة أربع سنوات ؛ وعن رجـل يدعى كاستور كان قد اشترى من الحـــكومة نصف الحصة فى حق بيع العطور وصنع المساحيق فى اقليم ثيمستس بالفيوم فتقدم اليه رجـل يدعى سترابيون ليشترى منـه ربع هذا الحق باستثناء حق البيع فى أيام السوق والأعياد .

وكانت الحمامات العامة فى الوجه البحرى ملكا للاهالى أو البلديات أما فى الوجه القبلى فكانت تملكها الحـكومة أو تسيطر عليها المعابد . وفى الوجه البحرى كان أصـــحاب الحمامات يدفعون للحـــكومة ضريبة قدرها ثلث الأرباح أو ثلث الدخل أما فى الوجه القبلى فكان الأهالى يدفعون ضريبة ثابتة لمواجهة نفقات الحمامات العامة وصيانتها .

والأدلة الخاصة بصيد الأسماك مقصورة على منطقة الفيوم ويتبين منها أن الحكومة كانت تبيع حق مزاولة الصيد فى كل منطقة وكذلك كان الذين يشتغلون بالملاحة فى النيل يبتاعون من الحكومة حق مزاولة عملهم فى منطقة معينة .

ولا يتســع المقـام هنا لتناول مختلف الصناعات والحرف ويبدو أن كل ما يمكن استخلاصـــــه من الأدلة هو أنه اذا كانت الحكومة الرومانية قد نزلت عن كثـــير من الاحتكارات التى كانت قائمة فى عهد البطالمة فانها قد احتفظت ببعض هـــذه الاحتكارات وظلت على كل حال قابضة على ناصية مزاولة الحرف والصناعات المختلفة الى حد انه كان لا يتيـــسر لأحد مزاولة أى حرفة أو صناعة الا بترخيص من الحكومة اما لقاء نسبة من الأرباح أو الدخل أو لقاء أجر ثابت ، وفى بعض الحـــالات لقاء الاثنين معا . وكانت الحكومة اما تعطى الترخيص مباشرة للذين يزاولون بأنفسهم أى حرفة أو صـــناعة أو تؤجر حق مزاولة صناعة أو حرفة ما أى بعبارة أخـــرى حق احتكار تلك الصناعة أو الحرفة فى مدينة أو قرية لشخص واحـــد أو جماعة من الأشخاص لقاء ما كانت تحصل عليه لو أنها منحت التراخيص لأفراد مختلفين فى ذلك المكان . وكان هؤلاء المســتأجرون اما يباشرون بأنفسهم حق مزاولة الحـــرفة أو الصـــناعة أو يؤجـرون ذلك الحق من الباطن . وجملة القول ان كل من كان يزاول أى حرفة أو صناعة كان يدفع عنها للحكومة

ضريبة واحدة أو أكثر وحتى الذين كانوا يتعلمون الحرف والصناعات كانوا يدفعون هذه الضريبة بمجرد بلوغهم سن الرشد وكان كل الذين يزاولون صناعة أو حرفة من الصناعات والحرف الرئيسية يؤلفون نقابة سواء أكانوا رجالا أم نساء وكانت النساء تؤدي الضرائب المفروضة على أعضاء النقابة أسوة بالرجال .

خامسا ـ التجارة

(أ) التجارة الخارجية :

تشير الدلائل الى أن الاسكندرية غدت في العصر الروماني أهم مركز تجاري في شرق البحر الأبيض المتوسط . ولما كان الرومان قد الغوا المكوس الجمركية عندهم وكانوا يريدون تشـــجيع التجـــارة بين مصر والامبراطورية الرومانية بوجه عـام وروما بوجه خاص فلا يبعد أن يكونوا على الأقل خفضوا المكوس الجمركية الفادحة التي كان البطالمة يفرضونها على الواردات الأجنبية من بلاد البحـــر الأبيض المتوسط . ويحـدثنا استرابون بأن السفن كانت تبحر من مصر الى روما مكتظة بالبضائع وتعـــود اليها خالية الوفاض أو بشحنات قليلة . واذا كنا لا نشك في صحة رواية استرابون عن الوقت الذي كتب فيه أي في بداية العصر الروماني فانه ازاء قلة الأدلة يتعذر علينا أن نقرر على وجه اليقين اذا كانت الحال قد استمرت على هذا المنوال بعـد ذلك ولم تزد الواردات من الغرب ، لكننا نميل الى الاعتقاد ان الحال استمرت طوال العصر الروماني على ما كانت عليه أيام استرابون . وذلك لأن مصر بفضل غنى مواردها الطبيعية لم تفتقـــر الا الى الأخشاب الجيـــدة والمعادن وتبعـــا لذلك اقتصرت وارداتها من الغرب بوجه عام على هذه المواد فضلا عن بعض أدوات الترف .

أما صادرات مصر الى بلاد البحر الأبيض المتوسط فانها كانت تشمل الى جانب السلع الشرقية مقادير مختلفة من منتجاتها الصناعية مثل الورق والزجاج والمنسوجات والعقاقير ، ومن منتجاتها الزراعية مثل الزهور والبلح فضلا عن الحمام والمواشي من أجل تقديم القرابين وكذلك التماسيح وعجول البحر وغيرها من الحيوانات المائية من أجـــل الاستعراضـات . ويحتمـل أن مصر كانت تصدر كذلك جانبا من حبوبها علاوة عـلى الجزية السنوية التي كانت روما تقتضيها منهـا .

ويجب الا يفوتنا أن الجـــزية النوعية والمالية كانت تلقى على موارد البـلاد عبئا ثقيلا كان لابد من أن يؤدي سريعا الى نضوب معين البلاد لو لم يعوض الى حد بعيد وسائل كان في مقدمتها زيادة الصادرات على الواردات والمكوس الجمركية وأرباح تجار الاسكندرية من التجارة الشرقية ونفقات السياح الذين كانوا يفدون بكثرة لمشاهدة معالم البـلاد والاستمتاع بطقسها وكذلك نفقات الطلاب

الذين كانوا يأتون لتلقي العلم في الاسكندرية ، فضلا عن نفقات جيش الاحتلال والأداة الحكومية وإقامة المنشآت العامة . وبفضل قلة تكاليف المعيشة وبالتالي قلة تكاليف الانتاج استطاعت منتجات مصر الصناعية والزراعية أن تنافس منتجات عالم البحر الأبيض المتوسط . وإذا تركنا الجزية جانبا يبدو أن الميزان التجاري كان في صالح مصر .

ويروي استرابون أيضا ان الاسكندرية كانت تحتكر التجارة مع الهند وبلاد الصومال . ومن المرجح أن جانبا كبيرا من التجارة بين الامبراطورية الرومانية والبلاد الشرقية كان يمر بمصر . ويحدثنا بلينيوس بأن التجارة مع الصين والهند وبلاد العرب كانت تستنزف سنويا من الامبراطورية الرومانية قدرا غير قليل من ذهبها وفضتها ، ومن الجائز ان المبلغ الذي ذكره بلينيوس لا يمثل ثمن كل الواردات الشرقية لأنه وفقا لهذا الكاتب نفسه كانت مصر تصدر منسوجاتها الكتانية لقاء وارداتها الشرقية . ويتبين من مصادر أخرى ان مقادير الصادرات الى الشرق كانت كبيرة . ويحدثنا استرابون بأنه كانت تجبى مكوس جمركية على السلع الواردة الى مصر من الشرق والصادرة اليه وبأن أثمن الشحنات القادمة من الهند والحبشة وأغلى السلع ثمنا كانت تدفع أكثر المكوس الجمركية ارتفاعا مما يوحي بأن فئات المكوس الجمركية كانت تتفاوت تبعا لقيمة السلع المستوردة . لكن من الجائز أن يكون هذا النظام قد تغير بعد عهد اغسطس الذي كتب فيه استرابون فأحد مصادرنا القديمة الذي يرجع قطعا الى تاريخ متأخر عن منتصف القرن الأول الميلادي يحدثنا بأن الحامية الرومانية في ليوكي كومي (Leuke Kome) كانت تجبى على الواردات مكوسا جمركية ثابتة قدرها ٢٥٪ من قيمتها . وقد أثير جدل كبير حول هذه المكوس التي كانت تجبى في ليوكي كومي لكنه لم يثر من الاعتراضات الجدية ما يدعو الى التشكك في جباية هذه المكوس المرتفعة هناك . ومع أنه لا توجد أدلة مباشرة عن المكوس الجمركية التي كانت تجبى في المواني المصرية الواقعة على شاطىء البحر الأحمر ، الا أنه في ضوء الرسوم الجمركية التي فرضها الرومان في ليوكي كومي لا يبعد أن يكون الرومان قد استبدلوا بالنظام البطلمي الذي كان يفرض مكوسا جمركية متفاوتة على السلع المختلفة وكان لا يزال قائما فيما يبدو أيام استرابون ، نظاما قوامه فرض مكوس جمركية ثابتة قدرها ٢٥٪ على مختلف السلع الشرقية الواردة الى المواني المصرية . وعلى كل حال لا جدال في أن الرومان كانوا يجبون في المواني المصرية مكوسا جمركية على التجارة الشرقية ، فالوثائق تحدثنا بأنه في عهد الامبراطور كلاوديوس كان حق التزام هذه

المكوس يباع لجماعات من الملتزمين الرومان .
واذا كان من العسير معرفة قيمة هذه المكوس الجمركية فانه من الجائز ان المكوس الجمركية على الواردات الشرقية كانت أعلى منها على الصـــادرات الى الشرق تشجيعا لهـــذه الصادرات لكي ينقص تبعا لذلك العجز في الميزان التجاري بين الامبراطورية الرومانية والبـــلاد الشرقية . ويحدثنا بلينيوس بأن السلع الشرقية كانت لا تصل الى روما الا بعد أن يتضاعف ثمنها مائة مرة مما يوحي بارتفاع المكوس الجمركية في مصر — طريقها الرئيسي الى رومـــا — وضـــخامة أرباح تجار الاســـكندرية الذين كانوا يقومون بدور رئيسي في هذه التجارة .

ومن العسير أن نتبين في ضوء معلوماتنا الحالية النظام الذي كان متبعا في صادرات مصر ووارداتها في العصر الروماني أو الى أي مدى كانت الحكومة تشرف على تجارة مصر الخارجية لكن من المرجـــح ان كل من كان يشتغل في هذه التجارة كان يدفع للحكومة ضريبة أو أجرا لقاء الترخيص له بذلك أسوة بما كان متبعا في التجارة الداخلية .

(ب) التجارة الداخلية :

ويتبين من الوثائق انه كان يتعين على كل من يبيع أي سلعة أن يحصل من الحـــكومة على ترخيص بذلك وأن يدفع للحكومة مبلغا معينا كل شهر أو كل سنة . ومن العسير أن نتبين أساس تقدير هذا المبلغ لأنه كان يتفاوت في المكان الواحد تبعا لنوع السلعة كما كان يتفاوت كذلك من مكان الى آخر عن السلعة الواحدة . ومثل ذلك انه كان يتعين على كل من يبيـــع الزيت في أرســـينوي أن يدفع للحكومة ثماني دراخمات شهريا عـــلى حين نرى انه في أوكســـيرنخوس كان المحتكر لا يدفع الا ست دراخمات في العام لقاء حق بيع الزيت . وقد سلفت الاشارة الى الرجل الذي تعهد بدفع ٨٠ دراخمة فضية و ٨٠ أوبول في العام لقاء حق بيع الزيت بالتجزئة في قرية عرفليا بالفيوم . وهكذا نرى انه اذا كانت الحكومة أحيانا تسمح لمن يشاء الاتجار في الزيت بأن يفعـــل ذلك ما دام يدفع لها ضريبة الترخيص بذلك كانت أحيانا أخـــرى تســـمح لشخص واحد باحتكار البيع في منطقة معينة . وكانت الحكومة تمنح حق بيع الملح في كل منطقة لمن يتقدم لها بأكبر عطاء لقاء الحصول على هذا الحق .

وكان بائعو الخضروات في معبـــد قرية ســـوكنوبايونيسوس (Sohnopaiou Nesus) بالفيوم يدفعون ١٢ دراخمة على حين يبدو ان بائعي الخضروات في قرية تبتونيس بالفيـــوم أيضا كانوا يدفعون ثماني دراخمات وثمانية أوبولات . ونلاحظ أن تجار المساحيق في أرسينوي كانوا يدفعون الضريبة أحيـــانا بمعدل ٣٦ دراخمة شهريا وأحيـــانا أخرى بمعدل ٦٠ دراخمة بل انه في الشـــهر الذي

كانوا يدفعون فيه ٣٦ دراخمة كان شخص آخر يدفع ثماني دراخمات فقط على حين كان المعدل في أوكسيرينخوس ٤٠ دراخمة . ونجد انه بينما كان بائعو الجعة يدفعون ١٦ دراخمة شهريا كان أحد أولئك البائعين يدفع ثماني دراخمــات فقط . وفي بعض الحالات كان ترخيص الحكومة بانتاج سلعة ما يشــمل أيضا بيعها مثل الآجر والحلى الذهبية على نحو ما رأينا عند الكلام عن الصـــناعات والحرف .

ويتبين من المصادر القديمة أنه كان يوجد مركز عند منخيا لجباية العوائد على التجارة المتبادلة بين الاسكندرية وداخلية البــلاد ، ومراكز في منف لجباية العوائد على التجــارة بين مصر الوســطى والدلتــا ، ومركــز في هرموبوليس لجباية العوائد على التجارة بين مصر العليا ومصر الوسطى . ومعنى ذلك أن الرومان كانوا يجبون عوائد على التجــارة المتبادلة بين الثلاثة الأقســام الرئيسية التي كانت البلاد تنقسم اليها وكذلك بين هــذه الأقسام والاسكندرية باعتبارها وحدة منفصلة عن هذه الأقسام .

ويتبين أيضا من مصادرنا أنه كانت تجبى كذلك عوائد عن تبادل الســلع بين مديرية وأخرى . والى جانب ذلك كانت تحصــل رسوم اضافية في بعض أنحاء البلاد لتحقيق أغراض مختلفة ، ففي الفيوم مثلا كانت تجبى رسوم لحراسة الطرق الصحراوية وفي منف وأسوان كانت تجبى رسوم لصيانة الميناء أما في قفط فانه كانت تحصل رســوم على جوازات السفر من هذه المدينة وموانى البحر الأحمر . وكانت هذه رسوم تتفاوت تبعــا لحالة كل مسافر ، فقد كان قائد السفنة يدفع ١٠ دراخمات والبحــار العادي ٥ دراخمات وبناء السفن ٥ دراخماتوالصانع ٨ دراخمات والعاهرة ١٠٨ دراخمة وزوجة الجندي ٢٠ دراخمة الخ .. فقد كان يتعين الحصول على رخيص لمغادرة البلاد وتفرض غرامات على الذين لا يحترمون هذه القاعدة

سادسا ـ ضرائب شتى

والى جانب ما ذكرناه من الضرائب على الأراضي والحرف والصناعات والتجارة كانت الحكومة تجبى كذلك سلسلة من الضرائب المختلفة اذ يبدو أن الرومان لم يتركوا بابا دون أن يطــرقوه لزيادة دخــل الحكومة . ويمكن أن نوجــز بعــض هــذه الضرائب فيما يلي :

١ ــ ضريبة الرأس (laographia) وكانت أهم الضرائب التي تدفع نقدا ولعلها لم تكن ضريبة استحدثها أغسطس وانما ترجــع الى عصر البطالمة عندما كانت تعرف باسم آخر (Syntaxis) . ومن الجائز أن يكون أغسطس قد زاد معدلها وفرضها على أشخاص كانوا معفين منها حتى عهده ، فأول وثيقة ورد فيها ذكر أداء هذه الضريبة في العصر الرومــاني ترجع الى عــام ٢٢/٢١ ق . م . وقد كانت هذه الضريبة لا تدفع بمعدل واحد حتى في

المديرية الواحدة ولا في المدينة الواحدة فقد اختلف هذا المعدل من حي الى آخر في مدينة طيبة . وفي الفيوم كان المصريون يدفعون ٤٠ دراخمة أما أفراد الفئات المتازة من مواطني عواصم المديرية وسلالة أرباب الاقطاعات فكانوا يدفعون ٢٠ دراخمة . على حين يبدو أنه في مديرية أوكسيرينخوس كان المصريون يدفعون ١٦ دراخمة والفئات الممتازة ١٢ دراخمة ، وانه في مديرتي منف وهرموبوليس كانت هذه الفئات تدفع ٨ دراخمات . وهكذا يتبين أولا ، أن هذه الضريبة لم تفرض بمعدل واحد في كل أنحاء البلاد سواء على المصريين أم على الفئات الممتازة . وثانيا ، أن هذه الفئات لم تدفع دائما نصف ما كان المصريون يدفعونه . وثالثا ، انه في بعض المديريات كانت الفئات الممتازة تدفع أكثر مما يدفعه المصريون . أما المواطنون الرومان وعدد معين من كهنة كل معبد ومواطنو الاسكندرية وفيما يبدو أيضا مواطنو المدن الاغريقية الاخرى فانهم كانوا يعفون من تلك الضريبة التي كان لا يدفعها الا الذكور الذين كان عمرهم يتراوح بين الرابعة عشرة وسن الاعفاء . ويرجح أن هذه السن كانت في ارسينوى الستين لكن يبدو أنها زيدت الى الخامسة والستين ثم السبعين فيما يلوح . ويبدو أنه كان يعفى أيضا من ضريبة الرأس أساتذة جامعة الاسكندرية والرياضيون والفائزون في مباريات الحفلات الدينية وكذلك بعض موظفي الادارة المحلية مثل الكاتب الملكي وكاتب الاقليم وكاتب القرية .

٢ — ضريبة التاج ، وتشير القرائن الى زوال هذه الضريبة بعد منح حقوق المواطنة الرومانية لكل سكان البلاد في عهد كركلا . وترجع هذه الضريبة الى عهد البطالمة وتستمد نشأتها من تقديم هدية للملك نوعا أو نقدا بمناسبة ارتقائه العرش أو بمناسبة أخرى . ويحتمل انه في أوائل عهد الرومان كانت هذه الضريبة لا تجبى الا في مناسبات خاصة لكننا تبين من الوثائق أنه منذ أواخر القرن الثاني أصبحت هذه الضريبة تجبى سنويا بانتظام حتى النصف الثاني من القرن الثالث عندما أصبحت تجبى كل خمس سنوات . وقد شهدت هذه الضريبة تطورا آخر وهو أنها على مر الزمن أصبحت تجبى من جميع أرباب الأراضي بدلا من جبايتها من فريق معين منهم. وقد وعد الامبراطور سفروس اسكندر بوقف جباية هذه الضريبة لكن يبدو أنه لم يلبث أن عدل عن ذلك لأن الوثائق ترينا أنها جبيت على الأقل مرتين في عهده بعد صدور هذا الوعد .

٣ — ضريبة خاصة لاقامة تماثيل للاباطرة ، فمن حين لآخر كانت تجبى أيضا ضريبة لاقامة تماثيل للامبراطور الحاكم في مختلف المدن . وتبين من سلسلة من الوثائق عثر عليها في أسوان أن هذه الضريبة جبيت

هناك في عامي ١٠٤ و ١١٤ لاقامة تماثيل لتراجان ، وفي عام ١٢٨ لاقامة تمثال فيما يبدو لهادريان وفي ١٤١ لاقامة تمثال لانطونينوس بيوس ، وفي عام ١٦٢ لاقامة تمثال لكل من أوريليوس وقيروس وذلك عدا جبايتها في الأعوام ١٣٦ و ١٣٩ و ١٤٤ لطلاء بعض تماثيل الأباطرة بالذهب . وقد كان مقدار هذه الضريبة قليلا اذ أن أكثرها ارتفاعا كان أربع دراخمات في عام ١٤١ وعشر دراخمات في عام ١٦٢ لكن مهما كان مقدارها قليلا فلا شك في أن تكرار جبايتها كان يلقي عبئا ثقيلا على كاهل الأهالي الذي أبهظته كثرة الضرائب . وتشير القرائن الى أنه كانت تجبى ضريبة مماثلة من أجل اقامة معابد للاباطرة .

٤ — وكان الرومان يفرضون ضريبة قدرها ٢٪ على كل ما يباع في الأسواق وكذلك ضريبة على بيع الممتلكات الثابتة يبدو أن مقدارها طوال القرنين الأول والثاني كان ١٠٪ من ثمن الشراء ثم زيدت في القرن الثالث . وكان الرومان يفرضون على الرهونات ضريبة قدرها ٢٪ . أما ضريبة ٥٪ التي كانت تجبى عن تحرير الأرقاء والتركات فانها كان لا يدفعها الا المواطنون الرومان ولم تتأثر بها مصر الا عندما منح كركلا حقوق المواطنة الرومانية لكل السكان في مصر مع باقي سكان الامبراطورية .

٥ — مؤنة الجنود الرومان ، ان معلوماتنا ضئيلة عن الوسائل التي اتبعها الرومان في مصر حتى أواخر القرن الثاني من أجل توفير المؤونة اللازمة للحامية الرومانية لكن القرائن توحي بأن الحاكم العام كان يحدد سنويا كمية الحبوب التي يحتاج اليها كل معسكر ويفرض على بعض الزراع في كل مديرية تقديم تلك الكمية بسعر منخفض يحدده الحاكم العام . ولا بد من أن يكون الأهالي قد ضجوا بالشكوى من هذا النظام لأننا نجد أنه في عام ١٨٥ قد استبدلت به ضريبة عينية (annona militaris) على أرباب الأراضي التي تزرع حبوبا . وكان الأهالي يكلفون أيضا بايواء الجنود الذين كانوا ينزلون بيهم في أثناء انتقالهم من مكان الى آخر . ويبدو أن الجنود كانوا يسيئون استغلال هذا الحق فقد وصل الينا عدد من الأوامر التي اضطر الحكام الى اصدارها لتحذير الجنود من اقتضاء أموال أو خدمات من الأهالي دون الحصول على اذن خاص بذلك ولبيان أن حقهم كان مقصورا على ايوائهم فقط

وكان يفرض على الأهالي أيضا توفير الحاجيات اللازمة للحاكم العام وصحبه عند طوافهم بأنحاء البلاد ، وكذلك للامبراطور وحاشيته عند زيارته مصر وتنقله في أرجائها . وقد كان ذلك عبئا ليس هينا اذ تحدثنا احدى الوثائق بأنه بمناسبة زيارة الحاكم العام لهرموبوليس أدرجت أسماء ٥٣ شخصا لاعداد الاحتياجات اللازمة وكانت تتضمن خبزا ولحما وسمكا ودواجن وبقالة ووقودا

فضلا عن علف دواب الحاشية والحمير اللازمة للانتقالات المحلية . واذا كان ذلك الشأن فى حالة زيارة الحاكم العام فانه يمكننا أن نتصور ما كان الأهالى يتكلفون نتيجته فى حالة زيارة الامبراطور .

٦ — ويمكن اعتبار تسخير الأهالى للعمل فى تطهير الترع وصيانة الجسور ضريبة ثقيلة يبدو أنه لم يعف من ادائها الا الرومانيون والاسكندريون والفئات التى كانت تدفع نقدا ضريبة السخرة (naubion) . وكان نظام السخرة يختلف من مكان الى آخر اذ بينما كان يفرض على الفلاح فى طيبة أن يشتغل فى تطهير أو صيانة مساحة معينة تسمى naubion كان يطلب منه فى الفيوم أن يشتغل عددا معينا من الأيام كان عادة خمسة أيام كل عام فى الفترة الواقعة بين بداية يوتية ومنتصف أغسطس .

وكانت هناك ضرائب محلية للخفر أو الشرطة ومواجهة نفقات المنشآت العامة مثل الحمامات والأسواق والمعابد وغير ذلك . هذا الى أنه من حين لآخر كانت تجبى ضرائب اضافية لسد العجز فى حصيلة بعض الضرائب التى كانت تجبى بانتظام . وفضلا عن ذلك كانت تفرض ضرائب على فئات معينة من سكان البلاد لا تدفعها فئات اخرى مثل ضريبة اليهود وضريبة أرباب الاقطاعات وضريبة الشرطة .

ومما يجدر بالملاحظة أنه فى بداية العصر الرومانى كان معدل الضرائب معتدلا لكن على مر الزمن زيد معدل الضرائب وعددها ولما لم يكن فى وسع موارد مصر ولا نفقات روما على شئون الادارة والمنشآت العامة سد كل العجز الناجم عن الجزية النوعية والنقدية التى كانت روما تستولى عليها فقد استتبع ذلك حتما خراب البلاد الاقتصادى .

سابعا ـ نظام جباية الضرائب

يتسم نظام الرومان الضريبى فى مصر بظاهرتين واحدهما انه باستثناء بعض الضرائب لم يفرض على كل انحاء البلاد دفع الضرائب ذاتها ولا بمعيار واحد فكانت أنواع الضرائب وكذلك معاييرها تختلف من مديرية الى آخرى .

والظاهرة الأخرى أنه لم يتبع نظام واحد فى جباية الضرائب . فقد اتبع الرومان جباية الضرائب بطريق الالتزام حتى عصر تيبريوس عندما نسمع للمرة الأولى عن جباة موظفين (praktores) الا ان هذا النظام الجديد لم يقض على سابقه بأكمله فقد ظلت بعض الضرائب مثل العوائد والمكوس الجمركية وضريبة ٢ ٪ على المبيعات تجبى حتى أواخر القرن الثانى وفقا للنظام القديم .

وحتى نهاية القرن الثانى كان كاتب كل قرية يعد كشفا بأسماء اهلها الذين لديهم نصاب معين ويختار القائد من بينهم جباة كانوا يؤدون عملهم لمدة ثلاث سنوات بعد أن يوافق حاكم القسم (epistrategos) على اختيارهم . وكان أولئك الجباة يعتبرون مسئولين عن أى عجز فى حصيلة الضرائب المقررة على منطقة

كل منهم ولذلك كانوا يوغلون فى جمع الضرائب تفاديا لحدوث هذا العجز . ويحدثنا فيلون بأن قرى بأكملها هجرت بسبب ما أنزله جباة الضرائب من ارهاق بأهلها .

وكان هؤلاء الجباة لا يتولون أمر ضريبة الحبوب اذ أنه حتى نهاية القرن الثانى كان أمناء المخازن (sitologoi) هم الذين يتسلمون هذه الحبوب ، على حين يبدو أن مهمة جباة الحبوب (praktores sitikon) كانت مقصورة على جمع متأخرات هذه الضريبة . أما فى القرن الثالث فان الموظفين الذين كانوا يدعون (dekaprotoi) هم الذين كانوا مسئولين عن جمع هذه الضريبة ويتعذر علينا أن نتبين علاقتهم بأمناء المخازن وجباة الحبوب . وللتفرقة بين جباة الحبوب والجباة الذين كانوا يجبون الضرائب النقدية أطلق على الفريق الأخير منذ عهد تراجان اسم جباة المال (praktores argyrikon).

الفصل السادس

النظـام القضـــــائى

لقد مر بنا أن البطالمة احتفظوا للمصريين، بقدر ما تسمح الظروف ، بقوانينهم التقليدية التى أطلق الاغـريق عليها اسـم « قوانين البلاد » . وتشير القرائن الى أن الرومان قد أبقوا على هذه القوانين بوجه عام ، اذ أنهم عدلوا بعضها مثل ما عدل البطالمة أيضا بعضا آخر .

وقد عرفنا كذلك أن الغرق كل مدينـة اغريقية وجمعية قوميـة كانوا يخضعـون لمجموعة معينة من القوانين تعرف « بقوانين المواطنين » وانه من أجل التنسيق بين هـذه المجموعات من القوانين وكذلك من أجـل تنظيم معاملات الاغريق الذين لم ينتموا الى تلك المدن والجمعيات كان البطالمة يصدرون أوامر ملكية مختلفـة الأنواع . وقد أبقى الرومان على بعض هذه الاوامر الملكية كما أبقوا على قوانين الاسكندرية وبطوليميس وكذلك على قوانين نقراطيس التى طبقوها فى انطينوؤبوليس ، لـكنهم أدخـلوا بعض التعديلات على القوانين المعمول بها .

وسبق القـول بأنه تنظيما للفصـل فى القضايا التى تنشب بين طرفين أحدهما مصرى والآخر اغريقى أصـدر بطليموس الثـامن يورجتيس الثانى فى عام ١١٨ ق . م . قرارا يقضى بأن لغة العقد موضوع الخـلاف هى التى يجب أن يتقرر بموجبها نوع القـانون الذى يطبق للفصل فى هذا الخلاف . ولسنا نعرف الى أى حد طبقت هـذه القـاعدة فى العصر الرومانى وان كنا نعرف أن قاعـدة مماثلة كانت تطبق على الأقل فى قضايا الزواج وذلك أنه فى حـالة عقـد زواج مصرى بين طرفين أحدهما مصرى والآخر اغريقى كانت أحكام القانون المصرى هى التى تطبق أما فى حالة عقـود الزواج الاغـريقى فان أحكام القانون الاغريقى هى التى كانت تطبق .

وبطبيعة الحال ازاء ظهور عنصر جـديد من السكان فى العصر الرومانى وهو عنصر المواطنين الرومان دخل القـانون الرومانى مصر لتطبيقه على أولئك المواطنين وصدرت بعض القوانين لتنظيم العلاقات القانونية بين المواطنين الرومان وسكان مصر الذين كانوا أكثرهم فى نظر الرومان أجانب (peregrini) ، وكذلك لبيان الاختصاصات القانونية التى أعطيت للحاكم العام واعـادة تنظيم الهيئات

القضائية التي كان من حقها الفصل في القضايا .

ومما يجدر بالملاحظة أن القوانين المحلية قد تأثرت بالقانون الروماني عن طريق تشريعات الأباطرة وقرارات الحكام وأحكام المحاكم .

أولا ـ القانون المدني :

١ ـ الأحوال الشخصية :

ولما كان الرومان مثل الاغريق يعتبرون المرأة قاصرا ومن ثم في حاجة الى وصي شرعي عليها في كل تصرفاتها فان المرأة المصرية لم تسترد في العصر الروماني مكانتها القديمة بل بقيت على حالها منذ ساوى البطالمة بينها وبين المرأة الاغريقية . ولا سبيل الى الشك في ان المصريين كانوا يعرفون في العصر الروماني « الزواج الكامل » و « زواج المتعة أو التجربة » وهما نوعا الزواج اللذان سبق الكلام عنهما في سياق الحديث عن الزواج عند المصريين في عصر البطالمة .

وكما كانت عليه الحال في عصر البطالمة كان اغريق الاسكندرية وبطوليميس في العصر الروماني يعرفون عقدين أحدهما مدني والآخر ديني ، وكان باقي الاغريق يعرفون نوعين من العقود وهما « عقود الاتفاق » و « عقود المباشرة » وكانا نوعين من التوثيق لنوع واحد من الزواج . لكن كثيرا ما كان يكتفي بتحرير « عقد الاتفاق » وحده دون تحرير « عقد المباشرة أيضا » .

وكان يثبت قيام الزوجية عند الرومان المباشرة الزوجية وعقد الزواج الذي كان يسجل في سجلات خاصة تعرف بسجلات الزواج .

ووفقا لأحكام القانون عند المصريين والاغريق والرومان سواء بسواء كان لكل من الطرفين حق الطلاق . وكان الطلاق يتم بمجرد انفصال الطرفين وتحرير وثيقة من صورتين يثبت فيها أنه لم يعد لأحد الطرفين حقوق قبل الطرف الآخر وبذلك كان يحق لكل منهما أن يعقد زواجا جديدا .

واذا كان مسموحا قبل العصر الروماني اتخاذ أكثر من زوجة واحدة فانه لم يعد عندئذ مسموحا بذلك لأي عنصر من عناصر السكان في مصر ، لكنه كان مسموحا لغير الرومان بتزاوج الاخوة من أخواتهم الى أن اختفت هذه العادة القديمة بعد القرن الثالث الميلادي .

وتشير القرائن الى أن الزواج بين الاغريق والمصريين كان غير معترف به في الاسكندرية وقراطيس وبطوليميس بدليل أن هادريان أصدر قانونا لاباحته في انطينوي بوليس وان لوائح الايديولوجوس كانت تعتبر الزواج بين « المواطنين » (astoi) والمصريين زواجا غير متكافىء . وتدل كثرة الزيجات المختلطة في الريف على أن القانون لم يحظرها هناك .

وأكثر حالات الزواج بين الرومان كانت بين طرفين رومانيين وتعتبر مشروعة (iusta matrimonia) ومع ذلك كثيرا ما تزوج مواطنون رومان من أجانب لكن هذه الزيجات كانت تعتبر غير مشروعة (iniusta matrimonia) وكان الأبناء ثمرة هذه الزيجات يعتبرون أجانب ويحملون أسماء أجنبية .

ويفرق القانون عند المصريين والاغريق والرومان تفريقا واضحا بين الأحرار والعبيد

وكان العبيد في العصر الروماني ثلاث فئات وهي عبيد الامبراطور وعبيد الأفراد وعبيد المعابد الذين خلفهم فيما بعد عبيد الكنيسة .

وقد كان من حق المصريين والاغريق والرومان عمل وصيات . وكانت وصايا الرومان تحرر باللاتينية ثم تترجم الى الاغريقية الى أن أصدر اسكندر سفروس قراره بتحرير وصايا الرومان باللغة الاغريقية على نحو ما كان يفعل المصريون والاغريق . وكانت وصايا الجنود الرومان وقدماء المحاربين تخضع لقواعد عسكرية خاصة . وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون المصري يرتب الورثة طبقات تأتي في مقدمتها طبقة الأولاد ، وكان يحق للابن الأكبر أن يأخذ نصيبا يعادل ضعف نصيب أخيه الأصغر الذي كانت أخته تتساوى معه في مقدار النصيب . وكان من حق الأحفاد الحصول على نصيب أبيهم اذا توفي قبل جدهم . وفي حالة عدم وجود وصية كان القانون الاغريقي يعطي الأبناء الأسبقية في وراثة آبائهم ، وكانت أنصبة الأبناء متساوية ويحق للبنات المشاركة في الارث اذا لم يكن قد أخذن مهورهن . وفي حالة زواج مواطنة من أجنبي كان قانون الاسكندرية لا يسمح لأبناء هذا الزواج بأن يرثوا أمهم . وفي حالة عدم وجود أبناء وأحفاد كان حق الارث يؤول الى الزوج أو الزوجة ثم يأتي بعد ذلك في المرتبة والد المتوفى . وكذلك أعطى القانون الروماني للأبناء الأسبقية وأنصبة متساوية في وراثة آبائهم .

٢ ـ الأحوال العينية :

وكان المصريون والاغريق والرومان يتعاملون اما بمقتضى عقود مكتوبة أو اتفاقات شفوية . وفي حالة انكار دين عقد بمقتضى اتفاق شفوي كانت تتبع القاعدة المرونة « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » .

وقد مر بنا أنه من أجل ضمان حقوق الدائنين كان القانون في عصر البطالمة يعترف بوسائل أخرى قديمة العهد غير تسجيل العقود والنص فيها على شروط جزائية . وقد بقيت هذه الوسائل جميعا معمولا بها في العصر الروماني بل ان ما لم يكن مألوفا منها بين الرومان مثل « البيع الوفائي » وما كانت اللوائح تحظر على المواطنين الرومان أتباعه مثل تسليم عقود ملكية المين المرهونة الى الدائن شاع استخدامه بين الرومان أنفسهم .

واذا كان البطالمة جعلوا سعر الفائدة ٢٪ شهريا أو ٢٤٪ سنويا فان الرومان جعلوا هذا السعر ١٪ شهريا أو ١٢٪ سنويا . وفي حالة عدم الوفاء بالدين في الوقت المحدد كان يفرض على المدين غرامة ينص عليها في العقد كانت عادة نصف قيمة الدين الأصلي .

وكان القانون عند المصريين والاغريق والرومان يعترف بتأليف شركات تجارية أو

صناعية أو غير ذلك لمباشرة أعمال عامة ، وخاصة . وكان يحدد علاقة الشركاء بعضهم ببعض عقد كتابي يثبت فيه حقوق كل شريك وواجباته . وقد حدد هذا القانون حقوق الطرفين اللذين يتعاقدان على استئجار أرض أو مبان أو عبيد أو ماشية أو سفن أو عمال ، وأباح لمستأجر الأرض أن يؤجرها من الباطن الا اذا نص في عقد الايجار الأصلي على خلاف ذلك .

وقد استمر المصريون في العصر الروماني يحررون عقدي المال والتنازل لكل صفقة من صفقات البيع . أما الاغريق فكانوا يكتفون عادة بعقد واحد يتضمن النص على استلام البائع ثمن العين المبيعة وتنازله عن كل حق له عليها . وكانت العقود لا تضمن للمشترين حقوق ملكيتهم كاملة الا اذا حررها الموظفون المختصون وأثبت انتقال الملكية في السجلات الخاصة بذلك وأدت الضريبة المقررة .

ثانيا — القانون الجنائي :

وكان القانون الجنائي في العصر الروماني يفرق بين ثلاثة أنواع من الجرائم وهي :

١ — الجرائم التي ترتكب ضد شخص الأفراد أو ممتلكاتهم . وكانت هذه الجرائم تشمل القتل والاعتداء على الغير بالقول أو الفعل أو الاشارة أو التهديد بالاعتداء ، واستخدام القوة لتحقيق مأرب معين ، والسرقة ، والحاق الضرر بممتلكات الغير والغش والتدليس . وكانت اقامة الدعوى في كل هذه الجرائم من شأن المعتدي عليه وأسرته . أما في حالات معينة مثل قتل الموظفين فان الدولة هي التي كانت تقيم الدعوى .

٢ — الجرائم التي ترتكب ضد الخزانة العامة وكانت تشمل التزوير في الحسابات واختلاس الأموال العامة والسرقة من ممتلكات الدولة أو ضياع الأباطرة . ولم يعد محظورا في العصر الروماني استخدام المحامين في القضايا التي يختصم فيها الأفراد مع الخزانة العامة .

٣ — الجرائم التي ترتكب ضد الدولة وكانت تشمل جرائم الخيانة العظمى واساءة استخدام الحقوق العامة والجرائم الدينية التي كانت معروفة في عصر البطالمة ، وكذلك حيازة الأسلحة دون ترخيص بذلك واعتداءات العصابات المسلحة التي كانت تهيم على وجهها في أنحاء البلاد .

ثالثا — الهيئات القضائية :

ان معلوماتنا عن النظام القضائي في مصر في عهد الرومان طفيفة جدا حتى اننا كثيرا ما نجابه مشاكل متعلقة به دون أن نستطيع ابداء رأي فيها ، لكننا نعرف على كل حال أن الحاكم العام كان على رأس هذا النظام وصاحب الكلمة العليا في كل أنحاء البلاد في القضايا المدنية والجنائية (iurisdictio) وكذلك (imperium mixtum) فكان

يتمتع بحق مصادرة الأمـلاك والحكـم بالأشغال الشاقة فى المناجم والمحاجر وكذلك الحكم بالاعدام ، ولم يكن هناك سبيل الى الاستئناف من أحكامه سوى أمام الامبراطور.

وكان المجلس القضائى للحاكم العـام يتكون منه بوصفه رئيسا ومن مساعدين له نعرف أنهم كانوا يختـارون فى الولايات الأخرى من جنسية المتخاصمين لكن ليس فى استطاعة أحد أن يجزم بشىء فيما يتعلق بمصر وان كنا نعرف أن المساعد الأول للحاكم العام فى الشـــئون القضـــائية فى مصر كان الديكايودوتس Dikaiodotes . ولسنا نعرف اذا كان لهذا الموظف اختصـاص قضـائى مستقل أو اذا كان يستمد سلطته القضائية من الحاكم العام لكن بما أنه لم يشترط فى اختيار الحكام معرفة القانون وكانوا تبعـا لذلك فى حاجة الى خبراء فنيين يعاونونهم فى أداء مهمتهـم القضـائية فانه يرجـح أن الديكايودوتس كان المستشـار القـانونى للحـاكم العـام ويقوم بدور Legati iuridici فى الولايات الرومانية الأخرى . وتتحـدث الوثائق أيضا عن موظف قضائى آخر كان له شأن كبير فى الشـئون القضـائية فى عصر البطالمة وهو الارخيديكاستس .

وكان الحاكم العام يعقد مجلسه القضائى فى الاسكندرية فى شـهرى يونية ويوليـة للفصل فى قضايا مديريات غرب الدلتا ، وفى بلوزيوم فى شهر يناير للفصـل فى قضـايا مديريات شرق الدلتا ، وفى منف فى شهرى مارس وابريل للفصل فى قضايا باقى المديريات الا أنه كان أحيانا يرى داعيا لعقد مجلسه القضائى فى أماكن أخرى سواء فى الدلتا أم فى مصر الوسطى أم فى مصر العليا .

ولم يستأثر الحاكم العـام بالفصـل فى القضايا اذ يرى بعض الباحثين ان محـاكم القضاة الاغـريق (chrematistai) التى كانت موجـودة فى عصر البطالمة ظلت قائمـة وان الحاكم العام كان يعهد اليها فى الفصـل فى قضايا المستندات ، وان الأرخيـديكاستس أيضا كان يقوم بمثل هذه المهمة اما بمفرده أو بالاشتراك مع محكمة القضاة الاغريق ، وأن الايديولوجوس كان يفصل فى قضايا الخزانة العامة .

وكان رؤساء الأقسام الادارية الرئيسية (epistrategoi) ينوبون عن الحاكم العام فى الفصل فى القضايا فضـلا عن انهـم كانوا يقومون بالتحكيم فى المنازعات . وكان حكام المديريات (strategoi) أيضـا يفصـلون فى القضايا ، واذا كانوا على مر الأيام فقـدوا هـذا الاختصاص فانهم استمروا يؤدون ما كانوا يقومون به منذ عصر البطـالمة من التحكيم فى المنازعات ، وتقـديم القضـايا والمتهمين للمحكمة بعد الفشل فى محـاولة فض النزاع وديا والقيام بتحقيق مبدئى فى القضايا ، والقاء القبض على مخالفى القانون.

وكثيرا ما كان الفلاحون يلجـأون الى شيوخهم ورجال الشرطة لفض منازعاتهم بدلا من اتخاذ الاجراءات القضائية المعتادة .

الفصل السابع

الحياة الاجتماعيـــة

أولا ـ عدد السكان وحالتهم :

فى عهد نيرون كان عدد سكان مصر عدا الاسكندرية يبلغ سبعة ملايين ونصف مليون نسمة وليست لدينا أي معلومات عن عـــدد سكان الاسكندرية فى العصر الرومانى وان كنا نعرف أن الاسكندرية غدت فى هـــذا العصر أكبر مركز تجـاري فى شرق البحـر الأبيض المتوسط وأكبر مركز صناعي فى مصر وثاني مدن الامبراطورية الرومانية ولذلك يحتمل أن عدد سكانها لم يقل كثيرا عن عدد ســكان روما . ويبـــدو انه ازاء نشـــاط الاسكندرية الصناعي وثرائها ومباهج الحياة فيها وشظف الحياة وبؤسها فى الريف المصرى أخذ كثيرون من أهل الريف يهاجرون اليها منذ القرن الثانى مما حدا بالامبراطور كركلا الى اصدار قرار فى عام ٢١٥ بابعاد القرويين عن الاســكندرية . لكن لابد من أن هـــذه المدينة قد عانت كثيرا من المذابح والأعمـــال التخريب التى حلت بها من جـــراء العداء بين الاسكندريين واليهـــود وغضب كركلا على المدينة وثورتها ضد اورليانوس . ويبـــدو أيضا انه ازاء نشاط الاسكندرية التجارى كان ينزل فيها عدد كبير من الأجانب الذين كانوا يعيشـون فيها بصفة دائمة تقريبا .

وبينما كان أهل الاسكندرية يعيشون عيشة راضية هانئة لفرط نشاطهم الصناعى والتجارى مع قلة الأعباء الملقاة عليهم كانت حال أهل باقى البلاد ولا سيما المزارعين تسير من سيىء الى أسوأ بسبب تزايد التزاماتهم باطراد فترينا وثائق القـــرن الثـــانى ازديادا مستمرا فى عـــدد الذين كانوا يهـربون من قراهم ، وعددا غير قليل من الأوامر التى كان الحكام يصدرونها لحث المزارعين على العودة الى مواطنهم ، وأمثلة كثيرة على الالتجاء الى سلاح الارغام لزراعة الأراضى المهجورة وملء المناصب المحلية والبلدية . وتدل القرائن على أنه فى القرن الثالث هجرت قرى بأكملهـــا تقريبا فى الفيوم ، وتفاقمت صعوبة شـــغل المناصب المحلية والبلدية ، وازداد عدد الذين كانوا يهربون من مواطنهم ويكتسبون قوتهم من أعمال السـطو والنهب . ولا أدل على هبوط مستوى المعيشة وفقر الأهـــالى فى القـــرى من أن البيان الذى قـــدمه لموظفى التعداد رجل يملك عشر منزل يرينا أنه كان

يسكن في هذا الحيز الصغير ستة وعشرون شخصا . ولا شك في أن هذا المنزل لم يكن بناه شخصا وانما مثل غيره من عشرات المنازل القروية التي كشفت الحفريات عنها في قرية كرانيس (كوم أوشيم) وهي مبنية من اللبن وتتألف من عدد من الغرف الصغيرة على النحو المألوف .

ثانيا — طبقات السكان :

درج الرومان منذ عهد أغسطس على تقسيم سكان مصر طبقات متباينة في المرتبة على النحو التالي :

١ — **الرومان** وكانوا الطبقة العليا في البلاد وقليلي العدد اذ كانوا يتألفون من كبار الحكام وبعض رجال الأعمال وكذلك من قدماء المحاربين الذين منحوا حقوق المواطنة الرومانية عند تسريحهم ورغبوا في الاستقرار في مصر . وقبل ادماجهم في هذه الطبقة كان يتعين فحص (epikrisis) حالة كل منهم لكي يتمتعوا هم وأولادهم بالحقوق والامتيازات التي كان أفراد هذه الطبقة يتمتعون بها ، وكانت هذه الحقوق والامتيازات تشبه ما كان المقدونيون يتمتعون به في عهد البطالمة ، ولم يكونوا خاضعين لسلطة القواد في المديريات التي كانوا يعيشون فيها وانما لسلطة حكام الأقسام (epistrategoi) والحاكم العام لمصر . ومما يجدر بالملاحظة أن غالبية « المواطنين الرومان » الذين تحدث الوثائق عنهم في القرن الثالث كانوا من الاغريق والشرقيين والمصريين الذين اكتسبوا حقوق المواطنة الرومانية .

٢ — الاغريق :

(أ) وضعهم وفئاتهم :

كان الاغريق يتألفون من فريقين رئيسيين يعيش أحدهما في المدن الاغريقية ويعيش الآخر في المدن والقرى المصرية . وكان كل من هذين الفريقين يتألف من فئتين رئيسيتين فالفريق الأول كان يتألف من فئة مواطني المدن الاغريقية وفئة عامة الاغريق في هذه المدن . وكان الفريق الثاني يتألف من فئة عامة الاغريق وكانوا يعيشون كيفما اتفق دون الاندماج في جماعات منظمة . أما الفئة الثانية فكانت أوفر حظا من الثراء والثقافة وحيثما كان يعيش عدد كاف من أفراد هذه الفئة كانوا منذ عصر البطالمة يكونون جاليات منظمة تنظيما دقيقا عملوا على أن يوفروا فيها من أسباب الحياة ما يعيضهم عن الحياة في المدن الاغريقية . ولما كان الجيمنازيوم من أبرز مظاهر الحياة الاغريقية لأنه كان بمثابة النادي فضلا عن كونه مركزا للتربية البدنية والعقلية ، فانه حيثما أنشأ الاغريق مدينة ، أو جالية أنشأوا كذلك جيمنازيوم . وكان هذا المركز الاجتماعي والثقافي والرياضي يتصل اتصالا وثيقا بمنظمة

تدريب الشباب ، وكان التحاق الفتى الاغريقي بهذه المنظمة في الرابعة عشرة من عمره شرطا أساسيا لادراج اسمه في قائمة مواطني المدينة أو الجالية وللسماح له بدخول الجيمنازيوم .

ومما يجدر بالملاحظة أن الجاليات الاغريقية كانت لا تتألف أصلا الا من الاغريق لكن القرائن تشير الى أنه في أواخر عصر البطالمة كان من الممكن أن يندمج فيها عدد من الأغراب ممن توافرت فيهم شروط معينة لعل الثقافة الاغريقية كانت في مقدمتها. ويعتقد أنه للتمييز بين الفريقين كان الاغريق من أعضاء الجالية يدعون «أهل الجيمنازيوم» (hoi apo gymnasiou) وغيرهم من أعضائها المتأغرقين يدعون « الشركاء في عضوية الجالية » (sympoliteuomenoi). ولما كان أعضاء الجاليات الاغريقية قد أصبحوا في العهد الروماني يؤلفون طبقة تتمتع بامتيازات معينة وكان التسجيل في أي شعبة من الطبقات الممتازة يقتضي فحص حالة الراغبين في ذلك واثبات انتماء الأبوين الى تلك الطبقة فانه يبين من ذلك أنه لم يعد ميسورا اندماج غرباء متأغرقين في عداد الجاليات الاغريقية .

ويبدو أنه من أجل المحافظة على الحضارة الاغريقية في المديريات ، وتوفير نوع من الحياة يلائم الاغريق ووسائل ما كانوا يستمتعون به في المدن الاغريقية في مصر وبلاد الاغريق وآسيا الصغرى وسوريا ، وكذلك من أجل رفع مستوى عواصم المديريات ، عمل الرومان على لم شعث الجاليات الاغريقية وتركيزها في عواصم المديريات . ولضمان تحقيق ذلك ألغوا ما كان يوجد من الجيمنازيا في القرى وأضفوا صفة رسمية على جيمنازيا عواصم المديريات وأنشأوا في تلك العواصم حمامات عامة وأضاءوا شوارعها ليلا . واعتبر الرومان أعضاء الجاليات الاغريقية -- سواء أكانوا يعيشون من الأصل في تلك العواصم أم انتقلوا للمعيشة فيها — مواطني تلك العواصم ، كما اعتبروا « أهل الجيمنازيوم » أرفع أولئك المواطنين قدرا فكانت المناصب البلدية لا تسند الا اليهم . ومما يجدر بالملاحظة : أولا — أن مواطني عاصمة أي مديرية لم يشملوا كل سكان تلك العاصمة وحتى وان كانوا من الاغريق . وثانيا -- أن أولئك المواطنين كانوا يطالبون الرومان باعفائهم اعفاء كاملا من دفع ضريبة الرأس على أساس أنهم من سلالة أرباب الاقطاعات ولتفسير هذا المطلب يجب أن نذكر شيئين . وأحدهما أن أغلب أعضاء الجاليات أن لم يكن كلهم كانوا أصلا من رجال الجيش وتبعا لذلك كانوا من سلالة أرباب الاقطاعات . والشيء الآخر انه اذا كان الرومان قد نزعوا ملكية أراضي بعض أرباب الاقطاعات فانهم ثبتوا ملكية أراضي البعض الآخر ومنحوهم

امتيازات معينة كان من بينها فيما يبدو الاعفاء من ضريبة الرأس اعفاء كاملا .

ويرى فريق من الباحثين أن الحكومة الرومانية كانت تفرق تفرقة واضحة بين الاغريق الذين كانوا يعيشون فى مدن مصر الاغريقية ، وكذلك الاغريق والمتأغرقين الذين كانوا ينزلون فى عواصم المديريات من ناحية ، وبين المصريين من ناحية أخرى باعتبارهم dediticii ، أى الأهالى الذين خضعوا للرومان بعد الفتح بلا قيد ولا شرط فوضعوهم فى أسفل درك وفرضوا عليهم كافة الالتزامات وخاصة ضريبة الرأس وكانت تعتبر رمزا مميزا لخضوعهم واستسلامهم . وقد اتخذ فريق آخر من الباحثين من المعلومات المستمدة من الوثائق البردية عن ضريبة الرأس أساسا للمناداة برأى آخر نحوه ومحواه أن الحكومة الرومانية كانت تعتبر جميع سكان مصر « مصريين » أو بعبارة أخرى أجانب (peregrini) باستثناء المواطنين الرومان ومواطنى الاسكندرية وفيما يرجح مواطنى نقراطيس وبطوليميس وانطينوؤ پوليس وسلالة أرباب الاقطاعات فى الفيوم وكذلك عددا معينا من كهنة كل معبد ، وأن هؤلاء جميعا أعفوا من دفع ضريبة الرأس التى كان باقى سكان البلاد يدفعونها ، غير أن أولئك الباقين لم يدفعوا هذه الضريبة بمعدل واحد اذ أن مواطنى عواصم المديريات كانوا يدفعونها مخفضة أما باقى سكان هذه العواصم وكذلك سكان القرى فكانوا يدفعونها كاملة . ومعنى ذلك أن الحكومة الرومانية كانت تقسم الاغريق ثلاث فئات ، كانت احداها تشمل مواطنى المدن الاغريقية وفيما يبدو أيضا سلالة أرباب الاقطاعات فى الفيوم ، وكانت الحكومة الرومانية تضعهم فى مصاف المواطنين الرومان وتعفيهم من ضريبة الرأس اعفاء كاملا ، أما الفئة الثانية فكانت عبارة عن مواطنى عواصم المديريات وكانت الحكومة تعتبرهم أقل مكانة من الفئة السابقة وتفرض عليهم دفع ضريبة الرأس مخفضة . أما الفئة الثالثة فكانت تشمل عامة الاغريق من سكان القرى وعواصم المديريات والمدن الاغريقية على حد سواء وكانت الحكومة تفرض عليهم دفع ضريبة الرأس كاملة .

وينهض هذا دليلا على مدى اجلال الرومان للحضارة الاغريقية ورغبتهم فى التمييز بين أكثر الاغريق تحضرا من ناحية وبين عامة الاغريق وجموع المصريين من ناحية أخرى . فلا عجب أن استبقى الرومان اللغة الاغريقية لغة رسمية للبلاد فلم تستعمل اللاتينية الا فى الجيش أو فى الشرائع المتعلقة بالقانون الرومانى . وفضلا عن ذلك احتفظ الرومان للاغريق بالمناصب الكبرى التى تلى المناصب الرئيسية التى احتفظوا بها لأنفسهم .

وقد كانت لدى الطبقات الممتازة من الاغريق فرص واسعة للثراء لكن التبعات الثقيلة التى ألقيت عليهم أبهظت كاهلهم

واستنزفت مواردهم على مر الزمن . ولعل أسعد الأغريق حظا كانوا مواطني المدن الاغريقية بوجه عام والاسكندرية بوجه خاص . ومع ذلك فان أولئك المواطنين لم ينظروا بعين الرضى الى حكم الرومان فقد سبقت الاشارة الى أن عداء الاسكندريين لليهود كان يخفي في طياته عداءهم للرومان ، وذلك لأن معاداة اليهود كانت أسلم عاقبة من مناصبة الرومان عداء سافرا . وسبقت الاشارة كذلك الى أن «أعمال الاسكندريين» التي صادفت رواجا كبيرا لا في الاسكندرية فحسب بل في كل أنحاء البلاد كانت تعبر عن كراهية الاغريق الشديدة لليهود وكراهيتهم الأشد للرومان . وهذا أبلغ دليل على أن الاغريق بوجه عام كانوا يكرهون الحكم الروماني كرها شديدا ويتمنون زواله .

وتحدثنا وثيقة من القرن الثاني للميلاد بأن التزاوج بين الاغريق والمصريين كان يعتبر غير مشروع في نقراطيس ، ومن المرجح أن ذلك كان الحال أيضا في الاسكندرية وبطوليميس بسبب الرغبة في المحافظة على العنصر الاغريقي . فلماذا اذن أبيح التزاوج في انطينوؤ بوليس ؟ يرجح البعض أن يكون السبب في ذلك هو رغبة الامبراطور هادريان، مؤسس هذه المدينة ، في صبغ المصريين بصبغة اغريقية عن طريق مزجهم مع الاغريق في بيئة تسودها التأثيرات الاغريقية لكن لو صح أن هذا كان الهدف الحقيقي لكان تحقيقه أتم وأوفق في المدن الاغريقية الأخرى التي كانت معاقل قديمة للحضارة الاغريقية وذات تقاليد راسخة وتضم أعدادا أكبر من الاغريق ويتيسر فيها المزج بين الاغريق والمصريين على نطاق أوسع . لعل السبب اذن في اباحة التزاوج في أنطينوؤ بوليس هو انه لم يتيسر اجتذاب عدد كاف من الاغريق الى هذه المدينة مما اقتضى الاعتماد في تكوين هيئة مواطنيها على كثير من المصريين الذين لابد من أنهم كانوا من المتأغرقين تيسيرا للتآلف بينهم وبين رفاقهم من الاغريق . ومن أجل ضمان وحدة المدينة ونموها نص في دستورها على امكان التزاوج بين المصريين . ونعتقد أن لهذا النص دلالة ذات مغزى ، فهذا النص ينطوي ضمنا على أن التزاوج كان غير مشروع على الأقل في المدن الاغريقية الأخرى والا لما نص على تحليله في انطينوؤ بوليس . بقى أن نتساءل عما اذا كان التزاوج محظورا خارج المدن الاغريقية الثلاث الأخرى (الاسكندرية ونقراطيس وبطوليميس) ؟

يتبين مما أسلفنا ، أولا أنه في العصر الروماني كان يعيش خارج هذه المدن الاغريقية الثلاث فريقان من الاغريق كان أحدهما عبارة عن مواطني عواصم المديريات الذين كانوا يؤلفون طبقة ممتازة وكان الفريق الآخر عبارة عن الاغريق الذين لم يكونوا أصلا أعضاء في جاليات اغريقية أو كانوا أعضاء في جاليات وآثروا البقاء في قراهم على

الانتقال الى عواصم المديريات وتيسيرا للكلام عن أفراد هذا الفريق فلنطلق عليهم عامة الاغريق . وثانيا أن التسجيل في طبقة من الطبقات الممتازة كان يقتضي بحث حالة الراغبين في ذلك للتأكد من انتماء الأبوين في كل حالة الى تلك الطبقة . واذا جاز أن القانون كان لا يحظر التزاوج بين مواطني عواصم المديريات وبين المصريين فانه كانت تحظره مراعاة صوالح أبناء أولئك المواطنين، أي ضمان انتمائهم الى الطبقة الممتازة. والواقع أن لوائح الايديولوجوس لا تدع مجالا للشك في أن التزاوج كان محظورا بين الذين ينتمون الى طبقات اجتماعية مختلفة . وبما أن عامة الاغريق لم ينتموا الى طبقة اجتماعية ممتازة . فانه لم يحظر تزاوجهم مع المصريين قانون ولا مراعاة صوالح . ولعلهم نتيجة لطول استقرارهم في البلاد وعدم ممارستهم أساليب الحياة الاغريقية مع اختلاطهم بأهالي البلاد وتعبدهم الى الالهة المصرية أصبحوا شديدي الشبه بالمصريين وتزاوجوا معهم ولم ينقض وقت طويل قبل أن تستوعبهم الأمة المصرية فيمن استوعبتهم .

(ب) حضارة الاغريق :

ولا جدال في أن المدارس والمعاهد الاغريقية كانت أهم دعامة للحضارة الاغريقية فهي التي كانت تمنح للشباب آفاق الفكر الاغريقي وتغذي عقولهم وتفوسهم بثماره

ولا جدال أيضا في أن الأدب والفنون كانت أسمى مظاهر هذه الحضارة التي ظلت الاسكندرية أهم مراكزها في العصر الروماني وبفضلها بقيت الحضارة الاغريقية متمتعة في مصر طوال هذا العصر . فقد شهدت الاسكندرية عندئذ نشأة فلاسفة وكتاب وجغرافيين مثل فيلون والجليس تاتيوس وبطلميوس ، وكان للأقاليم أيضا نصيبها في هذه الحركة الأدبية فقد ولد العالمان اثينايوس وبوفركس في نقراطيس والفيلسوف فلوطين في أسيوط (ليكوبوليس) . والبرديات الوفيرة التي كشف عنها في أوكسيرينخوس (البهنسة) — وكانت عاصمة احدى مديريات مصر الوسطى — خير شاهد على شغف المثقفين في هذه العاصمة الريفية بقراءة مختلف ألوان الأدب الاغريقي الى حد يثير الدهشة . فالبرديات لا تقتصر على عيون الأدب الاغريقي القديم مثل أشعار هوميروس وقصائد هسيود بل تتضمن كذلك أغاني سافو وروايات مناندر وقصائد كاليماخوس فضلا عن كثير من المؤلفات التي كان بعض الباحثين المحدثين يظنون أنها لم تكن متداولة عندئذ مثل أجزاء من قصائد الشعراء الغنائيين كاناشيد النشكر وغيرها من منظومات بندار والشعراء المعاصرين وكذلك روايات ايسخيلوس المفقودة وروايات سوفوكليس ويوريبيدس واريسطوفانيس . ولما لم تكن لاوكسيرينخوس أي ميزة خاصة على أي

عاصمة أخرى من عواصم المديريات فلا بد من أن الحال كان مماثلا فيها جميعا وهـذا يدل على أمرين وأحدهما وجود جمهور كبير من القراء وتبعا لذلك وجود تجارة رائجة فى الكتب ، والأمر الآخر أنه كان فى متناول المثقفين فى طول البلاد وعرضها مجموعة كبيرة من المؤلفات الاغريقية التى لم يصـلنا منها الا قدر ضئيل .

وبقدر ما كانت الأمية فاشية بين عامة الاغريق كان أثرياؤهم وأهل الطبقة الوسطى منهم يقبلون على التعليم . وكان التعليم الاغريقى يعنى بتربية الجسم والعقـل معا ، وكانت التربية البدنية تشمل الألعاب الرياضية وكذلك التدريبات شبه العسكرية الخاصـة بالشباب . أما التربيـة العقلية فكانت على ثلاث مراحل يباشر أولاها المدارس الأوليـة ويرجح أنهـا كانت من الطـراز الاغـريقى المألوف ونستطيع أن نتبين مما عثر عليه من الأدوات التى كان التـلاميذ يسـتخدمونها بكثرة (كسر الفخـار والألواح الخشـبية المكسوة بالشمع والأوراق الردية) انهم فى المرحلة الأولية كانوا يتعلمون القراءة والكتابة تدريجيا بادئين بالحروف الأبجـدية فتكوين المقاطع فالكلمات فالجمل ثم نقل فقرات من كتب معينة والتمرين على الاملاء والانشاء . وكان التلاميذ يدرسـون الأدب والنحـو والحسـاب . وكانت أشـعار هومـيروس تستخدم على نطـاق واسع فى كل مراحـل التعليم فقد كان التلاميذ يكلفون بنقل بعض الأبيـات للتمـرين على كتابتها أو شرحها والتعليق عليهـا أو لتكون مـادة لدرس فى الأخلاق . وكان يعنى بهذه الناحية عناية كبيرة فقد كان المدرسـون يختارون كثيرا من الحكم والأمثال لتمرين التلاميذ على المطالعة .

ويبدو أن المرحلة الثانية كانت مقصورة على أبناء الصـفوة الممتازة فى عاصـمة كل مديرية وهى التى كان يطلق عليها « أهـل الجيمنازيوم » فقد كانت تلك الطبقة تتألف ممن التحقوا فى صـباهم بمنظمـة تدريب الشباب وعملوا فى الجيمنـازيوم اذ كان الالتحاق بهذه المنظمة يخول حق الالتحـاق بالجيمنازيوم ويقتضى اثبات انتماء الأب الى هذه المنظمة وانحدار الابن من أبوين حرين . وكان التلاميذ يدرسون فى هذه المرحلة النحو والبلاغة والأدب والفلسفة والرياضـيات . ويبـدو أن الذين كان يعز عليهم دخـول الجيمنازيوم لكن مواردهم كانت تسمح لهم بمتابعة الدراسة كانوا يلجأون الى مدرسين خصوصيين لهذا الغرض . وكان ذلك أيضا حال الذين يرغبون تعلم مواد خاصة مثـل الموسيقى أو الاختزال . وتحدثنا بردية بأن أحد مواطنى أوكسيرينخوس أرسـل عبده لتعلم الاختزال على يدى معلم مختص عقد مدة الدراسة بعامين على أن يقتضى أجره على ثلاث دفعات ، كانت أولاها فى البداية والثانية والثالثة عند بلوغ العبد مرحلتين معينتين من التقـدم .

أما المرحلة الثالثة أو مرحلة التعليم العالي فيبدو أنها كانت مركزة في الاسكندرية وإن كانت الوثائق تشير الى وجود أساتذة جامعة الاسكندرية في أنحاء مختلفة في البلاد . وقد كانت جامعة الاسكندرية أساسا معهدا للبحث أكثر منه للتدريس ويحتمل أنه كان متروكا لأساتذتها مطلق الحرية في أن ينصرفوا الى البحث كلية أو في القاء المحاضرات الى جانب القيام بأبحاثهم . لكن في القرن الثالث عندما أوقفت الحكومة الانفاق على الجامعة لم يجد الأساتذة أمامهم مفرا من التدريس أو أداء أي عمل آخر لكسب قوتهم . فنجد مثلا أحد أساتذة الجامعة يتولى منصب قائد مديرية الفيوم ولا جدال في أنه كان يتعذر القيام بمهمة التدريس بانتظام في الاسكندرية في خلال الأعوام الثلاثة التي تولى فيها منصبه الاداري في الفيوم . ومنذ أسس بنتاينوس (Pantaenus) المدرسة المسيحية الكبرى في الاسكندرية في القرن الثاني لم تعد الجامعة المركز العلمي الوحيد هناك ، فقد قامت المدرسة على أكتاف أساتذة عظام فاقوا أساتذة الجامعة الوثنيين وكان لنشاطهم المثمر آثار ملموسة ونتائج باقية على الزمن .

ويتبين من الوثائق البردية أن الاغريق بوجه عام كانوا يميلون الى اشاعة البهجة في نفوسهم باقامة مختلف الولائم للغداء أو العشاء واقامة الحفلات الخاصة بأعياد الميلاد أو المناسبات الاجتماعية الخاصة الأخرى .

وفضلا عن ذلك فانه في الأعياد الدينية وأعياد جلوس الأباطرة على العرش وأعياد ميلادهم كانت تقام حفلات عامة تتخللها الاستعراضات والمهرجانات . والى جانب ذلك كانت تقام من حين لآخر حفلات رياضية يتبارى الناس فيها في مختلف الألعاب الرياضية من جري وملاكمة ومصارعة وما الى ذلك . وكانت توجد حتى في عواصم المديريات مسارح أو قاعات للموسيقى كانت تمثل فيهما عادة الكوميديات المحلية والتمثيليات الهزلية ومن حين لآخر روايات من التراجيديا الكلاسيكية ومن « الكوميديا الجديدة » . وكانت أيضا تجوب البلاد فرق للموسيقى والرقص والألعاب البهلوانية .

٣ - اليهود :

لقد مر بنا عند الكلام عن عصر البطالمة أن اليهود كانوا ينتشرون في مختلف أرجاء البلاد لكن أكثرهم كانوا يعيشون في الاسكندرية وأن البطالمة منحوا الجالية اليهودية في الاسكندرية قسطا من الحكم الذاتي لم يمنحوه لأي جالية أخرى في أي مدينة اغريقية لكنهم لم يمنحوهم حقوق المواطنين . وفي كنف الرعاية التي استظل اليهود بها في عهد أكثر ملوك البطالمة ازدهرت حالهم وزاد عددهم حتى بلغوا في أوائل عهد الرومان مليون نسمة كان خمسهم تقريبا يعيش في الاسكندرية . وقد عرفنا أن الرومان

أقروا الامتيازات التي اكتسبتها الجالية اليهودية في الاسكندرية منذ عهد البطالمة لكنهم فرضوا على يهود هذه الجالية ويهود مصر جميعا أداء ضريبة الرأس كاملة .

ويحدثنا فيلون بأن يهود الاسكندرية كانوا يتكونون من الفئات التالية : ١ — أصحاب رءوس الأموال ٢ — المشتغلون في النقل البحري ٣ — تجار التجزئة ٤ — الصناع وأصحاب الحرف ٥ — المشتغلون بالزراعة في الأراضي المحيطة بالاسكندرية . وتشير الدلائل الى أنه منذ عصر البطالمة كان يهود الاسكندرية يميلون الى اتخاذ أسماء اغريقية وارتداء ملابس اغريقية ويقبلون على تعلم الاغريقية والتزود من الثقافة الاغريقية . واذا كان بعضهم قد انحرفوا عن اليهودية أو صبأوا فان أغلبهم استمسكوا بديانتهم وحرصوا على مراعاة تقاليدهم وعاداتهم . واذا أضفنا الى ذلك معاملتهم للرومان أدركنا لماذا كان اليهود في نظر الاغريق عنصرا غريبا عنهم كريها اليهم لا يقبلونه في مجتمعهم ويرون الخير كل الخير في قطع دابره مما أفضى الى تلك المنازعات الدامية التي سبق الكلام عنها .

وكان المجتمع اليهودي خارج الاسكندرية يتكون من الفئات التالية : ١ — أصحاب الأراضي ٢ — أصحاب المهن الحرة من المشتغلين بالتجارة وأعمال النقل في النيل ومن موانئ البحر الأحمر والبحر

٣ — أرباب المهن الوضيعة والعبيد المحررين. واذا كان أكثر يهود الريف تراه حاولوا التشبه بالاغريق فانه لم يسمح لهم بالاندماج في المجتمع الاغريقي . أما جموع يهود الريف وكانوا يشاركون المصريين بيئتهم ويمارسون المهن والحرف ذاتها فان القرائن تدل على أنهم تشبهوا بالمصريين فشاعت الأسماء المصرية بينهم بل عثر في مصر الوسطى على تابوت خشبي يحمل نقوشا عبرية ويحتوي على مومياء محنطة كما عثر أيضا في الفيوم على مومياوات تحمل صور أصحابها وأسماء يهودية، ومع ذلك ازاء قلة الأدلة التي لدينا يصعب الجزم بأن كل يهود الريف قد تأثروا بالبيئة المصرية الى حد أنهم كانوا جميعا يحنطون جثث موتاهم . فقد توافرت لهم في الريف أسباب الاحتفاظ بديتهم ومتابعة حياتهم الخاصة اذ ان القرائن تشير الى أنهم في الوجهين البحري والقبلي كانوا ينتظمون في جاليات لكل منها بيعتها والى انهم في بعض المدن مثل ارسينوي وأوكسيرينخوس وادفو كانوا يقيمون في أحياء خاصة بهم . وتشير القرائن أيضا الى أن ثورة ١١٥ — ١١٧ لم تفض الى القضاء على المجتمع اليهودي في الريف المصري ، وكل ما في الأمر أن هذا المجتمع قد أصابه عندئذ من الكوارث ما تطلب وقتا طويلا لبعد بناء كيانه ويستأنف نشاطه من جديد .

واذا كان الرومان قد أظهروا عطفهم على

اليهود بالاعتراف لهم بامتيازاتهم القديمة فان اليهود لم يرضوا عن الرومان لأنهم رفضوا ادماج يهود الاسكندرية في عـداد مواطني تلك المدينـة وليس بحصرهـم من عـداد الاسكندريين لهم وفرضوا على يهـود مصر ضريبة الرأس كاملة ، وكالوا لهـم ضربات شديدة منذ ثورة فلسطين في عام ٦٦ ممـا أفضى الى ثورتهم الخطيرة في عهـد تراجان التي كانت محاولة يائسة جريئة للتخلص من نير الحكم الروماني . ولا يدل استـسلام اليهود بعـد ذلك ومسالمتهم للرومان على رضائهم عن الحكم الروماني بقـدر ما يدل على رضائهم بحكم الظروف التي كانت أقوى منهـم .

٤ ـ المصريون :

(أ) فئاتهم :

كان المصريون في العصر الروماني يتألفون من عدة فئات ، كانت فئـة الكهنة أعظمها شأنا وأرفعها مقاما وأوسعها نفوذا مما حدا بالرومان الى اقتفاء اثر البطالمة الأوائل في اضعاف قوة رجال الدين المصريين . فانتزعوا ملكية جانب من أراضي المعابد وأسندوا الى الحكومة ادارة جانب آخر من هذه الأراضي ووضـعوا رجـاله الدين تحت سـيطرتهم وأنقصوا عدد المعابد التي تتمتع بحق حماية اللاجئين اليها . واذا كانت الحكومة الرومانية قد أعفت أول الأمر عددا معينا من كهنة كل معبد من دفع ضريبة الرأس فانها عملت بعد ذلك على انقاص هذا العدد . ولا جدال في أن الغالبية العظمى من رجال الدين المصريين احتفظوا بثقافتهم القديمة الخاصة التي كانوا يتوارثونها ويتعـاونون على المحافظة عليها ويعمـلون على بث تعاليمهـا في نفـوس مواطنيهم . ومع ذلك يصعب أن نتصور أن النابهين منهم على الأقل لم يأخذوا بقـسط من الثقافة الاغريقية .

وكانت تلي هذه الفئة في الأهمية فئـة أصحاب الأراضي وكان أفرادها على شيء من اليسر ودأب كثير منهم على التشبه بالاغريق فتعلموا الاغريقية واتخذوا أسماء اغريقية وملابس اغريقية وتزاوجوا مع عامة الاغريق المنتشرين حولهم في أرجاء البلاد . ومع ذلك لم تكن صبغتهم الاغريقية الا طلاء خارجيا فقد كان من العسير فصم صـلتهم بالماضي وتغيير طابع عقليتهم أو دخائل نفوسهم بسبب استمساكهم بدياناتهم التقليدية . وعلى كل حال من الراجح أن صبغتهم الاغريقيـة لم تكسبهم أي ميزة من ناحية وضعهم القانوني بمعنى أن الحكومة الرومانيـة لم تساوهم بمواطني المدن الاغريقية ولا حتى بمواطني عواصم المديريات ، ولم تعتبرهم الا مصريين عليهم ما على سائر المصريين من تبعات . بل لعلهم من هذه الناحية كانوا أسوأ حظا من غيرهم من المصريين اذ أن الأمر في حالهم لم يقف عند حد أداء الضرائب المفروضة عليهم

بل كان يتعدى ذلك الى الاسهام في زراعة الأرض المهجورة وأداء الضرائب المفروضة عليها . وفضلا عن ذلك كانت الحكومة تختار منهم صغار موظفيها المحليين لالمامهم بالاغريقية ولما لديهم من أملاك كانت تستطيع أن تستوفي منها استحقاقاتها في حالة قصورهم عن النهوض بالتزامات وظائفهم على نحو يحقق لها أغراضها كاملة . ولعله كان يكون جانبا من هذه الفئة فئة المحاربين المصريين التي ارتفع شأنها في الشطر الثاني من عصر البطالمة ومنح أفرادها اقطاعات لا بأس بها . وعلى كل حال فانه لم يعد لفئة المحاربين المصريين القديمة كيان مستقل في العصر الروماني فقد منع المصريون من الانخراط في سلك الفرق الرومانية حتى في القرن الثاني عندما اضطر الرومان الى التجنيد محليا فالرومان لم ينسوا ما حدث في عصر البطالمة عندما أدى الاعتماد على المصريين في موقعة رفح (عام ٢١٧ ق.م) الى انتعاش الروح القومية في البلاد واندلاع لهيب الثورات الوطنية ضد البطالمة . ولذلك كان التجنيد المحلي في العصر الروماني — على الأقل حتى منح المصريون حقوق المواطنة الرومانية بمقتضى دستور كركلا — مقصورا على الاغريق والشرقيين المقيمين في مصر . ومع ذلك كان يسمح للمصريين بالعمل في أسطول ميسنوم فقط .

وكان يأتي في مؤخرة المؤخرة عامة المصريين وكانت غالبيتهم العظمى تشتغل بالزراعة وكثيرون منهم يمارسون مختلف الحرف والصناعات . وقد فرض الرومان عليهم جميعا كافة الالتزامات وأداء ضريبة الرأس كاملة وحرموا عليهم استعمال اللغة الديموتيقية حتى في عقود معاملاتهم الخاصة .

(ب) حضارة المصريين :

واذا كانت الأمية فاشية بين عامة الأغريق فلا جدال في أنها كانت فاشية كذلك بين جموع المصريين الذين استمروا يعيشون كما كان أجدادهم يعيشون من قبل ، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ، مستمسكين بدياناتهم الى أن اعتنقوا المسيحية طوعا أو كرها .

وهكذا يبدو أن الغالبية العظمى من المصريين كانت تعيش بمعزل عن الحضارة الاغريقية فلم يظفر بحظ منها الا قلة قليلة . واذا كانت المعابد الكبرى قد احتفظت بالمدارس الملحقة بها فقد انقضى ذلك العهد الزاهر الذي بلغت فيه بعض هذه المدارس شأوا بعيدا ونزلت مدارس المعابد عن تلك المكانة السامية لجامعة الاسكندرية ومدرستها المسيحية الكبرى . وازاء اقبال الموسرين من المصريين على التعليم الاغريقي وتفشي الأمية بين جموع المصريين وتحظير استعمال الديموتيقية حتى في العقود الخاصة لا يبعد أن تكون سوق المدارس الأهلية القديمة قد كسدت الى حد اضطرت معه الى

اغلاق أبوابها . ولعل أهم ما صحب انتشار المسيحية في مصر الى جانب انشاء المدرسة المسيحية الكبرى في الاسكندرية كان قيام بعض المدارس لاعداد القساوسة واستبدال الانجيل بهوميروس في المدارس التي كانت منتشرة في عواصم المديريات وسبق الكلام عنها في معرض الحديث عن التعليم الاغريقي.

(جـ) ثورات المصريين

ورغم الفشل المرير الذى انتهى اليه كفاح المصريين ضد البطالمة ، ورغم القسوة الكبيرة التي وضعها الرومان في مصر فانه لم تكد تمضى شهور قليلة على الفتح الروماني حتى هب المصريون ثائرين على الغزاة الجدد. وقد رفع لواء الثورة ضد الرومان منطقة طيبة التي مر بنا أنها أقضت مضاجع البطالمة بزعمها الحركات الثورية ضدهم مما حدا ببطلميوس التاسع الى شن حرب ضروس على العاصمة الوطنية القديمة طيبة وتخريبها تخريبا . ويبدو أن الثورة الجديدة بلغت من الخطورة حدا اضطر معه أول حاكم روماني لمصر (كورنيليوس جالوس) الى تجريد حملة قوية لقمعها . ويبدو كذلك أن الثورة لم تقتصر على مصر العليا بل اشتعلت فيها الدلتا أيضا اذ أن استرابون يحدثنا بأنه عندما ثارت هيرووثيوليس (تل المسخوطة في شرق الدلتا) زحف عليها كورنيليوس جالوس وأخضعها .

ولا تذكر المصادر القديمة نشوب ثورات عامة بين المصريين بعد ذلك الا الثورة المعروفة « بحرب الرعاة » التي وقعت في عام ١٧٢ في منطقة الدلتا الساحلية شرقى الاسكندرية . وقد تزعم هذه الثورة كاهن مصرى يدعى ايسيدوروس واشترك فيها جموع كبيرة من المزارعين تمكنوا من القضاء على الحامية الرومانية في منطقتهم وكذلك من هزيمة الكتائب الرومانية التي تصدت لهم ، حتى خيف من وقوع الاسكندرية في قبضتهم مما اقتضى استدعاء نجدة من سوريا على رأسها افيديوس كاسيوس حاكم تلك الولاية (عام ١٧٥) . وقد لجأ افيديوس الى حيلة المفاوضات حتى نجح في بث الفرقة بين صفوف الثوار ثم قاتلهم متفرقين وانتصر عليهم فنادت به الشرق السورية امبراطورا لكنه لم يلبث أن لقى حتفه بعد ذلك بقليل .

وليس أبلغ في الدلالة على سوء الحكم الذى أقامه الرومان في مصر من أنه لم يصادف رضا من أى فريق ممن كانوا يعيشون في مصر عندئذ سواء أكانوا من الاغريق أم اليهود أم المصريين .

الفصل الثامن

الآداب والعلوم والفنون

عرفنا أنه فى العصر الرومانى كانت الاسكندرية لا تزال مدينة عظيمة وتعتبر ثانى مدينة فى الامبراطورية الرومانية بعد روما مباشرة وان الرومان كانوا يعطفون على الحضارة الاغريقية ويجلونها ويكلأون جامعة (دار العلم) الاسكندرية برعايتهم . لكن الاسكندرية لم تعد عاصمة دولة خطيرة ومقر بلاط فخور كان يضع نصب عينه جعلها عاصمة الحضارة الاغريقية ويسعى بأن يجتذب اليها أبرز رجال الفكر والفن وبأن يوفر لهم من الرعاية ما يحفز هممهم ويشحذ قرائحهم . ومع ذلك فان الاسكندرية تابعت نشاطها وكان لها نصيب الأسد فى حياة مصر العقلية وان كانت لم تحتكر انجاب البارزين من رجال الفكر والقلم فقد ولد فى نقراطيس المثقفان اثينايوس ويوليوكس ، وفى ليكوبوليس (أسيوط) الفيلسوف فلوطين . ولا أدل على احتفاظ الاسكندرية بمكانتها العالمية مما تشير اليه المصادر القديمة من شغف النابهين من الغرباء بالوفود عليها حتى أواخر القرن الثانى الميلادى اما لينهلوا من مواردها مثل بلوتارخ ولوكيانوس وماركوس انطونيوس بولمون ، أو ليعرضوا مواهبهم فى سوقها العملية مثل ديون واليوس اريستيدس . وذلك فضلا عن الكثيرين من الطلاب الأجانب الذين ظلوا يقصدون الاسكندرية لتلقى العلم فيها وخاصة الطب حتى أواخر القرن الرابع على الأقل .

أولا — الآداب

١ — دار العلم (الجامعة) والمكتبة :

وقد استمرت الجامعة مدة طويلة مركزا للبحث العلمى ومقرا للعلماء تستضيفهم فيه الدولة على نفقتها وتجرى عليهم المرتبات . واذا كان الأصل فى التعيين فى الجامعة أن يتوقف على مكانة الشخص العلمية أو الأدبية فان القصرائن توحى بأن المعايير لم تلبث أن تغيرت فضلا عن هادريان رجلا يدعى پانكراتس كل ما يعرف عنه أنه سبح بحمد الامبراطور وخليله انطينوؤس فى قصيدة وصل الينا جزء منها . وتحدثنا وثائق القرن الثانى بأنه كان بين رجال الجامعة عندئذ بعض كبار رجال الدين والموظفين المدنيين والضباط الرومان بل أحد الرياضيين . وقد أضاف

الامبراطور كلاوديوس الى مبنى الجامعة ملحقا حمل اسمه وكانت تتلى فيه يوميا مؤلفات هذا الامبراطور المؤرخ . ولا ريب في أنه عندما أوقف كركلا في صدر القرن الثالث الانفاق على الجامعة كان لذلك أثر بعيد المدى في نشاط البحث العلمي اذ أنه لم يعد في وسع الاساتذة الانصراف الى بحوثهم مع القاء بعض المحاضرات من حين لآخر بل أصبح يتعين عليهم التدريس أو أداء أي عمل آخر لقاء أجر يتعيشون منه . وقد نزلت بالجامعة نكبة أخرى في عام ٢٦٩-٢٧٠ عندما انقض جنود زنوبيا على حي بروخيون وأوسعوه نهبا وتخريبا ولم تنج مباني الجامعة من هذا التدمير الذي لم يفض على كل حال الى القضاء على الحياة العلمية والأدبية في الاسكندرية اذ نجد تنويها عنها واشادة بها فيما كتبه المؤرخ اميانوس ماركلينوس حوالي نهاية القرن الرابع الميلادي .

وقد مر بنا أنه عندما أحرق يوليوس قيصر الأسطول المصري في خلال « حرب الاسكندرية » في عام ٤٧ ق.م. وامتد اللهب الى رصيف الميناء وأحرق المباني المجاورة له ، ذهبت المكتبة الكبرى طعما للنيران بدليل أن انطونيوس عوض كليوبترة عن تلك الخسارة الفادحة باهدائها ٢٠٠,٠٠٠ مجلد من مكتبة برجامون . وقد كانت توجد في الاسكندرية مكتبتان أخريان ، كانت احداهما ملحقة بمعبد السيرابيوم وكانت الأخرى ملحقة بمعبد قيصر . وقد ظلت هذه المكتبات تمد الباحثين بما يحتاجون اليه من المصادر والمراجع الى أن ذهب بعضها ضحية لأعمال التخريب التي قام بها جنود زنوبيا والبعض الآخر ضحية للصراع بين المسيحية والوثنية عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة .

وقد تابع علماء جامعة الاسكندرية في العصر الروماني ما اتبعه أسلافهم في عصر البطالمة من تحقيق النصوص الأدبية ونقدها والتعليق عليها . وقد كان من أبرز هؤلاء الباحثين فيلوكسينوس الذي ذاعت شهرته في عهد تيبريوس الى حد انه دعي للتدريس في روما . وقام معاصره بامفيلوس بجمع عدد هائل من التعبيرات النادرة التي استخدمت في الآداب الكلاسيكية . وكلف ارستونيكوس بالدراسات الهومرية فشرح هوامش ارستارخوس ونقدها وأكملها . وحوالي الوقت ذاته أخرج ثيون معجما للتراجيديا والكوميديا ووضع تعليقات لأعمال شعراء الدراما وابولونيوس الرودسي . وذاعت أيضا عندئذ شهرة ابيون الذي نال تقدير تيبريوس وان كان الامبراطور ضاق ذرعا بثرثرته والاشادة بنفسه . وقد ألف ابيون معجما للاشعار الهومرية سطا عليه يوستاثيس . وقد كان أبرز فقهاء القرن الثاني ابولونيوس « المتزمت » ونيكانور وايليوس ثيون .

٢ ـ الشعر :

يحتل شعر الاسكندرية مكانا متواضعا بين آدابها فى العصر الرومانى ، فالاسكندرية لم تعرف فى هذا العصر شاعرا بارزا واحدا يمكن مقارنته بكاليماخوس أو ابولونيوس أو ثيوكريتوس ، وان عرفت جمهرة من من الشعراء المتواضعين الذين حافظوا على تقاليد الشعر الأسكندرى من حيث خلوه من العواطف السامية والشعور بالتقوى نحو الالهة القديمة وكذلك من حيث كلفه بآفاق العلم المختلفة وتصوير المشاعر الانسانية والاشادة بالحياة البسيطة لكنهم لم يكونوا شعراء مطبوعين وانما يصطنعون الشعر اصطناعا . ولعل أبرز أولئك الشعراء المتواضعين اثنان كان أحدهما ديونيسيوس الاسكندرى الذى عاصر هادريان وألف قصيدة جغرافية وصف فيها ليبيا والجانب الأكبر من آسيا وأوربا معتمدا فى ذلك على خريطة العالم العلمى اراتوستينيس . وقد قدر لهذه القصيدة أن تعمر طويلا فانها ترجمت الى اللاتينية واستخدمت فى تدريس الجغرافيا فى المدارس . أما الشاعر الآخر فانه كان من أبناء واحة سيوه ويدعى سوتريخوس وألف قصيدة فى وصف مسقط رأسه وأخرى فى مدح الامبراطور دقلديانوس وعددا آخر من القصائد عن ديونيسوس والاسكندر الأكبر وغير ذلك من شتى الموضوعات .

٣ ـ النثر :

وقد تأثر نثر الاسكندرية فى العصر الرومانى باتجاهات مدارسها الفلسفية التى تمتعت بمكانة كبيرة ولا سيما ان الفلاسفة على اختلاف نحلهم ومذاهبهم كانوا يعتبرون فى ذلك العصر أطباء النفوس . واذا كانت مختلف المدارس الفلسفية القديمة قد تابعت نشاطها فان الفيثاغورثية الجديدة احتلت مكان الصدارة بينها الى أن اندمجت فى خلال القرن الثالث فى الأفلاطونية الجديدة . وكانت الفيثاغورثية الجديدة تتألف من عناصر استمدت من الفيثاغورثية القديمة ومن فلسفات افلاطون والمشائين والرواقيين وامتزجت سويا على نحو يلائم الاتجاهات الدينية المعاصرة فقد وجهت عناية خاصة الى التأملات الدينية والمذاهب الخلقية . وقد كان للفيثاغورثية الجديدة أثر كبير أولا فى الأفكار اليهودية عن طريق الفيلسوف اليهودى فيلون الاسكندرى وثانيا فى الأفكار المسيحية عن طريق كليمنس (Clemens) واوريجينيس (Origenes) وثالثا فى الأفلاطونية الجديدة .

ويعتبر فيلون أعظم المفكرين اليهود الذين يمثلون التقاء اليهودية والوثنية كما تعتبر مؤلفاته نموذجا لانتاج يهود الاسكندرية الأدبى فى العصر الرومانى . ويتبين مدى تأثر فيلون بالفيثاغورثية الجديدة من أنه استعار منها الكثير من أفكاره ومنهجه فى وضع فلسفته التى كانت تستهدف الخروج

بالفلسفة اليهودية من أفقها الضيق الى أفق أوسع بعيد تجريدها من كل مظاهرها العنصرية . وعندما قام فيلون بشرح التوراة والتعليق عليها عالج ذلك بالطريقة الرمزية على نهج الفيثاغورثية الجديدة فتحولت الشخصيات الدينية في التوراة الى مجرد رموز للأفكار المجردة واكتسبت التعاليم الموسوية مظهرا جديدا جعلها رموزا لأفكار اغريقية عميقة .

وقد كان كليمنس ومن بعده اوريجينيس أبرز أساتذة المدرسة المسيحية الكبرى في الاسكندرية . ويمثل هذان الأستاذان اتجاها جديدا للمفكرين المسيحيين استبدل بمناصبة الوثنية عداء شديدا يكشف عن ضعفها ويرد الاعتداء عن المسيحية — استبدل الاتجاه الجديد بذلك الدعوة الى الالمام بثقافة العصر واستخدام أساليب الفلسفة في نشر العقيدة المسيحية وتفسيرها . وقد جمع كليمنس الى قوة ايمانه بالمسيحية الالمام الواسع بالأدب الاغريقي وبذل جهدا كبيرا للتوفيق بين الثقافة الاغريقية والديانة المسيحية . أما اوريجينيس فانه كان أقل من كليمنس الماما بالآداب الاغريقية لكنه كان أعمق منه تفكيرا وأدق فهما للمذاهب الفلسفية وأكثر دراية بمناهج البحث العلمي وأوسع قدرة على الابتكار . وقد أسهمت المدرسة المسيحية في تحقيق نص للانجيل موثوق به ، ومهما اختلف الباحثون في تقدير طبيعة هذه المساهمة ومداها فان الشك لم يرق اطلاقا الى قيمتها الكبيرة .

وقد كانت الافلاطونية الجديدة مزيجا من فلسفة أفلاطون وارسطو والرواقيين والفيثاغورثية الجديدة . وقد أصبحت الأفلاطونية الجديدة الفلسفة الرئيسية عند الوثنيين من حوالي منتصف القرن الثالث حتى قضى جوستنيانوس باغلاق المدارس الوثنية في عام ٥٢٩ . وكان أبرز مفكري هذه الفلسفة امونيوس سكاس (Ammonius Saccas) الاسكندري وفلوطين الأسيوطي وتلاميذ فلوطين .

وكان من أوسع كتاب الاسكندرية في أواخر القرن الثاني علما وثقافة أثينايوس (Athenaeus) النقراطيسي الذي أكسبه شهرة كبيرة كتابه الضخم « مأدبة الفلاسفة » وقد حاول أن يحتذي في كتابه نحو بعض الفلاسفة القدامى في عرض آرائهم في شكل أحاديث المآدب لكنه لم يرق الى مستواهم . وقد دامت « مأدبة » اثينايوس بضعة أيام دار فيها الحديث في الفلسفة والأدب والقانون والطب وغير ذلك من الموضوعات التي مثلها عدد من الضيوف أجرى المؤلف على لسانهم مقتطفات استمدها من عدد كبير من الكتاب

وقد تمتع اخيلس تاتيوس (Achilles Tatius) ، مؤلف قصة لوكيبي وكليتوفون (Leukippe and Kleitophon) بمكانة كبيرة في العصور المتأخرة وأغاض نقاد العصر

البيزنطي في الثناء عليه . وأبرز ما يتصف به الخيلس تفضيله الواقعية على المثالية وميله الى اثارة مشاعر القارىء بمهارته الفائقة في الوصف وأسلوبه الذي يتدفق حيوية .

وتتسم كتابة التاريخ في هذا العصر بمباينها بالتأثير في النفس أكثر من عنايتها بتحري الحقيقة : ويطليبوس خمنوس (Chemnus) خير من يمثل هذه الظاهرة التي تتضح في مؤلفه « تاريخ جديد للاستزادة في نواح كثيرة » . ويبدو أن هذا التاريخ مجموعة من القصص التي قرأها المؤلف أو سمعها . ولعل ابيانوس (Appianus) كان أبرز مؤرخي الاسكندرية في هذا العصر لكن مؤلفه الضخم في التاريخ الروماني أكثر تأثرا بالطابع اللاتيني منه بالطابع الاسكندري ، اذ أن ابيانوس بعد أن حصل على الجنسية الرومانية رحل الى روما وعاش هناك حيث يرجح أنه وضع مؤلفه في عصر انطونينوس بيوس . وقد شارك في كتابة التاريخ أيضا العالم الفذ كلاوديوس بطلميوس لكن شهرته كجغرافي ورياضي تبز شهرته كمؤرخ فكتابه في الجغرافيا يتألف من ثمانية اجزاء وأطلس وكان يستهدف على حد قوله استخدام أحدث المعلومات في تصحيح خريطة العالم التي وضعها جغرافي عاش قبله وكان يدعى مارينوس الصوري . وبرغم ما يتضمنه كتاب بطلميوس من أخطاء فانه يعتبر بوجه عام أدق المؤلفات الجغرافية القديمة وأكثرها شمولا ولذلك بقي مرجعا لكل دارسي الجغرافيا حتى بداية العصور الحديثة .

ثانيا — العلوم :

١ — الطب والجراحة :

وقد تابع أساتذة الطب والجراحة نشاطهم في الاسكندرية وظلت هذه العاصمة القديمة تحتفظ بشهرتها في هذا الميدان على الأقل حتى أواخر القرن الرابع عندما كتب اميانوس ماركيلينوس يقول انه كان يكفي الطبيب للتدليل على مهارته قوله انه تعلم في الاسكندرية . ويعطي دليلا على مكانة الاسكندرية في عالم الطب كثرة عدد الذين كانوا يقصدونها من مختلف أنحاء الدنيا لدراسة الطب على أساتذتها الذين تابعوا اهتمامهم بالتشريح وكان كثيرون منهم يعتزون بأنهم من أتباع المدرسة التجريبية التي ترجع الى عهد البطالمة . وقد درس في الاسكندرية أشهر أطباء هذا العصر وأعظمهم جميعا « كلاوديوس جالينوس » الذي ولد في برجامون في عام ١٢٩ وزاول مهنته بعض الوقت في وطنه ثم في روما الى أن توفي هناك في السبعين من عمره .

ويعطينا كلسوس (Celsus) صورة شاملة عن الطب والجراحة في الاسكندرية في صدر العصر الروماني . ويشتمل كلسوس كتابه عن الطب (de re medica) — وهو ينقسم الى ثمانية أجزاء — تاريخ

طرق الطب يتضمن مقارنة بين اتباع المدرسة النظرية واتباع المدرسة التجريبية ويخصص الجزءين الأول والثاني للتغذية وعلم الأمراض والقواعد العامة للعلاج . ويناقش في الجزءين الثالث والرابع الأمراض الداخلية وفي الجزءين الخامس والسادس الأمراض الخارجية . ويعتبر الجزءان السابع والثامن ، وهما يتناولان الكلام عن الجراحة ، أهم أجزاء هذا الكتاب . ويتبين من هذين الجزءين أن جراحي الاسكندرية لم يباشروا مختلف أنواع الجراحات المألوفة فحسب بل أيضا جراحة تجميل الوجه وكذلك جراحة الأسنان . وتحدثنا الوثائق البردية بأن بعض أطباء الاسكندرية ابتدعوا عددا من الأربطة والأجهزة التي عرفت بأسمائهم وكانت تستخدم في حالة حدوث كسر في العظام أو خلع في الأغشية الداخلية

لكن في القرن الثالث لم تعد الظروف مواتية للأبحاث والملاحظات العلمية فقد انقضى عهد الكشوف وأصبح هم العلماء مقصورا على اكتناز المعلومات للموائمة بين ما سبق الوصول اليه وبين حاجات العصر . فلا عجب أن اخذ الطب ينحدر رويدا رويدا ، واخذ عامة الناس يلجأون الى التعاويذ والسحر والتنجيم من أجل الشفاء من المرض ، بينما أخذ المثقفون ينشدون شفاء الجسم في سعادة الروح .

٢ ـ العلوم الرياضية :

واذا كانت فروع العلم الأخرى قد أهملت في العصر الروماني ، فانه كان للعلوم الرياضية شأن آخر . وليس هناك مجال لأن نعزو أي فضل في ذلك الى رعاية الرومان ، فقد كانوا يحتقرون العلوم البحتة فيما عدا ما كان يمكن افادته من تطبيقاتها .

وقد عرفت الاسكندرية رياضيين عظاما مثل منيلاوس (Menelaus) وسرينوس (Serenus) وبابوس (Pappus) الذين عنوا بدراسة الهندسة ولهم فيها مؤلفات قيمة لكن مؤلفات سرينوس لم ترق الى مستوى مؤلفات العالمين الآخرين التي ترجمها العرب وبفضلهم وصلت الى العالم الحديث . وقد كان من الاسكندرية أيضا العالم ديوفانتوس (Diophantus) الذي ابتدع نظاما خطا بالحساب خطوة واسعة نحو الجبر . أما هرون (Heron) فله مؤلفات كثيرة في الهندسة والميكانيكا لم يصل الينا بعضها الا بالعربية والبعض الآخر باللاتينية فقط والبعض الثالث بالاغريقية والعربية واللاتينية ، واستخدمت كتبه في المدارس عدة قرون . وتعتبر جهود هرون قبل كل شيء استمرارا لجهود ارخيدس وفيلون وكتسيبيوس ، فقد كان شديد الاهتمام بتطبيقات العلم فابتدع وسائل لمسح الأرض ورفع الأثقال واستخدام البخار وطلمبة لاطفاء الحريق وجهازا شبيها بعداد السيارات .

ويتصل الفلك بالرياضة اتصالا وثيقا . وقد كان أطول الفلكيين الاسكندريين باعا وأعظمهم شأنا كلاوديوس بطلميوس المؤرخ والجغرافي الذي سلفت الاشارة اليه . ولهذا الفلكي عدة مؤلفات ترجم العرب أكثرها ، وأهم هذه المؤلفات كتابه « المجموعة الكبرى » الذي يتضمن ما وصل اليه الفكر الاغريقي في الفلك وفقا لنظريات هيبارخوس مع ما أضافه بطلميوس الى هذا العلم .

ثالثا ــ الفنون :

١ ــ فن العمارة :

سنتناول الكلام هنا في ايجاز شديد عن المقابر والمنازل والمنشآت العامة والمعابد ونبين الى أي مدى تأثرت العمارتان المصرية والاغريقية ببعضهما بعضا ، والى أي مدى كذلك ألبثت العمارة الرومانية وجودها واحتفظت بطابعها في مصر .

(أ) المقابر :

عرفنا ان الاغريق كانوا يستخدمون في عصر البطالمة ثلاثة أنواع من المقابر وهي : (١) الحفر ، (٢) الفجوات المستطيلة (loculi) التي كانت تبنى أو تنحت في جوانب دهاليز أو غرف ، (٣) مقابر الأرائك التي تحولت في آخر عصر البطالمة الى مقابر ذات فجوات ومحاريب ، حيث اختفى الأرائك تماما وكان الموتى يدفنون في توابيت كالصناديق كانت توضع في المحاريب .

وقد أثبتت الحفائر التي أجريت في الاسكندرية ان بعض مقابر الأرائك قد أعيد استخدامها في العصر الروماني وانه فضلا عن ذلك كانت تستخدم في هذا العصر ثلاثة أنواع أخرى . وكان النوع الأول مماثلا للنوع الأول الذي كان مستعملا في عصر البطالمة . ولا غرابة في ذلك فقد كان هذا النوع شائعا بين عامة الناس عند الاغريق وعند الرومان على السواء . أما النوع الثاني فكان في أبسط مظاهره يتألف من سلم وبئر (لانزال الموتى) وغرفة ذات فجوات وغرفة ذات توابيت . وكان نظام هذه الغرف وعددها وتوزيعها يختلف اختلافا بينا ، ومع ذلك فان الصلة واضحة بين هذه المقابر ومقابر عصر البطالمة . أما النوع الثالث فيشبه عن قرب المقابر الكبرى في روما من حيث وجود غرفة مستديرة تؤدي الى غرفة الدفن الرئيسية على نحو ما نجد في المقبرة الكبرى في كوم الشقافة حيث استخدم للدفن التوابيت والفجوات على غرار ما كان يتبع في مقابر النوع الثاني .

واذا كان طراز العمارة في هذه المقابر اما اغريقيا أو رومانيا فان الزخرفة فيها تستوقف النظر بكثرة ما فيها من عناصر مصرية . ونجد هذه الظاهرة نفسها في النصب الجنائزية أيضا .

وتدل الحفريات على أن الغالبية العظمى من المصريين قد احتفظوا بعاداتهم الجنائزية وطرق الدفن التي ألفوها منذ عهد بعيد . فقد كانوا يدفنون موتاهم اما في مقابر قديمة أعادوا استخدامها أو في مقابر حديثة كان بعضها عبارة عن كهوف طبيعية أو تجاويف نحتت في جانب التلال أو آبار حفرت في باطن الأرض ، وكان لها بئر ينتهي بحجرة واحدة أو غرفتين للدفن .

ويتبين من الكشوف الأثرية في تونه الجبل ، بالقرب من الأشمونين ، ان المصريين المتأغرقين كانوا يقيمون معابد وبيوتا جنائزية تختلط فيها العناصر المصرية والاغريقية اختلاطا واضحا سواء في العمارة أم في الزخرفة أم في طرق الدفن .

ومما يجدر بالملاحظة ان تحنيط الموتى ظل شائعا بين المصريين وحتى بين المسيحيين منهم فانهم حتى أواخر القرن الرابع لم يعتبروه مخالفا لتعاليم ديانتهم الجديدة .

وهكذا يتبين لنا أنه جنبا الى جنب العمارة الجنائزية الاغريقية والعمارة الجنائزية المصرية قد ظهرت أيضا العمارة الجنائزية الرومانية . ويستوقف النظر انه على حين نجد الأثر المصري واضحا جليا في زخرفة العمارتين الجنائزيتين الاغريقية والرومانية ، نجد الأثر الاغريقي واضحا جليا كذلك في زخرفة بعض أمثلة العمارة الجنائزية المصرية .

(ب) المنازل :

ويوحي القرائن بأن اغريق المدن الاغريقية وبعض مدن الفيوم استمروا يستخدمون أنواع المنازل التي ألفوها من قبل في عصر البطالمة ، وانه فيما يبدو أنشئت أيضا منازل فسيحة شبيهة « بالفيلات » الرومانية . أما فيما عدا ذلك فانه يتبين من المنازل الكثيرة التي كشفت الحفريات عنها في بعض مدن الفيوم وقراها ان الاغريق كانوا كالمصريين يعيشون في منازل مصرية تعتبر استمرارا لطراز المنازل التي عرفتها مصر منذ أمد طويل لكن يبدو ان الاغريق والمصريين المتأغرقين كانوا يستخدمون في تزيين منازلهم زخارف اغريقية .

(جـ) المنشآت العامة :

أنشأ الرومان في جهات متعددة في مصر عمائر مدنية متعددة الأنواع : كالبوابات والأقواس والشوارع والجيمنازيا والحمامات العامة . ويتبين من بقايا المنشآت التي كشف عنها انها كانت وفقا للطراز الروماني في تخطيطها وعمارتها وزخرفتها وان الطراز الروماني في مصر كان شأنه في روما وباقي أنحاء العالم الروماني يميل الى استخدام الأعمدة الكورنثية . وعلى حين كانت المنازل تبنى عادة من اللبن كانت المنشآت العامة تبنى من الأحجار وكثيرا ما استخدم جيدا ولا سيما في الاسكندرية ، الرخام المستورد من الخارج

(د) المعابد :

ولم يبق من معابد الاسكندرية التي أنشئت في العصر الروماني الا صور رمزية مصغرة لبعضها على النقود . واذا اتخذنا هذه الصور مقياساً للحكم على طراز هذه المعابد فانه يمكن القول بأن طراز أغلب هذه المعابد كان اغريقيا أو رومانيا على حين كان طراز البعض الآخر مصريا بحت وطراز البعض الثالث يغلب عليه الطابع المصري لكنه لا يخلو من بعض العناصر الرومانية .

أما معابد الآلهة المصرية التي أكملها الرومان أو زخرفوها أو انشأوها في مختلف القرى والمدن المصرية فانها اتبعت بدقة تقاليد الفن المصري القديم ولا تظهر فيها أي تأثيرات أجنبية . ويتمثل ذلك بوضوح في معابد مدينة هابو والقلعة بالقرب من قفط ودندرة واسنا وكوم امبو وفيله وكالبس ودندور ودكة والمحرقة . وقد صور الأباطرة على جدران هذه المعابد في شكل الفراعنة بزيهم وأوضاعهم وهم يقدمون القرابين لمختلف آلهة البلاد .

ويتبين لنا من كل ما أسلفناه انه اذا كان يمكن القول بوجه عام ان كلا من العمارة الاغريقية والرومانية ولا سيما المصرية قد احتفظت بطابعها الخاص فانه مع ذلك قد ظهرت حتى في العمارة الدينية دلائل على امتزاج الأفكار والعناصر .

ثانيا – فن النحت :

وقد مر بنا انه كانت للاسكندرية في عصر البطالمة مدرسة للنحت الاغريقي ذات مميزات خاصة وطرازين أحدهما مثالي والآخر واقعي ، وان الاسكندرية ابتكرت فرعا جديدا من فن النحت كان عبارة عن دراسة أجناس الناس وطباعهم وحرفهم .

واذ ساد العالم الروماني اتجاه قوي نحو صنع تماثيل تحاكي أشكال أصحابها محاكاة دقيقة كأنها من صنع آلة تصوير أو ريشة رسام وجد فنانو الاسكندرية في هذا الاتجاه مجالا واسعا لابراز مواهبهم واستمت منتجاتهم بطرازي مدرستهم وبطابعها الاغريقي البحت . ويتصل بهذه الصور المصنوعة من الرخام أو المرمر أو مختلف أنواع الصخور مجموعة رائعة من الصور كشف عنها في الفيوم وكانت تصنع بالألوان على لوحات مكسوة بالشمع وتعلق على جدران المنازل في أثناء حياة أصحابها ثم تغطى بها وجوههم بعد مماتهم . وقد بدأ انتاج هذه اللوحات في القرن الأول بعد الميلاد وبلغ ذروته من حيث المهارة والابداع في القرن الثاني .

وقد تابع الفنان المصري نشاطه في التماثيل وعلى جدران المعابد ونصب الموتى وبمختلف النواحي التي كان أسلافه يألفونه منذ القدم .

ويتبين من دراسة فن النحت في العصر الروماني :

١ — ان أكثر النقود التى سكها الرومان وكثيرا من قطع النحت التى ابتدعها الفنانون الاغريق اغريقية بحت فى طرازها وعناصرها وصيغتها ، وان كثيرا من قطع النحت المصرية وكل لوحات المعابد مصرية بحت فى طرازها وعناصرها وصيغتها .

٢ — ان الكثير من النقود وقطع النحت تختلط فيها العناصر دون الطرز مثل تصوير اله مصرى أو بوابة معبد مصرى أو تاج مصرى على تلك السلسلة من النقود التى تعرف بنقود المديريات ، فهذه عناصر مصرية الا أن طراز النقود اغريقى . ومثل صنع تماثيل لآلهة مصرية بطراز اغريقى أو صنع تماثيل لاغريق أو رومان من السيماقى أو الجرانيت أو غير ذلك من المواد الغريبة عن الفن الاغريقى . ومثل تصوير الأباطرة الرومان بطراز وملابس مصرية . وقد سلف القول ان المقياس الحقيقى فى أى فن من الفنون هو الطراز باعتباره مظهر تفكير الفنان وطابع حضارته . ولذلك فان اختلاط العناصر ان دل على شيء فانما يدل على أثر البيئة لا على أثر الحضارة .

٣ — ان فى الكثير من قطع النحت محاولات واضحة وان كانت غير ناضجة لمزج الطرازين المصرى والاغريقى . وهذه القطع أدنى قدرا فى قيمتها الفنية من القطع التى طرازها اغريقى بحت أو مصرى بحت ، ومع ذلك فان عددها ازداد على مر الأيام . وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لازدياد الاختلاط بين الاغريق والمصريين وازدياد اندماج الاغريق فى المصريين . وكان هذا الفن المزيج مرحلة الانتقال التى مهدت لقيام الفن القبطى .

٤ — ان الفنين الاغريقى والمصرى أخذا يضمحلان رويدا رويدا ولم يحل دون انهيارهما السريع الا تقاليدهما القديمة ومهارة الفنانين المتوارثة . ولما كان الفن المصرى القديم يقوم على الديانة ، شأنه فى ذلك شأن باقى مظاهر الحضارة المصرية القديمة ، فان اعتراف الدولة رسميا بالمسيحية أفضى الى القضاء عليه قضاء مبرما .

من ديوقلديانوس إلى دخول العرب

للدكتور مراد كامل

مقـــــدمة

فى الشطر الثانى من حكم الرومان ، أى من ديوقلديانوس الى دخول العرب تأثر تاريخ مصر بعاملين رئيسيين وهمـا : المسيحيـة والسياسة البيزنطية .

وستقدم لهذا العصر بكلمة موجزة عن سياسة الأباطرة العامة ، من ديوقلديانوس الى هرقل ، ثم نتبعها بنظام الادارة فى مصر والنظام المالى والجيش والحالة الاقتصادية .

وسنعرض فى الفصول الخمسة التى تلى المقدمة الألوان المختلفة لحياة الشعب المصرى من سياسية ولغوية وفكرية وفنية واجتماعية فى هـذا العصر ، وسيتضح لنا من هـــذا العرض كفاح الشعب المصرى للاحتفـــاظ بشخصيته وكيانه ضد الحاكم المتعصب .

وقد كان للاسكندرية الزعامة الدينيـة فى الشرق المسيحى ، وفى مصر نشأت الرهبنة التى أخذها عنها العالم المسيحى ، وفى مصر ظهر أعظم رجال التفكير المسيحى . وكانت مصر منذ فجر تاريخها المبعن فى القدم أرضا خصبة ، بفضل نيلها وطبيعـة أهلهـا الذين اتسموا بالمثابرة على العمــل والسـماحة والمسالمة . ولم يمنع هذا أن يعم البؤس البلاد فى هذا العصر ، وذلك بسبب فســاد ادلة الحكم واستغلال الحكام ، ممـا دعا الشعب الذى كان يعيش فى هـذا الجـو الفاسد أن يبغض حكامه ويحتقرهم وأن يتطلـع الى الاستقلال والحرية وحياة أفضل .

وكان دخول العرب فرصة مواتية أحدثت تغيرا شاملا فى السياسة وفى الدين ، ووجهت مصر وجهة جديدة نحو الشرق والاتصــال بشعوب الشرق ، بعـد أن كانت صــلاتها الحضارية مقصورة على الروم أو بعبـارة أدق على الحضارة الاغريقية .

* * *

من ديوقلديانوس الى هرقل (٢٨٤ – ٦٤١)

ديوقلديانوس ٢٨٤ – ٣٠٥ .

تولى ديوقلديانوس الحكم فوجد نفسه أمام مجمـوعة من اللوائح والقوانين والنظم — التى تسير عليها سياسة الامبراطورية — لا تتمشى وحاجة عصره . فحاول أن يصالح الموقف بادخال تغييرات أساسية فى سياسـة الدولة ، وذلك ليتفـادى الانهيـار المتوقع للامبراطورية وليمنع الاضطرابات التى كانت تسود الدولة عنـد موت الامبراطور وتولى خليفة له .

أدخل ديوقلديانوس اصلاحات عديدة على النواحي المختلفة في الدولة ، فجعل من الامبراطور شخصية مقدسة تؤدي لها فروض العبادة بمقتضى طقوس دقيقة مرسومة استمدها من تقاليد الشرق .

كما ركز في الامبراطور سلطة الحاكم المطلق فأصبح يقبض على كل السلطة الادارية . وشل سلطة السناتو والغى وظيفة المستشار وجعل كل الولايات خاضعة للامبراطور فلم تعد هناك ولايات خاضعة للسناتو ، كما الغى الامتيازات الممنوحة للولايات التي كانت من الاصل تخضع للامبراطور ، ثم أدمج الولايات في وحدات ادارية وركز كل ادارات الامبراطورية في أيدي موظفين وادارات تابعة مباشرة للامبراطور ، وفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية .

وحاول ديوقلديانوس أن يحل المسألتين اللتين كانت تتوقف عليهما سلامة الامبراطورية ، وهما الدفاع عن البلاد وتنظيم وراثة العرش .

وكان ديوقلديانوس يعتقد أن الدفاع عن حدود امبراطورية مترامية الأطراف لا يمكن أن يتولى أمره امبراطور واحد . وقد حمله ذلك على أن يشرك ماكسيميان معه في الحكم وذلك في سنة ٢٨٦ وأسند الى ماكسيميان الدفاع عن الغرب واحتفظ لنفسه بالدفاع عن الشرق . أما وراثة العرش فلم يكن لها نظام متبع ، وكانت المطامع في ارتقاء العرش من المشاكل التي تواجهها الامبراطورية عند موت الامبراطور . وفي سنة ٢٩٣ قرر ديوقلديانوس أن يتولى الحكم امبراطوران في نفس الوقت ، أحدهما للشرق والآخر للغرب ، ويحمل كل منهما لقب «أوغسطس» على أن يتعين لكل منهما شريك يكون وريثه في العرش ويحمل لقب « قيصر »

من قسطنطين الى جوستنيانوس (٣٢٣ — ٥٦٨) :

اعترفت الدولة رسميا بالمسيحية في عهد قسطنطين الذي هو فاتحة التاريخ البيزنطي . وقد شيد قسطنطين على مدينة بيزنطة القديمة مدينة جديدة استمدت اسمها من اسمه وعرفت بالقسطنطينية ، وأصبحت عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية فأخذت تنمو وتزدهر بخطى سريعة .

وأضفى قسطنطين على اصلاحات ديوقلديانوس الصبغة النهائية ، حتى أصبح للامبراطورية البيزنطية طابعها الخاص ، وانحصرت السلطة الادارية والحكومة في البلاط الامبراطوري ، وكان مركز الدولة . وأصبح الناس يخدمون الامبراطور بعد أن كانوا يخدمون الدولة .

واعتلى العرش بعد قسطنطين ما يزيد على العشرين امبراطورا ، أهم ما يعنينا من أمرهم مناصرة كثير منهم للهراطقة ومناصبتهم الكنيسة المصرية عداء شديدا بسبب وقوفها في وجه أولئك الهراطقة .

وكانت هذه الفترة مليئة بالقلاقل والاضطرابات لا استقرار فيها . فتارة يصير الأمر فيها لامبراطور واحد وتارة توزع السلطة بين امبراطورين أحدهما في الشرق والآخر في الغرب . ويرجع عدم الاستقرار الى أمور مختلفة أهمها : أن القوى الحية للامبراطورية كانت كلها في الشرق . وأن المسيحية تطورت في الشرق بطريقة تختلف عنها في الغرب . وان هجمات البربر على الغرب كانت أشد أثرا منها على الشرق .

اسرة يوستنيانوس (٥١٨ ـ ٦١٠)

كان حكم يوستنيانوس تطورا طبيعيا وضروريا في تاريخ الامبراطورية . فقد ضحى أباطرة القرن الرابع بسلطانهم على الغرب في سبيل سلامة الشرق . ولكن يوستنيانوس أخذ يتطلع الى الغرب منذ بداية حكمه ، وساقته مطامعه الى محاولة استعادة الماضي . واستنفد جهدا كبيرا ليبعث من جديد هذا الجزء الميت من الامبراطورية مما أدى الى انهاك قوى الجزء الحي .

وكان من جراء فكرته في استعادة مجد الامبراطورية الرومانية ، حروبه العديدة وأمكنه أن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحرا رومانيا ولكن سرعان ما اضطرته حروبه في الشرق الى أن يكف عن الحروب ، وأن يقوم بانشاء سلسلة من التحصينات جعلت من الامبراطورية ميدانا محجزا .

وقد قرر يوستنيانوس أنه سيعيد تأسيس الامبراطورية على أساس سليم ، فعمد الى وضع نظام من شأنه أن يجعل الرخاء يسود كما كان في روما أيام مجدها . وسلك في ذلك طرقا تتلخص في أعماله التشريعية وفي اصلاحاته الداخلية

اعماله التشريعية :

كانت روما في مقدمة البلاد التي عنيت بالتشريع بل تعتبر مؤسسة علم القانون . وعلى أساس هذا العلم أوجدت الدولة نظام الوحدة الذي بني على سلطة الامبراطور المطلقة .

وقد أدرك يوستنيانوس عظم الفائدة التي يمكن أن تعود على الامبراطورية اذا جمع مصادر القانون الروماني الذي كان معمولا به عندئذ ونشرها على نحو يمكن تداوله والرجوع اليه . وقد نهض بهذا العبء عدد من أبرز فقهاء الرومان . ومنذ ذلك الوقت عدت هذه المجموعة من القوانين المرجع الذي تعتمد عليه المحاكم ومدارس القانون في الامبراطورية ، بل أصبحت المصدر الذي استمد منه القانون المدني الحديث .

وقد أطلق على هذه المجموعة « مجموعة قوانين يوستنيانوس » . وهي تنقسم الى أربعة أجزاء .

١ — مدونة يوستنيانوس وقد نشرت أولا في عام ٥٢٩ ثم روجعت ونشرت ثانية

في عـــام ٥٣٤ وكانت عبارة عن مجموعة تشريعات الأباطرة التي كانت لا تزال نافذة المفعول .

٢ — البندكت أو المجمل وقد نشر في عـام ٥٣٣ وكان يتضمن مقتطفات مما كتبه أبرز فقهاء القانون الروماني ، ورتبت هـذه المقتطفات بحيث تستكمل مالم يرد في المدونة من أحكام القانون المدني .

٣ — القوانين وكانت كتابا موجزا وضع خصيصا ليستخدمه طلبة القانون .

٤ — المراسيم الجديدة التي أصدرها يوستنيانوس بعد سنة ٥٣٤ وعـددها ١٦٨ مرسوما .

ومن الملاحظ أن الأجزاء الثلاثة الأولى كتبت باللاتينية وأما الجـزء الأخير فكتب باليونانية .

اصلاحاته الداخلية :

اتجه يوستنيانوس لتحسين الحيـــاة الداخلية في الامبراطورية ، فاتخذ عدة وسائل للاصلاح بعد ما شاهد استياء الشعب من الموظفين ومن سياسة الامبراطور مما أدى الى قيـام ثورة في القسطنطينية نفسـها سنة ٥٣٢ . فأصدر تشريعات لأجل اصلاح الوظائف الحكومية كان منها الغاء الوظائف الزائدة عن الحاجة ، ورفع مرتبات الموظفين واعادة الجمـع بين السـلطتين المدنيـة والعسكرية ، واتخـذ خطوات ايجابيـة من شأنها أن تجعل للموظفين بعض الاستقلال في الادارة مع ربط الادارات بالسلطة المركزية ، وحد من امتيازات كبـار الملاك الذين كانوا خطرا داهما على الطبقـة الوسطى ، وعائقا فعالا في تقدم الدولة ورفاهيتها .

ولكن كل هذه المحاولات الاصـلاحية باءت بالفشـــل ، والسبب في ذلك هو الامبراطور نفسـه لأنه كان في حاجة ملحة الى المال لمواجهة النفقـات الباهظة التي كانت تتطلبها حروبه الكثيرة ومنشآته المختلفـة ، فالح على وكلائه في جمع المال على أية صـورة وفرضت ضرائب جديدة ، ثم غير الحـالة وجعل الموظفين مسئولين شخصيـا عن جمع الضرائب ، فاتخـذوا من جانبهم اجراءات تعسفية لجمع المال من الشعب ارضـــاء للامبراطور ، فكان هو العامل الأول في عدم اصلاحاته .

أما سياسته الدينية فقـد أصــدر يوستنيانوس مراسيم سنتي ٥٢٧و٥٢٨ ضد الهراطقة وأصحاب البدع ثم أمر باغـلاق مدرسة أثينا الوثنية سنة ٥٢٩ ، وكان عصره عصر نزاعات مستمرة بين المذاهب المسيحية المختلفــة . وعاش الهراطقـــة بالرغم من الاضطهادات بل كان رؤسـاؤهم يسكنون القسطنطينيـة نفســها . وفشلت سياسته الدينية وكان سبب فشلها على الأكثر سياسة الغرب ، هـذه السياسة التي أنهكت قوى الامبراطورية فلم تعد تحتمل هجمات العدو

فى شرقها ، وهى التى استنفدت مالية الدولة واحبطت الاصلاح الادارى ، وهى التى أضاعت الفرصــــة على الدولة فى النهاية لتوحيد المسيحية فى الشرق وهى فى أشـد الحاجة الى ذلك .

الحالة الاقتصادية فى عهد يوستنيانوس :

كانت حياة النساك والرهبـــان الذين يعيشون فى صحارى مصر وفلسطين داعيـة لتشجيـع الامبراطـور يوسـتنيانوس والامبراطورة تيودورا للرهبنـة عامـة ، فاخذت فى الانتشار والتطور ، وكان لهـذا أثره فى الحياة الاجتماعيـة . كان هؤلاء الرهبان يتمتعون بحـرية واسـعة جعلتهم يتدخلون بالتدريج فى الحيـاة السياسية وفى حياة البلاط . وأخذ عددهم يزداد ، وانهالت عليهم الوقفيات والهبات والتبرعات وكانت معفاة من الضرائب فى أغلب الأحيان . فظهرت بذلك طبقة جديدة فى المجتمع لها امتيـازات ولها أثرها فى الحياة الاقتصادية .

وهناك خاصية أخرى كان لها اثرها فى الحياة الاقتصادية فى عهد يوستنيانوس فقد قام بأعمال انشائية عديدة مثل تعبيد الطرق وانشاء القناطر وتشييد التحصينات والقلاع ومد أنابيب المياه وبنـاء الكنائس والأديرة . وكان المظهر الأول لكل هذه المنشآت يدل على أن الدولة فى حالة رخاء ، ولكن سرعان ما اضطرته المحنة المالية — لما استنزفته هذه الأعمال من أموال باهظة — الى وقفها بعد أن أثقلت الضرائب كاهل الشعب من جديد. أما تجـارة الدولة فقد شجـع يوستنيانوس بعض المراكز التجـارية الأسـاسية ومنحها بعض الامتيازات لتزداد من نشاطها . وكانت مشكلة الامبراطورية هى صلتهـا بالشرق الأقصى للحصول على منتجات الهند والصين. وكانت التجـارة الشرقيـة تصـل الى الامبراطورية اما برا عبر الطـريق الشمالى الذى كان يمر بوسط آسيا فبحـر قزوين فالبحر الاسود ، واما بحرا عن طريق الخليج الفارسى أو عن طريق البحر الأحمر . ولما كان الفرس ينقلون جانبـا كبيرا من التجـارة الشرقية فقد حاول يوستنيانوس أن يحول التجارة الشرقية اما الى الطريق الشمالى أو الى طريق البحر الأحمر ، وذلك من ناحيـة ليتفادى وسـاطة الفرس ومغالاتهم فى فرض الضرائب ، ومن ناحية أخـرى ليزيد نصيب الامبراطورية من التجـارة الشرقية . ولكن يوستنيانوس فشل فى ذلك ولم تتمكن بيزنطة من التخلص من منافسة الفرس الاقتصادية .

خلفاء يوستنيانوس (٥٦٥ — ٦١٠)

مات يوسـتنيانوس والـدولة فى حـالة افلاس وقـد عم البؤس أفراد الشعب . وارتاح الجميـع لموته ، ولكن خلفـاءه لم يجدوا حلا للمشكلة المالية التى ترتبط بها الادارة الداخليـة برباط وثيق . وغاب معارضة قوية ضد سلطة الامبراطور المطلقة . كما نشأ خلاف شديد بين البابا جريجوريوس

وبين بطريرك القسطنطينية كل هذا والعدو لم يكف لحظة عن مهاجمة حدود الامبراطورية .

هرقل (٦١٠ - ٦٤١)

كان القرن السابع أكثر عصور التاريخ البيزنطي حلكة ، فقد كان عصر أزمة خطيرة وضح فيها أن كيان الامبراطورية أصبح في مهب الريح .

تطرق الركود الى الحضارة البيزنطية في القرن السابع فلم يظهر في هذا القرن كتاب أو مؤرخون أو قام أحد بعمل انشائي ذي بال . وعم الخوف الناس في هذا القرن وانتشرت فيه الخرافات .

ولم يكن هذا كله ليدل على سقوط الدولة النهائي بل أظهر أن الأزمة متأصلة وان على الامبراطورية أن تتفاداها بمحاولة تغيير اتجاهاتها . وكان السبب الأول في هذه الأزمة هو محاولة يوستنيانوس الفاشلة في اعادة الروح الرومانية الى الامبراطورية وتوحيد الشرق والغرب .

ولم يبق أمام الدولة الا أن تخضع للعوامل الجغرافية والجنسية والاقتصادية والدينية والادارية ، فتغير اتجاهها تغيرا واضحا وأصبحت امبراطورية يونانية شرقية بعد أن كانت امبراطورية رومانية ، وقد مكنها هذا الوضع من أن تحافظ على ما تبقى لها بعد استيلاء العرب على أهم أقاليمها واستيلاء السلاف على شبه جزيرة البلقان ، وكتب للامبراطورية البيزنطية البقاء حتى القرن الخامس عشر .

النظام الإدارى والمالى ونظام الجيش والحالة الاقتصادية
فى مصر فى العصر البزنطى

النظام الادارى :

عندما اعتلى ديوقلديانوس العرش كان أول ما اتجه اليه هو فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية وتوحيد النظام الادارى فى كل أنحاء الامبراطورية . ولذلك أعاد تنظيم مصر فقسمها الى ثلاث مقاطعات هى مصر الجوبيترية ومصر الهرقلية وطيبة . ويحتمل ان هذه المقاطعات كانت تقابل على وجه التقريب أقسام الدلتا ومصر الوسطى ومصر العليا التى كانت موجودة فى القرن الأول من العصر الرومانى . وفى عهد قسطنطين الثانى تكونت فى عام ٣٤١ مقاطعة رابعة « الأغسطنية » من الأقاليم الشرقية فى المقاطعتين الأولى والثانية . وفى عهد ثيودوسيوس الأول أضيفت ليبيا الى مصر فأصبحت المقاطعات خمسا . وحوالى أواخر القرن الخامس غير اسم المقاطعتين الأولى والثانية فأصبحتا على التعاقب مصر واركاديا .

ولما كان ديوقلديانوس وخلفاؤه حتى يوستنيانوس يرون ضرورة فصل السلطتين المدنية والعسكرية فقد وضع على رأس السلطة المدنية فى كل أنحاء البلاد حاكم عام كان يهيمن على شئون الادارة والمالية والقضاء وأسندت قيادة الجند الى قائد مستقل . وكانت المقاطعة الأولى خاضعة لنفوذ الحاكم العام مباشرة . اما المقاطعات الأخرى فقد كان يتولى حكمها رؤساء يقيم كل منهم فى مقاطعة ويخضع للحاكم العام الذى كان بدوره يخضع « لحاكم أو دوق الشرق » . وعندما ضمت ليبيا الى مصر منح الحاكم العام لقبا مستشارا وقسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص .

وقد تبع تقسيم البلاد الى مقاطعات اعادة تنظيم الادارة المحلية فى أوائل القرن الرابع ، فلم يعد هناك وجود عملى للمديريات فانها قسمت الى أقاليم أصبحت هى الوحدات الفعلية فى الادارة المحلية ، وترتب على ذلك بطبيعة الحال الغاء منصب المدير أو القائد وكذلك الغاء منصب الكاتب الملكى . وكان أهم الحكام المحليين مراقب جمع الضرائب (Exactor) واليه انتقلت اختصاصات القائد فى الشئون المالية . اما اختصاصات القائد المدنية فانها انتقلت الى حاكم آخر (Logistes) كان فى الأصل ممثل السلطة المركزية لكنه أصبح حاكما محليا دائما يتمتع بنفوذ فى الأقاليم والمدن على السواء وآلت

اليه اختصاصات حكام المدينة القدماء فزالوا بالتدريج . وبعد القرن الرابع حل مكان هذا الحاكم (Logistes) حاكم آخر (Defensor) ، وقد ظلت مجالس الشورى قائمة والقيت عليها المسئولية كاملة عن الادارة العامة والادارة المالية ، وغدت عواصم المديريات بلديات على النمط الروماني تستمتع بحكم ذاتي ويدخل في نطاق كل منها منطقة ريفية .

وكان الهدف من كل هذه التغييرات هو أن تخضع مصر بالتدريج لعادات وقوانين الولايات الأخرى في الامبراطورية بالرغم من اختلاف العوامل الجغرافية . وقد كان من آثار الرغبة في التوحيد والتبسيط أن اعتبرت اللغة اللاتينية لغة رسمية حتى في الولايات التي كانت اليونانية لغة رسمية فيها مثل مصر . ولكنه لم يكن لهذا القرار اثر فعال في مصر ، فقد ظلت اليونانية لغة المحاكم والادارات الحكومية . وكانت القرارات العامة تصدرها . وربما كان الأثر الوحيد لهذا القرار أن المحاضر الرسمية للقضايا أصبحت تصدر في اطار لاتيني أي أن العنوان والتاريخ وموضوع القضية كانت تكتب باللاتينية ، وقد يكتب الحاكم ملاحظاته باللاتينية ، أما اقوال الطرفين والشهود واحكام القضاة فظلت تكتب باليونانية . .

وكذلك غيرت طريقة تأريخ الوثائق القانونية فاستبدلت بسنوات حكم الامبراطور سنوات القناصل مع ذكر موقع العام من دورة تقدير الضرائب ، وكانت تحدث مرة كل خمسة عشر عاما . وظلت هذه الطريقة متبعة حتى الغيت القنصلية في عصر يوستنيانوس واعيد نظام التأريخ بسنوات حكم الامبراطور . .

لم يكد يوستنيانوس يعتلي العرش حتى ادخل تعديلين على نظام الادارة في مصر قضى احدهما على اعتبار مصر وحدة ادارية واحدة اذ أن هذا الامبراطور قصر نفوذ الحاكم العام على المقاطعة الاولى وسوى بينه وبين حكام المقاطعات الاخرى وجعلهم جميعا خاضعين لدوق الشرق . اما التعديل الآخر فكان الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية واسنادهما معا الى حكام المقاطعات فأصبح كل منهم في مقاطعته رئيس الادارة والشرطة والقضاء والمالية ، لكن حاكم المقاطعة الاولى هو الذي كان يجمع في الاسكندرية كل ضرائب مصر نوعا ونقدا ثم يرسلها الى بيزنطة .

وكانت سلطة حكام المقاطعات محدودة فكانوا يلجأون الى القسطنطينية لتمدهم بالجند في حالة قيام اضطرابات أو ثورات داخلية . وكان هؤلاء الحكام في أول أمرهم اجانب ، ولكن رأى الاباطرة فيما بعد أن يختاروهم من بين اليونان المقيمين في مصر واقر هذا التصرف يوستين الثاني سنة ٥٦٩ . وكان الامبراطور يقر تعيين الحاكم الذي يرشحه الأساقفة وكبار الملاك وعظماء البلاد .

الجيش :

منذ قرر ديوقلديانوس فصل السلطتين المدنية والعسكرية لم يعد الجيش خاضعا لحاكم مصر العام فقد أسندت قيادة الجند الى قائد مستقل . وعندما ضمت ليبيا الى مصر وبذلك أصبح عدد المقاطعات خمسا قسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص . وعندما عدل يوستنيانوس عن فكرة الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية لم يؤد ذلك الى توحيد قيادة الجيش فى مصر وانما الى تقسيمه خمس وحدات بعدد المقاطعات وخضوع كل وحدة منها لامرة حاكم المقاطعة ، وكان حكام المقاطعات يخضعون لقائد الشرق الذى كان مقره القسطنطينية .

وسرعان ما تقاعست الأحوال لأن واجبات الحاكم المدنية أبعدته عن حياة الجيش وتبعا لذلك عن متابعة تطور الفنون الحربية . ولم يزد عدد رجال الجيش على ثلاثين ألف جندى وزعوا على المراكز الحربية المختلفة على الحدود وفى الداخل ثم فى المدن الكبرى . وكان الوجه البحرى محصنا تحصينا قويا فى الزوايا الثلاث للدلتا : فى الفرما شرقا والاسكندرية غربا وفى بابليون « مصر القديمة » حيث كانت بها حامية كبيرة منذ الفتح الرومانى .

وفى الوجه القبلى أنشئت على طول الوادى مراكز حربية فى المواقع الهامة مثل قفط ، وأسوان .

والواقع أن الجيش فى مصر فى العصر البيزنطى كان جيشا هزيلا يقوده رؤساء غير أكفاء ، ويتكون من جنود مرتزقة لا يتصفون بأية صفة عسكرية . وكان واجبهم هو قمع الاضطرابات الداخلية ومساعدة الحكام على جمع الضرائب أى أن عملهم كان قاصرا على عمل رجال الشرطة . وقد أصبح للجندى حق الزواج واتخاذ مهنة مدنية أثناء مدة خدمته فى الجيش .

النظام المالى :

لما كانت بيزنطة — مثل روما — تستهدف ابتزاز ثروة مصر ، فان الضرائب لم تتناقص طوال العصر البيزنطى عما كانت عليه من قبل بل ازدادت باطراد فساءت حال الناس وأصبح جمع الضرائب مهمة شاقة . ولم يتورع الموظفون عن استخدام مختلف ضروب القسوة لجمع الضرائب . ولذلك أخذ الناس فى الالتجاء الى الصحراء هربا من المعاملة القاسية التى كان يعامل بها كل من تأخر فى دفع الضريبة ، فقد كانت توقع عليه الغرامات والضرائب الاضافية ثم تصادر أملاكه ويزج به فى السجن وويل لمن حاول المقاومة .

وكانت أكثر الالتزامات تقع على عاتق صغار الملاك الذين ازداد عددهم فى العصر الرومانى الى أن اضطرهم جور الحكومة الى النزول عن أراضيهم لبعض جيرانهم الأثرياء ذوى النفوذ ، فأخذت طبقة صغار الملاك تختفى تدريجيا خلال القرن الخامس حتى

لم يعد لها وجود في بداية القرن السادس . ولم يلبث هؤلاء السادة الا الأديرة التي اخذت تضيف باستمرار أملاكا جديدة الى ممتلكاتها ، وأصبحت أقاليم كاملة تخضع لسلطان الأديرة التي تمتعت باعفاء أملاكها من الضرائب ، وازدادت تدريجيا الضياع الواسعة ، فأصبح معظم أراضي الأملاك الخاص وجانب كبير من أراضي الدولة في قبضة فئة صغيرة من كبار ملاك الأراضي .

الحالة الاقتصادية :

كان قوام ثروة مصر حاصلاتها الزراعية وأهمها الحبوب والكروم والزيتون والنخيل والمواشي ، وكان الجزء الأكبر من هذه الحاصلات يدفع لتسديد الضرائب ويصدر الفائض عن الحاجة الى خارج البلاد

وعرفت مصر منذ العصر الروماني بصناعاتها الخزفية والعاجية والزجاجية وبخاصة المنسوجات .

كما عرفت مصر صناعة أوراق البردي التي ظلت تجارتها مزدهرة حتى القرن السابع الميلادي، وذخرت مصر بمناجم الذهب وبعض الأحجار الكريمة والمرمر والبازلت والجرانيت وغيرها . ولم يلتفت الحكام البيزنطيون الى استغلال المناجم في مصر ولكنهم اكتفوا باستخراج المرمر والبازلت والجرانيت لتصديره .

وكان لأصحاب كل حرفة في مصر نقابة ، تخضع لموظف مسئول عليه مراقبة الأسعار وتحصيل الضرائب . وكانت هناك أسواق كبيرة سنوية ، وأسواق أسبوعية في القرى لبيع المحصولات والمنتجات .

وكانت مصر من الناحية التجارية هي الطريق الذي يتوسط الشرق الأقصى والغرب ، وكانت السفن تأتي من الصين والهند مارة بباب المندب محملة بالأفاويه والأخشاب والحرائر والأواني الخزفية ، تخترق البحر الأحمر ثم ترسو في الموانى البيزنطية التي ورثها بيزنطة عن البطالمة . وكانت أكثر البضائع تفرغ في منطقة القصير ، ومن ثم تحملها القوافل الى قفط ، ومنها تشحن في مراكب تقطع المسافة بين قفط والاسكندرية في اثني عشر يوما . وكانت البضائع الافريقية تسير في هذا الطريق قادمة من عدول ـ ميناء مملكة أكسوم الاثيوبية ـ وتتضمن الزمرد من بلاد البليميين ، والعاج من اثيوبيا ، والأبنوس من أواسط افريقيا ، والذهب من المنطقة التي أطلق عليها الرحالة كورماس اسم ساسو . ومنذ القرن السادس الميلادي اضطر التجار أن يسلكوا طريقا آخر ، لأن الطريق القديم أصبح غير مأمون بسبب هجمات البليميين . فكانت البضائع تحمل في البحر الأحمر حتى القلزم(السويس) ثم تتجه غربا في القناة التي كانت تصل السويس ببابليون (تقابل الآن ترعة الاسماعيلية) . وكانت البضائع تحمل من بابليون الى موانى البحر الأبيض المتوسط

عن طريق النيل . وفي القرن السابع أصبحت قناة بابليون غير صالحة للملاحة .

وكانت حاصلات بلاد مابين النهرين وفلسطين تحملها القوافل في طريق يصل الى غزة فالفرما ، وهذا هو الطريق الذي أسماه الفراعنة « طريق حورس » وكانت القوافل تمر بمنطقة قريبة من القنطرة الحالية لتصل الى بلبيس فأون (هليوبوليس) ومنها الى الاسكندرية . وكانت البضائع تنقل اما على المراكب في فروع الدلتا ، واما في قوافل من جمال وحمير ، ولم تستخدم الخيل لانها كانت مخصصة للجيش منذ العصر الروماني .

كانت التجارة في العصر الروماني مزدهرة في مصر ، ولكنها أخذت تتعثر في العصر البيزنطي ، فموانئ البحر الأحمر ما فتئت أهميتها تتضاءل ، حتى لم يبق على البحر الا ميناء القلزم ، وذلك بسبب منافسة الفرس الشديدة التي أفضت الى تحويل جانب كبير من التجارة الشرقية الى الخليج الفارسي . وقد حدا ذلك بالامبراطور يوستنيانوس الى العمل على التخلص من وساطة الفرس في التجارة الشرقية واعادة النشاط التجاري في البحر الأحمر الى سابق عهده ، ولكنه لم يصب في ذلك نجاحا مذكورا .

وفي عصر يوستنيانوس قام كوزماس التاجر الاسكندري برحلة في البحر الأحمر والخليج الفارسي ، وزار أثيوبيا والساحل الشرقي لافريقيا حتى وصل زنجبار ، ثم عاد عكف عند منتصف القرن السادس على كتابة ملاحظاته القيمة في كتابه المسمى «الطوبوغرافية المسيحية» . وكانت مصر محط انظار رجال الفكر في العالم فتوافدوا اليها لزيارة آثارها ، ولمشاهدة الحياة الديرية المصرية ، ولتلقي العلم في مدارسها الشهيرة في ذلك العصر . نذكر منهم اسيوس القرطبي ، وجريجوريوس النزيانزي ، وصديقه باسيليوس ، وأوسيبيوس ، والقديس هيرونيموس (جيروم) ، وبولس الأوروسي ، وبطرس الايبيري ، وبلاديوس ، وروفينوس ، وكاسيانوس .

وقد شاهد هؤلاء الرجال مصر ووصفوها — كما نراها اليوم — بحقولها النضرة في الدلتا تخترقها القنوات وفروع النيل ، كما شاهدوا الوجه القبلي وقد حدت الصحراء من منطقته المزروعة . وكانت القرى — كما كانت عليه في العصر الفرعوني — لم تتطرق اليها الحضارة الاغريقية . وكانت مصر تعج بالأديرة التي تضم بين جدرانها مئات من الرهبان .

وقد تجمعت الحسد في مصر وحاول الأباطرة عبثا انعاشها بشتى الطرق الادارية فكان الحكام على جانب كبير من الضعف ولا هم لهم الا جمع الضرائب ، وارضاء الموظفين . وعم البؤس الفلاحين فاضطروا منذ القرن السادس الى يلتجئوا الى كبار الملاك لحمايتهم فأصاعوا املاكهم وحريتهم ، وكان في ذلك قضاء على الملكية الصغيرة التي هي كيان

المراكب في فروع الدلتا ، واما في قوافل من

اقتصاد الدولة المنظمـــة وقوام حياتهـــا الاجتماعية . وازداد عدد كبار الملاك ، بالرغم من محاولات الأباطرة المتعددة فى منع هـــذا الازدياد والحد من تفاقم سلطانهم ، وتكونت الاقطاعيات مما كان له أكبر الأثر فى تدهور أحوال البلاد .

* * *

كان انهاك الشعب بالضرائب مصدرا من مصادر شقائه ، كما قاسى من مغالاة الموظفين البيزنطيين المسرفة فى ارهاقه ليكونوا لهم ثروة خاصة على حسابه . وكانت مصر فى نظر الأباطرة حقلا كبيرا ينتج الحبوب فاستغلوها كما لو كانت مواردها لا تنتهى ، واستغلوا أهلها كما لو كانوا منجما من ذهب لا ينضب معينه . ولم يهمهم أمر رخاء وادي النيل كما لم يهمهم أمر الأمن فى الأرياف ولا المـــجاعة والقحط والجوع الذى كان يجتـــاحهم بين وقت وآخر .

وقد جر البيزنطيون على مصر الخراب بسياستهم وبتصرف موظفيهم .

وكان يوستنيانوس أول من أصـــــدر مرسوما (المرسوم الثالث عشر) يشكو فيه من الوســـائل التى يتخـــذها الموظفون ومن اهمالهم فى ترميم المنشآت العامة . وحاول أن يعالج الشقاء بصرف مقدار كبير من القمح لفقراء الاسكندرية ، وكان لم يصرف لهم أى شيء منذ أيام ديوقلديانوس .

ولم تسمح طوال الحكم البيزنطى أن أحد أبناء الشعب الناجين ظهر ليتقـــذ البلاد من براثن الاستعمـــار الأجنبى ، أو أن يحد من نشاطهم الهدام ، أو يطالب بأحقيته فى الحكم .

وكان البطريرك — وقد سلمه الشعب قيـــادته — يمنعه مركزه الدينى وكرامتـــه ووطنيته من الخضوع لارادة الأباطرة ولكنه كان مضطرا لمسالمتهم .

وكان من أهم أسباب انهيار الامبراطورية مقاومة الشعب المستمرة فى تأدية الضرائب المطلوبة ، فكان يتهرب من دفعها ، ويترك أراضيه ، وصناعته ، ويفضل أن يجلب على نفسه الخراب على أن يدفع الضرائب . وكانت العاملة الفقة التى يلاقيها من جامعى الضرائب تضطره الى دخول الدير أو الانضواء تحت حماية كبار الملاك .

وشل هذا حركة الدولة الماليـــة ، وزاد الطين بلة أن رجال الدين والرهبـــان أثقلوا كاهل الميزانية فضلا عن أنهم كانوا لا يدفعون شيئا للدولة .

وكان لسخط الشعب وثوراته وعـــدم استتباب الأمن فى الأقاليم ، والاضطرابات فى العاصمة ، والاضطهادات ضـــد الوثنيين واليهود ، أثرها الفعال فى انقضــــاء على التجارة والصناعة ، وذلك بالرغم من طبيعة الشعب فى حب العمل .

كانت هذه الأحوال كلها باعثا للمصريين على الترحيب بالعرب ، يحدوهم الأمل فى أن يتمتعوا بحياة فيها رخاء وطمأنينة .

الفصل الأول

الحيـــاة السياسية

دخلت المسيحية مصر فى منتصف القرن الأول الميلادى ، فى وقت كانت فيـه أفكار الناس حائرة مضطربة بين عشرات المعبودات التى قدمتها لهم الديانات المصرية واليونانية والرومانية بالاضـــافة الى الديانة اليهودية وبعض الديانات الشرقية الأخرى. ولمستطاعت المسيحية أن تتغلغل فى روح المصرى بقدر ما كان مستعدا لتقبلها بما ورثه من ممهدات لذلك فى ديانته المصرية القديمة .

وقد انتشرت المسيحية فى مصر انتشارا سريعا ، واستمرت فى النمو حتى قضت نهائيا على الوثنية وانتصرت على اليهودية حتى لم يتبق من اليهـود سـوى طائفـة ضئيلة لا أهمية لها .

ولم يتم هذا الانتشار بسهولة ، وانما تم بعد صراع جبار كان له ميدانان : أولهمـا الميدان الفكرى وقد قام بالدور الهام فيـه مدرسة الاســكندرية اللاهوتية وعلمــاء المسيحيين وفلاسفتهم . أما الميــدان الآخر فكان ساحة الاستشهاد ، وقد بدأ عمليـا بهجـوم الوثنيين سنة ٦٨ م على كنيســة الأقباط شرقى الاسكندرية وقتلهم القـديس مرقس الرسول بعد أن جروه بالحبـال فى شوارع المدينة حتى مزقوا لحمه .

وكان النزاع فى أولى صوره نزاعا بين دينين : المسيحية والوثنية . ولكن ما أن تمت المسيحية فى مصر حتى أصبحت تمثل الشعب المصرى كله تقريبا ، وظل الحـكام الرومان يمثلون الديانة الوثنية ، وظهر عندئذ بوضـوح أن هذا النزاع كان فى نفس الوقت صراعا بين شعب وحاكميـــه ، أو بين أبنـــاء وطن ومستعمريه . وهكذا تركز الشعور القومى وتوحد . وأخـــذ أقباط مصر يتمســكون بقوميتهم كراهة فى كل ما هو أجنبى عنهم ، فكان من نتائج ذلك فيما بعد ظهور الحركة الأدبية القبطية الخالصة التى قادها الأنبـا شنوده لتنقية اللغة القبطية المصرية من الألفاظ اليونانية الدخيلة ، ورفض أدبيـات اليونان وثقافاتهم .

وقد بدأ هذا الصراع بين مصر المسيحية وحكامها الرومان منذ القرن الأول الميلادى ولم ينته الا بدخول العرب . وصـار أباطرة الرومان أعـداء سياسيين للشعب المصرى ، كما كانوا له فى نفس الوقت أعـداء دينيين

طوال العصر الروماني . واستحكم العداء حتى كان الأباطرة المسيحيون أنفسهم يميلون الى المذهب المخالف لمذهب مسيحيي مصر ، وكما اضطهدت مصر على يد أباطرة الرومان الوثنيين اضطهادا عنيفا ، كذلك اضطهدت بنفس العنف من أباطرة الرومان المسيحيين . ولا يستثنى من ذلك الا عدد ضئيل جدا من هؤلاء الأباطرة كانت فترات حكمهم بمثابة هدنة سرعان ما تنتهي لتستأنف مصر صراعها مع الحكم الروماني من جديد .

ولكي تتضح لنا حلقات هـذا النزاع يمكن أن نقسمه الى ثلاث فترات مميزة وهي :

أ — فترة الصراع مع أباطرة الرومان الوثنيين الى سنة ٣١٣ م

ب — فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين للهراطقة من سنة ٣١٣ الى سنة ٤٥١ م

جـ — فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا روما من سنة ٤٥١ م — سنة ٦٤١ م

أ — الصراع مع الأباطرة الوثنيين

كان الأباطرة الوثنيون ينظرون الى المسيحيين عامة كمصدر خطر عليهم ، فاضطهدوهم أينما وجدوا . ولكن الاضطهادات التي حلت بمسيحيي مصر كانت أبشع قسوة وأكثر عددا لما اتصف به الأقباط من الصلابة والثبات على ايمانهم . وقد شعر الأباطرة وولاتهم انهم أمام شعب شجاع متمسك بدينه ، لا تثنيه الاغراءات وطرق الاستمالة المتنوعة ، فاستخدموا معه كافة ألوان التعذيب الوحشية من حرق وجلد وصلب وسلخ ونشر ورجم وتقطيع أعضاء وتهشيم أسنان وضرب بالسيف والقاء الى الوحوش المفترسة وسجن وغيرها مما لا يدخل تحت حصر من صنوف القسوة .

ومع ذلك لم تجد كل هذه الوسائل في اضعافهم ، بل كان الناس يأتون من تلقاء أنفسهم الى الولاة مجاهرين بمسيحيتهم ، حتى أن الأنبا انطونيوس الراهب الناسك المتوحد ترك وحدته وأتى الى الاسكندرية وهو شيخ في حوالي الستين من عمره لينال شرف الاستشهاد . وتطور الأمر بالولاة والأباطرة ، فبعد أن كانوا يعمدون الى قتل الأفراد أخذوا يبيدون قرى ومدنا بأسرها وصار عدد الشهداء يقدر بمئات الألاف .

وأشهر الاضطهادات التي مرت بالمسيحية في مصر اضطهادات ترجان سنة ٩٨ م ، وسبتيموس سيفروس سنة ١٩٣ م ، وديكيوس Decius سنة ٢٤٩ م ، وفاليريان سنة ٢٥٤ م . ولكن أعنفها جميعا كانت المذابح التي أنزلها ديوقلديانوس بالمصريين وكأنه قد جمع همته أن يفنيهم افناء . ولذلك فان الكنيسة القبطية تجعل بدء تقويمها سنة ٢٨٤ م وهي السنة التي تولى فيها هـذا الامبراطور حكم الامبراطورية الرومانية . ويسمى هذا التقويم بتقويم الشهداء .

وقد قتل في حركات الاضطهاد هذه بعض بطاركة الكنيسة القبطية وعـــدد وافر من أساقفتها ورهبانها وعلمائها ، وتعطلت مدرسة الديداسكاليه اللاهوتية في الاسكندرية مدة من الزمن . وأحرقت الكنـائس والـكتب المقدسة ، وفاضت الطرقات بالدماء . ومـع ذلك صمد المصريون صمودا عنيـدا عجيبـا ولم يرضخوا للاباطرة الرومانيين ، بل كان عدد المؤمنين ينمو باطراد ، وكثيرون كانوا ينضمون الى المسيحيـــة متأثرين بشجاعة المسيحيين واستهانتهم بالموت في ســـبيل عقيدتهم .

ولما وجـــد الاباطرة أن كل هــــذه الاضطهادات لم تأت بنتيجة سوى زيادة قوة الكنيســـة ، وأن المسيحيين قـــد سرت فيهم موجة طاغية من « شهوة الاستشهاد » حتى كانوا يثيرون الولاة بتوبيخهم على وثنيتهم ولعن أصنامهم لكي ينالوا أكاليل الشهادة على أيديهم ، فـــولد لما لمس الاباطرة ذلك يئسوا أخـيرا واضطروا الى وقف هـــذه المذابح البشرية لعدم جدواها ، ولأنها خلقت عوامل خـــراب في أجـــزاء الامبراطورية وأدت الى تعطيل مصـــادر الايراد من زراعة وصنـاعة وتدهور الحالة الاقتصادية وانتشار المجاعات والأوبئة .

والكنيســـة القبطيـــة تطلق لقب خاتم الشهداء على بطريركها الأنبا بطرس الأول ، وكان السابع عشر في عداد البطاركة ، ليس لأنه آخر شهيد مسيحي ، وانما لأن قتله كان ختاما لحركات المذابح العامة التي استشهد فيها آلاف المسيحيين ، ولأنه أيضا كان آخر من استشهد من بطاركة الاسكندرية . ولما قبض على هـــذا البطريرك وطرح في السجن التف الشعب القبطي حول السجن ليمنـع الجنود من اخراجه ليقتل . ولكن البطريرك خاف على شعبه من أن يعمل فيــــه الجنود سيوفهم من أجل حماية شخصه فسلم نفسه سرا للجنود بأن طلب من القـائد أن ينقب جدار السجن من جهـــة لا يحيط بهــــا المسيحيون فتم ذلك وسـلم رأســـه للجند فقطعوه ، وكان ذلك سنة ٣١١ م . ولم يعلم الشعب المحاصر للسجن بقتل البطريرك الا بعد انصراف الجند .

في كل ذلك ضرب الشعب المصـــــري وبطاركته أروع المثل في الاستشهاد . وكان البطاركة وأســـاتذة المدرســـة اللاهوتية يصدرون الرسائل والكتب حثا للناس على الاستشهاد وتثبيتا لهم في دينهم . وكان أفراد الشعب يشجعون بعضهم بعضا في ســـاحات الاستشهـــاد ، ويزورون المقبوض عليهم في الســـجون ، ويقفون الى جوارهم أثنــــاء المحاكمات ، ويخطفون أجسادهم ليدفنوها ، كـل ذلك في غير خـوف أو تردد . وكان الشهداء أنفسهم يقابلون الموت في فرح . وكان الكثيرون منهم يترنمون في بهجة خلال اقامتهم في السجون أو أثنـاء سـيرهم في الطريق الى ساحة الاستشهاد .

وأخيراً أوقف الأباطرة هذه المذابح ، ولم يلبثوا أن اعترفوا بالأمر الواقع وأباحوا للمسيحيين حق ممارسة عباداتهم دون التعرض لهم . وقد قرر ذلك الامبراطور قسطنطين وهو الذي اعتنق المسيحية ، وفتح بابها أمام باقي الأباطرة . وهكذا انتهى على يديه عصر اضطهاد الوثنية للمسيحية . ولم تبق من الوثنية في مصر سوى قلة ضئيلة ذابت بمرور الزمن .

ب — الصراع مع الأباطرة المناصرين للهراطقة

هـذه الفترة من تاريخ مصر هي فترة آلام ومجد ، وجه فيها المصريون دفة الفكر المسيحي وقادوا مسيحي العالم في المعرفة اللاهوتية . وليس أدل على ذلك من أن قانون الايمان المسيحي الذي تعترف به كل الكنائس المسيحية هو من وضع وصياغة أثناسيوس الاسكندري .

وفي خلال هذه الفترة وقف بطاركة الاسكندرية حفاظاً على الايمان القويم ، فقاوموا الهرطقات وهي الخرافات الدخيلة على الايمان أو البدع الخارجة على الدين ، وحرموا الهراطقة من عضوية الكنيسة بعد أن أظهروا لهم وللعالم فساد معتقداتهم .

واشتهر اسم الاسكندرية في العالم كله ، واعترفت بها المجامع العالمية (المسكونية) كنيسة من الكنائس الأربع الكبرى وهي كنائس رومه والاسكندرية والقسطنطينية وأورشليم . وإذا كانت لرومه أهميتها السياسية كعاصمة للامبراطورية الغربية فإن الاسكندرية كانت أولى كنائس العالم في التعليم المسيحي وفهم الدين وشرح قواعده . وليس أدل على قوة الاسكندرية من أن بطاركتها حرموا ثلاثة من بطاركة المدينة العظمى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الشرقية بعد أن أثبتوا عليهم أنهم مبتدعون في الدين وهراطقة . وهؤلاء البطاركة الذين حرموا هم : مقدونيوس الذى حرمه تيموثاوس ، ونسطور الذى حرمه كيرلس ، وفلابيانوس الذى حرمه ديسقورس ، ووافقت المجامع على هذه الحروم ، ووقع عليها الأباطرة ، كما حرموا من قبل أريوس في مجمع نيقيه . وكان لهم في المجامع المسكونية مركزهم البارز فكانوا لها رؤساءها وإما العنصر القوي الموجه لها .

وقد اشتهر بطاركة الاسكندرية بشجاعتهم وثباتهم الوطيد على الايمان ، فبينما عصفت الأريوسية بكثير من أساقفة العالم الأقوياء حين ناصرها الأباطرة بقوتهم ، وبينما رضخ لها بعض الأساقفة تحت ضغط التعذيب عن ضعف لا عن اقتناع ، نرى أن أساقفة الاسكندرية لم يبدلوا قيد أنملة عن الايمان المستقيم متحملين النفي والعزل وألواناً شتى من الاضطهاد ووقفوا في وجه الأباطرة وقفات مجيدة مشرفة . ولولاهم لصار العالم كله أريوسياً فاسد العقيدة .

وهذه المقاومة التي ناوأت بها مصر

الأباطرة والولاة الرومان ، لم تكن مجرد حركات فردية من البطاركة ، وانما كانت حركات شعبية شاملة يقوم فيها البطاركة بدور الزعامة ، كما كانت أحيانا حركات شعبية محضة بعيدة عن تأثير البطاركة أو قيادتهم . كان الشعب المصري حريصا أشد الحرص على ايمانه ، يرفض تدخل الرومان في معتقداته . من أجل هذا استطاع أن يرغم الأباطرة أحيانا على الاذعان له ، كما استطاع أن يحتمل اضطهاداتهم في صبر ورجولة . وليس أدل على ذلك من أنه في حالة نفي البطريرك أو عزله أو سجنه ، كان الشعب بأسره — بدون بطريرك — يقوم بثورات عنيفة استطاعت في كثير من الأحيان أن ترغم الأباطرة على سحب أوامرهم والاذعان لقوة الشعب .

ومن المظاهر الواضحة في هذه الفترة أن الأباطرة كانوا كثيرا ما يعزلون البطريرك المصري ، ويعينون بطريركا آخر في مكانه (كيادوكيا مثلا) ايمانه مخالف لايمان الشعب المصري ، تحميه قوة مسلحة يستطيع بها أن يدخل الاسكندرية عنوة ، وأن يصلي في الكنائس آمنا من أن يطرده منها الشعب ، ثم يبدأ هذا البطريرك الدخيل في اضطهاد المصريين وقتل الكثيرين منهم ليتبوأ منصب البطريرك المنفي . كل ذلك كان ولا شك يدفع بالمصريين الى الشعور بقوميتهم المصرية وبأن الرومان عنصر أجنبي مستعمر يستخدم السيف لتحقيق أغراضه وأن البطاركة الدخلاء لا يختلفون في شيء عن الجنود الرومان المغيرين المحتلين لبلادهم . لذلك كانوا يرفضون أن يعاملوهم كبطاركة ، وقد أقدموا فعلا في احدى الثورات على قتل أحدهم وهو جورجيوس الكبادوكي .

هرطقة أريوس :

ظهرت هرطقة أريوس في عهد الأنبا بطرس خاتم الشهداء ، أي في زمن ديوقلديانوس الوثني المضطهد . وقد حرم أريوس من الأنبا بطرس ثم استشهد بطرس دون أن يعفو عنه . ولكن هذه الهرطقة لم تنل قوة ولا انتشارا في أيام الاستشهاد لانشغال الناس عنها بما هم فيه من ألوان العذاب البشعة . فلما استراحت المسيحية من الاضطهاد الوثني التفتت الى هذه الهرطقة وعملت على دحضها . فتجدد حرم أريوس مرة أخرى على يد الأنبا الكسندروس البطريرك التاسع عشر من بطاركة الاسكندرية . ولكن أريوس استمر على عناده ولم يتخل عن هرطقته . وانضم اليه كثيرون من مصر وغيرها من البلاد المسيحية مما أدى الى عقد مجمع نيقية المسكوني في سنة ٣٢٥ م بأمر الامبراطور قسطنطين لمحاكمة أريوس وارساء قواعد الايمان .

وقد ضم هذا المجمع ٣١٨ أسقفا من أساقفة العالم المسيحي ، كان من أبرزهم الأنبا الكسندروس بطريرك الاسكندرية وشماسه اثناسيوس الذي لم يكن يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره .

أثناسيوس وجهاده :

ولد أثناسيوس في الاسكندرية سنة ٢٩٦ م من أبوين وثنيين . وجمع بين الثقافة الوثنية بحكم مولده ودراساته الأولى ، والثقافة المسيحية بحكم دراسته في مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وأضاف اليها ثقافة نسكية روحية ، اذ أنه تتلمذ ثلاث سنوات في البرية على القديس الأنبا أنطونيوس وقد اختاره الأنبا الكسندروس البطريرك تلميذا له ورسمه شماسا واصطحبه في سنة ٣٢٥ م الى مجمع نيقية .

وفي مجمع نيقية بدأت شهرة أثناسيوس العالمية . واستطاع هذا الشماس الشاب أن يقف معلما للايمان وسط ٣١٨ أسقفا يمثلون جميع كنائس العالم . وتمكن من تفنيد آراء أريوس في براعة واقتناع وتولى بنفسه صياغة قانون الايمان مدققا في اختيار عباراته كلمة كلمة . وأخذ مجمع نيقية بأقوال أثناسيوس ، وحرم أريوس وعزله من عضوية الكنيسة ، وأقر الامبراطور هذا الحكم . وانفض المجمع بعد أن نظر في أمور أخرى كانت معروضة عليه ، وأصدر عشرين قانونا كنسيا .

وهذه الزعامة الفكرية رفعت من شأن أثناسيوس في العالم المسيحي ، وأهلته لأن يخلف الأنبا الكسندروس ويصير بطريركا للاسكندرية سنة ٣٢٦ م ، غير أنها ألبت عليه حسد ومؤامرات الأريوسيين ، وخاصة من كانوا من حاشية الامبراطور ، مما جعل حياة الأنبا أثناسيوس سلسلة من الجهاد والآلام في سبيل الدفاع عن الايمان المسيحي . وذلك لأن هرطقة أريوس لم تنته بقرارات مجمع نيقية . فقد بذل أريوس جهده حتى ضم اليه بعضا من الأساقفة ، وتظاهر بالتوبة واقتنع الامبراطور قسطنطين بذلك فطلب من الأنبا أثناسيوس أن يقبل أريوس ، ولكنه رفض طلب الامبراطور . وهكذا بدأت أول حلقة من حلقات صراع مصر ضد أباطرة الرومان المسيحيين .

وقد احتمل أثناسيوس في سبيل ذلك النفي عن كرسيه خمس مرات في عهود كل من قسطنطين وقسطنطيوس ويوليانوس وفالنس . ووقف أمام كل هؤلاء الأباطرة كالصخرة الصلبة لا يلين . ولو لم يقف هذا الموقف الحازم لصار العالم كله أريوسيا . فلم يكن أثناسيوس زعيما شعبيا في مصر فحسب يطيعه المصريون عن حب وثقة ويخضعون له بل كان فوق ذلك ممثلا للايمان السليم في العالم المسيحي كله ، تنظر اليه كل الكنائس كمعلمها الأول .

وفي هذا الصراع الذي اجتازه أثناسيوس ضد أباطرة الرومان كان الشعب المصري كله يؤيده . وقد دلت الحوادث على أن الأمر لم يكن عملا فرديا من جانب البطريرك وانما كان عملا جماعيا صادرا من الأمة كلها . فلما رفض البطريرك قبول أريوس أمر قسطنطين بنفيه عن كرسيه ، وأدى ذلك الى

قيام ثورة شعبية في مصر بقيادة فيلومينوس واتهم اثناسيوس بأنه كان السبب فيها .

وبعد موت قسطنطين خلفه قسطنطيوس في حكم الشرق ، وكان أريوسيا . فعين بطريركا أريوسيا على الكرسي الاسكندري بدلا من اثناسيوس واسمه جريجوري ، ولما لم يسمح له الشعب بدخول الاسكندرية ، زوده الامبراطور بقوة عسكرية استطاع بها دخول المدينة واستمرت هذه القوة معه لحمايته خوفا عليه من حركات الشعب . فعقدت كنيسة الاسكندرية مجمعا ضده من الأساقفة المصريين ، فتدخل سيريانوس قائد الحامية -- وكان اريوسيا -- وعمل على فض المجمع متوعدا بتدمير المدينة كلها . حينئذ انسحب اثناسيوس وهرب الى رومه ، فارتجت المدينة لهذا البطل المصري ذي المظهر البسيط الفقير . وانعقد مجمع في رومه اقر براءة اثناسيوس ووجوب رجوعه الى كرسيه . كما انعقد مجمع آخر في سرديكيا سنة ٣٤٣ م من مائتي أسقف حكم بشرعية رئاسة اثناسيوس لكرسي الاسكندرية . وكتب قسطنس امبراطور الغرب الى اخيه قسطنطيوس ، امبراطور الشرق ، ليطلب منه ارجاع اثناسيوس . وقد كان هدف اثناسيوس هو توحيد العالم المسيحي ضد الأريوسية بعد أن عاضدها الامبراطور ، واستطاع بقوته وتأثيره أن ينال تأييد العالم المسيحي . أما في مصر فكان الشعب في اضطرابات مستمرة طيلة مدة غيابه عنهم ، حتى أنهم طردوا من الأديرة جميع الذين اعتنقوا المذهب الأريوسي وعطلوا كنيسة الاسكندرية التي كان الأريوسيون قد استولوا عليها . وخاف الامبراطور من اندلاع حرب بينه وبين أخيه فكتب الى اثناسيوس سنة ٣٤٦ ثلاث رسائل متتالية يطلب اليه في احترام ولباقة أن يرجع الى كرسيه . فرجع الأنبا اثناسيوس الى مصر واستقبله الشعب استقبالا عظيما لم يحظ بمثله الأباطرة .

ولما كان الامبراطور لم يرجع اثناسيوس الا بدافع الخوف ، فانه ما كاد يتوفى أخوه قسطنس حتى عاد الى اضطهاد اثناسيوس وأمر بطرده من مصر . وعطل اثناسيوس هذا الأمر عاما كاملا دون أن ينفذه حتى تقدم القائد سريانوس على رأس قوة كبيرة بأمر الامبراطور واقتحم الكنيسة التي كان يصلي فيها اثناسيوس . وعندما التف الشعب المصري حول زعيمه وراعيه أعمل الجند سيوفهم في الشعب . أما الأنبا اثناسيوس فقد حمله بعض الرهبان وخرجوا به من الكنيسة، وفتح الشعب أبواب بيوته لاخفائه . وأرسل الامبراطور رسله الى مصر يحملون الأوامر بضرورة احضار اثناسيوس حيا أو ميتا ، لكنهم لم يستطيعوا العثور عليه .

وعقد الامبراطور مجمعا في ميلان سنة ٣٥٥ م ضد الأنبا اثناسيوس ، وكانت غالبية

أعضاء هذا المجمع من الأريوسيين ، وتنفيذا لرغبة الامبراطور قرر المجمع عزل أثناسيوس، فاحتج على ذلك أصدقاؤه من أساقفة الغرب.

وتلا ذلك تعيين جورجيوس الكبادوكي بطريركا على الاسكندرية بوساطة الاريوسيين ذوي الحظوة لدى الامبراطور ، ثم اتخاذ اجراءات تصفية ضد الأقباط أتباع أثناسيوس . فقد استخدم جورجيوس القوة العسكرية لارغام الشعب على قبول المذهب الأريوسي ، فلما رفض أعمل فيه القتل ، وشرد الكثيرين من الأساقفة المصريين وزج باثني عشر منهم في السجون ، واقترح على الامبراطور فرض ضريبة جديدة على المنازل في الاسكندرية .

وفي عهد الامبراطور يوليانوس (٣٦١ — ٣٦٣) الذي ارتد عن المسيحية الى الوثنية قام الشعب بثورة عنيفة أدت الى قتل جورجيوس البطريرك الدخيل ، وعاد اثناسيوس الى كرسيه . ولكن هذا الامبراطور أيضا أمر بطرده من الاسكندرية على اعتبار أنه ما يزال منفيا وانه عاد بدون اذن ، وكتب الى والي الاسكندرية مهددا اياه بفرض غرامة كبيرة عليه وعلى موظفيه اذا ظهر أثناسيوس في أرض مصر كلها . ولكن أثناسيوس اختبأ في قبر أبيه ستة أشهر ولم يغادر المدينة .

ولما تولى الامبراطور فالنس (٣٦٤ — ٣٧٨) وكان أريوسيا ، أمر بنفي أثناسيوس مرة أخرى . فرفض الشعب القبطي تنفيذ الأمر ولو أدى الى استشهادهم جميعا . وقامت ثورة عنيفة في مصر واضطر الامبراطور الى الاذعان لرغبات الشعب .

وقضى أثناسيوس السنوات السبع الباقية من حياته في سلام حتى توفى سنة ٣٧٣ م بعد أن احتمل الكثير من اضطهاد الأباطرة ومناصرتهم للاريوسية ، دون أن يخضع أو يلين في سبيل المحافظة على الايمان المسيحي في العالم كله وصونه من الانحراف . وفي خلال هذه الاضطهادات التي نزلت به اختبأ في مغارات الرهبان في الجبال وفي أديرتهم في الصحراء وفي بيوت المؤمنين في الاسكندرية ومرة في قبر أبيه ومرة أخرى في بئر جافة . وكان خلال فترات اختفائه يعمل باستمرار فقد كتب كثيرا من المقالات اللاهوتية للرد على المراسلة والدفاع عن موقفه وعن مجمع نقية ، كما كتب رسائل تشجيع للمؤمنين وللرهبان ، وبفضل كل ذلك استطاع أن يؤلب العالم أجمع ضد الأباطرة .

واستمر الامبراطور فالنس في اضطهاده للمصريين بعد وفاة الأنبا أثناسيوس ، فنفى خليفته الأنبا بطرس الثاني (٣٧٣ — ٣٨٠) وعين بدلا منه لوكيوس الأريوسي وأيده بقوات الامبراطورية . وأصدر فالنس قانونا جديدا عمل على تنفيذه بالقوة ، وكان يقضي بالغاء امتياز الاعفاء من الخدمة العسكرية الذي كان ممنوحا فيما مضى للرهبان وكذلك

لسكان بعض المدن والمقاطعات التابعة للأديرة مثل الفيوم، وارغام كل هؤلاء على الانخراط في الخدمة العسكرية بالقوة. وقد فضل كثير من هؤلاء المصريين أن يلقوا حتفهم وهم يقاومون الامبراطور على أن يدخلوا في خدمة قوات الامبراطور.

فترة هدوء:

ومضت الاضطهادات العنيفة التي أنزلها الأباطرة الرومان بمصر وتحملها المصريون في شجاعة وصبر ايان عهدي البطريركين الأنبا الناسيوس والأنبا بطرس الثاني. ثم آن لمصر ان تنعم بفترة هدوء عندما مات الامبراطور فالنس الأريوسي وتولى العرش الامبراطور ثيودوسيوس الكبير (من ٣٧٨ — ٣٩٥ م) وهو الذي اعترف بالديانة المسيحية ديانة رسمية للدولة. وساعد هذا القرار على اضعاف الوثنية، فأمكن تحويل الكثير من معابدها الى كنائس. وقد أرجع هذا الامبراطور الأنبا بطرس الثاني من منفاه، ولما توفي هذا البطريرك سنة ٣٨٠ م اختار الشعب بعده الأنبا تيموثاوس بطريركا. وفي عهده وقع مقدونيوس أسقف القسطنطينية في هرطقة حول الروح القدس، فاجتمع سنة ٣٨٠ م مجمع في القسطنطينية من مائة وخمسين أسقفا وقرر حرمه وحرم هرطقته. وقد حضر الأنبا تيموثاوس هذا المجمع، وقام فيه بدور رئيسي.

ثم خلفه في البطريركية الأنبا ثيوفيلوس (سنة ٣٨٥ — سنة ٤١٢)، وكان عهده عهد سلام وعمران، سواء في عهد الامبراطور ثيودوسيوس أو خليفته اركاديوس (سنة ٣٩٥ — سنة ٤٠٨ م).

الأنبا كيرلس وبدعة نسطور:

ثم خلف هذين الامبراطورين ثيودوسيوس الصغير (الثاني)، وكان مؤمنا صالحا تولى الحكم وهو صغير السن وحكم من سنة ٤٠٨ — سنة ٤٥٠. وكان محبا للكنيسة ولرهبان الأقباط، يرسل اليهم ليتبرك بهم ويستشيرهم في كثير من أموره الخاصة. وقد تمتع في عهده الأنبا كيرلس الكبير بحرية واسعة في التصرف، حتى قيل ان بطاركة الاسكندرية في تلك الفترة من التاريخ كانوا هم الذين يتحكمون في تاريخ مصر، بل أطلق البعض على هذا البطريرك « فرعون مصر ».

وكان القديس كيرلس هذا خليفة للقديس أثناسيوس في المعرفة اللاهوتية وقيادة الفكر المسيحي. اعتلى كرسي البطريركية سنة ٤١٢ م في عهد الامبراطور ثيودوسيوس الصغير وتمتع في عهده بشبه استقلال في مصر، ودافع عن الايمان المسيحي. فبدأ بكتابة خطاب الى الامبراطور ومنحه فيه البركة، وشرح له الايمان السليم، ورد على الكتب التي كان قد وضعها قبلا الامبراطور يوليانوس ضد المسيحية.

ولما لاحظ الأنبا كيرلس أن نسطور

بطريرك القسطنطينية قد وقع فى هرطقة لاهوتية أرسل اليه يتفاهم معه . لكن نسطور تمسك برأيه ورفض الاذعان لتعليم كيرلس ، واستمال الى جانبه يوحنا أسقف أنطاكية ، واعتمد على ما لقيه من عطف الامبراطور الصغير ثم تحدى كيرلس علانية واتهمه بأنه عنيد وبأنه يقوم فى مصر بدور فرعون .

ولم يجد القديس كيرلس مناصا من أن يستخدم سلطته كمعلم أول فى الكنيسة ، فكتب الى أساقفة العالم يشرح هرطقة نسطور ، كما كتب الى الامبراطور ثيودوسيوس وأمه واخوته ، وبعث برسالة الى نسطور نفسه يشرح له فيها قواعد الايمان وما يترتب على مخالفتها من جزاء .

وانتهى الأمر بعقد مجمع مسكونى فى افسوس حضره مائتان من أساقفة العالم . وكان مندوب الامبراطور فى المجمع نسطوريا وهو كانديديانوس ، وقد عمل نسطور على تهديد الآباء المجتمعين فى افسوس بأن دخل المدينة محاطا بفرقة مدججة بالسلاح ورفض حضور جلسات المجمع على الرغم من استدعاء الآباء له أكثر من مرة . وازاء ذلك اضطر المجمع الى الاجتماع بدونه . وبعد قراءة رسالة القديس كيرلس حكم المجمع بخلع نسطور عن كرسيه وتجريده من رتبه الكهنوتية . وقد وافق الامبراطور على خلع نسطور بمجرد وصول القرارات اليه .

وعندما أقام الآباء أسقفا جديدا على القسطنطينية أرسل الى القديس كيرلس خطابا يقول له « ان رغباتك فى اعلان الحق قد تحققت يا خادم الله ... » وكذلك أرسل أسقف روما الى القديس كيرلس يهنئه بقوله « هنيئا لك ، فأنت الرجل الجرىء المستهين بكل خطر » .

ويقول المؤرخ ستانلى فى كتابه « محاضرات فى تاريخ الكنيسة الشرقية » ما نصه « لقد أصبح البطريرك السكندرى بعد مجمع افسوس قاضى العالم ، فطاع أحكامه فى جميع أنحاء العالم المسيحى » .

وقد خلف كيرلس أيضا كتبا كثيرة قيمة فى اللاهوت وفى تفسير الكتاب المقدس .

جـ - الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا روما

وعندما ارتقى مرقيانوس (سنة ٤٥٠ — سنة ٤٥٧) العرش أخذت العلاقات بين مصر وأباطرة الدولة الرومانية تدخل فى أعنف وأقسى صورها ، فاجتازت مصر طوال الفترة الباقية من حكم الرومان محنة اضطهادا مرا عنيفا لم يتخلله سوى هدنة قصيرة فى عهد الملكين زينون وانسطاسيوس (٤٧٤ — ٥١٨) .

وقد بدأت هذه الفترة بخلاف بين كنيستى روما والاسكندرية أدى الى انقسام استمر من سنة ٤٥١ حتى يومنا هذا . وعرف أتباع كنيسة روما باسم « الكاثوليك » بينما عرف أتباع كنيسة الاسكندرية ومن سا

على تسميتهم باسم « الارثوذكس » ويتبعهم أيضا السريان الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم « اليعاقبة » .

ولما رفض الأنبا ديسقورس بطريرك الاسكندرية الموافقة على مسائل ايمانية أوردها لاون أسقف روما حول طبيعة المسيح ، استخدم لاون نفوذ الامبراطور فى نفى ديسقورس عن كرسيه وفى محاولة ارغام المصريين على قبول ما رفضه بطريركهم وحرمان كل من لا يوافق على مقالته حول طبيعة المسيح . وتعرض المصريون من أجل الثبات على ايمانهم لمذابح مروعة وخاضوا حركة استشهاد جديدة كالحركة التى خاضوها فى عهد أباطرة الرومان الوثنيين ، بل ان عدد الذين استشهدوا منهم على أيدى المسيحيين من أتباع مذهب الطبيعتين المخالف لمذهبهم قد يزيد بكثير على عدد الذين استشهدوا على أيدى الوثنيين .

وكان الملك كلما اختار الشعب المصرى بطريركا قبطيا ، أمر بعزله عن منصبه ، فينفى من مصر أو يهرب مختفيا فى أرجائها ، ويعين بدلا منه بطريرك ملكى من اتباع مذهب الطبيعتين ، وينصب هذا البطريرك الدخيل بالقوة أملا فى ارغام الأقباط على قبول مذهب غير مذهبهم ، فاذا رفضوا هذا البطريرك الدخيل ومذهبه أعمل الامبراطور فيهم القتل والسجن وكافة أنواع الاضطهاد .

ولكى يزداد الاضطهاد بشاعة لجأ الأباطرة منذ عهد جوستنيانوس الى جعل البطريرك الملكى يجمع أيضا الى وظيفته الكهنوتية منصب الوالى المدنى لتجتمع لديه السلطتان معا ، ولما كانت جميع كنائس الاسكندرية فى أيدى هؤلاء الدخلاء فانهم استطاعوا أن يطردوا منها جميع البطاركة والأساقفة الأقباط وأن لا يمكنوهم حتى من دخول مدينة الاسكندرية ، ولما كانت فى أيديهم القوة العسكرية أيضا فانهم استخدموها فى اضطهاد الأقباط كما يشاءون . وقد استمرت هذه الحال حتى دخول العرب مصر فكان البطريرك القبطى الأنبا بنيامين هاربا من الرومان مختفيا فى البلاد والأديرة المصرية بينما كان المقوقس يجمع بين وظيفتى الوالى الرومانى والبطريرك الملكى ويضطهد المصريين .

وأمام كل هذه الأوضاع الشاذة التى اختلط فيها الاستعمار السياسى بالاستعمار الدينى وقف الشعب المصرى صامدا لا يلين ، يرفض كل بطريرك متحملا فى سبيل ذلك صنوف العذاب ، ويرفض كل معتقد يخالف ايمان كنيسته القبطية ، ويؤيد بطريركه القبطى وطنيه وهو غائب عن كرسيه مشردا فى أرجاء القطر او متنكرا فى مكان ما وكذلك أظهر البطاركة شجاعة عجيبة وصبرا واحتمالا ، كلما اضطهدوا انتقلوا من مكان الى مكان يثبتون الأقباط فى ايمانهم

ويشجعونهم على الصمود أمام عنف العدو المستعمر .

فعل الأقباط هذا بينما خارت قوى غالبية أسقفيات العالم المسيحي واضطرت الى الخضوع لسيطرة أباطرة الرومان وبابوات رومه . ولم تقف الى جوار الاسكندرية غير أسقفية أنطاكية التي لاقت صورة مشابهة من الاضطهاد فتحمل أساقفتها العزل والنفي ، وتحمل شعبها القتل والاضطهاد في سبيل الايمان الواحد الذي دافع عنه ديسقورس الاسكندري .

بدء انقسام الكنيسة :

لما قامت هرطقة أوطاخي ، انعقد بسببها في افسوس سنة ٤٤٩ م مجمع سمي مجمع افسوس الثاني وكان رئيسه الأنبا ديسقورس بطريرك الاسكندرية . ولما مثل أوطاخي أمام هذا المجمع وسأله الأنبا ديسقورس عن ايمانه ، أنكر هرطقته انكارا باتا ، وقدم ايمانه مكتوبا يوافق ما أمر به الآباء ، ولما نوقش شفاها أجاب بنفس الكلام أيضا ، فعرض الأنبا ديسقورس امر أوطاخي على آباء المجمع ، فقرروا براءته مما نسب اليه ، وقبوله في الكنيسة هو ورهبان ديره الذين ناب أحدهم عنهم في اثبات صحة ايمانهم . كما قرر هذا المجمع أيضا حرم فلابيانوس أسقف القسطنطينية لثبوت تهم قدمت ضده .

ثم حدث أن دعا لاون أسقف رومة سنة ٤٥١ م الى عقد مجمع مسكوني ودعا اليه ديسقورس ، وكان ديسقورس يرى ألا داعي لعقد مجمع جديد لأن الكنيسة كانت في سلام من جهة الايمان . ولكن الظاهر أن لاون أسقف رومة ملكه الحسد والغيرة من بطاركة الاسكندرية ودفعه ذلك الى أن اتهمهم بأنهم لا هم لهم سوى عقد المجامع والترأس عليها ، فأراد في هذا المجمع الجديد أن يدبر مكيدة للتخلص من ديسقورس .

ولما وصل ديسقورس الى القسطنطينية حيث كان المجمع مزمعا أن ينعقد دهش من وجود بعض من أساقفة النساطرة المحرومين مجتمعين مع الآباء فأمر بطردهم ، ثم قرئت على المجتمعين رسالة من بابا رومه فلما سمعها ديسقورس أخذ عليه وقوعه في هرطقة الطبيعتين بينما قررت أقوال الآباء صحة مذهب الطبيعة الواحدة . ووقف وسط الأساقفة يشرح هذه المسألة في قوة واقناع حتى صاح الجميع « نحن على ايمان ديسقورس » . ولما رأى الامبراطور مركيانوس ذلك ــ وكان حاضرا الاجتماع ــ أوعز الى أتباع لاون بأن يؤجلوا جلسة المجمع الى اجتماع آخر .

وفي خلال ذلك دعي ديسقورس الى اجتماع خاص في قصر الامبراطور ، ولما أصر على ايمانه ، وعلى حرمه للأسقف لاون المنادي بمذهب الطبيعتين ، اعتدى عليه وسجن وانعقد المجمع في خلقدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م ، وتحت تهديد القوة

بدأ الضغط على الأســـاقفة حتى قرروا : عقيدة الطبيعتين ، وعزل ديسقوروس ، واتهامه بالأوطاخية لتبرئته أوطاخي ، الذى كان قــد رجع مرة أخرى الى هرطقته ، واثبت بذلك أن توبته الأولى أمام ديسقوروس فى مجمــع افسس الثانى توبة زائفة ، كما حكم المجمع أيضا بتبرئة لاون أسقف روما . ولما عرضت قرارات المجمع على ديسقوروس ، حرم أعضاء مجمـــع خلقدونية كلهم ، بسبب انحرافه الإيمان الذى وافقوا عليه . فنفى ديسقوروس الى جزيرة غغرا . وأرسل المجمع الخلقدونى الى أســاقفة الكرسى السكندرى يدعوهم للايمان بمذهب الطبيعتين فرفضـــوا وقرروا عــدم الاعتراف بمجمع خلقدونية ، فبــدأ الامبراطور باستخدام القــوة لارغام رجال الدين وأفراد الشعب على قبول مذهب لاون والاعتراف بقرارات مجمع خلقدونيه ، فلما رفضوا الأمرين قامت مذابح فى الاسكندرية وفى الأديرة قتل بسببها شعب كثير ، وانقسمت المسيحية الى مذهبين . ومــع أن ديسقوروس وقف وحده وخاف الأساقفة من الانضمـام اليه بعدما رأوا ما فعلته القوة به وبشعبه ، الا أن ثورات شعبيـــة أخــرى قامت فى أورشليم وبلاد أنطاكية احتجاجا على قرارات مجمع خلقدونية فاستخدمت القوة ضــدهم أيضا واستشهد منهم عدد كبير .

وظل ديسقوروس فى منفاه حتى توفى سنة ٤٥٧ م . وكان أصحاب مذهب الطبيعتين قد عينــوا مكانه بطريركا من مذهبهم اســـمه بروتوريوس ، فرفضه الشعب المصرى وطرده من البطريركية ، حتى اضطـر الى الاستعانة بالقوة المسلحة للتمكن من دخول الكنيسة . واذ أعرض الشعب عنه وبدأ يترك الكنيسة له ولمن يناصره من جنــود الرومان ، أمر الجنود فأعملت فيهم السيوف فقتل فى ذلك اليوم عدد وفير ، كما قتل كثير من الرهبان . وانحط الحراس بهذا البطريرك الدخيــل ، واتخــذت بعض اجراءات مدنية كإيقــاف الألعاب الرياضية وغلق الحمامات العــامة وتهديد الشعب بسحب امدادات القمح .

ولكن الشعب المصرى ظــل متمســكا ببطريركه المنفى الى أن توفى فى منفــاه سنة ٤٥٧ م . ولم تدم بطريركيــة بروتوريوس المفروضة أكثر من هذا التاريخ لأن الشعب السكندرى انتهز فرصة استدعاء قائد الحامية الرومانية الى مصر العليا فى عهد الامبراطور ليون الأول (سنة ٤٥٧ — سنة ٤٧٤) وقام بثورة عنيفة تخلصوا فيهــا من بروتوريوس واختاروا راهبا قبطيــا أقاموه بطريركا باسم تيموثاوس الثانى . ولكن الامبراطور تحدى الأقباط وعزل الأنبا تيموثاوس الذى اختاره الشعب ونفاه كسلفه ديسقوروس ، الى جزيرة غاغرا ، وعين مــكانه بطريركا من مــذهب الطبيعتين اســـمه سالوفاسيولس . وكان السبب فى ذلك هو أن الأنبــا تيموثاوس الثانى جمع سينودا من أساقفه فى الكرسى

السكندري سنة ٤٥٨ وأصدر قرارا بحرم مجمع خلقدونية . فاضطر ليون الأول أن ينفيه واستمر سبع سنوات في منفاه الى أن مات هذا الامبراطور فرجع البطريرك الاسكندري الى كرسيه

فترة هدوء :

ثم تمتعت الكنيسة بفترة هدوء خلال حكم زينون (سنة ٤٧٤ — سنة ٤٩١) . واستطاع البطريرك القبطي الأنبا تيموثاوس بعد عودته من منفاه أن يعقد مجمعا في القسطنطينية كان من بين أعضائه بطرس القصار بطريرك أنطاكية وقرر رفض المجمع الخلقدوني ورسالة لاون أسقف روما . كما وزع منشورا بذلك ورفض عقيدة أوطاخي ووجوب التمسك بمذهب الطبيعة الواحدة . ولذلك فان المؤرخ الكاثوليكي فلاديمير يقول في كتابه عن التاريخ الكنسي أن « تيموثاوس الذي وضع هذا المنشور لم يكن أوطاخيا » .

ولما توفي الأنبا تيموثاوس الثاني خلفه الأنبا بطرس الثالث (سنة ٤٨٠ — سنة ٤٨٨)، وتمتعت الكنيسة بسلام في عهده أيضا ، وبذلت محاولات للتقريب بين كنيستي الاسكندرية والقسطنطينية ، وعقد من أجل ذلك مجمع في القسطنطينية سنة ٤٨١ م انتصرت فيه الأراء القوية التي تمسكت بها الكنيسة المصرية . وأصدر المجتمعون مرسوما أسموه « كتاب الاتحاد » صدّق عليه الملك زينون . ولكن الاسكندرية اشترطت على أساقفة القسطنطينية رفض قرارات مجمع خلقدونية صراحة . وتبودلت رسائل بين أكاكيوس بطريرك القسطنطينية وبين بطرس الثالث الاسكندري رفض فيها أكاكيوس مجمع خلقدونية وسماه « مجمع المخالفين » ، كما رفض رسالة لاون وآراء نسطور . فقبله بطرس الثالث ، فلم يرق هذا لبعض أساقفة الكرسي الاسكندري واحتجوا على بطريركهم قائلين له « كيف قبلت أكاكيوس الذي حضر مجمع خلقدونية ووافق عليه ؟ » فرد عليهم بقوله « انما قبلته لرجوعه عن ذلك الرأي » . ولكن الظاهر أن هذا الأمر كان انضماما وقتيا الى مذهب الطبيعة الواحدة في عهد ملك ارثوذكسي مثل زينون ، لأنه بمجرد موت زينون عاد اضطهاد مذهب الطبيعة الواحدة وعادت كنيسة القسطنطينية الى التمسك بقرارات مجمع خلقدونية . وفي الواقع ان كنيسة الاسكندرية كانت صامدة في موقفها ثابتة على الايمان لا تزعزعها منه الاضطهادات ، ولم تثبت معها في ذلك سوى كنيسة أنطاكية .

وقد استمرت فترات الهدوء أيضا خلال حكم أنسطاسيوس(سنة ٤٩١ — سنة ٥١٨)، وفي هذا العهد توطدت أواصر التعاون بين كنيستي الاسكندرية وأنطاكية لاتفاقهما في الايمان الواحد .

ولما تولى الحكم الامبراطور يوستينوس الأول (سنة ٥١٨ — سنة ٥٢٧) وكان على كرسي الاسكندرية البطريرك تيموثاوس الثالث (سنة ٥١٧ — سنة ٥٣٥) ، حاول هذا الامبراطور ارغام كنيستي الاسكندرية وانطاكية على قبول معتقد مجمع خلقدونية فلما رفض ساويرس بطريرك أنطاكية نفاه عن كرسيه فجاء الى مصر ، وظل فيها هاربا يتنقل من مدينة الى مدينة ومن دير الى دير معانا ببهجة المصريين الذين قبلوه كزعيم معلم في الكنيسة وظل هو من جانبه يشجعهم ويثبتهم في الايمان . كما أخذ هذا الامبراطور يضطهد الأنبا تيموثاوس بطريرك الاسكندرية وأمر بنفيه وجرت بسبب ذلك مذبحة هائلة قتل فيها نحو مائتي ألف نفس من الأقباط أرادوا حماية بطريركهم من الجنود الرومانيين الذين تمكنوا على الرغم من ذلك من القبض عليه وتم نفيه ، وبقى في منفاه ثلاث سنوات رجع بعدها الى مركزه واستمر مدافعا عن الايمان بالاشتراك مع ساويرس بطريرك أنطاكية حتى توفى سنة ٥٣٥ م في عهد الامبراطور يوستينيانوس الأول .

وخلفه على كرسي الاسكندرية الأنبا ثيودوسيوس الأول (سنة ٥٣٥ — سنة ٥٦٧) . وقد عرض عليه الامبراطور أن يقبل رسالة لاون ويساعده على نشرها في مقابل أن تكون له الرئاستان « البطريركية والولاية » ويكون جميع أساقفة افريقيا تحت طاعته . فرفض ذلك وقال لرسول الامبراطور « ليس للملك سلطان الا على جسدي ... فمهما أردتم فافعلوه وأما أنا فاتبع ايمان آبائي » ، وترك كرسيه حسب أوامر الامبراطور في حالة الرفض وذهب الى الصعيد ، فحاول الامبراطور ملاطفته واغراءه فلم يلن البطريرك فنفاه وأرسل بدلا منه بولس التنيسي ليكون بطريركا على الاسكندرية وقام برسامته مينا بطريرك القسطنطينية . فلما وصل هذا البطريرك الدخيل الى الاسكندرية لم يقبله أحد وكانوا يسمونه « يهوذا الخائن » ، ولم يقبل أحد أن يصلي معه . فأرسل الى الامبراطور يخبره بذلك فأمره بغلق الكنائس لمدة سنة ولم يجد الشعب المصري مكانا للصلاة فبنوا كنيستين سرا في المكان المعروف باسم السواري غربي الاسكندرية . ولم تبق للبطريرك القبطي المنفي سوى هاتين الكنيستين لأن الامبراطور أمر بألا يدخل كنائس الاسكندرية الا أتباع البطريرك الدخيل وأقام الأنبا ثيودوسيوس باقي حياته في المنفى .

وقد خطا يوستينيانوس خطوة أوسع في اضطهاد المصريين وارغامهم على قبول مذهب الطبيعتين ، فبعد وفاة بولس التنيسي عين من قبله أبوليناروس بطريركا على الاسكندرية وحاكما لها في نفس الوقت . وقصد من ذلك

أن يجمع كل في يد الرئيس الديني القوة العسكرية التي تمكنه من تنفيذ أوامره . وقد بدأ هذا البطريرك الدخيل عهده بمذبحة كبرى قتل فيها عدد كبير من أفراد الشعب الذين رفضوا اتباع عقيدته ، وحاولوا رجمه في الكنيسة حين وقف ليخاطبهم . وبهذه المذبحة تمكن من التخلص من أعنف العناصر المعارضة . وهذا العمل لم يجعل من هذا البطريرك الدخيل سوى حاكم مدني ، لأنه لم يتمكن من ممارسة شيء من السلطة الدينية التي ظلت في يد البطريرك الشرعي الذي اختاره الشعب . ولكن أساقفة الأقباط لم يستطيعوا على الرغم من ذلك أن يظهروا في الاسكندرية .

ولذلك فعندما رسم البطريرك القبطي الأنبا بطرس الرابع سنة ٥٦٧ بعد وفاة سلفه ثيودوسيوس ، أقام في كنيسة تبعد عن الاسكندرية بمقدار تسعة أميال ثم اختفى في دير تابور بالقرب من الاسكندرية متنكراً في درجة أسقف لا بطريرك ، ودبر أمور الشعب من هناك . ولما سمع بذلك أهالي انطاكية قلدوا كنيسة الاسكندرية ، فرسموا لهم بطريركا بعد وفاة القديس ساويرس أسموه ثيوفانوس أقام مختفياً في دير امونيوس لأن أصحاب الطبيعتين هناك منعوا الأساقفة الأرثوذكس من دخول مدينة أنطاكية متبعين معهم نفس السياسة التي قامت في الاسكندرية .

ثم قام البطريرك الأنبا داميانوس الاسكندري وخلف بطرس الرابع سنة ٥٦٩م وأقام مدة رئاسته التي بلغت ستا وثلاثين سنة مختبئاً في دير تابور أيضاً في درجة أسقف .

ثم تولى البطريركية انسطاسيوس سنة ٦٠٥ م وزاد اضطهاد الرومان للأقباط حتى أن الرومان حرموا الأقباط الكنيستين اللتين بنوهما سرا غربي الاسكندرية .

ثم تولى البطريركية الأنبا اندرونيقوس سنة ٦١٦ م واستطاع أن يقيم في الاسكندرية معتمدا على قوة أسرته التي كانت غنية جدا ومولية بعض المناصب الادارية الكبيرة في المدينة . ولم تستطع قوة الرومان أن تخرجه منها . ولعل السبب في ذلك هو أن الدولة الرومانية كانت وقتذاك في حالة يرثى لها ، اذ اجتاحت جيوش الفرس كثيرا من أراضيها . ولما ازداد ضغط الجيوش الفارسية على الحدود الشرقية للامبراطورية هاجر كثير من أهالي سوريا وفلسطين لاجئين الى مصر، وعجز يوحنا البطريرك الملكاني عن اعالتهم وحمايتهم فهرب من المدينة وترك البلاد للفرس . وقد قتل الفرس آلافا من الرهبان الأقباط وخربوا كثيرا من الأديرة .

وفي سنة ٦٢٢ م تولى بطريركية الاسكندرية الأنبا بنيامين الذي عاصر الفتح العربي لمصر . وبعد تسع سنوات من بطركته عين هرقل سنة ٦٣١ م بطريركا ملكانيا

(ملكيا) اسمه كيرس Cyrus وهو الذى اشتهر باسم المقوقس ، وجمع لهذا البطريرك بين وظيفتـــه الكهنوتية وبين وظيفة الوالى ليكون أقوى على قهر الأقباط وضمهم الى مذهب القائلين بالطبيعتين . ويبدو أن هرقل لم يكن موفقا فى اختيار هذا الرجل الذى كان ضيق الصدر ، فانه لما عسرت عليه استمالة المصريين الى مذهبــه المخالف اضطهــدهم اضطهادا رهيبا مما نفرهم منه فى وقت كانت الامبراطورية فيه محتاجة أشد الاحتياج الى استرضاء الأقباط بسبب حرج موقفهــا فى حربها مع الفرس .

أما البطريرك القبطى الأنبــــا بنيــامين فاختفى هو وسائر أساقفة مصر جميعا وظل يتنقل بين الكنائس والأديرة دون أن يقع فى أيدى الرومان .

واستغل هرقل هذه الفرصة فأقام أساقفة مـــن الملكانيين فى بلاد مصر كلهـــــا مـــن الاسكندرية الى أنصنـــا ، فنكلوا بالأقباط تنكيلا شديدا .

ولكن هـــذه الحالة لم تستمر طويلا اذ أتى عمرو بن العاص بجيوشه العربيـــة الى مصر ، وفتحها سنة ٦٤١ م ولمـــا استتبت له الأمور أعطى أمانا للأنبا بنيـامين فرجع الى كرسيه فى الاسكندرية بعد غيبة دامت ثلاث عشرة سنة وبدأ يعيد الى الكنيســة أولئـــك المسيحيين الذين ضغط عليهم هرقل فى قبول قرارات مجمع خلقدونية وصرح عمرو له بفتح الكنائس واقامة العبادة فيها .

الفصل الثاني

الحيـــــاة اللغوية

اللغة هي الأداة التي يعبر بها الانســان عن أفكاره ومشاعره . ولا يحدث أن يرتقي شعب ، وتتنوع الأعمال فيه ، دون أن تكون له لغة غنية تيسر له التعبير عن مختلف نواحي الحياة . ولما كانت مصر القديمة قد وصلت الى درجة كبرى من الرقي ، فقد تطورت لغتها حتى سايرت أسباب الحضارة فيها بألفاظهــا المتنوعة وقواعــدها التي تضبط التركيب ، وتعبيراتها ومصطلحاتها في شتى العلوم . كما كان أدبها الواسع في الميدان الديني والعلمي والشعبي ، وغير ذلك من الميــادين داعيا الى نشاط اللغة وحيويتها . واللغة كائن يولد ويكبر ويتطور .

مراحل تطور اللغة المصرية :

مرت اللغة المصرية في خمس مراحل .

أ ـ اللغة المصرية القديمة : وهي لغة الأسر من الأولى الى الثامنة منذ حوالي سنة ٣٤٠٠ ق.م الى سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد . وقد وصلنا منها وثائق رسمية وجنائزية ونصوص مقابر ، ومنها نصوص الأهرام ، وسير لبعض الأشخاص .

ولهذه اللغــة خصائص ميزتها في بعض تعبيراتها واملائها

ب ـ اللغة المصرية المتوسطة : هي لغة الآداب من الأسرة التاسعة الى الأسرة الثامنة عشرة ، منذ حوالي ســنة ٢٤٠٠ ق . م الى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد . وصارت لغة الأعلين نحو ثلثي هذه الحقبة .

ج ـ اللغة المصرية الحديثة : وهي لغة الأعلين من الأسرة الثامنة عشرة الى الرابعة والعشرين أي منذ حوالي سنة ١٥٨٠ الى سنة ٧١٠ قبل الميلاد . ويوجد مدونا بها وثائق خاصة بالمعاملات والرسائل ، وبعض الحكايات والقصص الأدبية ، ودونت بهـــا نصوص تاريخية للأسرة التاسعة عشرة وما بعــدها ، على أننا لم نعثر منها الا على القليل . وقد بدأ فيها ظهور كلمات دخيلة .

د ـ الديموطيقية : وهي المســتخدمة في الكتب والوثائق التي كتبت منــذ الأسرة الخامسة والعشرين الى آخر عصر الرومان من سنة ٧٠٠ الى سنة ٤٧ قبل الميلاد

هـ ـ القبطية : هي اللغة المصرية القديمة في صورتها الأخيرة من مراحل تطورها .

ظلت اللغة المصرية القديمة في مراحلهــا المختلفة لغة الكتابة والتخاطب في مصر حتى

قيام دولة البطالمة فأصبحت اليونانية لغة البلاد الرسمية . وبمضى الزمن أخذ كثير من المصريين يتعلمونها ويستخدمونها في وثائقهم وخطاباتهم حتى ولو كانوا يجهلونها . ولا جدال في أن اللغة المصرية كانت لا تزال تستخدم في الكتابة الدينية والتخاطب فضلا عن تحرير العقود والرسائل . ولا ينوتنا ان نذكر ان غالبية المصريين كانوا لا يستطيعون كتابة أو قراءة أي لغة وبطبيعة الحال كانوا لا يعرفون اليونانية .

وقد صحب ازدياد استخدام اللغة اليونانيه ونقص استعمال الديموطيقية تدوين هذه اللغة بحروف يونانية . وتم وضع الأبجديه القبطية تنظيم هذه اللغة المصرية الدارجة لرفعها الى مصاف اللغات الأدبية ، وأدى ذلك الى أن ظهرت اللغة القبطية بآدابها منذ أواسط القرن الثالث الميلادى .

اسمها : سميت بالقبطية لأن المصريين فى ذلك الوقت كانوا يسمون أقباطا ، وقبطى معناه مصرى .

كانت الشعوب السامية المجاورة تسمى مصر قديما باسم «مصر» . هكذا تسمى في الأشورية وسميت في الآرامية « مصرين » وفي العبرية « مصرايم » وعرفها العرب باسم « مصر » . والمصر في اللغات السامية يعنى الحد وقد أطلقت الشعوب السامية من آشوريين وآراميين وعبريين وعرب ، على البلاد المتاخمة لهم « مصر » كما أسموا سكانها بالمصريين . ثم أطلقت كلمة مصر على القطر عامة . (ومما يستحق الملاحظة أن كلمة فينيس فنش في اللاتينية بمعنى حد ، وقد أطلق الرومان هذه الكلمة بصيغة الجمع على القطر أيضا)

وسمى القبط مصر باسم كيمى « السوداء » أى الأرض السوداء . وأسماها الآشوريون في نقوشهم الاسفينية « هيكوبتاه » وهو الاسم الذى كان يطلقه المصريون على عاصمة مملكتهم منف ومعناه « بيت روح بتاح » وكان اطلاق هذا الاسم على المملكة كلها من سبيل اطلاق العاصمة على القطر كما تعودنا ذلك فى المديريات الآن .

وسمع اليونان هذا الاسم فأخذوه عنهم منذ عصور قديمة وأسموها « ايجبتوس » وورد اسمها هذا عدة مرات فى شعر هوميروس . فاذا حذفنا علامة الرفع (و س) ثم الحركة الأولى التى ظنها العرب حرف استهلال خلص لنا بعد ذلك اسم قبط .

أما المراحل التى اجتازتها كتابة هذه اللغة فهى :

١ ـ **الخط الهيروغليفى** : الذى اكتسب صفة القدسية ، ولذا أعطى هذا الاسم « هيروغليفى » المأخوذ من كلمتين يونانيتين هما «هيروس» = مقدس ، و«غليفوس»= نقش .

ب ــ الخط الهيراطيقي : وهو أيسر من الهيروغليفي بعض الشيء . واستعمله الكهنة في كتاباتهم . والتسمية مأخوذة أيضا من اللغة اليونانية ، ومعناها « خاص بالكهنة » .

جـ ــ الخط الديموطيقي : وهو من اليونانية ومعناه « خاص بالشعب » . فالخط الديموطيقي هو الصورة المبسطة التي أخذ الشعب المصري يستخدمها في كتاباته في العصور المتأخرة .

د ــ الخط القبطي : قامت محاولات فردية من المصريين لتدوين لغتهم بحروف يونانية وكان ذلك في العصور الوثنية ، بدليل العثور على نصوص قبطية من العصر الوثني لغتها مصرية وحروفها يونانية وبها بعض حروف ديموطيقية ، وهذه النصوص محفوظة في كل من متحفي باريس ولندن .

وكافة هذه المحاولات كانت وليدة الحاجة لسبب أو لآخر ، دون أن يكون لذلك أي شأن بالمسيحية . وانتهى الأمر بأن استطاع شخص أو جملة أشخاص استحداث ما نسميه الآن بالخط القبطي وكتبوا لغتهم بحروف يونانية وأضافوا الى الأبجدية اليونانية سبعة أحرف أخذوها من الخط الديموطيقي ، تعبر عن أصوات ليس لها مقابل في اللغة اليونانية وهي الأحرف السبعة : شاى (ش) وفاى (ف) وخاى (خ)وهورى (هـ) وجنجا (ج) وتشيما (تش) وتى (ت) .

اللهجات القبطية : المعروف أن اللغة المصرية القديمة كانت تضم لهجات شتى، وهذا مازال واضحا بين سكان مصر الآن . وهذا طبيعى في اللغات اذا انتشرت في منطقة واسعة وتوالت عليها العصور . ولا ريب أن بعض الاختلافات التي كانت قائمة في المصرية القديمة كانت أساسا لما وجد منها في اللهجات القبطية المتعددة .

قسم العلماء اللهجات القبطية الى قسمين :

ا ــ لهجات مصر السفلى :

ويعرف منها الآن البحيرية نسبة الى البحر أي لغة الأراضي المجاورة للبحر أو ربما كانت منسوبة لمديرية البحيرة . وهي اللهجة الأولى التي وصلت الى درجة اللغة الأدبية . وكان ذلك في مدينة الاسكندرية .

ب ــ لهجات مصر العليا :

١ ــ الصعيدية نسبة الى صعيد مصر وهي لهجة طيبة ، وأصبحت فيما بعد لهجة الوجه القبلي ، وكانت تسمى بالطيبية

٢ ــ الفيومية ، انتشرت في الفيوم

٣ ــ الأخميمية ، تكلم بها أهل مدينة أخميم ثم أفسحت المجال للصعيدية .

هذه اللهجات الأربع هي اللهجات الرئيسية وتفرع عنها بعض لهجات :

١ ــ المنفية ، سادت في منطقة منف وحتى محل البحيرية .

٢ — الاخميمية الفرعية او الاسيوطية ، انتشرت فيما بين المنيا وأسيوط وقد اشتقت من الاخميمية .

١ — البشمورية ، اشتقت من البحيرية وقد ذكرها العلماء الأقباط ولكنها ضاعت ويرجح أنها كانت لهجة قبطية تكلم بها اليونان فى شرقى الدلتا وكتبت بحروف يونانية عادية .

٤ — واشتق من الفيومية لهجة أخرى عثر على نص منها فى البجوات بالواحات الخارجة ويرجح انها كانت خاصة بالواحات

هذا وكانت اللهجة الصعيدية تتكون من عدة لهجات اندمجت بعضها فى بعض كما نلاحظ هذا أيضا فى البحيرية . ودليلنا على ذلك وجود صيغ مختلفة للكلمة واحدة . ويلاحظ على اللغة القبطية بالنسبة للمصرية القديمة ما يأتى :

١ — انها كتبت بأبجدية يونانية بعد أن كانت تكتب بحروف معظمها ديموطيقية .

٢ — دخلت عليها مفردات وتعبيرات يونانية وبخاصة فى العصر المسيحى .

٣ — ابدلت بعض الحروف فى الكلمات وبخاصة الحروف السائلة ل م ن ر ، كان يقال « لس » بدلا من « نس » أى لسان ، كما دخل القلب على بعض الكلمات مثل « اتبى » بدلا من « يت » أى سماء .

٤ — كتبت القبطية بالحروف الصامتة والمتحركة ولم يعرف الخط القديم الا الحروف الصامتة .

٥ — حملت لنا القبطية كلمات لم نعثر عليها فى المصرية القديمة .

٦ — وأحلت القبطية كلمات مصرية قديمة .

اختفاء اللغة القبطية :

اخذت اللغة العربية تناهض اللغة القبطية ابتداء من القرن التاسع الميلادى . وطبيعى أن حلول العربية محل القبطية فى الكتابة سبقه انتشار العربية كلغة للتخاطب بين أفراد الشعب ، فقد أصبحت العربية لغة الدواوين ، ثم صارت لغة التعليم ، وقد جاء القرن الثالث عشر والعلماء القبط يؤلفون فى اللاهوت باللغة العربية مما يدل على أنها كانت لغة العلم السائدة . وكان يفهمها أغلب سكان مصر ، ويتكلم بها أغلب سكان الوجه البحرى . وظلت القبطية لغة التخاطب فى الوجه القبلى حتى القرن السابع عشر .

ويقول المقريزى فى القرن الخامس عشر عند كلامه عن دير موشه « والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدى وهو أصل اللغة القبطية ، وبعدها اللغة القبطية البحرية . ونساء نصارى الصعيد واولادهم لا يكادون يتكلمون الا بالقبطية الصعيدية » . ويقول ماسبيرو « ولكن من المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون

ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر » .

وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انتهى الكلام بالقبطية ، ولكنها بقيت لغة الكنيسة تستخدم فى الصلوات وقراءات الكتب المقدسة . ويعرفها بعض الأفراد من الأقباط ، فى الأديرة أو المدن ، عن طريق اتصالهم بهذه الصلوات واهتمامهم بها . هذا طبعا غير العلماء الغربيين والشرقيين المهتمين بدراستها .

اثر اللغة القبطية خارج مصر .

بالرغم من أن اللغة القبطية لغة قومية ، الا أننا نرى لها آثارا عالمية ، فهذه بعض الفاظ قبطية انتشرت فى اللغات الأوروبية مثل الواحة (وازيس) ، وكومى أى الصمغ (فى الايطالية جوما ، وفى الفرنسية جوم وفى الانجليزية جم) ، والسوسن ، والأبيس وشيهات ، وهى منطقة وادى النطرون (اسقيط) ، (ومنها اسم الناسك فى اللغات الأوربية) ، والابنوس ، ولعل كلمة طوبة أى (الآجر) مثل من الألفاظ التى نعرف تاريخ انتشارها فى الخارج ، فقد أخذها العرب عند فتحهم لمصر عن القبطية وحملوها معهم الى الأندلس فدخلت الاسبانية . ثم فتح الاسبان جنوب أمريكا فانتشرت هناك لفظة (أدوبى) ثم اتصل الأمريكيون الشماليون بأمريكا الجنوبية فدخلت الكلمة فى اللغة الانجليزية بشكلها الاسبانى .

ومن آثر القبطية أيضا أن القديسين كيرلس المسمى بالفيلسوف وأخاه ميثوديوس عندما وضعا الأبجدية الروسية فى القرن التاسع الميلادى أدخلا بعض الحروف القبطية المأخوذة عن الديموطيقية فى الأبجدية الروسية .

اللغة القبطية واثرها على العربية :

بالرغم من أن اللغة القبطية قد اختفت أمام العربية الا أن ذلك لم يحل دون أن تضفى شخصيتنا المصرية على اللغةالعربيةوأن تصبغها بصبغة جعلت اللغة العربية فى مصر تظهر بمظهر خاص يختلف عنه فى الأقطار العربية الأخرى ، كما ظلت العادات المصرية القديمة حية حتى الآن فى مصر . فمن الكلمات القبطية التى دخلت العربية أسماء لمسميات مثل برسيم ، أردب ، يم ، أم قويق، حلق ، تليس ، بقوطى ، كحك ، قلة ، كحة ، قمة ، لبشة ، ماجور ، تمساح ، نبوت ، تتوس ، نونو ، ناف ، بصارة ، رقاق ، سلة ، سمان ، طوبة ، دميرة ، تنة ، سنط ، شونة ، شوب ، شوطة ، تموربة ، حلوم ، رمان ، شوشة ، شبورة ، بلح . ومن أنواع السمك : البورى ، والبنى ، والليبس ، والراى ، والشال ، والشلبه . ومنها أفعال مثل شأشأ ، فرفر ، هلوس ، هوش ، كلك، تكت ، نط ، تتمت ، ودمس (دفن) ،

شلشل ، شن ، بشبش . وكذلك تعبيرات مثل : الورور للفجل الصغير ، والقلاق ووجية (الساعة أو الوقت) والكاس بمعنى الألم ، وتوت للحاوي بمعنى اجتمع ، وليلي بمعنى افرح ، ونحن ما زلنا نرددها في « ليلي يا عيني » ، وبح بمعنى انتهى ، وكاني ماني ... ومنها استعمال أداة الاستفهام في آخر الجملة . ولعل من أهم مظاهر القومية المصرية ما نلحظه في أسماء المدن المصرية ، فبالرغم من اختفاء الأسماء المصرية القديمة منذ تسعة قرون وهي مدة سيادة اللغة اليونانية ورغما من فرض أسماء يونانية على المدن المصرية مثل : أبولونوبوليس لقوص ، وآكسيرنخوس للبهنسا ، وليتوبوليس لأوسيم ، وبانوبوليس لاخميم، وهرموبوليس للأشمونين ، وهيراكليوبوليس لأهناسى فان الأسماء المصرية لهذه المدن لم تلبث أن ظهرت ثانية بعد دخول العرب ، وكان ذلك لمحافظة اللغة القبطية على هذه الأسماء القديمة .

الفصل الثالث

الحيـــــــاة الفـكرية

١ – الإنتاج العقلي والفلسفة

الحالة الفكرية وقت ظهور المسيحية :

كانت الاسكندرية قد وصلت الى درجة عظيمة من الأهمية ، حتى أصبحت تعتبر بحق العاصمة الثقافية للعالم وقلب العالم الهليني النابض . وكانت مكتبتها تزخر بمن يفد اليها من العلماء والفلاسفة وطلاب المعرفة ، لا من بلاد اليونان فحسب وانما من كل جهـــات العالم ، يجلبون معهم علوم بلادهم وثقافتها . وازدحمت المدينة بأناس من شتى الأجناس والأديان والثقافات ، حتى لكأنها كانت معهدا ثقافيا .

كان فيهـا المصريون الوطنيون بدياناتهم المعـروفة ومعابدهم وآلهتهم المصرية ، والى جانبهم عاش اليونان بلغتهم العالمية وفلسفاتهم وآلهتهم الاغريقيـــة والمتمصرة ، والرومان بأنظمتهم وقوانينهم وتقـاليدهم وعاداتهم ، وكان هناك اليهـود يمثلون عنصرا هاما في المدينة ولهم فيهـا حي خاص ومعهم دياناتهم الالهيـــة وكتابهم الموحى به وتقـاليدهم الموروثة ، وكانت هناك أجناس أخرى شرقية في المدينة لها أيضا عاداتها وثقافتها .

وقد التقى كل أولئك في شوارع المدينة وأسواقها . وقامت مناقشات دينية وعقليـة حامية كانت تؤدي الحماســة لها أحيانا الى معارك ومنازعات . كما تقابل علماء كثيرون في المكتبة وتناقشوا في خصومة حينا وفي تفاهم حينا آخر ، وكانوا يأخـــذون من الحـــكام مساعدات مالية ، وهكذا تأسست مدرســة الاسكندرية المشهورة وأخذت الاسكندرية مكان أثينا كمركز أدبي للعالم اليوناني .

ومن ذلك كله حـــدث لون من الامتزاج الفكـري تولدت عنه أفكار وفلســـفات ومذاهب جديدة . بل حـــدثت محـــاولات للتوفيق بين الأديان المتعددة في حركة عرفت باسم « التوفيق Syncretism » .

واليهود الذين كانوا منعزلين عن الأمم ، بقيت جماعة منهم محتفظـة بتقاليدها بينما اختلط الباقون بغيرهم من الشعوب ، وعملوا على التقريب بين دياناتهم والفلسفات القائمة فمزجوا بين الاثنين . حتى أنه في القرن الثاني قبـل المســيح كتب أرسطوبولس تفســيرا للتوراة حاول فيـــه التوفيق بين تعاليمهـا

والفلسفات المعاصرة ، بل قال ان فيثاغورس وسقراط وافلاطون وأرسطو تأثروا بكتابات موسى النبي واعتمدوا عليها في كتاباتهم وفيلون الفيلسوف اليهودي الاسكندري الذي عاش في القرن الأول الميلادي حاول هو أيضا التوفيق بين العقل والوحي ، وتأثر بالأفلاطونية ، وكان له تأثيره على المسيحيين فيما بعد .

ولكن كل هذه المحاولات للتقريب اضافت الى الأفكار المتضاربة أفكارا جديدة ولم تستطع ان تصل بالناس الى الحق الواحد ، بل ظل العقل البشري حائرا يتساءل أين توجد الحقيقة . واحتدم النزاع بين فلسفات وفلسفات ، وبين أديان وأديان ، وبين الفلسفة والدين ، وبين العقل والايمان.

الصراع بين المسيحية والفلسفة الوثنية :

وسط كل ذلك ظهرت المسيحية في الاسكندرية حوالي سنة ٦٥ م وانتشرت في فترة وجيزة في مصر كلها . وكان عليها لكي تبقى أن تصمد أمام اضطهادات الحكام ، وأن تتصارع مع كل الأديان والفلسفات والمذاهب سواء منها الوثنية أو اليهودية .

وهكذا حدثت مفارقة عجيبة في الاسكندرية ، فاتخذ كل من الفريقين أسلحة الآخر ليحاربه بها ، فدرس المسيحيون الفلسفة للرد على الفلاسفة ودرس الوثنيون الكتاب المقدس لمهاجمة المسيحيين . وهكذا نرى « كلسوس » و « بورفيريوس » وغيرهما يهاجمون المسيحية في تعاليمها التي درسوها في الأناجيل محاولين أن يخطئوها تاريخيا وفلسفيا . ومن ناحية أخرى نرى ديديموس الضرير يكتب كتابه عن «الثالوث» مستشهدا فيه بكثير من آراء الفلاسفة والعلماء والشعراء الوثنيين .

واتهم الوثنيون المسيحيين لدى الحكام باتهامات كثيرة في تعاليمهم وعباداتهم وأخلاقهم ، وأدى هذا الصراع الى ظهور فئة من العلماء يدافعون عن المسيحية نذكر من بينهم أثيناغورس أحد أساتذة المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، فقد كتب دفاعه الى مرقس أوريليوس قيصر سنة ١٧٦ م .

كذلك حاول أعداء المسيحية أن يؤلفوا كتبا على نسق الأناجيل لها أبطال سيرتهم تشبه سيرة السيد المسيح حتى يخلطوا المسيحية بتلك الأساطير الخرافية . ومن ضمن كتب هؤلاء « حياة فيثاغورس » التي ألفها بورفيريوس وهي لا تختلف كثيرا عن حياة أبولونيوس التي كتبها فيلوستراتوس . ورد المسيحيون على كل ذلك مستندين على التاريخ والعلوم والفلسفة واللاهوت في ردودهم .

هذا الصراع بين الفلسفة والدين ، أعني بين العقل والايمان الذي يسلم بالمعجزات وأمور فوق العقل ، كان من نتائجه ظهور فلسفة الغنوسية ، وفلسفة الافلاطونية الحديثة

. الغنوصية وتاريخها ومدارسها : الغنوصية معناها « المعرفة » واسمها مأخوذ من الكلمة اليونانية « جنوسس » ، وقد ميز « الغنوصيون » أنفسهم بهذا الاسم عن « المؤمنين » ، وغالوا في رفع قيمة المعرفة والحط من قيمة الايمان . هم وضعوا العقل فوق الايمان ، والفلسفة فوق الدين ، وجعلوا الفكر الخالص رقيبا على الوحي ، يستطيع أن يرفض منه بعض المعتقدات وينكر المعجزات والأشياء الخارقة للطبيعة . واعتقدوا ان الانسان يتكون من ثلاثة عناصر : روح ونفس وجسد . وقسموا الناس حسب العنصر السائد فيهم الى ثلاث طبقات:

أ — الروحيين وهم الغنوصيون الذين رفعتهم المعرفة الى مستوى عال فوق المادة والحس ويسودهم العنصر الالهي .

ب — الجسدانيين وهم العوام الخاضعون لتأثير المادة والحس .

ج — النفسانيين وهم متوسطون بين الاثنين ، يمكن أن ترفعهم المعرفة الى درجة الغنوصيين الروحيين ، ويمكن أن تنحدر بهم المادة الى درجة الجسدانيين

وهكذا نرى انهم حسبوا انفسهم ارستقراطية عقلية قريبة من الله ، وحطوا من قيمة المادة جدا واعتبروها شرا . فسلك بعضهم طريقة تصوفية تحاول السمو عن المادة والحس ، كما انحدر بعضهم الى الدعارة زاعمين الانتصار على الحس بالانهماك فيه . وكان الغنوصيون في مصر من النوع الأول الناسك .

ليس معنى هذا أن الغنوصيين كانوا جميعهم وثنيين ، وانما كان منهم مسيحيون أيضا . ولكن هؤلاء نظروا الى تزعتهم التي اختاروها واعتبروا أنفسهم أشخاصا روحيين على حين اعتبروا باقي المسيحيين نفسانيين فقط غير قادرين على النهوض من الايمان الأعمى الى المعرفة الحقيقية ، واعتبروا باقي الناس عاديين أو جسدانيين . ورأوا أن نظرية الفداء في المسيحية هدفها تخليص الانسان من المادة والجسد ، وقالوا ان هذا كان هو عمل المسيح الفدائي . ولكن لأن الغنوصية قد اشتملت على عقائد كثيرة تخالف الايمان المسيحي فقد طردتها الكنيسة من صفوفها ، وأبعدت من يؤمنون بتلك العقائد ، واعتبرت الغنوصية بذلك الوضع هرطقة وحاربتها .

ومؤرخو الفلسفة يرجعون الغنوصية الى ايام تلاميذ السيد المسيح ، ويرون أن سيمون الساحر الذى حرمه بطرس الرسول كان أحد مؤسسيها الأول . على ان الغنوصية لم تظهر في قوتها الا منذ القرن الثاني حين انتشرت في مصر

وقد تكونت مدارس كثيرة للغنوصية في سوريا ومصر وآسيا الصغرى وفي رومة ايضا وفي بلاد الغال وقرطاجنة ، وانتشرت هذه المدارس على الأخص في البلاد التي

كانت فيها المسيحية على اتصال قريب باليهودية والوثنية . وتفرعت منها فروع تميز كل منها بطابع خاص مثل النيقولاويين والماركوليين والمانيين . ولكن أقوى وضع ظهرت فيه الغنوسية كان على يد فيلسوفها الكبير فالنتينوس الاسكندري الذي يقول عنه « شاف » انه « أسس أكبر مدرسة للغنوسية ، وكانت له فلسفة خاصة ، ولهذا تمثل طريقته أحسن وضع انتشرت فيه الغنوسية »

فالنتينوس : هو مؤسس أعمق وأمتع الأنظمة الغنوسية وأكثرها تأثيرا ورواجا . كان مصري الجنسية واسكندري الثقافة درس الغنوسية ونشرها في طابع جديد شاعري له جمال فني . وبعد أن قضى فترة في الاسكندرية ذهب الى رومة حيث قوبل بترحاب كبير . وأسس هناك مدرسة غنوسية ، واجتمع حوله عدد كبير من تابعيه ، وكان من أوائل الغنوسيين الذين علموا في رومة . وقضى بها حوالي سبع عشرة سنة أو أكثر من ذلك ، على رأى بعض المؤرخين . ثم تركها وذهب الى قبرص حيث أسس مدرسة أخرى للغنوسية لاقت رواجا كبيرا حتى قال عنه القديس ابيفانوس انه « كاد يقضى على الايمان هناك » واستمر هناك حتى مات حوالي سنة ١٦٠ م . وكان له تلاميذ كثيرون سواء في ايطاليا أو في بلاد الشرق ، ومن أشهرهم برديصان وبطليموس وهراكليون وليودونس ، وقد نشروا تعاليمه في صور متنوعة . وقد هاجم تعاليمه كثير من كبار رجال المسيحية في العالم ، منهم ترتليانوس وأوغسطينوس في افريقيا ، وايريناوس في بلاد الغال ، وابيفانوس في قبرص وغيرهم

الوثائق القبطية : عثر الباحثون على وثيقة قبطية هامة من الفلسفة الغنوسية تدعى « حكمة الايمان » يرجع تاريخها الى وقت ازدهار فلسفة فالنتينوس في أواخر القرن الثاني الميلادي أو أوائل الثالث . وتسجل هذه الوثيقة العقائد العامة لنظام فالنتينوس . وموضوعها مقابلة خيالية بين السيد المسيح وتلاميذه حدثهم فيها عن كثير من الموضوعات اللاهوتية ، وأسلوبها شاعري مؤثر

كما عثر سنة ١٩٤٦ في نجع حمادي على حوالي ألف صفحة مكتوبة بالقبطية على البردي بها ٤٧ رسالة في الغنوسية ، وهي محفوظة الآن في المتحف القبطي بمصر القديمة . وقد أبدى العلماء اهتماما شديدا بها لأنهم يتوقعون أن تلقى ضوءا على هذه الفلسفة .

الغنوسيون الأرثوذكس : اذا كان قد انضم الى الغنوسية كثير من الوثنيين واليهود أو من المسيحيين الذين طردتهم الكنيسة واعتبرتهم هراطقة ؛ فانه قد انضم اليها أيضا جماعة من المسيحيين من كبار معلمي الكنيسة ، ولكن هؤلاء لم يؤمنوا بمعتقدات الغنوسية التي حاربتها المسيحية ، وانما كان

لهم رأيهم الخاص في الغنوصية بمعناها السليم الذي لا يتعارض مع الدين . وعلى رأس هؤلاء القديس اكليمنضس الاسكندري أحد مشاهير من تولوا ادارة المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية . وقد وضع كتابا مقسما الى ثمانية كتب وسماه « المتنوعات » وعارض فيه الغنوصية الوثنية . وقال ان الغنوصية الحقيقية يجب أن تبنى على أسس من الايمان والمعرفة العليا التي هي الحكمة الالهية . ولم يهاجم الفلسفة كما هاجمها غيره من المسيحيين الذين اعتبروها خطرة على المسيحية ، بل انه أعلن ان « الفلسفة خادمة للاهوت » ، وأن الله أعطى الفلسفة لليونان وغيرهم من الأمم لتمهدهم للايمان المسيحي كما كانت الشريعة بالنسبة لليهود . وهكذا اعتبر الفلاسفة « أنبياء الوثنية » . ودعا المسيحيين الى دراسة الفلسفة وأخذ ما فيها من حقائق . ورأى ان الغنوسي الحقيقي يجب أن يتزود بكافة أنواع المعارف لتساعده على الايمان وتثبته فيه . واعتبر أن جميع المسيحيين الحكماء المتعمقين في فهم الحق هم الغنوسيون الحقيقيون أو الغنوسيون الارثوذكس .

وصار هذا المبدأ من أهم أسس التعليم في المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، وسار عليه مشاهير مديريها من أمثال : أوريجانوس وديديموس الضرير وغيرهما ، ونشروه بين الجموع التي لا تحصى من تلاميذهم .

ولكن جميع هؤلاء — على عكس فلاسفة الغنوصية الآخرين — قد وضعوا اللاهوت فوق الفلسفة ؛ والوحي فوق العقل، ونادوا بعدم تناقض الاثنين .

الافلاطونية الحديثة :

وهي فلسفة جديدة ولدت في الاسكندرية على يد « أمونيوس سكاس » . وقد قدمت للبشرية فكرة امكان الاتصال المباشر باللاهوت ، وانتشرت انتشارا عظيما حتى وصلت الى جميع المقول من عقل الامبراطور الى عقل العبد . وانتشرت بسرعة وسط العامة الذين استطاعوا أن يفهموها ، وكذلك بين كبار المثقفين فاهتم بدراستها وأعجب بها فلاسفة عظماء مثل القديس أوغسطينوس . وكان لها تأثيرها العميق على كثير من قادة المسيحية .

امونيوس سكاس : ولد من أبوين مسيحيين في الاسكندرية ، وكان من أسرة فقيرة . ولكنه بعد فترة من الدراسة والتأمل أنشأ مدرسة فلسفية في الاسكندرية نشر فيها تعاليمه التي أخذها من دراسة نقدية لأفلاطون وأرسطو حاول فيها أن يوفق بين آراء هذين الفيلسوفين . وليس ممكنا أن نحدد مقدار التأثيرات المسيحية التي اشتملت عليها فلسفة سكاس ولكننا نقول ان الفلسفة أخذت على يديه اتجاها يختلف كلية عن اتجاهات سابقيه . لأن الأفلاطونية الحديثة لم تكن مجرد فلسفة وانما كانت أيضا نظاما دينيا ، أو كما يقول البعض انها « حولت

الهيلينية الى لاهوت» . وقد توفى امونيوس سقاس حوالى سنة ٢٤٣ م دون أن يخلف لنا كتبا . وانما استطعنا أن نفهم فلسفته من كتابات تلميذه بلوتينوس (أفلوطين) وبورفيريوس خليفة افلوطين .

ولد افلوطين فى أسيوط سنة ٢٠٤ م ودرس الفلسفة فى الاسكندرية لمدة احدى عشرة سنة على يد أمونيوس سقاس ، ثم ذهب الى بلاد الفرس ليدرس دياناتهم ، واستقر سنة ٢٤٥ م فى رومه حيث أنشأ مدرسة للافلاطونية الحديثة على غرار المدرسة الغنوسية التى أسسها هناك فالنتينوس الاسكندرى . واستمر يدرس فى رومه حتى وفاته سنة ٢٧٠ م .

وخلفه تلميذه بورفيريوس الذى وضع ٥٤ مؤلفا شرح فيها تعاليمه ، غير أن بورفيريوس خرج على المسيحية وهاجمها مهاجمة عنيفة . وكان ذا عقلية فلسفية كبيرة وشهرة واسعة . وقد وضع خمسة عشر كتابا ضد المسيحية هاجم فيها كثيرا من تعاليمها

ولا شك أن انتصار قادة الفكر المسيحى على أمثال هذا الفيلسوف الخطير كان دليلا على ماوصل اليه هؤلاء القادة من نبوغ خارق فى الفلسفة والعلم .

وبعد مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م لم تعد الوثنية هى ديانة الدولة الرسمية ، ولكن الوثنية احتفظت برغم ذلك بنفوذها الثقافى ممثلا فى الافلاطونية الحديثة التى أصبحت فلسفة العصر وانتشرت فى مدارس الامبراطورية الرومانية .

فأنشأ تلاميذ بورفيريوس مدرسة فى سوريا ، وذهب الى هناك كثير من طلاب العلم يدرسون على أيديهم الأفلاطونية الحديثة ليحملوها الى مدارس آسيا الصغرى واليونان والى الاسكندرية ذاتها . واستمر ذلك الى نهاية القرن الرابع حتى كانت كتب افلوطين تتداول فى أيدى المثقفين أكثر من محاورات أفلاطون ، ومثل هذا يقال أيضا عن مؤلفات بورفيريوس .

٢ — مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وأثرها الثقافى

الحاجة الى انشاء هذه المدرسة :

انتشرت المسيحية انتشارا سريعا وازداد عدد المنضمين اليها ، وكان من الضرورى أن يوضع التعليم المسيحى على أسس منهجية منظمة ، لاعطاء هؤلاء المتحولين الى المسيحية ما يؤهلهم للمعمودية والانضمام الى الكنيسة،

وكذلك لتثقيف المؤمنين أنفسهم بمبادىء دينهم وتعاليمه وتزويد الراغبين منهم بما يريدونه من الدراسات العليا والتعمق فى فهم الفلسفة واللاهوت . وهكذا تأسست مدرسة الاسكندرية للتعليم المسيحى .

ولم تكن هذه الأسباب الايجابية فقط

هي الداعية لانشائها ، انما كان هناك سبب آخر لا يقل عنها خطورة . ذلك أن العالم الوثني كان يقف للمسيحية بالمرصاد يحاول بكل قواه وبكافة الطرق العلمية والعقلية والتقليدية أن يقضي على هذه الديانة الجديدة. وهكذا واجهت الكنيسة هجمات فكرية شديدة من فلاسفة الوثنية ورجال السياسة فيها . وكان لا بد أن توجد مدرسة عليا تزود الكنيسة بمادة الفكر ، وتقدم للمسيحيين المعرفة الكافية التي تمكنهم من الرد على خصومهم سواء كان ذلك في مجادلات فردية أو جماعية . وكان غرض المسيحية من هذه المدرسة اللاهوتية هو الرد على الفلاسفة الوثنيين وأتباعهم ، وحماية المؤمنين مما يثيرونه فيهم من شكوك ، وتبشير أولئك جميعا بالمسيحية وتعريفهم طريق الحق .

وهكذا تركزت كل تلك الاحتياجات الفكرية في المدرسة اللاهوتية . وبتطور تلك الاحتياجات وازديادها كانت المدرسة تعدل في مناهجها وتضيف اليها مواد جديدة لتفي بحاجة العصر . وهكذا كان نمو المدرسة نتيجة لطبيعة الاحتياجات التي واجهتها ، والتي تطورت بها حتى أصبحت معدة لتزويد الطلاب بكل أنواع المعارف الدنيوية والكنسية .

تاريخ المدرسة وشهرتها :

وتاريخ هذه المدرسة يرجعه يوسابيوس القيصري والقديس جيروم الى زمن القديس مرقص الرسول ويقول انه هو الذي أسسها في النصف الأخير من القرن الأول الميلادي ، وعهد بادارتها الى تيطس الذي صار فيما بعد أسقفا للاسكندرية . على أن شهرتها ظهرت بوضوح منذ القرن الثاني وأوائل القرن الثالث على أيدي مديريها الفلاسفة المشهورين مثل بنتينوس واكليمنضس وأوريجانوس وديونسيوس . ثم توقف نشاطها قليلا أو تعطل بعض الشيء في أواخر القرن الثالث ، اذ شتت الاضطهاد أساتذتها وطلابها ، الا أنها ما لبثت أن رجعت في القرن الرابع الى سالف مجدها على يد مديرها العظيم ديديموس الضرير . واستمرت الى أوائل القرن الخامس ، ثم سلمت زمام القيادة الفكرية للرهبنة في الأديرة .

في الواقع لم تكن مدرسة الاسكندرية هي المدرسة اللاهوتية الوحيدة في العالم المسيحي ، وانما كانت هناك مدارس مسيحية في بلاد أخرى . ولكن لم تستطع واحدة منها الوصول الى مستوى سيطرة مدرسة الاسكندرية وتفوقها ، فكانت مدرسة الاسكندرية أهم مدرسة من حيث امتداد نفوذها في المسيحية ، يأتي المسيحيون اليها من شتى الأقطار للدراسة على أساتذتها الذين بلغوا درجة كبيرة من الشهرة ، وتخرج على أيديهم أساقفة وبطاركة عظماء لكثير من البلدان المسيحية الهامة . وكان مدير المدرسة يعتبر الثاني بعد البطريرك في الاسكندرية .

وكثيرا ما اختير بطاركة الاسكندرية من بين مديرى هذه المدرسة اللاهوتية . وقد أعطى هذا لبطاركة الاسكندرية مركز الزعامة الفكرية والعلمية فى العالم المسيحى كله ، اذ كان كثير من أساقفة العالم المشهورين تلاميذ لهم تخرجوا على أيديهم أو على أيدى تلاميذهم فى مدرسة الاسكندرية ، وظلوا بعد رسامتهم أساقفة ، على صلة بأساتذتهم الاسكندريين يستشيرونهم فى مشاكلهم ولذلك لقب بطريرك الاسكندرية بلقب «قاضى المسكونة فى العالم» . وكانوا يعتبرون فى المجامع المسكونية حجة ومصدرا للتعليم الصحيح .

مشاهير اساتذتها

قدم الينا القرن الثانى للميلاد ثلاثة مديرين للمدرسة كانوا فلاسفة وثنيين ، تعمقوا فى الفلسفة اليونانية ثم درسوا المسيحية ليتهموها أو ليفندوها ، غير أنهم ما لبثوا أن آمنوا بها ودافعوا عنها ، وتطوروا حتى صاروا مديرين لمدرسة الاسكندرية اللاهوتية ، وهم أثيناغوراس (سنة ١٧٦ م) ، وبنتينوس (سنة ١٨١ م) ، واكليمنضس (سنة ١٩٠ م) . وقد ظل أثيناغوراس يرتدى زى الفلاسفة وهو مدير المدرسة المسيحية .

وخلفه تلميذه بنتينوس الذى نجح نجاحا كبيرا فى ادارة المدرسة فبدأ الراغبون فى العلم والدين يقصدونها من كافة أنحاء العالم . وكان ممن استمعوا اليه تجار من الهند فأعجبوا به جدا واعتنقوا المسيحية بحماسة عظيمة ولم يكتفوا بذلك بل حركتهم غيرتهم الدينية على خلاص مواطنيهم أن يرسلوا — بعد رجوعهم الى بلادهم — وفدا الى البابا الاسكندرى ديمتريوس يلتمسون منه أن يسمح بارسال القديس بنتينوس الى بلادهم لتبشيرها بالمسيحية فأوفده فى بعثة الى هناك سنة ١٩٠ م فترك المدرسة فى يدى تلميذه اكليمنضس وذهب فى رحلته الموفقة الى هناك . وفى رجوعه من الهند عرج فى زيارة تبشيرية على الحبشة وبلاد العرب .

ويرجع اليه الفضل فى تقديم أقدم ترجمة قبطية للكتاب المقدس ترجمها بمساعدة تلميذه اكليمنضس الذى عاونه فى ادارة المدرسة وخلفه فيها .

اكليمنضس الاسكندرى : وهو واضع السياسة التعليمية الجريئة التى سارت عليها مدرسة الاسكندرية المسيحية فى كافة عصورها . وكان قبل تحوله الى المسيحية فيلسوفا وثنيا ، درس فلسفة اليونان ثم جال يطلب العلم فى بلاد اليونان وايطاليا وفلسطين ومصر وبلاد الشرق الأدنى ، غير أنه لم يجد معلما خيرا من أستاذه بنتينوس . وهو مثل معلمه نبغ فى كافة العلوم الدينية والكنسية . وتظهر معارفه الواسعة فى مؤلفاته وفى الطابع الجديد الذى اتخذته على يديه مدرسة الاسكندرية وحدد فيه العلاقة بين الفلسفة والدين ، كما

فتح الباب امام تلاميذه لجميع أنواع المعرفة . وقد وضع كتبا كثيرة لها أهميتها الدينية والعقلية . ومن أشهر كتبه الفلسفية كتاب « المتنوعات » ألفه ليعارض به الغنوسية المنحرفة ، ووضع فيه الأسس التي ينبغي أن يسير عليها الغنوسي الحقيقي أو الفيلسوف المسيحي . ولما ثار اضطهاد الامبراطور سبتيموس ساويرس هجر الاسكندرية سنة ٢٠٢ م تاركا المدرسة في يدي تلميذه العظيم العلامة أوريجانوس الذي فاقه شهرة وعلما

نابغا مثل أوريجانوس . فهو أشهر عقلية

أوريجانوس: لم تعرف المسيحية فيلسوفا مسيحيا في مصر وفي العالم المسيحي كله طوال عصوره المتتابعة . وقد سار في قيادة مدرسة الاسكندرية على سياسة أستاذه اكليمنضس .

ولد حوالي سنة ١٨٥ م وكان له ذكاء خارق للعادة وقدرة عجيبة على الاستذكار وصبر على الدرس والاطلاع . واستطاع في سن مبكرة أن يستوعب قدرا ضخما من المعلومات تألم بالفلسفة والمنطق والهندسة والرياضيات والموسيقى والبلاغة ، وجمع بين معلومات المدرستين المسيحية والوثنية ، فدرس على القديس اكليمنضس الاسكندري كما درس على أمونيوس السقاص مؤسس الأفلاطونية الحديثة . وفي سنة ٢٠٢ وهو في السابعة عشرة من عمره سيق والده الى الاستشهاد في أيام الاضطهاد الذي أثاره سبتيموس ساويرس . فبينما جزعت والدته أرسل هو الى والده يشجعه ويقول له « لا تراجع ولا تضعف بسببنا » .

وتحت ضغط الاضطهاد اضطر القديس اكليمنضس الى ترك الاسكندرية فعهد البطريرك ديمتريوس بادارة المدرسة اللاهوتية الى أوريجانوس وهو بعد في الثامنة عشرة . وكان هذا اعترافا بما وصل اليه هذا الشاب النابغ من عبقرية فذة . وقد نجح نجاحا كبيرا جدا في عمله في التدريس بل صار أعظم أستاذ عرفته الدراسات المسيحية .

وتوافد عليه طلاب العلم من كافة الأقطار ، وتخرج على يديه أساقفة وبطاركة وقادة للشعوب كما درس عليه فلاسفة وثنيون وهراطقة واستطاع أن يجذب كثيرين منهم الى الايمان . وكان قدوة في الفضيلة والنسك حتى انه لم يذق الخمر ولا اللحم في حياته ، ولم يكن له غير ثوب واحد . وقال عنه يوسابيوس « انه كان مثالا في الأعمال للفيلسوف الحقيقي : كما يتكلم ، هكذا أعماله ، وكما هي أعماله ، هكذا يتكلم » .

ولم ينثن عن التعليم مع عنف الاضطهاد ، وكان هذا الاضطهاد لا يجعل التعليم صعبا فحسب بل كان يجعله خطرا أيضا . ولم يكن للمدرسة بناء خاص فكان التلاميذ يلتفون حول مسكن أوريجانوس أو يأتون اليه لتلقي العلم . وقد اشتد الاضطهاد على أوريجانوس لدرجة أنه لم يوجد في المدينة كلها أي مكان

له وانما انتقل من منزل الى آخر وكان يطرد من كل مكان يعلم فيه نتيجة للأعداد الوفيرة التي كانت تؤمن على يديه .

وكان فى أثناء الاضطهاد يزور تلاميذه فى السجن ويصطحبهم الى حيث المحاكمة ويتبعهم الى مكان الاستشهاد ، لا يبالى أن يكون معهم تحت سمع وبصر جلاديهم ، يقبلهم ويشجعهم الى أن يسلموا الروح ، بل انه وضع كتابا فى الحض على الاستشهاد .

أما عن انتاجه العلمى فهو أضخم انتاج مؤلف حتى قيل انه كتب ستة آلاف مؤلف، وأقل تقدير يجعل مؤلفاته حوالى الألف . وكان يملى على عدد كبير من النساخ ، وقد قال عنه جيروم انه كان يقرأ أو يملى حتى وهو يأكل . ومن أشهر الأعمال التى قام بها جمع نسخ الكتاب المقدس وترجماته القديمة ومقابلتها ومراجعتها وتصحيح ما احتاج الى تصحيح . وقد استمر فى هذا المجهود الجبار ٢٨ عاما ، فوضع « الهكسابلا » أى ذات الأعمدة الستة لأنه قارن بين ست ترجمات للكتاب المقدس جمعها فى أسفاره الكثيرة . كما وضع كتاب « المبادىء » وكتاب « الرد على كلسوس » وتفسيرات عديدة للكتاب المقدس حتى وصفه الكسندر أسقف أورشليم بأنه « أستاذ الأساقفة وأمير مفسرى الكتاب » ورقاه الى رتبة الكهنوت أثناء مروره بفلسطين فى احد أسفاره .

وقد استاء من هذا الفعل البطريرك ديمتريوس وجمع مجمعا حرم فيه أوريجانوس ، فترك الاسكندرية وأسس مدرسة فى قيسارية فلسطين على نهج مدرسة الاسكندرية ، وازدحم عليه طلاب العلم هناك . وموضوع حرم أوريجانوس ما يزال حتى يومنا هذا مثار جدل بين اللاهوتيين حول أسبابه ومدى الحق فيه . على أن البطريركين اللذين خلفا ديمتريوس فى كرسى الاسكندرية كانا من تلاميذ أوريجانوس ويقال ان أولهما أعفاه من ذلك الحرم .

ولم يقتصر نشاط أوريجانوس على التعليم والتأليف بل امتد الى التبشير ، فسافر الى رومه والى بلاد العرب للقضاء على بعض البدع فيها كما سافر مرتين الى أثينا كما ذكر « هارناك » .

ولما تولى ديسيوس عرش الامبراطورية الرومانية أثار اضطهادا شديدا على المسيحيين . ولم ينج أوريجانوس من هذا الاضطهاد بل قبض عليه سنة ٢٥٠ م وسجن وعذب عذابا أليما . ويقول يوسابيوس « يصعب على الكاتب الماهر وصف ما قاساه أوريجانوس وما احتمله فى صبر وارتياح من العذابات المرة والآلام القاسية أثناء هذا الاضطهاد » . ولكنه لم يلن فأطلق سبيله بعد أن تدهورت صحته وكاد يشرف على الموت . ولم يعش بعد ذلك سوى سنتين أو ثلاثا حتى انتقل من هذا العالم بعد أن ترك فيه شهرة لا تمحى .

أما ديديموس الضرير نفسه فولد في الاسكندرية سنة ٣١٣ م في السنة التي وقف فيها اضطهاد الوثنية للكنيسة . وفي حوالي الرابعة من عمره فقد بصره لمرض أصابه في عينه . فبدأ يدرب ذاكرته تدريبا دقيقا حتى أصبحت تساعده على حفظ كل ما يسمعه . ولما كبر بدأ يعلم نفسه القراءة بحفر الحروف على قطع خشبية يتحسسها بأصابعه كما شهد المؤرخ سوزمين بذلك . وهكذا استطاع ديديموس الضرير أن يسبق طريقة برايل بخمسة عشر قرنا . وتمكن من اتقان علوم كثيرة ، فألم بالشعر والبلاغة والفلك والهندسة والحساب ونظريات الفلسفة على تنوعها . كما برع في العلوم اللاهوتية ودراسة الكتاب المقدس حتى استحق أن يعينه القديس أثناسيوس مدرسا للمدرسة اللاهوتية بالاسكندرية .

وفي ذلك الوقت كانت الحركة الأريوسية على أشدها ، وكان التعليم محفوفا بالمتاعب بسبب تدخل الحكام المدنيين بآرائهم ضد الايمان السليم مما عرض الأساقفة والمعلمين للنفي والاضطهاد . ولكن ديديموس لم تثنه اضطهادات أباطرة الرومان لبطريركه اثناسيوس الذي نفي عن كرسيه خمس مرات بل وقف يجاهد معه بكل قوته في سبيل الايمان ضد الأريوسية التي ناصرها الأباطرة ، كما حارب بقايا الوثنية الممثلة في الأفلاطونية الحديثة وسائر الفلسفات .

وقد كان مهذبا في نضاله ضد الأريوسيين والوثنيين ، اذ كان كل جهده مركزا في أن يقنعهم ويحولهم الى الحق لا أن يهزمهم . وهكذا تحاشى السباب . وجاءت كل كتاباته موسومة بروح الاعتدال . ومن أجل ذلك جاء اليه كثير من الهراطقة يلتمسون العلم على يديه — كما حدث لأوريجانوس — واهتدى على يديه كثير من أمثال أوريجانوس الى الايمان .

وقد ذاع صيت ديديموس وامتدحه القديس أنطونيوس بقوله « لا يحزنك فقد بصرك اذ نزعت منك أعين جسدية كانت يمتلكها الفئران والذباب . وأحرى بك أن تبتهج لأن لك أعينا كالملائكة ترى بهما اللاهوت وتدرك نوره » كما امتدحه كثير من قديسي الغرب وكتابه . وكان القديس جيروم يفتخر بأنه تلميذ لديديموس وأنه اتخذه قدوة له في دراسة الكتاب المقدس كما ترجم له أحد كتبه . وممن تتلمذ على يده روفينوس أيضا : تتلمذ عليه ثماني سنوات .

وهكذا استطاع ديديموس أن يعيد للمدرسة الاسكندرية المجد الذي كان لها أيام اكليمنضس وأوريجانوس . واستمر في عمله كمعلم حتى نهاية حياته سنة ٣٩٨ . وخلف حوالي ٤٨ مؤلفا فيها في اللاهوت والتفسير . وكان سندا لاثناسيوس وحصنا فكريا للكنيسة حطم قوة الأريوسية ، وفند كل مغالطاتها العقلية .

بالى الأساقفة :

يكتب يوسابيوس القيصرى فى منتصف القرن الرابع فيقول « ان المدرسة استمرت الى أيامنا وسمعنا أنه أدارها رجال أقوياء فى علومهم ، ويعبرون على الأمور اللاهوتية » . ويكفى أن الاثنين اللذين خلفا أوريجانوس صارا بطريركين للاسكندرية ، أحدهما القديس ديونسيوس صاحب الصيت الذائع فى المعرفة اللاهوتية ، وثانيهما بيوريوس الذى كان نابغة فى الفلسفة والعلوم اللاهوتية ويقول عنه القديس جيروم انه « درس تلاميذه كل أنواع المعرفة بمهارة وكتب مقالات فى شتى العلوم حتى لقب بأوريجانوس الصغير » .

العلاقة بين المدرستين الوثنية والمسيحية :

كانت المدرسة الوثنية قد بلغت ذروتها فى العلوم والفلسفة فى القرون الأولى للمسيحية ، ولم تكن توجد أية مدرسة فى العالم القديم تعدلها كمركز للدراسات الطبيعية والعلمية فى الطب والتشريح والرياضيات والفلك والجغرافيا وحتى فى النقد الأدبى . واذا كانت أثينا قد تميزت بدراسة الفلسفة ووجدت فيها فلسفات كثيرة مستقلة الواحدة عن الأخرى فان مدرسة الاسكندرية الوثنية درست فيها كل هذه الفلسفات معا ، تدارسها علماء يمثلون كل فلسفة اجتمعوا معا فى المكتبة والسرابيوم . بل ان الاسكندرية أنجبت « الأفلاطونية الحديثة » وترعرعت « الغنوسية » ونشرت هاتين الفلسفتين فى أرجاء العالم المثقف لهذا كله كانت هذه المدرسة الوثنية القوية منافسا خطيرا للمدرسة المسيحية الناشئة التى كانت تمثل أعلى مجهود للمسيحيين فى نزاعهم الفكرى مع الوثنية .

ومع ذلك عاشت المدرستان جنبا الى جنب ، كل منهما كان لها طابعها الجامعى ، وكانتا كمرآة تعكس الحالة الثقافية فى الاسكندرية وقتذاك . وقد أثرت كل منهما فى الأخرى . مثال ذلك ان أمونيوس سقاص كان فى المكتبة يحصل التعليم الذى تلقاه سابقا عندما كان مسيحيا ، بل ربما كان اتجاهه نحو الأفلاطونية الحديثة من تأثير المسيحية . ومن ناحية أخرى ، تأثر أوريجانوس بمحاضرات أمونيوس فى المكتبة ، واستمر كالفيلسوف يلبس زى الفلاسفة حتى بعد أن صار أستاذا فى المدرسة اللاهوتية .

ولكن هدف التعليم فى المدرستين كان مختلفا ، فتاريخ التدريس فى المدارس الوثنية يدلنا على أن الطلبة كانوا يعلمون ويتمرنون ليتبوأوا مناصب الدولة ، بينما لم يكن هذا من أهداف المدرسة المسيحية وان كان خريجوها يصلحون لذلك عن طريق غير مباشر . وبينما كان المهم فى المدرسة الوثنية هو التقدم الثقافى وكان المستوى الأخلاقى للأساتذة منحطا ، فان الحياة الفاضلة

والأخلاق كانت من أبرز خواص المدرسة المسيحية سواء في المدرسين أو في الطلبة . ولعل أهم اختلاف وأوضحه هو أن الفلسفة والعلوم كانت تدرس في المدرسة الوثنية لمجرد الثقافة بينما كانت تدرس في المدرسة المسيحية لغرض ديني .

فارق آخر بين المدرستين وهو أن طلبة المدرسة الوثنية كانوا من مستوى ثقافي واجتماعي معين وكانوا ذكورا ، بينما كان التعليم عاما في المدرسة المسيحية يشمل السيد والعبد ، الكبير والصغير ، الذكر والأنثى ، بغض النظر عن الدين والجنس والثقافة . وهكذا حطمت المدرسة المسيحية كل الفوارق الاجتماعية ، وفتحت بابها أيضا للفلاسفة الوثنيين والهراطقة ، وازداد عدد طلبتها ازديادا كبيرا .

على أن المنافسة الجارية بين المدرستين كان لها أثرها الفعال القوي في نهضة وازدهار العلوم والفلسفة واللاهوت في تلك القرون الأولى المسيحية ، فاضطرت المدرسة المسيحية أن تدخل في برامجها كل المواد التي تدرس في منافستها الوثنية ، حتى لا يشعر طلبتها بأنه ينقصهم نوع من الثقافة تمتاز به المدرسة الوثنية ، وحتى يستطيعوا الرد على هجمات الفلاسفة والعلماء الوثنيين .

وهكذا أدخلت الفلسفة الوثنية بشتى فروعها في منهج المدرسة المسيحية على يد القديس اكليمنضس الاسكندري الذي نادى بأن الفلسفة خادمة للاهوت ، وأن الغنوسي الحقيقي من المسيحيين يجب أن يزود نفسه بكل أنواع المعارف البشرية « آخذا من كل فرع من فروع الدراسة ما فيه من الحق » .

وارتقت دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية حتى أن كثيرا من الفلاسفة الوثنيين كانوا يلجأون الى أوريجانوس يدرسون على يديه الفلسفة الدنيوية واللاهوت .

وأدخل اكليمنضس دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية ، وأدخل الى جانبها دراسة اللغات والبلاغة والشعر والمنطق والفنون والموسيقى والعلوم الطبيعية والهندسة والرياضات والفلك والجغرافيا . كل ذلك وجد له موضعا في منهج اكليمنضس ووجدت له علاقة بدراسة اللاهوت . وسار خلفاء اكليمنضس على نفس هذا النهج . وهكذا قال أوريجانوس « ان أولئك الفلاسفة يتكلمون عن الهندسة والموسيقى والأدب والبلاغة والفلك كمعاونة للفلسفة ، ونحن بنفس الأسلوب نتكلم عن الفلسفة كمعاونة للمسيحية » .

ولم يكتف أساتذة المدرسة المسيحية بتدريس جميع هذه المعارف فحسب ، وانما ساعدوا طلبتهم أيضا على القراءة - تحت ارشادهم — في كتابات كافة المؤلفين دون أن يمنعوهم عن شيء . فكان الطلبة يطوفون بكل أنواع المعارف ويفحصونها ، ولم يرفض الأساتذه في محاضراتهم مناقشة أي موضوع يسألون فيه .

وأضافوا الى كل ذلك دراسة الأخلاق وتدريب الطلبة عليها تدريبا عمليا . وكان المدرسون قدوة صالحة لطلبتهم في الحياة الفاضلة المثالية ، وما حثوهم على فضيلة الا كانوا قد مارسوها هم أنفسهم قبلا وتقدوها .

وهكذا كان من نتائج المنافسة بين المدرستين قيام نهضة علمية وفكرية واسعة النطاق لا نظير لها في أي بلد آخر من بلاد العالم المثقف . وأصبحت الاسكندرية بحق عاصمة العالم الثقافية سواء للمسيحيين أو للوثنيين ، وصارت مقصد كل راغب في الدراسات العليا في شتى العلوم الدنيوية والدينية .

ولما كانت المعرفة لا تحد فقد كانت مدة الدراسة في المدرسة المسيحية غير محدودة فالقديس أغريغوريوس صانع العجائب (بعد أن أكمل دراساته في الفلسفة واللغة والبلاغة في أثينا وبيروت) تتلمذ سبع سنوات على أوريجانوس وكان يشتهي لو أتيح له أن يقضي بقية حياته في المدرسة .

نجحت المدرسة المسيحية كل هذا النجاح على الرغم من أنه لم يكن لها بناء خاص ولا مكتبة خاصة ، وانما كان أساتذتها يلقون دروسهم في منازلهم أو في قاعات يستأجرونها لهذا الغرض . وكان الطلبة والأساتذة يذهبون الى مكتبة الاسكندرية العامة للقراءة والاطلاع

٣ — الإنتاج العلمي والأدبي والثقافة الشعبية

الانتاج العلمي :

ورث الأقباط عن أجدادهم الفراعنة براعة في الطب والتشريح والكيمياء والصيدلة ، والهندسة والفلك . واستمروا على نبوغهم في هذه العلوم طوال العصرين اليوناني والروماني ، حتى أصبحت مدرسة الاسكندرية الوثنية القديمة هي أقوى مدارس العالم في هذه الدراسات . ثم تأسست المدرسة القبطية المسيحية واضطرت أن تدرس هذه المواد أيضا . ونتج عن كل ذلك نهضة علمية لا مثيل لها ، ونبغ من الأقباط أساتذة تخرج عليهم كثير من علماء العالم القديم .

وظهر فيهم هيروفيلاس مؤسس علم التشريح ، وايرسيستراتوس مؤسس علم وظائف الأعضاء ، وديموكريتوس صاحب نظرية الذرة . كما ظهر العالم الماهر كرنيليوس كلسوس الذي وضع تذكرته الطبية الشهيرة لمنع تلف الأسنان ، وسرابيون الاسكندري الذي تعمق في دراسة عقاقير قدماء المصريين ، ولا سيما الكريهة الطعم منها ، وهو الذي قدمها للعصور المتتابعة فظلت مستعملة الى القرن الثامن عشر .

ووضع القبط في الاسكندرية عالمية المصطلحات الطبية ، ومنها مثلا كلمة medicina عقاقير و medicamentus دواء أو سم و apotheca مخزن الدواء . واتخذ معهم العالم هذه المصطلحات التي ما تزال مستعملة .

وهذه الشهرة التي نالتها مصر المسيحية في الطب والصيدلة والكيمياء جذبت اليها العلماء من أقطار العالم للدراسة على أساتذتها . ومن أمثلة ذلك جاليوس العالم المشهور الذي ظهر في القرن الثاني للميلاد والذي تنسب اليه مجموعة العقاقير الجاليوسية المستعملة في هذه العصور الحديثة ، هذا العالم تتلمذ في الاسكندرية وأخذ من جامعتها فلسفته وطبه وصيدلته .

وقد نشط العالم لدراسة المخطوطات القبطية الخاصة بالدراسات الطبية ولمس ما فيها من فائدة . وقد ظهر بحث للاستاذ « تل » في العقاقير الطبية القبطية يتبين منه مدى تقدم الأقباط في الصيدلة والكيمياء والطب . كما وضع الاستاذ « دوسن » سنة ١٩٣٤ م كتابا عن تاريخ الطب عند الأقباط في القرون الأولى للمسيحية وشرح بالاضافة الى العقاقير أدوات الجراحة التي كانوا يستخدمونها .

ومن أهم ما وصلنا من المخطوطات الطبية القبطية بردية « شاسيناه » التي تمتاز بعلاج أمراض العيون ومداواة الخراجات وعلاج بعض أمراض النساء والأطفال . وقد وصفت كثيرا من العلاجات لأمراض العيون وبعض القطرات والمساحيق ، منها قطرة قابضة لجفن المريض . ولا تقل بردية «زويغا» أهمية عن هذه البردية أيضا . وهذه البرديات ترينا مدى ما وصل اليه صيادلة الأقباط من معرفة بأصول فن صناعة الدواء وتحضير اللصقات، كما تدل على علمهم الوافر بالتفاعلات الكيميائية المختلفة وبالأخص التي تتم على النار .

ويقول « ميتولنسكى » في كتابه الطب الشعبي المقارن : ان كثيرا من العلاجات والمستحضرات العلاجية المعروفة في أوروبا منذ القرون الوسطى تحمل الطابع المصرى القديم ، كما أن الكثير من هذه الوصفات لا زال مستعملا في مصر وفي كثير من بلدان الشرق .

ولم يقتصر نبوغ الأقباط العلمى على الطب والصيدلة والكيمياء وانما برعوا في الحساب والرياضة أيضا . وليس أدل على ذلك من أنهم تولوا الأعمال الحسابية والمالية والادارية طوال العصر الاسلامى ، بل ظلوا الى عهد قريب يشغلون غالبية وظائف الدولة في هذا الميدان .

ولم يقل نبوغهم في الهندسة وأعمال البناء عن نبوغهم في الطب والحساب . وتشهد على ذلك الكنائس الضخمة التي بنوها والأديرة ذات الأسوار والحصون الضخمة .

وليس أدل على ذلك من آثار « أباميا » بمريوط ، والديرين الابيض والاحمر فى منطقة سوهاج ، وغير ذلك من الآثار المعمارية الكثيرة الدينية وغير الدينية . بل ان هذا النبوغ استمر معهم فقد ذكر « الأزرقى » فى كتاب أخبار مكة أن الكعبة حتى عليها قبيل ظهور الاسلام سيل عظيم صدع جدرانها ، فأعادت قريش بناءها مستعينة فى ذلك بنجار قبطى كان يسكن مكة .

وأثبتت الأوراق البردية التى عثر عليها فى مصر أن الوليد استعان بالقبط فى بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى ، وقصر أمير المؤمنين هناك . ويذكر « البلاذرى » فى فتوح البلدان أن الوليد استعان بالقبط فى اعادة بناء مسجد المدينة .

ولما أعاد عمر بن عبد العزيز بناء الجامع النبوى فى المدينة عهد بذلك الى معمارين من القبط بنوا فيه أول محراب مجوف فى الاسلام ، وقد اتخذوا شكله من حنية الكنيسة . وأثبت العلماء أن قصر المشتى فى شرق الأردن الذى يرجع بناؤه الى منتصف القرن الثامن الميلادى قد تأثر فى زخارفه بالزخارف القبطية وفى تخطيطه بتخطيط الديرين الأبيض والأحمر بسوهاج . وتتجلى البراعة الفائقة فى بناء مهندس قبطى هو سعيد ابن كاتب الفرغانى لجامع ابن طولون مستخدما فى ذلك عمودين فقط بعد أن قال المهندسون لابن طولون ان ذلك العمل يحتاج الى ما لا يقل عن ٣٠٠ عمود . وبين « كريزويل » الأثر القبطى على فن العمارة الاسلامى المتقدم فى مقال له نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٣٦ .

ومن آثارهم فى الفلك حساب الأبقطى الذى وضعه فى القرن الثانى للميلاد الأنبا ديمتريوس بطريرك الاسكندرية . وسار الأقباط هم الذين يعهد اليهم بتحديد الأعياد والأصوام للعالم المسيحى كله . ومثال ذلك ان مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م فوض لبطريرك الاسكندرية تحديد التاريخ المضبوط لعيد القيامة بعد أن تضاربت أقوال علماء المسيحية فى ذلك .

صناعة الورق

وجدنا من مخلفات العصر القبطى الكثير من البرديات التى تثبت أنهم أجادوا صناعة ستة أصناف من الورق للكتابة ، وقد استغل المصرى هذا الورق أحسن استغلال فى تدوين علومه وآدابه منذ أقدم عصور حضارته .

فالمصرى فى كل عصوره - اذا ما تناول الفن أو العلم - أظهر ثباتا على مصريته ومحافظة على تراثه . وذكر الأستاذ « جوجيه » فى معرض كلامه عن مدرسة الاسكندرية فى مقال له عن عصر الانتقال فى مصر من اليونانية الى القبطية ما ترجمته « لقد سعى الاسكندر الأكبر معه ليصبغ الروح المصرية بالصبغة الهيلينية ، واقتفى البطالمة أثره فى ذلك ، وحاولوا جهدهم أن يستميلوا المصريين ويضفوا على الفكر المصرى صبغة يونانية

بحتة . وقد ثابروا في هذا السبيل مدة ستة قرون يحاولون فيها الوصول الى غرضهم . وخيل اليهم أنهم نجحوا في الوصول الى هدفهم لما رأوا المصري وقد شغف بمختلف أنواع الثقافات . يأخذ منها أينما وجدها ، ويستمتع بالفن حيثما يلقاه . ولكن المصري له قدرة عجيبة على تكييف الفنون وفق مزاجه ، ويستسيغ العلوم بحسب ذوقه ، وهو — بعد هذا كله — مصري تأصلت جذوره في هذه التربة التي ازدهرت فوقها حضارته العريقة . فالمصري — مع كل ما يهضمه من علوم وفنون غريبة — فخور بماضيه ، شغوف ببلاده . فهذا الفخر وهذا الشغف متأصلان فيه الى حد بعيد الغور ، فهو ثابت في مصريته بحيث لا يمكن اقتلاعها منه أو تحويله عنها مهما تنوعت المؤثرات » .

نضيف الى كل هذا أن أقباط مصر وبطاركتها ظلوا عمد التشريع الكنسي طوال القرون الأولى للمسيحية وكانوا يعتبرون حجة في تنظيم قانون الكنيسة للعالم المسيحي .

التاريخ الكنسي

١ — تاريخ بطاركة الاسكندرية

كان لمصر مكانة رفيعة بين دول العالم في نواحي الحياة كلها مجتمعة ابان عهود الفراعنة . وكانت المعبودات المصرية في دلالاتها تنم عن فكر سام رفيع ، اذا قيست بمعبودات الشعوب الأخرى . بل استعارت البلاد الأخرى أحيانا المعبودات المصرية لعبادتها .

فلما دخلت المسيحية مصر وانتشرت بها ، غدت الكنيسة المصرية نفس المركز الديني الرفيع بين كنائس العالم . وساعد على ذلك ما عرف عن علماء مصر من تعمق في معارفهم وعلومهم . ولما أخذ الجدل الديني يشتد ابتداء من مطلع القرن الرابع الميلادي ، عقدت المجامع العالمية (المسكونية) بدعوة من اباطرة الدولة البيزنطية . وكانت رئاسة تلك المجامع — التي حضرها أساقفة مندوبون عن كنائس العالم المسيحي كله — تسند في أغلب الأحيان الى بطاركة الكنيسة المصرية .

هكذا كان لبطاركة الكنيسة المصرية مركز سام في العالم أجمع ، وكان الأباطرة المسيحيون يجلونهم ويلتمسون بركتهم ويقيمون لهم وزنا . لأنهم كانوا زعماء يمثلون قوة شعبية جبارة . مما أقض مضاجع أولئك الأباطرة .

ومن ثم كان التاريخ لهؤلاء البطاركة — الزعماء الشعبيين — أمرا هاما للغاية . فقد اشتركوا في الحوادث السياسية التي دارت والتي كان لها طابع ديني على الأغلب ، فقد يحدث أحيانا أن يعتنق الامبراطور الروماني مذهبا دينيا معينا في نطاق المسيحية ، ويريد أن يرغم رعيته في أنحاء امبراطوريته على اعتناق مذهبه حتى يضمن بذلك التجانس بين

شعوب الامبراطورية تبعا لوحدة المعتقد ، بسبب عداء بين الشعب والحاكم الصدام والحروب والثورات . وكان البطاركة بحق زعماء شعبيين في تلك الأوقات العصيبة ، قادوا الشعب ولم يعبأوا بالحديد والنار . واضطروا أولئك الأباطرة أن يحنوا الرؤوس لهم اجلالا واحتراما ، فأرخ الناس لهم ولعصرهم ، حتى لتستطيع أن تلم بالكثير من التقاليد والعادات المصرية بل وبنواحي الحياة المختلفة من مجموع هذه التراجم التي تظهر لنا روح العصر الذي عاش فيه هؤلاء البطاركة .

المصادر التاريخية لسير البطاركة :

عرض مؤرخون كثيرون لسير بطاركة الكنيسة المصرية ولعل من أشهرهم .

أ ـ يوحنا النقيوسي :

في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي ، كتب تاريخا يبدأ بخلق العالم الى ما بعد الفتح العربي لمصر بزمن يسير . ويحوي تاريخه أخبارا متصلة عن الآباء البطاركة من مرقس الرسولي الذي بشر بالمسيحية في مصر في القرن الأول الى الانبا بنيامين البطريرك الذي عاصر الفتح العربي .

ب ـ ساويرس بن المقفع :

أسقف الأشمونين (مركز ملوى) عاش في النصف الأخير من القرن العاشر وأوائل الحادي عشر وعاصر الخليفة الفاطمي المعز لدين الله . ووضع كتابا أسماه « تاريخ البطاركة » ويعتبر تاريخه أهم مرجع بين هذه التواريخ جميعها . وذلك نظرا لما امتاز به هذا الأسقف من العلم الغزير وتمكنه من اللغات القبطية واليونانية والعربية . بل لعله أول كاتب صنف مؤلفاته باللغة العربية من بين الأقباط . وقد جمع تاريخه من عدة مصادر قديمة عثر عليها في الأديرة أو عن مصادر نقلت عنها . وقد أرخ ساويرس للبطاركة من مرقس الرسولي الى البطريرك يوساب الأول (٨٣٠ ـ ٨٤٩ م) . وقد ذكر ساويرس أنه ترجم هذه السير الى العربية من مخطوطات قبطية ويونانية ترجع الى عصر المؤرخ له أو بعده بقليل . ومما يجدر ذكره أن معظم هذه الأصول قد خرج من مصر ، وهي موجودة الآن في المكتبات الكبرى في العالم ، ويقوم العلماء بنشرها تدريجيا .

والكتاب بوضعه الراهن يعتبر موسوعة تاريخية عن خصائص العصر الذي عاش فيه البطاركة أصحاب الترجمات . وقد نقل المقريزي عن هذا الكتاب جانبا كبيرا مما سجله في كتابه « الخطط » كما أخذ منه أيضا القلقشندي في كتابه « صبح الأعشى » .

وقد ترجمه « ايفتس » ونشره بالعربية مع ترجمة الى الانجليزية في مجموعة الآباء الشرقيين .

جـ ـ الأنبا ميخائيل أسقف تنيس :

عاصر الأنبا ساويرس بعض الوقت وزامله في جمع تواريخ البطاركة من الأديرة . وأرخ

للبطاركة من خائيل الثالث (٨٨٠ — ٩٠٧ م) الى سانوتيوس (١٠٣٢ — ١٠٤٦) .

د - الأنبا يوساب اسقف فوه :

من رجال القرن الثالث عشر الميلادي . وقد قام بجمع سير البطاركة ووضع سير معاصريه .

وقد أكمل تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية حتى عصرنا الحاضر على يد علماء كثيرين من مصر وغيرها . وتعتبر تواريخ البطاركة حلقة هامة في تاريخ مصر العام .

٢ - السنكسار :

وهو الكتاب الذي يضم سير الآباء القديسين . ويحوى قصصا دينيا يصور لنا النواحي الاجتماعية في العصر الذي عاش فيه الآباء أصحاب التراجم . فهو بذلك يكمل التاريخ ويساعد على فهمه . وقد نشره « باسيه » بالعربية مع ترجمة الى الفرنسية . ثم نشره « أوليرى » مرتبا بحسب الحروف الهجائية .

وثمة كتب أخرى تكمل السنكسار وتفسره . وأشهر من دونوا سير الآباء « بلاديوس » الذى كتب سير الرهبان المصريين ، والناسيوس الرسولى بطريرك الاسكندرية في القرن الرابع ، الذى كتب سيرة القديس انطونيوس ، والقديس « جيروم » . وجيروم هو الذى دون بدوره سير القديسين والشهداء المصريين . وقد نشرها في مجلدين العلامة « بدج » ، كما وضع القديس يوحنا كسيان (القرن الرابع) عدة كتب ضمنها بعض سير الرهبان المصريين نشرها « لوشانواز » بعد ترجمتها الى الفرنسية ، كما نشرت ترجمة الى الانجليزية في المجلد الحادي عشر من موسوعة « آباء نيقية وما بعد نيقية » .

٣ - تاريخ المجامع

أرخ الأقباط — بطابعهم القبطى الخاص — للمجامع المحلية والعالمية ، مما كان له أكبر الأثر في المحافظة على هذا التاريخ .

(أ) المجامع المحلية :

وكانت تعقد في مدينة الاسكندرية برئاسة البطريرك للنظر فيما يهم الكنيسة بوجه عام وحل المسائل المختلفة التى كانت تطرأ .

(ب) المجامع العالمية (المسكونية) :

وكانت تعقد في القسطنطينية أو في مدينة تتوسط أنحاء الامبراطورية . وكان الامبراطور البيزنطى هو الذى يدعو لانعقادها للنظر في البدع الدينية التى تظهر في اقليم من اقاليم الدولة . وكان أعضاؤها مندوبين يمثلون جميع الكنائس في العالم المسيحى وعلى المجمع أن يتخذ القرارات التى تدحض تلك البدع من جهة وتقوى الايمان من جهة أخرى . وقد شغلت الخلافات المذهبية جزءا كبيرا في تاريخ الدولة البيزنطية انهكت قوتها ومزقت أوصالها .

ولذلك تؤلف تلك المجامع فصولا رئيسية فى تاريخ الدولة البيزنطية .

وفى التاريخ العام كان للاقباط انتاجهم الكبير الملحوظ فيما وضعوه من مؤلفات عديدة ليس بالنسبة الى التاريخ الكنسى فحسب ، بل فى التاريخ المدنى أيضـا . ومن أشهر الكتب التى ألفت فى هذا المضمار الكتاب الذى أرخ فيه يوحنا النقيوسى للعالم من بدء الخليقة الى الفتح الاسلامى ويعتبر الجزء الأخير منه هو المصدر الأول لتاريخ فتح العرب لمصر .

يوحنا النقيوسى :

كان معاصرا لفتح العرب لمصر . كان فى بدء حياته راهبا عرف بالتقوى وكثرة العلم وحسن السيرة ، فرسم أسقفا على نقيوس (ومكانها الآن قرية بشادى بمديرية المنوفية) ، ثم رقى رئيسا لأساقفة الوجه البحرى ، ثم عين فى شيخوخته سنة ٦٩٤ م مديرا لأديرة وادى النطرون . وعلى الرغم من علمه وتقواه وخدمته للكنيسة فقد حكم الأساقفة بوقفه عن مباشرة عمله الكهنوتى بسبب عنفه الشديد فى تأديب راهب على خطيئة ارتكبها .

وقد خلف لنا كتابا هاما أرخ فيه من بدء الخليقة الى ما بعد دخول العرب مصر بقليل . وكتابه مقسم الى ١٢٢ بابا الأحد عشر الأخيرة منها خاصة بالفتح العربى حيث تكلم عنه بتفصيل واسهاب . ويعتبر الكتاب هو المرجع الأول والأصيل فى هذا الموضوع لأن كاتبه سجل ما رآه عيانا بنفسه .

وقد وضع هذا الكتاب باللغة القبطية ثم ترجم الى العربيـة والحبشية وربما الى اليونانية أيضا . ولكن لم يصل الينا غير الترجمة الحبشية .

ويدل الكتاب على ما وصل اليه يوحنا النقيوسى من علم غزير وتعمق فى البحث واعتماد على المراجع الأصلية القديمة ، كما تظهر فيه الحرية التى توخاها الكاتب فى سرد التاريخ .

وليس صحيحا ما ذكره زوتنبرج الذى نشر تاريخه من أن الكتاب وضعت غالبيتـه باليونانية على حين وضعت الأخبار المحلية بالقبطية .

١ - لأنه من المستبعد على كاتب قبطى متمسك بتومضه أن يكتب لمواطنيه تاريخ العالم بلغة مضطهديهم الروم .

٢ - كانت اللغة اليونانية قد أخـذت فى الانقراض من مصر منـذ القرن الخامس على يد الأنبا شنوده .

٣ - صيغة أسماء الأعلام فى النص الحبشى تدل على أنها أخذت عن أصـل قبطى .

وقد ظل الأقباط يحملون لواء العلوم الى ما بعد دخول العرب مصر بقرون . وظهر فيهم كيرلس وكولوتس وبؤاتس . وعرف فى القرن السادس يوحنا فيليبوتوس النحوى

الذي ألف في الأدب والطب والرياضة . ومن المعروف انه منذ القرن السادس كان رجال الدين من الأقباط يتولون تدريس العلوم في المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، ونذكر من بينهم سرجيوس وهارون القس .

وقد ورثت الدولة الاسلامية فيما بعد كثيرا من هذا التراث العلمي في حركة الترجمة التي قامت بها . فقد أمر خالد بن يزيد بن معاوية بأن ينقل الى العربية كثير من الكتب اليونانية والقبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية . وتبعه في هذا المضمار كثير من خلفاء وولاة المسلمين . وكان استقرار الخلافة في بغداد وازدهار العلوم فيها باعثا على انتقال العلماء من مصر الى الشرق . ويقول « المسعودي » في مروج الذهب ان مجلس التعليم (الجامعة) نقل من الاسكندرية في أيام عمر بن عبد العزيز الى أنطاكية ثم نقله المتوكل الى حران .

الإنتاج الأدبي والثقافة الشعبية

المخلفات الأدبية المؤلفة بالنثر : وتشمل فروعا كثيرة أهمها :

١ ــ ترجمة الكتاب المقدس :

وهي في الدرجة الأولى من أدبيات اللغة القبطية . وقد أخذت هذه الترجمة عن اليونانية منذ القرن الثاني ، وتعتبر من أدق الترجمات لأن الذين قاموا بها كانوا ملمين الماما تاما باللغتين . وقد كانت الحماسة الدينية بالغة حتى انه لم يحل القرن الرابع أو الخامس الا وكان الكتاب كله مترجما الى اللهجتين البحرية والصعيدية وبعض أجزاء منه الى اللهجتين الاخميمية والفيومية .

٢ ــ أقوال الآباء :

وهذه اشتملت على فروع كثيرة منها الأقوال النسكية التي كتبها آباء الرهبنة أو سمعت عنهم فسجلت . وكلها تحض على النسك والتجرد من الماديات وعلى التركيز على الفضيلة وتنقية النفس . ومن أمثلتها الرسائل العشرون التي أرسلها القديس أنطونيوس الى تلاميذه ، والأنظمة التي وضعها القديس باخوميوس لتنظيم حياة الرهبان ، وما خلفه القديس يوحنا التابسي من مقامر (مواعظ) عميقة في الحياة الروحية ، وكذلك تشمل المواعظ والخطب الدينية التي كانت تلقى في أيام الآحاد أو الأعياد أو بعض المناسبات الأخرى ، ومن أشهرها خطب الأنبا شنوده في أثناء كفاحه ضد الوثنية وفي نشره لتعاليم المسيحية . ومع أن الآباء كانوا غالبا يكتبون الكتاب بتحقيق الهدف العملي وهو السامي في ممارسة الفضيلة الا أن ما وصلنا منهم كثير في قدره وفي قيمته .

٣ ــ سير القديسين :

وهي كثيرة جدا تزخر بوصف حياة وجهاد الشهداء والرهبان والمتوحدين والنساك

وبعض الآباء البطاركة والأساقفة . ولم تكن هذه السير مجرد تاريخ جاف ، وانما كانت موضوعة فى أسلوب أدبى عميق بالغ الأثر حتى كان من نتائجها اقبال كثيرين على الرهبنة وعلى السير فى الحيـــاة الفضلى . وهى فى الواقع تجسيم لفضـــائل معينة يمثلها هؤلاء القديسون الذين كتبت سيرهم مع لون من الايحاء فى الكتابة .

٤ ـ القصص :

وبعضه دينى فيه خيال وتصور مثـــل قصة ملكة سبأ ومقابلتها لسليمان الحكيم أو قصة الملك يوحنا ورئيس اندير . والبعض وطنى نفس به الأقباط عن شعورهم القومى الذى ظل مكبـــــوتا فترات طويلة تحت نير المستعمر . ومن أمثلتها رواية الاسكندر الأكبر وقد وجدت ترجمتها الصـــعيدية فى الدير الأبيض . ورواية قمبيــز وغمــزود لمصر ، وكلاهما لا صلة لهما بالدين ولا بالجـــدل اللاهوتى . وكذلك قصـــــة ثيودوسيوس وديونسيوس .

٥ ـ الاصلاح الاجتماعى :

تظهر روح الاصلاح فى خطب الأنبـــا شنوده التى حارب بها البدع الموجـــودة فى عصره كالدجل الطبى والســــــحر وفوضى الموالد وبناء الهياكل على أجساد الشـــهداء وما الى ذلك .

٦ ـ أغراض أخرى :

مثل الآداب الكنســـية وطقوس العبـــادة ونصوص أخرى تتعلق بالتـــاريخ والقوانين والسحر .

النظـــم

لم يصل الينا شعر كتبه الأقبـــاط فى الأغراض الدنيوية المختلفة اذ كان الســـلك السائد فى تلك العصـــور الأولى المسيحية يحول دون ذلك . فقد اتجهوا فى المدح الى الملائكة والعذراء مريم والأنبياء والقديسين والشـــهداء فى نظم يعـــــرف باســـــم الذكصولوجيات وهى كلمة معناها «تمجيد» وقد جمع الكثير منها أونيرى سنة ١٩٢٤ فى كتابه المسمى Coptic Hymns ؛ أما مديح العذراء مريم فلكثرته اختص به تقريبا باب اسمه الثيئوطوكيات . وقد نشر « أوليرى » سنة ١٩٢٣ كتابه المسمى The Coptic Theotokia جمع فيه كثيرا من المقطوعات الشعرية القبطية التى وجــــدها فى دير القديس مقاريوس والمكتبة الأهلية بباريس والمتحف البريطانى . وقد قيل ان هذا النوع من النظم كان مستحبا لدى الشعراء الأقباط استعملوا فيه مواهبهم . كما ذكر « مالون » أن هذه الثيئوطوكيات لها مكانة عظمى فى الآداب القبطية .

وقد كان القصص من بين الأغراض التى طرقها الشعراء الأقباط أيضـــا . ومن أشهر القصص الشعرية قصة ارشيليديس الراهب الذى رفض مقابلة أمه وفاء لنذر قطعه على نفسه الا يرى امرأة . وهى قصيـــدة طويلة جدا على شكل حوار تظهر فيه براعة التمثيل وقوة التأثير ، والقصيدة تمس ناحية حساسة من المشاعر الانسانية .

ثم هناك الأشعار الكنسية وهي صلوات أو تأملات مأخوذة من المزامير أو الانجيل وتسمى ابصاليات (وهي مأخوذة من الكلمة القبطية بصالوس بمعنى مزمور) والبعض الآخر تسمى الهوسات (وهي مأخوذة من الكلمة القبطية هوس بمعنى تسبيح) . وقد اختصوا كل يوم بتسبحة خاصة منظومة وملحنة بلحن خاص ، وتوجد غالبية هذه القطع الشعرية في كتابين هما الابصلمودية السنوية والابصلمودية الكيهكية

النـدب

عرف الشعب المصري منذ أقدم عصوره ندب الميت ، وقد وصلنا من العصر القبطي الكثير من الندب في نظم تغنى أحيانا على الرخام كشواهد للقبور .

وتظهر لنا عادة الندب من قصيدة ارشيليديس وأمه سنكليتكى التى تدعو فيها النساء للندب « أيتها النساء ، ما كافة من أنجبن أبناء ، تجمعن ، وابكين معي » وقد نشرت « ماريا كرامر » كتابا فيه الكثير من منظومات الندب القبطية .

وكانت موضوعات الشعر تنطوى على كثير من المعاني الأدبية والحكم التى يمكن ارجاعها الى التأثر بنظائرها في الأمثال المصرية القديمة وفى أمثال سليمان الحكيم وباقي أدب الحكمة في العهد القديم . ويرى «بوول» أن القبطي كان يفضل هذا اللون من الأدب منذ العصور الفرعونية وأن تضمين الحكمة في شعره كان أصيلا وليس نتيجة لاعتناق المسيحية .

لغة الأدب

ينقسم الأدب القبطي الى قسمين :

(أ) أدب قبطي متأثر بتأثيرات يونانية . وقد ظهر أكثره في الاسكندرية التى انتشرت فيها الثقافة الهلينية ، حتى اضطر كثير من الآباء الى الكتابة باللغة اليونانية المنتشرة في العالم وقتذاك ، وترجمت كتاباتهم في مصر الى القبطية لينتفع بها الأقباط أنفسهم .

(ب) أدب قبطي صميم كالذى ظهر في كتابات الأنبا أنطونيوس والأنبا باخوميوس اللذين لم يعرفا غير القبطية ، وخطب ومواعظ الأنبا شنوده الذي لم يشأ أن يكتب بغير القبطية ، كما كان زعيما شعبيا يكلم الأقباط المضطهدين على يد حكامهم بلغتهم القبطية لا باللغة اليونانية لغة الحكام .

وهذا الأدب القبطي الصميم كان له مركزان : هما وادي النطرون لمهجة البحيرية، والدير الأبيض والأديرة الباخومية بالصعيد للهجة الصعيدية . وهكذا نرى أن أديرة الرهبان كانت معاقل للأدب القبطي الصميم بلهجتيه . وفي بعض المخطوطات القبطية تسمى اللغة القبطية لغة أهل الجبال . ولعل المقصود بذلك الصعيد لارتفاعه وأديرة الرهبان لوجودها في الجبال . وقد تولى الأنبا شنوده رئاسة الدير الأبيض سنة ٣٨٣م

الذي أضحى مركزا للأدب الصعيدي . وفيه أصبحت اللهجة الصعيدية هي اللغة الأدبية للكنيسة القبطية في أزهى عصورها .

وأمام هذه النهضة الأدبية التي تزعمها الأنبا شنوده أخذت اليونانية تتقهقر وتتراجع بمقدار النمو المطرد الذي انتشرت به المسيحية بين الريفيين وبمدول التساس الى استخدام اللغة القبطية كلغة أدبية وبازدياد الأقباط شعورا بكيانهم وقوميتهم . وعندما فتح العرب مصر كانت اللهجة الصعيدية هي لغة الأدب القبطي عامة . ولكن تعوض بعد ذلك للهجة البحيرية كان على أساس ترجمة الآداب الصعيدية التي انتشرت في القرون الستة الأولى المسيحية .

٤ - أقوال الآباء . آثارها وشهرتها

كتب آباء الكنيسة القبطية في نواح كثيرة أهمها فرعان رئيسيان هما : اللاهوت والنسكيات وقد حظيت كل تلك المؤلفات بشهرة عالية منذ كتابتها .

كتابات الآباء اللاهوتية

كان أساتذة الاسكندرية ومدارستها هم عمد اللاهوت في العالم المسيحي كله . لذلك كانت لكتاباتهم أهمية كبيرة وشهرة واسعة .

كان موقف الزعامة الفكرية الذي وقفه القديس اثناسيوس في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م باعثا على ذيوع كتاباته في اللاهوت وتوضيحاته للايمان المسيحي ، وأصبحت كتاباته المصادر الأولى لعلم اللاهوت المسيحي ، حتى اعتبر اثناسيوس أبا لعلم اللاهوت في المسيحية . ومؤلفاته التي وضعها عن « تجسد الكلمة » و « الرد على الأريوسيين » و « الروح القدس » انتشرت هي أيضا انتشارا واسعا ، وعليها بنى باقي مشاهير اللاهوتيين أفكارهم حتى أصبح القول الشائع بين الغربيين في تلك العصور هو « اذا وجدت عبارة من أقوال اثناسيوس ولم تجد ورقة لتكتبها ، فاكتبها على قميصك في الحال » ، ونعرف أن القديس « ايلاري » — أسقف بواتيه بغرنسا — لما ذاع صيته ، لقبوه « اثناسيوس الغرب » .

وهذه الشهرة والزعامة الفكرية انتقلت أيضا الى القديس كيرلس الاسكندري حتى لقب بعامود الدين . وكان كافيا أن يقول الشخص:إنه على ايمان اثناسيوس وكيرلس، لكي يصبح هذا اعترافا منه بالايمان السليم.

وقد نالت كتابات ديديموس الضرير مدير المدرسة اللاهوتية في عهد اثناسيوس شهرة واسعة ، حتى أن الأنبا داماسوس أسقف روما لما طلب من القديس جيروم ، الذي كانت شهرته العلمية معروفة في الكنيسة كلها ، أن يكتب له مؤلفا عن الروح

القديس ج ، وجد هذا أن أفضل ما يعمله هو أن يترجم الى اللاتينية ما كتبه ديديموس الضرير في هذا الموضوع .

هذه الشهرة التي نالتها كتابات آباء مصر في القرنين الرابع والخامس سبقتها شهرة واسعة في القرنين الثاني والثالث لأساتذة المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية . ولعل أكبر مثال لها هو كتابات أوريجانوس التي تلقفها علماء الشرق والغرب فراعهم ما فيها من قوة وعمق . ومن أجل ذلك قام بترجمة الكثير منها الى اللاتينية روفينوس وايلاري أسقف بواتييه والقديس جيروم . بل ان غالبية معلمي الكنيسة اللاتينية وأعاظم اللاهوتيين فيها حرصوا على أن ينقلوا عن أوريجانوس كما يظهر ذلك من شرح لامبروسيوس أسقف ميلان معلم أوغسطينوس . ولقد شهد أوسابيوس أسقف فرسيلي في ايطاليا أنه لم ير فلسفة حقيقية غير مؤلفات هذا العالم القبطي . وكان القديسان باسيليوس الكبير واغريغوريوس الناطق بالالهيات يعتبرانه معلما لهما . وقد جمعا مقتطفات من مؤلفاته في كتاب أسمياه فيلوكاليا .

أقوال الآباء في النسك

تلك الشهرة التي حظي بها آباء الأقباط في اللاهوت تعادلها شهرة لا تقل عنها في آداب الرهبنة . ولعل أبرز أمثلتها قوانين القديس باخوميوس وما نالته من شهرة ، حتى لقد نقلها الى رومه القديس اثناسيوس ابان نفيه عن كرسيه . كما ترجم القديس جيروم حياة باخوميوس وقوانينه الى اللاتينية سنة ٤٠٤ لفائدة رهبان ايطاليا . ووصلت الى بلاد الغال في أوائل القرن الخامس عن طريق القديس يوحنا كاسيان الذي عمل على تطبيقها عمليا في الدير الذي أسسه في مارسيليا . ووضع القديس أوغسطينوس نظامه الرهباني مسترشدا بقوانين باخوميوس . وكذلك فعل القديس باسيليوس الكبير مؤسس الرهبنة اليونانية ، والقديس باتريك مؤسس كنيسة ايرلندة في القرن الخامس بعد أن تتلمذ في لوران في دير على النظام الباخومي . وربما يكون من أهم وأبقى آثار الأنظمة الباخومية ما تركته من أثر في الأديرة البندكتية . فان بندكت في القرن السادس أخذ عن قوانين باخوميوس حتى أنه في بعض المواضع يكاد ينقل بالحرف الواحد . ودير مونت كاسينو في ايطاليا لا يكاد يختلف عن أي دير باخومي في قنا . وهكذا انتشرت قوانين باخوميوس في أرجاء العالم كله ، وعلى أساسها قامت الحركات الديرية في العالم المسيحي . ولا تزال هذه القوانين باقية حتى الآن باليونانية واللاتينية .

وآباء الرهبنة الذين لم يكتبوا وانما اهتموا بممارسة الفضائل عمليا وبما يلقونه على تلاميذهم من تعاليم ، هؤلاء كانوا هم أنفسهم موضوعا للكتابة ، فصنفت عنهم المؤلفات العديدة ، واليهم كان يأتي كبار

كتاب المسيحية فى العالم ليسطروا أخبارهم ويجمعوا كلماتهم القليلة لتكون نورا للناس . وهكذا فى سنة ٣٨٨ م جاء الى مصر بلاديوس أسقف هيلينوبوليس ومكث سنة بين رهبان الصعيد ، ثم رجع اليها سنة ٤٠٦ وقضى حوالى سبع سنوات مع رهبان وادى النطرون وكتب كتابه الذى اصطلح على تسميته فيما بعد بـ « بستان الرهبان » . وكذلك جاء القديس يوحنا كاسيان لزيارة وادى النطرون ما بين سنة ٣٩٠ — سنة ٤٠٠ م وضمن كتابيه « المعاهد » و « المقابلات » أخبارا كثيرة عن الرهبان المصريين ومقتطفات من أقوالهم . كما زار مصر لنفس الغرض سنة ٣٨٦ القديس « جيروم » ومعه تلميذته « باولا » ، ووضع كتابا عن القديس المصرى الأنبا « بولا » المتوحد ، وآخر عن الرهبان المصريين ضمنه أقوالهم وأخبارهم ، ورجع فأسس — على ضوء ما سمعه ورآه — ديرين فى بيت لحم بفلسطين أحدهما للرهبان والآخر للراهبات .

ولعل أشهر كتاب كان له أثر بالغ فى هذا المضمار هو كتاب « حياة أنطونيوس » الذى وضعه الأنبا أثناسيوس بطريرك الاسكندرية بناء على الحاح أهل رومه . وقد أشعل هذا الكتاب روح الرهبنة والنسك فى بلاد الغرب ، ويكفى أن قراءته كانت نقطة التحول فى حياة القديس أوغسطينوس الذى تأثر به جدا — كما يذكر فى اعترافاته — حتى ترك حياته القديمة ، ولم يصبح مسيحيا فحسب بل أحد مشاهير رجال المسيحية .

ولم تقتصر شهرة أقوال الآباء على عصورهم ، بل لا تزال لها قيمتها وشهرتها فى الأدب المسيحى حتى يومنا هذا . وقد تحمس أهل الغرب لترجمتها الى لغاتهم ونشرها ، وهى تشغل جانبا هاما من مجموعتى منى Migne اللتين جمع فيهما فى أواخر القرن الماضى أقوال الآباء باليونانية Patrologia Graeca وباللاتينية Patrologia Latina كما تشغل جانبا هاما أيضا فى مجموعة أقوال الآباء الشرقيين Patrologia Orientalis التى تصدر تباعا فى باريس . وقد صدرت عن أقوال الآباء بحوث ومؤلفات عديدة ، وترجمت كتبهم الى اللغات الأوروبية الحديثة مع مقدمات وافية لحياة مؤلفيها وأسلوبهم وشهرتهم . أما آباء الصحراء فقد انتشرت أقوالهم فى ترجمة كتابات بلاديوس وكاسيان وجيروم . وفى سنة ١٩٢٣ أصدر عنهم « بوسيه » كتابه الخاص بأقوال الآباء Apophthegmata Patrum

اهتمام العالم بالمخطوطات القبطية

لم تكن كل كتابات الأقباط بالقبطية كما قلنا ، وانما كتب جزء وافر منها باليونانية . ولهذا كان للأقباط فضل على الأدب اليونانى اذ ضموا اليه ذخيرة جديدة قبطية روحا وان كانت تلبس ملابس يونانية . غير أن الأقباط — وبخاصة الرهبان —

عادوا فترجموا الى القبطيـة كتابات آبائهم التي كتبت باليونانية . وبهذا أصبحت هذه الذخيرة الثقافية والأدبية من التراث القبطي موجودة باليونانية والقبطية معا .

واهتم العالم اهتماما كبيرا بالمخطوطات القبطية سواء منها المكتوبة أصلا بالقبطيـة أو المترجمة اليها . وظهر هذا جليا بعد حركة النهضة الأوروبية . فأخذ الرحالة والمبشرون العلميون يجمعون المخطوطات القبطيـة من الأديرة والكنائس القديمة . وهكذا ذكر الرحالة « ليبرمك » أحد هواة الكتب بباريس بعد زيارته لمصر سنة ١٦٣٣ م أنه وجد كتبا نادرة في كثير من الأديرة منها مجموعة من حوالى ٥٠٠ مخطوطة ترجع الى العصر الأنطوني وجـدها في أحـد أديرة وادي النطرون . وفي أوائل القرن الثامن عشر أرسل الفاتيكان يقتني حصلنا على مجموعة طيبة من المخطوطات القبطية من دير أبا مقار . وفي سنة ١٨٣٩ حصل «هنري تتام» على مجموعته النفيسة التي كانت من نصيب مكتبـة رايلنـدز بمنشستر . وتوالت الزيارات على مصر لهـذا الغرض . فعثر على مخطـوطات بالدير الأبيض استولى على غالبيتها المكتبة الأهلية بباريس ونال المتحف البريطاني بعضا منها . ثم اكتشفت مجمـوعة مورجان سنة ١٩١٠ م في دير الحامولي بالفيوم ونسبت الى مشتريها « بيربونت مورجان » أحـد أثرياء الأمريكيين .

وتزخر مكتبات أوروبا وأمريكا بعـدد كبير من الثقافة المكتوبة بالقبطية تشتمـل على رسائل وايصالات وصكوك وعقود وغير ذلك حتى لقد بلغ عدد الشقافات القبطيـة Ostraca في فينا بالنسبة حـوالى عشرة آلاف شقافة .

وعثر في مصر سنة ١٩٢٩ على مجموعة من البرديات القبطية تشمل على تعاليم ماني وهي محفوظة الآن في متحف برلين .

كما عثر في سنة ١٩٤٦ على برديات قبطية تبلغ ألف صفحة تشتمل على رسائل غنوسية وقد استولى عليها المتحف القبطي في القاهرة .

وبهذا كله امتلأت المتاحف والمكتبـات العامة في أوروبا وأمريكا بهذه المخطوطات . وما بقي منهـا محفوظ في مكتبـة الدار البطريركيـة والمتحف القبطي بالقـاهرة ومكتبات الأديرة والكنائس القديمة .

وقامت هيئات علمية بطبع فهارس لهذه المخطوطات القبطيـة ونشر بعض المخطوطات وترجمة البعض منها مع دراستهـا والتعليق عليها . وقام علماء كثيرون في جهات متفرقة من العالم لدراسة هذه المخطوطات نذكر من بينهم كرم ، واميلينو ، وايفلين هـوايت ، وتشـيندورف ، وورل ، وتل ، والوفور ، وبدج ، وايفتس وكاله وبوليج وكراوسـه وغيرهم . وأصبحت للدراسـات القبطية في جامعات أوروبا وأمريكا أقسام خاصة يتفرغ لها أساتذة وعلماء .

الفصل الرابع

الحيـــــاة الفنيـــة

الفنون القبطية

تعانى الفنون فى حياتها فترات من الخمول أو الضعف ، فاذا واتتها ظروف جـــديدة للانتعاش عادت حاملة معها مختلف صفاتها القديمة وخصائصها وعاداتها . ولقد حدث فى العصر المسيحى فى مصر حين أفسحت الحياة المصرية مجالا للفنون ، أن نمت الفنـــون وترعرعت حاملة فى طياتها مختلف الصـفات الموروثة من عصور سابقة . وفى هذا تقول « زالوشر » انا نؤمن الان أن الفن لا يتقدم فى خط مستقيم مطرد ، بل من الثابت أن تياراته تتقابل وتتراكم ثم تمحى وتختفى ، لتعود الى الظهور بقوة ووضوح .

وان ظاهرة العـودة الى الظهور هـذه نجدها ملموسة فى الفن القبطى .

الصفات العامة للفن القبطى :

اولا ــ فن شعبى :

لم تكن الشعبية من خواص فنون الأمم القديمة ذات الحضارة لأنها نشأت تحت كنف الحكام والأمراء وأصحاب الجاه ، واكتسبت وجودها وتوجيهها وتطـورها من رعايتهم . وكان هؤلاء الســادة يختـــارون الفنانين ويأمرونهم بصنع كذا أو كذا من القطع الفنية فيستجيبون . وهكذا نجـــد الفن المصرى القديم ينتعش ابان عهد الملوك الذين أولـوه رعايتهم ، ويضعف فى عصر الضـــعفاء منهم أو الذين أهملوه .

أما الفن القبطى فهــو الأول فى الشرق القديم الذى كانت له صـفة الشعبية . فان الأباطرة لم يســودوا يقطنون مصر كما كان الحال أيام الفراعـنة ، أو أيام البطالمة . بل كانت مصر فى عهدهم ولاية رومانية تابعــة لروما أو بيزنطة ، وصار الأباطرة اذا أرادوا اقامة أعمال فنية تخلدهم يقيمونها فى عواصمهم لا فى مصر . وبذا فقد الفن القبطى التوجيه السياسى واتجه نحو الشعبية البحتة ، فنحن اذا نظـرنا الى الكنيســة الكبيرة فى الدير الأبيض قرب سوهاج وهى من بناء القديس شنودة ، أو اذا زرنا كنائس مصر القديمة ، أو دير القديس سـمعان فى الضفة الغربيـة بأسوان أو كنائس الواحات الخارجة أو اذا شاهدنا الآثار القبطية فى المتحف القبطى أو مختلف متاحف العالم نجد أعمالا فنية قام بها الشعب المصرى ووضع فيها الفنـان القبطى عصارة روحه ومهارته .

ثانيا ـ فن ديني ومدني

خيل للبعض أن الفن القبطي فن ديني يتصل بالكنيسة والعبادة فحسب ، وما من شك أن هذا الرأي خاطيء ، فهو فن الشعب المصري بأكمله ، يظهر في الأمور الدينية كما يظهر في النواحي المدنية بوضوح . وان كنا نجد أن أغلب الممائر الباقية من ذلك العصر عمائر دينية مثل الكنائس أو الأديرة ، فمرجع ذلك الى اهتمام الشعب عادة بدور عبادته ومحافظته عليها .

ولا شك أن أهم العمائر التي وصلتنا من مصر القديمة أو من مصر الاسلامية هي أيضا عمائر تتصل بالنواحي الدينية مثل المعابد أو الأضرحة والمساجد .

وقد وصلتنا أعمدة وزخارف من بيوت أفراد الشعب الى جانب ما وصلنا من أديرة وكنائس . وكما وصلتنا أقمشة كان يلبسها الكهنة في الخدمة الدينية وصلتنا أقمشة عديدة كان يلبسها عامة الناس في حياتهم أو يكفنون بها موتاهم . ولدينا الآن أدوات كانت تستخدم في الكنائس وأدوات استخدمت في المنازل أو الحقل ، أو الصناعة .

ثالثا ـ فن نبع من البيئة المصرية وعبر عنها

نرى في صور الوجوه القبطية ملامح المصري بعينيه الواسعتين المستديرتين وأنفه ولون بشرته كما نرى صور الحيوانات الأليفة التي تملأ البيوت والحقول مثل القط والكلب والبقرة والجمل والحمل .

وترى الزخارف تصور لنا أوراق النبات المختلفة وفروعها وثمارها كالعنب والنخيل والرمان والقمح والاكانتس . كما نرى صور السفينة الشراعية تمخر عباب نهر النيل وكلها مألوفة لديه ، ونجد الأساطير القديمة المتداولة بين المصريين سواء بنصها القديم أو بعد أن اتخذت معاني جديدة وصورا جديدة تتفق مع الديانة الجديدة التي اعتنقها المصريون .

رابعا ـ ثمرة ما سبقه من فنون ومؤثرات فنية

انا نجد في الفن القبطي أثر الفن المصري القديم والفن الاغريقي والفن الروماني ، وان كنا في الواقع نجد الروح المصرية الخالصة كلما اتجهنا في البلاد جنوبا .

وكذلك تأثر الفن القبطي بالفن السوري وفنون البلاد المجاورة . اذ أن المسيحية قد نشأت في بلاد فلسطين وانتشرت في الشام وبلاد البحر المتوسط وانتشرت معها بعض فنون تلك البلاد بحكم الاتصال وصار المصريون يهتمون بفنونها وبخاصة في الشام .

خامسا ـ فن جمال لا ضخامة

لم يبلغ الفن القبطي حد الروعة كما بلغ الفن المصري القديم ، كما أنه فقد انتاج الأشياء الضخمة ، التي تميز بها الفن المصري القديم . فمن مصر القديمة وصلتنا الأهرام ، والمعابد الهائلة كالكرنك والتماثيل الضخمة كتماثيل رمسيس ، والأعمدة الشامخة والمسلات . ولكن الفن القبطي كان فن جمال يهتم بابراز المعاني في دقة .

سادسا — فن الزينة

وصلنا كثير من أفاريز المباني ورءوس الاعمدة ، وكثير مما تزين به الجـدران والأسقف والأعمدة ، وما تزين به التوابيت والمصنوعات المعروقة بالفسيفساء . كما أظهر لنا الفن القبطي ما تزينت به النساء من حلي وأحجار كريمة وملابس وخاصة ذات الألوان الزاهية منها ، وامتدت الزينة الى كتابات الاقباط فزينوا الكتب وزخرفوا صحائفها بزخارف بالغة حد الروعة .

سابعا — فن يستخدم الاشكال الهندسية والرمزية :

نجد في هذا الفن زخارف أساسها المثلثات والمربعات والدوائر والخطوط المتلاقية والمتقاطعة ، مستخدمة في كل شيء ، ولا ننسى أن ننوه الى أن هـذه الخاصية ، وخاصية التزيين التي سبقتها ، كانتا كثيرا ما تجنحان نحو أمور رمزية ، وقد دفعت هاتان الخاصيتان بالفن القبطي بعيدا عن الواقع وتصوير طبيعة الانسان الأمر الذي قد يجر الى مظاهر خليعة لا يوافق عليها رجال الدين . وحين دخل العرب والاسلام مصر وجدا تربة خصبة للتعبيرات الفنية ، فأخذ الفنانون يخرجون القطع الفنية التي تناسب العرب والدين الاسلامي ، مما نراه واضحا في الزخارف القائمة على الأشكال الهندسية والرسوم ذات المعاني الرمزية التي تبعد عن تصوير الأشخاص . وهكذا نجد صفات مصرية أصيلة راسخة في الفن المصري المسيحي الذي ساهم بدوره الى الفن المصري الاسلامي .

صور من الفنون القبطية

العمارة :

العمارة كأي لون من ألوان الفنون الجميلة انعكاس للبيئة بكل ما تحتويه من معان روحية ومادية . والعمارة المصرية القديمة يتمثل فيها هذا المعنى بشكل واضح مجسم . فهي في جميع مراحلها تعبر لنا تعبيرا واضحا عن التيارات المختلفة التي تنازعت المجتمع المصري في مختلف العصور . ولعلنا لا نكون مبالغين اذا ذهبنا الى أن التفوق والتسامي اللذين امتازت بهما العمارة المصرية القديمة كان لهما صدى روحي بالغ الأثر في تكييف الفن المعماري في جميع أنحاء العالم . ومن مزايا العمارة المصرية القديمة حتى الدولة الحديثة أن فنها كانت تنبثق من بين خطوطه اشعاعات قوية استطاع على ضوئها اليونان والرومان معرفة السبيل الى التكوين والانشاء ، اذ عرفوا منها كيف يضعون خطوطهم المعمارية لتتلاقى عند هدف واضح.

والعمارة القبطية هي هي العمارة الفرعونية ، وهي العمارة اليونانية الرومانية

فى مصر وهى العمارة الاسـلامية فى مصر .
وأما الفوارق التى تفصل بين كل منها : فهى فوارق اقليمية اقتضتها المتطلبات الزمنية فى عهد ما ، ثم بعض اعتبارات دينية ، ولكنها فى الحقيقة تلتقى عند الأصول والأسس التى قامت عليها العمارة الفرعونية . ومهما يكن فان ما دخل عليها فى كل عصر من تحوير أو تكييف بما يلائم ظروف البيئة ، لم يمنعها من أن تظل محتفظة بروحها وعناصرها الأساسية .

والعمـارة القبطيـة تقرت بروح الفن الفرعونى وبعناصره ، وكل ما طرأ عليها من تحوير فانه لم يمس الا مظهرها الشكلى فقط . فهى حلقة أخيرة أكملت حلقات الفن المتصلة منذ الحضارة المصرية القـديمة والحضـارة اليونانية الرومانية بمصر .

ولما كان الفن المصرى يرتبط بفنون الدين وبلازمها ، فقد احتفظ فى العهـد المسيحى بكثير من التقاليد والعادات المصرية القديمة ولازم الدين وبخاصة ما كان منه متصـلا بالرمزيات والتقاليـد فى الحيـاة اليـومية والجنـائزية والأعيـاد وغيرها . أما مركز المسيحية فى الغـرب وهى روما التى تشرف على الحضـارة الأوروبيـة الغربيـة ، ثم القسطنطينية وهى مركز الحضارة الشرقية ، فقد حاولت كل منهما ايجاد طراز جديد لعمارة تتفق مع الدين الجديد الا أنهما كانتا دائما مقيدتين بالحضارات القـديمة التى سبقت العهد المسيحى ، ووجدتا نفسيهما مضطرتين لنقل كثير من تعاليم هذا الدين الجديد عن مصر التى سبقتهما فى المعرفة والعلم ، ونقلتا منها الكثير من الرموز والتقاليد ، كما نقلتا كثيرا من فنـون مصر واتخـذتا منها منـها للوحدات الزخرفية التى قرب فيها المصرى بين نماذجه القديمة وبين دينه الجديد ، ولذلك نرى أن مراكز المسـيحية تبنت من هـذه الوحدات الزخرفية القديمة ما استطاعت كل منها أن تفسره بطريقة تتفق مع دينها الجديد .

لو تخيلنا مدينة مصرية قائمة من العصر القبطى ، لوجدناها تشبه فى تخطيطها المدن المصرية القديمة . ففى الصعيد حيث يندر المطر كانت البيوت تبنى من اللبن كمدينـة هابو غربى الاقصر ، وفى الوجه البحرى كانت البيوت تبنى من الطوب الأحمر أو الحجـر الجيرى كما عرفناها من مدينـة أبا مينـا (القديس مينا) بالصـحراء الغربية قـرب الاسكندرية .
(صورة رقم ٦٥)

وكانت للبيوت أبواب خشبية كبيرة كما نراه فى الريف المصرى الآن . ولها مزلاج من الخشب معروف الى اليوم ؛ وكانت للبيوت أسقف مرتفعة ، ولها واجهات منسقة بحجارة منقوشة مزخرفة بأوراق العنب عادة . وكانت بها كنائس كالتى عثر على بقاياها فى مـدن أبا مينا ومصر القديمة وبويط والبهنسا واسنا وطيبة وسقارة وأسوان وسوهاج والواحات الخارجة ، وتتكون من قاعات فسيحة بهـا صفوف من أعمدة رخامية مستديرة أو مضلعة

ذات رءوس منقوشة بأبدع النقوش والألوان الثابتة الزاهية . ويكون هيكلها منفصولا عن القاعة بحجاب مصنوع من الخشب المنقوش أو المشغول ، على أشكال هندسية مختلفة ومحلى بصور القديسين وأشكال مختلفة للصليب . وبعض رقائقه من العاج ، كما نجد ذلك في كنيسة أبي سرجة في مصر القديمة . وفي الناحية الشرقية من الكنيسة حنية أي تجويف في الحائط .

والكنيسة تكون أحيانا مستطيلة كالشكل المعروف بالطراز البازليكي ويذهب البعض الى أن تصميمه دخيل على الأقباط ، وواقع الأمر أنه مصري صميم نجده أول الأمر في قاعة الاحتفالات بمعبد الكرنك التى شيدها تحتمس الثالث حوالى سنة ١٤٠٠ ق.م. وتكون الكنائس أحيانا أخرى ذات قباب بحيطان مطلية من الداخل بطبقة من الجبس مرسوم عليها صور للسيد المسيح والقديسين أو مزخرفة بزخارف مثبتة من الجبس أو الحجر في بواطن عقودها وفوق أعمدتها وفوق الأركان المخصصة لصور القديسين .

واذا كانت المدينة قريبة من الصحراء مثل مدينة أبو مينا أو مثل الواحات الخارجة أو أحد الأديرة الصحراوية حفروا لها الآبار والسواقي أو خزنوا مياه الأمطار في مخازن تشبه كثيرا هذه الآبار التى نجدها في الصحراء الآن والتى يسميها البعض آبارا رومانية ، وواقع الأمر أن الفراعنة قد عرفوها قبل الرومان بآلاف السنين . وكانت أدوات النجارة وأدوات الحقل تشبه تلك التى نشاهدها الآن عند النجارين الذين يصنعون السواقي الخشبية . ونجد صوامع للغلال ، ومصانع للهدايا التذكارية تشبه الى حد كبير المصانع التى نجدها الآن في خان الخليلي أو في أسيوط .

التصوير :

كان التصوير السائد في العصر القبطي يسير على الطريقة التى تواترت منذ أقدم العصور في مصر وهى طريقة التصوير بألوان الأكاسيد (الفرسك) على الحوائط المغطاه بطبقة من الجبس . وقد استمر الرسم بهذه الطريقة المصرية القديمة الى العصر الروماني. واتخذت هذه الطريقة في الرسم شكلا مسيحيا في العصر القبطي ، ومنها انتشر بين مسيحيي الشرق والغرب ، وظل الأمر كذلك حتى عصر النهضة .

أما في مصر فقد حافظ التصوير على الطريقة القديمة حتى القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم أخذ القبط الى جانب هذا اللون بطرق أخرى في التصوير . ولم يأخذ التصوير القبطي أشكاله من الطبيعة المنظورة ولكنه صور القديسين والشهداء وموضوعات من الكتاب المقدس وكان رائده في ذلك المثل العليا التى تظهر فيها صور الأشخاص على درجة من الاستقرار والوقار حتى أنهم رسموا

المسيح طفلا بوجه كبير ، لا سذاجة فيه ، وتحاشوا أن يرسموا ظلالا على الوجوه وراعوا بساطة اللباس وهدوء الألوان . (صورة رقم ١ و ٢ و ٣) .

النقش على الحجر والخشب

نشاهد الآن في المتحف القبطي في مصر القديمة وفي متاحف العالم المختلفة تحفا لا تحصى من الحجر نشعر فيها بتأثير البيئة على الخيال الفني ، فمنها الجدول على شكل السلال تجديلا أتقن النحات صنعه ، حتى بدا شديد الشبه بالسلال المصنوعة من القصب التي لا زالت متداولة بيننا ، ومنها تيجان منحوتة بشكل زخرفي لأوراق النبات أو الفروع النباتية ، أو الزخارف المتشابكة من نبات العنب أو الرمان أو نبات الاكانتس أو سعف النخيل أو نبات اللوتس ، ومنها تيجان مزينة تجاويفها بزخارف مختارية الشكل وبعضها ملون باللون الأخضر وهو اللون الطبيعي للنبات ، وهناك بعض زخارف عثر عليها تعبر عن ظواهر الطبيعة كمداعبة الهواء لأوراق الأشجار ، جاء التعبير عنها تعبيرا حيا يكاد يسمعنا حفيفها .

وكانت النقوش تزين الجدران بالألوان ، أو بالحفر ، وكذلك عبر هذا الفن عن البيئة تعبيرا صادقا ، فنجد في المتحف القبطي على سبيل المثال واجهة باب من بويط (وهي بلدة قرب منفلوط تتبع مركز ديروط بأسيوط) من الحجر الجيري على شكل نصف دائرة وقد حلى برسوم هندسية وبزخارف ثمار الرمان . وهذا يدل على ارتباط المصري قديما وحديثا وفي مختلف العصور ، بخواص البيئة المصرية بل والأقاليم المصرية . ولا يزال الرمان ينسب الى منفلوط .

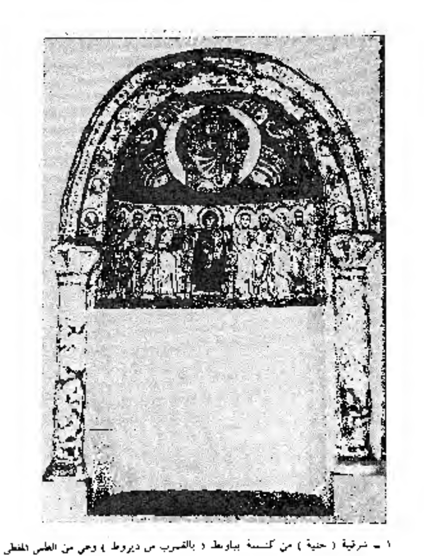
كذلك زخرف القبط الحوائط والأفاريز بصور من الطيور والحيوان ، فنرى ضمن زخارف الفن القبطي صورا لمبادئ الطيور والأسماك والوحوش المفترسة كالأسود فضلا عن الحيوانات المصرية الأليفة كالأرانب والغزلان . وأصل الكثير من هذه الزخارف يرجع الى مصر الفرعونية ، ويبين استمرار وحدة الفن المصري في عصوره المختلفة . كما نرى ضمن الزخارف المعمارية صورة الحداد القبطي تحيط به أدواته بشكلها المعروف في مصر اليوم . .

ولم تكن روح الدعابة تنقص الفن القبطي ، فاننا نجد على الآثار القبطية ضمن ما خلفه من الصور والنقوش ، لوحات تمثل وفد الفيران يتقدم الى القط طلبا للقصة المشهورة ، وقد رفع الفيران علما هو الذي يعتبر حتى اليوم علم المهادنة والأمان . كما نجد منظرا للملاح محفورا في الخشب والملاح يداعب تمساحا بيده .

(صوره رقم ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ١٤) .

المنسوجات :

اشتهرت مصر منذ عصورها القديمة بصناعة المنسوجات وكانت تصدر منتجات

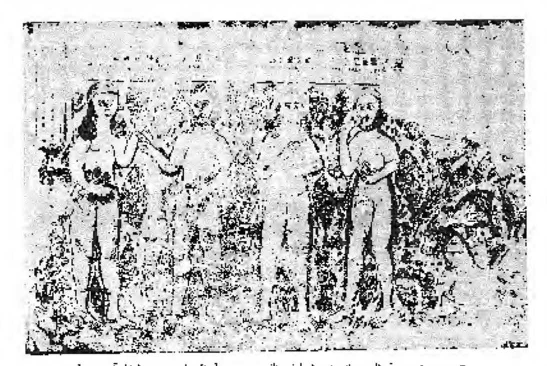


١ ـ شرقية (حنية) من كنيسة بباويط (بالقرب من ديروط) وهي من الطين المغطى بطبقة من الجص مرسومة بالألوان الفريسك .

في الجزء الأعلى صعود المسيح وتحته ترى صورة السيدة العذراء والحواريين الاثني عشر واثنين من القديسين المصريين .

وطريقة رسمها لاتختلف عن طريقة الرسم في الفن المصري القديم .

من أواخر القرن الخامس الميلادي



٢ ــ صورة جصية بالفريسك عثر عليها في الفيوم في أم البجعات ، وهي تمثل آدم وحواء في الجنة ، قبل الخطيئة ــ أي حين لم يكن لهما حس ــ وبعد الخطيئة .

وقد عبر الفنان في هذه الصورة البسيطة عن قصة (آدم وحواء) ووفق في التعبير عن المشاعر المختلفة ودون ملاحظات دقيقة مما جعل من هذه الصورة قطعة فنية فريدة في نوعها .

من القرن العاشر الميلادي



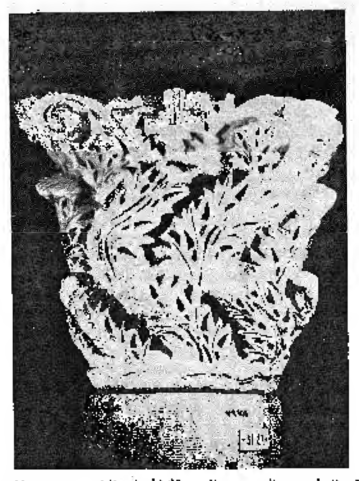
٣ ـ أيقونة بالألوان الزيتية وعليها كتابة بالقبطيــــة والعربية وهي للقديسيـــــن بولا وانطونيوس ترمز الى قصـــة الغراب يحمل اليهما رغيفا من الخبز فى كل يوم .
من القرن الثامن عشر (سنة ١٤٩٢ للشهداء)



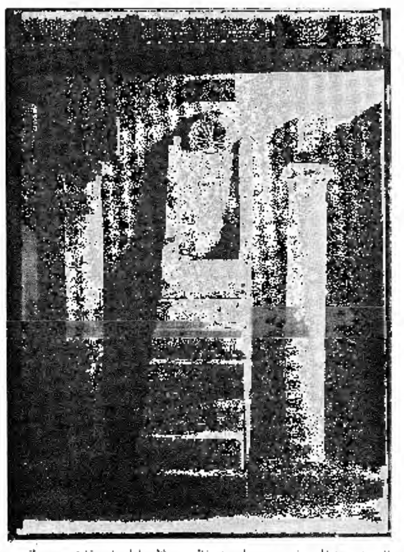
٤ ـ لوحة خشبية محفورة من كنيسة المعلقة بمصر القديمة وهي الآن معروضة في المتحف القبطي ، تمثل دخول المسيح اورشليم يوم احد السعف ، وعليها كتابة باللغة القبطية من القرن الخامس الميلادي



٥ ــ جزء من افريز طويل من الخشب المحفور يمثل نهر النيل وفيه تمساح ، من القرن الرابع الميلادي

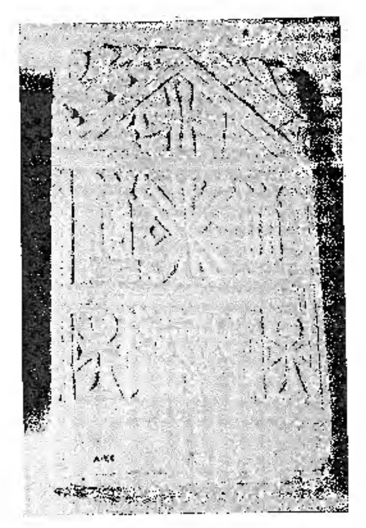


٦ ـ تاج لعمود من الحجر من عمائر دير الأنبا أرميا بسقارة ، وهو يمثل حركة تمـاوج أغصان الاكانتس بفعل الريح ، وفي أعلاه علامة الصليب .
من القرن السادس الميلادي



٧ ـ منبر من الحجر ذو سبع درجات من حفائر دير الأنبا أرميا بسقارة ، وهو أقدم منبر عثر عليه في مصر حتى الآن .

من القرن السادس الميلادي



٨ ـ شاهد قبر ، عليه علامة الصليب في أعلى وتحتها رمز للمسيح الألفـا والاوميجـا (الألف والياء) أى البداية والنهـايه . وفى أسفل الشاهد علامتان لرمز الحياة عنخ المعروفة في الفن المصرى القديم واستخدمها الفن القبطى منذ ظهوره لأنها جمعت بين معنى الحيـاة وبين علامة الصليب .

من القرن السادس الميلادى

نسيجها الى جميع بلدان العالم . وبالرغم من دخولها تحت الحكم اليوناني ثم الروماني ثم يتميز النسيج وظل محتفظا بطابعه المصرى فى صورته القبطية .

أتقن الأقباط هذه الصناعة كما أتقنوا معها صناعة الأصباغ ذات الألوان الثابتة وكانوا يصدرون منسوجاتهم الى روما وبيزنطة . وقد وصلتنا نماذج كثيرة من المنسوجات القبطية يرجع الفضل فى بقائها الى جفاف التربة المصرية والى عادة الأقباط فى تكفين موتاهم بأجمل ثيابهم ودفنهم فى مقابر رملية فى الصحراء بعيدا عن وادى نهر النيل خوفا من مياه الفيضان .

كانت المنسوجات تصنع من الكتان والصوف كما صنعت من القطن ، وأشهر المدن فى هذه الصناعة كانت تانيس والاسكندرية وشطا ودمياط وديبق والفرما فى الدلتا ، وفى الوجه القبلى البهنسا وأخميم وانطينوى (المعروفة الآن باسم الشيخ عبادة) والفيوم . وكان الصانع القبطى يزخرف النسيج برسوم للطيور والأسماك أو نباتات اللوتس أو عناقيد العنب أو أشكال هندسية أو بصور أشخاص أو أوجه .

(صورة رقم ٩) .

الفنون الصغرى :

منها الفنون الخاصة بالتزين عند المرأة ، وصناعة المعادن ، ثم الحفر والتجليد .

أما عن التزين عند المرأة فقد كانت المرأة تستعمل الكحل للرموش ، واللون الأزرق حول العينين والأحمر للوجه . وكانت تضع القرط الدائرى الواسع فى أذنيها أو أقراطا على شكل عنقود العنب ، وتزين معصمها بأساور سميكة تنتهى برأس حية من كل ناحية . وبعضها كان مبروما ينتهى برأس حية من طرف وذيلها من الطرف الآخر وكان بعض حليها الذهبية مرصعا بالجواهر الكريمة . وكانت تضع عقدا أشبه بالسبحة المعروفة الآن فى مصر . وكانت تلبس الخلخال الذى يصنع من النحاس أو الفضة ، وقد تصنعه المرأة الثرية من الذهب .

(صورة رقم ١٠) .

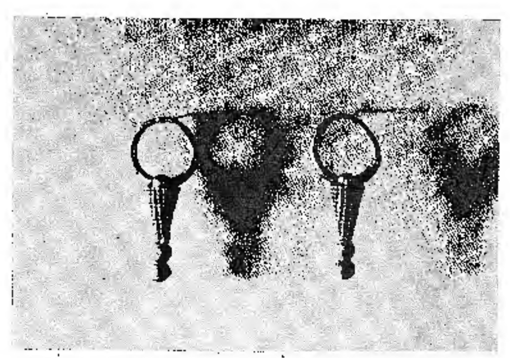
وقد وصلتنا من العصر القبطى مكاحل وأمشاط من العاج ، وعلى سبيل المثال نجد مشطا رقم ٥٦٦١ بالمتحف القبطى نقشت عليه صورة بديعة تمثل حسناء متكئة على سرير تحته كلب ، ويرجع هذا المشط الى القرن الرابع الميلادى ، ويشبه كل الشبه أمشاط مصر الفرعونية . وعرفوا أيضا المشط المسمى الآن بالفلاية . وهناك أمشاط من العاج عليها رسوم دينية مسيحية .

والرسوم المختلفة التى وصلتنا من هذا العصر تبين لنا صورا حية من الحياة المصرية التى تحياها والتى كان المصرى القديم يحياها والتى حفظتها لنا آثار العصر المصرى المسيحى ، ومنها الصورة الصغيرة المحفوظة فى متحف برلين لامرأة قبطية جالسة مع ابنتها وابنها



٩ ـ ستار من النسيج المعروف بالقباطي وهو من الكتان المنسوج بخيوط من الصوف الملون ، يظهر فيه على اليمين لاعب المزمار وعلى اليسار مناظر مختلفة لرقص من رجال ونساء كما تظهر في الدوائر مناظر رقص الخيل .

من القرن الثالث الميلادي



١٠ ـ قرطان من الذهب على شكل عنقود العنب ، عثر عليهما فى حفائر مصلحة الآثار بالنواحات البحرية فى مقابر الأقباط القديمة .

من القرن الرابع الميلادى

ويجانبها صندوق حليها العاجي ، وتلتحف الابنة بشال من القماش المصري يشبه ما نعرفه اليوم من المنسوجات ، عليه نقوش من الأساطير القديمة ، ومنها صور النساء الثلاث التي وجدت في انتينوى وقد أطلق على اثنين منهن تايس وليكيونا وعلى الثالثة السيدة البيزنطية ، نجد تايس لابسة ثلاثة قمصان وجلبابين فوق بعضهما كما نرى ذلك شائعا بين بعض السيدات في الريف والوجه القبلي وفي وسط الجلباب منطقة لها أكمام طويلة ، والجلباب محلى بحافة حمراء في أسفله ، وله خطان رأسيان في الأمام من الحرير الأحمر ، كما نجد ليكيونا مرتدية جلبابا من الكتان الأبيض محلى أيضا عند أسفله وعند الأكمام والياقة بخط أزرق غامق ، ونلاحظ أنها قد لفت شعرها بشال جميل أنيق على شكل شبه تاج . والصور الثلاث تعطينا صورة حية لأنواع الملابس وطرزها ، والأنواع العديدة لتصفيف الشعر مما يجعلنا نتخيل ما كان عليه النساء عامة في العصر القبطي من أناقة وذوق سليم في ملبسهن وزينتهن .

أما عن فن الصناعات المعدنية ، فإننا نجد المصنوعات المختلفة التي استخدمتها المرأة لزينتها ، ونجد مصابيح في أشكال مختلفة وقواعد للشموع وأواني منزلية متعددة الأشكال .

(صورة رقم ١٣)

الخط والتجليد

كان المصريون منذ أقدم عصورهم يصنعون الورق من البردي ويصدرونه الى كافة أنحاء العالم . وها نحن نجد الأقباط يكتبون على البردي وعلى الرق . ثم يتقدم بهم الفن فيزينون صحائف الكتب بالرسوم ذات الألوان الزاهية الثابتة ، هذه الصحائف التي بلغت دقة كتابتها دقة الحروف المطبوعة باتقان ، والتي يبهر جمال زخرفتها كل من يراها .

(صورة رقم ١١ و ١٢)

خاتمة

كانت هذه الفنون في أيدي صناع مدنيين، وكان الرهبان في الأديرة أيضا يتقنونها ، فانهم رسموا الرسوم ، ونسخوا الكتب وزخرفوها بمختلف الزخارف الملونة الجميلة، وأتقنوا النجارة والبناء ومختلف الصناعات .

ولما دخل الاسلام مصر ، اهتم العالم الاسلامي بصناعات الأقباط فنجد الخلفاء يختارون مصر لترسل الكسوة السنوية الى الكعبة لما لمسوه من اتقان المصريين لصناعة النسيج ، ويختارون من انتاج هؤلاء الصناع ما يخلعونه على أتباعهم من الأردية ويسمونها « القباطي » نسبة الى صناعها الأقباط ، واشتغل كثير من رجال المعمار الأقباط في انشاء المساجد والمنابر ، وعن الفن القبطي أخذ الفن الاسلامي المحراب والمئذنة والقباب .

وكان العصر الفاطمي بمصر فاتحة لاظهار الفن الاسلامي في شخصيته المصرية الاسلامية المتميزة ، وعندئذ أخذ الفن القبطي ينحصر



٦١ ـ غلاف من الفضة لحفظ الكتاب المقدس، مصنوع على نمط قبطي قديم وتحتمه فيه الزخرفة على الكرمة .

من القرن الرابع عشر الميلادى

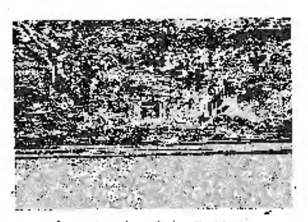


٦٢ ـ غلاف من الجلد لمخطوطة من مخطوطات فلسفة العارفين بالله ، وعليه علامة عنخ رمز الحياة عند المصريين القدماء وهي رمز للعلم والمعرفة ـ وكانت المكتبة تسمى برعنخ أى بيت الحياة ـ وعلى الغلاف زخرفة حلزونية ـ من القرن الرابع الميلادى

١٣ ـ مسرجة من البرونز على شكل عص - من القرن الخامس الميلادي



١٤ ـ رسم على الجص يرمز الى قصة تحكي التعاقد بين الفئران والقط ويحمل الفأر الاول نص المعاهدة ويرفع الثاني راية السلام ويمسك الثالث باناء وضع .
من القرن الخامس الميلادى



١٥ ـ آثار الكنيسة الكبرى (أبو مينا) بمريوط.
من القرن الخامس الميلادى

بين الأقباط أنفسهم وبحيا مرتبطا بالنواحي الدينية والطقسية حتى عصرنا هذا .

وقد كانت كتابة المخطوطات وزخرفتها زاهرة في الأديرة القبطية وما زالت هذه البراعة متوارثة بين بعض الرهبان مثل المجلدين الضخمين اللذين تركهما الأنبا مكاريوس البطريرك المتوفى سنة ١٩٤٥ ، وقد رسمهما وهو راهب في أديرة وادي النطرون وهما يشهدان بدقة هذا النوع من الفنون القبطية . ويحتوي كل من هذين المجلدين حوالي ٧٠٠ رسم ، كل منها يخالف الآخر ، نقل بعضها عن المخطوطات القديمة وقد اختار أن يرسمها بالألوان الزاهية مثل سلفه من الرهبان . وكتب على بعضها الأصل الذي نقل عنه ثم وصف طريقة الرسم التي كان الرهبان يتبعونها .

الرواسب الفنيـــة

يعيش المصريون في دورات زراعيـــة يشترك فيها النيل والفلاح والحيـــوان والطير ، كل يقوم بدوره عـلى وتيرة تكاد تكون واحدة منذ بدء موسم الزرع في هذا الوادي الخصيب ، ومن هذا النظام الطبيعي وما يتجلى فيه من تعاون من بذر وسقي وحصاد ، تكوّن لدى الفلاح أساس ثابت متين .

ثم مرت على المصريين ديانات تباينت في مظهرها ، وتشابكت في أصولها ، كما تعاقبت عليهم ألوان من الحياة الاجتماعية اختلفت في قيمتها وتوحدت أغراضها ، فترسبت منهـا فوق هذا الأساس المتين رواسب انسـانية سليمة عملت عـلى تكوين مبنى المصري الروحي والفني .

وهـذه الرواسب التي يحملها المصري رواسب قديمة معمقة في القـدم ، تميزه عن غيره من الناس في هذا العالم ، وهذا التراث غير منظور .

أما تراثه القديم المنظور ، فقـد أماط العلماء اللثام عن بعضه ، ولا يزال الكثير منه خافيا أو مختفيا سيظهره المستقبل يوما ، ويتداوله العلماء بالفحص والتمحيص .

أما التراث غير المنظور فلا يملك غـير المصري الكشف عنه ، فهو من صميم حياته الداخلية بما فيها من رواسب نفسية وقدرة تمائية لا تغزوها المادة ، ولا تتحكم فيهـا الأوضـــاع العرفية المتداولة بين مختلف الشعوب . فهي سلسلة متصلة من الرواسب غير مضطربة أو متقطعة أو مصطنعة الاتصال ، وهي وحدة متماسكة الحلقات . والمصري وحده هو القادر على التفاعل مع هـــذه الرواسب يتناولها عن طريق الرضى والرغبة ، وعدم التكلف ثم عن طريق الحب والمثابرة . وهي السبيل للوصـــول الى أعماق نفسه ليستخرج منها ثروة كامنة أصيلة في نفسه .

يقول الأستاذ حبيب جورجي « بهـذا الايمـان بدأت تجـاربي للكشف عن كنه

الرواسب في الأطفال الذين لم تستبد اليهم الحدود التي تعترض الفيض ولم تتحكم فيهم نظم التعليم والتوجيه . سهلت لهم سبيل الحياة الراضية والخالية من الصنعة والكلفة ، ففاضت نفوسهم بتراث مصرى صميم ، أذهل العالم وحير العلماء لما وجدوا فيه من أوجه شبه واضحة مع أسلافهم منذ آلاف السنين » .

يقول مدير مصلحة الآثار حين شاهد الانتاج الفنى لهؤلاء الأطفال :

« من الواضح أن النحت الذى كان الاعجاب به شديدا فى مصر القديمة هو وليد التربة أو هو نتيجة لحساسية أرهفت بفضل تلاعب النور الخلاب وسط الآفاق اللانهائية ، حيث الجدب اللتناهى يتباين مع الخصب الوفير . وحيث يتآلف هذا المجموع وينتهى الى ادراك الأبدية . ولقد استوحى النحت المصرى كل أشكاله من هذه الروح وهذا ما يضفى عليه فى مجموعه وعلى الأخص فى تناسقه الداخلى تلك الصفة التى تكاد تعلو على الانسانية حتى لكأنها تشارك فى اللانهائية والتى لا يمكن أن نجد لها مثيلا فى أى مكان آخر فى العالم . وكان الأستاذ حبيب جورجى يرغب فى أن يتبين صلة الفن فى مصر بالتقاليد الفرعونية التى صنعتها المدنية اليونانية منذ أجيال ، فقام بتجربة ليجعل التربة تتكلم من جديد وأحضر بعض المراهقين من الطبقة الشعبية التى هى من أمس الطبقات مصرية ، تتميز بحساسية فنية ، ولكنها أبعدت قصدا عن علم الرسم وعن الطرق المدرسية ثم تركها لتخلق فى حرية كاملة أعمالا فنية ابتدعها كل بنفسه وعلى فطرته .

وتطلب هذا العمل صبرا ومثابرة من الأستاذ حبيب جورجى ، فكان عليه أن يوجه تلاميذه الذين انتخبهم فى عناية فائقة نحو ادراك الأبعاد وهم يشكلون الطين ، وأن يرشدهم فى اختيار مصادر وحيهم وفى توضيح طرق التعبير عندهم ، وذلك من غير أن يؤثر فيهم أو أن يجعلهم يشردون . كذلك كان عليه أن يدربهم على نحت الحجر ، وكان هذا العمل أقل مشقة من الأول .

وقد ظهرت النتائج ، وفى وسع كل انسان أن يحكم عليها . حقا ان القالب الذى صيغت فيه هو قالب مصر الحاضرة ، وهذا هو الطبيعى فى الأمر ، لأن الغرض الذى يهدف اليه ليس أن يحيى الرسم بل غرضه أن يوقظ الروح ويبعث التقاليد فى التعبير .

والشىء الذى أدهشنى شخصيا فى هذه المدرسة الناشئة هو أن روحها تتحد وروح مصر القديمة فى تناسقها وفى توزيع أجزائها . ولو أن مثالا من المصور الفرعونية أراد أن يمثل الحياة فى مصر الحديثة لما صورها على غير هذه الصورة . وسيظهر المستقبل الى أى مدى والى أية قوة فى التعبير تستطيع هذه

المدرسة أن تبلغ ، كما سيظهر للمستقبل عددا من الفنانين الذين شاركوا في التجربة ومهدت لهم السبيل .

ونستطيع الآن أن نؤكد أن العروة قد توثقت ، وأن هذه التقاليد صميمة لأنها هي بعينها تقاليد مصر الفرعونية » .

الموسيقى والألحان

تدل الصور المنقوشة على جدران المقابر والآلات الموسيقية التي عثر عليها في مصر على أن الشعب المصرى منذ عرفناه في التاريخ يميل بطبعه الى الغناء والموسيقى ويستخدمهما في المناسبات المختلفة في حياته الاجتماعية وفي الاحتفالات العديدة في حياته الدينية .

ولما انتشرت المسيحية في البلاد المتباينة وتكونت كنائسها ، نشأ معها في كل قطر فن موسيقى كنسى تمشى مع النزعة الفنية الموسيقية لكل شعب . وشكل الشعب موسيقاه بما يتفق مع ذوقه مستمدا ذلك من تقليده .

وقد ذكر الفيلسوف الاسكندرى فيلو الذى عاش في القرن الأول للميلاد أن الجماعة الأولى من المسيحيين المصريين اقتبست ألحانا لعبادتها الجديدة من الأنغام المصرية القديمة . وهذا يوضح لنا كيف انبثقت الموسيقى الكنسية المصرية من الفن الموسيقى المصرى ، وليس أدل على ذلك من أن بعض الألحان الشائعة الى الآن في الكنيسة المصرية تحمل أسماء بلاد قد اندثرت منذ عهد بعيد . فاللحن السنجارى نسبة الى بلدة سنجار ، التي تقع شمالى مديرية الغربية ، وعرفت منذ أيام رمسيس الثانى وكانت تحصرها الأديرة في العصر القبطى . وكذلك الاتريبى نسبة الى أتريب القديمة (بالقرب من الديرين الأحمر والأبيض بمنطقة أخميم) .

والكنيسة القبطية من أغنى كنائس العالم — ان لم تكن أغناها — في فنها الموسيقى . والموسيقى جزء لا يتجزأ من ترتيبات عبادتها المتنوعة وطقوسها الطويلة . وهذه الطقوس كما نعرفها الآن قد وصلتنا كاملة منذ القرن الخامس للميلاد ، لا تشوبها موسيقى بيزنطية أو لاتينية أو فارسية أو غير ذلك من أنواع الموسيقى المعروفة شرقية أو غربية .

والموسيقى الكنسية — كما وصلتنا — صوتية بحتة لا تستخدم الآلات الموسيقية في أدائها . وقد تناقلتها الأجيال بالتواتر شفاها . ودونت موسيقى الكنيسة القبطية أخيرا بالنوتة الموسيقية المصورة وتقع في عدة مجلدات لم تنشر بعد . وكذلك سجلت جميع ألحانها على أشرطة صوتية هي موضع درس يمكن أن تقابل بين بعضها وبعض الأغاني

الشعبية القديمة السائدة الآن في مصر وأوجه الشبه بينهما ملحوظة .

والألحان تتفاوت طولا وقصرا ، ويبلغ بعضها خمس عشرة دقيقة ، ومنهـا ما يبنى على كلمة واحدة أو بضع كلمات . وعلى الرغم من ذلك فالموسيقى القبطية ليست معقدة وتتكون من صوت واحد أي لا تتعدد نغماتها في وقت واحد ، ولها من بساطتها قوة تأثير على العاطفة مهما اختلفت الأذواق ، وهي ألحان معبرة . وفيها اللحن الحزين ولحن الفرح . قال أحد علماء الموسيقى عند سماع الألحان الحزينة « إن أنغامها عريقة في القدم ، فيها حض على الزهد ، واسترخاء للنفس الطاغية . أما ألحان الفرح ففيها نشوة تشعر الانسان بلذة روحية وتسمو به الى عالم أسمى » .

هذا الفن القديم ورثته الكنيسة القبطية وحافظت عليه ، ولعل في دراسته العلمية ما يعود بنا الى أصوله المصرية القديمة . فان الموسيقى الكنسية القبطية أقدم مدرسة موسيقية معروفة في العالم .

الفصل الخامس

الحيـــاة الاجتماعيـــة

(أ) مركز المرأة فى الحياة المصرية .   (ب) الأسرة .

(جـ) العـــادات .   (د) التقـــويم .

(هـ) الرهبنة : قيامها فى مصر ، أطوارها ، آثارها التربوية والاجتماعية وانتشارها فى أنحاء العالم المسيحى .

(أ) مركز المرأة فى الحياة المصرية

كانت المرأة فى مصر — منـــذ أقـــدم العصور — مصدر الوحى وبعث الجهاد الروحى . حتى لقد جعلوا الآلهة معات رمز العدالة والبر والحق . وقد سجل لنا التاريخ أسماء الالهات والملكات والكاهنات ، ولكن العظمة الروحية التى امتازت بها المرأة فى مصر لا ترتكز عـــلى هؤلاء وحدهن — اذ هن يؤلفن أقلية — بل ترتكز فوق ذلك على أن المرأة كانت مسئولة عن أولادها أمام معلميهم، كما كانت مســـئولة عن والديهـــا فى شيخوختهما . فهى لم تكن مصـــدر الوحى فقط بل كانت حاملة الشعلة أيضا .

واعتنق المصريون المسيحية فظلت المرأة مصدر الوحى وظلت حاملة الشعلة ، فقـــد روحـــت نفسها على السمو بأخلاقها وفضائلها حتى صارت نموذجا للوثنيين وقدوة مثـــلى اجتذبت هؤلاء الوثنيين الى دين المسيح بطريقة معيشتها ، لأنها كرست حياتها للخدمة فى خشوع ، واضعة نصب عينيها كلمة بولس الرسول « أنتم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم » . ومن ثم عاشت باستقامة وطهارة فانتزعت احترام الجميع انتزاعا . وكانت التعاليم التى تسلمها التلاميذ من الســـيد المسيح عن كرامة الشخصية الانسانية تتردد عـــلى مســـامع الشعب كل يوم اذ كان اكليمنضس الاسكندرى يعلن عظمة الزواج المسيحى فى محاضراته بالمدرسة السكندرية . وكان يبين لسامعيه كرامة هذا الزواج الذى جعلت منه الكنيســـة سرا مقدسا ورباطا روحيا يعقده الكاهن بمقتضى ما ناله من ســـلطان

تسلمه من الرسل أنفسهم ، ومن أن السيد المسيح بارك العرس في قانا الجليل . وكان الوثنيون يحتقرون الطهر والعفاف ويتباهون بما هم فيه من فساد . والعجب أن هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يصغون الى محاضرات اكليمنضس وغيره من معلمي الكنيسة عن الواجبات النبيلة المفروضة على الزوج وزوجته ، وعن قدسية الزواج — كانوا يصغون بانتباه تام لأنه كان لا يزال بهم حنين يصعد نفوسهم الى ذروة الحكمة التي بلغها . فاذا ما قارن المستمعون الى محاضرات اكليمنضس بين تعاليمه وبين الحياة التي يحياها المسيحيون وجدوها صورة صادقة للايمان بقدسية الزواج . لأن الزوجة المسيحية كانت مثالا حيا للكرامة الانسانية التي تترفع عن الركون الى حمأة الرذيلة . وحين أبصر الوثنيون هذا التقديس للزواج وهذا التمسك التام بالعفاف تحولوا تدريجيا نحو هذا الدين الذي ارتفع بالصلة الزوجية الى مرتبة الروحيات .

ومع أن التاريخ يذكر سير النساء اللواتي بلغن مكانة روحية سامية الا أن هناك آلافا من الجنديات المجهولات اللواتي عرفن معنى الفضائل المسيحية وعشن بموجبها ، ومن أرق الأمثلة عن هاته النسوة المجهولات قصة يرويها الأنبا مكاري الكبير بنفسه ، فانه — على الرغم من حياة النسك والرهبنة التي كان يحياها — كان يؤمن بأن كل من يفعل ارادة الله ينال رضاه . فقد شاء ذات يوم أن يعرف درجة القداسة التي وصل اليها فرأى في رؤى الليل ملاكا ينبئه بأنه بلغ مرتبة سيدتين في بلدة معينة . فلما أصبح الصباح ترك صومعته قاصدا البلدة التي أشار اليها الملاك . ولما وصل الى بيت السيدتين استقبلتاه بالتكريم والاجلال ثم سألهما عن كيفية معيشتهما ليعرف السبب في ما نالتا من تقدير فأعلمتاه بأنهما يسكنان معا لأنهما متزوجتان من أخوين . وأنهما اتفقتا منذ اليوم الأول على أن لا تتفوه احداهما بكلمة تجرح الأخرى . واذا أحست واحدة منهما بأنها أساءت بكلمة الى الأخرى اعتذرت لها في الحال دون أن تدع الشمس تغيب قبل أن تكون قد استسمحت من أساءت اليها وصفت الحساب مع ضميرها . وحين سمع الأنبا مكاري هذا الكلام هتف قائلا « حقا انه لا فرق بين الراهبة والمتزوجة وبين الناسك والرجل الذي يعيش في العالم . فقد وهب الله تعالى نعمة الحياة للجميع ولم يطالبهم الا بصدق نواياهم » .

ولقد أدركت المرأة المصرية قدسية الأمومة كما أدركت قدسية الزواج تماما . فلم يعد للام المسيحية شاغل الا العناية بأولادها والسهر على تربيتهم تربية تتفق والكمال المسيحي . وقد دفعها هذا الادراك الى التفاني والمحبة . ولم تكن أمومتها منصبة على أولادها الذين ولدتهم فقط بل

اتسعت لتشمل الأولاد المحتاجين الى العناية في شتى عصورها . فلقد استشهد أبو أوريجانوس في الاضطهادات التي أثارها سبتيموس ساويرس في أواخر القرن الثاني للمسيحية . وكان أوريجانوس لا يزال يافعا مع كونه أكبر اخوته السبعة ، ولم يكتف الامبراطور الروماني الظلوم بأنه أفقد هؤلاء الأولاد أباهم وعائلهم بل صادر أموالهم أيضا . فاعتنت بهم سيدة غنية من سيدات الاسكندرية لم يذكر التاريخ اسمها وسهرت على تربية هؤلاء الأطفال اليتامى وبذلك هيأت الفرصة لأوريجانوس ليكون من أبرز المعلمين الذين أنجبتهم الكنيسة المصرية ومن أعلام الفكر المصري الناضج .

ولقد كان من أثر تمسك المرأة بكرامتها وحفظها لطهرها وادراكها الصحيح لمسئولياتها أن وثق بها آباء الكنيسة ومعلموها . فنجد أن أوريجانوس ناظر المدرسة الاسكندرية حين سجل الكتاب المقدس في لهجات مختلفة استخدم سبع شابات يجدن الخط كي يكتبن له هذا الكتاب في صيغته النهائية بعد التنقيح والتعديل . ولما بدأت الاضطهادات المروعة التي شنها أباطرة الرومان على المصريين كانت المرأة قوة راسخة شدت من عزيمة الرجال اذ كانت تقف الى جانبهم وهم يسامون أنواع العذاب تشجعهم على احتمال ما يلاقون من هول . وبعد ذلك تلقى هي ما تلقاه الرجال من صنوف التنكيل في سكينة وثبات .

وكان يحدث أحيانا أن يجبن الرجل فتكون المرأة سببا في أن يستعيد شجاعته . وأبرز مثل لذلك السيدة حمياثة التي كانت الابنة الوحيدة لمرقس والي البرلس . وكانت قد طلبت اليه أن يبني لها قصرا تقيم فيه بمنأى عن العالم لتخلو فيه الى ربها وتقضي عمرها في الزهد والتقشف ، وفي الصوم والصلاة ، وفي التأمل والعبادة . فأجابها أبوها الى رغبتها وبنى لها قصرا في المنطقة المعروفة الآن بالبراري بالقرب من بلقاس ، حيث عاشت فيه في أمن وسلام مع أربعين عذراء نذرن العفة والطاعة مثلها . وعشن جميعا في هدوء وطمأنينة . الا أن ديوقلديانوس الامبراطور الروماني المشئوم أثارها حربا شعواء على المسيحيين فجرعهم صنوف التعذيب والتنكيل . وحين أعلن هذا الامبراطور الطاغية اضطهاده طلب من الولاة والحكام أن يذهبوا معه الى الهيكل ويرفعوا القرابين للآلهة . فجبن مرقس أبو حمياثة وخشي على مركزه وجاهه ، وذهب مع الامبراطور كما طلب .

فلما سمعت حمياثة بما كان من خوف أبيها ذهبت لملاقاته وأعربت له عن حزنها العميق لما أبداه من خوف وتراجع . فلم يسع مرقس ازاء كلمات ابنته الا أن يعود الى الامبراطور ويعلن له ندمه عما فرط منه من تمجيد للآلهة ويقرر له أنه مسيحي . فأمر الامبراطور بقطع رأسه بالسيف . ثم أرسل

جنده الى حيث تعيش دميانة ومعها الأربعون عذراء ، فنكلوا بهن تنكيلا . وتحملت دميانة وصديقاتها كل صنوف العذاب بصبر عجيب . وكان أهل القرية قد خرجوا جميعا ليشاهدوا ما سيفعله الجند بالعذارى . فلما رأوا ثباتهن وشجاعتهن اعلنوا مسيحيتهم فأمر الضابط الرومانى بقتلهم جميعا كما أمر بقتل السيدة دميانة والعذارى الأربعين . وهكذا كانت بسالة السيدة دميانة سببا فى اذكاء نار الحمية والايمان الثابت فى قلوب هؤلاء جميعا .

ثم انتهى الاضطهاد ، وحل الأمن والطمأنينة . فعادت المرأة الى مزاولة أعمالها العادية . فالزوجة انصرفت الى بيتها ، والأم عادت الى تربية أولادها . والى جانب الزوجة والأم كانت توجد من وهبت حياتها لخدمة الله والنساس واختارت أن تكون راهبة أو شماسة (أو كليهما فى آن واحد) . ولم تكن حياة العابدة منصبة على العبادة والتأمل فقط بل شملت العمل اليدوى والعقلى والخدمة الاجتماعية أيضا .

أما درجة الشماسية فكانت تستلزم ممن ينالها أن يتفقد المرضى والمسجونين والفقراء والمعوزين ، كما كان عليه أن يزور العائلات ويقدم تقريرا عن أعماله للكاهن أولا بأول . فكانت الشماسة مسئولة عن الحى المنوط بها خدمته ترعى سكانه وتبذل جهدها عـلى تخفيف آلامهم وعلى ادخال الطمأنينة الى نفوسهم ، وتحرص عـلى مصاحبتهم الى الكنيسة كى ينالوا حظهم من الرعاية الروحية.

بل لقد كان الشماس (أو الشماسة) يوصف بأنه « عين الأسقف وأذناه » لأهمية عمله .

وأعظم مثل بين الشماسات تلك الشماسة التى لم يذكر التاريخ اسمها والتى اختبأ عندها اثناسيوس الرسولى (البابا الاسكندرى العشرون) . ذلك أن الأريوسيين كانوا يطاردونه بغية قتله . فهجموا ذات ليلة على الكنيسة التى كان يصلى فيها . ووقف الشعب تلك الليلة فى وجه الأريوسيين . ثم حمله بعض الرهبان خارج الكنيسة . فلما وجد نفسه حرا طليقا أخذ يتمشى فى شوارع المدينة وهو يفكر . وكان ظلام الليل ستارا يغطيه عن أعين مطارديه ، وفيما هو يفكر ويصلى ألهمه روح الله أن يلجأ الى بيت شماسة لم تتجاوز العشرين من عمرها . ولما قرع الباب فتحته بنفسها ففرحت فرحا عظيما حين رأته ، ومكث القديس العظيم فى بيتها حوالى ست سنوات خدمته خلالها بأمانة لا تعرف الكلل . فكانت تأتى له بالمخطوطات من الكنيسة ، وتحمل الى الشعب رسائله الفصيحة وخطاباته التى كان يكتبها فى مختلف المناسبات مما أثار دهشة أصحابه وأعدائه معا .

فأصحابه كانوا يتلقون تلك الرسائل بغبطة ولهفة وهم يتساءلون فى شىء من الخوف : ترى أين البابا العظيم ؟ أما خصومه فكانوا يتميزون غيظا لعجزهم عن معرفة مقره والفتك به . وضاعت جهود الأصدقاء والأعداء فى البحث عنه . فلما مات الامبراطور

قسطنطين الثاني الأريوسي — وكان المؤمنون مجتمعين ساعتئذ في الكنيسة للصلاة ... اذا بالقاسيوس الرسولي واقف بينهم فجأة . فلاقوه بفرح لا يوصف ثم سألوه أين كان مختبئا فأجابهم « ثم اختبئ عند أحدكم لئلا يسألكم الحكام عن مكاني فتكذبون حرصا على حياتي ، بل لقد اختبأت عند تلك التي هي فوق الشبهات مع كونها شابة جميلة ، فكسبت بذلك حياتي وحياتكم » .

هذا المثل الرائع يعطينا صورة عن خدمات الشماسات ومدى جهودهن الدينية والاجتماعية ، والى جانبهن وقفت الراهبات اللواتي كرسن حياتهن للخدمة والعبادة في تفان عجيب . ومن الأمثلة البديعة لخدمة الراهبات الروحية والاجتماعية معا ذلك المثل الذي قدمته العذراء « يامونة » حين نشب نزاعا بين أهل قريتين بسبب ميـاه النيل - اذ كان أهالي كل قرية يريدون رى أراضيهم قبل الآخرين .

وثمة خدمة أخرى لها قيمة كبيرة كانت المرأة تؤديها . هذه الخدمة هي التطبيب . فقد كانت بعض النسوة يعرفن ما لبعض الأعشاب من فوائد صحية ويركبن منها العقاقير ويصفنها للمرضى . وكانت هذه الخدمة توهب مجانا في معظم الأحيان . ولا تزال في بعض بلاد الصعيد سيدات يؤدينها . وهؤلاء السيدات لم يذهبن الى مدارس ولم يتلقين العلم على أساتذة ، ومن المعروف أن مثل هذه المعرفة جاءتهن بالتسليم — أي أن المرأة التي لديها هذه المعرفة كانت تختار شابة تتوسم فيها الرغبة والمقدرة على تأدية رسالة التطبيب فتسلمها معرفتها بالممارسة . ولما كانت هاته النسوة يعشن في بيئة ساذجة ، يندر فيها من يعرف القراءة والكتابة كما يندر أن يوجد فيها من يهمه أن يكتب سيرة المرأة العاملة فانه لا توجد أدلة مخطوطة وانما الأدلة قائمة على قيد الحياة نفسها وعلى التقليد الذي سارت عليه مصر منذ أقدم العصور .

(ب) الأسرة

اهتمت المسيحية بحياة الأسرة كأساس لبناء مجتمع سليم . فبمجرد دخول المسيحية الى مصر اهتمت بأن تدخل تعاليمها وقوانينها الى الأسرة لتدعيمها وصيانتها . فساعد على تهيئة جو من الاستقرار والأمن .

فرابطة الزواج المسيحي تعتبر ركنا هاما من أركان الكنيسة بل وأحد أسرارها السبعة (التي هي العماد — التثبيت — التناول — الاعتراف — الزيجة — مسحة المرضى — الكهنوت) (والسر الكنسي هو عمل مقدس به ينال المؤمن نعمة غير منظورة تحت علامة منظورة) .

لذلك فرابطة الزواج تحتاج الى نعمة الهية لربط الزوجين برباط روحي متين يستمر

مدى الحياة ولا يفصمه الا الموت او الخيانة الزوجية (الزنا) . لذلك فمن المحتم أن يقوم بطقوس هذا السر كاهن شرعى ، وبالتالى لا يستطيع أحد أن يفصم هذه الرابطة الا الكاهن فى حدود العلة الآنفة الذكر فقط .

وبما أن الزواج فى المسيحية رابطة روحية تجعل من الاثنين واحدا ، لذلك فلا يمكن أن يدخل ضمن هذه الرابطة أكثر من زوج واحد وزوجة واحدة .

وعلى الكاهن بصفته أبا روحيا أن يستوثق من توافر شروط الزواج والخلو من موانعه . وأن يتأكد من الرضا الشخصى لكل من الخطيبين ، فيسأل كلا منهما رأيه على انفراد بعيدا عن مؤثرات أو ضغط العائلة ، حتى يضمن نجاح الزواج وسعادة الزوجين واستقرار العائلة .

ويسمى الأقباط حفل اتمام طقس الزواج بالاكليل — لأن الكاهن يتوج رأس العروسين أثناء الصلاة باكليلين ، دلالة على النعمة المقدسة التى توجت حياتهما برابطة الزيجة . وتعتبر حفلات الزواج فرصة مواتية تعبر فيها العائلة عن مشاعر الفرح والابتهاج بمظاهر مختلفة . كان من أولها تقديم الشكر لله بمحاولة اشراك الفقراء والجيران من أهل المنطقة المجاورة فى مشاعر المسرح وذلك بتوزيع الكساء وما طاب من مأكل وحلوى عليهم .

أما العائلات الثرية فتنحر الذبائح وتستمر احتفالاتها عدة أيام : الليلة السابقة على العرس وتسمى « ليلة الحناء » وتقام وليمتها فى بيت العروس لتوديعها ، وفيها تصبغ العروس وأهل البيت أكفهم وأرجلهم بالصبغة الحمراء التى تتركها عجينة أوراق الحناء على الجلد . ثم ليلة العرس فى بيت العريس — والصباحية حيث يستقبل الزوجان هدايا العائلة والأصدقاء وما يسمى بالنقوط (أى الهدية النقدية) وتشكل فكرتها أصلا كمشاركة عملية فى مصاريف العرس . وأحيانا تستمر هذه الحفلات الى نهاية الأسبوع وتختتم بليلة السبوع .

ولما كانت الأطعمة التى تقدم فى ولائم العرس من الأطعمة الفاخرة الدسمة . فقد منعت الكنيسة اقامة « الاكليل » فى أيام الأصوام ، حيث يمتنع تناول الأطعمة الحيوانية والدسمة ، وحيث يمتنع الأزواج عن المباشرة الزوجية للتفرغ للصوم والصلاة .

وحينما يولد للعائلة طفل ، يكون أول احتفال عائلى به فى اليوم السابع ، فتدعو العائلة الكاهن ليبارك الوليد ، ويرفع صلاة شكر لله من أجل سلامة الوالدة . وتسمى « صلاة الطشت » نظرا لاستخدام الطشت فى غسل الطفل فى ذلك اليوم . وخلال هذا الطقس يشترك الكاهن مع الوالدين فى اختيار اسم قبطى للوليد — يختارونه غالبا من أسماء القديسين والشهداء المشهورين بمثلهم العليا . ولهم فى ذلك طرق مختلفة : فالبعض

يختار اسم القديس الذي ولد الطفل في يوم عيده أو ذكرى استشهاده . والبعض يختار سبعة أسماء لقديسين مختلفين ويطلق أسماءهم على سبع شمعات ، والشمعة التي تستمر مضيئة الى آخر الحفل يطلقون الاسم الذي تحمله على الوليد. وأحيانا يكون الاسم قد أعد من قبل بأن نذر أحد الوالدين تسمية الوليد باسم القديس الذي استشفع به في وقت ضيقته .

وكان حب الاقباط للقديسين والشهداء يدفعهم لاطلاق أسمائهم على أبنائهم سواء كان اسم القديس من أصل مصري أو يوناني أو سرياني . الأمر الذي اختلط على البعض فجعلهم يتشككون في مصرية حاملي هذه الأسماء . فكانوا ينسبون مشاهير العلماء والقديسين المصريين الى اليونان لمجرد أن الاسم أصله يوناني .

وكان في كل بيت قبطي « مقصورة » (ومعناها مكان مقصور أو مخصص للصلاة) بها أيقونة (أي صورة) لقديس أو أكثر . وتوضع في ركن خاص بالبيت كمكان مخصص للصلاة والعبادة . وأحيانا يضيئون أمام الأيقونة قنديلا من الزيت أو بعض الشموع تكريما للقديس الذي كانت حياة الفضيلة والتضحية التي عاشها نورا وهديا للمجتمع . وأمام هذه المقصورة اعتادت العائلة القبطية أن تجتمع لتصلي الصلاة العائلية في الصباح وعند الغروب . وتحتفل العائلة بالعيد السنوي لهذا القديس بتوزيع الصدقات وعمل وليمة للشعب أغنياء وفقراء معا .

وحينما يكتمل للولد أربعون يوما ، تحمله أمه الى الكنيسة لينال سر العماد فتعين له الكنيسة عرابا أي (اشبينا) ومهمته أن ينوب عن الكنيسة في رعاية الطفل روحيا الى أن يصل الى سن الدراسة فيلتحق بمدرسة الكنيسة .

وبهذا الارتباط القوي بين البيت القبطي والكنيسة كان يأخذ مظاهر متعددة أخرى تترك في حياة أولاد العائلة انطباعات دينية عميقة . فكلما بنت العائلة بيتا جديدا أو نقلت مسكنها الى دار أخرى دعت الكاهن ليبارك المسكن الجديد بصلاة شكر خاصة يقوم الكاهن في آخرها برش الماء المقدس في أرجاء البيت استجلابا للخير وطردا للشر . ومن الواجبات الرعوية على الكاهن أن يزور بيوت رعيته من حين لآخر واعظا ومرشدا . كما عليه أن يزور البيت كلما مرض أحد أعضائه فيصلي سر مسحة المرضى (القنديل) ويدهن المريض بالزيت المقدس .

ومن العادات العائلية القديمة في الصعيد الأمسيات التي يسمونها « الميمر » . والميمر معناه السيرة . فاذا كان على عائلة نذر ما لأحد القديسين ، أو مناسبة فرح وشكر لشفاء مريض أو توفيق شخص في تجارته أو عمله أو الخروج من ضيقة أو شر محيط احتفلت العائلة بدعوة الجيران والأقارب

والفقراء ومرتلى الألحان الكنسية الى سهرة يجلسون فيها فى حلقة يتوسطها من يقرأ سيرة (ميمر) أحد القديسين . وكلما وصلوا الى فصل جديد فى السيرة أو نقطة بطولة ، يتوقفون عن القراءة ويأخذون فى ترتيل المدايح الشعبية فى تهليل وبهجة ويتبارى مرتلو الألحان فى ارتجال مقطوعات شعرية يسمونها « الأرباع » (أى أربعة أبيات) . وتدور معانى هذه القصائد حول المناسبة التى يحتفلون بها . وتدخل فيها ألفاظ أو أبيات باللغة القبطية لأن القصائد كانت تلقى قديما باللغة القبطية . ويدخل فيها أيضا تفسير للكتاب المقدس وحض على الفضيلة . وكلما أعجب الحاضرون بقطعة يجزلون العطاء (النقوط) على المرتل (وهو غالبا ضرير) وهكذا يقضون سهرتهم طوال الليل فى ذكر الله ورجاله الأتقياء . وهذه الاجتماعات تعتبر فى قصر الوقت وسيلة من وسائل الترفيه الشعبى الروحى .

المآتم

وترتبط عادات الحزن والمآتم فى العائلات بمظاهر دينية أيضا . اذ تشيع الجثة الى الكنيسة حيث تقام صلوات جنائزية استمطارا لرحمة الله على ما قد يكون المتوفى قد فعله من هفوات أو سهوات أو أخطاء غير مقصودة . وفيها أيضا طلب التعزية السماوية لأهل الميت . وتقام صلاة خاصة فى بيت الميت فى اليوم الثالث للوفاة . ولهذه الصلاة أثر كبير فى تخفيف وطأة الحزن على أقاربه . ويسميها العامة « رفع الحصير » أى انتهاء فترة الحزن الشديد التى فيها يجلس أهل البيت والمعزون على الحصير أرضا بدلا من الجلوس على الأرائك أو المقاعد .

وبعد ذلك تقام القداسات فى الكنيسة استمطارا لرحمة الله فى أيام السابع والخامس عشر والأربعين . وتعتبر هذه فرصا مناسبة للتعبير السليم عن مشاعر الحزن ، اذا ما اقترنت بالتأثير الدينى الذى يعمل دائما على حفظ اتزان المشاعر ، فلا يكون فيها افراط مشابه لمظاهر الحزن عند الوثنيين . كما لا يكون فيها كبت ، كما يحدث لدى الذين يفهمون أن التمدن يتعارض مع مظاهر التعبير عن مشاعر الحزن . فقد أثبتت أبحاث علم النفس التطبيقى أن كبت مشاعر الحزن للظهور بمظهر التمدن ، قد أدى فى كثير من الحالات الى أمراض جسمية ونفسية تظهر آثارها بعد فترة من الزمن .

ولكن للأسف اقترنت أحزان الأقباط خصوصا عند النساء فى الصعيد ببعض العادات الوثنية من لطم مؤذ ، وشق الملابس ، وحل الشعر ، وصبغ الشعر بالنيلة ، والقرع على الصدر بشدة ، وفقد زمام النفس حتى تتمايل الثكلى أحيانا باهتزازات توقيعية تتمشى مع أنغام التعديد الذى كثيرا ما يقترن بقرع الرق أو الطبول . وتختلف أقاليم الصعيد فى طريقة « التعديد »

وهي في الغالب تمجيد مآثر الفقيد ، ومقدار الخسائر التي تحققت بفقده . الا أن بعضها ينحرف الى عبارات الكفر والتذمر . وهذه العادات والأقوال لا تقرها المسيحية ، ويحاربها رجال الدين في مواعظهم .

وعندما ترزأ عائلة بفقد أحد أعضائها تسرع العائلات المجاورة الى مشاركتها في التعزية لتخفيف وطأة الحزن ، كما تشارك أيضا في أعباء ضيافة المعزين القادمين من قرى أو بلاد بعيدة ، اذ ترسل كل عائلة (صينية) مأكولات الى بيت المأتم الذي يكون مشغولا فلا تمكن من اعداد الطعام للمعزين .

وعادة زيارة المقابر (الطلعة) — أي الخروج الى المقابر التي تكون غالبا خارج القرية أو على مكان مرتفع جاف — من العادات القديمة . وهي من علامات الوفاء وتكريم ذكرى الميت في أيام الأعياد التي يعتاد فيها أفراد العائلة التجمع معا من بلادهم المتفرقة وتصطحب هذه الزيارة بعادات أخرى منها السليم ومنها الضار ، كتوزيع الصدقات والمأكولات على الفقراء . وترفع الصلوات لطلب رحمة الله . الا أنهم كانوا يغالون في ذلك فيبيتون في المقابر ويقيمون عدة أيام ويتمادون في مظاهر الحزن المفرط .

(ج) العبادات

ارتبط المصري بالكنيسة ارتباطا وثيقا حتى تأثرت عاداته الشعبية وتقاليد حياته اليومية بانطباعات دينية كثيرة ظهرت آثارها في أفراحه وأتراحه ، واحتفالاته وأعياده . ولا غرابة في ذلك فان للكنيسة معنى اجتماعيا يشمل حياة الشعب التابع لها .

وكلمة كنيسة معناها جماعة ، أي « جماعة المؤمنين » . ويطلق الاسم اصطلاحا أيضا على المكان الذي يجتمع فيه المسيحيون مهما كان نوع هذا المكان . ففي فجر المسيحية ، قبل أن تبنى الكنائس والكاتدرائيات ، كان يطلق اسم الكنيسة على البيوت التي يجتمع فيها الشعب للعبادة والصلاة .

ومن هذا الاسم تميزت الكنيسة بوظيفة اجتماعية وروحية ، اذ أن مهمة السمو بروح الانسان تحتاج الى رعاية نفسية واجتماعية بجانب الرعاية الروحية حتى تتكامل الشخصية فلا تنعقد أو تنقسم على ذاتها ، فتصير شرا ناميا في جسم المجتمع . بل تسعى الكنيسة الى تكوين المواطن الصالح .

ويسهر على توفير هذه الخدمات الرعوية لسد احتياجات الشعب ، رعاة الكنيسة وخدامها بدرجاتهم المختلفة : الشماس والقسيس والأسقف . وهي درجات الكهنوت الأساسية في الكنيسة .

والكنيسة بهذا الوضع مجتمع اشتراكي ديمقراطي ، تتكافأ فيه الفرص الروحية

والاجتماعية أمام الفقير والغني ، الجاهل والمتعلم ، الصغير والبالغ ، وأبيض البشرة وأسودها . فيجتمع فيه الجميع بفرص العبادة المشتركة فيقف كل هؤلاء خاشعين يعبدون الها واحدا ، ويتعلمون كيفية تطبيق الفضائل في حياتهم اليومية ، حتى لا يصبح الدين مظهرا منفصلا عن الحياة أو المجتمع ، بل يصير وسيلة فعالة للمشاركة في العطاء للفقير والمحتاج ، والتعاون لخير المجتمع .

وظهرت علامات هذه النظم الاجتماعية للكنيسة في مصر منذ أقدم العصور . فضمت مباني الكنيسة بين أسوارها مؤسسات تقوم بالخدمات المختلفة لشعبها من روحية وثقافية واجتماعية . ففي كثير من كنائس قرى الصعيد والوجه البحري ، ما زالت تحيط بالكنيسة مباني « الليوان » أو « الايوان » وهي المضيفة أو قاعة الاجتماعات التي يجتمع فيها الشعب صبيح رعاية بعد صلوات قداس يوم الأحد فيتشاورون في شئون مجتمعهم ثم يتناولون معا ما اعتاد المسيحيون تسميته « الأغابي » وهي كلمة قبطية معناها محبة . وتستخدم اصطلاحا بمعنى « وليمة المحبة » . اذ بعد أن يشترك الشعب مع الكاهن في تناول الأسرار المقدسة في نهاية القداس يخرجون الى قاعة الاجتماعات هذه ويتناولون معا الغذاء على مائدة واحدة . وجرت العادة على أن تتناوب عائلات القرية تقديم الغذاء فيحدد لكل عائلة أسبوع معين من العام تقدم فيه الغذاء للمصلين ويقوم كبار أعضاء العائلة بأنفسهم على خدمة أفراد الشعب الفقراء والأغنياء على السواء .

وتظهر قيمة هذه الولائم في الرابطة الأخوية والتقريب بين الطبقات والتقليل من الفوارق الاجتماعية ، بجانب ما تقدمه من ضيافة باطعام أفراد الشعب الذين تبعد بيوتهم عن مكان الكنيسة .

ولكل عضو في الكنيسة أن يستخدم نفس القاعة الملحقة بالكنيسة لاقامة احتفالاته الخاصة من عرس أو مأتم . فهي تخدم احتياجات الشعب عامة . ويلحق عادة بهذه القاعة عدة غرف للنوم لاضافة الغرباء والفقراء .

وقد اشتهرت الكنيسة القبطية بالمدرسة الملحقة بها ، وكانت في القرون الأولى المسيحية تسمى مدرسة الموعوظين لاعداد الراغبين في العماد وتلقينهم أصول الايمان المسيحي . ثم أخذت فيما بعد شكل « الكتاتيب » . وكانت تلقن الأطفال مبادىء القراءة والكتابة والحساب بجانب دراسة الكتاب المقدس واللغة القبطية والألحان الكنسية .

وكان بجوار بعض الكنائس مستشفى لعلاج المرضى كما جاء في سيرة القديس باخوميوس (القرن الرابع) انه أنشأ مستشفى في أديرته .

وأجمل مظاهر الرعاية النفسية التي

تقدمها الكنيسة لاحتياجات الشعب ، تتجلى في وظيفة « سر الاعتراف » . وهو كما سمته المخطوطات القديمة « طب روحاني » ، وبلغة العصر الحديث وعلم النفس « صحة نفسية » أو « طب نفسي » سواء الوقائي منه أو العلاجي. فمعروف أن الفرد محتاج الى ارشاد وتوجيه وبخاصة خلال الأزمات النفسية ، أو عندما تشتد وطأة مشكلات الحياة أو يزداد الشعور بالاثم . فأسلم طريق لراحة النفس وسلامة العقل هو تفريغ كوامن النفس على يد من يستطيع أن يطمئن النفس ويهدىء من روعها ، ويرسم لها طرقا لتجديد الرجاء أو بعثه .

وتحتاج النفس البشرية أيضا الى أن تكون على صلة مستمرة بالله تعالى ، لذلك تفتح الكنيسة أبوابها ليشترك الشعب معا في رفع الصلوات لله مرة على الأقل كل أسبوع — يوم الأحد . وقد اعتادت الكنائس القبطية ان ترفع الصلوات في أيام الأصوام أيضا وبخاصة الأربعاء والجمعة من كل أسبوع . وكانت الكنائس قديما تقيم القداسات يوميا .

وتشتمل صلوات القداس القبطي على طلبات من أجل الظروف المختلفة التي تمر على الفرد في حياته : من أجل المرضى والمسافرين ، والراقدين (أي الأموات) .. وكذلك من أجل سلامة العالم . ولم تغفل ان ترفع الصلوات من أجل الحكام والملوك والولاة ، تنفيذا لوصية الكتاب المقدس القائلة (فاطلب أول كل شيء أن تقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس . لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب لكي نقضي حياة مطمئنة هادئة في كل تقوى ووقار) (اتي ٢ : ١ — ٢) .

ولما كانت مصر بلدا زراعيا فقد اهتمت الكنيسة المصرية بنوع خاص بالصلاة من أجل الزراعة وما يؤثر فيها من طقس وماء . ونظمت هذه الصلوات لتتمشى مع الفصول الزراعية :

(أ) ففي فصل البذار (من ١٠ بابة الى ١٠ طوبة — أي من ٢٠ أكتوبر الى ١٨ يناير) تصلي قائلة (تفضل يا رب الزروع ونبات الحقل في هذه السنة باركها) .

(ب) وفي شهور الاهوية والحصاد (من ١١ طوبة الى ١١ بؤونة — أي من ١٩ يناير الى ١٨ يونية) تصلي قائلة (تفضل يا رب أهوية السماء وثمرات الأرض في هذه السنة باركها) .

(جـ) وفي شهور فيضان النيل (من ١٢ بؤونة الى ٩ بابة — أي من ١٩ يونية الى ١٩ أكتوبر) تصلي قائلة (تفضل يا رب مياه النهر في هذه السنة باركها — أصعدها كمقدارها ، كمعتك فرح وجه الأرض ليرو حرثها ، لتكثر أثمارها . أعدها للزرع والحصاد ، ودبر حياتنا كما يليق . بارك اكليل (بدء) السنة بصلاحك ، من أجل فقراء شعبك ، من أجل الأرملة واليتيم والغريب

والضيق ، ومن أجلنــا نحن الذين نرجوك وتقلب اسمك القــــدوس . لأن أعين الكل تتطلع اليك ، لأنك أنت الذي تعطيهم طعامهم في وقته . اصــــنع معنا بحسب صلاحك ، يا معطيا طعاما لكل جسد ، املأ قلوبنا فرحا وبهجة لكي يكون لنا الكفاف في كل شيء ، ونزداد في كل حين عملا صالحا) .

الاصــــوام

القبط شعب يميل الى التصوف والزهد ، فقد اشتهر بكثرة أصوامه . اذ يرى الصوم وسيلة لتدريب الارادة وضبط النفس لكبح الشهوات ، والتقليل من قيمة الرغبات المادية حتى لا تضغط على الميول الروحية للنفس . فالصوم يسهل التسامي بها الى مستوى روحي رفيع .

ويصوم القبط بالامتناع عن تناول الطعام مدة من النهار قد تصل الى الظهر أو العصر أو الغروب حسب مقدرة كل شخص . يتناول بعدها الصائم أطعمة خالية من الدسم غير حيوانية .

وتطغى روح العبادة على القبط في فترات الصوم ، فيكثرون من الصدقات . وتتأثر حياة العائلة كلها ، اذ تتغير أساليب حياتهم الرتيبة ، فتجرى العائلة استعدادات خاصــة لاستقبال الصوم . وحتى الأطفال يشعرون أن للبيت جوا جديدا يفيد ارتباطا خاصــا بالدين . وعندما كانت مصر كلها مسيحية ، كانت آثار الصوم تنعكس على الحيـــاة التجارية والاقتصادية أيضا . فتغلق محلات ذبح اللحوم وبيعها . ويتجه النشاط التجاري نحو الفول والزيت وما شاكلها من سلع . واذ تمتنع الأعراس والولائم ، يسود المجتمع جو من التخشع والعبادة .

وأهم وأقدم أصــوام القبط هما يوما الأربعاء (لذكرى التشاور للقبض عــلى المسيح) والجمعة (لذكرى صلبه) من كل أسبوع . والصوم الأربعيني لذكرى الأربعين يوما وهي التي صامها المسيح ، ويسمى أيضا « الصوم الكبير » ، وقد بلغت مدته في وقتنا الحاضر ٥٥ يوما . والأسبوع الأخير منه يسمى « أســـبوع الآلام » . ولهــذا الأسبوع تقديس عظيم لدى الشعب لعظم الذكرى التي يحملها . فكانت تتعطل فيــه الأعمال ليتفرغ الجميع للصلاة في الكنيســة حيث يتلى معظم الكتاب المقدس وتصلواته لحن حزين . ويطلق الأقباط على كل يوم من أيام هذا الأسبوع اسما يناسب ذكرى خاصة. منها « أربعاء أيوب » الذي اعتاد الناس أن يغتسلوا فيه بالعشب المسمى « رعرع أيوب » لذكرى شفاء أيوب النبي به . وخميس العهد لذكرى غسل المسيح أرجل الحواريين ليعلمهم التواضع ، وفيه أيضا بدأ معهم عهدا جديدا .

وبانتشار الرهبنة وكثرة الزهـد اقتدى الشعب بالرهبان في حفظ أصوام أخـرى : كصوم الميلاد اســتعدادا لاستقبال بشرى الميلاد وشريعة العهد الجديد ، ويبدأ يوم ١٦

هاتور (٢٥ نوفمبر) وينتهي بعيد الميلاد يوم ٢٩ كيهك (٧ يناير) ، وتبلغ مدته الآن ٤٣ يوما . وخلال صوم الميلاد يحتفل الشعب بليالي كيهك فيجتمعون في الكنيسة ، ويرتلون المدايح والتسابيح ابتهاجا بذكرى الميلاد . وفي ليالي الأحد من شهر كيهك يسهرون الى الصباح في ترديد هذه التسابيح . وفي هذه الليالي كانت بعض العائلات تستضيف القادمين من أماكن بعيدة فتقدم لهم العشاء في الضيفة الملحقة بالكنيسة .

وأيضا صوم الرسل ، ويبدأ الاثنين التالي لعيد العنصرة وتتراوح مدته بين ١٢ و ٤٩ يوما اذ ينتهي بعيد الرسل في ١٢ يوليو . وكذلك صوم العذراء ، ويبدأ في ٧ أغسطس ومدته ١٥ يوما ، وصارت له شهرة شعبية خاصة . وفي أواخر القرن العاشر بدأ الأقباط يصومون صوم نينوى ومدته ثلاثة أيام لذكرى نجاة أهل نينوى (مدينة قديمة بالقرب من الموصل الحالية بالعراق) عن طريق الصوم .

الأعيـــاد

ينتهي كل صوم من الأصوام القبطية بعيد يحتفل به الأقباط باقامة القداس في صباح يوم العيد ثم يفطرون بتناول المأكولات الدسمة واللحوم والحلوى ، بعد أن يكونوا قد وزعوا منها على الجيران والفقراء . وبعد ذلك يتبادلون التهاني معا في القاعة الملحقة بالكنيسة أو بالتزاور في البيوت . أما في الثلاثة الأعياد الكبرى (الميلاد — الغطاس — القيامة) فيكون الاحتفال بالقداس مساء ليلة العيد ، وغالبا ينتهي بعد منتصف الليل فتكون له بهجة ، وبالأخص في ليلة عيد القيامة حيث اعتاد الشعب قديما أن يخرج من الكنيسة ممسكا بالشموع المضاءة الى أن يصلوا الى بيوتهم .

وترتبط بعض الأعياد القبطية بمواسم زراعية خاصة فتدخل في تقاليد الاحتفال بالعيد أنواع خاصة من ثمار الموسم ، فيأكلون منها ويوزعونها على الفقراء . ومن العادات التي كانت متبعة في عيد الغطاس (ذكرى عماد المسيح) — ويقع في ١٩ يناير — الاستحمام في النهر أو الترع . وكان يوجد في مباني الكنائس القديمة حوض كبير يسمى المغطس في الجانب الأيمن من الجهة الغربية للكنيسة (وما زال موجودا غير مستعمل في كنائس أبو سيفين وأبو سرجة في مصر القديمة) . كان يملأ بالماء وينزل فيه الشعب ليلة عيد الغطاس .

ومن الأعياد ذات الأثر الشعبي البهيج « عيد « أحد الشعانين » أو « أحد السعف » . وهو الأحد السابق لأحد القيامة . وفيه يحتفل الشعب بذكرى دخول المسيح الى أورشليم راكبا على جحش ، ذلك الاستقبال الاحتفالي الذي رفع الشعب فيه سعف النخيل وأغصان الزيتون . ويكرر الأقباط هذه الذكرى بحمل سعف النخيل وأغصان

الزيتون الى الكنائس لحضور قداس العيد . وعادة تحية القادمين بالسعف كانت معروفة فى مصر الفرعونية أيضا .

ومن اليوم التالى لعيد القيامة يبدأ عيد الربيع الذى يسمى الآن « شم النسيم » . وفيه يخرج الشعب الى الحقول والحدائق للفرح بجمال الطبيعة بعد فترة الصيام والنسك الطويلة السابقة . ويسمى كنسيا « اثنين الفصح » . وكانت تستمر أجازة عيد القيامة طوال الأسبوع الأول من الخماسين .

واذا ما جاء عيد العنصرة — وهو عيد حلول الروح القدس فى نهاية الخماسين — اعتاد القبط توزيع فواكه الموسم الجديدة على الفقراء وذلك لأن يوم الخمسين هذا كان يقابل قديما عيد الحصاد فيكون تعبير الشكر بتقديم باكورات هذه الخيرات .

وبجانب هذه الأعياد الكبرى توجد أعياد كثيرة أخرى ، من أهمها عيد زيارة المسيح لأرض مصر مع العائلة المقدسة وهو طفل صغير . وتحتفل به الكنيسة القبطية يوم أول يونية من كل عام . وبالأخص فى الكنائس التى بنيت على الأماكن الأثرية التى زارها مثل مسطرد حيث البئر ، وشجرة العذراء بالمطرية ، وكنيسة أبو سرجة بمصر القديمة ، وقسقام حيث يوجد الدير المحرق ، وبه كنيسة أثرية لهذه المناسبة .

ويحتفل القبط بأعياد العذراء ومشاهير القديسين والشهداء والملائكة بعمل نوع خاص من الفطير يوزعونه على الفقراء والجيران . وترجع فكرة الفطير الى عادة تقديم باكورات محصول القمح كعلامةشكر لله . وقد كان من عادات القبط ألا يذوقوا المحاصيل الجديدة ولا تدخل ثمارها بيوتهم قبل أن يوزعوا منها على الفقراء .

الموالد

وكلما اشتهر قديس أو شهيد فى منطقة أو مدينة ، يتوافد على كنيسة تلك المدينة جموع كثيرة من الشعب للاحتفال بذكراه . وعندما يصل القادمون الى المنطقة بضعة آلاف يضطرون الى اقامة الخيام حول الكنيسة ليبيتوا فيها ، ويقضوا أيام العيد التى تصل غالبا الى سبعة أيام .

وقد عرفت أعياد القديسين المزدحمة هذه فى العصر العربى قياسا باسم الموالد . وهو اسم لا ينطبق على الواقع ، لأن الاحتفال غالبا يكون بذكرى استشهاد أو موت القديس ، وهو اليوم الذى أتم فيه البطل جهاده ولا يهم الكنيسة يوم الولادة فانه يوم لا يقترن بشئ من البطولة أو الاعجاز .

وبدأت مثل هذه الاحتفالات أصلا على أساس تكريم القديس برفع الصلوات واقامة القداسات وقراءة سيرته بالتفصيل للتنبيه بقدوته الصالحة . ثم بتقديم النذور من شموع وبخور وأدوات تلزم للكنيسة الى جانب نحر الذبائح لاطعام الفقراء والمحتاجين . ولكن لكثرة العدد وما تحتاجه هذه الألوف

من أماكن للمبيت ، ومن مأكولات ونحر الذبائح وبيع لاحتياجات الزوار والنذور وخلافه انحرفت هذه الاحتفالات عن طبيعتها الدينية البسيطة الى مظاهر مادية تجارية كانت سببا فى تسرب كثير من الشرور الاجتماعية الى تلك « الموالد » مما لم تقره الكنيسة ، لدرجة أن الأنبا شنودة (القرن الخامس) ألقى عظة قوية ندد فيها بتلك الشرور قائلا « جميل جدا أن يذهب الانسان الى مقر الشهيد ليصلى ويقرأ وينشد المزامير ويطهر نفسه ويتناول من الأسرار المقدسة فى مخافة المسيح ، أما من يذهب ليتكلم ويأكل ويشرب ويلهو ، أو بالحرى يزنى ويرتكب الجرائم نتيجة للافراط فى الشراب والبغى والفساد والاثم ، فهذا هو الكافر بعينه .

وبينما البعض فى الداخل يرتلون المزامير ويقرأون ويتناولون الأسرار المقدسة اذ بآخرين فى الخارج يملأون المكان بآلات الطبل والزمر — حتى بيت صلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص لقد جعلتموه سوقا لبيع العسل والحلى وما أشبه . لقد جعلتم الموالد فرصة لتدريب بهائمكم ولسباق حميركم وخيلكم ، جعلتموها أماكن فرصة ما يعرض فيها للبيع ، فبائع العسل بالكاد يحصل على قليل من الزبائن المتشاحنين ، أو يستخلص لنفسه شيئا من الفائدة نظير أتعابه . حتى الأشياء التى لا يُمكن أن تحدث للباعة فى الأسواق العامة تحدث لهم فى موالد الشهداء .

يا الغباء ! اذا كنتم تذهبون لمواطن الشهداء لتأكلوا وتشربوا وتبيعوا وتفعلوا كل ما يروق لكم ، فأية فائدة لبيوتكم التى فى مدنكم أو قراكم ؟ يا لعقولكم المغلقة ! واذا كانت بناتكم وأمهاتكم يعطرن رءوسهن ويكحلن عيونهن ويتجملن لخداع الناس الذين ينظرون اليهن ، واذا كان أبناؤكم واخوتكم وأصدقاؤكم وجيرانكم يفعلون هكذا عند ذهابهم الى مواطن الشهداء فلماذا جعلتم لكم بيوتا ؟

هناك كثيرون يذهبون الى الموالد لافساد هيكل الرب وليجعلوا من أعضاء المسيح أعضاء للاثم والفجور بدلا من أن يحفظوا لها قداستها وطهارتها من كل رجس سواء كانوا رجالا أو نساء . دعونى أقول لكم بصراحة تامة ان كثيرين منكم يلتمسون لأنفسهم عذرا قائلين ليست لنا زوجة أو ليس لنا زوج ، فلا تجعلوا زيارتكم لموالد الشهداء فرصة لتدمير أجسادكم فى المقابر التى حولها أو المبانى القريبة منها أو فى أركانها » .

(د) التقويم القبطي

وضع التقويم القبطي على أساس التقويم المصري القديم . أدرك المصريون القدماء ضرورة استخدام سنة مدنية تحتوي على عدد صحيح من الأيام وتكون أقرب ما يكون إلى السنة الشمسية . وتكونت السنة المصرية من اثني عشر شهرا ينقسم كل منها إلى ثلاثين يوما ، ثم زادوا عليها خمسة أيام في آخر السنة اعتبروها بمثابة الأيام التي ولدت فيها المعبودات الخمسة التي تتكون منها مجموعة أوزيريس وهي : أوزيريس ، وايزيس ، وست ، ونفتيس ، وحوريس ، وجعلــوا منها مناسبات لاحتفالات دينية خاصة .

أما الشهور الاثنا عشر فقد وزعت على ثلاثة فصول خص كل فصل منها أربعة شهور . وسموا الفصل الأول فصل « الفيضان » والثاني « بذر الحبوب » والثالث « جني المحصول » .

واعتبر المصريون اليوم الأول من كل عام هو اليوم الذي تظهر فيه بشائر الفيضان وأشهره من يولية إلى أكتوبر . أما أشهر فصل « بذر الحبوب » فهي من نوفمبر إلى فبراير وهي أشهر الشتاء ، وأشهر فصل « جني المحصول » من مارس إلى يونية وتتفق مع فصل الربيع حاليا .

ويدل على مدى اهتمام المصريين بفيضان النيل الذي يهب أرضهم الخصوبة ويجددها كل عام ، أنهم أقاموا تقسيم فصولهم على هذه الظاهرة الطبيعية التي تأتيهم كل عام ، أي حدوث الفيضان .

لم تعتمد السنة المصرية في حسابها على علم الفلك بل وصل إليها المصري على أساس ظهور الفيضان عاما بعد عام ، فهي سنة نيلية ، تعتمد على طبيعة الفيضان وقيمته لدى الشعب الذي تتصل حياته به اتصالا وثيقا . ولم يكن من المهم لديهم أن يأتي الفيضان في نفس اليوم من كل عــام . بل يكفيهم أن يعرفوا أن فيضان نيلهم يأتيهم في نفس الوقت تقريبا .

وليس في الامكان أن نحدد متى استطاع المصري أن يقيم « حساب السنة المدنية » على هذا الوجه ولكن من المرجح أنه نشأ في فترة من فترات عصور ما قبل التاريخ وربما كان ذلك في أثناء عصر حضارة نقادة الثانية ، وقد جعلوا يوم بدء فيضان النيل بمثابة أول أيام العام الجديد .

وحين مضى على هذا التقويم عدة قرون لاحظ المصريون أن أول أيام العام الجديد أخذ يتأخر عن يوم بدء الفيضان بمدة ، كما لاحظوا أن أشهر « بذر الحبوب » التي كانت تقع في الشتاء أخذت تقع في فصل الصيف . وقد نشأ هذا العيب من أن السنة المدنيــة تنقص عن السنة الشمسية بربع يوم تقريبا ووجد المصريون أن هذا الخطأ صحيح من

تقسه بعد مضي ١٤٦٠ سنة شمسية من الحساب بالتقويم ، ففي هذه المدة تجمع الفرق وهو ربع يوم في كل سنة فأصبح ٣٦٥ يوما أي سنة كاملة بعد ١٤٦٠ سنة . وهكذا عاد التوافق بين السنة المدنية والسنة الشمسية .

ولاحظ المصريون أن ستهم البلبة التي تبدأ من اليوم الذي يأخذ فيه النيل في الارتفاع وتنتهي بنفس اليوم من العام التالي ، تتفق بشكل واضح مع الدورة السنوية لنجم ثابت معين يبدو بوضوح بعد اختفاء طويل ، وذلك مع بدء مجيء الفيضان مرة كل عام ، كما لاحظوا أن ظهوره يكون في الفجر المبكر قبيل شروق الشمس ، ويكون أنور وألمع نجم في السماء ، وفي دوران الأرض حول الشمس تأتي لحظة كل سنة يكون فيها هذا النجم في خط مستقيم مع الأرض والشمس ، وقد أطلق المصريون عليه اسما مؤنثا هو « سبدت »

وورد ذكرها في المتون الدينية القديمة على أنها « الجالبة للنيل » أي التي تحدث فيضانه ، وقدسوا هذا النجم على أنه صورة من صور ايزيس ، وهذا النجم هو الذي نسميه الآن « الشعرى اليمانية » .

ولقد أثبتت الدراسات الفلكية الحالية أن دورة « الشعرى اليمانية » تعادل تقريبا دورة الشمس في عام .

هذا ولم يكن للشهور أسماء عند قدماء المصريين في أول الأمر . وكانت تنسب للفصول التي تقع فيها فيقال مثلا الشهر الثاني من فصل الفيضان أو الشهر الثالث من فصل « بذر الحبوب » وهكذا .

ومنذ الأسرة السادسة والعشرين أي منذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد تقريبا ، أطلق المصريون على الشهور أسماء تعبر عن الأعياد التي اعتادوا اقامتها .

والأسماء كما وصلتنا هي :

فصل الفيضان .	١ — تحوت	Thot
	٢ — باؤفى .	Paophi
	٣ — أتحير أو حاتحور	Hathor or Athyr
	٤ — كحوياك	Khoiak
فصل بذر الحبوب :	١ — طيبى	Tybi
	٢ — مخير	Mekhir
	٣ — فمنوث	Phamenoth
	٤ — فرموتى	Pharmuthi
فصل جني المحصول :	١ — بخونس	Pakhons
	٢ — بيني	Payni
	٣ — ابيفى	Epiphi
	٤ — مسوري	Mesori

النسيء ، وكانت تسمى به الأيام الخمسة المزيدة على السنة أو الشهر الصغير ، وهي خمسة أيام . وكل من الأشهر ثلاثون يوما .

ان المصرى القديم هو أول من وضع تقويما يرصد الحوادث بمقتضاه ، وهو أول من ألف عاما شمسيا من اثنى عشر شهرا كل شهر منها ثلاثون يوما وأضافوا الشهر الصغير (النسيء) وهو خمسة أيام لكل عام ، كما قسم العام الى فصول .

واحتفل المصريون بيوم « طلوع الشعرى اليمانية » وجعلوا منه عيد أول السنة الى جانب احتفالهم العادى بغرة العام الشمسي (٣٦٥ يوما) ، وأطلقوا على هذا العيد اسم « طلوع سبدت » . ولاحظ المصريون أن عيد « طلوع سبدت » يتأخر عن عيد غرة العام الشمسي بمعدل يوم كل أربعة أعوام ، كما لاحظوا اتحاد العيدين مرة كل ١٤٦٠ سنة ، وهي دورة « الشعرى اليمانية » .

وذكر الكاتب الرومانى كنسورينوس Censorinus أن الشروق الاحتراقي للشعرى اليمانية حدث فى أول توت من سنة ١٣٩ بعد الميلاد . وعلى هذا أمكن تحديد حدوث ظاهرة الشروق الاحتراقي للشعرى اليمانية فى سنة ١٣٢١ قبل الميلاد وسنة ٢٧٨١ ق . م وسنة ٤٢٤١ ق . م وهكذا عرف المصريون فى عصر الدولة القديمة تقسيم العام الى ٣٦٥ يوما وسجلت النصوص (بردية ايبرس) ظاهرة الشروق الاحتراقي للشعرى اليمانية فى بدء ظهور الأسرة الثانية عشرة ، كما سجلت بردية أخرى (اللاهون) هذه الظاهرة فى عصر الدولة الوسطى . ويؤكد « ادوارد ماير » أن أول الفترة التى تبدأ بعام ٢٧٨١ ق . م كان التوقيت الشمسي معروفا ومستعملا فيها ، فلابد اذن أن يقع بدء استعماله فى أول الفترة السابقة أى سنة ٤٢٤١ ق . م .

* * *

قيمة التقويم للمصريين :

لا يزال هذا التقويم منذ عصور ممعنة فى القدم دليلا نافعا ودقيقا للطقس وللفصول وللزراعة وللنيل فى فيضانه وتحاريقه ، ولا يزال المزارعون يراعونه فى كل ما يخص البذر والحصاد كما كان يعمل المصرى القديم منذ آلاف السنين . ولا زالت تجرى على ألسنتنا الأمثال التى تدل على حالة الطقس فتقول : بابه : ادخل واقفل البوابة ، كياك : صباحك مساك ، طوبة : أبو البرد والرطوبة ، امشير : أبو الهواء والزعابير ، برمهات : اطلع الغيط وهات .. الخ .

والتقويم الزراعى فى مصر لا يزال يتبع التقويم المصرى القديم ، واليك مثال ذلك :

شهر توت :

يزرع فيه البرسيم والشبت والكرنب شتلا والشعير الشتوى والفول ، وتظهر الذرة الشامى ، وينضج البصل البعلى ، ويتوافر الليمون ، وينضج الزيتون ويكثر السفرجل والتفاح .

شهر بابه :

بدء الزراعة الشتوية : يزرع فيه الأرز والكتان والبصل والثوم (بالوجه القبلي) والقمح والبسلة والترمس والكمون والشعير ، ويجني القطن ، ويظهر البلح والشمام النيلي والقرع والقنبيط ، ويحصد الفول السوداني ، كما تكثر فيه الأسماك الصغيرة (البسارية) .

شهر هاتور :

ينتهي فيه جني القطن ، وينضج الأرز النيلي ، وتقطع الذرة الشامي ، ويظهر فيه البرتقال واليوسفي . ويزرع العدس والقرع والكوسة والطماطم .

شهر كيهك :

يزرع فيه المشمش والبرقوق والخس شتلا ، والمقات الصيفي والجميزة والخضراوات الصيفية ، ويظهر الفول الأخضر ، ويقطع قصب السكر للعصير ، ويكثر القلقاس .

شهر طوبة :

تنقل فيه الأشجار الصغيرة ، وتقلم كروم العنب ، وتزرع الذرة الصيفية والجوز ونوى الخوخ .

شهر امشير :

يزرع فيه القطن المبكر (بالوجه القبلي) والذرة الموسمية وقصب السكر ، وتغرس الأشجار ، ويلقح النخل ، ويحصد الكمون ، ويغرس شجر التين والتفاح والبرقوق والمشمش ، ويظهر الخيار .

شهر برمهات :

يورق فيه شجر التوت ، ويفقس دود القز ، وتنضج البسلة البلدي ، وابتداء زراعة القطن الهندي ، ويقلع فيه الكتان ، وتظهر الملوخية ، ويزرع الكمون والخضراوات .

شهر برمودة :

يحصد فيه الفول والعدس والترمس والقمح في بعض جهات بالوجه القبلي . ويزرع فيه الفول السوداني ، ويقطف أوائل العسل ، ويجني الورد لاستخراج مائه ، ويظهر البطيخ الصيفي والتوت ، ويقلع البطاطس الشتوي ، ويزرع فيه الأرز والفلفل شتلا .

شهر بشنس :

يظهر فيه المشمش والبرقوق والتفاح ، ويحصد البصل بالوجه البحري ، ويزرع فيه السمسم والقلقاس .

شهر بؤونة :

يزرع فيه الأرز والذرة الشامي ، ويقطف عسل النحل ، وتظهر الفاصوليا والقرع والكوسة ، ويظهر العنب والخوخ والكمثرى .

شهر ابيب

يزرع فيه الجرجير والكرفس والسلق والبقدونس والباذنجان الأسود والجوافة والتوت والخرشوف والبامية والملوخية ، ويظهر الرمان .

شهر مسرى :

ينضج فيه البلح ، ويزرع فيه بصـــل النرجس والثوم والبصل والطماطم واللفت النيلي ، ويكثر فيه العنب والتين ، ويجمـــع الزيتون الأخضر .

* * *

الدولة الرومانية والتقـــويم المصري :

ألغى يوليوس قيصر اسـتخدام التقويم بأنـــة القمـرية الذي كان شائعا في الدولة الرومانية وأنشأ تقويما شمسيا استعان فيه بالفلكي المصري سوسيجنس Sosigenes الذي قدر سنة التقويم ٣٦٥ يوما وربعا ، واستخدم طريقة السنة الكبيسـة مـــرة كل أربعة أعوام . وأمر يوليوس قيصر باستخدام هذا التقويم رسميا في سنة ٧٠٨ من تأسيس روما وهي سنة ٤٦ ق . م وسمي هذا التقويم باليولياني نسبة الى يوليوس قيصر . واستمر العمل بهذا التقويم حتى سـنة ١٥٨٢ حين لاحـظ الفلكيون في عهـــد بابا رومـــا جريجوريوس الثالث عشر خطأ في الحساب الشمسي وأن الفرق بين السنة الممنون بهـا والحساب الحقيقي ١١ دقيقة و ١٤ ثانية وهذا الفرق اليسير يعادل يوما في كل ١٢٨ عاما .

وصحح البـــابا جريجوريوس الخطأ المتراكم فأصـــبح يوم ٥ أكتوبر من ســـنة ١٥٨٢ م يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ وهـــو التقويم المعروف بالجريجوري السائد الآن .

* * *

تطور التقويم المصري الى القبطي :

عدد المصريون المسيحيون بدء تاريخهم بيوم ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤ ميلادية الذي استشـــهد فيه الكثير منهم ، وذلك بنفس التقويم الذي استخدم في مصر قبـل ذلك التاريخ ، وتسمى هـــذه الحلقة من التقويم المصري بالتقويم القبطي ويطلق عليه تقويم الشهداء . وهو يتبع الحساب اليولياني ، ولهذا نجد أن الخطأ المتراكم بين الحساب اليولياني والحســـاب الجريجوري قد بلغ ١٣ يوما في التقويم القبطي .

* * *

أغراض التقويم القبطي :

للتقويم القبطي غرضان : غرض يتبـع الحساب الشمسي ، وهدفه احصـــاء الأيام والفصـــول والأعـــوام الشمسية الكاملة وتحديدها جميعا بالنســـبة لدورة الكرة الأرضية حول الشمس . والغرض الآخـر يتبع الحساب القمري ، وهدفه احصـــاء الدورات القمرية وتحديد موعد ظهور كل هلال جديد .

وقد زاد اهتمـــام المصري بالحساب القمري بعد دخول المسيحية مصر لأن عيـد القيامة وبعض الأعياد الأخرى التي تتصل بعيد القيامة تحدد بالدورة القمرية وتتصل بالدورة الشمسية .

* * *

التقويم القبطي القمري :

حين خطرت فكرة تسجيل الحوادث للانسان الأول أخذ يؤرخ بظهور القمر وأوجهه . ولما تقدمت العلوم أخذ يبحث في الاختلاف بين مدة دورة قمرية وبين أخرى، وكذلك في متوسط مدة الدورة القمرية ، والمدة الواقعة بين لحظة ظهور هلال جديد والهلال الجديد التالي تسمى شهرا قمريا . وقد يتغير طول الشهر القمري حتى يصل الفرق الى ٩ ساعات تقريبا . ولكن هناك دورة كاملة لحركة القمر في الفضاء بالنسبة الينا تبلغ مدتها ١٨,٦ سنة شمسية ، كما أن هناك متوسطا عاما لطول الشهر القمري في الدورة الكاملة وهو ٢٩ يوما و ١٢ ساعة و ٤٤ دقيقة وثلاث ثوان ، ويعتبر هذا المتوسط دقيقا ، ويمكن التنبؤ بمقتضاه عن الأهلة الجديدة وأوجه القمر لمدة ألف سنة شمسية مثلا دون أن يتجاوز الخطأ يوما كاملا .

ومن هنا كانت فكرة استخدام طول متوسط الشهر القمري لحساب ظهور القمر الجديد وأوجهه لمئات من السنين ، ويسمى ذلك بحساب الأبقطي (ومعناه الحرفي : الباقي) لأن هذا الحساب يشتمل على استعمال الباقي بعد عمليات حسابية متعددة .

وقد بني حساب التقويم القبطي القمري على قاعدة وضعها الفلكي «ميتون» في القرن الخامس قبل الميلاد ، وهي أن كل ١٩ سنة شمسية تعادل ٢٣٥ شهرا قمريا كاملا بغير كسور .

واستخدم الأقباط هذه القاعدة منذ القرن الثالث الميلادي ، وقد وضع قواعدها المعمول بها الى الآن البطريرك الاسكندري الانبا ديمتريوس الكرام وهو البطريرك الثاني عشر وساعده في وضعها الفلكي المصري بطليموس . وبهذا يحدد عيد القيامة (الذي يليه شم النسيم) ، بأنه الأحد التالي للقمر الكامل الذي يلي الاعتدال الربيعي مباشرة .

وقد أخذ الغربيون حساب الابقطي وطبقوه على التقويم الروماني اليولياني ، فاتفقت الأعياد المسيحية عند جميع المسيحيين كما كان يحددها التقويم القبطي حتى سنة ١٥٨٢ حين ضبط الغربيون تقويمهم بالتعديل الجريجوري .

الشهور القبطية :

والشهور القبطية كما تعرف الآن هي :

توت (سبتمبر - أكتوبر) .
بابة (أكتوبر - نوفمبر) .
هاتور (نوفمبر — ديسمبر) .
كيهك (ديسمبر — يناير) .
طوبة (يناير — فبراير) .
أمشير (فبراير — مارس) .
برمهات (مارس — ابريل) .
برمودة (أبريل — مايو) .
بشنس (مايو — يونية) .

بؤونه (يونية — يولية) .
أبيب (يولية — أغسطس) .
مسرى (أغسطس — سبتمبر) .
النسىء (سبتمبر) .

التقويم الأثيوبي :

ومما هو جدير بالذكر أن التقويم الأثيوبي هو نفس التقويم القبطي . فقد أخذ الأثيوبيون تقويمهم عن الأقباط ، وتبدأ سنتهم ببدء السنة القبطية ، وتتوافق شهورهم مع الشهور القبطية .

ويسمى الأثيوبيون حساب سنتهم عام الرحمة ، وهو التاريخ الذي كان سائدا في مصر في القرن الحادي عشر ، ويسمى بالسنة الميلادية الشرقية أو السنة الميلادية القبطية ، وهي تنقص ثماني سنوات تقريبا عن التقويم الميلادي الغربي .

(ه) الرهبنة

١ ـ نشأتها في مصر

المصري بطبيعته يميل الى التدين ، وتصبو صفوة المتدينين منهم الى حياة روحية أعمق ، وأصفى سريرة ، وأكثر صلة بالله . حياة تتوق الى الكمال والبر . ومن يصل به الحنين الروحي منهم الى درجة الهيام بالله ، يسعى الى التخلص من المشاغل العالمية والاهتمامات المادية ليتفرغ للخلوة والتأمل .

استمال سحر صحراء مصر محبي الفضيلة والكمال اليها : سماؤها الصافية المليئة بالنجوم تنطق بما وراءها من قوة مبدعة مترفقة ، وفضاؤها الشاسع يهيىء فرص الحرية الطليقة ، وسكونها الشامل يساعد الانسان على تركيز أفكاره ومشاعره ووجدانه في الله وأن يخلو اليه ويخشع أمامه .

وهكذا اندفع المصريون المسيحيون الى البرية لمغالبة الشر والخلوة بالله . وكانوا يهدفون من ذلك الى أن تسمو أرواحهم وترهف نفوسهم فيستطيعوا التحكم في الجسد وأهوائه ، والتحرر من مغريات العالم التي قد تستهوي الانسان بعيدا عن خالقه وتطفىء القبس الالهي الكائن داخله .

ورغم ظهور بعض الحركات التصوفية قبل المسيحية كجماعات فقراء الهنود والاسينيين اليهود ، الا أن الرهبنة المصرية كانت اتجاها مسيحيا أصيلا غير متأثر بتلك الحركات النسكية السابقة عليها لاختلافها عنها في الهدف والفلسفة والأسلوب . كما أن الرهبان الأول الذين أسسوا هذا الطريق لم تكن ظروفهم البيئية أو العلمية مما يمكنهم من الاطلاع أو السماع عن هذه الحركات حتى يقلدوها . بل خرجوا الى الصحاري بدافع من الروحانية والزهد كما توحي بهما الديانة المسيحية . ويظهر ذلك بوضوح من حياة القديس أنطونيوس .

ومع انتشار المسيحية في مصر بدأت مظاهر النسك تنتشر رويدا رويدا . فقد سمع عن شخص يدعى فروتونيوس (١٣٨ — ١٦١ م) رحل الى برية نيتريا (وادى النطرون) وفي صحبته سبعون مسيحيا ليعيشوا حياة الرهبنة والزهد .

وأغلب الظن ان الأمثلة المجهولة لهؤلاء النساك الأول أكثر من المعروفة . فأصول الرهبنة في مصر بعيدة الغور وتاريخها أقدم من تاريخ القديس أنطونيوس . ولم تكن في بدايتها قد أخذت بعد صبغة عامة منظمة ، وانما أخذت وضعها الثابت المعروف وصبغتها العالمية الواسعة النطاق ابتداء من الأنبا أنطونيوس .

أطوار الرهبنة

مرت الرهبنة المصرية في أطوار مختلفة :

١ — التوحيد :

اذ كانت الرهبنة الأنطونية في عهدها الأول تنطوى على العزلة الفردية التامة المقرونة بالتقشف الشديد . ولكن أتباع أنطونيوس أخذ نظام العزلة يتطور تطورا بطيئا الى نوع متوسط من الرهبنة الاجتماعية .

والقديس أنطونيوس (٢٥٠ — ٣٥٦ م)

هو القديس المعظم الذي يلقبونه « أب جميع الرهبان » . ولد من أسرة غنية في الصعيد . ولما توفي والده تاركا له ثروة كبيرة تأثر بما جاء في الانجيل « اذا أردت أن تكون كاملا فاذهب بع كل مالك وأعطه للفقراء وتعال فاتبعني » . فنفذ الآية حرفيا بتوزيع ثروته وتوحد في الصحراء وسكن أولا في مقبرة قديمة ثم توغل داخل القفر . وعاش حوالى عشرين سنة لا يرى وجه انسان وهو في نسك وصوم وصلاة وتأمل . ولما اشتهر أمره واجتمع حوله كثيرون يطلبون منه أن يرشدهم الى المعيشة مثله ، خرج اليهم وأرشدهم الى حياة الوحدة . وكان تلاميذه لا يعيشون في أديرة بل في مغارات منفردة في الجبل . وقد تتلمذ عليه القديس ايلارى مؤسس الرهبنة في فلسطين ، والقديسان آمون ومقاريوس مؤسسا الرهبنة في وادى النطرون ، والقديس بنوده أب أديرة الفيوم . كما تتلمذ عليه البطريرك اثناسيوس وكثير من مؤسسى الرهبنة .

ومنحه الله مواهب كثيرة منها شفاء المرضى . وسمع به الفلاسفة فأتوا اليه يحاورونه ليروا مدى علمه فأذهلتهم حكمته على الرغم من أنه كان في عرفه الكبرياء الرومانية أميا لعدم دراسته اليونانية واللاتينية .

ولما حل بالكنيسة اضطهاد مكسيميانوس نزل أنطونيوس الى الاسكندرية يخدم المستشهدين ويقويهم متمنيا هو نفسه أن يستشهد . كما نزل ابان هرطقة أريوس يحذر الناس منها ، وكان لظهور هذا الشيخ

الناسـك المتوحد أثره الكبير في تأييـد البطريرك أثناسيوس .

وقد أرسـل اليه الامبراطور قسطنطين وأولاده رسائل يطلبون فيها بركته فلم يرد عليهم الا بعد الحاح رهبانه الذين قال لهم « لا تعجبوا ان كتب الينا امبراطور هـو انسان . ولكن الأعجب من ذلك أن الله كتب الشريعة للانسان » .

٢ ــ الرهبنة الاجتماعية

أخذ الرهبان المتوحـدون في تركيز منوفهم حول الشخصيات الكبرى من الآباء الروحيين ليتتلمذوا على أب روحي اشتهر بالقداسة والعلم مع احتفاظ كل منهم بحياة التـوحد في مغارته أو قلايته المنعـزلة عن جاره ، ولكن قلاليهم كانت قريبة بعض القرب من بعضها وتقوم حول قلاية الأب الروحي . لذلك يسمى هذا النظام أيضا بنظام القلالي . وهو مرحلة متوسطة بين الرهبنة الأنطونيـة والرهبنة الديرية . وقاد هذا النظام القديس مقاريوس الكبير ، وكان مركزه برية شهيت . أي وادي النطرون بالصحراء الغربية .

والقديس مقاريوس ، مـؤسـس الرهبنة في وادي النطرون في صحراء مصر الغربية . ولد سنة ٣٠٠ م من أبوين مصريين في احدى قرى مديرية المنوفية . وكان أبوه كاهنا . وقد رسم هو أيضا قسا ولكنه لم يشأ أن يتقلد هذه الرتبة لحبه في حيـاة الوحدة . فبعد وفاة والديه وزع أمواله على الفقراء وذهب الى وادي النطرون سنة ٣٣٠ م حيث توحد هناك . ثم زار الأنبـا أنطونيوس في الجبل الشرقي فألبسه الزي الرهباني وزوده بنصائحه ورجع الى وادي النطرون حيث تفرغ للعبادة والتأمل . ولم يكن هناك غيره في كل تلك البرية . وقد عاش الأب مقاريوس ستين سنة في الرهبنة وتجمع حوله تلاميذ كثيرون فبنى لهم كنيستين في الموضع الحالي لديري البرموس وأنبـا مقاريوس بوادي النطرون . ومن أشـهر تلاميـذه أرسانيوس والأميران مكسيموس ودوماديوس .

والمدرسة الرهبانية التي تزعمها مقاريوس هي نظام متوسط بين الوحدة المطلقة التي تظهر في رهبنة أنطونيوس ، والحياة المشتركة التي تمثلها رهبنة باخوميوس . فكان الرهبان يعيشون في قلالي منفردة متباعدة ولكنهم يجتمعون مرة في كل سبت ليشتركوا معا في الصلاة وتناول الأسرار المقدسة . ولم تكن لهم أسوار ولا حصون . ولكن هذا النظام تدرج فيما بعد حتى شابه النظام الباخومي . أما من شب من اتباع هذا النظام على حب الوحدة فانهم انفصلوا منفردين في مغارات حفروها في الجبال . وفي سنة ٣٩٠ توفي الأب مقاريوس بعد أن عمر وادي النطرون بآلاف الرهبان . وانقسمت هذه البرية الى أقسـام مشـهورة هي نتريا والأسقيط والقـلالي ، وأصبحت البرية كلها معمورة معروفة .

٢ ــ الرهبنة الديرية (حياة الشركة)

ووضع القديس باخوميوس (٢٩٠ ــ ٣٤٨ م) مجموعة قوانين يعيش بمقتضاها الرهبان فى دير واحد هو عبارة عن كنيسة أو كنائس الدير محيط بها قلالى الرهبان داخل سور واحد .

وتقوم الرهبنة على ثلاث دعائم : الفقر الاختيارى ـــ العفة والتبتل ـــ الطاعة لمرشد الروحى . وهى مقومات انكار الشهوات الدنيوية والماديات والتفرغ للحياة الروحية .

وكان يشترط على من يريد الانضمام الى الدير أن يقضى ثلاث سنوات تحت الاختبار . وكان الطعام يقدم للرهبان فى قاعة المائدة مرتين فى كل يوم (فى الظهر وفى المساء) وكانوا يستمعون أثناء الأكل لأحد الاخوة يقرأ فصلا من الكتب المقدسة . وكانت الأعمال اليدوية فى المؤسسات الباخومية اجبارية لفوائدها الروحية التى تشغل الراهب عن الشرود فى افكار لا توافقه . كما أنها وسيلة لكسب القوت الضرورى لكى لا يكون الراهب عالة على المجتمع . وكان كل راهب يعمل فى المهنة التى يتقنها بجانب من تخصصوا فى كتابة الكتب ونسخ المخطوطات .

وكان النظام الباخومى يهتم بالعلم ، ولهذا نظم باخوميوس للرهبان ثلاثة دروس يومية عند الساعات الأولى والثالثة والسادسة (١) من النهار للمبتدئين . ودروسا أخرى عامة يعقدها رؤساء الأديرة يومى الأربعاء والجمعة فى تفسير الكتب المقدسة . وكان حضورها اجباريا .

وكانت الأديرة الباخومية مثلا أعلى فى النظام والحياة الراضية والسلام فى وسط عالم منهار ملأه الفزع والفوضى ، وشمله القنوط والدمار . لذلك كان من الطبيعى أن يهرع اليها الناس بالمئات والآلاف فى عصر ساءته الروح الدينية .

والانبا باخوميوس ، ولد حوالى سنة ٢٩٠ م فى احدى قرى الصعيد من أبوين وثنيين . والتحق فى شبابه بجيش قسطنطين فى حربه لمكسيميانوس . وحدث أن عسكرت فرقته فى ضواحى اسنا فخرج أهالى البلدة من المسيحيين يحملون اليهم الطعام والشراب . فذهب باخوميوس وتساءل عما حدا بهؤلاء الناس الى ابداء هذا العطف فقيل له انهم مسيحيون ينفذون تعاليم دينهم . فقال فى نفسه « ان كانت هذه هى المسيحية فاننى ـــ ان عدت سالما ـــ سأصير مسيحيا » . ولما انتصر قسطنطين وسرّح الجيش عكف باخوميوس على دراسة المسيحية واعتنقها .

ثم تتلمذ على راهب شيخ يدعى بلامون ، وازداد فى النسك والمعرفة حتى صار أبا

---

(١) حسب التوقيت الشرقى و أى الساعات السادسة والتاسعة صباحا والثانية عشرة ظهرا بتوقيتنا الحالى) .

الكثيرين وأسس ديره الأول في طبيقواستخدم في تدبيره ما اعتاده من نظام العسكرية ومن طاعة ونسك في الرهبنة. وكثر عدد المنضمين اليه حتى لم يسعهم الدير ، فأنشأ أديرة أخرى وصل عددها الى تسعة ، كما أنشأ ديرا للراهبات تحت رئاسة أخته . وقد ذكر « بلاديوس » أن رهبان باخوميوس بلغوا ثلاثة آلاف في حياته وأنهم بلغوا سنة ٤٢٠ م سبعة آلاف ، ويقدرهم « كاسيان » بخمسة آلاف راهب ، وكانت أديرته تضم غير الأقباط رهبانا من اليونان والرومان والأحباش والسريان . وكان كل هذا العدد الضخم تحت ادارة حكيمة حازمة ، وضع لهم باخوميوس قوانين في العبادة والعمل اليدوي والملبس والمسكن والمأكل وما يلزمهم في معيشتهم الديرية . واشترط في طالب الرهبنة ان لم يكن يعرف القراءة والكتابة ان يتعلمهما قبل رهبنته ليتمكن من قراءة الكتاب المقدس وكتب الآباء ، ووضع للرهبان نظاما في الدراسة . وهكذا لم تساعد أديرته على محو الأمية فحسب ، بل كانت معاهد للتثقيف . وقد انتشرت قوانين باخوميوس في أرجاء العالم . ويعتبر هذا القديس مؤسس الحياة الديرية في الرهبنة المسيحية كما يعتبر أنطونيوس مؤسس نظام التوحد فيها .

٤ - نظام الأنبا شنوده : (٣٣٣ — ٤٥١ م) بالديرين الأبيض والأحمر بالقرب من سوهاج وأخميم . أدخل الأنبا شنودة تعديلات على نظام الشركة الباخومي تصطبغ بالشدة والانظام .

نشأ الأنبا شنودة في الصعيد من أسرة غنية . وكان في صغره يخرج مع رعاة غنم أبيه فيعطيهم طعامه ويقضي اليوم كله صائما ، كما كان ينفرد أثناء رجوعه عن الرعاة ويقف للصلاة . ولما تنبه والده الى ذلك دفع به الى خاله « بيجول » الذي كان رئيسا للدير الأبيض من سنة ٣٥٠ م فرسمه راهبا . وظل شنودة الصبي يرتفع في درجات العبادة ، ويكثر من الدراسة والتأمل ، ويتدرب على الوحدة والطاعة والتواضع حتى أحبه الرهبان جميعا . وبعد وفاة خاله انتخبوه رئيسا للدير سنة ٣٨٣ م ودامت رئاسته للدير ٦٦ عاما حتى توفي سنة ٤٥١ م ، وقد قارب المائة والعشرين من العمر .

وقد كثر عدد رهبانه حتى صاروا حوالى خمسة آلاف ، وكان أيضا أبا لألف وثمانمائة راهبة . وقد كتب لهؤلاء الراهبات عددا وفيرا من الرسائل تبين منها تفكيره السليم وتعمقه في الروحيات . واهتم بتثقيف رهبانه حتى صاروا من أكثر الرهبان معرفة . ووضع لهم قوانين وأنظمة أكثر شدة من قوانين القديس باخوميوس .

ولكنه كان في زعامته الشعبية يختلف عن باخوميوس في أمرين : فبينما ضمت أديرة باخوميوس أجناسا كثيرة اقتصر هو في

أديرته على الأقباط . وبذلك أصبحت أديرته معاقل مصرية صميمة . وبينما كانت كنائس باخوميوس خاصة بالرهبان فقط ، فتح هو كنيسة الدير الأبيض للشعب يأتون اليه في الأحـاد والأعياد فيعلمهم ويرشدهم . وكان الأنبا شنودة محبا لشعبه يقاسمهم آلامهم كفلاحين يرزحون تحت نير مضطهديهم من الرومان ، فهاجم ظلم كبار الحكام والملاك ودعا للرفق بالفقراء .

وقد كان نشاطه محصورا في محـاربة الوثنية واقتلاع جذور خرافاتها من الكنيسة مثل السحر والتعاويذ والدجل الطبي وبدع الموالد . كما سافر مع القديس كيرلس الى افسوس واشـــترك معه في محاربة هرطقة نسطور .

ويعتبر الأنبا شنودة أعظم كتاب الأدب القبطي . فقد كانت بلاغته الكتابية وفصاحته الخطابية من أظهر مواهبه . وكانت كـتاباته عملية صالحة للاستعمال المباشر . وكان كثير الانتاج مالكا لناصية اللغة . وقد خلف لنا في جهاده الديني والقومي الطويل تراثا أدبيا ضخما باللهجة الصعيدية التي لم يكن يكتب أو يخطب الا بها .

وما أن وصلت الرهبنة الى هذه الأطوار والأنواع المتعددة حتى كانت الصـحارى المصرية وبقاع كثيرة من الوجه القبلي عـلى الأخص ، قد امتلأت بالأديرة وقلالى النساك . وامتلأت بالرهبان والمتوحدين حتى أنه قيل ان المسافر من الاسكندرية الى أسوان في القرن الخامس والسادس لم يكن في حاجة الى أن يحمل زادا للطريق ، اذ يستطيع أن يتزود باحتياجات الرحلة من الأديرة والقلالى المنتشرة بكثرة على أطراف وادى النيـــل وصحراواته الشرقية والغربية .

ومن أهم المنـــاطق التي تركزت فيها جماعات الرهبان :

١ — منطقة بسبير في الصعيد الأوسط .

٢ — منطقة جبل نتريا أو وادى النطرون بالصحراء الغربية وكانت تنقسم الى ثلاثة مراكز رهبانية :

(أ) نتريا .

(ب) الاسقيط .

(جـ) القلالى .

٣ — منطقة مريوط على الســاحل الشمالى غرب الاسكندرية .

٤ — منطقة البهنسا وهي بالقـرب من بنى سويف الحالية وكانت تعرف في العصر الرومانى باسم اوكسيرنخوس .

٥ — منطقة انتينوى بالقرب من ملوى .

٦ — منطقة لـكوس بالقرب من أسيوط .

٧ — منطقـة سوهـــاج واخميـــم (بانوبوليس) حيث أديرة الأنبا شنودة .

٨ — منطقة طيبة وهي منطقة واسعة في مديرية قنا حيث انتشرت أديرة باخوميوس .

ولم يبق من هذا العـــدد الضخم من الأديرة ، في وقتنا الحاضر سوى ثمانية أديرة

قبطية مأهولة بالرهبان ، والباقي منها أطلال متروكة يؤمها الشعب في الأعيـــاد لاقامة القداسات ، منهـا أربعة في وادي النطرون وهي : أديرة البراموس ــ السريان ــ الأنبا بيشوي ــ وأبو مقار ، وفي جنوب صحراء الفيوم : دير الأنبا صموئيل (القلمون) ، وفي جنـوبه بالقـرب من ديروط : الدير المحرّق ، أما في الصحراء الشرقية فيوجد دير الأنبـا أنطونيوس ودير الأنبـا بولا . ولليـونان الأرثوذكس ديـر سانت كاترين بالقرب من الطور في شبه جزيرة سيناء .

وبمدينة القاهرة توجـــد خمسة أديرة للراهبات في مصر القديمة ، وحارة زويلة ، وحارة الروم .

آثار الرهبنة :

١ ــ التربوية

عندما أدت الاضطهادات والاضطرابات المتوالية الى ضعف مدرســة الاسكندرية اللاهوتية في نهاية القـــرن السادس انتقلت القـوى التربوية في القطـــر المصري من الاسكندرية الى الصحراء . فصارت الأديرة مركزا تربويا عظيما لعلوم الكنيـسة .

وقد اعتبرت الأديرة مخازن كنوز العلوم والمعرفة سواء منها الدينية أو المدنية . وهي التي قادت الحركة التربوية في مصر خـلال القرون الوســطى . فبجانب البحـــوث والدراسات التي تركزت داخل الأديرة ، فقد عهد أيضا الى عدد من الرهبان في انشـاء مدارس أولية (كتاتيب) في قرى وادي النيل لتعليم أبناء الاقباط .

ان الجو الشاعري الذي يحيط بالأديرة ، والهدوء الشامل الذي يعيش فيه الرهبان هيأ لهم فرص التأليف والكتابة وبخاصـــة في العلوم اللاهوتية ، وتفسير الكتب المقدســة الى جانب الخبرات النسكية والروحية التي تعتبر من أعمق الدراسات النفسية .

وكان بكل دير مدرسة لنسخ المخطوطات بجانب جماعات النساخ التي عملت عـــلى نشر التراث الثقافي والديني في وقت لم تكن الطباعة قد عرفت فيه .

ويجمل « عرفان » آثار الرهبنة العلمية في عبارة واحـدة قائلا « ان الفن والشعر والعلوم قد وجدت في الرهبنـة ، فمبادىء حضارتنا تعتبر فصلا من تاريخ الرهبنة » .

٢ ــ الاجتماعية :

كان للرهبنة آثار اجتماعية عميقة الغور في نفوس الناس . تأثر بها المجتمع القبطي ، قـادته موجة من الزهد والتقشف وأخـذ يقتدي بالرهبان وينقل عنهم كثيرا من عاداتهم وأحـوالهم . ولما اشتهرت فضــائل الرهبان وذاع صيتها ؛ اختار الشعب قادته الروحيين من الرهبان ، وكانوا في العصـــور الأولى يحمـــلونهم قسرا الى المدن لتولي مناصب الأسقفية والبطريركية . ومن ذلك الحين كثرت الانطباعات الرهبانية في حياة المجتمع القبطي .

ان النماذج الحية للفضـلة والتقـوى

وانكار الذات التي تألقت في حياة أولئك الرهبان المصريين كانت أعظم دليل على أن الفضيلة ، ووصايا الدين ، أمور واقعية يمكن الوصول اليها ، وليست مجرد مثل عليا ، أو مبادئ نظرية يتخيلها الدين ، الأمر الذي ينصر قوى الخير في المجتمع على قوى الشر ، فلا يبتلع اليأس الكثيرين في موجات الانحلال والمادية والالحاد . بل تشجع تلك النماذج الحية على استمرار الجهاد في سبيل الفضيلة تشبها بهؤلاء العباد . ولعل هـذا مما حفظ للمجتمع المصري طابعه الديني على مر العصور .

ثمة ظاهرة اجتماعية أخرى . فالمرضى والرازحون تحت آلام الحياة وأعبائها يلتمسون التعزية والمشاركة والطمأنينة من أناس عمرت قلوبهم بالايمان . وعمر السلام نفوسهم . لذلك كان الشعب يلجأ الى الرهبان يلتمس منهم تخفيف آلامه بصلواتهم وتعزياتهم وارشاداتهم ونفوذهم التي كان لها أكبر الأثر في تجديد الرجاء لمن يقصدونهم . كما كانت الأديرة أشبه بميناء السلام في أوقات الأوبئة والحروب والمجاعات ، اذ يجد اللاجئون اليها الأمن والدواء والطعام

وعن ذلك قال « هرناك » المؤرخ الالماني :

« ان النساك المصريين كانوا يعتبرون في جميع العصور — حتى في نظر الغرب — آباء ، ونماذج الحياة المسيحية الحقيقية » .

٣ ــ انتشارها في انحاء العالم المسيحي

نشأت الرهبنة في مصر فتاح عبير الآباء المصريين في أرجاء العالم ، حتى شمله عبيرهم ، واجتذب الى مصر جميع الذين طرق قلوبهم صوت الله ، فجاءوا الى هذا الوادي ليرتووا من نبع تعاليمهم الصافية وليقتدوا بسيرتهم العطرة .

فوفدت الى الصحاري المصرية جماعات من الفلسطينيين والسريان والحبش والبونان والأرمن واللاتين ، وسكان شمال افريقية وغيرهم . وكان لكل أسرة معلم من جنسها يقوى على التفاهم مع أبناء جنسه وارشادهم ، وهذا النظام هو الذي ورثته الجامعات في العصور الوسطى حيث انتشر في رحابها نظام الأمم ، وأيضا نظام الأروقة في الجامعة الأزهرية .

وتعتبر تعاليم الآباء المصريين من أكبر المفاخر التي جدت بها القرائح المصرية على العالم المتمدين .

ا ــ في الشرق :

فمن فلسطين جاء القديس « ايلاري » الكبير (هيلاريون) فدرس الفلسفة في مدرسة الاسكندرية ثم تتلمذ للقديس أنطونيوس . فلما رجع الى فلسطين أسس الأديرة على النمط المصري مستعينا ببعض الرهبان المصريين . وقد ابتدأ في براري غزة ومنها انتشرت الرهبنة الى المنطقة المحيطة بالأردن .

وفي أواخر القرن الرابع جاء «بلاديوس» وزار مصر للمرة الأولى من سنة ٣٨٨ الى سنة ٣٩٩ حيث عاش مع رهبان برية شيهيت لدراسة الحياة النسكية ثم عاد الى بيت لحم ثم الى أورشليم ورسم أسقفا لهيلينوبوليس سنة ٤٠٠ م .

ولما رجع من زيارته الثانية لمصر ، كتب حوالي سنة ٤٢٠ م تاريخا عما رآه وسمعه من رهبان الأسقيط اشتهر باسم « بستان الرهبان » وكان هذا الكتاب سببا لانتشار الرهبنة في جهات كثيرة من العالم .

ومن الذين أسسوا أديرة الموصل وطور عبدين ونصيبين رهبان مصريون بلغ عددهم حوالي السبعين ذهبوا من مصر مع راهب سرياني اسمه مار آيوث (القديس أوجين) كان قد عاش في الأديرة القبطية بالصعيد .

واتشرت المسيحية في بقاع كثيرة من الشرق على أيدي المبشرين المصريين : غذتها مصر بمعلمين من مدرسـة الاسكندرية اللاهوتية ثم والت الكنيسة القبطة العناية بها على أيدي الرهبان المصريين ، فكانوا هم الذين تولوا تنظيم الكنائس والأديـرة وتوسعوا في نشر المسيحية .

فقد نشروا المسيحية في ليبيا والخمس مدن الغربية (بنتابوليس) . ويذكر يوسابيوس المؤرخ اسم باسيليوس احد اساقفتها في أيام ديونيسيوس الاسكندري . ويستنتج « هرناك » من ذلك ومن وجود عدد من الابرشيات فيها أن الكنيسة هناك كانت في حالة منظمة في منتصف القرن الثالث .

ويذكر أوسابيوس القيصري تبشير بنتينوس في الهنـد . ويظهر أن العلاقة بين الكنيسة المصرية والهند قد استمرت طويلا ، اذ يذكر كتاب تاريخ البطاركة مجيء كاهن هندي الى مصر في أيام البطريرك سمعان الأول في أواخر القـرن السابع يطلب منه سيامة أسقف للهند .

أما عن بلاد العرب فان هرناك يستند الى أوسابيوس في تأكيد زيارة أوريجانس للبلاد العربية وقيادته لمجمع في بصرى .

أما عن الحبشة . فقـد دخلت اليهـا المسيحية عـلى يد فرومنتيوس في منتصف القـرن الرابع الميلادي . وهو مصري كان يتاجر في صور ويجوب البحار شمالا وجنوبا . والاسم فرومنتيوس لفظ قبطي معناه رجل الله (افرومي — انت — تيوس) .

وقد اعتنق المسيحية أولا ملك الحبشة وتبعه في ذلك رجال البلاط ثم أخـذت المسيحية تنتشر بين أفـراد الشعب . وكان دخول المسيحية الحبشة على هذه الصورة مخالفا لما عهدناه في البلاد الأخرى حيث كانت تجد طريقها الى الشعب أولا ثم يعتنقها رجال البلاط فالملك .

ولما عاد فرومنتيوس الى مصر ، طلب من الأنبا اثناسيوس بطريرك الاسـكندرية أن

يرسل اسقفا لرعاية المسيحيين في أثيوبيا ، وبعد أن تشاور اثناسيوس مع مجمع الأساقفة الأقباط قرروا سيامة فرومنتيوس نفسه وأرسلوه الى اكسوم عاصمة الحبشة في ذلك الوقت .

وربما كان لقرارات مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ التي رفضها القائلون بالطبيعة الواحدة أثر في هجرة كثير من الرهبان الى مصر حيث وجدوا في أديرتها المزدهرة ملجأ لهم ، ومنهم من أخذ في الانتقال الى النوبة ومنها الى الحبشة ، تدفعهم غيرتهم على نشر الدين المسيحي بحسب مذهبهم ، بل انهم لم يتطرق الجدل الديني اليهم ، وقد حدا بهم خوفهم من المذهب النسطوري الذي لم يكن له أتباع في مصر أو الحبشة ، الى ترجمة بعض الكتب في معارضة النسطورية مثل كتاب كيرلس استعدادا للطوارىء

وكان بين الرهبان الذين وفدوا الى الحبشة واستقروا في أماكن متعددة من مقاطعة التيجرى تسعة عرفوا « بالقديسين التسعة » هم رسل نشر المسيحية في الحبشة الذين أسسوا الأديرة ونشروا العقيدة .

وقد أخذت الأديرة في الحبشة تزدهر في القرنين السادس والسابع ، وأخذ الرهبان يتفرغون الى دراسة الرهبنة وتفهمها معتمدين في ذلك على ما يترجمونه من الكتب القبطية أو اليونانية الشائعة عند الرهبان الأقباط في مصر .

ومنذ القرن الرابع والكنيسة المصرية ترسل مطرانا قبطيا كرئيس للكنيسة الأثيوبية ، وكان له فيها مكانة ممتازة .

في السودان :

ذكر المؤرخ يوحنا الأفسسي انه في القرن السادس كان البطريرك القبطي ثيودوسيوس منفيا في القسطنطينية ، وفي هذه الأثناء أرسل يوليانوس الى النوبة لتبشيرها بالمسيحية وذلك بمساعدة الامبراطورة ثيودورة التي كانت تؤمن بمذهب الكنيسة المصرية على عكس زوجها الامبراطور يوستنيانوس الذي كان شديد الاضطهاد لهذا المذهب . فوصل يوليانوس الى النوبة حوالي ٥٤٣ م وبشرها بالمسيحية فرحب به الملك والعظماء فعمدهم وعلمهم الكثير عن المسيحية وحذرهم من أخطاء مذهب حزب الامبراطور ، فلما وصلت بعثة الامبراطور بعد ذلك لم يقبل ملك النوبة رسالتها ورفض بقاءها في النوبة ، فعادت فاشلة .

وتوالت بعد ذلك البعثات التبشيرية قادمة من الكنيسة القبطية . وكان أشهر المبشرين الأقباط لونجينوس الذي خاطر بحياته ، وسار في رحلة طويلة مع الجبال المحاذية للبحر الأحمر حتى وصل الى مملكة علوة (عند ملتقى أنهار العطبرة والنيل الأزرق والنيل الأبيض وعاصمتها سوبا قرب الخرطوم الحالية) فبشرها بالمسيحية فآمنت بمذهب الكنيسة القبطية ، وقد حاول

الامبراطور أن يجرهم الى مذهبه بالقوة فلم يتبعوه .

وقد ظلت الكنيسة المصرية ترسل أساقفة وكهنة الى النوبة وعلوة وكذلك الى مملكة أخرى تتوسطهما اسمها ماكرة اتحدت فى القرن السابع مع النوبة وصارت مملكة واحدة عاصمتها دنقلة القديمة .

واستمرت المسيحية فى النوبة تابعة لكنيسة مصر حتى نهاية حكم المماليك .

ب - فى الغرب :

واتسع أثر الآباء المصريين بفضل الكتاب الذى وضعه اثناسيوس الرسولى بطريرك الاسكندرية فى القرن الرابع عن سيرة الأنبا أنطونيوس . وكانت نسخة من هذه السيرة سببا فى تجديد حياة القديس أوغسطينوس (أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس) أسقف مدينة هيبو بشمال أفريقيا ، وهو يعد من أكبر فلاسفة الكنيسة الغربية . ومن ناحية أخرى حمل اثناسيوس التعاليم الباخومية الى أوروبا الغربية فى رحلتيه .

وجاء القديس باسيليوس الكبير (القرن الرابع) — وهو يونانى — الى مصر وعاش عدة سنين فى أديرة باخوميوس بالصعيد ونقل نظامها واسترشد بقوانينها فى الأديرة التى أسسها بجبل آثوس فى بلاد اليونان

وفى سنة ٤٠٤ م قام القديس جيروم (هيرونيموس الايطالى) بترجمة قوانين باخوميوس الى اللاتينية فبادر الرهبان الايطاليون الى اتخاذها دستورا لهم .

وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب كاسيانوس (الراهب الفرنسى) تراجم الآباء المصريين وتعاليمهم والقوانين التى وضعوها وحاول جهده أن يطبق هذه القوانين الرهبانية المصرية على الديرين اللذين أنشأهما فى جنوب فرنسا (بالقرب من مرسيليا) . ثم ان نظام الديرية البندكتية (نسبة الى القديس بندكت المبارك) مقتبس من نظام وقوانين باخوميوس وعن طريق البندكتية انتشرت النظم الباخومية فى أوروبا انتشارا واسعا .

كما أثرت تعاليم باخوميوس فى حركة الاصلاح الكلونى ، تلك الحركة الكبرى التى كان لها أثرها الدائم فى توجيه المدنية فى العصور الوسطى . كما تلتها الجماعات الرهبانية Templers – Templiers فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وتبعتها فى عهد لاحق جماعات الفرنسيسكان (نسبة القديس فرانسيس الأسيسى) والدومينيكان . فليس من العبث القول بأن تلك السلسلة من أولها لآخرها يمكن اقتفاء أصولها ومنابعها فى وحى باخوميوس المصرى . وبالتالى فان النهضة الأدبية الفكرية الأولى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، تلك النهضة التى تقترن بقيام العلوم الانسانية ونشأة الجامعات فى العصور الوسطى انما هى أثر من آثار تلك الهيئات الديرية التى يرجع تكوينها فى الأصل الى عبقرية باخوميوس .

وقد وصل الرهبان والمبشرون الأقباط الى سواحل فرنسا الجنوبية ، والى بلجيكا حيث يصف « هرناك » كيف عمل الأنبا اثناسيوس وهو فى منفاه فى بلجيكا على نشر المسيحية وتأسيس كنيسة ناهضة هناك . وفى سويسرا فى مدينة زيورخ اشتهر شهداء اقباط ضمن الذين بشروا الطيبة كما اشتهر فى سويسرا القديس موريس (مورتس) وأخته وارينا ، وهى التى وجهت اهتمام السويسريات الى العناية بنظافتهن ، وما زالت تصور هناك حاملة مشطا .

وفى المانيا استشهد سنة ٢٦٨ م حوالى ثلاثة آلاف من أبناء مصر العليا من فرقة طيبة ، ولا تزال قبورهم معروفة فى مدينة « ترير Trier » .

وفى جزيرة قبرص أسس الرهبان الأقباط على الجبال الشمالية بالقرب من قرية بلاثان ديرا أطلقوا عليه اسم دير القديس مقاريوس وكان للاقباط هناك أسقف يمتد اختصاصه على قبرص ورودس ، كما ذكر « برمستر » فى بحث نشره بمجلة جمعية الآثار القبطية .

وذكر بتلر فى مقدمه كتابه « عن الكنائس القبطية القديمة » ان المبشرين الأقباط وصلوا الى الجزر البريطانية وأنه يوجد الى يومنا هذا ببلدة أوليلة دورت بايرلندة قبور سبعة من الرهبان المصريين لا تزال تذكر أسماؤهم فى الصلاة بكنيسة تلك الجهة .

فهـــرس

أسماء الأباطرة وحكام مصر وبطاركة الإسكندرية

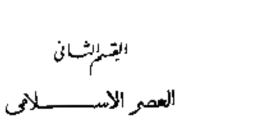
من عصر ديوقلديانوس الى دخول العرب

الأباطـرة	الحـكام	بطاركة الاسكندرية
الاباطرة الرومان :		
ديوقلديانوس (دقلديانوس) ٢٨٤ – ٣٠٥	ماركوس اوريليوس بعد أكتوبر سنة ٢٨٤ ديوجينيس قبل مارس سنة ٢٨٦ فلافيوس فاليريوس أكتوبر سنة ٢٨٧ ... ١٥ سبتمبر سنة ٢٨٩ ايماليوس روستكيانوس (نائب الحاكم) في سنة ٢٩٨ ... ١٥ أغسطس سنة ٢٩٩ كلوديوس كولكيانوس ٢٨ ابريل سنة ٣٠٢ م و ٢٩ مايو سنة ٣٠٦	ثيوناس (تاونا) ٢٨٢ – ٣٠٠ بطرس الأول (خاتم الشهداء) ٣٠٠ – ٣١١
جاليريوس (جالاريوس) ٣٠٥ – ٣١١ مكسيميان (مكسيميانوس) ٣٠٥ – ٣١٣ ليقينيوس (ليسينيوس) ٣١٣ – ٣٢٣	... ١٠ أغسطس سنة ٣٠٤	ارشيلاس (ارخلاوس) ٣١٠ – ٣١١ الكسندروس الأول ٣١٢ – ٣٢٨
اباطرة العصر البيزنطي :		
<u>أسرة قسطنطين</u>		
قسطنطين الأول ٣٢٣ – ٣٣٧	... ٨ يونيه سنة ٣٢٨ ... ٦ ابريل سنة ٣٢٩ ... ١٩ ابريل سنة ٣٣٠ فلورنتيوس ١٦ ابريل سنة ٣٣١ هيجينوس ٤ ابريل سنة ٣٣٢ باتريوس ١٥ ابريل سنة ٣٣٣ فلافيوس فلاسيريوس ٧ ابريل سنة ٣٣٤ و ٣ ابريل سنة ٣٣٧	اثناسيوس الأول (الرسولي) ٣٢٦ – ٣٧٣
قسطنطيوس الثاني ٣٣٧ – ٣٦١	فلافيوس انطونيوس ثيودوروس سنة ٣٣٧ و ١٨ مارس سنة ٣٣٨ فلافيوس فيلاجريوس سنة ٣٣٨ و ٢٠ مارس سنة ٣٤٠ لونجينوس ١٩ ابريل سنة ٣٤١ و ١٧ مارس سنة ٣٤٣ بلاديوس ١٥ ابريل سنة ٣٤٤	

الأباطرة	الحكام	بطاركة الاسكندرية
	نسطوريوس ٢ أبريل سنة ٣٤٥ و ١٩ أبريل سنة ٣٥٢	
	سباستيانوس ١١ أبريل سنة ٣٥٣ و ٢٧ مارس سنة ٣٥٤	
	ماكسيموس ١٩ أبريل سنة ٣٥٥ و ٦ أبريل سنة ٣٥٦	
	كاتافرونيوس ١٠ يونية سنة ٣٥٦ و ٢٣ مارس سنة ٣٥٧	
	هرموجينيس بارناسيوس سنة ٣٥٧ و ١ أبريل سنة ٣٥٩	
	ايتاليكيانوس سنة ٣٥٩	
	فوستينوس سنة ٣٥٩ و ٨ أبريل سنة ٣٦١	
	جيرونتيوس سنة ٣٦١ و ٢١ مارس ٣٦٢	
يوليانوس (المرتد) ٣٦١ - ٣٦٣	اكديكيوس اوليمبوس يوليه سنة ٣٦٢ و ١٥ سبتمبر سنة ٣٦٣	
يوفيانوس (جوفيانوس) ٣٦٣ - ٣٦٤		
والنس (فالنس) ٣٦٤ - ٣٧٨	هيريوس ٤ أبريل سنة ٣٦٤	
	ماكسيموس سنة ٣٦٤	
	فلافيانوس سنة ٣٦٤ و ٢٠ يولية ٣٦٥	
	بروكوليانوس سنة ٣١ يولية سنة ٣٦٦ الى أبريل سنة ٣٦٧	
	فلافيوس يوتولميوس ١٣ سبتمبر سنة ٣٦٧ و ٢٩ مارس سنة ٣٧٠	
	اوليمبيوس بالاديوس سنة ٣٧٠ و ١٢ أبريل سنة ٣٧١	
	ايليوس بالاديوس سنة ٣٧١ وسنة ٣٧٤	بطرس الثاني ٣٧٣ - ٣٨٠
اسرة ثيودوسيوس (الثيودوسيون)		
ثيودوسيوس الأول (الأكبر) ٣٧٩ - ٣٩٥	هادريانوس سنة ٣٧٩	تيموثاوس الأول ٣٨٠ - ٣٨٥
	يوليوس يوليانوس ١٧ مارس سنة ٣٨٠	
	بالاديوس ١٤ مايو سنة ٣٨٢	
	هيباتيوس ٢٩ أبريل سنة ٣٨٣ و ٨ فبراير سنة ٣٨٣	
	اوبتاتوس سنة ٣٨٤	
	فلورنتيوس ٣ فبراير سنة ٣٨٤	ثيوفيلوس (تاوفيلس) ٣٨٥ - ٤١٢
	بولينوس ٢٠ ديسمبر سنة ٣٨٥ و ١٦ يونية سنة ٣٨٦	
	يوسيبيوس سنة ٣٨٦	
	بولسوس ٣٠ نوفمبر سنة ٣٨٦ وسنة ٣٨٧	
	فلافيوس ايروثريوس ٣٠ أبريل سنة ٣٨٨	
	الكسندروس سنة ٣٨٩ و ١٨ فبراير ٣٩٠	
	بوتاميوس ٣٩٠ و ١٦ يونية سنة ٣٩١	
	ايفاجريوس ٥ أبريل سنة ٣٩١ و ١٢ أبريل سنة ٣٩٢	
	بوتاميوس ٩ مارس سنة ٣٩٢ و ٢٠ يوليه سنة ٣٩٢	
	ارخيلاوس سنة ٣٩٣	

الأباطرة	المجامع	بطاركة الإسكندرية أقباط	بطاركة الإسكندرية ملكانيون
أركاديوس (أرقاديوس) ٣٩٥ – ٤٠٨	[illegible] ٥ فبراير سنة ٣٩٦ [illegible] من ٢٠ – ٣٠ مارس سنة ٣٩٦ أرخيلاوس ١٧ يونية ٣٩٧ و ٢٦ سبتمبر سنة ٣٩٧ [illegible] ٤٠٣ – ٤٠٤ [illegible] ٤٠٤ – ٤٠٥		
ثيودوسيوس الثاني ٤٠٨ – ٤٥٠	أفسس سنة ٤٣١	كيرلس الأول (الكبير) ٤١١ – ٤٤١	
	[illegible] ٧ ديسمبر سنة ٤٤٩ [illegible] ٢٩ مايو سنة ٤٣٥ [illegible] ١٥ يونية سنة ٤١٥		
مرقيانوس ٤٥٠ – ٤٥٧	خلقيدونية سنة ٤٥١ [illegible] ٤٥٣	ديسقوروس الأول ٤٤٤ – ٤٥٤	بروتيريوس ٤٥١ – ٤٥٧
أسرة ليو الأول			
ليو الأول ٤٥٧ – ٤٧٤	القسطنطينية ١٥ أغسطس سنة ٤٥٩ والثاني سنة ٤٧٥	تيموثاوس الثاني ٤٥٧ – ٤٦٠ و ٤٧٥ – ٤٧٧	تيموثاوس ٤٦٠ – ٤٧٥ و ٤٧٧ – ٤٨٢
ليو الثاني ٤٧٤			
زينون (الإيصوري) ٤٧٤ – ٤٩١	[illegible] سنة ٤٧٦ [illegible] سنة ٤٧٧	بطرس الثالث ٤٧٧ – ٤٨٩	
	[illegible] حوالي ٤٧٧ – ٤٧٨ [illegible] سنة ٤٧٩ و ٤٨٢ [illegible] سنة ٤٨٢ [illegible] سنة ٤٨٢ [illegible] سنة ٤٨٦		يوحنا ٤٨٢
		أثناسيوس الثاني ٤٩٠ – ٤٩٦	
أنسطاسيوس الأول ٤٩١ – ٥١٨	[illegible] سنة ٥١١ [illegible] سنة ٥١٦	يوحنا الأول ٤٩٦ – ٥٠٥ يوحنا الثاني ٥٠٥ – ٥١٦	
أسرة يوستنيانوس	[illegible] حوالي سنة ٥٢٥	ديسقوروس الثاني ٥١٦ – ٥١٧	
يوستينوس الأول (يوستنيانوس) ٥١٨ – ٥٢٧			
يوستنيانوس الأول (يوستنيانوس) ٥٢٧ – ٥٦٥		تيموثاوس الثالث ٥١٧ – ٥٣٥	بولس التنيسي ٥٣٧ – ٥٣٩

الإمبراطور	الحكام	بطاركة الإسكندرية: أقباط	بطاركة الإسكندرية: ملكانيون
	روفون سنة ٥٣٨ ليبريوس حوالى سنة ٥٣٩ – ٥٤٢	ثيودوسيوس الأول (ثاودوسيوس) ٥٣٥ – ٥٦٦	زويل ٥٣٩ – ٥٥١
	يوحنا لاكساريون سنة ٥٤٣ ميليستوس		ابوليناريوس ٥٥١ – ٥٧٠
يوستينوس الثاني ٥٦٥ – ٥٧٨	جرمانوس يوستينوس سنة ٥٦٦	بطرس الرابع ٥٦٧ – ٥٧٦	يوحنا الثاني ٥٧٠ – ٥٨١
طيباريوس (طيباريوس) ٥٧٨ – ٥٨٢		دميانوس ٥٧٨ – ٦٠٥	
موريقيوس (موريكيوس) ٥٨٢ – ٦٠٢	يوحنا بولس يوحنا (المرة الثانية) قسطنطينوس ديلي سنة ٦٠٠		اولوغيوس ٥٨١ – ٦٠٨
فوكاس (فوقا) ٦٠٢ – ٦١٠	بطرس بوسترانوس سنة ٦٠٢ – ٦٠٣	انسطاسيوس ٦٠٤ – ٦١٦	
	يوحنا سنة ٦٠٩		ثيودوروس ٦٠٧ – ٦٠٩
أسرة هرقل هرقل الأول ٦١٠ – ٦٤١	نيقيتاس سنة ٦١٠	اندرونيكوس (اندرونيقوس) ٦١٦ – ٦٢٢	يوحنا الثالث ٦٠٩ – ٦١٧
	قورش سنة ٦٣١ و سنة ٦٤٠	بنيامين الأول ٦٢٣ – ٦٦٢	جيورجيوس ٦٢١ – ٦٣١
	ثيودوروس سنة ٦٤٦		قورش سنة ٦٣١
هرقل الثاني ٦٤١ هرقليون ٦٤١			


القسم الثاني
العصر الإسلامي



تاريخ مصـــــر

من الفتح العربي إلى أن دخلها الفاطميون

بقلم الدكتور حسين مؤنس

الفتح العـــربي لمصر

تبدو قصة الفتح العربي لمصر لمن يقرؤها عند مؤرخي الاسلام — من ابن عبد الحكم الى ابن اياس — وكأنها نزهة عســـكرية لم يصـــادف الجنـــد العـــربي خـــلالها من الصعوبات الا شيئا قليلا جدا لا يقاس بما اعترض جيوش الاســـلام فى فتح الشام وفلسطين ، فضلا عن العراق والمغرب . لأن الرواة الذين اعتمد عليهم المؤرخون جميعـــا بسقوا الاخبار وأوجزوها على نحو أصـــبح من العسير معه تتبع الخطوات التي تم بهـــا هـــذا الفتـــح العظيم الذي يعتبر من أهم الانتصارات العســكرية والسياسية التي ظفر بها العرب ابان عصر الفتوح الاسلامية .

وقد تعودنا أن نرد ما لدينا من أخبـــار هذا الفتح الى أصحاب المدونات التي وصلت الينا ، وهي كتب جليلة القدر كتبها شيوخ من أهل الثقة أهمهم الواقدي وعبد الرحمن ابن عبـــد الحـــكم والبـــلاذري والكندي والطبري ، مع أن الأخبار التي يوردونها ليست لهم ، وانما هم رواتها ، وقد حرصوا بعناية المحدث الأمين على ذكر اسناده ، على ذكر من أخذوا عنهم الأخبار من الرجال . ولو درسنا مجموعة هؤلاء الرجال المذكورين في هذه الكتب ، لتبينا أن الأخبـــار كلها ، أو الجانب الأكبر منها ، قد صـــــدرت عن مدرسة من القصاص أو المهتمين بالتـــاريخ نشـــأت في مصر وعنيت بهـــــذا الفن ، و « صنعت » قصة الفتح التي نجدها بين أيدينا متفرقة في ذلك الحشد من كتب تاريخ مصر الذي يبدأ بابن عبد الحكم ويســـتمر حتى ابن اياس .

وقد آن الأوان لأن توضع هذه المدرسة كلها موضع البحث ، حتى تتبين القيمـــــة الحقيقية لما لدينا من الأخبار . ولا يتسع المجال هنا لعرض هذه الدراسة ، وانما يكفي أن نذكر أن ما لدينا من الأخبار لا يخرج في مصادره عن عدد قليل من الرجال معظمهم من تلاميذ الليث بن سعد (٩٤ — ١٧٥ / ٧١٢ — ٧٩١) ، والظاهر أننا نستطيع القـــول بأنهم المسئولون عن أكبر

جانب مما لدينا من المعلومات عن فتح مصر وأخبارها حتى منتصف القرن الهجري الثالث على الأقل ، وهم عبد الله بن عبد الحكم (والد عبد الرحمن) (١٥٥ — ٢١٤/٧٧١ — ٨٢٩) وعبد الله بن وهب (توفي ١٩٧/ ٨١٢) وعبد الملك بن مسلمة وعثمان بن صالح (١٤٤ — ٢١٩ / ٧٦١ — ٨٣٤) ويحيى بن بكير (١٥٤ — ٢٣١ / ٧٧٠ — ٨٤٥) وسعيد بن عفير (١٤٦ — ٢٢٦ / ٧٦٣ — ٨٤٠) .

وأهمهم جميعا عثمان بن صالح ، فإن كتاب « فتوح مصر والمغرب والأندلس » يدور على روايته تقريبا ، وعبد الرحمن بن عبد الحكم يروي عنه فقرة بعد فقرة ، فإذا استطرد وروى عن غيره عاد اليه يقول : « ثم رجع الى حديث عثمان بن صالح وغيره » . والنسخ التي وصلتنا من « فتوح مصر والمغرب والأندلس » كلها برواية علي بن قديد تلميذ ابن عبد الحكم ، وابن قديد هذا هو أستاذ أبي عمر محمد بن يوسف الكندي، وعنه أخذ هذا الأخير الحديث والأخبار ، أي أن عبد الحكم والكندي يلتقيان عند هذا الرجل ، فهو تلميذ الأول وراويته وأستاذ الثاني ومعلمه . وهذا يفسر لنا التشابه الشديد بين مادتي كتابيهما فيما يتصل بالفتح ، وينتهي بنا الى القول بأننا في الواقع أمام رواية واحدة تتفق أصولها عند الاثنين ، ثم تختلف التفاصيل بعض الشيء هنا وهناك .

ولا فائدة والحالة هذه من الاجتهاد في المقارنة ومقابلة الروايات بعضها على بعض ، فإن الخطوط العريضة ، وهي التي تهمنا هنا ، واحدة عند الاثنين . بل ان جل أخبار الفتح الواردة عند البلاذري منسوبة الى محمد بن سعد كاتب الواقدي ، وهذا أخذها عن أستاذه ، وهذا بدوره زار مصر وأخذ عن المدرسة المصرية التي ذكرناها ، وأخباره شديدة الشبه بأخبارها . وكذلك أخبار الطبري ترجع أحيانا الى محمد بن سعد وأحيانا أخرى الى يونس بن عبد الأعلى (توفي ٢٦٤ / ٨٧٧) وهو من شيوخ المدرسة المصرية ، وهو جد أبي سعيد بن يونس المؤرخ المصري المعروف .

والخلاصة أن ما لدينا من أخبار مصر في شتى المراجع يعود في الأصل الى أصل واحد هو مدرسة المؤرخين المصريين ، بل حتى في مكان واحد هو الفسطاط ، وفي فترة محددة هي النصف الأول من القرن الثالث الهجري . ومن رجال هذه المدرسة من هو ضعيف مشكوك في أخباره كعبد الله بن لهيعة (توفي ١٧٤ / ٧٩٠) الذي سخر منه معاصروه وسموه أبا خريطة ، ولا يشفع لأخباره أنه ينسب بعضها الى أبي الأسود النضر بن عبد الجبار (توفي ٢١٩/٨٣٤) ، وفيهم الحجة الثبت كالليث بن سعد ، وجلهم من المصريين مولدا وموطنا ، حتى غير المصريين

منهم كالواقدي أتوا الى مصر ليأخـــذوا الأخبار عن شيوخها [١] .

فاذا كانت هذه هي أصول ما لدينا من أخبار الفتح ، فاننا لا ننتظر ان يكون بين ما لدينا من هذه الأخبار اختلاف يعين على كشف حقيقة او حل معضلة ، فكلهم يقولون شيئا واحدا تقريبا ، ويروون الأخبار على نسق واحد ويتفقون فيما يوردون من أســـماء الاعلام ، ومعظمها مبهم ثم يجد الباحثـــون له تفســـيرا ، كقـــولهم « المقـــوقس » و « الأعيرج » و « أبا ميامين » و « أبا مريم الجـــاثليق » و « أبا مريام الأســـقف » و « الأرطبون » ومن اليهم .

وقد أنفق المؤرخون جهـــدا عظيما في البحث عن حقائق هؤلاء الاعلام دون أن ينتهوا الى نتيجة تطمئن اليها النفس ، وذهبوا يلتمـــون ضوءا فيما كتبه مؤرخو الأقبـــاط مثل ساويرس أسقف الأشمونين المعروف بابن المقفع وسعيد بن بطريق المعـــروف بأوتيخا وأبي صالح الأرمني وجرجس المكين ، فاذا بمعظم أخبارهم منقولة عن الأصول العربية نفسها . ثم التمســـوا المعونة من مؤرخي البيزنطيين أنفسهم مثـــل سيبيوس مؤرخ هرقل وتيوفانيس صـــاحب المدونة المعروفة بالتـــاريخ *Chronographia* فلم يجـــدوا لديهم الا اشـــارات لا تغني ، فعادوا الى الخطوط الرئيـــية الأولى التي وضـــعها أصحاب الروايات الاسلامية الأولى ، ووقف الأمر عند ذلك . ولابد من تحقيق شخصية المقوقس مثلا قبل المضي في هذا البحث ، فهو في رأينا مفتاح موضوع فتح العرب لمصر ، اذا عرفنا من هو وما هو دوره بدت لنـــا قصة الفتح تحت ضوء جديد .

وقد حاول ألفريد بطلر في كتابه المعروف عن الفتح العـــربي لمصر أن يحل بعض هذه

---

(١) بالاضافة الى المراجع العربية المذكورة في المتن ، انظر عن هذه المدرسة المصرية :

مقدمة رفن جســـت RHUVON GUEST لطبعته لكتاب القضاة وكتاب الولاة للكندي ، لايدن ١٩١٢ صفحات ٢٢ ـ ٢٤ .

ومقدمة تشارلز توري CH TORREY لطبعته لفتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم ، نيوهيفن ١٩٢٢ .

R. Dozy, *Recherches* .. 3e ed. I, 26 sqq.

ومادة الواقدي في دائرة المعارف الاسلامية بقلم هوروفتز ، ومادتي ابن عبد الحكم بقلم توري والكندي بقلم بروكلمان في نفس الدائرة . ومقال الدكتور محمود علي مكي :

Egipto y los origines y la historiografia arabigo-espanola

في صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٨ .

وانظر ايضا :

الدكتور محمد كامل حســـين : أدب مصر الاســـلامية ، عصر الولاة ١٩٤٥ ، ص ٦٨ وما يليها .

Albert Gateau. *Conquete de l'Afrique du Nord et de l'Espagne par Ibn Abd al-Hakam* (2e Ed. Alger, 1948) p. 13 sqq.

(٢) انظر : الفريد بطلر ، « فتح العرب لمصر » ، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ص ٤٥١ وما يليها ومناقشة الأستاذ محمـــود عكوش في كتابه « مصر في عهد الاســـلام » ، القاهرة ١٩٤١ . ومادة المقوقس بقلم أدولف جروهمان في دائرة المعارف الاسلامية .

المشكلات ، فلم يخرج الا بنتيجة واحدة قبلها الناس زمانا ، ولكنها الآن موضع شك كبير ، ونعنى بذلك قوله ان المقوقس هو « قيرس » ، ولم يستند فى ذلك القول الا الى عبارات تحتمل أكثر من تفسير وجدها عند ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين وفى نص « حياة الراهب شنودة » الذى نشره أميلينو وقصة « أبا صموئيل القلمونى » ، وكل هذه النصوص — فيما عدا قصة صموئيل القلمونى — تذكر قيرس دون أن تشير الى المقوقس أو تذكر اسمه ، كان لفظ المقوقس هذا خاص بمؤرخى العرب وحدهم لم يعرفه الأقباط ولا البيزنطيون . وحيث أننا لا نجد ما يقابله من الأسماء عند هؤلاء ، فانه يغلب على الظن أنه لقب أطلقه العرب على شخص معين ، وليس ذلك بغريب ، فقد أطلقوا على رئيس حامية حصن بابليون لقب « الأعيرج » ، وسموا القائد البيزنطى فى افريقية « جرجير » مع أن اسمه الحقيقى « جريجوريوس » ، ولو أن المقوقس هذا كان هو قيرس بالذات لذكرت ذلك المراجع العربية ، أو واحد منها على الأقل .

فاذا نحن مضينا فى البحث وجدنا أولا أن المقوقس يوصف بأنه عظيم القبط ، ولو أنه كان عامل مصر من قبل البيزنطيين لما وصفه بذلك . وثانيا نلاحظ أنه كانت له فى مصر أسرة كثيرة الأفراد متفرقين فى نواحيها ، تذكر المراجع العربية منهم رجلا يسميه المقريزى « الهاموك » والواقدى « الهاميراك » ، يقال انه كان من أخوال المقوقس وكان على دمياط ، وقاتل المسلمين مع واحد من أولاده فقتل ابنه واستأمن هو ، ولحق ابن آخر له اسمه شطا بالمسلمين وأسلم ، وخرج الى البرلس والدميرة وأشموم طناح فحشد أهل تلك النواحى وقدم بهم مددا للمسلمين ، وسار بهم لفتح تنيس ، وقاتل حتى قتل ، وقبره باق الى الآن فى دمياط ، وهو معدود فى أوليائها وصالحيها . وذكر المؤرخون كذلك أختا للمقوقس يسمى أندراوس وبنتا تسمى أرمانوسة التى عثر الباحثون على قبرها ، وابنين يسمى أحدهما أرسطولس ، بل ذكروا زوجه وقالوا انه كان لها شأن فى ضواحى الاسكندرية ، هذا بالاضافة الى ابنته أرمانوسة ذات الخبر المشهور .

وقد يكون فى ذلك كله زيادات أضافها القصاص ، ولكننا لا نسرف فى القول اذا ذهبنا الى أنها تدل على أن المقوقس كان قبطيا من أهل مصر ، وأن بيته كان معروفا منتشر الأفراد ، فكيف يقال مع ذلك أنه هو « قيرس » أسقف فازيس الذى بعثه الامبراطور هرقل سنة ٦٣١ الى مصر لكى يعمل على القضاء على معارضة أقباطها للمذهب الرسمى للدولة البيزنطية ؟ لقد ذهب العلماء مذاهب شتى فى البحث عن أصل هذا الاسم الذى نجده فى المراجع

العربية ، وأقرب الآراء الى القبول ما ذهب اليه أميلينو من أن العرب حرفوه من لفظ « كوخيوس » القبطي ومعناه الكافر ، فلعل أنصار البيزنطيين أطلقوا عليه هذا الوصف نظرا لمعارضته لسياسة الدولة ومذهبها وميله الى التفاهم مع العرب ، وعنهم أخذه هؤلاء وحرفوه الى الصورة التى وصلت الينا .

أما اسمه الحقيقي كما يرد في النصوص العربية فهو « جريج » ، وهو تصغير جورجيوس أو جرجس ، وهو ابن مينا أو متى أو ابن قرقب أو قرقب وما الى ذلك من الصور التي تتوارد في النصوص العربية . أما عن وظيفته فيقول البلاذري انه « صاحب مصر » ، ويقول المقريزي في « الخطط » انه كان « أميرا على مصر » ، ويردد هذا القول ابن دقماق في « الانتصار » ، ويذهب ابن عبد الحكم وجرجس المكين الى أنه كان « عاملا على مصر » ، ويقول ابن حجر انه كان « أمير القبط بمصر » ، وأوتيخا انه « عامل على الخراج بمصر » وليس في هذه الاشارات كلها ما يدل على انه كان بطريق مصر أو رئيس كنيستها ، أو الأسقف المعين من القسطنطينية .

ثم ان المراجع العربية تذهب الى أن المقوقس هذا هو نفس المقوقس الذي أرسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته مع حاطب بن أبي بلتعة في السنة السادسة للهجرة ، أي قبل سير العرب الى مصر باثنى عشر عاما ، وقد نفى كثير من المستشرقين أن يكون الرجلان شخصا واحدا ، لأن مصر كانت في سنة ٦ هـ / ٦٢٧ خاضعة للفرس ، بل ذهب بعضهم الى انكار الرسالة جملة ، غير أن اشارة عابرة لمؤرخ متأخر هو المنوفي صاحب « كتاب لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول » (القاهرة ١٣٠٠ هـ) ربما فسرت لنا هذه الناحية ، فهي تقول ان صاحب الأمر في مصر أيام الرسول (صلعم) وأبي بكر وعمر حتى فتح مصر كان المقوقس . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول ان المقوقس هذا كان كبير أقباط مصر ، وربما كان يتولى بعض شؤون الحكومة ، فلما دخلها الفرس واختفى رجال الدولة البيزنطية تولى هو الأمر تحت اشراف الفرس ، وفي أثنائهم أتى مصر رسول النبي (صلعم) فلم يجد من يتحدث اليه الا كبير القبط هذا ، فأحسن استقباله ورد ردا لطيفا وبعث بهديته المعروفة الى النبي .

فلما استعاد هرقل مصر ورجع اليها الروم وجدوا هذا الرجل قابضا على أزمة الأمور المالية والادارية فتركوه على هذه الناحية ، لأنه لم يكن يهمهم من مصر الا ذلك الا الجباية وكان الرجل بها خبيرا ، واكتفوا بارسال قواد عسكريين لبابليون والاسكندرية ، ثم أرسلوا الأسقف قيرس ليعالج الخلاف المذهبي بين الأقباط والبيزنطيين ، فأساء قيرس الى المصريين وتغر

منه المصريون وعلى رأسهم المقوقس ، وأصبح هذا الأخير مستعدا للتفاهم مع أي قوة يمكن أن تخلص الأقباط من اضطهاد البيزنطيين . فلما أقبل العرب وتخاذل البيزنطيون وتوزعت جهودهم وتوالت عليهم الهزائم تصـــــدى المقوقس لايجاد المخرج ، وتكلم مع العرب باسم الأقباط دون البيزنطيين ، وكانت هناك فرق قبطية في الجيش البيزنطي المدافع عن مصر ، فائتمرت بأمره وانضم اليه الرهبـــان ومن اليهم من أهل البلاد ، وعرف الرجـــل كيف يحصل من العرب على عهـــد يؤمن القبط على عقيدتهم وأموالهم ، فكانت نتيجة ذلك دخول مصر في طاعة العرب .

وقد وقفنا طويلا أمام مشكلة المقوقس لأن حلها يفسر قصة الفتح كلها ويعفينا من الكلام الكثير في مشاكل الفتح التي اقتضت من الفرد بطلر جهدا عظيما ، ليحلها ، ولم يفلح مع ذلك ، لأن نقطــة البــداية ، وهي القــــول بأن المقوقس هـــو قيرس لم تكن سليمة ، فلم تكن النتائج سليمة تبعا لذلك . أما قولنا ان المقوقس كان زعيم القبط ، وأنه كان يتجه وجهة أخـــــرى غير وجهة الروم فيجعل قصة الفتح مفهومة ، ويفسر السبب فيما قلناه من أنها كانت أشبه بنزهة عسكرية .

وبناء على ذلك نستطيع القول بأنه كانت في مصر قبيـــــل الفتـــح قوتان متنازعتان متعاديتان : القبط في ناحية والبيزنطيون في ناحية أخرى ، ويمثل القبط المقوقس وفرق من جنود القبط كانت مشتركة في الجيش البيزنطي وعدد كبير من الرهبان ورجــــــال الكنيسة ثم بقية أهل البــلاد ، وكلهم على المذهب المونوفيزي القريب من توحيــــد الاسلام ، وفي ناحية أخرى نجد البيزنطيين تمثلهم حاميات من الجند في المعاقل والحصون والمسالح وخاصة في الاسكندرية ، وعـــــلى رأس كل حامية قائد محلي ، ويمثل السلطان البيزنطي كله قيرس الذي أقامه هرقل بطركا لمصر وأطلق يده في شؤونها .

وهذا المذهب الذي نذهب اليه يحـل اشكالا آخر أوقع المؤرخين المحدثين فيه قولهم ان قيرس هـــو المقوقس ، لأنهم يقولون ان قيرس هذا أتى الى مصر ، وهو غريب عنها ولا عزوة له فيها ، لينفذ سياسة هرقل ، فبدأ يستميل الأقباط بالحسنى ، فلما فشل انقلب عليهم وأخذ يضطهدهم ، مما يدل عــــلى عصبيته البيزنطية ، فلا يكاد العرب يطرقون أبواب مصر حتى نجده ينقلب على البيزنطيين ويسعى في اخراج مصر من أيديهم ، ويتزعم الأقبـــــاط الذين كان يضطهدهم الى ذلك الحين . وهذه كلها قضايا لا يستقيم بعضها مع بعض . ورواية الأحداث على هذا النسق تجعل قصة الفتح غير منسجمة ولا متصـــلة الحلقات ، وهذا هو الذي يخرج به القارىء من كتاب ألفريد بطلر على طوله وعرضه .

سير الفتح(١)

فاذا بدأنا من هذه النقطة ومضينا نقص قصة الفتح تعرضنا من أول الأمر لمشاكل من النوع الذي تعودت أن تخلقه الروايات العربية ، وهي مشاكل لا تتصـــل بصلب الموضوع ، ولكن لا مفر من التعرض لها ، أهمها — فيما يتصل بالبداية — رفض عمر بن الخطاب الاذن لعمرو بن العاص في السير

---

(١) عن فتح العرب لمصر ، انظر :

ابن عبد الحـــــكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعـــة توري ، نيوهيفن ١٩٢٢ ، وطبعة هنري ماسيه ، عن فتح مصر فقط (المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقـاهرة ١٩١٤) ، وطبعة ألبير جـاتو ALBERT GATEAU بعنوان فتوح افريقية والأندلس ، الطبعة الثـــانية ، الجزائر ١٩٤٢ .

الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضـــاة ، طبعة روفن جست (سلسلة جب التذكارية) بيروت ١٩٠٨ .

البلاذري : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٩ .

الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة ، جـ ٢

حنا النقيوسي ، مدونة حنا أسقف نقيوس

Chronique de Jean, évêque de Nikiou. Texte éthiopien publié et traduit par M.H. Zotenberg (Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque Nationale et autres bibliothèques, tome 2, Paris, 1883).

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، طبعـــة المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٩٤٣ ، جـ ٢ و ٣ .

ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، جـ ١ ، ٤ ، ١٠ من مجموعة Patrologia Orientalis باريس ١٩٠٧ و ١٩١٠ و ١٩١٥

ابن سعد (كاتب الواقدي) : الطبقـــات الكبرى ، طبع منـــه ٨ كراســـات ليــدن ١٩٠٥ — ١٩٢١ ، وطبعـــة بيروت (كاملة) سنه ١٩٥٧ .

سعيد بن بطريق (المعروف بأوتيخا) ، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جزءان ، بيروت ١٩٠٥ — ١٩٠٩ .

المقريزي : المواعظ والاعتبـــار في الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ في مجلدين

— : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، القاهرة ١٣٥٦ .

— : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، طبعـــة زيادة والشيال ، القاهرة ١٩٤٠ .

— : اتعاظ الحنفا ، الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ .

اليعقوبي : تاريخ ، طبعه هوتسما ، ليدن ١٨٨٣ جزءان .

ابو المحاسن بن تغرى بردى : النجـــوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب ، جـ ١ و ٢ سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ .

جرجس بن العميد (المعروف بالمكين) : تاريخ المسلمين ، ليدن ١٦٢٥

Alfred J. Butler. *The Arab conquest of Egypt*. Oxford, 1902

وقد رجعنا الى ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد بعنوان « فتح العرب لمصر » ، القاهرة ١٩٣٣ .

— : *The treaty of Misr*. Oxford, 1913.

Leone Caetani : *Annali dell'Islam*. T. IV, V. Milano, 1911-1912.

E. Amélineau : *Etudes sur le christianisme en Egypte*. Paris, 1887

Lane-Poole : *A history of Egypt in the Middle-Ages*. London, 1925.

Gaston Wiet : *L'Egypte arabe*. Vol. IV de Histoire de la Nation Egyptienne. Paris, 1937

— *L'Egypte Musulmane*. Vol. II du Précis de l'histoire d'Egypte. Le Caire.

سيدة اسماعيل الكاشف ، مصر في فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٤٧ .

محمود عكوش : مصر في عهد الاسلام ، القاهرة ١٩٤٩ .

الى مصر ، ثم موافقته على كره منه وتعليقه الأمر بخطاب يرسله اليه ، فان بلغه قبل حدود مصر ارتد عنها والا سار في طريقه ، وهي قصة لا تتفق مع طبيعة عمـــر بن الخطاب أو مسلكه في سياسة أمور الدولة . ولو أن عمر استؤذن في فتح مصر وهو بالمدينة لكان من الممكن أن نصدق هذا الأخذ والرد الذي تطيل فيه المراجع في هذه المناسبة ، فقد حدث مثل ذلك عندما أراد العرب فتح المغرب على أيام عثمان ، ولكن عمر بن الخطاب فوتح في فتح مصر وهو مجتمع مع قواده ورجاله في الجابية جنـــوبي دمشق سنة ١٧/٦٣٨ : وناقش عمر مع رجاله في ذلك المؤتمر — الأول من نوعه في تاريخ الاســـلام — تنظيم ما فتح من البلاد والخطط التي يجري عليها المسلمون فيما يلي ذلك من خطـوات التوسع . وقد أحاط عمر اذ ذاك بالموقف تماما ، ووضع الخطوط الرئيسية لما سيعقب فتح فلسطين من الفتوح ، فالقول بأن عمرا خاطب عمر في الأمر فيما بينه وبينه وأخذ يحسن له فتح مصر ويهون عليه أمرها ، أو أن عمرا حاصر قيسارية ثم خلف ابنه عليها وسار الى مصر من تلقاء نفسه ، فغضب عمر لذلك وكتب اليه يعنفه ويأمره بالرجوع الى موضعه ان وافاه كتابه دون مصر ، أو أن عمرا أمر رجـــاله بالتسلل ليلا ثم اتبعهم ، روايات أقرب الى القصص ، وربما استطعنا أن نخرج من مجموعها برأي وسط يستريح اليه المؤرخ ، وهو أن عمر بن الخطاب كان رأيه قد استقر على فتح مصر ولكنه لم يكن قد اطمأن بعد الى عمرو بن العاص وقدرته على القيام بهذا العمل العظيم . ولكي نفهم هذا ينبغي أن نذكر أن عمرو بن العاص لم يكن اذ ذاك قد فرض مكانته كقائد من أعظم قواد الاسلام ، ولم يكن تقاس — في رأي عمر — بكبار قواد الدولة الذين تولوا فتوح الشام والعراق ، وكان عمـــر بن الخطاب لا يستريح اليه ، فتردد عمر لم يكن اذن في الفتح في ذاته ، وانما في شخصية الفاتح ، ويبدو من مجموع الروايات أن عمر وافق تصفك راغب ، وربما كان يفكر في اختيـــار قائد آخر ، وهذا أحسب هو موضوع الكتاب الذي قال لعمرو انه سيرسله اليه او الذي أرسله اليه فعلا .

على أي الأحوال أسرع عمرو نحو مصر ، وينبغي أن نذكر هنا شيئا لا يشـــير اليه المؤرخون مع عظيم أهميته ، وهو أن المناطق الفسيحة الممتــــدة من جنوبي فلسطين الى أطراف الدلتا كانت تعمرها قبائل عربية كثيرة معظمها من بطون قضاعة وخاصـــة الجذاعم منهم . وفي نواحي العريش كانت منـــازل بني راشدة وقبائل أخرى من لخم وجذام ، وكانت في شبه جزيرة سينا والناحية الشرقية للدلتا وصحراء مصر الغربية مواطن لقبـــائل عربية كثيرة . وينبغي أن نذكر أيضا أن هذه النواحي لم تكن اذ ذاك قاحلة على الصورة

التي هي عليها اليوم ، وانما كانت مناطق مشائش ترعاها الماشية ، وكانت عيون الماء بها كثيرة ، وحول كل عين ما يشبه الواحة الصغيرة أو الكبيرة ، ودليلنا على ذلك ما نذكره أخبار العصر البيزنطي من أن صحراوي مصر الغربية والشرقية كانتا عامرتين بالديور والرهبان ، وكان الكثير من أولئك الرهبان نساكا متأبدين وحدهم في الفيافي يقضون عمرهم كله في سياحة دائمة . ولا يتأتى هذا لو كانت هذه الصحاري محلا كما هي اليوم ، وهذا يفسر لنا مقام القبائل العربية الكثيرة في سيناء وصحراوي مصر الشرقية والغربية ، ويفسر لنا أيضا كيف استطاع الجيش العربي ، دون أن يتزود بشيء كثير أن يخترق سيناء دون جهد ، وأن يعبر بعد ذلك الصحراء من الاسكندرية الى برقة ، ومن برقة الى ما يعرف الآن بتونس ، ولو راجعنا ما كتبه جغرافيو الأندلس كأبي عبيد البكري عن المنطقة الواقعة بين مصر وافريقية (تونس اليوم) لوجدنا الطريق حافلا بالآبار والعيون والواحات .

ولم يكن للبيزنطيين سلطان على هذه النواحي المعشبة كلها ، اي أن الجيش العربي سار من رفح حتى بلبيس على الأقل وسط بلاد يسكنها ويسيطر عليها عرب ، ليس للبيزنطيين فيها الا حاميات قليلة أهمها في العريش — وهو تعريب لاسمها القديم « لاريس » Laris ، وكان البيزنطيون يسمونها رينوكوروروا Rhinocorura أو Rhinokolora — فاستولى عليها المسلمون دون جهد (١٠ ذو الحجة ١٨ هـ / ١٢ ديسمبر ٦٣٩ م) ثم تقدم عمرو بن العاص حتى وصل الى موضع أقصى حصون مصر البيزنطية شرقا عند بلدة الفرما (Pelusium) وهناك وقع أول التحام بين المسلمين وروم مصر ، واستمر القتال بينهم شهرا أو شهرين حتى اقتحمه المسلمون (حوالي ١٣ محرم ١٩ هـ / ١٣ يناير ٦٤٠ م) واصبح الطريق أمامهم الى قلب الدلتا مفتوحا ، فلم يضع عمرو وقته واتجه بمن معه نحو بلبيس .

ولم يكن الجيش الذي مع عمرو بالكبير ، فقد كان عدده ، حسب أقوال الرواة ، يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة ، ولكننا نرجح أن أعدادا كبيرة من عرب جنوبي فلسطين وسيناء وشرقي الدلتا انضمت الى ذلك الجيش ، لأننا نلاحظ أن خبر سقوط الفرما واتجاه العرب نحو الدلتا كان له رد فعل عنيف في البلاد ، ومن المستبعد أن يكون ذلك نتيجة دخول آلاف قليلة من العرب أرض مصر ، فقد كانت غارات القبائل العربية على أطراف مصر الشرقية أمرا عاديا ، ولو كان جيش عمرو بهذه القلة لما كان لدخوله هذا الصدى البعيد ، ونلاحظ أن العرب بعد أن خاضوا معركة عين شمس وأقبلوا لحصار حصن بابليون كانت لديهم قوة عظيمة لا تتناسب مع بقية ثلاثة آلاف أو أربعة ، فلابد أن

آلافا أخرى من العرب تبعت الجيش الفاتح وانضمت الى صفوفه . وأبسط دليل على ذلك أسماء القبائل التى اتخذت لأنفسها خططا فى الفسطاط بعيد اختطاطها سنة ٢١ هجرية ؛ فان عدد هذه القبائل يزيد على اثنين وثلاثين قبيلة ، غير أصحاب الراية الذين سيرد ذكرهم ، وكان عددهم كبيرا . فاذا فرضنا أن الذين دخلوا مع عمرو كانوا ٣٠٠٠، ثم انضم اليهم المدد الذى جاء مع عبد الله بن الزبير لكان المجموع تسعة آلاف ، أى بمعدل أقل من ٣٠٠ رجل من كل قبيلة ، وهذا العدد لا تكون له خطة أو قسم من مدينة ، فلابد أن العدد كان أكثر من ذلك . وقد اقتصرنا فى هذا الحساب على من نزل الفسطاط ، ومن المعروف أن عربا آخرين كثيرين نزلوا الاسكندرية والجيزة ونواحى شتى من الدلتا .

على هذا الاعتبار نستطيع أن نفهم السبب فيما أحدثه سير هذه القوة العربية من رد فعل بعيد المدى فى البلاد . وقد ظهر رد الفعل هذا بصورة جلية فى موقف الأقباط ، اذ أدرك رؤساؤهم أن الأمر أكثر من غارة بدوية ، وأن الزحف العربى الذى قضى على أمر الروم فى الشام وصل الى مصر ، فخرج الأنبا بنيامين بطرك الأقباط الأسبق — الذى عزله هرقل واضطهده سابقا حتى اختفى نحو عشر سنوات قبل الفتح العربى — وكتب الى القبط يقول : « انه لا تكون للروم دولة ، وأن ملكهم انقطع ، وبأمر القبط بتلقى عمرو » فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما صاروا يومئذ لعمرو أعوانا » . وسواء أكتب بنيامين الى اخوانه القبط أم لم يكتب ، فقد حدد الأقباط موقفهم بعد سقوط الفرما وشيتهم أن الصراع الحاسم على مصير بلادهم قد بدأ فمالوا مع العرب على الروم ، وكان هذا هو العامل الحاسم فى تيسير أمر فتح مصر على العرب . ولم ينضم الأقباط الى العرب علانية بعد سقوط الفرما ، بل بعد سقوط حصن بابليون وفتح الفيوم كما يقول يوحنا النقيوسى . أما موقفهم قبل ذلك فكان موقف المحايد الذى يتمنى نصر العرب وزوال أمر الروم .

وقد وجد عمرو أنه لا يستطيع ترك قوة كبيرة فى الفرما لتحفظها ، وكان موقعها هاما من الناحية العسكرية ، فهى مفتاح الطريق من فلسطين الى مصر ، وخاف ان يعود الروم فيتحصنوا فيها ، فهدم أسوارها وحصونها حتى لا ينتفعوا بها ، ثم اتجه جنوبا بشرق فاستولى على بليدة تسمى النواصر ، ومكانها الآن قرية الجمافرة بمركز فاقوس بمديرية الشرقية ؛ ثم وصل الى بلبيس « لا يدافع الا بالأمر الخفيف » كما يقول ابن عبد الحكم . وفى بلبيس التحم المسلمون مع حامية رومية قاتله رجالها نحو الشهر ، حتى انتصر عليهم واستولى على البلد . ويذهب القصاص الى أن عمرا وجد أرماتوسة ابنة

المقوقس في بلبيس . وأصل القصة في « فتوح مصر » المنسوب الى الواقدى ، وهى في خطوطها الرئيسية ممكنة الوقوع : وجد العرب في بلبيس ابنة المقوقس ، فأكرمها عمرو وبعث بها الى أبيها معززة ، ولكن خيال القصاص أضاف اليها اطارا روائيا ، فذهبوا الى أنها كانت قد خطبت الى قسطنطين بن هرقل ، فبعث بها أبوها و « جهزها بأموالها وجواريها وغلمانها لتسير اليه ، حتى يبنى بها بمدينة قيسارية .. » الى آخر القصة التى نسج حولها ش . هـ . بوتشر ثم جرجى زيدان قصتين طريفتين . وقد نفاها ألفريد بطلر بحجة أن المقوقس كان أسقفا فلا يمكن أن تكون له بنت ، وهى حجة واهية ، فلم يكن المقوقس كما رأينا أسقفا ، ولو فرض وكان فلم يكن في قوانين النصرانية اذ ذاك ما يحرم الزواج على رجال الدين ، لأن تحريم الزواج عليهم من النظم التى ابتدعها البابوات . ومثل ذلك يقال عن نفى بعض المستشرقين لاهداء المقوقس جاريتين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قالوا بذلك على أساس أن المسيحيين ، فضلا عن رجال الدين ، لا يجوز لهم أن يحرزوا الجوارى أو يتزوجوا بأكثر من واحدة ، وهذه كلها دعاوى لا تقوم على أساس ، فان المسيحية الأولى لم تحرم تعدد الزوجات ولا اتخاذ الجوارى ، وانما جاء ذلك في زمن متأخر ، وقد قرره البابوات أيضا . وربما كان في قصة ارمانوسة في حدودها البسيطة تأييدا لما ذهبنا اليه من أن القبط مالوا الى العرب بعد استيلائهم على الفرما ، فأحب عمرو أن يجامل زعيمهم باكرام ابنته .

بابليون ومصر :

واتجه عمرو بعد ذلك نحو مركز القوة الفعلية البيزنطية في البلاد ، وكان هذا المركز مساحة عظيمة تمتد من موقع عين شمس الحالية الى الحصن المعروف باسم قصر الشمع ، وكانت هذه المساحة تضم عددا من القرى الصغيرة والحصون والأديرة والكنائس عرفت كلها باسم « مصر » . ولفظ مصر آرامى قديم ومعناه الحد أو الحدود ، أما اسم بلاد مصر عند أهلها الى ذلك الحين فكان « كيمى » أو « شيمى » أو « خيمى » ومعناه التربة الحمراء ، والعرب هم الذين وسعوا مفهوم لفظ « مصر » وأطلقوه على البلاد كلها . نقول ان هذا الموضع كان يضم قرى وكنائس وحصونا وبساتين . وهذه القرى بقايا مدن أو عواصم قديمة أنشئت على طول تاريخ مصر القديم في هذا الموقع ، وتضمها كلها الآن مدينة القاهرة الحالية ، فيما عدا موقع منفيس القديمة ، فهو تابع الآن لبندر الجيزة . وتستنتج من توالى اتخاذ المدن والعواصم في هذا الموضع على اختلاف العصور أنه الموقع المثالى لحكم مصر والاشراف على الوجهين القبلى والبحرى .

وقد بدأ الانشاء فيه على عهد الأسرة

الثالثة ، عندما أنشأ الفراعنة منف واتخذوها عاصمة لهم ، وفي نفس الوقت عمّر الفراعنة موضعا آخر على الضفة الشرقية ، وهو بلدة أون ، التي عربها العرب الى عين شمس ، ولا زالت قائمة الى اليوم . والى جنوب عين شمس ، في مواجهة جزيرة الروضة ، قام حصن بابليون ، ويرجح أنه من انشاء المصريين القدماء ، وأن اسمه الأصلي بي — حابي — ن — أون Pi—Hapi—n—on. ويذهب شتايندورف الى أن هذا الاسم كان يطلق أولا على جزيرة الروضة ، وأن صورته الصحيحة بر — حابي — ن — أون Per—Hapi—n—on ومعناه جزيرة أون النيلية . وسواء أكانت هذه هي الصورة الصحيحة للاسم ، أم الصورة الأولى ، فانه تحرف الى بابليون . وقد أنكر ذلك كله بتلر ، وذهب الى أن الحصن من انشاء البابليين عندما دخلوا مصر ، وهو منسوب اليهم . أما قول العرب أن تفسير الاسم بأنه باب — ليون فغير مقبول . وقد خلط المؤرخون والرحالة الأوربيون في العصور الوسطى بين بابليون وبابل Babylonia ، فأطلقوا اسم بابلونيا على القاهرة ، بل على مصر كلها ، فكانوا يقولون سلطان بابيلونيا ، ويريدون سلطان مصر . أما المصريون فكانوا يطلقون على الحصن تسمية قريبة من قولنا قصر الشمع ، والأرجح أنه تعريب للفظي Castra Chemi أي حصن مصر . وقد علله بعض مؤرخي العرب تعليلات شتى ، فذهب الواقدي برواية المقريزي ، الى أن هذا القصر كان « يوقد عليه الشمع في رأس كل شهر ، فيعلم الناس أن الشمس انتقلت من البرج الذي حلت فيه الى برج غيره » .

وصل عمرو الى أول قرية من قرى منطقة مصر ، وهي قرية أم دنين ، وقد وردت عند يوحنا النقيوسي باسم تندونياس Tendunyas ، ومكانها اليوم المنطقة التي تقوم بها جامع المقس — ويعرفه اليوم بمسجد أولاد عنان — وتصل حدودها الى قنطرة الدكة والدرب الابراهيمي ، وكانت بها حامية صغيرة ، تغلب العرب عليها دون صعوبة وملكوها ، وكان النيل يصل اذ ذاك الى حدود القرية ، وبهذا أصبح في أيديهم موقع حصين على النيل ، فحصنه عمرو وشحنه بالرجال ، واتجه نحو حصن بابليون ، وكان مركزا لجيش بيزنطي كبير يضم عددا عظيما من القبط ، وبدأ عمرو يهاجمه ، ثم تبين أنه لن يستطيع الاستيلاء عليه بمن معه من الجند القليل ، فبعث يطلب المدد من عمر بن الخطاب ، واكتفى بالتحصن في أم دنين وبالالتحام مع البيزنطيين في اشتباكات يسيرة.

ويبدو أن عمرا ومن معه لقوا شدة كبيرة اذ ذاك ، فان الأزواد في المنطقة لم تكفهم ، ولهذا نجده يبعث بنفر من جنده في القوارب عبر النيل الى الضفة الغربية حيث ساروا بحذاء النيل نحو الجنوب حتى بلغوا

موضع منفيس ، ولم يكن لعمرو من غاية من وراء ذلك الا الحصول على مدد من الأقوات. وقد اختلط أمر هذه الغارة على بعض قدامى المؤرخين مثل حنا النقيوسي ، الذي زعم ان عمرا أرسل في ذلك الوقت حملة لفتح الفيوم ، وتابعه في ذلك بتلر ، فذهب الى أن عمرا حاول فتح الفيوم في ذلك الحين ، وهو قول مستبعد ، لأنه لم يكن قد استولى على حصن بابليون ولم يقض على قوة الروم بعد. والحقيقة ما قلناه ويؤيده قول السيوطي : ان عمرا بعد فتح مصر أرسل جرائد الخيل الى القرى التي حولها ، وبقيت الفيوم سنة لا يعلم المسلمون شيئا عنها ، وسنرى مصداق ذلك فيما يلي من الكلام .

ورأى عمرو الا يظل مكانه في أم دنين حتى يصل المدد . فتقدم بمن معه نحو حصن بابليون وبدأ في حصاره . وكان الروم قد حفروا خندقا حول الحصن واستعدوا استعدادا طيبا ، وأسرع المقوقس الى بابليون ليكون على مقربة من الحوادث . وبدأ الحصار في جمادى الأولى ١٩ هـ / مايو ٦٤٠ م . ولقي المسلمون عناء شديدا ، فقد استبان الروم قلة عددهم حتى قال البلاذري ان عمرا كان « يفرق أصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم ، فلما انتهى الى الخندق نادوه أن قد رأينا ما صنعت ، وانما معك من أصحابك كذا وكذا ، فلم يخطئوا برجل واحد » . وأخذ عمرو يشتد على جنوده ليبذلوا أقصى ما يستطيعون ، حتى ضاق ذرعهم وصاح فيه رجل من أهل اليمن : « انا لم نخلق من حجارة أو حديد » فقال عمرو : « اسكت ، فانما أنت كلب » ، فرد الرجل : « فأنت أمير الكلاب » . وعالج عمرو الموقف بكياسته ، فلم يلق بالا الى اجابة الرجل ، ونادى نفرا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذين شهدوا معه الوقائع ليستعين بهم على استنهاض همم المحاربين .

وعجل عمر بن الخطاب بارسال المدد الى عمرو بن العاص ، ويبدو أنه كان لا يزال يشك في قدرة عمرو على اتمام الفتح ففاتح الزبير بن العوام في توليته أمر الفتح . وقد روى الخبر البلاذري ، وقال ان عمر قال للزبير : « يا أبا عبد الله ، هل لك في ولاية مصر ؟ » فقال : « لا حاجة لي فيها ، ولكن أخرج مجاهدا وللمسلمين معاونا ، فان وجدت عمرا قد فتحها لم أعرض لعمله ، وقصدت الى بعض السواحل فرابطت به ، وان وجدته في جهاد كنت معه . فسار على ذلك » .

موقعة عين شمس (بابليون) والاستيلاء على الحصن :

وبين المؤرخين خلاف على عدة المدد الذي أرسله عمر ، فذهب بعضهم الى أنه كان أربعة آلاف ، وقال آخرون بل اثنا عشر ألفا . والمهم لدينا أنه كان مددا قويا عليه أربعة رجال أشداء هم الزبير بن العوام والمقداد بن

عمرو « الأسود » وعبادة بن الصامت ومسلمة ابن مخلد ، أو خارجة بن حذافة العدوى . وقد وصل هذا المدد فى ٩ جمادى الآخرة / ٦ يونيو ٦٤٠ م وبعد وصوله مباشرة دخلت معركة حصن بابليون فى دورها الحاسم .

ورأى عمرو أن يمهد لهذه المعركة الحاسمة بالفصل بين الروم والأقباط فصلا تاما ، فاتصل برجلين من زعماء الأقباط هما أبو مريم جاثليق مصر أى رئيس رجال الدين من الأقباط — وكان معاديا للمقوقس — والأسقف أبو مريام، ويبدو انه كان مقدما بين رجال الدين ، لأنه حضر فى « أهل البيعات » أى القسس ، وكلمهما كلاما رقيقا ذكر فيه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأقباط ، وعرض عليهما الاسلام وقال : « فمن أجابنا اليه فمثلنا ، ومن لم يجبنا اليه عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة » . وكان لكلامه أثر بعيد فى نفسيهما ، فردا عليه ردا جميلا ، وعادا الى المقوقس ليستشيراه . وعندما علم رجال العاصية البيزنطية بذلك أنكروه وأصروا على القتال ، وتزعم ذلك الأرطبون ، وهو قائد بيزنطى اسمه الأصلى أريتيون Aricoon كان مشتركا فى حرب العرب فى الشام ، فلما انهزم الروم اتجه الى مصر واشترك فى دفاع العرب عنها .

وكان عمرو قد أعطى ممثلى القبط مهلة خمسة أيام للرد عليه ، فاذا هو ينتظرهما فاجأه الروم بالهجوم ، فقاتلهم قتالا شديدا حتى ردهم الى الحصن . وتبين عمرو أنه ما دام الروم وراء الأسوار فان أمر الحصن سيطول ، وأنه لابد من اخراجهم من حصنهم ومنازلتهم فى معركة فى الفضاء ، وعول على ذلك . وكانت سرايا الروم تخرج بين الحين والحين فتجول وتصول فى المزارع والبساتين الواقعة بين الحصن والمعسكر الرئيسى العربى فى أم دنين ، فقرر أن يهاجم من يخرجون منهم هجوما مدبرا مرتبا يضطر آخرين منهم الى الخروج . فأرسل تحت جنح الليل كتيبتين احداهما الى طريق أم دنين والثانية نحو الشرق حيث اختبأت فى ثنية من ثنايا جبل المقطم . وخرج الروم على عادتهم فى الصباح الباكر ، وتقدموا نحو الشمال فى اتجاه ما يعرف الآن بالعباسية ، فلما توسطوا الطريق وساروا بين البساتين والأديرة تقدم اليهم عمرو بكتلة من جيشه والتحم معهم ، فتجمعوا لقتاله ، فما حمى الوطيس خرجت كتيبة الجبل من مكمنها وهاجمت مؤخرتهم ، فحسبوا أنهم حصروا بين جيشين ، وأسرعوا هاربين فى اتجاه أم دنين ، فخرج اليهم الكمين الثانى ، ووقعوا بين جند المسلمين من كل ناحية ، واستحر القتال ووقع فيهم القتل ، وانهزموا ، وأسرعت بقيتهم نحو الحصن لتعتصم به ، وانتهى اليوم بنصر حاسم للمسلمين تقرر به مصير مصر كلها .

وقد عرفت الوقعة بوقعة عين شمس ، وقد ترجمها بتلر خطأ باسم موقعة هليوبوليس ،

وهي أن الواقــــع لم تكن في المطـــــرية (عين شمس) أو في موقع هليوبوليس الحالية واقما على مقربة من حصن بابليون ، فهي أولى بأن تسمى معركة بابليون ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها ، ولكن الأغلب أنها كانت في ١٠ رجب ١٩ هـ / ١٥ يوليو ٦٤٠ م ، وقد اشتهر موضع انهزام الروم في الروايات العربية المتأخرة بمسجد ســــمي بمسجد الفــــتح بناه يانس الرومي الوزير الفاطمي بالقرافة الكبرى ، واستشهد فيها نحو أربعمائة من المســــلمين دفنوا بمقبرة واحدة عرفت بمقبرة الشهداء بموضع يعرف بمجرى الحصى قرب رباط الأمير مسعود .

ويذهب بطلر الى أنه لم ينج من جنـــــد الروم الذين خاضوا المعركة الا ثلاثمائة ، لاذوا بالحصن وأغلقـــوا الأبواب . وقد استولى الذعر على من في الحصن ، فخرج جماعة منهم فارين بأنفسهم وركبوا النهر الى قرية نقيوس ، وعلق عليها بقوله : « على أنه بقيت من الروم فئة لا بأس بها ، اجتمع اليها من كان في الحصن في أثناء القتال ، فصارت منهم جميعا مسلحة قوية تستطيع الدفاع عنه . ولكن النصر أفاد العرب فوائد جمة ، فقـد أصبحت مدينة مصر في قبضة يدهم بغير قتال (كذا) وكانت من قبل يحميها الجيش الذي في الحصن ، وأصبحوا يملكون ناصــــية شاطىء النهر من ناحيتي الحصن من أعــلاه ومن أسفله ، ونقلوا عسكرهم بعــــد من

هليوبوليس (الأصح أم دنين) فضربوه في شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس . وذلك المكان هو الذي صار يعرف بالفسطاط فيما بعد . وقد صار جيش العرب بعد ذلك النصر كافيا لحصار بابليون لا يعوقه عائق من التضييق عليه بعد أن قضى على جيش الروم ، فلم تبق منه الا الفلول التي لاذت بالحصن أو هامت على وجهها في بلاد مصر السفلى » .

بدأ عمرو بعد ذلك مباشرة في الاستعداد لاقتحام الحصن ، ففرق رجاله كتائب لمواجهة الحصن من نواحيـــه كلها ، ونصب عليه منجنيقات يبدو أنها لم تكن محكمة الصنع والوضع ، لأنها لم تقم بشيء ذي بال . وكان في الحصن جماعة قوية من الروم ذكر منهم حنــا النقيــوسي قائدين هــمــا تيودور وأنوشتانوس ، وذكر العــــرب قائدا ثالثا يســـمونه الأعرج أو الأعيرج ويســـمونه « المندقور » وهو تحريف للفظ mandaur وهي مرتبة من المراتب العسكرية في الجيش البيزنطي ، ويغلب أنه كان حاكم الحصن وان كان بطلر — متابعا مذهبه المعروف في حل عــقدة المشــاكل — يذهب الى أن المراد به جورج حاكم اقليم مصر ، وقد ذكره حنــا النقيوسي . وكانت في الحصن أيضا جماعة من جند الأقباط وكبرائهم ، وقد نفى ذلك بطلر ، وهــو حريص أشد الحرص عــلى نفي كل اشتراك للمصريين في الأعمال العســـكرية

الخاصة بفتح مصر ، وهو حرص لا معنى له ، اذ أنه من الثابت أن فرقا كثيرة من الجيش البيزنطي في مصر كانت من الاقباط . نعم انهم مالوا الى الحياد بعد سقوط الفرما ، وانضموا الى المسلمين علانية بمجرد سقوط حصن بابليون ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم لم يكونوا موجودين في الحصن في ذلك الحين . وكانت في الحصن ذخيرة طيبة من الزاد والسلاح من كل نوع ، وقد لجأ اليه جمع عظيم من غير الجند من أهل منطقة مصر والأديرة المجاورة للاحتماء بأسواره . ويقال ان المقوقس كان بداخله اذ ذاك ، وهو قول لا نستطيع نفيه أو تأكيده : وعلى أي الأحوال فانه لما اشتد حصار العرب للحصن وقتالهم لمن فيه ، تنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب الحصن الجنوبي وعبروا الى جزيرة الروضة وقطعوا الجسر الذي يصلها بالحصن حتى لا يصل اليهم أحد . وبعد قليل خاف الأعيرج وتسرب ممن معه ، فهربوا الى جزيرة الروضة لاحقين بالمقوقس ومن معه .

بهذا هان أمر الحصن ، وأصبح الاستيلاء عليه مسألة وقت ، وانتقل مركز الثقل الى جزيرة الروضة ، ورأى المقوقس أن الظرف لا يحتمل طول الانتظار فبدأ الاتصال بالعرب ، وأرسل الى عمرو يطلب المفاوضة ، فأرسل اليه عشرة رجال فيهم عبادة بن الصامت ، وهو الذي تولى الكلام . وقد أوردت الروايات العربية الحديث الذي جرى بين عبادة والمقوقس ، وهو حديث بليغ عبر فيه عبادة عن روح العرب المجاهدين أحسن تعبير . والذي يعنينا هنا هو تمسك المسلمين بشروطهم المعروفة : الاسلام أو الجزية أو القتال . وقد مال المقوقس الى الجزية ، ورفض هذا الحل كثير ممن معه من الروم وقالوا : « القتال أهون علينا » ، وكانت هذه المفاوضة في آخر شعبان ١٩ هـ / أغسطس ٦٤٠ م .

معاهدة بابليون :

وفي أثناء المفاوضات تمكن العرب من الاستيلاء على الحصن ، وقد تولى كبر ذلك الزبير بن العوام في خبر طويل . ويبدو أن المسلمين لم يقتحموه اقتحاما كما تذهب اليه الروايات ، لأن المحاصرين فيه لم ينزلوا الا على شروط ، وقد أسرف الرواة في الحديث عن تلك الشروط حتى جعلوا حديثها أقرب الى الخيال ، ولكننا نأخذ بالمعقول المقبول ونقول انهم سلموا الحصن مقابل عشرين ألف دينار ومقادير من الأزواد والملابس . وقد زخرف الخبر بعد ذلك على أيدي الرواة ، فصاغوه منسوبا الى عبد الله ابن عمرو بن العاص وجعلوه في صيغة فقهية فيها شيء على الأرض وشيء على الرءوس ، وكل هذه زيادات جدت فيما بعد ، أجاد سبكها الفقهاء لكي يتخذها الحكام أساسا في تقدير جباية مصر وليست من الحقيقة

التاريخية في شيء . وتسلم القرب الحصن وخرج من فيه ، وأصبح من ذلك الحين حصنا اسلاميا .

وقد وجد المقوقس في سقوط الحصن ما يقوي وجهة نظره ، فأخذ يحقق من معه على ضرورة التسليم والاذعان للجزية ، حتى قبلوا رأيه وتصالح الفريقان . ولم يكن المقوقس ممثلا للامبراطور البيزنطي ، ولهذا فقد نص في معاهدة الصلح على أن الأمر خاص بأهل مصر أو الأقباط ، وقد أورد ابن عبد الحكم وغيره نص المعاهدة ، وسنورده فيما يلي لأهميته مقسما الى فقرات بحسب موضوع كل فقرة ، حتى نستطيع الرجوع اليها فيما يلي من البحث .

١ — « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم .

٢ — لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص .

٣ — ولا يساكنهم النوب (أي أهل النوبة) .

٤ — وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف (دون تحديد والأغلب أن المراد درهم ، وستردد مناقشة ذلك) .

٥ — وعليهم ما جنى لصوتهم (أي لصوصهم) .

٦ — فان أبى أحد منهم أن يجيب (يريد الى الصلح) دفع (أي خفض) عنهم بقدر ذلك .

٧ — ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه ما عليهم .

٨ — ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا .

٩ — عليهم ما عليهم أثلاثا ، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم .

١٠ — على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين .

١١ — وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا على ألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

١٢ — شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر » .

ونصوص هذا العهد واضحة لا تحتاج الى مزيد من البيان . وهي في ذاتها تؤيد ما قلناه من أن المقوقس كان من أقباط مصر ، وأنه كان يتكلم باسم مواطنيه ، ولو أنه كان قيرس عامل هرقل لما عقد الصلح عن أهل مصر دون سواهم من الروم ، الا مَن قبل من هؤلاء الأخيرين الدخول في ذلك الصلح . ويهمنا أيضا ملاحظة أنه صالح عمن تبعه من

أهل مصر ، لأن نواحي أخرى كانت لم تخضع بعد ، فهو غير مكلف بأداء الضريبة عنها ، واذا ثارت ناحية على العرب وقطعت أموالها خفض مقدار الضريبة بقدر ما يخص هذه الناحية (فقرة ٦) ، لأن أهل مصر غير مكلفين باخضاع نواحيهم للعرب ، وعلى عكس ذلك كانوا مسئولين عن الأمن في نواحيهم ، ولهذا فعليهم ما جنى لصوصهم (فقرة ٥) . وواضح من الفقرة الحادية عشرة أن نفرا من أهل النوبة استجابوا لهذا الصلح ، ففرضت عليهم ضريبة من الماشية والخيل .

وقد ذهب بطلر الى أن هذا الصلح خاص بأهل مشتة مصر وحدها ولم يكن صلحا عاما عن أهل مصر ، واعتمد في ذلك على حجج أهمها قلة قدر الجزية التي تقررت (٥٠ مليون درهم ، وهي ٣٫٥ مليون دينار) وخلط بين معاهدة الصلح هذه وشروط تسليم حصن بابليون . وغاب عنه أن مبلغ الجزية الذي تقرر في الصلح كان تقديرا مبدئيا ، وسيعاد التقدير بعد تمام فتح مصر كلها على ما سنراه .

<u>استكمال فتح الوجه البحري والصعيد والفيوم :</u>

وبقي للروم بعد ذلك معقل آخر هو الاسكندرية ، وكان لابد من فتحها حتى يتم خلاص البلاد من الروم ، ولكن عمرا رأى أن يستكمل افتتاح ما يستطيع الوصول اليه من نواحي مصر قبل أن يخرج الى الاسكندرية ، فبعث بسرايا سريعة الى نواحي الوجهين القبلي والبحري ، فذهبت حملات الى عين شمس وتنيس ودمياط وتونة (اندثرت اليوم ومكانها جزيرة ببحيرة المنزلة تسمى كوم ابن سلام ، شرقي مطرية المنزلة) ودميرة (حاليا قرية بمركز طلخا ، مديرية الغربية) وشطا (من ضواحي دمياط على ٥ كيلو مترات منها) ودقهلة وبنا (اليوم بنا أبو صير مركز سمنود مديرية الغربية) وبوصير (اليوم أبو صير بنا ، مركز سمنود ، غربية) والبشرودات (اقليم كان بشمالي الدلتا حول بحيرة البرلس) ثم الى الفيوم والأشمونين واخميم وغيرها من بلاد صعيد مصر « فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر ، فصارت أرضها أرض خراج » كما يقول البلاذري . وكان أهل هذه النواحي يدخلون على شروط الصلح الذي عقده المقوقس ، فزادت مقادير الجباية ، مما جعل عمرا يقرر النظر في أمرها جملة بعد فتح الاسكندرية .

ويبدو أن فتح الفيوم كان أشبه بالمغامرة ، لأن المسلمين لم يفتحوا أول الأمر الا الى قرية متطرفة الى الشمال من قراها تسمى الهنسا (زالت اليوم وبقي اسمها على حوض الهمسا أو الهمس بناحية قلمشاه، الفيوم) ، أما الاستيلاء على ناحية الفيوم فلم يتم الا بعد ذلك بنحو عام ، وتذهب الروايات الى أن أمرها ظل مجهولا للعرب حتى دلهم رجل عليها وعلى الطريق اليها ، وقد

كتب في فتحها كتاب قصصي خاص يسمى « فتوح البهنسا » . وذهب يوحنا النقيوسي الى أن العرب عندما دخلوا البهنسا قتلوا كل من وجدوه فيها من رجال ونسوة وأطفال، وكذلك فعلوا عند دخولهم فيوم ، وكلا الأمرين مستبعدان ، اذ لماذا يختص العرب هذين البلدين بهذه المعاملة دون بقية بلاد القطر ؟ ولا يخرج الأمر هنا عن كونه احدى الفريات الكثيرة التي ملأ بها هذا الراهب كتابه .

فتح الاسكندرية :

ولم يضع عمرو وقتا ، بل اتجه نحو الاسكندرية رأسا . والفرمة الأولى ترى القبط الى جانب العرب صراحة ، وذلك نتيجة طبيعية لمعاهدة الصلح ، فيقول ابن عبد الحكم عن عثمان بن صالح : « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم ، وسمع بذلك الروم فاستمدت واستجاشت ، وقدمت عليهم مراكب كبيرة من أرض الروم ، فيها جمع من الروم عظيم بالعدة والسلاح » . ولم يلق المسلمون في طريقهم أحدا من الروم الا عند ترنوط (حاليا الطرانة مركز كوم حمادة ، مديرية البحيرة) ، وكانت بها فرضة يعبر النيل عندها في الذهاب الى الاسكندرية ، وقد لقي المسلمون بها حامية رومية صغيرة انهزمت أمامهم .

ثم نزل عمرو بنقيوس ، وكانت بها حامية رومية يقودها قائد يسمى دومنتيانوس تحت يده سفن كثيرة في النيل ، فلما رأى العرب ترك سفنه ومعداته وفر هاربا مع نفر من جنده الى الاسكندرية ، فأرسل عمرو في أثره سرية يقودها شريك بن سمي المرادي ، فأدركهم عند كوم شريك (مركز كوم حمادة ، بحيرة) وكانوا أكثر من المسلمين عددا فأحاطوا بهم ، فأرسل شريك يستنجد بعمرو ، فأنجده ، وتراجع الروم حتى سلطيس (اليوم سنطيس على سبعة كيلو مترات جنوبي دمنهور) فالتقوا عندها وانهزم الروم ، وتقهقروا حتى وقفوا عند الكريون (قرب معمل القزاز ، مركز كفر الدوار بحيرة) وكانت مفتاح الطريق الى الاسكندرية . وكان فيها حصن منيع شمالي الترعة الذاهبة الى الاسكندرية ، وكان القائد تيودور قد تحصن بها وبعث يطلب النجدات ، فأتته من مواضع مثل الخيس (مكانها الآن قرية أم حكيم ، مركز شبراخيت ، بحيرة) وسخا (مركز كفر الشيخ) وبلهيب . واستمر القتال بضعة عشر يوما ، ثم انهزم الروم وتعقبهم المسلمون حتى بلغوا خط الحصون الذي يحمي الاسكندرية فوقفوا عنده .

ونزل المسلمون « ما بين حلوة الى قصر فارس الى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط ، يمدونهم بما احتاجوا اليه من الأطعمة والعلوفة ، فأقاموا شهرين » . وقد استمد

الروم في الاسكندرية استعدادا عظيما ، واهتم هرقل للأمر حتى قيل انه استعد للذهاب اليها للدفاع عنها بنفسه لولا أن حال الموت دونه وذاك . وقد طال وقوف عمرو أمام الاسكندرية ، وكان بطيه رجلا والمر النشاط لا يطمئن الى السكون ، فشغل بعض جنده في سرايا أخضعت بعض نواح من شمال غرب الدلتا واقليم البحيرة ، ثم عاد فشدد الهجوم على الاسكندرية حتى طلب المدافعون عنها التسليم مقابل الجزية ورد من عسى أن يكون العرب قد سبوهم من أهلها . ولم يستطع عمرو اجابتهم الى ما طلبوه الا باذن من الخليفة عمر ، لأن حكم البلد الذي يُستولى عليه بعد هذا القتال العنيف هو حكم العنوة ، في حين أن المدافعين عن الاسكندرية طلبوا معاملة الصلح ، فكتب عمرو الى عمر بالأمر ، فوافق على اجابة المطلب ، ودخل العرب الاسكندرية بعد نحو ثلاثة أشهر من القتال والحصار .

وقد روى ابن عبد الحكم خبر الفتح عن رجل ممن حضروه هو زياد بن جَزْء الزبيدي . ولم يكن أحد يتصور أن مدينة كالاسكندرية تسقط بعد هذا الوقت القصير ، ولكن هكذا بلغ ضعف الروم واضطراب أمرهم ، وهكذا بلغت قوة العرب وعلو نجمهم . وقد أسرع عمرو بعد دخول الاسكندرية فأرسل جزءا كبيرا من جيشه ليتبع فلول من هرب منها من الروم ، وأحس الذين ركبوا البحر بذلك ، فعادوا الى الاسكندرية ودخلوها ناقضين للعهد ، فقاتلهم المسلمون قتالا عنيفا حتى استولوا على البلد مرة ثانية . ورأى عمرو أن ذلك يبيح له اعتبار البلد قد فتح عنوة « بغير عقد ولا عهد » ، فبعث الى عمر يستأذنه في أن يجعلها وأهلها غنيمة للمسلمين ، فأبى عمر وأمره بأن يجرى عليها الشرط الأول . وأسرع قيرس الى القسطنطينية ليحصل على تفويض بقبول الصلح ، وعاد بالموافقة والشروط المحافظة على الكنائس وعدم التدخل في الشؤون الدينية للأهالي والسماح لليهود بالاقامة في الاسكندرية ، وأن يبقى العرب أحد عشر شهرا خارج المدينة حتى يتم جلاء الروم عنها . وقد قبل عمرو ذلك كله وتم الصلح أوائل ذي قعدة ٢٠ هـ / أوائل نوفمبر ٦٤١ م ، وأبحر الروم من الاسكندرية في ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ . وكان قيرس قد مات خلال مهلة الأحد عشر شهرا ، في ٢١ مارس ٦٤٢ .

بذلك تم فتح مصر كلها في نحو سنتين وأربعة أشهر ، فقد وصل عمرو بن العاص العريش في ١٠ ذي حجة ١٨ هـ / ١٢ ديسمبر ٦٣٩ وبارح الاسكندرية آخر جندي بيزنطي في ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ . وضم العرب الى امبراطوريتهم الناشئة هذا القطر المصري الذي كان أغنى وأثمن ما ملكته دولة البيزنطيين ، ووضع العرب قدما ثابتة في

افريقية مكنت لهم فيما بعد من السيطرة على الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، ومن الاسترسال مع الفتح حتى استولوا على المغرب كله والأندلس ، وسيطروا بذلك على الحوض الغربي لذلك البحر وتمهد السبيل لتحويله الى بحيرة عربية . وامتدت حدود المشرق حتى وصلت الى المحيط الأطلسي بل الى جبال البرت المعروفة بالبرانس ، واقتحمت أسماع المسلمين الطرق الى قلب القارة الافريقية ، فلم يكن فتح من فتوح الاسلام أعظم أهمية ولا أبعد أثرا في تاريخه من فتح مصر . ولا يتسع المجال هنا لعرض النتائج البعيدة المدى لهذا الفتح ، فهي أظهر من أن تبين وتوضح ، وسنرى بعض النتائج فيما يلي من دراستنا .

مصر جزء من الدولة الاسلامية(١)

تعود المؤرخون أن يقولوا ان مصر أصبحت بعد تمام الفتح ولاية من ولايات

---

(١) **اصول** : الى جانب« فتوح مصر والمغرب والاندلس » لابن عبد الحكم ، و « كتاب الولاة والقضاة » للكندي ، و « خطط » المقريزي ، طبعة القاهرة ١٣٢٤ جـ ١ و ٢ ، والطبري وابن الأثير وبقية المراجع التي ذكرناها في الفقرة السابقة ، انظر :

المقريزي : اتعاظ الحنفا ، طبعة الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ .

ـ : السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الجزء الاول ، أقسام ١ و ٢ و ٣ .

ـ : تاريخ القبط ، قطعة نشرها قستنفلد في جوتنجن سنة ١٨٤٥ .

. . . .

ابو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جـ ١ و ٢ ، القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ .

ابن حجر العسقلاني : الاصابة في تمييز الصحابة ، ٨ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٣ ـ ١٣٢٥ (مواد عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح ومعاوية بن أبي سفيان ومعاوية بن حديج) .

ابن دقماق : كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ ١ و ٢ ، بولاق ١٣٠٦ .

قدامة بن جعفر : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، جـ ٦ من المكتبة الجغرافية ، ليدن ١٨٨٩ .

القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩ في ١٤ جزءا

يحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج ، ليدن ١٨٦٥ ـ ١٨٦٦ .

ابو يوسف القاضي : كتاب الخراج ، بولاق ١٣٠٢ .

يحيى الانطاكي : كتاب التاريخ ، طبعة لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٩ .

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ليدن ١٩٠٨ .

ابن سعيد : المغرب ، الجزء الخاص بمصر ، طبعة الدكاترة زكي حسن وشوقي ضيف وسيدة اسماعيل الكاشف ، القاهرة ١٩٥٣ .

ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، جزء واحد نشر في دار الكتب سنة ١٩٢٤ .

ابن الجيعان : التحفة السنية في أسماء البلاد المصرية ، القاهرة ١٨٩٨ .

الاسحاقي : لطايف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول ، القاهرة ١٣٢٨ .

السيوطي : حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢١ .

مجمـــــوعات أوراق بردية ووثائق نشرها Gaston في مطبوعات المعهد الفرنسي بالقــــاهرة سنة ١٩٠٩ ، مجلد ٣٢

Max van Berchem : *Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum*, tome 1, le Caire 1894-1903

وقد نشر المجلد الثاني جاستون فييت في سلسلة

Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, vol. LII, le Caire, 1929-1930.

Adolf Grohmann : *Corpus papyrorum Raineri*, Series arabica. Wien, 1923-1924.

Id., *Arabic papyri in the Egyptian Library* 4 volumes, le Caire, 1934- Sqq.

وقد ترجم الجزءين الأول والثاني الدكتور حسن ابراهيم حسن ، القاهرة ١٩٣٥ و ١٩٤٠ . ونشرت أيضا أربع محاضرات للأستاذ جروهمان مترجمة الى العربية بقلم توفيق اسكاروس ، القاهرة ١٩٣٠

Carl Heinrich Becker : *Historische Studien über das Londoner Aphroditowerk* (Der Islam Band II, 1911).

Karabacek : *Papyrus Herzog Rainer. Führer durch die Ausstellung*.

H.I. Bell : Translations of the Greek Aphrodito papyri in the British Museum (Der Islam, Baende II, III, IV, XVII, 1911-1912-1913-1928)

W.E. Crum : *Coptic Ostraca*, London 1902

Gaston Wiet et autres : *Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe*, 1931 sqq

أبحاث ودراسات :

الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف : مصر في فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٤٧ ، وهو أهم بحث في الموضوع .

أحمد أمين : فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٢٨ ، وضحى الاسلام ، ج ١ القاهرة ١٩٣٦ .

الدكتور محمد كامل حسين : أدب مصر الاسلامية ــ عصر الولاة ، الطبعــــة الثانية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

محمود عكوش : مصر في عهد الاســــلام ، القاهرة ١٩٤١ .

الدكتور عبد الرحمن فهمي : صنج السكة ، القاهرة ١٩٥٨ .

Carl Heinrich Becker : *Beiträge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam*, Heft 1. Strassburg, 1903.

— : *Articles Egypte et le Caire*, Encyclopédie de l'Islam

— : *Islamstudien*. 2 Baende, Leipzig, 1924.

Max van Berchem : *La propriété territoriale et l'impôt foncier sous les premiers califes*. Genève, 1886.

Une page nouvelle de l'histoire de l'Egypte. Journal Asiatique, 9e série, tome IX, Paris, Janvier, Février, 1897.

Butcher, Mrs. E.L. : *The Story of the Church of Egypt*. London, 1897

Franz Pascha : *Kairo*, Leipzig, 1903.

Reitemeyer : *Beschreibung Aegyptens im Mittelalter aus den geographischen werken der Araber*. Leipzig, 1903.

Becker : *Papyri Schott Reinhart*. Heidelberg, 1906

Casanova : *Essai de reconstitution topographique de la ville d'Al-Fostat ou Misr* dans Mémoires de l'Institut Fr. d'Arch. Orientale, vol. XXXV. Le Caire, 1913-1919.

Wüstenfeld : *Die Statthalter von Aegypten zur zeit der Chalifen*, Goettingen, 1875-1877.

الدولة الاسلامية . وهذا القول يخالف الواقع بعض الشيء ، وأقل ما يفهم منه أنه كانت هناك دولة رئيسية مركزية كالدولة الرومانية مثلا ، تعتمد على شعب ممتاز حاكم كالشعب الروماني . والحقيقة فيما يتصل بدولة الاسلام تخالف ذلك ، فلم تكن هناك ، من الجهة النظرية الاسلامية ، دولة رئيسية تقوم على شعب ممتاز حاكم ، تخضع له ولايات تعيش فيها شعوب مقهورة مغلوبة على أمرها ، وانما الحقيقة فيما يتصل بالدولة الاسلامية أنها كانت دولة عامة يقوم بشئونها المسلمون عامة لا يفرق بينهم في الحقوق والواجبات جنس أو مكان ، فكل مواطن مسلم في هذه الدولة يعد من أصحابها وله الحق في ولاية وظائفها العامة وقيادة جيوشها والاشتراك في وضع التشريع الخاص بها .

ومن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تولى المسلمون من غير العرب وظائف عامة ، وابتداء من عصر الراشدين اشتركوا في التشريع والتنفيذ ، وخلال العصر الأموى قادوا الجيوش وتولوا الولايات ، وخلال العصر العباسى تلاشت مسألة الأصول تلاشيا تاما ، وأصبحت الدولة بالفعل دولة عامة للمسلمين عامة . كذلك انتقل مركز الدولة من جزيرة العرب الى الشام ثم الى العراق ، والمفروض أنهما ولايتان ، ومع ذلك لم ينكر أحد ذلك الانتقال : ونظر اليه الناس نظرتهم الى شيء عادي لا يتعارض مع طبيعة دولة الاسلام ، أي أن دولة الاسلام ليست دولة جنس ولا قطر بعينهما ، فدخول مصر أو غيرها من النواحي في طاعة الاسلام لم يكن معناه أنها أصبحت ولاية خاضعة يحكمها جنس غالب أو بلد له السيادة كما كان الحال مع الامبراطوريات المعروفة في التاريخ ، وانما كان معناه أنها أصبحت جزءا من هذه الدولة العامة ، بل أصبحت قاعدة لامتدادات جديدة لدولة الاسلام .

ومن مصر فتح المغرب كله ، وأصبح المغرب بدوره جزءا من الدولة العامة ، وقام أهله بضم قطر جديد الى الدولة العامة التي أصبحوا مواطنين فيها وفي جملة أصحابها ، ففتحوا الأندلس ، أو قاموا بأعظم جانب من هذا الفتح . ومثل هذا حدث في المشرق : فتح العرب العراق ، ثم اشترك أهل العراق مع العرب في ادخال ايران في دولة الاسلام ، ثم اشترك العرب والعراقيون والايرانيون في فتح ما وراء النهر وأخذوا يدخلون الأتراك وبلادهم في دولة الاسلام ، ثم قام الأتراك بتوسيع نطاق الدولة فيما يليهم شرقا حتى وصلوا بها الى الهند . وتوالت هذه الأجناس كلها على قيادة أمور الدولة الاسلامية العامة . كلما وهن جنس من أجناسها نهض بالأمر من بعده جنس آخر ، حتى صارت أمورها العامة آخر الأمر الى الأتراك العثمانيين . والى هذه الطبيعة الخاصة بدولة الاسلام ترجع الحيوية المتصلة التي ميزتها على غيرها من دول العالمين

القديم والوسيط . وربما شابهتها من بعض الوجوه الدولة البيزنطية ، التي يرجع طول عمرها الى أنها كانت في الواقع دولة عامة يتولى أمورها الأكفاء أيا كانوا من أهلها ، وتتألف جيوشها من الأوقاريين وأهل آسية الصغرى والأرمن وأهل البلقان بل الأتراك على السواء .

غير أنه في دولة مترامية متوسعة دائما كالدولة الاسلامية تستوطن أراضيها شعوب شتى لم يخل الأمر من شعب قوى وشعب ضعيف ، أو شعب يكون قويا حينا ضعيفا حينا ، ومن ثم فقد غلبت في داخلها شعوب على شعوب وخضعت بلاد لبلاد ، دون أن يكون معنى ذلك أن الشعب الغالب أصبح صاحب الدولة وأن الشعب المغلوب قد أصبح رعية محكومة مستغلة ، كما كان أمر مصر مع الرومان مثلا ، فقد كان من المفروض والمقرر De jure et de facto أنها ولاية تابعة لروما أو القسطنطينية . فاذا كان المصريون مثلا قد غلبوا على أمرهم في بعض عصور التاريخ الاسلامي واعتبرت بلادهم ولاية خاضعة لغيرها ، فمعنى ذلك أنهم لم يستطيعوا المحافظة على حقوقهم ، وعندما استقوى أمرهم بعد ذلك غلبوا غيرهم واستقلوا ببلادهم بل ضموا اليهم غيرهم . والحجاز الذي كان المفروض أن يظل سيد الدولة كان أقل بلادها حظا في الرياسة والقيادة على طول تاريخ الاسلام وعرضه .

كذلك لم يخل الأمر في هذه الدولة الاسلامية الواسعة من سوء ادارة أو ظلم أو فساد سياسة ، وما الى ذلك من المساوىء التي لا تخلو منها دولة من الدول ، ومرد ذلك دائما الى صعوبة الحكم في ذاته والى تعدد المشاكل وعسرها والى عجز الحكام عن ايجاد الحلول الصالحة، وذلك أمر لا علاقة له بدولة الاسلام في ذاتها ، بل هو مشكلة انسانية خالدة قاسى منها بعض شعوب الاسلام كما قاسى منها غيرها .

هذه مقدمة لابد منها قبل النظر في شؤون مصر بعد دخولها دولة الاسلام ، فهي لم تصبح ولاية عربية أو ولاية اسلامية ، بل جزءا من دولة الاسلام يجري عليها وعلى أهلها ما يجرى على الوطن الاسلامي الكبير وأهله جميعا ، ويكفي أن نقول ان بلاد العرب وهم الجنس الذي تنتسب اليه الدولة كلها ، كانت أسوأ حالا من مصر أو غيرها من أجزاء الدولة الاسلامية خلال العصر الأموي وما تلاه ، لا لأن شعبها كان شعبا مغلوبا أو مستضعفا ، بل لأن طبيعة اقليم الحجاز لم تساعد أهله على الصمود في زحمة الصراع الطويل الذي لم يهدأ تياره قط على طول تاريخ الاسلام . ولم يشعر شعب مصر بعد دخوله في دولة الاسلام بأنه شعب مقهور ، ولم يكن موقفه من العرب موقف مغلوب من غالب كما يقول نفر من الأوربيين الذين أرخوا لمصر الاسلامية (مثلا يقول جاستون

البيت : (les vainqueurs et les vaincus) » بل اننا اذا نظرنا الى الأمر مليا استطعنا ان نقول انهم كانوا — بموقفهم الى جانب العرب اثناء الفتح — في جملة الغالبين ، وهناك عبارة مشهورة لميخائيل السوري يقول فيها : « انه ليس بالكسب اليسير أننا تخلصنا من قسوة الرومان وشرهم وسخطهم وعصبيتهم العاتية علينا ، ووجدنا أنفسنا بذلك في راحة » ، وليس هذا كلام رجل يشعر أن قومه قد غلبوا على أمرهم .

على أي الأحوال أصبح المصريون — سواء من أسلم منهم ومن لم يسلم — جزءا من أهل الوطن الاسلامي الكبير ، يجري عليهم ما يجري على غيرهم من أحكامه وظروفه وتقلب الأحوال به ، فرخيت حياتهم واطمأنوا بقية خلافة عمر بن الخطاب والنصف الأول من خلافة عثمان بن عفان ، شأنهم في ذلك شأن بقية أهل دولة الاسلام . فلما نشبت أزمة عثمان وتحركت الفتن اشترك أهل مصر فيها وقاموا بدور معروف ، وشاركوا أيضا في النزاع بين علي ومعاوية ، وكان لهم شأن في النزاع بين الأمويين والزبيريين ، بل فقرت اسم مصر بالصراع النهائي بين الأمويين والعباسيين ، أي أن تاريخ مصر خلال هذه الفترة يعتبر جزءا من تاريخ دولة الاسلام كلها . ولهذا فانه يعسر ان نكتب لها تاريخا مستقلا من الفتح الى نهاية الدولة الأموية على الأقل .

ويهمنا أن نلاحظ هنا أمرا كان له أبعد الأثر في تحديد الدور الذي قامت به مصر في تاريخ العصر الذي نتحدث عنه هنا وما تلاه من عصور ، وهو أن مصر بطبيعتها بلد غني يقوم غناه على مورد ثابت هو الأرض ، وأن شعبها شعب دءوب خبير باستغلال أرضه وما فيها من موارد الخير الأخرى ، وهو الى جانب ذلك شعب مسالم يميل الى الحياة المستقرة الرتيبة . وقد نظم هذا الشعب أموره على نحو ثابت منذ الزمن القديم ، ومن ثم فلم تكن هناك في العصور الوسطى مشاكل مستعصية أو طارئة كالتي تتعرض لها البلاد ذات الطبيعة الجبلية الوعرة ، أو التي يعتمد أهلها على مطر غير منتظم أو على تجارات رائجة عادية في البر والبحر ، وما الى ذلك من وجوه المعاش المرتبط بالظروف الطبيعية أو العامة . وكل ما تحتاج اليه مصر من حاكمها في سياسة أمورها الداخلية هو أن يكون قادرا على أن يقر الأمن في ربوع البلاد عادلا في أحكامه وفيما يجبي من أموالها ، ولهذا كان الناس يعبرون عن الحكم في العصر التركي « بالضبط والربط » أي ضبط الأمن وربط الأموال . أما ما عدا ذلك من الأمور كالتنظيم وتعهد المرافق فمن شؤون سكان مصر أنفسهم ، تعلموا كيف يرتبونها على مر العصور . وكل ما تعرضت له مصر خلال تاريخها من الأزمات والمتاعب كان سببه عجز الحكام أو جشعهم أو تدخلهم في شؤون الناس تدخلا مفسدا .

لهذا لم تتطلب مصر من العرب أن يضعوا لها نظاما جديدا ، بل الاكتفاء برعاية النظام التقليدي . ولم يكن الرومان أو البيزنطيون من بعدهم قد أفلحوا في حكم مصر ، لأنهم اعتبروها موردا للغـلال وأثقلوها بالمطالب والموظفين المكلفين بجمع المال ، ثم أضافوا الى ذلك التدخل في شؤون العقيدة . وقد تلافى العرب ذلك كله من أول الأمر ، فقرروا على البلاد بالاتفاق مع أهلها قدرا معينا من الجباية واختصروا الجهاز الاداري الى أبسط حد ممكن ، وتركوا الناس أحرارا في عقائدهم ، فكان من الطبيعي أن يســـود الرخـــاء والاستقرار .

الفترتان الأموية والعباسية :

وينبغي أن نفرق عند دراستنا لأحـوال مصر — منذ الفتح العربي الى قيـام دولة أحمد بن طولون عام ٢٥٤ / ٨٦٨ — بين فترتين تختلف احداهما عن الأخرى اختلافا بينا في الروح والاتجاه : الأولى تمتـد من الفتح الى نهاية العصر الأموي (من شوال ٢١ هـ / سبتمبر ٦٤٢ الى ربيع الأول ١٣٢ هـ / أغسطس ٧٤٩) ، والثانية من بدء العصر العباسي الى استبداد أحمـــد بن طولون بشؤون مصر في الشهور الأخيرة من سنة ٢٥٤/٨٦٨ . فالفترة الأولى تعتبر بصورة عامة فترة استقرار ونظام ورخاء ، تطول فيها مدد العمال ويغلب عليهم وعلى من يعاونهم العدل والقدرة وحسن السمت ، ولا يشكو المصريون بصفة عامـــة من ثقـــل ضرائب أو مساءات حكام . والفترة الثانية فترة قلقلة سياسية وفوضى ادارية تقصر فيها مدد الحكام ويتعاقبون فيها على البـــلاد واحدا في اثر واحد ، ويفقد الكثيرون من كبار العمـال الهيبة وثقة الناس ، وتعلو مبالغ الجبايات ويشـــكو المصريون الظـلم وتكثر ثوراتهم وتتعرض أمور البلاد كلها للفساد . وهـــذا الاختلاف بين الفترتين انما هو صدى للتطور العام الذي شمل الدولة الاسلامية كلها خلال هذين العصرين .

الادارة :

ونبدأ بالفترة الأولى : اقتصر الجهـاز الاداري الذي أنشأه العرب لمصر على وال يعتبر حاكما عاما وممثلا للخليفة ويدخل في اختصاصه كل شيء بصـورة مبدئية . فهو الحاكم الاداري الأعلى وأمير الصلاة والقائد العسكري والمسئول عن شؤون المال وما الى ذلك الا القضـاء ، فقـــد اعتبرته الدولة الاسلامية من أول الأمر وظيفة رفيعة القدر يقتضي صلاحها أن يكون سلطان صـــاحبها مستمدا من الرئيس الأعلى للدولة مباشرة . وكان الوالي يسمى أيضا العامل أو الأمـير أو أمير الصلاة أو أمير الجنـد ، وتسميه الوثائق البردية اليونانيـــة سيمبولوس . وقـــد يفـرد الخليفـة لبعض اختصاصات الوالي موظفـا خاصـــا يبعثـه من عنده ، ويظهر هـــذا بصـــورة خاصة في الناحيــة

المالية ، فكثيرا ما كان الخلفاء يعينون للقيام بها عاملا خاصا مسئولا أمامهم مباشرة يسمى عامل الخراج .

ولما كانت شؤون المال أهم جانب من أعمال الوالي فان ذلك التصرف كان يلقى معارضة شديدة من الولاة ، بل ترك عمرو بن العاص ولاية مصر عام ٢٥/٦٤٥ عندما قرر عثمان أن يولي عبد الله بن سعد على الخراج الى جانبه ، وفى خلافة معاوية شكا أخوه عتبة بن أبي سفيان عامل مصر من تولية وردان عاملا على الخراج الى جانبه ، فضم اليه الخراج . وكان الولاة على حق فى هذا الاعتراض ، لأن الخراج كان عصب الولاية فى واقع الأمر ، واذا تولاه رجل قادر استطاع أن يتخطى الوالي ، كما حدث عندما ولى هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب عاملا على الخراج ، فقد استبد بالعمال حتى عزل خمسة منهم خلال ولايته الطويلة على خراج مصر (١٠٥/٧٢٣ - ١١٦/٧٣٤) ومع ذلك فلم يقلع الخلفاء عن افراد الخراج بوال خاص حتى أقام خلفاء بني أمية سبعة منهم فى فترات مختلفة . وعندما ولى هشام ابن عبد الملك على مصر الوليد بن رفاعة لم يدخر الوليد وسعا فى التخلص من عامل الخراج عبيد الله بن الحبحاب ، وتمكن من اقناع الخليفة بضرورة ابعاده عن خراج مصر ، فاستعمله على المغرب .

وكان العامل هو أمير الجند ، فكانت قيادة الجيوش وتأمين البلاد من البر والبحر من أهم اختصاصاته ، وينبغي أن نقرر أن عمال مصر حتى نهاية العصر الأموي كانوا على الجملة قوادا مهرة ، وسنرى فيما بعد مقدار اهتمامهم بشؤون الجند والحرب وتوفيقهم فى ذلك .

وكان العامل مسئولا عن الأمن داخل البلاد ، وجرت العادة بأن يعين الوالي من قبله موظفا مسئولا عن الأمن يسمى صاحب الشرطة ، يكون فى الغالب نائبا عنه اذا غاب وتاليا له فى الأهمية فى السلم الادارى ، وفى أحيان كثيرة كان صاحب الشرطة يخلف الوالي فى منصبه اذا عزل أو مات أو تنحى عن عمله . وربما أقام الخليفة صاحبا للشرطة من قبله . ووظيفة الشرطة بصفة عامة من وظائف الادارة التى لا نعرف عن أمورها شيئا مفصلا . وفيما يتصل بمصر لدينا اشارات كثيرة عن الشرطة ، ونستطيع أن نستنتج منها اختصاصاتها ، ولكننا لا نعرف المدى الذى كان يمتد اليه سلطان صاحبها : هل كان يشمل بلاد مصر كلها أو الفسطاط فقط . وقد ذهب بعضهم الى أنه كان يشمل القطر كله ، وأنه كان لصاحب الشرطة ممثلون فى النواحى ، ولكننا لا نجد بين أيدينا ما يؤيد ذلك ، وكل ما لدينا اشارات الى ما يسمى شرطة فوق أو الشرطة العليا وشرطة أسفل أو الشرطة السفلى ، والمراد هنا قسمان اداريان قسمت اليهما الفسطاط .

وعلى أى حال فان ذلك لا ينطبق على شرطة مصر فقط ، بل على شرطة غيرها من بلاد الاسلام ، ففى العراق كانت الشرطة خاصة ببغداد، وربما كانت هناك شرطة خاصة بالبصرة ، ولكنها تابعة لوالى البصرة . وفى قرطبة كانت هناك شرطة عليا وشرطة سفلى خاصتين بالمدينة ، وكانت هنالك شرطات فى كبار المدن ، ولكنها كانت تابعة للوالى . أى أن نظام الشرطة فى العالم الاسلامى كان نظاما خاصا بالعواصم ، ولم يكن جهازا اداريا ضخما مثل جهاز البوليس والأمن العام عندنا اليوم ، بل هو لم يكن — حتى فى هذه الحدود — نظام أمن من أول الأمر ، بل كان يطلق فى العصور الاولى على فرقة ممتازة من الجند تقوم بحراسة الخليفة أو الوالى ، ثم امتد سلطان صاحبها الى الأمن فى العاصمة ، واللفظ معرب عن اللاتينى Securus . أما الأمن فى الكور فكان من شأن عمال الكور .

وكذلك يقال عن البريد : وقد نشأت وظيفته من أيام معاوية بن أبى سفيان على الأغلب ، وقد انشأه ليعرف أخبار النواحى ، أى أنه كان نظاما مهمته تيسير المكاتبات بين مركز الدولة والنواحى ، وأهم ادواته الطرق التى تسير فيها البرد والخيل التى تحملها وليس لدينا ما يدل على أن صاحب البريد فى مصر مثلا كان يقوم على تعبيد الطرق المؤدية الى دمشق أو بغداد ، انما كان الذى يهتم بذلك الخليفة نفسه ، فقد أمر عبد الملك بن مروان مثلا بصنعة الأميال — أى تمهيد الطرق — واقامة النزل على المراحل لتحل بها خيل البريد المراحة أو للاستبدال بخيل اخرى . ولكن صاحب البريد كان موظفا رئيسيا ، لأنه كان مكلفا بايصال المكاتبات من مركز الخلافة الى عواصم الولايات .

هذه هى الوظائف الرئيسية التى احتفظ بها العرب لأنفسهم أول الأمر ، أما بقية شؤون التنظيم الداخلى فقد تركت لأهل البلاد . وقد قسمت مصر بصفة عامة الى قسمين كبيرين : الصعيد وأسفل الأرض ، ويقابلان الوجه القبلى والوجه البحرى ، وفى حالات قليلة كان الأمير يولى على كل منهما عاملا تابعا له . ويغلب على الظن انه كان يتولى شؤون كل من القسمين رجل من أهل البلاد - ومعظمها شؤون مالية — وكانت البلاد مقسمة فى العهد البيزنطى الى باجركيات فاحتفظ العرب بهذا التقسيم ، وأطلقوا على الباجركية لفظ كورة وهو معرب من اليونانى .

وقد اجتهد ياقوت فى مقدمة « معجم البلدان » فى تحديد معنى الكورة ، ولكنه لا زال فى حاجة الى بيان ، فهو لا يعادل « المديرية » فى تقسيمنا الحالى ، بل ربما كانت الكورة تقابل « المراكز » وما يتبع كلا منها من زمام ، فان ابن دقماق مثلا يقول ان كور مصر كانت ثمانين ، وقال المقريزى فلا

عن القضاعي ان كور الصعيد كانت ٢٨ فلما ذهب يحصيها لم يذكر الا ٢٢ أو ٢٣ ، وكور أسفل الأرض ٣٥ أو ٣٣ أو ٣٨ ، والمجموع على أي حال لا يصل الى ٨٠ . والمهم لدينا أن الكورة كانت قسما اداريا ماليـــا يحكمه « صاحب كورة » من أهل مصر .

وكانت الكور مقسمة الى قـرى ذهب بعضهم الى أن عددها ١٠٠٠٠ ، وقال آخرون ان الوليد بن رفاعة أحصاها احصاء تاما دقيقا فبلغت ١٠٠٠٠ قرية ، « فلم يحص في أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية ، يكون جملة ذلك خمسة آلاف ألف رجل » . وهذه كلها تقديرات جزافية لا نستطيع التعويل عليها ، وأبسط ما يدحضها أن احصاء الوليد بن رفاعة هذا — الذي يصف المقريزي ما أنفق في عمله من جهد — قدر سكان مصر الذين تجب عليهم الجـزية بخمسة ملايين ، فكان ينبغي أن تكون حصيلة الجزية وحدها ١٠ ملايين من الدنانير مع أن جباية مصر كلها في العصر الأموي لم تزد على أربعة ملايين . وكل ما نستطيع قوله هو أن البلاد قسمت الى كور ، كل كورة تضم عددا من القرى . وعلى رأس كل كورة صاحب كورة مسئول عن شـئون كورته أمام العامـل مباشرة ، ويسـاعد صـاحب الكورة موظف مختص بشئون المال يسمى الجشتال ، وهو معرب من اليوناني ومعنـــاه الكاتب أو المسجل .

أما القـــرية فيحكمهـــا رجـــل يسمى المازوت أي شيخ القرية ورئيسها ، وهـو معرب من اليوناني أيضـا .وله معنى الكاتب أو « الجرافوس » القديم .

ويبدو أن عدد الكور وحدودها لم تتغير خلال القرن الهجري الأول عما كانت عليه خلال القرن السادس الميلادي ، فلدينا قائمة بباجركيات مصر عملها هيروقليس خـــلال الثلث الأول من ذلك القرن ، وهي تضـم اثنين وسبعين من عواصم الباجركيات ، نجد منها ٤٧ في قوائم الكور التي كانت موجودة في مصر خلال العصر الأموي . غير أن هـذا التقسيم لم يظل على حاله ، واتجه الأمر شيئا فشيئا الى تقليل عدد الكور بضم بعضـها الى بعض ، نتيجة للاضـطراب والفسـاد اللذين دبا في شـئون البلاد عامة خــلال العصر العباسي .

وهـذا التقســـيم الاداري يختلف عن التقسيم الجغرافي للبـلاد ، وقد خلط بعض الكتاب فجعل الأقسام الجغرافية أقسـاما ادارية ، مثال ذلك أن تقسيم مصر جغرافيا الى أسفل الأرض والصعيد لم يكن له وجود في التنظيم الاداري ، وكذلك تسمية أسـفل الأرض بالريف ، وتقسـيمه الى بطن الريف (وهو جزء الدلتا المحصور بين فرعي دمياط ورشيد) والحوف الغربي (وهو ما يلي فرع رشيد غربا) والحوف الشرقي (وهو ما يلي

فرع دمياط شرقا) . وربما كان لهذه الأقسام الجغرافية أثر في التقسيمات الادارية الكثيرة التي عرفتها مصر خــــلال العصر الفاطمي وما تلاه ، أما العصر الذي ندرسه فلم يكن لها فيه صـــــدى . ولم تكن الفســـطاط أو الاسكندرية ممدودتين في الكور ، بل كانتا مدينتين ، تعتبر كل منهما وحدة ادارية قائمة بذاتها .

شئون المال :

فاذا انتقلنا الى الناحية المالية وجـــدنا أنفسنا أمام مشكلة جديرة بأن نطيل الوقوف عندها ، لأن تفاصيلها تلقي ضوءا نافعا على النظم المالية التي سار عليها المسلمون في ادارة دولتهم خــلال عصرها الأول . وقد تعود الباحثون عندنا أن يقنعوا بما تورده المراجع العربية من بيانات عامة عن هـــذه الناحية ويجتهدوا في استخلاص احكام منها ، فاذا ذهبنا ندرس هذه البيانات لاحظنا بين بعضها وبعض من الاختلاف والتناقض ما يجعـــل الاطمئنان اليها مدعاة للزلل وسوء التقدير .

ذلك أن هذه البيانات كلها لم تعتمد على نظر الى الواقع أو على نقل من وثائق رسمية او سجلات ، وانما هي محاولات من مؤرخين كلهم متأخر عن العصر الذي ندرسه تأخـــرا يحول بينهم وبين معرفة ما جرى عليه الأمر في الواقع . صحيح أن أقدم الموثوق فيهم من أصـحاب هــــذه الأصول ، وهم ابن عبد الحكم والبلاذري والطبري ، ينسبون ما يقدمونه من معلـــومات الى رواة يعتبر بعضهم في مراتب المعاصرين ، ولكن هؤلاء الرواة جميعا فقهاء أو محدثون أو من يجري مجراهم ، وأولئك جميعـــا كانوا يرون أن مهمتهم « تقنين الواقع » ، أي صياغته في صورة قانونية فقهية ، والتوفيق بينه وبين القواعد الشرعية الاسلامية : فاذا تحدثوا عن جبـاية اجتهـدوا في تقسيمها الى جزية وخراج وزكاة ، واعتبروا ما سوى ذلك من الضرائب مغارم ومكوسا ، واذا فرغوا من أخبـــار فتح بلد من البلاد وقعوا يناقشون ما فتح منه صلحا وما فتح عنوة وهكذا . وقد أشرنا فيما سبق الى أنهم لم يوفقوا في درك مطلبهم هـــذا ، فجاءت بياناتهم متناقضـــة متضاربة ، ثم عثر الباحثون على مجموعات من الوثائق البردية الخاصـــة بشئون مصر الادارية والماليـــة خــلال القرنين الهجريين الأولين ، فاتضح منهـا أن الواقع يختلف تماما ، في جملته وتفصيله ، عما ذهب اليــه أولئك المؤرخون .

وقد رأينا في عهد الصلح الذي أوردناه برواية الطبري (فقرة ٤) أن الاتفاق قد تم على أن يؤدي أهل مصر جزية سنوية قدرها ٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دون تحديد ما اذا كان المراد دراهم أو دنانير . وقد غلب على رأينا أن المراد دراهم ، وقلنا ان ذلك يعتبر اتفاقا مبدئيا أعاد عمرو النظر فيه بعد تمام فتح البلاد . ثم ذكر ابن عبد الحكم روايتين تتفقان في الروح

وتختلفان في التفاصيل ، فأما الأولى فتذهب الى أن المقوقس لما خاف على نفسه ومن معه سأل عمرو بن العاص أن يفرض للعرب دينارين على كل واحد منهم ، ونعتقد أن هذه الرواية ان هي الا محاولة غير موفقة لتقنين الفترة الرابعة من عهد الصلح . وأما الثانية فتقول « ان الصلح تم على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط خاصة ديناران على كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ، من بلغ منهم الحلم . ليس على الشيخ الفاني ، ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ، ولا على النساء شيء . وعلى أن للمسلمين النزول بجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك ، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم في شيء منها ، وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الحلم وفرض عليه الديناران ، رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة ، فكان جميع من أحصي يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس ، فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار في السنة » . وهذه رواية ظاهرة الضعف ، فهي تذكر أن احصاء دقيقا بأهل مصر قد عمل وأن جزية الرءوس وحدها بلغت ١٢ مليون دينار ، غير خراج الأرض ، ثم انها تجعل للعرب على المصريين حق النزالة

والضيافة وهو فرض ثقيل يدخل ضمن المغارم المستحقة في الاسلام . وأغلب الظن أن الفقهاء هم الذين وضعوا صيغ هذه النظم رغبة منهم في التوفيق بين الواقع والأحكام الشرعية . وكانوا يتصورون ، أو يحاولون أن يصوروا للناس ، أن الأمر جرى منذ البداية على القواعد التي استخرجوها هم أنفسهم من الأصول بعد الفتوح بزمن طويل .

وقد بدأ يتضح ضعف هذه الآراء من أواخر القرن الماضي ، عندما اكتشفت مجموعات الوثائق البردية الخاصة بالعصر البيزنطي والقرنين الهجريين الأولين . وقد درس ماكس فون برشم ما استطاع دراسته من هذه الوثائق واستناع — اعتمادا عليها — أن يقرر أنه « قد فرضت على الناس ضريبتان رئيسيتان : الأولى ضريبة مالية كبيرة تسمى الجزية (باليونانية : ديموزيا) تؤدي نقدا بالدينار ، وضريبة نوعية أخف من الأولى تسمى الضريبة (باليونانية : ايمبولي) تؤدى بأرادب القمح . هذان المصدران من مصادر الايراد في ميزانية الدولة يقابلان وجهين متميزين من وجوه الانفاق ، فالجزية تغطي عطاء الجند ، والضريبة تغطي ما كان يؤدى الى الجند من أرزاق . وكلتا الجزية والضريبة كانت مفروضة على الجماعة كلها كوحدة . كانتا ضريبتين فعليتين يسأل عنهما شيخ الناحية أمام الأمير رأسا . ثم حدث بعد

ذلك — نتيجة لما أصاب حصيلة الضرائب العامة من اضطراب بسبب دخول الناس في الاسلام واتساع الملكيات العقارية التي حازها المسلمون — أن ظهر « الخراج » وتحدد في صورة ضريبة واقعة على الأرض أيا كان مالكها » .

ثم توفر كارل هاينريش بيكر على دراسة الموضوع معتمدا على مجموعة الوثائق البردية المعروفة بمجموعة الأرشيدوق راينر Sammlung des Papyrus Erzherzog Rainer ودليل هذه المجموعة الذي وضعه كاراباتشيك Führer durch die Ausstellung ، وعرض نتيجة دراسته في أبحاث مختلفة أهمها الكراسة الأولى من كراستيه المعروفتين في تاريخ مصر Beiträge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam وفي مقاله عن مصر في دائرة المعارف الاسلامية ، وخلاصة رأيه : أن الحكومة كانت تطالب صاحب الكورة بنوعين من الضرائب : الديموزيا والضريبة الاستثنائية . وكان توزيع المستحق من هاتين الضريبتين على الأقسام الفرعية للكورة يتم في الادارة المركزية بناء على قوائم تعد في الناحية نفسها وترسل اليها مقدما ، وتبلغ الى هذه الأقسام ببلاغ رسمي يسمى « الانتاجيون » عن طريق صاحب الكورة . وكانت الديموزيا (الجزية) وهي الضريبة العادية تشمل :

١ — الجزية نفسها وتسمى « خروسيقا ديموزيا » وهي ضريبة مالية صرفة .

٢ — ضريبة الطعام (سيتيقا ديموزيا) وهي ضريبة عينية تؤدى قمحا أو شعيرا .

وكانت الادارة المركزية تحدد مبالغ هاتين الضريبتين . وكانتا تقرران جملة ، وتقسم الادارة المحلية بتقسيم مجموعهما حصصا على الأفراد كل بحسب طاقته .

أما الجزية نفسها (خروسيقا ديموزيا) فكانت تتألف من مجموعة من الجبايات هي :

(أ) الضريبة العقارية (ديموزياجيس) .

(ب) ضريبة الرءوس (اندريزموس دياجرافوس) .

(جـ) الضريبة الادارية المحلية (داباني) .

ولم تكن الضريبة العقارية خاصة بملاك الأراضي فقط بل كانت تشمل أيضا أصحاب الحرف الذين لا يملكون عقارا ما . ولم تكن ضريبة الرءوس في أول الأمر ضريبة عامة ، ولا نعرف على وجه التحديد على أي أساس كانت تجبى . كذلك كان من الممكن أداء ضريبة الطعام (أمبولي) نقدا ، فيدفع الانسان قيمتها أو الثمن (اباريزموس) بحسب مصطلح هذه الأيام . وكان جزء من الأمبولي ينفق محليا لتغطية نفقات الادارة المحلية ، وهذا الجزء يعادل الضريبة الادارية

المحلية (داباتي) ويرسل الباقي الى الأهراء الحكومية في الفسطاط أو الاسكندرية .

وكانت الضريبة الاستثنائية المسماة (اكسترا اوورديسا) ضريبة منظمة أيضا ، ولكن نوعهـا كان يختلف بحسب الاقاليم والظروف ، كان يطلب الى الكورة مثلا أن تقدم الخشب وما اليه مما تبنى به السفن وكذلك الأدوات والعمال والبحارة وتدفع أجورهم ، وربما اضطر رجال الكورة الى شراء بعض هذه الأصناف المطلوبة واحتساب ثمنها من جملة الأموال المقررة . وكانت هذه الضريبة الاستثنائية ترسل مباشرة الى المعسكرات ومراكز تجمع الجند . وكانت الدولة لا تقبل من الكورة مقابل هذه الأصناف نقدا الا فيما يتصل بعلوفة الخيل ، ولكن كان من الممكن للافراد أن يدفعوا المستحق عليهم نقدا ثم يقوم رجال الكورة بتدبير المطلوب .

وهذا التفصيل الذي أوردناه مستخرجا من واقع الوثائق البردية يدل على أن ما ورد عند ابن عبد الحكم ومن اليه لم يكن الا تصويرا نظريا فقهيا لما كان يجرى في الواقع . ومع ذلك فان خطط المقريزي تضم نصوصا تؤيد ما تدل عليه أوراق البردي . فمن ذلك ما يقوله رواية عن يزيد بن أسلم : « وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر أقر قبطها على جباية الروم ، فكانت جبايتهم بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، واذا قل أهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرافو كل قرية وأمراؤها ورؤساء أهلها ، فيتناظرون في العمارة والخراب ، حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى ، فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع . ثم يجتمع (رجال) كل قرية بقسمهم ، فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة ، فيبتدئون ويخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فاذا فرغوا نظروا لما في كل قرية من الصناع والأجراء ، فقسموا عليهم بقدر احتمالهم ، فان كانت فيهم جالية قسموا عليهم بقدر احتمالها ، وقلما كانت تكون الا الرجل الشاب أو المتزوج . ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم . فان عجز أحد منهم وشكا ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال ، وان كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف ، فان تشاحوا قسموا ذلك على عدتهم . وكانت قسمتهم على قراريط الدنانير أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك » .

وقال المقريزي رواية عن هشام بن أبي رقية اللخمي : « قدم صاحب اخنا على

عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، فقال له : أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصبر لها ، فقال عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة : لو أعطيتني من الأرض الى السقف ما أخبرتك ما عليك . انما أنتم خزانة لنا : ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف علينا خففنا عنكم » ، مما يفهم منه بوضوح أن مقادير الجباية لم تكن محددة ولا ثابتة ، وانما يقسم الأمير المطلوب منه عاما فعاما على الكور ، وعلى رجال الكورة أن يدبروه على النحو الآنف الذكر .

كذلك روى المقريزي عن يحيى بن سعيد : « الجزية جزيتان : جزية على رءوس الرجال ، وجزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية ، فمن هلك من أهل القرية التي عليهم جزية مسماة على القرية ليست على رءوس الرجال ، فانا نرى أن من هلك من أهل القرية ممن لا ولد له ولا وارث أن أرضه ترجع الى قريته في جملة ما عليهم من الجزية ، ومن هلك ممن جزيته على رءوس الرجال ولم يدع وارثا فان أرضه للمسلمين » وهذا ينطبق تماما على ما دلت عليه أوراق البردي ، فالجزية التي على الرءوس هي الضريبة النقدية العامة (خروسيخا ديموزيا) . والجزية التي تكون جملة على أهل القرية هي ضريبة الطعام (سيتيخا ديموزيا) . وكانت الحصيلة الاجمالية لكل من الضريبتين تحدد مقدما بمعرفة الادارة المركزية .

وهذا يفسر لنا المشكلة التي واجهت الحكام بعد أن تقادم عهد الاسلام بالبلاد : مشكلة الجزية المستحقة على من أسلم ، فان الديموزيا العامة كانت تتضمن - كما رأينا — الضريبة العقارية وجزية الرءوس والضريبة الادارية المحلية . أي أن ضريبة الرءوس كانت داخلة في جملة الديموزيا ، ولم تكن تجبى على الأساس المقنن الذي نجده مفصلا في كتب النظم الاسلامية ، وانما كانت تقدر جملة على أساس ما كان يجبيه البيزنطيون منها ، ثم يقسمها أهل القرية على أنفسهم بحسب الطاقة . فلما بدأ الناس يسلمون طالبوا بالغاء هذا الجزء من الديموزيا ، اذ لا جزية رءوس على المسلمين ، ورفض العمال ، لأنهم لم يقرروها كجزية رءوس بل كجزء من ضريبة عامة تلتزم القرى بأدائها جملة أيضا . وقد طال الأخذ والرد بين الحكام والخلفاء بسبب هذه المشكلة الشرعية ، وانتهى الأمر برفع هذا الجزء من الديموزيا عمن أسلم ، ويؤيد ذلك ما يقوله المقريزي من أن عمر بن عبد العزيز كتب الى حيان بن شريح أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم . وقد فسر المقريزي ذلك بأن عمر بن عبد العزيز كان يرى أن مصر فتحت عنوة ، وليس الأمر كذلك ، وانما الحقيقة هي أن هذا البند من الجباية كان مقررا جملة على أهل القرية ، وعليهم أداؤه جملة كذلك بصرف النظر عما يصيب الأفراد من الموت .

ويؤكد ذلك قوله بعد ذلك : « وان الجزية انما هي على القرى ، فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم ، وأن موت من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئا » .

تلك هي الخطوط العريضة للنظام الذي سار عليه العرب في معالجة شئون مصر المالية ، وهو كما رأينا نفس النظام الذي كان جاريا أيام البيزنطيين والرومان مع فرق جوهري هو أن دافع الضرائب في تلك الأعصر السابقة على الاسلام كان يدفع في الواقع أكثر بكثير من المقرر عليه ، وربما دفع الضعف ، اذ أن عمال الدولة كانوا يحرصون على أن يستفيدوا لأنفسهم مبالغ جسيمة ، وكان عبء ذلك يقع على الناس ، فلما جاء الاسلام انقطع ذلك وأصبح الناس يدفعون المقرر عليهم قانونا فحسب ، وسيتعرض النظام الذي وضعه المسلمون لمثل ذلك الفساد بمرور السنين . وقد وجد السبيل الى الفساد من أول الأمر ، لأن الدولة لم تتصل بدافع الضرائب رأسا ، بل كان اعتمادها على طائفة من كبار الزارعين أو متقبلي الخراج في كل ناحية ، وهؤلاء هم الذين كانوا يؤدون أموال أهل نواحيهم الى عمال الكور . وكان اضطراب الأحوال في العصر البيزنطي قد زاد في قوة هذه الطبقة وجعلها أشبه بأولياء Patroni الصغار والضعفاء ، وكان الضعاف يدخلون في ولائهم Patrocinium.

ولما كانت مصر قد اعتبرت مفتوحة صلحا فقد ظلت رقاب الأرض ملكا للناس ؛ ولهؤلاء الأولياء بصورة خاصة ، ونظرا لحاجة الدولة الى المال ، فقد كان اعتمادها على هؤلاء الكبار عظيما ؛ فهم الذين يتقبلون الجباية ويضمنون المال ، وشيئا فشيئا أصبحوا أشبه بالملتزمين .

وقد وصف لنا المقريزي طريقة تقبيل الأرض فقال : « ان متولي خراج مصر كان يجلس في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذي تهيأ فيه قبالة الأرض ; وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما ينتهي اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك . فاذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضا وضمنها الى ناحيته ، فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن يندبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج في ابانه على أقساط ; ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرائبة مقدرة في ديوان الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين . بقاي لا تأخر من مال الخراج

البواقي . وكانت الولاة تشدد في طلب ذلك مرة وتسامح به مرة » . وربما كان هذا هو النظام المتبع في أيام العباسيين ولكنه متطور قطعا عن نظام بدائي شبيه به . وربما استطعنا أن نقول انه في هذه العصور الأولى كان أولئك الأولياء الكبار متعهدون فعامل الكورة بجمع المال .

أما جملة المتحصل من هذه الضرائب بشتى صنوفها فمن العسير تحديدها ، فان التقديرات التي يوردها المؤرخون تتراوح ، فيما يتصل بالسنوات الأولى ، بين عشرة ملايين وخمسة عشر مليونا من الدنانير (الدينار نصف جنيه تقريبا) ويدخل في ذلك ما يدفع نقدا وثمن ما يؤدي نوعا.ولم يكن هذا المال كله يرسل الى مركز الخلافة ، بل كان معظمه ينفق في البلاد : يستنزل عمال الكور ثم المتقبلون فيما بعد جسزءا منه في مقابل ما يقومون به من أعمال التعمير والاصلاح والصيانة ، ويرسلون الباقي الى الأمير ، فيؤدي هذا منه أعطيات الجند وأرزاقهم ورواتب الموظفين والعمال ، والباقي هو الذي يرسل الى مركز الدولة . ولكي نقدر النسبة بين هذا وذاك نذكر أن جباية مصر بلغت في عهد معاوية بن أبي سفيان أربعة ملايين دينار أرسل اليه منها ٦٠٠,٠٠٠ دينار وعد ذلك مبلغا جسيما . أما متوسط ما كان يرسل الى مركز الدولة ابتداء من القرن الهجري الثاني فكان نحو ١٠٠,٠٠٠ دينار ، وقد يرتفع الى ٢٠٠ ألف أو ٣٠٠ ألف بحسب اتفاقات خاصة مع الأمراء .

وقد كان العرب عندما دخلوا مصر يتصورون أنهم سيجبون منها من الأموال ما لا يحصى ولا يقدر ، فقد كانوا يسمعون ، بحسب ما يقول المقريزي ، أن فرعون كان يستفضل من مال مصر ، بعد استيفائه شتى أنواع النفقات ، ستة وعشرين مليونا من الدنانير ، ولهذا فقد قوجيء عمر بن الخطاب بقلة ما بعث به عمرو بن العاص من الجباية وشك في أمره ، وجرت بينهما مكاتبات ذات مغزى عظيم ، لأن خطابات عمر تدل من ناحية على تصوره لغنى مصر ، وردود عمرو تدل على الواقع الذي كان يواجهه هذا الأمير الذكي القادر . وعندما جبى عبد الله بن أبي سرح مليونين زيادة على ما جباه عمرو فرح الخليفة عثمان بن عفان بذلك وحدث عمرا في الأمر ، فرد عمرو ردا يدل على خبرة وبعد نظر ، وكان محقا في ذلك ، لأن المسألة ليست مسألة ضخامة مبلغ الجباية ، وانما المهم هو المحافظة على مورد المال سليما حتى لا ينضب .

وظاهر من هذا النظام المالي الذي جرى عليه العرب في مصر انهم تركوا الأرض بيد أصحابها من المصريين ، ولم يعتبروها ملكا للدولة . وقد ناقش الفقهاء في هذا الموضوع وذهب بعضهم الى أن مصر فتحت صلحا وقال بعضهم الآخر انها فتحت عنوة ، وكلها

مناقشات فقهية نظرية صرفة ، لأن الواقع الذي يقـررونه جميعـا هو أن أرض مصر أجريت مجرى الصلح ، وأن الملكية العقارية ظلت بيد الأهالي ، وقد نص على ذلك صراحة في معاهدة بابليون ، وأكد فيما تلا ذلك من المعاهدات وما جرت عليه المعاملات . وبهـذا اختلف الوضـع القانوني لأرض مصر عن أرض العراق مثلا ، فقد كانت الأخيرة ملكا للدولة وليس للأهالي عليها الا حق الارتفاق ، أما في مصر فقد ملك الناس الأرض ملكا كامـلا ، « وقد دلت الأوراق البردية التي ترجع الى عهـد الولاة على انه كان يحق لأهـالي مصر التصرف في الأراضي التي يملكونها بالبيع والشراء والتـوريث والهبة » . وقد ترتبت على ذلك نتائج ذات أهمية كبرى فيما يتصل بحقـوق الدولة الاسلامية على أرض مصر ، فبينما جرى الخلفاء على منح الاقطاعات والصـياع في العراق من أول الأمر ، لا نجد هذه المنح في مصر الا في حدود ضيقة ، واقتصر أمرها في تلك الأراضي التي كانت مملوكة للدولة البيزنطية ورجالهـا ، فآلت الى الدولة الاسلامية ، ومن هذه الأراضي الأخيرة بدأت الدولة تمنـح من تريد من زمن عمـر بن الخطاب . نقول تمنح ولا نقول « تقطع » لأن المراجع تخطىء وتستعمل اللفظ الأخير ، مع ما بين اللفظين من خلاف في المعنى القانوني والسياسي . أما الاقطاعات التي ظهرت بمصر

بعد ذلك فلها ظروف أخرى اقتضاها تطور عام في أحوال الدولة الاسلامية جملة ، ومن الخطأ القول بأنها استمرار أو اتساع لهـذه المنح .

وقد حصل كثيرون من العـرب الذين نزلوا مصر على أراض بهذه الطريقة ، أي أنها كانت منحا من أراض صـارت الى الدولة بحق الفتح ، وحصلوا عليها أيضا من أراضي البور — التي كانت تسمى أرض الموات — ليستصلحوها ، وكانوا يعفون من ضريبتها فترة ما بحسب ما تقضي به الشريعة في أحكام الأرض الموات ، ثم يؤدون عنها العشر بعد ذلك . وكذا المالك العربي أيا كان وضـعه يؤدي ضريبة العشر عما بيده ، وكان العرب يسمونها زكاة ترفعا عن دفع الخراج ، ولكنها كانت في الواقع ضريبة عقارية تجري مجرى الخراج . وقد طالب المصريون الذين دخلوا الاسـلام أن يعامـلوا بالمثل فتسقط عنهم الجزية (بفروعهـا) وضريبـة الطعـام ، وتكتفي الدولة منهم بضريبة عقارية هي العشر وتسمى الزكاة ، ومعنى ذلك فقدان الدولة لمعظم ايراداتها ، فرفضت الدولة ، بل ألزمت العرب أنفسهم بدفع الخراج كاملا عمـا يشترونه من أرض الخراج ، فلا تتحـول أرض خراجية الى أرض عشرية . ولهذا فقد ظل ايراد الدولة في مصر متوازنا في حين أن ايرادها من أرض العراق هبط هبوطا شديدا . لأن الدولة ، وهي مالكة رقبة الأرض ، كانت

تمنع الناس الضياع والاقطاعات ، فتتحول الأرض من خراجية الى عشرية ، مع عظم الفرق بين الاثنتين ، ويلاحظ أن المقطعين في العراق كانوا يتقاضون من الزراع الخراج ويؤدون العشر ، فيكسبون ويخسر الدولة . بينما كانت أرض مصر كلها تتحول شيئا فشيئا الى خراجية .

والوثائق البردية تؤيد كل ما ذكرناه خاصا بمصر ، فلدينا خطابات صادرة عن عامل مثل قرة بن شريك أحدها مؤرخ سنة ٩١/٧٠٩ يطلب فيه الى أهل تمبرابتميرو من كورة أشقوه أن يؤدوا المتأخر عليهم من الجزية نقدا ومن ضريبة الطعام قمحا . وفي خطاب آخر من نفس الوالي الى صاحب أشقوه أيضا يقول فيه انه اذا تعذر عـلى الناس دفع ضريبة الطعام قمحا فلا بأس بأدائها نقدا ، ولكنه يطلب اليه أن يجتهد في ارسالها قمحا . بل يظهر بوضوح من وثائق أخرى أن ضريبة الطعام لم تكن تؤدى دائما قمحا أو شعيرا ، بل كان من الممكن استبدالها بحسب حاجة الدولة بأشياء أخرى من محصولات الناحية كالعسل والخل والزيت والنسيج والجلود .

ويفهم من رواية البلاذرى عن يزيد بن حبيب أن قيمة ضريبة الطعام كانت تعادل الجزيه ، قال : « ان أهل الجزية بمصر صولحوا في خلافة عمر بعد الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والعسل و (عسل) الخل على دينارين دينارين ، فألزم كل رجل أربعة دنانير ، فرضوا بذلك وأحبوه » ، ومن الواضح أن الدنانير الأربعة المذكورة منها اثنان للجزية واثنان لضريبة الطعام . غير أن هذا القدر الذي يحدده يزيد بن حبيب لم يكن ثابتا كما يفهم من النصوص العربية ، لأن أصحاب هذه النصوص كانوا يفهمونها على أنها كانت ضريبة الرؤوس ، مع أنها كانت في الواقع الديموزيا التي أشرنا اليها ، وكانت ضريبة عامة تشمل الضريبة العقارية (ديموزيا جيس) وضريبة الرؤوس (أندريسموس دياجرافوس) والضريبة الادارية المحلية (دابانى) وكانت حصيلتها الكليه فقط هي المحددة ، أما حصص الأفراد منها فكانت يقررها رؤساء القرية بحسب ثروات الأفراد ، فهناك من يدفع دينارا أو دينارا ونصفا أو دينارا وثلثا أو ثلثى دينار وهكذا . وقد ذهب المقريزى الى أن الدولة لم تحصل الزكاة الا في عهد صلاح الدين ، ولكن أوراق البردى أثبتت أنها ترجع الى ما قبل ذلك بكثير ، فلدينا ايصال مؤرخ عام ١٤٨ / ٧٦٥ عن زكاة بعض الأشخاص وهذا هو المعقول .

ولا شك في أن مبالغ الجباية أخذت تتناقص مع الزمن بسبب دخول الناس في الاسلام واضطرار الدولة الى معاملتهم معاملة العرب ، وبسبب تطرق الفساد الى النظم القائمة من ناحية أخرى . عـلى أى

الأحــوال نلاحظ فرقا واضــحا بين موقف الدولة من مصر أيام الأمويين ، وموقفها منها أيام العبــاسيين ، ففي العصر الأول كانت للولاة اهتمامات أخرى الى جانب العنــاية بشئون المال : كان هناك اهتمــام بالانشاء والتعمير وبناء الأساطيل وما الى ذلك ، أما في العصر العباسي فقد كان الاهتمام موجها نحو الجباية وحدها ، وهذا لا ينطبق عــلى مصر وحدها بل على بقية نواحي الدولة الاسلامية الأخــرى .

ويلاحظ بصفة عامة أن الشئون المالية سارت سيرا طيبا حتى نهاية العصر الأموي ، والسبب في ذلك يرجع الى أن عمــال الأمويين كانوا بصفة عامة على جانب طيب من الأمانة والكفاية الادارية والمعــرفة بما لابد منه لصــلاح الدولة وبلادها ثم ان خلفاء بني أمية كانوا على الجملة ذوي فهم حسن لشئون المال وتدبير لما يصــل اليهم منه ، وكانوا أميل الى الاقتصاد في نفقاتهم ، وكانت ادارتهم بسيطة لا تشــــكو كثرة الموظفين وثقل رواتبهم كما سيصير اليه الحــال أيام العباسيين .ولا يتسع المقام هنا للكلام عــلى ولاة الأمويين في مصر ، فان الكثيرين منهم يستحقون من المؤرخ وقفات طويلة . ويكفي أن نذكر أن عددهم نحو ٢٨ واليا حكموا نحو ١١٢ سنة ؛ أي بمتوسط أربع سنوات لكل منهم ، وقد طالت مدد بعضهم حتى زادت على عشرين سنة ، ولم تقصر مــدد الولاة الا في أيام هشام بن عبد الملك ، فانه كان عظيم الاهتمام بشئون المال ، ولهذا فقد كان اعتماده الحقيقي على عامــــل الخراج وخاصة عبيد الله بن الحبحاب ، فقد تصرف هذا الأخير في الامراء حتى عزل منهم أربعة برأيه ، ولم تطل مدة الخامس وهو الوليد ابن رفاعة الا بعد أن انطوى تحت جنــاح ابن الحبحاب .

وكان الكثيرون من هــؤلاء الولاة من أمراء البيت الأموي ، وأهمهم عبد العزيز ابن مروان الذي تركه أخوه عبد الملك بن مروان على مصر من ٦٥ الى ٨٦/٦٨٥ — ٧٠٥ ، وكان من خــيرة الولاة وأحسنهم . أما أعظم أولئك الولاة جميعا فهو عمرو بن العاص دون شك ، فقد فتحها وولاها أول مرة من ٢٠ الى ٢٤/٦٤١ — ٦٤٥ ، ثم عاد اليها وتولاها مرة أخرى من ٣٨ الى ٤٣/ ٦٥٨ — ٦٦٣ ، وهــو من مؤســي مصر الاسلامية وواضعي قواعد الحكم فيها . وكان عمرو رجلا ذكيا واقعيا فاهما لشئون الادارة والمال ، وكان له فهم عميق لنفسيات النــاس وقدرة على كسبهم الى جانبه . وقد توثقت العلاقات بينه وبين المصريين وطالت ممارسته لشئونهم حتى أصبح وكأنه مصري يناضــل عن حقوق المصريين . وموافقه من عمر بن الخطاب في ذلك معروفة ، وهو من غير شك أول رجال مصر الاسلامية وأبعدهم أثرا في تاريخها . وكان لمصر أيضا أثر بعيد في حياته ،

ففتح مصر هو الذي تقـــدم به الى الصف الأول من رجال الدولة الاسلامية ، بحيث أصبح بعد قليل من رجالها المعدودين . وقد تعلق قلبه بمصر فلم يعد له أمل بعــد عزل عثمان اياه عنها الا العودة اليها ، وفي سبيلها انضم الى معاوية وقام بدوره المعــروف في الفتنة التي أعقبت مقتل عثمان . ولو تركه عثمان بن عفان واليا على مصر ، أو لو ولاه اياها علي بن أبي طالب ، لاتجهت الحوادث في دولة الاسلام وجهة أخرى . وقد عرف مؤرخو مصر قدر عمرو فأحاطوه بهــالة من التقدير والاعجاب وتصــدوا للدفاع عنه ، واليهم يرجع الفضل فيما يحتــله عمرو من المكانة في كتب التاريخ والصحابة .

والمهم لدينا أنه وضع لمن بعــده تقليد العناية بشـــئون البلاد ومرافقها والرعاية لأهلها ، وعلى آثار عمرو سار من جاء بعــده من ولاة الأمويين . فلما جاء العباسيون تغير الأمر جملة ، وتمهد الطريق لاستبداد الولاة بشئون مصر ، وهو ما سيحدث على يد أحمد ابن طولون ومحمد بن طغج الاخشيد من بعده .

وقد ظهـــرت بوادر هذا التغير من أيام أبي جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ / ٧٥٣ — ٧٧٥) فبدأ يظهر بوضوح تركز اهتمام الخلافة في شئون المال . ولم يكن هذا التطور قاصرا على مصر ، بل شمل الدولة الاسلامية كلها ، لأن الدولة العباسية احتاجت منذ قيامها الى أضعاف ما كانت تحتاج منه الدولة الأموية .

والسبب الأول في ذلك تغــير الأســاس العسكري الذي كانت الدولة تقوم عليه ، فبينما كان اعتماد الدولة الأموية قائما عــلى أجناد الشام من العرب ما بين قيسية وكلبية ، أصبح اعتمــاد الدولة العباسية عــلى الخراســانيين . وكان الجندي العربي أيام الأمويين يكتفي بما تفيء عليه أجناد الشام (أي كور الشــام العســكرية) ، فقد كان خراجها اقطاعا عسكريا لهم ، وما فضل عن ذلك من ايراد الولايات كان يغطي نفقــات الخلفاء والجيوش الفاتحة ، ويبقى بعد ذلك منه جملة صالحة ينفق شيء منها في المنشآت والبنايات ويدخر الباقي . وكانت جيــوش الدولة في الولايات تنال أرزاقها وأعطياتها من الايراد المحلي ، ولم يكن للدولة الأموية في الحقيقة جيش قائم ، فقد أمنوا بين جندهم في الشام وسرحوا معظم القوى العسكرية تقتح في كل وجه .

فلما جاء العباسيون احتاجوا الى جيش ضخم يحميهم ، فاستنفدت نفقات هذا الجيش معظم ايرادهم ، لأنه كان جيشا مرتزقا طامعا يحتاج الى المــال الكثــير ، ثم ان الادارة العباسيــة اتجهت منــذ أيام المهـــدي الى الاسراف والأبهة ، وتعقدت الادارة وأدخــل وزراء الفــرس فيها كل مســاويء الادارة الساسانية القديمة ، فبدأ العجز المالي يظهر من أيام الهادي ، وأحس به الرشــيد احساسا

واضحا وسعى لعلاجه ، ثم خرج الأمر عن الضبط جملة من أيام المعتصم ، وأصبحت الدولة العباسية فى الواقع دولة مفلسة ماليا يجتهد الخلفاء والوزراء فى مداراة افلاسها بوسائل غير طبيعية ، وابتداء من أيام الواثق تصبح المشكلة المالية مرضا عضالا لا سبيل الى علاجه ، وعلى صخرة العجز المالى تحطمت خلافة بنى العباس شيئا فشيئا قبل أن تتحطم اداريا وسياسيا .

وفيما يتصل بمصر بدأ هذا التحول الخطير من أيام أبى جعفر المنصور ، فقد فكر فى أن يضمن خراج مصر ، أى يبحث عن رجل يضمن خراجها بمبلغ معين ، فعرض على واليه عليها محمد بن الأشعث أن يضمن له خراج مصر ، فرفض محمد بن الأشعث خشية العجز ، فأقام الخليفة على الخراج رجلا خاصا هو نوفل بن الفرات . وأخذت مطالبة الخلفاء بالأموال تشتد ، وكثر عمال الخراج الى جانب الولاة ، وقلت ثقة الخلفاء فى هؤلاء فأخذوا يعزلون ويولون ، فتولى مصر للمنصور ثمانية ، والمهدى تسعة ، وللرشيد ثلاثة وعشرون ، وللمأمون سبعة عشر وهكذا . وبدأ الناس يشكون من ثقل الجبايات بل يثورون بسببها ، واحتاج الولاة الى القيام بحملات على النواحى لجمع ضرائبها ، وفى القرن الثالث الهجرى تجد الادارة تستخدم القوة والضرب فى استخراج أموالها ، وأصبح الولاة فى الحقيقة مشتغلا للخراج ، وكانت الخلافة تطلق أيديهم يفعلون ما يريدون حتى يجبوا بما ضمنوه من المال ، وابتدع الولاة ضرائب شتى أنكرها الناس ، ولكنهم دفعوها بالخوف والرهبة ، ومهد الطريق لاستبداد رجل كأحمد بن طولون بشئون مصر على أساس ضمان مبلغ معين للخلافة .

الاسلام والتعريب :

فاذا تركنا هذه الناحية المالية جانبا ، وهى حجر الزاوية فى البناء الادارى لمصر فى عهد الولاة ، وجدنا أمور المصريين تجرى فى مجراها العادى بعد الفتح مباشرة ، وكأننا لم تتغير الأحوال ولم يذهب زمان ويقبل زمان ، وتبدو البلاد خلال السنين العشرين الأولى من الفتح فى هدوء يستوقف النظر ، ربما كان ذلك نتيجة لما عاناه المصريون من متاعب وقلاقل خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، فلما تخلصوا أخيرا من شقاء البيزنطيين مالوا الى الدعة والسكون كأنهم يستجمون . ثم ان العرب خلال هذه السنوات الأولى كانوا فى شغل بشئونهم وفتوحهم ، فقد كانت الدنيا قد تفتحت أمامهم من كل وجه ، فمضت جيوشهم تفتح شرقا وغربا ، وأقبلت خلف الجيوش جماعات من مهاجرة العرب تستقر فى البلاد المفتوحة .

ففى خلال الخمسين السنة الأولى من تاريخ الاسلام انتشر عشرات الألوف من العرب المهاجرين فى العراق وفارس ومصر

والمغرب والأندلس ، وكانت الأرض واسعة وفي رحابها متسع لأولئك العرب المهاجرين ، وكان جانب كبير من أراضي هذه النواحي قد ضيعه الاهمال ، وكان في حاجة الى نظام عادل يطمئن اليه الناس والى أيد عاملة . فأما الاستقرار فقد أتى به الفتح الاسلامي ، وأما الأيدي العاملة فجماعات العرب المهاجرة التي أشرنا اليها . وهنا نجد عرب اليمن يقومون بالجانب الأكبر من ذلك العمل ، واذا كان عرب الشمال — وفي مقدمتهم قريش — قد حملوا عبء الفتوح واشتغلوا بالسياسة والادارة ، فان عرب اليمن عرفوا كيف يجنون الثمرات ، فقد كانوا شعبا ميالا الى الاستقرار له عهد بعيد بالزراعة وما يتصل بها من أعمال الحضارة .

فبعد فتح العراق مباشرة نجد بطون لخم تزحف شرقا وتستقر في نواحيه ، وتسرع اليها جماعات أزد اليمن ، فيكثر عددها حتى غلبت على أرض السواد ، ثم زحفت فروع منها غربا فعمرت غربي ايران ثم امتدت الى خراسان ، وشيئا فشيئا أصبحت هذه النواحي وكأنها مستعمرة يمنية عقدت زعامتها بلواء أزد اليمن ، وكانوا أكثر القبائل عددا . أما العمال وجندهم فكانت غالبيتهم من القيسية . وبدأ التنافس بين الجانبين ، ثم انتهى الى صراع دموي انتهى باضعاف جانب العرب في فارس وخراسان . فبينما ساد العرب هذا الجناح الشرقي من دولة الاسلام في منتصف خلافة هشام بن عبد الملك حتى بدأت اللغة العربية تحل محل الايرانية ، نجد هذه الأخيرة تعود الى مكانها في نهاية العصر الأموي ، ثم انتهت سيادة العرب واللغة العربية بمجيء العباسيين وتفضيلهم الخراسانيين على العرب . وبدأت الفارسية تغلب على ألسنة العرب الباقين هناك حتى نسي الكثير منهم لغته وأخذ يتكلم الفارسية .

وكان من الممكن أن يحدث مثل هذا في مصر ، لولا أن الظروف هنا اختلفت عنها هناك ، ولم تبلغ القيسية في مصر مبلغا يمكنها من منافسة الكلبية ، فخلا الميدان تقريبا لهذه الأخيرة ، فسارت في طريقها محتفظة بقوتها وهيبة العروبة والعرب أمام السكان ، وتمكنت من نشر العربية والاسلام ، كما فعلت في المغرب والأندلس .

كان معظم رجال الجيش العربي الفاتح من عرب اليمن . نستنتج ذلك من أسماء القبائل التي نزلت الفسطاط واتخذت بها خططا ، أي أحياء . فاذا استثنينا نفرا من قريش ، وكان عددهم قليلا ، وجدنا أنفسنا أمام أغلبية يمنية تستوقف النظر : مهرة ، تجيب ، لخم ، جذام ، بنو بحر ، غافق ، حضرموت ، يحصب ، معافر ، سبأ ، بنو وائل ، مذحج ، خطيف ، بلي ، خولان ، الصدف ، وغير هؤلاء كثير . ولا شك أنه كان بين هؤلاء كثيرون من عرب جنوبي فلسطين وسيناء وشرقي الدلتا وصحراء مصر

الشرقية ، فمن انتسب منهم الى قبيلة من هذه فقد انضم اليها ، والا اندرج تحت جماعة عامة كانت تضم أخلاط من القبائل ، سميت أهل الراية . وكانت هناك أيضا جماعات قيسية قبلية ، ونفر من العرب الذين كانوا يسكنون بلاد الدولة البيزنطية ويسمون الحمراء ، ونفر قليل من بقايا فرس اليمن الذين استعربوا وكانوا يسمون الفارسيين

وعلى طول العصر الأموي كان تيار الهجرة العربية نحو مصر مستمرا ، ويبدو أن غالبية المهاجرين كانوا كذلك من اليمن وقد بلغ من أمر اليمنية أن من ولى مصر من القيسيين كانوا يحرصون على أن يتقووا باستقدام قبائل قيسية الى مصر : حدث ذلك في أيام عبد العزيز بن مروان والوليد بن رفاعة وولاية عبيد الله بن الحبحاب على الخراج ، فكثرت جماعات القيسية بمصر ، ولكنها لم تنزل الفسطاط ، وانما شرقي الدلتا : حوالى بلبيس أولا ثم امتدت شمالا وجنوبا حتى عمرت ما عرف بالحوف الشرقي ، ونزلت كذلك في غربي الدلتا ، فيما يعرف الآن باسم البحيرة فعرف بالحوف الغربي ، أي أن كتلة كل جذم من جذمي العرب الكبيرين نزلت في ناحية غير ما نزلته الأخرى ، وربما كان هذا هو السبب في أنه لم يقع بمصر هذا الصراع الدموي بين قحطان وعدنان الذي قضى على سلطان العرب في فارس وخراسان وكاد يقضي عليه في الأندلس .

وقد حرم عمر بن الخطاب على جند العرب المدون الاشتغال بالزراعة أو الانصراف الى مطلب آخر من مطالب الحياة ، ولكنه لم يحرم ذلك على العرب عامة . لأن التحريم على الجند ضروري وطبيعي ، أما على عامة العرب فغير معقول أو ممكن . وينبغي أن نذكر أن العرب لم يكونوا جميعا جندا مدونين ، فكيف يحرم عمر العمل على عربي عادي هاجر بنفسه وأهله الى بلد كمصر ليرتزق ويعيش ؟ من الطبيعي أن تكون قد وجدت في مصر وغيرها جماعات عربية مدنية ، وهذه هي التي اشتغلت بالزرع والضرع وشئون المعاش دون أن يكون في ذلك مخالفة لأمر عمر ، وهذه الجماعات يصعب احصاؤها ، وهي التي انبثت من أول الأمر بين الأهلين في كل ناحية واختلطت بهم ، وهي صاحبة الفضل الأكبر في تعريب الستة الناس وتحويلهم الى الاسلام ، لأن الجند العربي ظل منفصلا بنفسه في معسكراته ، وأشهرها الفسطاط ، ولذلك لم تتح له الفرصة للاتصال بالناس ، ومن هنا كان دوره في التعريب وادخال الناس في الاسلام قليل .

وسواء بحثنا في العراق أو في مصر أو الأندلس ، فاننا نجد الغالبية العظمى من هؤلاء الذين انبثوا بين الناس كانوا من عرب اليمن أول الأمر ، ثم لما غلب الأنصار على أمرهم في معترك السياسة العربية ، وانتزع

المهاجرون الأمر منهم ، ترك الأنصار ميدان السياسة ، وانصرفوا الى مطالب العيش ، والأنصار يعدون في جملة البيئة . وكلما انهزم فريق من العرب في ذلك المعترك انصرف أفراده الى طلب العيش في الأمصار أو الزراعة في الأرياف . ولهذا فقد كانت السياسة تلفظ في ميدان الحياة العامة بفريق من العرب بعد فريق ، وهذه الجماعات المنهزمة هي التي حققت للاسلام والعربية نصرهما الحقيقي في بلاد مثل مصر والمغرب والأندلس ، ومن أفرادها تكونت معظم الجماعات التي اشتغلت بالعلم والدرس في مركز الدولة والأمصار .

ولهذا فمن الخطأ أن يقال ان العرب بدأوا يتخلون عن سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالي من أيام هشام بن عبد الملك مثلا ، لأن الأمر هنا لا يتعلق بسياسة بل بعملية طبيعية بدأت منذ البداية . وجدير بنا أن نلاحظ أن أولئك الذين اشتغلوا بالعلم وطلب المعاش والزراعة لم يتخلوا عن عروبتهم أو اعتزازهم بها ، بل خالطوا الناس محتفظين بشعورهم العربي ، وتزاوجوا معهم وأورثوا أولادهم أرومتهم العربية ، فأولاد العرب عرب ، ومن ثم فان أعداد العرب في النواحي كانت في زيادة ، وكانت لهم امتيازات معنوية ومادية بحكم الدين والأصل واللغة ، وهذه الامتيازات كانت مما حبب الى الناس الانتساب اليهم ، ودخول الاسلام واتخاذ أسماء عربية ، بل اصطناع أنساب عربية .

من هنا كان من العسير تتبع حركة الاسلام والتعريب ، لا في مصر وحدها بل في نواحي الدولة الاسلامية الأخرى ، فهي عملية طبيعية بدأت منذ البداية وسارت سيرا لم يتنبه اليه أحد ، وتعرضت هنا وهناك لظروف أعانت عليها أو عطلتها حينا ما ، ولكنها مضت في طريقها . ففي فارس مثلا نجد الاسلام ينتشر بخطوات أوسع من انتشار اللغة العربية ، وفي الأندلس سار الاستعراب بأسرع مما سار الاسلام ، وفي مصر سار الأمران جنبا الى جنب لأسباب تتعلق بحالة المسيحية واللغات التي كان الناس يتكلمون بها في مصر عندما دخلها العرب .

فأما فيما يتصل بالمسيحية ، فقد كان اختلاف المذاهب النصرانية قد بلغ مبلغا عرض أصول العقيدة النصرانية للابهام والغموض في نظر الناس . ولم تكن العقيدة المسيحية اذ ذاك محددة المعالم أو مستقرة القواعد ، وكانت المجامع الدينية تسعى نحو التحديد وتعمل على التقرير ، ولكن شئون المجامع شابتها أهواء الأشخاص وعصبيات النواحي ، وأفسد أمرها تدخل الأباطرة لأغراض سياسية حينا وشخصية حينا . وكانت مصر ، من بين بلاد الدولة البيزنطية ، قد اتجهت في تفسير معضلات العقيدة النصرانية اتجاها واحدا حرص البطاركة والقساوسة والرهبان على الاستمساك به من أول الصراع الى نهايته وهو القول بطبيعة واحدة للسيد المسيح ،

وقد كسب رأي المصريين أنصارا كثيرين في الشام وآسية الصغرى بل في القسطنطينية نفسها ، واستطاع بطاركة عظام من أمثال ديوسقوروس وكيرلس الاسكندري أن يكسبوا انتصارات كبرى في المجامع الدينية ، واستيقظت القومية المصرية أثناء هذا الصراع حتى أصبحت المونوفيزية — وهي القول بالطبيعة الواحدة — مظهرا من مظاهر القومية المصرية .

وقد تنبهت الدولة البيزنطية الى هذه الناحية ، وبذلت أقصى جهدها حتى انتصرت على رأي المصريين في مجمع خلقيدونية ، الذي سمي في كتب التاريخ القبطي بمجمع اللصوص . ومن تاريخ ذلك المجمع انفصل المصريون انفصالا روحيا تاما عن كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما أيضا ، وأخذت الدولة البيزنطية تستعمل مع المصريين شتى وسائل الاضطهاد لصرفهم عن عقيدتهم دون جدوى . فلما غزا الفرس مصر نفر المصريون منهم أول الأمر بسبب ما ارتكبوه من أعمال العنف والقسوة ، ولكنهم أحسوا لأول مرة بفضائل الانفصال بكنيستهم عن تلك الدولة البيزنطية التي لم يعرفوا في أيامها الا المتاعب والاضطهاد . فلما خرج الفرس وعاد البيزنطيون عادت معهم الاضطهادات والمتاعب وندبت الدولة ذلك الأسقف المتعصب قيرس أسقف فارس ليقضي على مقاومة المصريين ويهدم كنائسهم .

وقد كانت نتيجة هذا الصراع الطويل وما تخلله من بلبلة الأفكار بسبب المذاهب الكثيرة التي اقترحتها الدولة رغبة منها في التقريب بين المذاهب المختلفة ، واجتهاد رجال الدولة في فرض هذه الآراء ، كانت نتيجة ذلك كله أن ضعف أمر المسيحية في مصر ضعفا شديدا ، وتبلبلت أفكار الناس ، بحيث لا يمكن القول بأنه عندما فتح العرب مصر كانت هناك وحدة دينية أو مذهبية على الأقل ، حتى ذهب بعض مؤرخي النصرانية الى أن المسيحية لم تتغلغل في أعماق النفس المصرية ، وقال ليفبفر . « ان المسيحية لم تغير شيئا من روح الجنس المصري ، ولم تصل الى التأثير في الحياة الخاصة للأفراد ، ولم تتحول الأرواح تحولا صادقا الى المسيحية » . وقال جاستون فييت . « ان الشيء الذي لم يكن له أثر في مصر عندما دخلها العرب هو العقيدة والروح الديني . ان نصرانية الأقباط اقتصرت على منازعات عقيدية مع البيزنطيين ، واننا لنلحظ عندهم منذ زمن مبكر معارضة تقوم على كبرياء ، بل ربما استطعنا أن نقول اننا نلمح عندهم شعورا قوميا سلبيا . وقد ظهر هذا الروح القومي المصري بأجلى مظاهره بعد مجمع خلقيدونية وكان هذا من الوضوح بحيث يحق لنا أن نتساءل عما اذا كان تعصب الأقباط للمونوفيزية في حقيقته كراهية للسلطان البيزنطي قبل أن يكون اقتناعا بعقيدة » .

وهــذه الأقوال كلها لا تقوم على فهم صحيح للنفس المصرية ، وتتجاهل حقيقــة حال النصرانية خلال القرن السادس وأوائل السابع الميــلاديين . فالواقع أن العقيــدة المسيحية نفسها كانت الى ذلك الحين فى طور التكوين ، وكان الأســاقفة والرهبان ورجال الكنائس يحاولون تحديد أصولها ، أما الرجل العادى فكان فى حيرة من أمره ، لم يستقر بعد على شيء واضح فيما يتصـل بأصول دينه ، وكانت آثار الوثنيـة باقية ما تزال تختلط بمفهوم المسيحية عنـد معظم العوام . وقد أثبتنا فى دراستنا لفتح العرب للاندلس أن نواحى كثيرة من شبه الجزيرة الايبيرية كانت لا تزال على الوثنية ، وينطبق هذا على مصر ، فمن المغالاة أن نقول ان أهل القطر جميعا كانوا فى أوائل القرن السابع مسـيحيين ، أو أن المسـيحيين منهم كانوا عارفين بأصول العقيدة وشريعتها ، بل كانت مراكز المسيحية المعروفة فى مصر ، مثــل الاسكندرية وبابليون وتنيس ، فى خلاف بعضها مع بعض .

وكان الرأى السائد عند زعماء الأقباط قريبا جدا من الاسلام ورأيه فى السيد المسيح عليه السلام ، ولم يكن من العسير لهذا أن يتحول الكثيرون منهم الى الاسلام دون جهد كبير ، خاصة وأن الاسلام دين سهل لا تعقيد فيه ، واقناع الناس به لا يحتاج الى شرح أو تفصيل طويلين ، وهو بالنسبة لمسيحيى مصر والشام ومن اليهم فى ذلك الحين كان مخرجا مريحا من متاهة المذاهب المتضاربة ومشاكل الطبيعة الواحدة والطبيعتين ، حتى ان بعض المسيحيين لم يروا فى الاسلام اذ ذاك الا مذهبا جـــديدا من مذاهب المسيحية ، والانتقال مما كانوا عليه الى الاسلام لم يكن فى نظر الكثيرين منهم خروجا من دين الى دين ، فاذا أضفنا الى ذلك ما أصاب كنائس الأقباط من هدم ورجال دينهم من اضطهاد وتعريد على أيدى البيزنطيين ، بحيث باتت الكثير من النواحى بلا كنائس ولا قساوسة ، تصورنا سهولة انتقالهم الى الدين الجديد .

ثم ان الدخول فى الاسلام ينقل المصرى أو المغربى أو الاسبانى الى مرتبة الحــكام وأصحاب الدولة ، ويرفع عن كواهلهم مطالب ومغارم كثيرة ، ويجعلهم بنجوة من المعاملة الخاصة التى كان بعض العمال يختصون بها الذميين . وقد أشار المقريزى اشارة غير مقصودة الى العلاقة بين انتشار العرب فى الأرياف وانتشار الاسلام فيها ، قال : « ولم ينتشر الاسلام فى قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، عندما أنزل عبيــد الله بن الحبحاب موالى سلول قيسا بالحوف الشرقى ، فلما كانت المائة الثانية من سنى الهجرة ، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها » .

وربما بدا غريبا أن نقول ان مراكز تجمع الجند العربى ، فى الفسطاط والاسكندرية والجيزة مثلا ، لم تكن بذات أثر كبير فى

انتشار الاسلام في البلاد . ولكن هذا هو الواقع ، لأن هذه المراكز ظلت مراكز عربية صرفـة ينزلهـا نفر من المصريين ، ولكنهم لايتصلون‌فيها بالعرب‌بهذاالاتصال الذى يؤدى الى التفاهم واتتلاف الأراء والعقائد.فقدكان الفسطاط مثلا معسكرا لا ينزله أهل البلاد ، ويعيش فيه العرب في أحياء كل حي منهـا خاص بقبيل من العرب ، وهذه الأحياء هي التي تسمى الخطط ، وفي الاسكندرية عاش الجند العربي في مساكن خاصـة به عرف باسم الأخائذ ، وكذلك حول العرب موضع « الجيزة » الذي اختطـوه الى حصن ، وقسموه خططا تشبه خطط الفسطاط ، وقد ظلت هذه المعسكرات مقفلة على من فيهـا زمنا طويلا ، فلم تكن بذات أثر في انتشار الاســلام ، انما كانت ذات أثر في انتشار العربية وثقافتها ، فقد كانت مراكز عربيـة صرفة ، ونشأت في الفسطاط بصفة خاصة مدارس علمية وفقهية كان لها أبعد الأثر في تعريب ألسن الناس ، وفي جعل مصر مركزا من مراكز الثقافة العربية الرئيسية .

وانتشرت العربية جنبا الى جنب مـع انتشار الاسلام ، وقد ساعدها على الانتشار أن المصريين في ذلك الحين لم تكن لهم لغة واحدة يتفاهمون بها في كل مكان ، فقـد كانت اللغة القبطية اذ ذاك في دور التكوين ، كانت كلغات أوربا مثلا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين : بقايا لهجات لاتينية منحطة تعرف بلاتينية العصور المتأخـرة bas latin .L.e لا نحو لهـا ولا ضـوابط ، أغارت عليها لغات الجرمان في كل ناحية ، واختلطت هـذه بتلك وبدأت تنشأ لهجات في النواحي ، ثم أخذت اللهجات تتقارب حتى نشأت اللغة المحلية ، سواء أكانت فرنسية أو اسبانية أو جرمانية . ولم تكن لهذه اللغة القبطية صورة ثابتة بعض الشيء الا في بعض الكنائس وفيما كتبه بعض قساوستها . ثم انها ، حتى في هذه الدوائر القليلة ، تأثرت تأثرا عظيما باللغة الاغريقية ، بل فضل بعض كتاب مصر أن يكتبوا بالاغريقية .

وكانت الوثائق الرسمية تكتب بالاغريقية أي أن البلاد لم تكن لها لغة ثابتة لا في الكتابة ولا في الكلام .

ثم دخلت اللغة العربية لغة كاملة غنيـة قادرة على التعبير عن كل شيء ، ولها كتابة ثابتة معروفة ، ثم هي لغة الاسلام والقرآن والحكام ، فلا غرابة في أنها غلبت غيرها دون مشقة وأخذت تغلب على ألسنة أهل الوادى . وهذا الكلام لا ينطبق على مصر فقط بل على المغرب والأندلس أيضا . وليس معنى ذلك أن اللغة العربية حلت محل اللغات المتداولة في مصر دفعة واحدة ، وانما نحن بسطنا الأسباب التي مهدت الطـريق أمامها ، أما انتشارها نفسه فعملية بطيئة تمت على مر السنين . واذا نحن قرأنا كتابا مثـل « القضاة والولاة » للكندى استطعنا أن نتتبع بعض خطـوات

هذا الانتشار ، وذلك من خلال عشرات الحكايات التي يوردها الكندي في أخبار القضاة . ولكننا نفهم من كلام الرحالة أن اللغة العربية لم تسد ألسنة أهل مصر جميعا حتى القرن السادس الهجري ، فعلي بن سعيد مثلا يشكو من أن الناس في مصر لا يفهمون « لسانه المغرب » تمام الفهم ، بل ان الشربيني صاحب « هز القحوف » يقول ان الفلاحين في بعض النواحي كانوا يتكلمون في أيامه بلهجات خاصة بهم .

وجدير بنا أن نشير الى أمرين كان لهما عظيم الأثر في انتشار الاسلام واللغة العربية في مصر : الأول قرار عبد الملك بن مروان سنة ٨٧/٧٠٦ بتعريب الدواوين ، فقد كانت نتيجة ذلك أن اضطر كثير من الأقباط — ممن كانوا يتولون الوظائف الى الدخول في الاسلام وتعلم العربية حتى يحتفظوا بوظائفهم . نعم ان قرار عبد الملك لم يطبق بحذافيره ، وظل كثير من الأقباط يتولون الوظائف العامة ، ولكن معرفة العربية كانت شرطا لازما لاحتفاظهم بهذه الوظائف . والأمر الثاني هو قرار المعتصم باسقاط العرب من الدواوين وقطع أعطياتهم أثناء ولاية كيدر نصر بن عبد الله فيما بين سنتي ٢١٦ و ٢١٩/٨٣١ — ٨٣٤ ، فقد أصبح العرب بذلك رعية ، شأنهم وشأن الأقباط سواء ، وزالت الحواجز بين الجانبين ، وأصبحا أمة واحدا على الدولة وأتراكها .

ويبدو أن اندماج العرب في الحياة العامة بمصر كان اذ ذاك قد سار شوطا بعيدا ، لأن هذا القرار لم يكن له رد فعل عنيف بين العرب ، فبينما كنا نتوقع أن ينكره عرب مصر على بكرة أبيهم ، لا نلحظ الا استنكار نفر من لخم وجذام لم يزد عددهم على خمسمائة ، فقضى الوالي على مقاومتهم وانتهى كل شيء . وقد استنتج فييت من شواهد القبور أن العرب احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالي قرنين من الزمان ، فكانوا يحرصون على أن يكتبوا على شاهد القبر — الى جانب اسم الميت — القبيلة التي ينتسب اليها ، ولكن ذلك تلاشى خلال القرن الثالث الهجري ، وأصبح الناس ينسبون الى أقاليمهم .

وعلى أي الأحوال نستطيع القول بأن اللغة القبطية فقدت أهميتها تماما خلال القرن الرابع الهجري ، فاننا نجد كتاب الأقباط — مثل سعيد بن البطريق وساويرس الأشمونيني — يكتبون بالعربية ، وكانت كتاباتهم موجهة الى الأقباط ، فلو كانت القبطية أجرى على لسانهم لكتبوا بها ، أما وقد كتبوا بالعربية ، فذلك دليل على أن اللغة العربية كانت قد أصبحت لغة الناس أقباطا وغير أقباط . وذلك أكثر انطباقا على لغة الكتابة ، ولا ينفي أن الكثيرين من أهل النواحي ظلوا يتخاطبون بالقبطية ، ولكنها كانت في طريقها الى الزوال ، حتى لم يبق منها

في مطالع العصر الحديث الا بقايا قليلة في دوائر ضيقة .

ويلاحظ — الى جانب ذلك — أن هذه العملية تمت في مصر دون ارهاق أو ضغط ، بل لم تتم نتيجة لسياسة خاصة للدولة الاسلامية ، فان الدولة لم تكن لها سياسة معينة في نشر الاسلام أو اللغة . وكان ذلك من حسن الحظ ، فاختار الاسلام من اختاره طائعا عن اقتناع ، وتعلم العربية من تعلمها من تلقاء نفسه بدافع من مصالحه . بل ان المتتبع لأخبار مصر ، خلال القرن الأول الذي تلا الفتح ، يلاحظ وكأنما كانت سياسة الحكام دافعة الى احياء المسيحية المصرية ، فقد قطع العرب صلة مصر بالدولة البيزنطية فتنفس المونوفيزيون الصعداء ، وأقبلوا يرممون ما وهي من أمور عقيدتهم وكنائسها ، وتركهم العرب ينظمون شئونهم الدينية كيف شاءوا : ينتخبون البطرك الذي يريدون ويعيدون بناء الكنائس المتهدمة ، بل يبنون كنائس جديدة ، ويزيلون الأسماء الاغريقية عن قراهم ونواحيهم ليحلوا محلها أسماء قبطية .

ومعظم الكنائس القبطية الكبرى الباقية الى الآن انما بنيت أيام الأمويين ، مثل كنيسة أبي مقار وكنيسة القديس مرقص بالاسكندرية ومارجرجس والكنيسة الحمراء المعروفة بأبي سيفا وما اليها ، بل كان كبار الفقهاء من أمثال الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة يرضون عن ذلك ويقولون انه « من عمارة البلاد » . ولم تطبق على أقباط مصر القيود الخاصة باللباس والركوب والمباني والكنائس — التي تنسبها نفر من الفقهاء الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه — الا في مناسبات قليلة ، و لانكاد نجد واليا متشددا في هذه الناحية الا أعقبه وال متسامح رحب الصدر يعيد أمر الأقباط الى ما كانوا عليه . فعاش من أراد الاحتفاظ بدينه في مصر في سلام حتى نهاية العصر الفاطمي بل بعده ، فاذا كان قد أصابهم بعد ذلك حيف فقد أصاب المسلمين مثله ، وكان الرعايا جميعا مع حكامهم في بلاء منذ القرن السادس الهجري ، مسلمين وغير مسلمين .

لهـذا لا ينبغي أن نقف طويلا عند ما يحصيه بعض المستشرقين من ثورات الأقباط على حكام المسلمين . ولو أننا أحصينا ثورات المسلمين أنفسهم على حكامهم لوجدناها أكثر وأبعد مدى ، خاصة وأن هذه الثورات لم تتسم وتأخذ هيئة جديرة بالملاحظة الا في عصر بني العباس . وأسباب هذه الثورات كلها مالية ، وهي جزء من المتاعب المالية التي ارتبكت الدولة العباسية فيها . ويكفي أن نذكر أن أكبر هذه الثورات كانت في سنة ٢١٦/٨٣١ أيام المأمون . وهي الثورة التي أزعجت المأمون وجاءت به الى مصر لتلافي أمرها — فلم تكن هذه الثورة التي عمت الوجه البحري كله ثورة أقباط ، بل شارك فيها العرب أيضا ، أي أن الحيف

الذى دفع اليها كان عاما على الجميع ، وهى نتيجة مباشرة لسياسة المعتصم عندما ولاه أخوه الخليفة المأمون أمور القسم الغربى من دولة بنى العباس . وقد أرسل المعتصم قائده الافشين فأخمد ثورة العرب المشتركين فى الفتنة ، ولم يستعص عليه الا أهل البشرود ، وهى ناحية بشمال الدلتا جنوبى بحيرة البرلس ، وكان أهلها ذوى عنف وشدة ، يعتصمون بمستنقعات نواحيهم فلا يصل اليهم أحد وكانوا فى حالة ثورة دائمة على الحكم العربى ، وقد حاول المأمون الاستمالة عليهم باثنين من بطاركتهم دون جدوى ، فوجه كل قوته نحوهم حتى أخضعهم فى أواخر سنة ٢١٦ / أواخر سنة ٨٣١ ، وكانت هذه آخر ثوراتهم وثورات الأقباط أيضا . وفى أثناء زيارة المأمون هذه لمصر حدثت قصة المثرية مارية القبطية بقرية طاء النمل ، التى استضافت المأمون وأصحابه وقدمت له هدية مثرية أكياسا من الذهب ، وقد رواها المقريزى فى خططه . ومهما استبعدنا من مبالغاتها ، فهى تدل على رخاء هذه الناحية من نواحى شرق الدلتا فى تلك الأيام . وبين هذه الثورة وقيام دولة أحمد بن طولون سنوات قليلة لا تزيد على ثمان وثلاثين .

الأحوال العامة — الزراعة والصناعة والتجارة :

هكذا جرت الأحوال فى مصر بعد الفتح الاسلامى عاما فعاما : ازدهرت ثروتها وأمن أهلها ورخيت أحوالها خلال العصر الأموى ، ثم بدأ يصيبها ما أصاب غيرها من نواحى الدولة الاسلامية من الاضطراب والضيق والفتن ابتداء من العصر العباسى . ولكن الأحوال على الجملة سارت سيرا طيبا مقبولا : أقبل المصريون على عملهم الأبدى فى الأرض مستمسكين على عدالة الحكم الاسلامى .

ولا حاجة بنا الى تعداد محاصيلها ، فهى هى التى نعرفها فى كل أعصرها القديمة والوسطى ونكتفى بالاشارة الى الكتان ، فقد كان — بعد القمح — أهم محاصيل مصر الاقتصادية ؛ وكان المصريون ينسجونه فى نواح شتى اشتهرت بالمناسج . وكانت المنسوجات التيلية المصرية مشهورة فى العالم الاسلامى كله ، ولما كان القطن والحرير قليلين فقد كان نسج الكتان هو الغالب ، وكان المصريون ينسجون منه نوعا عاديا رخيصا لعامة الناس وأنواعا أخرى رقيقة غالية يباع الدرهم من بعضها بدرهم فضة ، وقد اشتهرت بهذه الأنواع الرقيقة الاسكندرية وتنيس ، وكان نساجوهما يخرجون ثيابا غاية فى الرقة يسمى الواحد منها البدنة ، « لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة . وتبلغ قيمة هذا الثوب ألف دينار » . وكان أهل دمياط ينسجون نوعا يسمى القصب يغلب أنه كان نوعا من الدنتلا . واشتهرت بالنسيج أيضا شطا ودميرة وتونة ، وكلها

ثوب تنيسي ودمياطي . وكان الصوف والقطن ينسجان بالبهنسا والقيس والأشمونين واخميم واهناس وبوصير قوريدس من بلاد مصر العليا ، واشتهرت اخميم خاصة بالحرير .

ويبدو أن الحكومة كانت تحتكر أنواعا من النسيج ، وقد ورثت الادارة الاسلامية في مصر ذلك عن الادارة البيزنطية التي كانت تحتكر الحرير . وكان النساجون المصريون يخرجون ما يصنعونه ملونا وساذجا (وهذا أصل لفظ « سادة ») وقد ينسجونه بخيوط الذهب والفضة ، وقد يرشونه بالكتابات . وكان النسيج الذي يخرج من المناسج التي تحتكرها الدولة يسمى بالطراز ، غير أن لهذا اللفظ مدلولات كثيرة ، أهمها أقمشة خاصة بالدولة ورجالها ، ثم أصبح معناه مصنع النسيج ، فكان يقال « طراز العامة » أي مصنع عام ، و « طراز الخاصة » أي مصنع تملكه الدولة . وعلى الجملة فقد كانت مصر أعظم مركز للنسيج في العالم الاسلامي ، ومن مناسج مصر لبس الخلفاء والأمراء ؛ ومن مصر كان التجار يحملون النسج في كل وجه وكانت كسوة الكعبة تصنع في مصر منذ أيام عمر بن الخطاب ، ولا زال الأمر على ذلك الى الآن عاما بعد عام .

ويلي النسيج في الأهمية من صناعات مصر صناعة السفن ، فقد دلت الأبحاث على أن مصر كانت اذ ذاك أعظم مركز لها في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط .

وقد بدأت عناية المسلمين بالسفن والأساطيل بعد فراغهم من أمر تحصين سواحل البحر الأبيض التي تحت سلطانهم ، واقامة المحارس على السواحل وشحنها بالمقاتلة ، واقامة « المناظر » وهي أبراج تقام لمراقبة الشواطئ ، وتنظيم « المواقيد » وهي مواضع توقد فيها النار للاشارة ، ففي مصر مثلا كانت اشارات المواقيد تنتقل من موقد لموقد حتى تصل الأخبار من الساحل الى الفسطاط في زمن قليل . ثم بدأ المسلمون بعد ذلك بالعناية بأساطيلهم ، وظهرت هذه العناية بوجه خاص في مصر ، فحفر العرب خليج أمير المؤمنين ، وهو قناة تخرج من النيل شمالي الفسطاط وتصل الى خليج السويس عند القلزم . واهتموا بانشاء السفن التي تحمل القمح وما اليه من الفسطاط الى القلزم ومنها الى الحجاز ، فأنشأوا لذلك دار صناعة عند جزيرة الروضة بمصر ؛ ولهذا سميت بجزيرة الصناعة ، وقد أظهر المصريون براعة فائقة في بناء السفن ، فنشأ أسطول نهري . ثم خطوا بعد ذلك خطوة أخرى فأنشأوا سفنا كبارا تخوض المعارك الحربية .

وكان اهتمام المسلمين بصناعة السفن جزءا من اهتمامهم العام ببحريتهم في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وصاحب الفضل في تلك الحركة معاوية بن أبي سفيان ، فقد اهتم أثناء ولايته على الشام بانشاء السفن في موانئ الشام اهتماما أخاف الدولة البيزنطية ، فقرر

امبراطورها قنسطانز أن يقضي على تلك القوة البحرية الاسلامية في مهدها ، فتصدى له المسلمون وأوقعوا بالأسطول البيزنطي هزيمة موقعة الصواري أو ذات الصواري ٣٤ / ٦٥٥ التي نقلت سيادة الحوض الشرقي للبحر الأبيض الى أيدي المسلمين . وكانت نواة الأسطول الاسلامي الذي كسب هذا النصر شامية ، ولكن القوة الحاسمة أتت من مصر . فبينما سار معاوية بسفن الشام الى قيصرية بآسية الصغرى ، خرجت عمارة بحرية مصرية من مصر على رأسها عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان يقودها غواتية من المصريين ، بل كان من بينها سفن ليس فيها الا أقباط . وكانت هذه الموقعة حافزا للمسلمين على الاهتمام بشئون الأساطيل ، ويبدو أن دار الصناعة في جزيرة الروضة فتحت أعين المسلمين على أهمية هذه الدور ، فقد قال البلاذري : « انه لما كانت سنة ٤٩ هاجم الروم سواحل الشام ، وكانت دور الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بن أبي سفيان بانشاء دار للصناعة في عكا » . وظلت مصر طوال العصر الذي نتحدث عنه في هذا الفصل مركزا من أهم مراكز بناء السفن ، وظل قبطها معهودا لهم بالتفوق في انشاء الثغور البحرية حتى كان يستعان بهم في كل ناحية من نواحي المملكة الاسلامية .

وقد أظهرت أوراق البردي التي كشفت في كوم أشقاو ، والتي ترجع الى عصر الوليد ابن عبد الملك ، أن صناعة السفن كانت زاهرة في مصر ، في جزيرة الروضة وفي القلزم والاسكندرية . فبعض تلك الأوراق يدلنا على أن الوالي قرة بن شريك كان كثيرا ما يطلب من صاحب كورة أشقاو أن يرسل اليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل في دور الصناعة والمساهمة في اعداد الأسطول المصري الحربي . كما تدل تلك الأوراق على أن الوالي كان ينفق مقدما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون في الأسطول المصري ، كما كان يفرض على الكورة قدرا من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن وتنظيفها . كذلك كان يفرض عليها تموين الملاحين الذين يعملون في الأسطول ، كما كان والي مصر يرسل بعض الملاحين للعمل في أسطول المغرب أو أسطول المشرق والمساهمة في المشروعات البحرية العامة للدولة الاسلامية .

وقد استمر ذلك طوال العصر العباسي وعصري الفاطميين والأيوبيين ، ولم تنصرف مصر عن الاهتمام بشئون البحر الا في أيام المماليك كما يقول المقريزي . ولدينا وثيقة بردية ترجع تاريخها الى سنة ٢٤٤ / ٨٥٨ تعطينا فكرة عن عظيم اهتمام ولاة مصر بدفع البيزنطيين عن سواحل مصر ، ومقدار ما كان المصريون يعانونه من المتاعب للقيام بالخدمة في الأسطول وحماية شواطيء الاسلام . وكانت مصر تستورد الخشب اللازم لبناء

السفن من الشام ، وربما من آسيا الصغرى وبعض بلاد أوربا .

وكان البردى خلال عصر الولاة من أهم منتجات مصر ذات القيمة الاقتصادية ، فقد كانت أوراق البشنين تنمو بكثرة فى مستنقعات الدلتا والفيوم ، وشهرة المصريين بعمل الورق منه معروفة . قالت الدكتورة سيدة الكاشف : « ويذكر ابن الفقيه فى أواخر القرن الثالث الهجرى ان لأهل مصر القراطيس التى لا يشركهم فيها أحد ، ويذكر اليعقوبى أن القراطيس كانت تصنع فى بورة ، وهى على ساحل البحر من عمل دمياط ، وفى مدينة أخيتو وهى على ساحل البحر غربى فرع رشيد ، ويقال لها وسيم . وطالما كان الناس يستعملون البردى للكتابة كانوا يعتمدون على مصر . أما فى القرن الرابع الهجرى فيحدثنا الثعالبى أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر والجلود التى كان الأوائل يكتبون عليها لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ، ولا تكون الا بسمرقند والصين . ويذكر كرابانشيك أن صناعة ورق البردى للكتابة انتهت فى مصر بالاجمال حوالى القرن الرابع الهجرى ، والواقع أن ورق البردى المؤرخ الذى وصل الينا ينتهى فى عام ٣٢٣/٩٣٤ على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها عام ٣٠٠/٩١٢ ، وهكذا نرى أن مصر كانت طوال عصر الولاة تقريبا تكاد تحتكر صناعة الورق . وكان صناع الورق ، كغيرهم من الصناع فى مصر ، من المصريين . وكانت أغلبيتهم ، أو كلهم ، فى أول عهد الفتح من الأقباط . والى أواخر القرن الهجرى الأول وأوائل الثامن الميلادى كانت صيغة الطابع الذى يطبع على الورق « الآب والابن وروح القدس » ، ومع أن هذه الصيغة استبدلت فيما بعد بما يتفق والدين الاسلامى ، الا ان الكتبة ظلوا يرسمون علامة الصليب على شهر أوراق الحكومة » .

والى جانب هذه الصناعات الرئيسية اشتهرت مصر بصناعات تقليدية أخرى كالنجارة والحفر على الخشب والخزف والزجاج وصناعة المعادن ، وكل هذه صناعات متوارثة من العصور القديمة . فاذا أضفنا اليها ما كانت مصر تصدره من الحبوب وتستورده من الخامات تبينا أن تجارة مصر فى ذلك العصر كانت نافقة ، وأن القلزم ودمياط والاسكندرية ورشيد كانت وافرة النشاط . فلم يضمحل أمر الاسكندرية وتتحول الى قرية لا أهمية لها بعد الفتح الاسلامى كما تقول بعض المستشرقين ، فقد زارها بعد الفتح الاسلامى بنحو ثلاثين سنة ، أى سنة ٥٠ — ٥١ هـ / ٦٧٠ ، آركولف أحد حجاج بيت المقدس ووصفها بأنها ملتقى التجارة العالمية . ويذكر آدم ميتز أن الاسكندرية وبغداد كانتا تقرران فى القرن الرابع الهجرى الأسعار العالية ، ولا سيما فى البضائع الكمالية .

وكانت العملة المستعملة فى مصر هى الدينار الذهبى ، وكسوره الدراهم الفضية ، وربما استعملت كسور هذين وهى الدوانق والأنصاف البرونزية ، ولكن الأساس هو الدينار الذهبى بوزنه البيزنطى . وقد ظل وزن الدينار البيزنطى ثابتا محترما به حتى أيام الأسرة المقدونية . وكان ثبات وزنه أساس الثقة فيه وضمان سلامة الميزان الاقتصادى للدولة البيزنطية ، حتى ان اختلال وزنه اعتبر من العلامات الحاسمة الدالة على انهيار أمر هذه الدولة . وعن البيزنطيين أخذ المسلمون الدينار بوزنه ورسمه أول الأمر ، ثم بدأوا يسكون دينارا اسلاميا من عهد عبد الملك بن مروان . ولكن الدولة الاسلامية لم تحافظ على وزن دينارها ، فاضطربت قيمته وقلت الثقة فيه ، وأصبحت الدنانير سلعة كثيرها تقدر بوزن ما فيها من الذهب ، وظل الناس يفضلون الدينار البيزنطى الثابت الوزن ، وظلت العملتان مستعملتين جنبا الى جنب مع اختلاف فى قيمتهما .

وقد احتفظت مصر بالدينار كأساس لمعاملاتها ، فى حين أن العراق مثلا أصبح يتعامل بالدراهم الفضية لقلة الذهب وتعرضه للغش . وكان وزن الدينار المصرى ثابتا على الغالب ، وذلك لأن الأمراء وعمال الخراج وولاة الشرطة حرصوا على تثبيت أوزان العملة على أساس صنج زجاجية رسمية مطبوعة بأسمائهم .

وفيما عدا ثورات الأقباط التى أشرنا اليها ، لا تذكر أصول تاريخ مصر الاسلامية من الحوادث التى وقعت فيها الا ما يتصل بمن نزلها من العرب سواء أكان ذلك خاصا بمن أقاموا فى مراكز العرب كالفسطاط والجيزة والاسكندرية أو من تفرق منهم فى نواحى من مصر السفلى كالحوفين الشرقى والغربى ، بحيث يمكن القول بأن تاريخ مصر الذى نقرأه عند ابن عبد الحكم والكندى مثلا انما هو تاريخ الجاليات العربية فى مصر . فقد عاش العرب فى الفسطاط خاصة منفصلين عن بقية الأهلين ، الا فيما يتصل بما تقضى به ضرورات الحياة ، وتنفرد الفسطاط من بين ما أنشأ المسلمون من مدن فى ذلك العصر الأول بأنها كانت مركزا عربيا خالصا كأنما لم يغادر عربها جزيرتهم . فبينما نجد الكوفة والبصرة غاصتين بأهل العراق الأصلاء ، والقيروان مدينة غالبية سكانها ممن أسلم من البربر ، وقرطبة مدينة اسبانية حلت فيها الجالية الاسلامية ، نجد الفسطاط تبدو من أول الأمر مدينة عربية خالصة لا يسكنها غير العرب ويسودها جو عربى خالص .

وهى ، على خلاف البصرة والكوفة ، ظهرت مدينة كاملة واضحة التخطيط مبنية البيوت ، فى حين أن هاتين أنشئتا أول الأمر بالقصب ، ثم استبدل القصب بمبانى اللبن فيما بعد . ولا يتصور هذا الا على فرض أن

الفسطاط انما نشأت على أساس موضع كان مسكونا قبلا ، أعاد العرب تخطيطه وتنظيمه بمساعدة أهل البلاد . فلم يكن العرب بنائين ، وليس لدينا ما يدلنا على أنهم بنوا مدينتهم هذه بأيديهم ، وما تقوله المراجع من أن اسمها مشتق من فسطاط عمرو بن العاص فرض لا يمكن رفضه تماما ، وان كان من المحتمل أن يكون الاسم مشتقا من لفظ «فوساطون» اليوناني بمعنى الحصن أو الخندق . وقد سبق أن أشرنا الى أن المنطقة الواقعة بين قصر الشمع (حصن بابليون) الى ما يعرف الآن بعين شمس كانت عامرة بالقرى والمزارع والأديرة ، فاختار العرب أن تكون مدينتهم بينها .

وقد كانت عادة المسلمين في ذلك العهد اذا أرادوا أن ينشئوا مدينة ، أن يبدأوا ببناء مسجد جامع تقوم من حوله المباني بعد ذلك . هكذا حدث مع الكوفة والقيروان مثلا ، أما في حالة الفسطاط فقد بدأ العرب بتخطيط المدينة ، أي بتحديد المكان الذي ستقوم فيه وتقسيمه خططا ، بل أقام عمرو بن العاص رجلا من أصحابه مشرفا على هذه العملية وهو معاوية بن حديج الكندي ، الذي سيكون له دور عظيم في نصرة معاوية بن أبي سفيان ثم في فتح المغرب بعد ذلك . ونستبعد أن يكون هذا الأسلوب المرتب في الانشاء من عند عمرو نفسه ، بل يغلب أنه استرشد فيه برأي من كان حوله من كبار القبط ، وكان الود بينه وبينهم متبادلا ، فكان يشاورهم في الكثير من شئون البلاد . والغالب أيضا أن هذه المساحة بالذات كانت من أملاك الدولة ، فاستصفاها عمرو ، ثم قسمها قطعا هي المعروفة بالخطط ، ويرجح أن الخطط لم تكن متساوية ، وأن كلا منها لم يكن حيا واسعا ، بل قسمت الأرض بحسب الظروف والحاجة ، فان الرواة يذكرون لنا مثلا خطة عبد الرحمن بن ملجم ، أعطيت له بأمر عمر بن الخطاب ليتخذ فيها منزلا يعلم الناس فيه القرآن ، وابن ملجم هذا هو الخارجي المشهور الذي اغتال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه .

ومن الدلائل على أن أهل البلاد كانوا يشتركون في الانشاء ، أن عمرو بن العاص بنى حماما فاستصغره القبط وقالوا : يصلح للفأر ، أي أن انشاءه لم يعجبهم . أما حمامات مصر فكانت ديماسات كبارا (جمع داموس وهو البناء الكبير ، من Domus اللاتيني ، ثم أطلق على ما يعرف اليوم بالمستوقد ، ومنه يقال : فول مدمس ، أي منضج في الداموس أو الديماس) ، ثم كانت حمامات الفسطاط بعد ذلك كبارا نتيجة لملاحظة أولئك المصريين . ثم اختط عمرو مسجده ، وهو أقدم مساجد مصر ، وان كان قد عدل وهدم وبني من جديد بعد ذلك مرارا ، ولا زال باقيا الى اليوم ، ويعرف اليوم بالمسجد العتيق . ثم اتخذ عمرو داره شرقي المسجد وبنى

أصحابه الدور فيما يجاوره . وكانت الدور أول الأمر من طبقة واحدة ، ولا تزيد غرف البيت عن ثلاث أو أربع . ولابن دقماق صاحب كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » مبالغات فيما حرص المسلمون عليه من الساعة في الأبنية . ولم يكن بحاجة الى تكلف ذلك كله ، فان الأمر بطبيعه لم يكن ليخرج عن هذه البساطة .

وقد استطاع رولن جست أن يضع رسما للفسطاط الأولى اعتمادا على أطلالها وبقية أسس بيوتها التى تم كشفها ، وأتم عمله الأثرى المصرى على بهجت . وقد ذهبا الى أن البلد كان يمتد من القرية الواقعة جنوبى القاهرة والتى كانت تعرف بدار الطين ثم عدل اسمها الى دار السلام وتتصل حتى بركة الحبش وقد جفت الآن ، وكانت تقع قرب المرتفع الذى كان يعرف قبلا بجبل يشكر ويعرف موضعه الآن باسم أرض طولون ، وعليها يقع جامع أحمد بن طولون . وكان فى كل خطة منسوبة الى قبيلة ديوان أو سجل بالمقيدين فى الجند الرسمى من أهلها ، وفى دار الامارة كان يوجد السجل العام أو الديوان وهو ادارة حسابية صغيرة تقوم بتسجيل العرب المشتركين فى الجيش وأبنائهم ممن لهم الحق فى الانتظام فى الجندية والحصول على العطاء والرزق . وكان لأهل الراية ديوان خاص فى خطتهم ، وكانت هناك خطة للعرب الذين لا ينتمون الى قبيلة بعينها ، وكانت تسمى خطة اللفيف . وكان الوافدون من العرب ينزلون فى خطط قبائلهم ، فلما ضاقت الخطط أنشئت خطة جديدة عرفت بخطة أهل الظاهر .

وكانت هيئة الخطة أول الأمر بسيطة : تقيم القبيلة منازل على حدود خطتها ، وتترك ما تدور عليه فضاء . وقد ضاق هذا الفضاء شيئا فشيئا بانشاء مبان جديدة فيه وتحول الى جزائر من المباني تتخللها الدروب والأزقة . ولهذا فلم تكن فى الفسطاط القديمة شوارع رئيسية أو محجات تأخذ من طرف لطرف . قال ابن زولاق : « وفرق عمرو بين الروم والفرس ، وجعلهم فى طرفى البلد ، فأسكن الروم الحمراوات ، وأسكن الفرس بنى وائل والمدة وبساتين بنى وائل ، ولهم الى اليوم مسجد يعرف بمسجد الفارسيين ، وأسكن القبط القصر ، وأسكن العرب الخطط » ، أى أنه جعل من انضم الى جيشه من عرب فلسطين الذين كانوا يعرفون بالحمراء فى طرف البلد الجنوبى على شاطىء النيل فى الغالب ، لأن الموضع الذى نزلوه عرف بالحمراء الدنيا فيما بين حصن بابليون والنيل . ثم ابتنى الناس صفوفا من المنازل على شاطىء النيل زحفوا بها الى الشمال ، وقد نشأ عن ذلك ما عرف بالحمراء الوسطى ثم الحمراء القصوى . أما القصر الذى أسكنه الأقباط ، فالمراد به ما يلى قصر الشمع الى الجنوب ، أى أنه أنزلهم خارج البلد .

وشيئا فشيئا اختفى اسم بابليون وبقى اسم الفسطاط . وكان اسم مصر يطلق على الفسطاط أيضا ، وأطلق فيما بعد ذلك على القاهرة . أما النصوص اليونانية فأطلقت على البلد اسم فساطون ، وهذا هو الذى حدا بالمستشرق دوزى الى القول بأن لفظ الفسطاط مشتق من فساطون اليوناني . ويقوى هذا الرأي أن بعض النصوص العربية تقول فسطاط ، ومعناه أن البلد لم يخط أول الأمر بخندق وانما حصن بزرب أو زريبة ، وهو السور يتخذ من نبات ذي شوك .

ولابد أن نضيف أن العرب لم يضعوا اسم مصر لهذا الموضع وانما كانت تستعمله قبل دخولهم القبائل العربية الضاربة في شمالي الجزيرة بمعنى الحدود أو الحد ، وربما استعمل أيضا للمعسكر الذي يقوم على الحدود . ويرجح أن أصله نبطي ، فلما أنشأ العرب المراكز العسكرية سموها أمصارا ، فقالوا مصر الكوفة ومصر البصرة . ويرجح أنه كان يطلق أيضا على موضع حصن بابليون ، ثم قالوا مصر الفسطاط ، ثم أطلقوا الاسم على بلاد مصر كلها . أما الاغريق فكانوا يقولون Aegyptos وقد أخذ هذا الاسم طريقه الى اللغات الأوروبية . أما اسم مصر القديم وهو خيمي أو شيمي أو كيمي فقد اختفى نهائيا .

ولم تكن الفسطاط عاصمة مصر بقدر ما كانت مركزا للعرب ، ففى أثناء العصر الأموي نجد عبد العزيز بن مروان ينقل دار الامارة الى حلوان . ولم يقم العمال خلال العصر العباسي في الفسطاط وانما في موضع بالحمراء القصوى عرف بدار الامارة . وقد نشأت حول دار الامارة بليدة صغيرة عرفت باسم مدينة العسكر ، أقيم فيها مسجد جامع جديد عرف باسم جامع العسكر أو جامع ساحل الغلة . وقد أفادت الفسطاط من ذلك لأن مباني البلدين اتصلت ، فعادت الى الفسطاط أهميتها كعاصمة ، وأنشئت لها شرطة خاصة عرفت باسم الشرطة العليا . وقد اتسعت الفسطاط وازدحمت بالناس شيئا فشيئا ، ولكنها لم تسور . وفي سنة ٦٤/٦٨٢ حفر عامل ابن الزبير على مصر خفيرا حول الفسطاط ليحميها من جنود الخليفة مروان ابن الحكم . وقد أنشئت فيها المنشآت الحكومية الواحدة بعد الأخرى ، فعمر الجامع العتيق ، وأنشئت مساجد صغيرة في الخطط عرفت بالمصليات ، ثم أنشئت أهراء كبيرة للقمح ذكرت في النصوص الافريقية ، ثم أنشىء بيت المال على مقربة من الجامع ، وكان يقوم على أساطين أي أعمدة ، وكان يتصل بالجامع ، وبابه الرئيسي داخل المسجد ، ولهذا كان المسجد يخلى من المصلين بعد العشاء . وقد أصيبت الفسطاط بكوارث كبيرة خلال العصر الذي ندرسه ، أقساها احراق مروان بن محمد اياها سنة ١٣٢/٧٥٠

أثنـاء فراره أمـام العباسيين ، حكى ذلك ساويرس بن المقفع . وقد استمرت مدينـة العسكر مقام الأمراء حتى قدم أحمـــد بن طولون مصر وأقام دولته معتمدا على جنده الأتراك ، وأنشأ القطائع . وسنتحدث عن ذلك فيما بعد .

وقد ذكرنا أن نفرا من العـــرب نزلوا موضـــع الجيزة واختطوا مدينـة الجيزة وجعلوها خططا ، وكان معظم من نزلها من العرب من قبيلتي همدان ويافع . وقد بنى عمرو بن العاص في المدينة حصنا فيما بين سنتي ٢١ و ٢٢ / ٦٤١ — ٦٤٢ ، ثم بنى فيها مسجد جامع عرف باسـم مسجد همدان وينسب الى مراحق بن عامر بن بكيل ، وقد عرف أيضا بالمسجد الأعظم لاتســاعه وكان ملاصقا للحصن . وقد تلاشى الحصن والجامع فلا نجد لهما ذكرا عند ابن دقماق .

أما الاسكندرية فلم ينشىء العـــرب الأولون فيها شيئا ، وانما نزلوا في مساكن كانت لبعض الروم وخلت بخروجهم من مصر ، فكانت تسمى الأخائذ . وكان المســلمون يسكنون هذه البيوت في رباطهم ، فاذا قفلوا سكنها الروم وعليهم مرمتها ، ثم استقروا بها بصورة نهائية .

اهم احداث مصر من الفتح العربي الى قيام دولة احمد بن طولون

هذه هي المراكز التي تجمع فيها العرب من أول الأمر ، وقد عاشـوا فيها كما قلنا حياتهم العربية الخالصة متصلين اتصالا دائما ومباشرا بأبناء عمومتهم في الجزيرة العربية ، ولهذا فقد كان تأثرهم عظيما بكل ما يقع في شبه الجزيرة من الأحداث ، مثلهم في ذلك مثل عرب الكوفة والبصرة وما اليهما . ولهذا فان تاريخ هذه الجماعات يعتبر جـزءا من تاريخ الخلافة عامة لا من تاريخ مصر فحسب، وبينما ظل أهـل مصر بعيـدين عن الفتن الكبرى التي هزت كيان الدولة الاسلامية خلال القرنين الهجريين الأول والثاني اشترك عرب مصر في هذه المشاكل كلها وقاموا بدور حاسم في الكثير منها . فقد ألقى عرب مصر بأنفسهم في معمعان الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان بن عفان .

وليس هنا موضع تفصيل ذلك ، وانما يهمنا أن نلاحظ أن عبد الله بن سبأ الذي يقال ان أصله من يهود اليمن وجد آذانا صاغية من اليمنيين في مصر ، فكأن الذي دفع عرب مصر الى الايضاع في هذه الفتنة هو استنكار جماعة اليمنية لما أبلغهم اياه بعض الدعاة من أن فريقا من قريش مستبد بالأمر مضـيع لشئون المسلمين . أما من انضم الى الحركة من القرشيين فكانوا ينكرون اســتبداد بني أمية بالأمر دون غيرهم من القرشـيين باسم الخليفة عثمان ، وقد زاد نفورهم تولية عثمان أمور مصر أخاه من الرضاع عبد الله ابن سعد . وقد بذل الرجل جهدا عظيما ليثبت أنه جدير بثقة الخليفة ، فقام بحملة كبرى على

المغرب ، وانتصر على الروم في سبيطلة سنة ٢٧/٦٤٧ انتصارا لا يقل عن انتصار عمرو على الروم عند بابليون ، ثم غزا النوبة وارغم أهلها على معاهدة المسلمين سنة ٣١/٦٥١ ، ثم كسب انتصار ذات الصواري سنة ٣٤/ ٦٥٤ ، ولكن ذلك كله لم يشفع له ، واصر عرب مصر على الكارة وكراهتهم له .

وربما كان من أسباب هــذه الكراهة اجتهاده في جمــع المال والارتفاع بالخراج حتى جمع منه فوق ما جمع عمرو بن العاص .

وبينما كان عبد الله بن سعد مشتغلا بهذه الفتوح كان ابن سبأ ومن انضم اليه يكيدون له ، فلما عاد من غزوة ذات الصواري سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ تبين حقيقة الأمر ، فاستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني ومضى الى المدينة ليلقى الخليفة . فلم يكد يخرج من مصر حتى ثار عربهــا على عقبة وطردوه وتزعمهم محمد بن أبي حذيفة ، وربما كان غرضهم الأول التخلص من والي عثمان عليهم ولكنهم وجدوا من عثمان اصرارا على واليه ، فزادوا سخطا . وتشجعوا عندما علموا أن غيرهم من عرب الأمصار الأخرى يشاركونهم الرأي في ولاة عثمان ، فبعثوا الى المدينــة بجماعة منهم يقال ان عددهم كان ٦٠٠ رجل ، وفي المدينة التقى هؤلاء بغيرهم من الثوار وتطور الأمر حتى انتهى بمقتل عثمان بن عفان في ذي الحجة سنة ٣٥ / مايو ٦٥٥ .

وقد انكمش الناصرون لعثمان عــلى أنفسهم أثناء ذلك كله ، وعرفوا بالعثمانية ، وعلى رأسهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة ومسلمة بن مخلد وبسر بن أبي أرطاة ، وعرفــوا كيف يحافظون على وحــدتهم ومركزهم أثناء ذلك الوقت العصيب . والتف حولهم نفر من عرب مصر ، وثبتوا لخصومهم رغم ما بذله محمد بن أبي حذيفة والي عليّ على مصر من الجهود ، ثم أقبل اليهم معاوية ابن أبي سفيان بنفســـه والتقى بهــم في سلمنت من كورة عين شمس سنة ٣٦ / ٦٥٦ واحتال على محمد بن أبي حذيفة حتى تخلص منه ، فولى عليّ على مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، فدخلها سنة ٣٧ / ٦٥٧ ولكن معاوية وعمرا عرفا كيف يوقعان بينه وبين عليّ فعزله ، وولى مصر الأشتر بن مالك بن الحارث النخعي فدبر معاوية اغتياله، فولى عليّ محمد بن أبي بكر فلم يستطع الثبات لأنه كان رجلا طائشا قليل التدبير ، لم يلبث عمرو بن العــاص أن انتصر عليــه واستعاد مصر لمعاوية سنة ٣٨/٦٥٨ ، أي قبل مقتل علي بسنتين .

ويبدو أن هذا الانكار لاستئثار بني أمية بالأمر دون غيرهم هو الذي دفع بغالبية عرب مصر الى تأييد عبد الله بن الزبير عندما طلب الخلافة لنفسه عام ٦١/ ٦٨٠، ولم يكن يقتصر ذلك على عرب مصر بل شمل عرب الحجاز واليمن والعراق وكثيرا من عرب الشام . ومن الواضح ان عامة العرب لم يكونوا قد سلموا

بحق بني أمية في الخـلافة ، وان كانوا قد خضعوا للقوة . ويبدو هذا بصورة واضحة عند عرب النواحي ؛ فقد كانوا بعيدين عن مركز الخلافة يتمتعون بجانب كبير من الحرية ، ويبدو ذلك بصورة واضحة في حالة عرب مصر ؛ فقد كان لهم وضع خاص يختلف عن وضع عرب العراق مثلا . فقد كان هؤلاء الأخيرون يعيشون من أرض تملكها الدولة وليس لهم الا فيؤها . أما عرب مصر فكانت رقاب أرضهم بأيديهم أو بأيدي المصريين ، ولم يكونوا يخشون أن تنزعهم الدولة من الأرض أو تحاربهم بالأسلحة التي حارب الحجاج عرب العراق بها .

ومهما كان الأمر فقد كان عرب مصر مستعدين لتأييد أي منافس لبني أمية في الخلافة ؛ سواء أكان المنافس ابن الزبير أو غيره ، وخاصة عندما اقتنص الخلافة مروان ابن الحكم سنة ٦٤/٦٨٤ فقد بدا بوضوح أن المسألة مسألة مهارة وخداع وغصب بالقوة ، ومن قدر على الخلافة حازها بصرف النظر عن الحق أو رأي الأمة . وقد بدأ مروان بن الحكم أمره بمأساة مرج راهط حيث أنزل القيسيون بالكلبيين هزيمة فاصمة تردد صداها في نواحي الدولة كلها ، ولم ينس اليمنيون مصيبة مرج راهط أبدا ، وظل الحقد يغلي في صدورهم ، ولم يغادروا فرصة لزعزعة بناء دولة المروانيين الا ابتدروها ، بحيث يمكن القول بأن انهزام بني مروان وخروج الأمر عن أيديهم بدأ يوم مرج راهط .

وقد اهتم مروان بأمر مصر اهتماما عظيما ، وأسرع اليها ليستعيدها من والي عبد الله بن الزبير عليها وهو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري . وقد أبلى ابن جحدم بلاء عظيما في دفاع مروان بن الحكم وجنده ، ونفر عرب الفسطاط لعونه ، وكانت غالبيتهم يمنية ، ولكنهم انهزموا لنفس السبب الذي هزم اليمنية في صراعها مع الشامية في كل ناحية من نواحي الدولة ، وهو أنهم كانوا أكثر استمساكا بما كانوا منصرفين اليه في الولايات من زرع وضرع وشئون معاش ، في حين ان الشامية كانوا قليلي الاهتمام بهذه الناحية ، انما همهم الحقيقي في السياسة وطلب السلطان ؛ فكانوا أصبر من اليمنيين على الكفاح السياسي والعسكري ، وربما كسب اليمنيون انتصارات أولى ، ولكنهم لم يكونوا يصبرون في الصراع الطويل ، ولهذا عقدت الانتصارات النهائية دائما بلواء القيسية . وقد دخل مروان بن الحكم الفسطاط سنة ٦٥/٦٨٥ وبايعه عرب مصر الا نفر قليل تخلص منهم مروان بوسائل شتى وقد انصرفت يمنية مصر بعد ذلك عن المناوأة واستغرقوا في شئون المعاش ، وهدأت أحوالها الى نهاية العصر الأموي .

غير أن اليمنيين شعروا منذ أيام يزيد بن الوليد أن أمر بني مروان الى زوال ، فقد

ضعف أمر القيسية بعد ذلك الجهد الطويل الذي بذلوه في تأييد بني مروان منذ أيام مروان بن الحكم . واذا كان اليمنيون قد عجزوا عن مواجهة الخلافة المروانية جملة واحدة ، فان جماعاتهم في كل ناحية من نواحي الدولة أخذت تناوىء من معها من القيسيين ، وظهر ذلك بصورة واضحة جداً عندما ولي الأمر مروان بن محمد ، فقد اعتمد على القيسيين اعتمادا كاملا أحرج صدور اليمنيين في كل ناحية . وفيما يتصل بمصر نجد واليها حفص بن الوليد الحضرمي ، وكان يمنيا ، يستعفي من ولاية مصر عقب ساعة تنصيب مروان بن محمد خليفة ، فولى مروان عليها حسان بن عتاهية وعلى خراجها عيسى بن أبي عطاء وهما مضريان قيسيان ، فاتصب اليمنيون يقاومونهما حتى اضطروهما الى الخروج من مصر ، ونصبوا على أنفسهم حفص بن الوليد مرة ثانية .

وكانت دعوة العباسيين قد قوي أمرها وترامت أخبار تجمع قواهم في شرق الدولة الاسلامية ، وربما وصل الى مصر نفر من دعاتهم ، فتشجع اليمنيون وصارحوا مروان ابن محمد بالعداء . وقد اجتهد في اخضاعهم فولى مصر حنظلة بن صفوان الكلبي ، وكان يمنيا من المخلصين لبني مروان ، وكان قد خاض معارك طويلة في المغرب لم يوفق في شيء منها ، فرفض المصريون الاعتراف به وأخرجوه من الفسطاط . وظل حفص بن الوليد واليا على مصر حتى أوائل سنة ١٢٨/ ٧٤٥ ، وقد روع مروان روعا شديدا لخروج مصر عن سلطانه ، فانتدب لاخضاع عربها رجلا من خيرة رجاله هو حوثرة بن سهيل الباهلي ومعه سبعة آلاف من جند حمص والجزيرة وقنسرين ، فخاف عرب مصر ، وتخلى حفص بن الوليد عن الأمر وطلب أنصاره الأمان ، فأمنهم ، ثم غدر بهم وقتل زعماءهم بما فيهم حفص بن الوليد سنة ١٢٨ /٧٤٥ .

ولم تمض سنوات حتى كانت هزيمة مروان بن محمد أمام قوات العباسيين على نهر الزاب (جمادى الآخرة ١٣٢ / يناير ٧٥٠) ، وشعر بنو مروان وولاتهم أن أمرهم قد انتهى . وهنا نجد فكرة التحصن بمصر تدور بفكر مروان بن محمد ، وعنده بعض أصحابه بالعبارة التي لا تزال تتردد في أحاديث مؤرخي مصر الاسلامية : « هي أكثر بلاد الأرض مالا وخيلا ورجالا » ، وهي « كليشيه » لا يزال يتردد على ألسنة رجال الدولة ، دون أن يحاول أحد منهم الاستفادة منه ، حتى جاء أحمد بن طولون .

وبينما كان مروان بن محمد يفكر في مهرب يلجأ اليه كان واليه على مصر عبد الملك ابن مروان يستعد لحماية بلده من العباسيين ، وقد ارتكب في ذلك السبيل حماقات ما كان أغناه عنها : صادر أموال الناس واستولى على ما قدر عليه من نحاس وحديد ليستخدم

ذلك كله فى شئون الدفاع . فتغيرت النفوس عليه ، ورموا بنى مروان عن قوس واحدة ، حتى اذا بدأ مروان بن محمد يسير الى مصر هاربا من بنى العباس اجتمع نفر من الجند لمنعه من دخـولها ، ثم أقبل مروان بفلول جيشه ، فوجد عـرب مصر جميعـا ، من الاسكندرية الى أسوان ، مع العباسيين عليه . ثم انضم اليهم أهل البشمور (ويسمون أيضا أهل البشرود) واعتصـموا بمستنقعاتهم ، وقضى مروان فى مصر نحو الشهرين يحاول أن يجمع أمره دون جدوى .

فلما علم بأن قائدى العباسيين صالح بن على وأبا عون فى الطريق الى مصر أمر باحراق الفسطاط ، ثم أحرق جميـع المراكب الراسية فى دار الصناعة بالروضة ، ثم مضى جنـده يخربون ما استطاعوا تخريبه من أراضى الوجه البحرى ، كأنما ظن أن سـياسة « الأرض المحترقـة « La terre brulée » قد تنقذه من مصيره المحتوم . ولم تكن لذلك نتيجة الا تنفير أهل البـلاد جميعا — عربا ومسلمين وأقباطا — فقد شاء له رأيه الدبرى أن يقبض على البطرك الأنبا ميخائيل لأنه لم يؤد اليه مالا معلوما ، وانتهى الأمر بالقبض عليه وقتله فى بوصير الملق (مديرية الجيزة) فى ٧ ذى الحجة ١٣٢/٧ يوليو ٧٥٠ . وبهذا لقى آخر خلفاء بنى مروان مصرعه على ثرى مصر ، وأتيـح لساويرس بن المقفع مؤرخ الأقباط أن يحيى هذه المناسبة فى تاريخه ، ويذكر مكافأة العباسيين لاخوانه على ما قاموا به من حرب مروان ، فقد خففوا عنهم الخراج وأطلقوا سراح الأنبـا ميخائيل وبسطوا حمايتهم عـلى الكنيسة المصرية وأملاكها ، وأعفوا أهل البشمور من الخراج ومنحوهم مالا على سبيل المكافأة .

هكذا دخلت مصر فى طاعة العباسيين ، وتولى أمرها صالح بن على عم أبى عبد الله السفاح أول خلفاء بنى العباس . ولم يعلم عرب مصر الذين استبسلوا فى المعاونة عـلى القضاء على بنى مروان أن هلاك آخر مروانى انما هو ايذان بنهاية امتيازهم فى مصر ، فقد كانت للعباسيين وجهة أخرى فى الحكم غير وجهة الأمويين ؛ قامت دولتهم على غير العرب واختارت عاصـمتها على حدود أرض الفرس فى بغداد على الضفة الغربية لنهر دجـلة ، واتجهوا بذلك عن الجناح الغربى للدولة الاسلامية ابتعادا شاسعا . وبدأت وحدات هذا الجناح تنفصل عن كيان الدولة الاسلامية الواحدة بعد الأخرى : بدأ الأمر فى الأندلس بقيام دولة عبد الرحمن الداخل ، ثم انفصلت افريقية عندما استقل بأمرها بنو الأغلب على أيام الرشيد ، وظلت مصر بين طاعة وعصيان وحرب وفوضى حتى استبد بأمورها أحمد ابن طولون .

ولقد كثر الخارجون على العباسـيين فى مصر كثرة تستوقف النظر ، ففى خلافة المهدى وأثناء ولاية ابراهيم بن صالح بن على (١٦٥

— ٧٨١/١٦٧ — ٧٨٣) كاد يستقل بصعيد مصر داعية أموى هو دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان . وكانت كفة المطرية قد شالت وآن الأوان للمينية لترد اليها ما أسلفت من المساءات أيام عز بني أمية ، ووقف العيان وجها لوجه يتقاتلان في نواحي مصر حتى عمت الفوضى ، وزاد الأمر سوءا أن ولاة بني العباس لم يكونوا على قدره أو كفاية ولم يتميز أحد منهم بشيء من الخبرة أو حسن الادارة . وكانت الدولة لا تكاد تولي واحدا منهم حتى تعزله ، لا بسبب العجز في ذاته ، بل لأن سياسة العباسيين العامة نفسها قامت على تغيير الولاة خوفا من استبدادهم بالأمر .

ثم ان الولايات بالنسبة لبني العباس كانت قد أصبحت مجرد مصادر للايراد ، فمن عرض على الخليفة أن يأتيه بخراج أكثر ولاه الأمر ، وهي سياسة ساسانية قديمة أدخلها وزراء بني العباس ، وكما كانت هذه السياسة من أسباب زوال بني ساسان فقد كانت من أسباب اضمحلال ملك العباسيين . ومن غريب الأمر أن خلفاء بني العباس كانوا مولعين بالنظر في تاريخ الفرس ، فلو أن الانسان يعتبر بالتاريخ لاعتبر به العباسيون ، ولكن التاريخ قلما أفاد عبرة أو أعطى درسا ، وكل من ولي أمرا يحسب أنه أول عاقل تربع على عرش أو لبس تاجا .

والمتأمل في أحداث تاريخ مصر خلال العصر العباسي يشعر وكأنما قد تحولت البلاد الى ميدان فسيح للكر والفر ، بين رجال الدولة وخصومهم حينا وبين بعض قبائل العرب وبعض حينا آخر . وقد بدأ الأمر بفتنة دحية بن مصعب بن الأصبغ المرواني الذي ذكرناه ، وقد طال أمره (من ١٩٥ — ١٦٩/ ٧٨١ — ٧٨٥) ولم يتمكن ولاة بني العباس من الخلاص منه الا بعد عناء شديد . وكانت ثورات عرب مصر مع العلويين كثيرة كذلك ، وأول فتنة علوية نسمع بها كانت في خلافة المنصور ، قادها أحد العلويين في مصر وهو علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . فقد دعا لأبيه محمد المعروف بالنفس الزكية وانتهى أمره بانتهاء أمر أبيه في وقعة باخمرا بين الكوفة وواسط في أول ذي الحجة ٧٦٢/١٤٥ . ويبدو أن مصر بدت لدعاة العلويين وكأنها تربة خصبة لدعواتهم فكثروا فيها وأخذوا يسببون المتاعب للولاة ، حتى ضاق العباسيون بأمرهم ، فأمر الخليفة المنتصر واليه على مصر بألا يقبل علوي ضيعة ولا يركب فرسا ولا يخرج من الفسطاط ، ثم أخرج كل من عثر عليه بمصر من العلويين الى بغداد في رمضان ٨٦٢/٢٤٨ أيام خلافة المستعين .

ولا ينبغي أن تصرفنا ثورات هؤلاء العلويين عن الحقيقة التي تستتر تحتها ، وهي كراهة عرب مصر وأهلها لجند الترك الذين اعتمد عليهم العباسيون ، فقد كانوا

غلاظا على الناس شديدي الوطأة على البلاد ، ومن ثم فلم يكن الناس يسمعون بدعوة علوى الا يسرعون الى تأييدها ، وفي بعض الاحيان لم يكونوا بحاجة الى انتظار علوى ليقودهم في الثورة ، كما ترى في ثورة جابر ابن الوليد المدلجي بالاسكندرية في ربيع الآخر سنة ٢٥٢ / نوفمبر ٨٦٦ أيام المعتز ، فقد اشتد أمره حتى بسط سلطانه على الكثير من بلاد الوجه البحري وجبي خراجها ، وقد اضطر الخليفة الى ارسال جيش كبير الى مصر ليقضي على جابر هذا ، فأتى الجيش بقيادة مزاحم بن خاقان وقضى على الثائر وتولى مزاحم أمر مصر في ربيع الأول ٢٥٣/٨٦٧ .

وعندما ثارت الفتنة بين الأمين والمأمون أحس أهل النواحي أن هيبة الدولة قد زالت ، فقد اتهم كل منهما الآخر بكل رذيلة ، ولم يكن النزاع بينهما في أول أمره نزاعا بين الفرس والعرب كما ذهب كثير من المؤرخين، لأن كلا المعسكرين كان يضم عربا وفرسا ، ولكن الأمين عندما بدا له ضياع أمره فكر في الاستعانة بعرب الشام ، وأخذ دعاته يصورون دعوة الأمين على أنها دعوة العرب ودعوة المأمون على أنها قضاء مبرم على العرب . وقد تردد في كتب التاريخ صدى هذا الدور الأخير الذي اتخذه ذلك النزاع المحزن بين ابني الرشيد في مصر ، وتزعم جانبا من عرب مصر في الدعوة للأمين السرى ابن الحكم بن يوسف وظل يدعو للأمين حتى بعد هزيمته . ولكن والي المأمون على مصر عباد بن محمد بن حيان استطاع أن يتغلب على خصمه ويأخذ بيعة أهل الفسطاط للأمين في جمادى الآخرة ١٩٦/مارس ٨١٢ .

وقد وقعت في البلاد فتنة عنيفة بعد ذلك ، اذ خشي السرى بن الحكم وأنصاره على أنفسهم ، واستطاعوا أن يكسبوا عرب الحوف الى جانبهم ، وبعث الأمين الى ربيعة ابن قيس زعيم القيسيين بالحوف يوليه أمر مصر ، فنهض ربيعة بن قيس بهم وأقبل يحاصر الفسطاط . ورأى عباد بن محمد بن حيان عامل المأمون أن يكسب الى جانبه فريقا من عرب مصر يتقي بهم بلاء أنصار الأمين ، فاختار للأمر عربيا طموحا الى السلطان هو عبد العزيز بن الوزير الجروى ، فانهزم الجروى في ذي القعدة ١٩٧ / سبتمبر ٨١٣ ومضى بفلول قومه من لخم وجذام الى فاقوس ، وهناك ألقى أنصاره في نفسه فكرة الدعوة لنفسه . ولم لا ؟ ألم يصبح الأمر فوضى لا ضابط لها ؟ وبالفعل ، دعا عبد العزيز بن الوزير الجروى لنفسه واليا على مصر وبعث عماله لجباية الخراج من الوجه البحري ، وتصدى له السرى بن الحكم ومن معه ، وأصبح النزاع في الحقيقة بين فريقين من عرب مصر ، على أحدهما السرى بن الحكم وعلى الثاني عبد العزيز الجروى . وقد طال النزاع بين الجانبين ، حتى سنة ٢٠٠ هـ/٨١٥ حين أجمع جند

الضغط على السري ، ولكن الجروي اعتصم بشرق الدلتا من شطنوف الى الفرما وجبى خراجها ، بل استقل بالاسكندرية وما حولها بعض زعماء العرب ، وتفرقت البلاد أيدي سبا وعمت نواحيها الفوضى .

وليس أدل على ذلك من استيلاء الربضيين الأندلسيين على الاسكندرية واستبدادهم بأمرها في ذلك الحين . وأمر أولئك الأندلسيين أقرب الى الأسطورة ، فقد كانوا في جملة من ثار على الحكم الربضي الأندلسي وكانوا ينقمون عليه . فلما أخمد فتنتهم واستقر له الأمر أخرج أهل ربض قرطبة الجنوبي سنة ١٩٨/٨١٣—٨١٤ من الأندلس عقابا لهم على قيامهم بهذه الفتنة ، فذهب بعضهم الى العدوة الافريقية واستقر بفاس وأنشأ لنفسه فيها حيا خاصا يعرف بعدوة الأندلسيين ، وأما الباقون فقد ساروا بحرا ونزلوا على مقربة من الاسكندرية عام ١٩٩/٨١٤—٨١٥ يقودهم رئيسهم أبو حفص عمر بن عيسى بن شعيب بن الوليد البلوطي ولم يؤذن لهم بدخول البلد لأن الولاة كانوا لا يسمحون لجماعات الأندلسيين بدخوله ، وكان عدد هؤلاء الأندلسيين الربضيين نحو ١٥٫٠٠٠ رجل عدا نسائهم وأطفالهم ، وقد ظلوا خارج البلد حتى وقع خلاف بين عامله عمر بن هلال وعبد العزيز بن الوزير الجروي صاحب السلطان على الدلتا اذ ذاك . فاستعان الوالي عمر بن هلال يستنجد بالأندلسيين وأدخلهم البلد ، ولكن الأهلين أنكروا ذلك وثاروا بالأندلسيين وأخرجوهم بعد أن قتلوا منهم وطردوا عمر بن هلال أيضا .

وقد استطاع هذا الأخير أن يعود الى ولاية الاسكندرية اثر هدنة وقتية بين السري ابن الحكم وعبد العزيز الجروي ، فلما استقر فيها طلب اليه الأندلسيون أن يدخلهم مرة أخرى ، فخاف أن يتم له ما وقع في المرة الأولى ، فما كان منهم الا أن اقتحموا البلد بمعاونة طائفة عرفت بالصوفية ، كانوا يقولون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويعارضون الولاة ، وعاونهم كذلك نفر من بني لخم كانوا في الاسكندرية ، ودارت بينهم وبين عمر بن هلال حرب قتل فيها سنة ٢٠٠/٨١٥ ، واستقر الأمر للأندلسيين واللخميين في الاسكندرية ، ثم اختلفوا فيما بينهم ، ووقعت الحرب فانتصر الأندلسيون وأصبحوا سادة البلد ، وولوا عليها عبد الرحمن الصوفي رئيس جماعة الصوفيين الذين ذكرناهم ، ثم عزلوه وولوا رجلا منهم يعرف بالكناني ، وهكذا انفصلت الاسكندرية عن بقية البلاد وحكمها أولئك الأندلسيون .
وأراد الجروي أن يستخلص البلد ، فسار اليها في جيش عدته خمسون ألفا ، ولكنه لم يتمكن من ادراك غايته ، لأن منافسه السري أراد أن ينتهز الفرصة ليستولي على مقره في تنيس ، فعاد الجروي مسرعا .

وقد استمر النزاع بين السرى والجروى ثم بين ابنيهما كذلك ، ولم ينته الا عندما قدم الى مصر عبد الله بن طاهر قائد المأمون ، فانضم اليه على بن الجروى ومن معه ، ثم دخل عبد الله بن السرى فى طاعته سنة ٢١١/٨٢٦ على أمان وعهد . وبعد ذلك سار عبد الله ابن طاهر فى صفر ٢١٢/٨٢٧ الى الاسكندرية وصالح الأندلسيين على أن يسيروا من الاسكندرية الى أى موضع يريدون ، فخرجوا فى البحر الى جزيرة كريد فانتزعوها من أيدى البيزنطيين يقودهم زعيمهم أبو حفص عمر بن عيسى البلوطى .

وعلى هذا النحو من الاضطراب والفوضى توالى ولاة بنى العباس على مصر ، لا يكاد أحدهم يستقر حتى يعزل . وكان أمر الولاية كذلك قد هان ، لأن الخلفاء ، أو من يديرون لهم الدولة ، حرصوا على أن يفصلوا الخراج عن الولاية ، ويعهدوا فيه الى رجل ضليع فى شؤون الجباية يضمن لهم خراج مصر بأقصى مبلغ مستطاع ، وقد اشتهر من أولئك رجل يسمى أحمد بن المدبر ، وكان ماليا قديرا بميزان تلك الأيام ، تولى خراج مصر وأثقل الناس بالجبايات حتى لم يبق شيئا دون ضريبة ، وكان لهذا محل ثقة الخلفاء ورجالهم . وفى أيامه دخل أحمد بن طولون مصر واستقر فى الفسطاط فى ٢٣ رمضان ٢٥٤/١٥ سبتمبر ٨٦٨ وكيلا لصهره عامل مصر للخليفة الموفق .

دولة بنى طولون[1]

احمد بن طولون :

ولد أحمد بن طولون فى ٢٣ رمضان ٢٢٠/٢٠ سبتمبر ٨٣٥ فى بغداد أوسر من رأى ، وكان أبوه طولون تركيا من موالى نوح بن أسد الساماني عامل بخارى وخراسان ، أهداه الى المأمون فى جملة مماليكه ، فرقاه المأمون حتى صار فى عداد أمراء جنده . ويقال ان أحمد ليس ابنه بل تبناه لما توسمه فيه من

---

(١) اصول :

فى جانب المراجع العامة التى أوردنا ذكرها خلال هذا البحث ، انظر :

احمد بن يوسف المعروف بابن الداية : سيرة احمد بن طولون ، نشرها Vollers فى فايمار ١٨٩٥ .

ـ : كتاب المكافأة ، القاهرة ١٣٣٢/١٩١٤

البلوى ، عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المدينى : سيرة احمد بن طولون ، نشرها محمد كرد على ، دمشق ١٣٥٨ .

كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب الأدفوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، القاهرة ١٣٣٢ .

المحسن بن القاسم التنوخى : الفرج بعد الشدة ، القاهرة ١٣٥٧ .

ـ : جامع التواريخ المسمى بكتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، جـ ١ طبع مصر ١٩٢١ و جـ ٨ طبع دمشق ١٩٣٠ .

الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ،

مخايل النجابة ، وقد أنكر ذلك أحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية صاحب كتاب سيرة أحمد بن طولون. قال أبو المحاسن: « ونشأ أحمد بن طولون على مذهب جميل ، وحفظ القرآن وأتقنه ، وكان من أطيب الناس صوتا به مع كثرة الدرس وطلب العلم وتفقه على مذهب الامام الأعظم أبي حنيفة . ولما ترعرع أحمد تزوج بابنة عمه خاتون فولدت له العباس سنة ٢٤٢ ، ولما مات أبوه طولون فوض اليه الخليفة المتوكل ما كان لأبيه . ثم تنقلب به الأحوال الى أن ولي امرة الثغور امرة دمشق ثم ديار مصر » .

وقد قال كارل هاينريش بيكر ان أحمد بن طولون يعتبر نموذجا لغيره من الأتراك ، وهي ملاحظة لم يخالفه فيها التوفيق ، لأن ابن طولون كان يختلف عن زملائه الأتراك في كل شيء . فقد كان سياسيا أريبا واسع الصدر حسن التدبير بعيدا عن التهور عارفا بشؤون المال . وكان الى ذلك مثقفا ذا اطلاع واسع ، وهذه كلها خلال لا نعرفها الا في القليل جدا من معاصريه الأتراك . بل كان هو ينكر على

حققه الأساتذة السقا والابيارى وشلبي ، القاهرة ١٩٣٨ .

ابراهيم بن محمد المصرى المعروف بابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، نشر الجزءين ٤ و ٥ المستشرق Vollers ، القاهرة ١٣٠٩ .

أمين الدين أبو المكارم علي بن منجب الصيرفي : الاشارة الى من نال الوزارة ، طبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٢٤

محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، القاهرة ١٩٢٧ .

جمال الدين علي بن ظافر الأزدى المصرى : كتاب الدول المنقطعة ، صورة شمسية بدار الكتب المصرية لجزء من مخطوط بالمتحف البريطاني . وهناك مخطوطة أخرى في جوتا نشر منها فستنفلد كتابه الذي سبقت الاشارة اليه عن حكام مصر ايام الخلفاء .

بدر الدين محمود العيني : عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، جـ ٦٦ .

ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٤ جزءا ، القاهرة ١٩٣٢ (الجزء الخامس) .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، جـ ٣ .

المقريزي : السلوك ، الأجزاء المشار اليها سابقا .

ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ١

ابن خلدون : طبعة بولاق جـ ٤ ص ٢٩٧ وما يليها .

أبحاث ودراسات :

احسن كتاب في الموضوع هو « الطولونيون Les Toulonides » للدكتور زكي محمد حسن ، بالفرنسية ، باريس ١٩٣٣ .

مادة « الطولونيين » بقلم كارل هاينريش بيكر ، ومادة احمد بن طولون بقلمه ايضا في دائرة المعارف الاسلامية .

آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٤٠ .

A. Müller : *Der Islam in Morgen und Abendland*, I, 537 sqq.

Lane Poole : *A history of Egypt in the Middle Ages*, pp. 59 sqq.

Corbet : *The life and works of Ahmad ibn Tulun* (J.R.A.S. 1891) pp. 527 sqq.

Carl Heinrich Becker : *Beiträge zur Gesch. Aegyptens unter dem Islam*, II, p. 148-149

الأتراك . روى أحمد بن محمد بن خاقان ، وكان خصيصا عند ابن طولون انه قال يوما : « يا أخي ، الى كم نقيم على هذا الاثم مع هؤلاء الموالي ! (يعني الأتراك) لا يطأون موطئا الا كتب علينا الخطأ والاثم ، والصواب أن نسأل الوزير أن يكتب أرزاقنا الى الثغر . فكتب له ، وخرجنا الى طرسوس ، فلما رأى ما عليه الناس من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سر بذلك » .

وكان لخروج أحمد بن طولون الى طرسوس واقامته فيها أثر بعيد في تكوينه وتاريخه ، فقد كانت اذ ذاك ثغرا عامرا بالمجاهدين والفرسان والمرابطين ، يقضون أيامهم في منازلة من يليهم من الروم والتعبد والقراءة ، فأتقن الفروسية وحصل جانبا كبيرا من الثقافة . وقد انتفع بذلك بقية أيامه ، وكانت ذكرى أيام شبيبته في ذلك الثغر عزيزة عليه ، ومنزله فيما بعد يبذل جهدا ومالا عظيمين في سبيل الحصول عليه .

واهم ما أفاده ابن طولون من اقامته بالثغر ابتعاده عن مجتمع الأتراك في بغداد وسر من رأى ، فقد كان الجو الذي يعيشون فيه قاتما حافلا بالمآسي والمؤامرات ، تختلط فيه شؤون الدولة والرؤساء بشؤون الخدم والجواري اختلاطا جعل الحياة فيه أشبه بالمغامرة ، اذا سلم بدن الانسان من العطب لم يسلم خلقه . وقد كاد أحمد بن طولون نفسه أن يفقد حياته نتيجة لحب جارية من جواري أبيه ، وكان أولئك الأتراك قد هبطوا بحرمة الدولة والخلفاء الى درك اضطرب معه ميزان الخلق وتلاشى معنى النظام والمسئولية ، فقضى ابن طولون سنوات شبابه الباكر بعيدا عن ذلك الوسط كله ، وعاد من طرسوس فارسا مكتمل الأدوات ودخل في خدمة الخليفة المستعين فأعجب به وقربه وأهداه جارية تسمى مياس أنجب منها ابنه خمارويه سنة ٢٥٠/٨٦٤ .

وعندما غدر الأتراك المستعين ، طلب هذا أن يكون الموكل بشأنه أحمد بن طولون . ثم طلب الأتراك الى ابن طولون أن يقتل المستعين فأبى حفظا للجميل ، فبعثوا تركيا آخر فقتله، وقام أحمد بن طولون بدفنه بما ينبغي له عليه من حرمة . ثم عاد الى سر من رأى وظل بها الى أن حصل صهره باكباك — وكان من كبار أجناد الأتراك — على ولاية مصر فبعث أحمد بن طولون الى مصر وكيلا له . وكانت الولاية اذ ذاك لا تخرج عن ضمان الخراج ، أي أن بايكباك ضمن خراج مصر للخلافة بمبلغ معين ، وأرسل صهره وكيلا عنه ليدير البلد ويحصل المال بمعاونة عامل الخراج ، وأقام هو في بغداد ليكون على مقربة من وكر السعايات والمؤامرات مخافة أن يدبر أحد خلعه عن الولاية أو اغتياله .

دخل أحمد بن طولون الفسطاط في ٢٣ رمضان سنة ٢٥٤ كما قلنا ، ولم يلبث صهره أن توفي فصارت اليه الولاية ، وقد تنبه من أول الأمر الى ان الحكم لا يستقيم له ما دام

الخراج خارجا عن يده ، وكانت الدولة تحرص على أن يظل الخراج في يد عامل خاص ، وكان العامل اذ ذاك أحمد بن المدبر ، فما زال يكيد لابن المدبر حتى عزله وصار اليه الخراج . ثم عهد اليه الخليفة في أن يخرج لحرب أحد الثوار في الشام ، فاستأذن في أن يجمع جيشا لهذه المهمة فأذن له ، فأسرع بتكوين فرقة قوية من الجند كانت نواة جيشه الذي أصبح بعد قليل أكبر قوة عسكرية في بلاد الخلافة العباسية . وكانت نواة هذا الجيش من الأتراك ، غير أنه لم يلبث بعد استقراره في مصر أن ضم اليه فرقا من السود ، ووصل بعد قليل الى ما يقارب المائة الف جندي ، وهكذا اكتملت له أدوات السلطان وسار في طريقه قدما .

وبهذه القوة العسكرية استطاع أحمد بن طولون أن يقضي على كل منافسيه في مصر ، وقد لجأ في ذلك الى كل سبيل مشروع أو غير مشروع ، ووضع على الناس الجواسيس وأخذ بالظنة حتى اشتهر أمره بالغدر والظلم والبطش . وقد حكى ابن الداية فيما رواه من سيرة أحمد بن طولون كثيرا من مساوئه ، وحاول البلوي انصافه والدفاع عنه ، ولكن يبدو أن ابن طولون كان قاسيا مسرفا في الدماء ، ويبدو ذلك واضحا في كلام من دافعوا عنه ، ويبدو أيضا أن ذلك كان في أول أمره ، ثم صلحت سيرته بعد أن استقر له الأمر ومال الى الخير والعدل تكفيرا عما سلف من أعماله .

وقد تعرض ابن طولون لأول خطر حقيقي على سلطانه بعد استقراره في مصر ببضع سنوات ، فان الأمير الموفق كان قد غلب على أخيه الخليفة المعتمد وحصل منه على تفويض بحكم الولايات الشرقية من أملاك الخلافة ، على أن تكون الغربية — ومنها مصر — تحت حكم الأمير المفوض بن المعتمد . ولكن الموفق تعلل بما تحتاجه حرب ثورة الزنج من مال وطلب أن تضم اليه مصر ، طمعا في مالها ، وحصل على موافقة الخليفة على ذلك . وكتب الموفق الى أحمد بن طولون يطلب الأموال ، فرفض ابن طولون ، وأراد أن يظهر للموفق قوته ، فانتهز فرصة موت عامل الشام سنة ٢٦٤/٨٧٧ — ٨٧٨ وسار بجنده واحتل الشام ودخلت الرملة ودمشق وحمص وحماه وحلب في طاعته ، ثم استولى على أنطاكية بعد حصار قصير . وقد فزع الموفق لذلك ، وبينما كان ابن طولون في الشام خرج عليه ابنه العباس في مصر ، وكان نفر من القواد قد غرروا به ، فعاد أحمد بن طولون الى مصر مسرعا ، وأخمد الفتنة وقتل المسئولين عنها واكتفى بسجن ابنه العباس . ثم عاد الى الشام سنة ٢٦٦/٨٧٩ — ٨٨٠ ، ومن ذلك الحين يبدو ابن طولون حاكما على دولة واسعة تشمل مصر الى النوبة ، وتمتد غربا الى برقة ، وتشمل الشام أيضا .

هكذا انضمت مصر والشام تحت سلطان واحد ، وبدا وكأن هذا التركي الغريب عن مصر قد سار في آثار الفراعنة الأقدمين في ضم

الشام ومصر تحت راية واحـــدة . ولم يكن ذلك وحي المصادفة ، وانما هي ظاهرة تاريخية لا تزال تظهر على طول تاريخ هذين القطرين: اذا قامت فى مصر حكومة محلية قوية لم تلبث أن ضمت الشام اليها ، أو لم يلبث الشام أن انضم اليها . حدث هذا فى تاريخ مصر القديم ابتداء من أيام الأسرة السابعة عشرة ، ثم ظهر عندما قام فى مصر ملك البطالمة (وان لم يوفقوا الى الاحتفاظ بالشام ، وكان ذلك من أقوى أسباب ضعف دولتهم) ثم ظهر فى أيام ابن طولون هـذا والاخشيد والفاطميين والأيوبيين والمماليك ، ثم ظهر فى أيام محمد على وتجدد فى أيامنا هـذه ، كأنما وحدة هذين البلدين ضرورة منطقيـة تستلزمها سلامتهما وسلامة الشرق العربى كله .

وفى خلال العصور الاسلامية نلاحظ أن انضمامهما لم يأخذ صورة سيطرة أحد منهما على الآخر ، بل أخذ صورة الدولة الموحدة ، فسواء نظـرنا فى تاريخ العصر الطولونى أو الاخشيدى أو الأيوبى أو المملوكى ، نجد أن أمراء مصر وسلاطينها يقيمون بالشام قـدر ما يقيمون فى مصر ، ويولونه من العناية قدر ما يولون مصر ، بل أكثر بكثير . فقد حارب أولئك جميعا فى سبيل الشام أكثر مما حاربوا فى سبيل مصر . وكان رجال دولتهم شاميين ومصريين على حد سواء ، وقد ارتهنت سلامة الجناح الشرقى لعالم الاسلام باتحـاد مصر والشام ، فاذا اتحدا ارتدت عنه المطامع ، واذا انفصـلا انفرد بهمـا وبجيرانهما المتسلطون والمستبدون . وقد عرف الطامعون فى الشرق العربى هذه الحقيقة فى العصر الحـديث ، فعندما أرادت انجلترا أن تمهد لنفسها طريق الاستيلاء على ما تستطيع الاستيلاء عليه من بلاد الشرق العربى بدأت بالقضـاء على قوة محمد على فى الشام فسهل عليها الأمر بعـد ذلك . وما يجرى تحت أنظارنا من أحـداث أيامنا خير مصداق لذلك . والكلام هنا ينطبق على الشام بمعنـاه التاريخى الكامل ، لأن التقسيم الحالى لبلاد الشـــام شىء جديد فرضته مصالح الطامعين فى الشرق العـربى خلال النصف الأول من هذا القرن ، وهــو احدى النتـائج للحكم العثمـانى فى البلاد العربية .

وخاف الموفق أحمد بن طولون بعد أن اتسع سلطانه الى ذلك الحد ، وبدأ يدبر عليه . وكان ابن طولون واعيا لأمره منتبها لكل ما يصدر عن خصمه ، وكان الى جانب ذلك حريصا على الا يعلن العصيان على الخلافة ، بل ظل يدعو على منابره للخليفة المعتمد ، ولم يقطع ارسال الأموال الى بغداد ، بل ظل يرسل الى الخـلافة ما لها من مـال ، حتى ذكـر أبو المحاسن أنه حمل الى الخليفة المعتمد فى ٤ سنين مبلغ ٢٫٢٠٠٫٠٠٠ دينار أى بمعدل ٥٥٠٫٠٠٠ دينار فى العام ، أى نحو ثمن خراج مصر كلـه (كان الخـراج على أيامـه ٤٫٣٠٠٫٠٠٠ دينار) . ومع أن المعتمد بن

طولون بعد أن ضم الشام الى سلطانه حمل عبء الحرب مع الروم ، وسد عن الدولة هذا الباب الثقيل بالتكاليف ، الا أن ذلك كله لم يغن عنه شيئا في نظر الموفق ، وانتصب هذا يكيد له حتى استمال لؤلؤا قائد أحمد بن طولون على الشام ، فانقلب على سيده وانضم للموفق .

وتحرج أمر بن طولون واضطر الى منازلة الموفق علانية ، فأعلن نفسه حاميا للخليفة المعتمد المغلوب على أمره وسجين أخيه ، واستخرج من الفقهاء فتوى بابطال دعوى الموفق في السلطان ، وقد شذ عن ذلك القاضي بكار بن قتيبة ، وكان من أكبر فقهاء المصر وصاحبا لابن طولون ، فلم يرع ابن طولون حرمته وحبسه ، وكان ذلك من أخطاء ابن طولون التي أخذت عليه ، وندم عليه هو نفسه بعد فوات الوقت ، وأراد استصلاح القاضي وهو على شفا القبر ، فرفض القاضي وقال قالته المشهورة : « شيخ فان وعليل مدنف والملتقى قريب والقاضي الله عز وجل » . وكان لهذه العبارة وقع شديد على ابن طولون ، حتى يقال انه غشي عليه عندما سمعها ، ثم أمر بنقله من السجن الى دار اكتريت له ، ولم يلبث الشيخ أن مات ، وهو آخر القضاة الذين ترجم لهم الكندي في كتابه عن قضاة مصر .

وكان الخليفة المعتمد ضجرا من أخيه الموفق وما يبسطه عليه من سلطان ، وكان يعتبره رجلا عاجزا قليل الملكات ، ولو ترك وحده لقضي عليه صاحب الزنج أو القواد الأتراك ، ولكنه كان دائم الانكار لاستبداد أخيه الموفق من دونه بالأمر . وكان ابن طولون يعرف هذا ، وكان له في دار الخلافة عيون وأرصاد ينبئونه بكل شيء ، فأوعز الى المعتمد أن يغادر بلاد أخيه ويلجأ الى مصر . ومع غرابة الفكرة -- لأن حال المعتمد مع ابن طولون لم تكن لتكون أحسن من حاله مع الموفق -- فقد راقت له الفكرة ، لأن ضجره بأخيه بلغ به الى حد جعله مستعدا لقبول أي مخرج . فانتهز فرصة غياب أخيه وقواده وخرج في نفر من أصحابه متجها نحو الموصل ليمضي من هناك الى حلب وهي من أعمال ابن طولون ، ويبدو أن الخبر نمي الى اسحاق بن كنداجيق عامل الموصل ، فقبض على المعتمد وأصحابه ، ووبخ الخليفة على ما فعل ، ثم رده الى سرمن رأى . ويهمنا من تفاصيل هذا الخبر قول اسحق بن كنداجيق لأصحاب المعتمد : « انكم قاربتم عمل ابن طولون ، والأمر أمره وتصيرون من جنده وتحت يده ، أفترضون بذلك وقد علمتم أنه كواحد منكم ؟ » مما يدل على أن حدود ملك أحمد ابن طولون كانت واضحة يتحاشى قواد الخلافة التطرق اليها ، وعلى أن سلطانه كان بالفعل جاريا في ملكه الواسع حتى هذه الناحية القاصية ، ويدل أيضا على أن رجال الموفق كانوا ينظرون الى ابن طولون على أنه ند لهم ، لا يزيد عنهم في شيء .

وأصبح العداء بعد ذلك بين أحمد بن طولون والموفق سافرا ، فطلب الموفق الى أخيه المعتمد أن يصدر أمرا بلعن ابن طولون على المنابر ، ونفذ هذا الأمر على رغم المعتمد، وقطع ابن طولون الأموال التى كان يرسلها الى دار الخلافة ، بل حاول سنة ٢٦٧/ ٨٨٠ أن يستولى على مكة ، فبعث جندا واستعان بنفر من المصالحين والجزارين فرق فيهم مالا ، ووفق ابن طولون أول الأمر ، وهرب هارون ابن محمد عامل الخلافة على مكة ، خوفا على نفسه ، ثم أتته أمداد مكنت له من القضاء على محاولة ابن طولون . وقد رد الموفق على ذلك بتولية اسحاق بن كنداجيق عامل الموصل أعمال ابن طولون ، ولم يجسر عامل الموصل هذا على عبور حدود ابن طولون ، ورد ابن طولون باسقاط اسم الموفق من الخطبة والطراز ، ولكنه ظل يخطب للمعتمد .

وقد ظل هذا العداء بين الرجلين حتى سنة ٢٧٠/ ٨٨٤ عندما تبين لهما أن الخلاف بينهما لا يؤدى الى خير ، فبدأت مفاوضات الصلح بينهما فلما قاربت على التمام أدرك الموت ابن طولون بعد عودته من طرسوس فى ذى القعدة ٢٧٠/ مايو ٨٨٤ عقب اسهال شديد . وكان ابن طولون عمره كله نهما الى الأكل مسرفا فيه ، حتى فى علته الأخيرة كان يأكل سرا حتى لا يعلم بذلك أطباؤه ، فلما زاد الأمر عليه اعترف لهم فأسقط فى أيديهم .

وكان آخر جهود ابن طولون محاولته لاستعادة ثغر طرسوس ، وكان هذا الثغر من أحب بلاد مملكته اليه ، لا يفتأ يلم به المرة بعد المرة معاودة لذكريات الشباب ، فأرادت المقادير الا أن تهجمه فيه فى آخر أيامه ، فقد وثب به أحد خدمته من الجند وقبض على عامل ابن طولون ، فأسرع ابن طولون الى هذا الثغر القصى الذى يقع جنوبى آسية الصغرى ، ونزل أذنة ، وكتب الى خادمه يستميله دون جدوى ، بل لجأ الخادم الى كسر حسور نهر كان يمر بالبلد فاندفع الماء فأغرق عسكر ابن طولون . ولازم ابن طولون هذا الثغر وألح فى طلبه ، وأقبل الشتاء واشتد البرد وتساقط الثلج وعظمت نفقة ابن طولون وتضحياته فى سبيل هذا الثغر العزيز عليه ، وضج العسكر ، فاضطر الى الرحيل عنه محنقا ، وكتب الى ذلك الوائب بالبلد يقول : « لم أرحل الا خوفا أن تخترق حرمة هذا الثغر فيطمع فيه العدو » . وعاد الى أنطاكية ، وهناك مرض ومات .

وقد اختلفت الآراء فى ابن طولون ، فبعض الرواة يصورونه رجلا قاسيا غليظا لا يتورع عن شىء فى سبيل درك مآربه ، وبعضهم يصورونه رجلا تقيا كريما لا يكاد يقدم على شىء فيه مساس بالحرمة أو الخلق الكريم ، بل يغالى بعضهم فيجعله أشبه بالأولياء ، لا يفعل شيئا الا رأى الله عز وجل أو الرسول صلى الله عليه وسلم فى نومه يهديانه الى الطريق السليم . والخلاصة فى

هذا الموضوع أن شأن ابن طولون كشأن غيره من الطامحين ورجال الدولة ومؤسسي الممالك في تاريخ الاسلام : يستحلون كل شيء في سبيل الوصول الى السلطان والمحافظة عليه ، ولا تعرف قلوبهم الرحمة اذا اتصل الأمر بسلطانهم ، فلا يحجمون عن شيء يتصورون أنه يثبت ملكهم . أما فيما عدا أمور سلطانهم فهم كرماء ذوو حلم وسعة صدر وعفو وحدب على الفقراء والمساكين ، ومهما بلغ خطأ الانسان فالعفو يرجو عندهم ما دام الأمر بعيدا عن تهديد السلطان أو المنافسة في الحكم وما الى ذلك .

وهم يبررون سلوكهم بأن كل شيء جائز في سبيل القضاء على الفتنة ، ويكفرون عن قسوتهم ببناء المساجد والمدارس وأعمال الخير والاحسان : هكذا كان شأن معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وأبي عبد الله السفاح والمنصور والرشيد وابن طولون والاخشيد والمنصور بن أبي عامر وسلاطين المماليك ومن اليهم . ومن لم تقد اختلفه الحكم عليهم ، فمن نظر الى حسناتهم ومآثرهم ومنشآتهم ومبانيهم وبرهم بأهل العلم والفضل والمساكين لم ير غير الناحية المشرقة من خلقهم ، ومن نظر الى كفاحهم السياسي رأى الناحية القاتمة . ولا بد من اعتبار الوجهين معا في الميزان ، وما دمنا قد عرفنا مفتاح سلوكهم فلا معنى لتشديد الحكم عليهم ، فقد عاشوا في أزمان كانت الوسيلة الوحيدة فيها للسلامة من أذى خصم هي قتله ، وكانت قاعدتهم الذهبية التي لم يعلنوها هي قول روبسبير : أرسل أعداءك الى المقصلة قبل أن يرسلوك .

ومن هنا كان رجال أحمد بن طولون على خوف دائم منه ، خشية أن تصل اليه وشاية في حقهم ، فيكون سيفه أسرع الى رقابهم من دفاعهم عن أنفسهم الى أذنيه . وقد عبر عن ذلك طبيبه سعيد بن توفيل النصراني ، فقد عجز عن علاجه عندما اشتد عليه الاسهال الذي قضى عليه ، فقيل له : لست بحاذق ! فقال : والله ما خدمتي له الا خدمة القار للسنور ، وان قتلي لأهون عليّ من صحبته ! وقد بلغ به الضعف أثناء مرضه الأخير الى درجة أن تعذر عليه الانتقال الى مصر برا ، فحمل في البحر ، فلم يكد يصل حتى هدد أطباءه بالقتل اذا لم يعالجوه ، فعاجله الموت قبل أن ينفذ وعيده .

ولا شك أن توفيق ابن طولون يرجع أولا وقبل كل شيء الى سياسته الادارية والمالية ، فقد أدرك الرجل من أول الأمر أن مصر بلد غني كثير الخير ، وأنه اذا أحسنت ادارته أعطى من المال أكثر مما يعطيه غيره من النواحي ، واذا أحسن تدبير الحاصل أمكن الوصول به الى الكثير . ولهذا فقد وجه همه من أول الأمر الى تنظيمها وترتيب شؤونها ، وكان ابن المدبر ومن سبقه من ولاة العباسيين قد حولوا الادارة الى مجرد أداة

لجمع المال ، فرضوا من الضرائب والمغارم والمكوس ما أثقل كاهل الأهلين ، وأهملوا الى جانب ذلك العناية بمرافق البلاد وعيون الثروة ، فهبطت الأحوال الاقتصادية هبوطا شديدا ووقفت الجباية عند ٨٠٠٫٠٠٠ دينار ، رغم الجبايات الاستثنائية والمغارم .

فلما جاء أحمد بن طولون عول على اصلاح الحال ، ولم تكن له وسيلة الى ذلك الا بضبط الادارة واحكام الرقابة على الموظفين ، وخفض المبالغ التي كانت ترسل هدايا ورشى الى مراكز الخلافة . وقد تنبه أحمد بن طولون الى ما لم يتنبه اليه أحد ممن تولى البلاد قبله من الأمراء ، وهو أن أهل مصر أقدر على تدبير شؤونهم المالية من الأجانب ؛ فاستكثر من الموظفين المصريين حتى أصبحت الادارة المالية كلها في أيديهم . وقد أنكر الترك وغيرهم ذلك ورووا عن مساوىء هؤلاء الموظفين كثيرا من الأخبار البعيدة عن التصديق ، كهذا الخبر الذي يرويه أبو المحاسن عن ابن دشومه (برسومة ؟) متولي المال ونصحه لأحمد بن طولون بالاستمرار في الجبايات الظالمة (تسمى المظالم) وكيف أن ابن طولون رفض ذلك ، ثم عوضه الله عما تنازل عنه بكنز عظيم عثر عليه . والمقريزي يتحدث عما يسميه «مكر الأقباط» ، ولكن ذلك كله ان هو الا رد فعل لما عمله ابن طولون من وضع الأمور المالية في أيدي المصريين وما أدى اليه ذلك من الخير ، فقد ارتفع الايراد من ٨٠٠٫٠٠٠ الى ٤٫٣٠٠٫٠٠٠ ، ووجد ابن طولون نفسه في سعة .

أما الكنز الذي عثر عليه ابن طولون وبنى من ذهبه جامعه فلم يكن أمرا غريبا ، فقد كان الناس على طول تاريخ الدول الاسلامية يحلمون بالعثور على شيء من كنوز الفراعنة كما يحلم الناس اليوم بالعثور على البترول ؛ وكانت هذه الكنوز تسمى الدفائن ، وقد بلغ من اهتمام الناس بها أن ابن خلدون عقد لها في مقدمته فصلا . وقد استفاد ابن طولون من حكمة أحمد بن محمد الواسطي الموكل بشؤون المال ، فقد كان رجلا قديرا صالحا حاول بعض المؤرخين أن يجعله من واسط ، ولكننا نرجح أنه مصري من الواسطى . واستعان ابن طولون أيضا بأبي بكر المادرائي ، وكان ماليا قديرا ، وأصله من مادرايا ، ولكن المقريزي يحكي عنه حكايات تدل على سوء استغلاله للسلطان واعطائه القبالات لنفر من أصحابه في مقابل حصص معينة له (وكذلك كان بقية المادرائيين ، وستتحدث عنهم فيما بعد) .

ونلاحظ في تصرفات ابن طولون المالية شيئا من الشبه بتصرفات محمد علي ، فقد احتكر بعض المصنوعات كالنسيج ، وتاجر في المحاصيل (ولو أن المؤرخين يقولون انه عدل عن ذلك لأنه وجده محطا بشأنه ، ولكن الثابت أنه عاد الى المتاجرة في المحاصيل في أواخر أيامه) . وكانت نتيجة هذه الادارة

المالية الحازمة أن كثر المال في يدي ابن طولون ، فاقبل على شراء الجند واستكثر منهم حتى يقال ان جيشه بلغ ١٠٠,٠٠٠ جندي ، والراجح أن معظم الجيش كان من السودان ، فقد ذكر المؤرخون أن ٤٠,٠٠٠ من جنده كانوا من السود و ٢٤,٠٠٠ من الأتراك ، أما الباقي فمن أصناف شتى من المرتزقين ، فيهم نفر من الروم والنصارى .

ومن هذا المال الكثير بنى أحمد بن طولون مبانيه الكثيرة ، وأهمها جامعه الباقي الى اليوم ، وهو من معالم تاريخ العمارة الاسلامية ، فقد بنى على صورة جامع سامرا وخاصة مئذنته ذات السلم الخارجي الحلزوني . وقد شرح ابن طولون لهندسيه كيفية بنائها في خبر لطيف ساقه أبو المحاسن؛ وقد عمّر ما حول الجامع عمارا عظيما حتى أجرت مسطبة مما يؤجره التجار لعرض بضائعهم باثني عشر درهما في اليوم ، مع أن مساحتها لم تزد على ذراع في ذراع . وأنشأ ابن طولون أيضا البيمارستان ، وأنفق في بنائه ٦٠,٠٠٠ دينار غير نفقته اليومية ، وهذا البيمارستان يعتبر أول مستشفى عام في تاريخ مصر الاسلامية ، وكان مقسما أقساما بحسب الأمراض ، وفيه الأطباء والكحالون والمرضون ، وكانت الأدوية والأغذية تصرف للمرضى . وأنشأ قصره الكبير على طراز قصور خلفاء بغداد ، وجعل أمامه ميدانا فسيحا لعرض العسكر ، مساحته وأقام فيه المظلات ، وكلفه ذلك ٥٠,٠٠٠ دينار .

وكانت نفقاته في أبواب الخير كثيرة ، فكان يوزع الأطعمة والصدقات على الناس وفق نظام معين وضعه ، ووقع ذات مرة حريق في دمشق ، فأنفق في تعويض خسائر الناس ٧٠,٠٠٠ دينار . ومع ذلك فيقول بعض الرواة أن الله تعالى لم يغفر له كل ذنوبه ، فقد روى محمد بن علي الماذرائي أن قارىء القرآن على ضريح ابن طولون انقطع عن القراءة مدة ، فلما سأله عن السبب قال : « رأيته في النوم وهو يقول : أحب الا تقرأ عندي ، فما تمر آية الا قرعت بها وقيل : أما سمعت هذه ؟ » .

وقد سكن أحمد بن طولون أول ولايته « العسكر » على عادة أمراء مصر من قبله ، فلما كثر جنده بنى لهم ضاحية للفسطاط سميت « القطائع » ، وكان موضعها من قبة الهواء (موضع قلعة القاهرة الحالية) الى جامع ابن طولون ، وعرضها من الرميلة الى حي زين العابدين . ولم تكن مدينة ، وانما هي ضاحية . قال أبو المحاسن : « وكانت مساحة القطائع ميلا في ميل . وقبة الهواء كانت في السطح الذي عليه قلعة الجبل : وتحت قبة الهواء كان قصر ابن طولون ، وموضع هذا القصر الميدان السلطاني الآن الذي تحت قلعة الجبل بالرميلة . وكان موضع سوق الخيل والحمير والبغال والجمال سابقا ، ويجاورها الميدان الذي يعرف اليوم بالقبيبات ، فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع الذي أنشاه أحمد بن طولون المعروف به ، وبجوار

الجامع دار الامارة في جهته القبلية ، ولها باب من جدار الجامع يخرج منه الى المقصورة المحيطة بمصلى الأمير الى جوار المحراب ، وهناك دار الحرم . والقطائع عدة قطع يسكن فيها عبيد الأمير أحمد بن طولون وعساكره وغلمانه » . وقد قسمت القطائع الى أقسام تشبه خطط الفسطاط ، قال القضاعي : « وكان للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللفراشين قطيعة مفردة تعرف بهم ، ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم ، وبنى القواد مواضع متفرقة . وعمرت القطائع عمارة حسنة ، وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وعمرت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع » .

وقد خلف ابن طولون في خزائنه من الذهب النقد ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، ومن المماليك ٧,٠٠٠ مملوك ، ومن الغلمان ٢٤,٠٠٠ غلام ، ومن الخيل الميدانية ٧,٠٠٠ رأس ، ومن البغال والحمير ٦,٠٠٠ رأس ، وذكروا أنه كان يدخر في كل عام ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، فاق في ذلك الخليفة المعتضد ، فقد أراد هذا الأخير أن يستفضل كل عام بعد نفقاته مليون دينار ، حتى اذا اكتملت عشرة ملايين صاغها قطعة واحدة وجعلها أمام باب قصره حتى يعلم أمراء النواحي أنه أغنى منهم. فمات دون هذه الغاية . وترك ابن طولون من بعده ٣٣ ولدا منهم ١٧ ذكرا أهمهم العباس ، وهو أكبر أبنائه وهو الذي ثار به فقبض عليه وحبسه ، وخمارويه الذي خلفه على الولاية ، وعدنان ومضر وشيبان وربيعة وأبو العشائر .

وقد ذهب نفر من المؤرخين المحدثين الى أن استبداد أحمد بن طولون بمصر يعد حركة قومية مصرية ، وأنه بذلك بدأ عصر الاستقلال لمصر في ظلال الاسلام . وذلك اسراف في تأويل التاريخ مع الحقيقة ، فان ابن طولون أولا لم يستقل عن الخلافة بل ظل تابعا لها ، وهو لم يقطع الخطبة لبني العباس أبدا ، واستمر يرسل المال الى بغداد معظم أيامه فلم يقطعه الا عندما وقع الخلاف الصريح بينه وبين الموفق .ومن ناحية أخرى كان المصريون بعيدين عنه وعن حركته ،نعم انه اعتمد عليهم في ادارته أكثر ، ولكنه لم يتمصر ولا شعر أنه يعمل لحساب مصر أو يعتز بقومية مصرية . وكل ما هنالك أنه كان رجلا ذكيا قادرا أحسن الاستفادة من الظروف واستخدم امكانيات مصر في ادراك ما تصبو اليه نفسه من الانفراد بالسلطان في ناحية ما . وكان من الممكن أن تتمصر دعوته لو خلفه أبناء قادرون على مواصلة سياسته ، فان مصر غلابة على من يقيم فيها ، وقد بدأ الرجل أول خطوة من خطوات التمصر فتخلى شيئا فشيئا عن تركيته وتعرب ، وقد رأينا أنه كان عربي الثقافة والذوق . وقد عرف مؤرخو مصر الاسلامية قدره ، فأحاطوه بالتقدير والاجلال ، ونسجوا حول سيرته الأساطير .

خمارويه وأبو العساكر جيش وهارون بن خمارويه

وخلفه ابنه خمارويه ، وهو ثاني أولاده ، وقد كان ابن طولون أوصى له بالامارة وبايعه الجند عقب وفاة أبيه في ذي الحجة ٢٧٠ / مايو ٨٨٤ ، وقد احتج العباس على ذلك وهو في المحبس فعجلوا بقتله . وكانت مفاوضات الصلح بين ابن طولون والموفق دائرة عندما مات الأول ، وكان الجانبان قد اتفقا على أن تظل مصر والشام له ، فلم يكد قواد الموفق يسمعون الخبر حتى حفزوه على التوقف ، وكان أحدهم قد ولى على الشام قبل ذلك — وهو ابن كنداجيق كما ذكرنا — فانضم اليه أبو الساج عامل شمالي العراق وقررا السير الى الشام ومصر وانتزاعهما من أيدي خلفاء ابن طولون ، وانضم اليهما عامل دمشق لابن طولون ونزل لابن كنداجيق عن أنطاكية وحلب وحمص . وبعث خمارويه بجنده لملاقاة خصومه ، فعسكروا عند شيزر ، وحل الشتاء فتوادع الجانبان .

وفي أثناء الشتاء انتهز ابن كنداجيق وأحمد بن الموفق الفرصة وقررا مهاجمة معسكر المصريين على غرة ، وقد فوجيء المصريون بذلك الهجوم ، فتقهقروا حتى الرملة . ثم وقع الخلاف بين أحمد بن الموفق وقواده ، فتركوه في نحو ٤٠٠٠ من جنده . وفي هذه الأثناء وصل خمارويه من مصر ومعه ٧٠٠٠٠ من جند مصر الطولونيين ، وقرر الهجوم على معسكر العدو . وفي شوال ٢٧١ / أبريل ٨٨٥ وقع اللقاء بين الجانبين عند نهر أبي فطرس المعروف بالطواحين شمالي يافا . ولم يكن خمارويه قد حضر قبل ذلك قتالا ففزع عند اللقاء وهرب مسجلا الى مصر ومعه معظم جيشه ، وانقض جند أحمد بن الموفق على معسكر المصريين ينهبون ويأسرون . وفي هذه اللحظة تقدمت فرقة من الجند المصري يقودها قائد يسمى سعد الأيسر فهجمت على جند أحمد بن الموفق ، فحسب هذا أن خمارويه عاد من مصر بالجند ، ففر هاربا واختل نظام جيشه ، فشد عليهم المصريون وهزموهم هزيمة كبرى بقيادة سعد هذا ، ثم أسرع المصريون فاحتلوا دمشق .

وقد استخف سعد الأيسر بخمارويه وبدأ يفكر في الانفراد بالشام ، ولكن خمارويه غلب عليه وقتله . واستمر الخلاف بين خمارويه والموفق فاصلة زمنا ، ثم عقد الجانبان صلحا تركت فيه مصر والشام لخمارويه لقاء مبلغ سنوي معين . واستقرت الأحوال بين الجانبين حتى مات الخليفة المعتمد وخلفه أحمد بن الموفق باسم المعتضد في رجب ٢٧٩ / أكتوبر ٨٩٢ ، فتأكد الصلح بين مصر والخلافة وعرض خمارويه أن يزوج ابنته قطر الندى لابن الخليفة المعتضد ، ولكن هذا الأخير فضل أن يتزوجها هو وأصدقها مليون درهم ، ودخل بها عام ٢٨١ / ٨٧٥ . وقد بالغ خمارويه في تجهيز ابنته حتى قيل ان المعتضد أراد

يزوجها أن يفقر أباها في جهازها ... » . وزالت الوحشة بين الخليفة وخمارويه بعد عقد الزواج « وولاه المعتضد من الفرات الى برقة ثلاثين سنة ، وجعل اليه الصلاة والخراج والقضاء بمصر وجميع الأعمال ، على أن يحمل خمارويه الى المعتضد في العام ٢٠٠٫٠٠٠ دينار عما مضى و ٣٠٠٫٠٠٠ دينار عن المستقبل » ، واستقرت الأحوال لخمارويه بعد ذلك .

ولم يحسن خمارويه الاستفادة من الفرصة التي أتيحت له ، فمضى يتلف المال على نحو جعله مثلة في أفواه معاصريه ، وبلغت نفقته على جنده قرابة المليون دينار ، وبالغ في منشآته حتى جاوز الحد المعقول ، فأنشأ حديقة لم يسمع بمثلها ، أدخلها حديقة نباتات وطيور وحيوان في آن واحد ، ويقال انه أنشأ لنفسه بركة من الزئبق يوضع له على سطحها فراش لينام وهو يتهدهد ، اذ كان النوم كثيرا ما يمتنع عليه . وقد أنفق خمارويه في هذه التفاهات ما كان أبوه قد ادخره وما كان يأتيه من خراج ، واستكثر من الجواري والغلمان حتى ضاع أمره ، وكثرت نفقته على طعامه حتى كان الباقي في مطبخه من أصناف المأكول يزيد عن حاجة الخدم فيبيعونه « واشتهر بيع الخدم لذلك ، فكان الناس يأتونهم لذلك من البعد ، ويشترون منهم ما يتفكهون به من الأنواع الغريبة من المآكل . وكان هذا دواما في كل وقت ، بحيث أن الرجل اذا طرقه ضيف خرج من فوره الى دار الحرم ، فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله » . كانت نفقة المطبخ في الشهر ٢٣٫٠٠٠ دينار . وقد مات قتيلا على أيدي خدمه وجواريه في دمشق في ٢٧ ذي الحجة ٢٨٢ / يناير ٨٩٦ .

وخلفه ابنه أبو العساكر جيش ، وكان شابا صغيرا لا يحسن من الأمر شيئا ، التف حوله طائفة من أمثاله الغلمان والملهين فأفسدوا أمره وزينوا له قتل عمه أبي العشائر بن طولون فقتله ، فنفر الجند منه وعولوا على خلعه . وكان الجيش الذي كونه جده قد أصبح القوة الفعلية في البلاد ، ولم يكن من الممكن أن يملأ مثل هذا الحدث أعين قواده ، فتخلى عنه رجال مثل خاقان المفلحي ومحمد ابن اسحاق بن كنداجيق ووصيف بن سوارتكين وبندقة بن لمجور (أو المعروف بلمجور) وأخيه محمد بن لمجور وابن قراطغان ، وانما آتيت بهذه الأسماء لتبين القارىء كيف كان قواد الجيش — وبالتالي جنودهم — من غير المصريين . وانه لمن الغريب أن نلاحظ كيف حرص أولئك الحكام على الاعتماد على جند أجنبي ، وأمامهم أهل البلاد يمكن التجنيد منهم ، لا في مصر وحدها بل في بقية بلاد الدولة الاسلامية . صح أن البيزنطيين اعتمدوا كثيرا على جند المصريين ، وانتفعوا بذلك ، ولكن هذه هي القاعدة التي جرى عليها حكام المسلمين جميعا في العصور الوسطى : اعتبار أهل البلاد رعية مستأمنة

تحكم بواسطة جند أجنبي مرتزق ، وكان هذا من آكد أسباب زوال هذه الدول جميعا. وكان كبير الدولة والمقدم في هؤلاء الجند أبو جعفر بن أبّى (يكتب خطأ أبانى) فكلمه القواد في أمره : ولاموه اذ قصر في تأديبه وتسديده ، وانتهى الأمر بقتله ونهب داره « فوقع في أيدي الجند من نهبها ما يملأ قلوبهم وعيونهم : حتى أن بعضهم من كثرة ما حصل له ترك الجندية وسكن الريف ، وصار من مزارعيه وتجاره » .

ثم خلفه أخوه هارون بن خمارويه ولم يكن بأحسن حالا منه ، فلم يكن يرجى للدولة صلاح على يديه ، فهذه الدول لا تقوم على أساس من سياسة أو هدف أو سند من أهل البلاد ؛ وانما يشيدها طموح رجل فرد وملكاته ؛ فاذا انقضى أمره زالت الدولة . تولى هارون في ١٠ جمادى الآخرة ٢٨٣ / سبتمبر ٨٩٦ وكان جند الدولة قد فسد أمره وتفرقت وحدته ، اذ كان هذا الجيش يقوم على فرق من الترك وأخرى من السود وجماعات شتى هم أخلاط من المرتزقين أهمهم الروم ؛ وكان أمر هؤلاء الأخيرين قد علا بفضل ثلاثة من قوادهم هم بدر وفائق وصافى، وكانوا من خيرة القواد عقلا وقدرة ؛ فحقد عليهم الباقون ، وخاصة السود . وكان ربيعة ابن أحمد بن طولون ، وهو عم هارون ، قد أنكر ولاية هذا الغلام وحدثته نفسه بطلب الأمر لنفسه . ويبدو أن عماد هارون كان على السود ؛ فغضب قواد الروم ، واجتهد كل منهم في أن يحوز لنفسه طائفة من الجيش يستولى على عطائهم ويوزعه عليهم كأنهم غلمانه . وقد تمكن هارون بفضل جنده السود من القضاء على ربيعة وخطره ، فزاد احتراس بدر وموفق وصافى منه .

وتولى أمر هارون أبو جعفر بن أبّى ومضى يحاول اصلاح أمر أصبح من العسير اصلاحه . وفي هذه المناسبة أظهر قواد الروم سماحة وبرا يستوقفان النظر ؛ فذهبوا للحج واحدا بعد واحد وأنشأوا بعض منشآت البر . فبنى بدر ميضأة لجامع ابن طولون وسبيلا لشرب الناس وأكثر من تفريق المال والطعام على المساكين ، وفعل فائق وصافى مثل ذلك ؛ وأظهروا من الاخلاص للبيت الطولوني ما لم يظهره غيرهم ؛ رغم سياسة هارون في الاعتزاز بغيرهم . وقد اشتد أبو جعفر بن أبّى مع الروم وفرق قوادهم في البلاد . وفي ذلك الحين بدأت حركة القرامطة تجتاح الشام ، فتصدى لها جند الطولونيين وتمكنوا من الثبات في وجهها ، فاستنفد ذلك جانبا كبيرا مما كان قد بقى لهم من قوة .

وكان أمر هارون قد ساء ونفر منه جند الروم جملة ، وتسامع رجال الخلافة بذلك فما أسرع ما طمعوا في استعادة سلطانهم على مصر ؛ وندب الخليفة المكتفى ووزيره القاسم ابن عبيد الله الكاتب القائد محمد بن سليمان الحنفى للقيام بالمهمة . وكان محمد بن

سليمان هذا من خدم ابن طولون ، اذ استخدمه لؤلؤ الطولونى كاتبا له ، فلما انحرف لؤلؤ عن بنى طولون وانضم الى رجال الخلافة انحرف معه محمد بن سليمان ، وما زال أمره يرقى حتى أصبح فى جملة القواد ، ثم ندبه المكتفى للقضاء على آخر الطولونيين .

وبينما كان جند العباسيين يستولى على أملاك الطولونيين فى الشام ، وثب شيبان بن أحمد بن طولون على ابن أخيه هارون وذبحه بيده فى ١١ صفر ٢٩٢/ نوفمبر ٩٠٤ وتولى الأمر مكانه . وكان شيبان « أهوج جسيما جلدا شديد البدن فى عنفوان شبابه ، فصار يسرع فى أموره ، وذلك بعد أن تم أمره » . وكان جند الطولونية قد أيسوا من الأمر ، فانضموا جماعة بعد جماعة الى جند الخليفة المكتفى . ووصل محمد بن سليمان الى العباسة (بمديرية الشرقية) وقد تخلى الناس عن الطولونيين، وأسرع دميانة قائد الأسطول المصرى فأحرق جسر مصر الشرقى وبعض الغربى حتى تعزل الفسطاط عن الصعيد . وأقبل محمد بن سليمان بمن معه ووقفه دون الفسطاط ، ونهض شيبان بمن بقى معه من الجند السود وحاول الدفاع . ثم كتب اليه محمد بن سليمان يؤمنه وأهله جميعا ، فاستأمن وسار اليه بأهله تاركا جنده واقفين فى المصاف وهم لا يعلمون تخليه عنهم . فلما علموا بالأمر تفرق أمرهم وانهال عليهم الناس حتى صاروا يذبحون جماعة جماعة بين يدى القائد العباسى ، ثم أحرقت القطائع ونهبت الفسطاط نهبا ذريعا وأصاب الناس أذى شديد ، وانتهت دولة بنى طولون ، ولم يحكم شيبان غير تسعة أيام . وقد اجتهد محمد بن سليمان فى ازالة آثار الطولونيين جملة حتى لم يبق منها شىء ، واستصفى أموالهم ونهبها وحمل الى بغداد جزءا وسرق الباقى ، وقد حاسبه الخليفة على ذلك أعسر الحساب . ولم يطل مقام محمد بن سليمان بمصر ، اذ استبدله الخليفة المكتفى بعيسى النوشرى ، وعادت مصر ولاية عباسية كما كانت ..

نظرة عامة على دولة بنى طولون

حكم بنو طولون مصر ثمانية وثلاثين عاما ، وان من يسمع مديحهم فى تاريخ مصر يحسب أنهم حكموا أضعاف هذه المدة ، وهم كما رأيناهم لم يدخلوا على مصر جديدا ولم يتقدموا بأمرها خطوة ، انما كانوا كسحابة صيف ، أما صيتهم البعيد هذا فيرجع الفضل فيه الى المصريين ومؤرخيهم . ولكن يبدو أن ما يقوله أبو المحاسن من أن الدولة الطولونية كانت من « غرر الدول وأيامهم من محاسن الأيام » لم يكن مبالغة ، فقد أمنت البلاد فى أيامهم ورخيت أحوالها ، وخاصة فى أيام أحمد ابن طولون وخمارويه . أما ما أتينا بطرف منه من النزاع بين الجند فكان أمره مقصورا على المحاربين : يتصارعون ويتقاتلون فى واد

والناس في واد آخر ، الا اذا دار القتال في العاصمة مثلا فيصيب الناس أذى .

وقد تنفس الناس الصعداء مع آل طولون وانكفه عنهم نهب ولاة العباسيين ، وبدأ ينمو في البلد وعي بالشخصية المصرية ، ولكنه كان وعيا ضعيفا خافتا يحتاج الى سنوات طوال ليتجلي ويأخذ صورة واضحة . ولو تنبه آل طولون لذلك لكان لدولتهم شأن آخر ، ولكنهم مضوا في أعقاب غيرهم من الاعتماد على العسكر الأجنبي ، فحيل بينهم وبين التطاف ثمر ما غرسوه ، وظلوا أجانب مزعزعين تعصف بهم رياح السياسة والعسكرية ، وتلاشى أمرهم مع أمس الدابر . ومع ذلك فقد أسف المصريون عليهم وقالوا في رثائهم شعرا كثيرا ، بل تزاحم الشعراء على أحمد بن طولون حتى قال القاضى أبو عمرو عثمان النابلسي في كتاب « حسن السيرة في اتخاذ الحصن في الجزيرة » : « رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذي كان لأحمد بن طولون ، فاذا كان اسم الشعراء في اثنتى عشرة كراسة ، فكم يكون شعرهم ؟ » .

ولقد كان أحمد بن طولون أجنبيا عن مصر ، ولكنه يعد بدون شك من رجال التاريخ المصري . فقد كانت تلك أيام لا تعرف غير القومية الاسلامية ، فأحمد بن طولون مصري في مصر وشامي في الشام وعراقي في العراق ، وهو أيا كان موضعه وأصله منسوب الى البلد الذي كرس معظم جهوده للنهوض بأمره ، ودولته دولة مصرية اسلامية ، وفي الاطار العام للتاريخ الاسلامي يعد ابن طولون من أفذاذ ذلك التاريخ ومن أبطال التاريخ المصري تبعا لذلك . واذا قارناه بغيره ممن استبدوا بنواحي الدولة الاسلامية في تلك العصر رأيناه يمتاز عنهم بفكرة واضحة عن الدولة وما ينبغي لها . وقد كان متشبعا بانيا ومنظما ماليا ممتازا . وكان ذلك من حسن حظ مصر ، بل ربما كان ذلك أثر مصر فيه . واذا كان عمرو بن العاص صاحب الخطوة الأولى في بناء مصر الاسلامية ، فان ابن طولون صاحب الخطوة الثانية .

وهو صاحب أول تجربة لانشاء كيان مصري خاص داخل الكيان الاسلامي العام ، وفضله من هذه الناحية عظيم ، فهو النموذج الذي جرى على مثاله محمد بن طغج الاخشيد ثم الفاطميون ثم الأيوبيون . فاذا كانت التجربة قد انتهت الى الفشل فان عبرتها ظلت باقية وأصبحت محور تاريخ مصر الاسلامية . ومن ذلك الحين سيجتهد كل من واتته الفرصة في اعادة انشاء دولة في مصر والاعتماد عليها ، مما جعل تاريخ مصر الاسلامية خطا متصلا مستقلا عن التيار العام لتاريخ الشرق الاسلامي . وقد هيأت البيئة المصرية ذهن أحمد بن طولون للاتجاه في الوجهة التي يمليها تاريخ مصر العام : فقد استبد بها ثم ضم اليها برقة واتجه بعد ذلك

الى الشام ، وجعل من ذلك كله وحدة واحدة وسيفعل ذلك كل من يجيء بعده . والتجربة الطولونية من هذه الناحية عظيمة القيمة في تاريخنا ، فقد دلت على أن مصر قاعدة القوة الاسلامية ، فاذا انضم اليها الشام أصبحت العمود الفقري لدولة الاسلام ، وتبينا فتبينا سيصبح ذلك حقيقة واقعية ، وتحمل مصر عبء الاسلام والخلافة والثقافة العربية .

وفيما يتصل بمجرى التاريخ المصري العام دلت هذه التجربة القصيرة المدى على أن مصر لا زالت تحتفظ بعناصر القوة في كيانها : فعلى الرغم من الكوارث التي توالت عليها منذ دخول الفرس أرضها سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، وقضائهم على مظاهر الحضارة الفرعونية ، وما تلا ذلك من محاولات للقضاء على الجذور البعيدة لشجرة الحياة المصرية : من عبث الفرس في مصر وتخريبهم اياها ، وغلبة الاغريق وثقافتهم خلال العصر البطلمي ، ثم ما نزل بمصر من عسف الرومان وعسف البيزنطيين واضطهادهم ، ثم الفتح العربي وكل ما أتى به من مقومات حضارية وقيم معنوية روحية جديدة ، وما صاحب ذلك كله من الانتقال من الوثنية الفرعونية الى النصرانية فالاسلام ، ومن تغير اللغة من لهجات مصر القديمة الى غلبة اللغة القبطية وصراعها مع اليونانية ، وذهاب هذه وتلك وجريان ألسنة أهل مصر باللغة العربية : على رغم ذلك كله ظلت الجذور سليمة والروح واحدة ، وما هو الا أن نعمت مصر بالهدوء بضع عشرات من السنين حتى عادت اليها عافيتها وبدأت شجرتها تورق ثم تثمر . وهذه حقيقة لم يتنبه لها ابن طولون ورجاله وخلفاؤه ، وكان في ذلك ضياع أمرهم . ولكن شعب مصر شعر بها شعورا غير واع كما يحس المريض بالانتعاش يسري في كيانه دون أن يصدق أنه في طريق العافية .

بقي سؤال قبل أن نترك هذه التجربة الطولونية : ما الذي جعل رجال الدولة العباسية يقسون هذه القسوة على بقايا الطولونيين ؟

لو أننا نظرنا الى الدولة العباسية في مجموعها اذ ذاك للاحظنا أن بني طولون ، رغم كل شيء ، كانوا أبر الناس بها وأنفعهم لها ، فهم لم يخرجوا على الطاعة ولم يمنعوا مالا ، حتى السنوات التي فطسم فيها ابن طولون مال مصر عن الخلافة عوضها ابنه خمارويه فكان يدفع ٢٠٠٫٠٠٠ عن السنوات الماضية و ٣٠٠٫٠٠٠ عن كل عام جديد . وفي تلك السنوات المظلمة التي عبث فيها الزنج بمصائر دولة العباسيين وهبت عليها ريح القرامطة لم يكن للخلافة من عماد حقيقي الا ما يرد من مصر من دنانير الذهب . ثم ان الطولونيين صاهروا الخلفاء ووسعوا عليهم قدر ما استطاعوا وحملوا عن الدولة عبء الحرب مع البيزنطيين ، فما الذي جعل محمد ابن سليمان الكاتب وجنده يفعلون ببقايا بني طولون ما فعلوا ثم حملوهم الى بغداد

مصفدين فى الحديد كأنهم أسرى حرب ، ثم عاثوا فى بلاد مصر وأحرقوا ونهبوا كأنهم يقتحمون بلدا معاديا ؟

الحق ان ذلك يدل على انحطاط المستوى الخلقى العام لرجال الدولة العباسية ، فقد كانوا شراذم من الشذاذ والعتاة شقيت بهم بغداد ودمشق كما شقيت بهم الفسطاط ، وقاسى الخلفاء منهم قدر ما قاسى بنو طولون كانت بلاد الخلافة العباسية كلها فريسة لاولئك العتاة ، واذا تأمل الانسان أفعالهم أدرك ان حمدان قرمط لم يكن أسوأ من هؤلاء الرجال بحال ، وانه لم يكن بدعا بين أهل زمانه حين أعلن الحرب على هذه الدولة ورجالها واستحل دماءهم ، وفعل ما فعل مما تقشعر منه الأبدان ، فلم يكن رجال الدولة خيرا منه ، وكانت فوضاهم قد قضت على كل مفهوم للدولة أو الحق أو النظام .

من الطولونيين الى الاخشيديين

عادت مصر مرة أخرى الى بحر الدولة العباسية الحافل بالعواصف . ولم يكن من المأمول أن تستقر حالها أو يهدأ أمورها والدولة ورجالها على ما وصفنا . فما هو أن استقر محمد بن سليمان الكاتب بمصر شهورا حتى عزله الخليفة المكتفى بعيسى بن محمد النوشرى ، وكان من جملة قواد محمد بن سليمان ، فبدأت امارته عليها فى جمادى الآخرة ٢٩٢ / مايو ٩٠٥ وبدأ يرتب أموره فجعل الحسين بن أحمد المادرائى المعروف بأبى زنبور على الخراج وولى أصحابه النواحى ، وهى بحسب ما يذكره أبو المحاسن : الاسكندرية وتنيس ودمياط والأحواف وبرقة ، والصعيد وأسوان . وربما كانت هذه هى أهم النواحى ، ويهمنا أن نلاحظ أن برقة كانت معدودة جزءا من مصر فى ذلك الحين .

ثم جمع النوشرى بقايا رجال الدولة الطولونية وأخرجهم من البلاد موكلا بهم ، أما بقية جند الطولونية فقد ساروا مع محمد بن سليمان حتى بلغوا دمشق ثم تفرق أمرهم ، فمنهم من ذهب الى العراق ومنهم من عاد الى مصر

وكان من بين هؤلاء العائدين شاب من الجند يسمى محمد بن على الخلنجى (يلقب أيضا بالخلنجى والخليج) كان قبل ذلك فى قيادة صافى الرومى ، فلما وصل الى مصر ورأى ما حل ببنى طولون وما فعله جند العباسيين بمصر أنفت نفسه وقرر القيام على الدولة . واجتمع اليه نفر من الجند وبايعوه فأسرع بمن معه نحو الرملة فى شعبان ٢٩٢ / يونيو ٩٠٥ وقضى على الحامية العباسية بها وملك البلد وخطب فيه للخليفة ولابراهيم بن خمارويه بن طولون ولنفسه . ثم كر الى مصر ، وحاول عيسى النوشرى أن يتصدى له فانهزم أمامه ، ثم فر الى الجيزة وأحرق الجسرين المؤديين من الفسطاط الى الجيزة ، ودخل الخلنجى الفسطاط . ثم هرب النوشرى الى الاسكندرية فأرسل الخلنجى فرقة من جيشه تتبعه بقيادة جندى نوبى يسمى خفيفا ، فانهزم هذا الأخير

وقد اضطرب أمر الخلنجي بعد تلك الهزيمة فأخذ يطالب الناس بالأموال ليؤدي لجنده أرزاقهم . وقد بلغ الذعر برجال الدولة أن الحسين بن أحمد الماذرائي أخذ الدواوين — أي دفاتر الأموال — وفر بها حتى لا يوقفه على معرفة أصول الأموال ، فلجأ الخلنجي الى اكراه الناس على أداء ما يطلب « وأجرى أعماله على الظلم والجور ومصادر أعيان البلد فلقي الناس منه شدائد ، الا أنه كان اذا أخذ من أحد شيئا أعطاه خطه ، ويعده أن يرد له ما أخذ منه أيام الخراج » . ولم يستقم الأمر لهذا الرجل ، فقد اضطربت الأحوال وتكاثر عليه رجال الدولة وتوالت قواتها ، فقبض عليه وزالت دولته بعد أن حكم مصر سبعة أشهر وأياما .

وهذا الحادث يكشف عن ضعف بناء الدولة وقلة غناء القائمين بأمرها من الرجال ، فقد استطاع هذا الشاب المقامر أن يحول دون الدولة ورجالها ، ويسيطر على مصر ويهزم جيوشها ، وأفزع عامل العباسيين حتى أصبح يفر أمامه من الفسطاط الى الصعيد الى الاسكندرية . ولولا أنه هو نفسه لم يكن كفئا للمطلب الذي أراده لما استطاعت الدولة أن تتغلب عليه . ويكفي أن نذكر أن سنة ٢٩٢/ ٩٠٤—٩٠٥ شهدت أربعة ولاة لمصر ، هم شيبان بن أحمد بن طولون ومحمد بن سليمان الكاتب وعيسى النوشري ومحمد الخلنجي .

الإخشيديون[1]

وقد فتحت التجربة الطولونية أعين رجال الدولة على ما يمكن أن تقدمه مصر للمتولي أمورها من امكانيات . وقد كانت الدولة العباسية اذ ذاك في حالة تشقق وتصدع

(١) جميع المراجع التي اشرنا اليها في الحديث عن الطولونيين تتحدث عن الاخشيديين. وبالاضافة الى ذلك نذكر أهم دراسة في تاريخهم للسيدة الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف : مصر في عصر الاخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ والمراجع المستوفاة المذكورة في ذلك الكتاب ، ومادة « اخشيديين » بدائرة المعارف الاسلامية بقلم كارل هاينريش بيكر . وانظر :

C.J. Tornberg : *Mémoires sur les monnaies des Ikhchidites* (dans Nova Acta Regiae Societatis Scientiarum Upsaliensis) 3e série, vol. II.

كاملين ، وكل من قدر على ناحية استبد بها . فأما في شرق الدولة ، أي فيما يلي العراق شرقا ، فقد أصبحت البلاد نهبا موزعا بين الاقطاعيين الكبار والمحاربين . فأما الطائفة الأولى فكانت نفرا من الأغنياء حازوا مالا مكن لهم من اصطناع جند مرتزق ، وبهذا الجند المرتزق حازوا ما استطاعوا حيازته من الأرضين وقاطعوا الدولة عليه بمال معلوم . وأما المحاربون فكانوا أجناسا من الترك والديلم والفرس والخراسانية ومن اليمن ذوي ملكات وهيئات تصلح للحرب والقتال ، وظهر فيهم أفراد يمكن أن نشبههم بالكوندوتييري Condottieri الايطاليين في القرن الخامس

عشر ، وهم متعهدو جنود ، يقدمون منهم الى من يريد لقاء أجور معينة ، وقد يقودون هم هؤلاء الجنود ويؤجرون أنفسهم ومن معهم لمن يريد .

وقد نبغ من الطائفتين — ملاك الأراضي والمحاربين — أفراد تمكنوا من أن ينشئوا دولا ، بل منهم من دخلوا في خدمة الدولة العباسية وأصبحوا أصحاب الأمر فيها ، كالبويهيين والسلاجقة من بعدهم . غير أن هضاب ايران وتركستان وما يليها حتى حدود الصين كانت بلادا فقيرة قليلة الخير ، لا تمد دولة على الصمود زمنا طويلا ، وغاية ما كان يرجوه أصحاب الدول فيها أن يفرضوا أنفسهم على دولة الخلافة . وفي بلاط الخلفاء المضطرب الحافل بالاختلافات والدسائس ضاع أمر معظم أصحاب هذه الدول ، فكأنها في تتابعها كانت موجات بحر يلي بعضها بعضا ويلاشي بعضها بعضا .

وقد رأى هؤلاء الناس جميعا أن الجانب الغربي من الدولة العباسية يقدم للطامع فيه فرصا أحسن ، فهناك مصر القاعدة العسكرية الاقتصادية الكبرى ، من تمكن منها استطاع أن يحصل على مال وفير متصل ، وبهذا المال الوفير يستطيع أن يقطع مطامع أهل الدولة ويقيم لنفسه ملكا يدوم بدوامه ، وربما أورثه أعقابه . وهذه هي عبرة التجربة الطولونية في نظر رجال الدولة العباسية ، فمنذ بدأ أمر بني طولون يضعف شرهت أنظار رجال الدولة

الى مصر وأصبح الأذكياء منهم حريصين على أن يثبتوا أقدامهم فيها محاولين اعادة التجربة الطولونية لحساب أنفسهم . وأكبر من حاول هذا الأمر القائد تكين التركي ، ثم محمد بن طغج الاخشيد . فأما تكين فقد تولى مصر فيما بين سنتي ٢٩٨/٣٢٣ — ٩١٠/٩٣٥ — ٩٣٤ و ٩١١ — أربع مرات حكمها في مجموعها قرابة ستة عشر عاما . فاذا ذكرنا أن عمر دولة بني طولون كلها لم يزد عن ٣٨ سنة والاخشيد عن ٣٤ ، تصورنا طول المدة التي سيطر فيها تكين هذا على مصائر مصر وجانب كبير من الشام أيضا .

غير أن جميع من طمعوا في مصر من أولئك القواد لم يرزقوا شيئا مما رزقه أحمد بن طولون من المواهب والكفايات ، حتى محمد ابن طغج الاخشيد نفسه ، لم يكن يمتاز عن تكين بشيء ، فلم يكن على ثقافة أو اتساع ذهن أو طموح بعيد ، بل كان بخيلا أميل الى الجبن وسوء التصرف . ولولا أن أمور مصر المالية كانت في أيامه الى أسرة المادرائيين لما استطاع أن يقيم لنفسه في مصر كيانا ، ولولا قيام كافور الاخشيدي بشؤون بنيه بعد وفاته لتلاشى أمر بني الاخشيد عقب وفاته . واذا قارنا بين محمد بن طغج وكافور لرجحت كفة هذا الأخير ، فقد كان أعقل وأقدر وأعرف بشؤون السياسة ، وهو عماد هذه الدولة ومحور سياسة مصر خلال العشرين السنة التي انقضت بين موت محمد بن طغج وزوال أمر بني الاخشيد على أيدي الفاطميين .

ومن هنا فانه يبدو لنا أنه من المبالغة أن نحسب دولة الاخشيديين في مصر بين الدولات ذات الخطر أو الأهمية في تاريخ مصر العام . فلا هم أنشأوا شيئا ذا بال أو وضعوا رسما أو سلكوا سياسة تجعلهم في عداد دول التاريخ المصري . ومن الانصاف ألا يقال دولة الاخشيد ، بل دولة الاخشيد والمادرائيين وكافور .

وقد ظهر أمر محمد بن طغج أثناء خلافة الراضي بالله ؛ حتى ليقال انه هو الذي منحه لقب الاخشيد عام ٣٢٧/٩٣٩ على أصح الآراء . والذين يروون هذا الخبر يقولون ان محمد بن طغج هو الذي طلب الى الراضي أن يختصه بهذا اللقب . ويقال ان الاخشيد كان لقب ملوك فرغانة ، كما أن أصبهبذ لقب ملوك طبرستان ، والاخشيد لقب ملوك أشروسنة ؛ وما الى ذلك . ويقال أيضا ان معناه ملك الملوك ، وهذا تفسير لا يمكن القطع بصحته ، مثله في ذلك مثل قولهم ان معنى « طغج » عبد الرحمن . وعلى أى الأحوال فقد اتصل بيت محمد بن طغج بن جف بالعباسيين من أيام المعتصم ، فقد كان جف من رجاله المقربين اليه ؛ وقد أقطعه المعتصم اقطاعا سنيا . وظل جف في البلاد حتى توفي في الليلة التي قتل فيها المتوكل من سنة ٨٦١/٢٤٧

وخلفه ابنه طغج بن جف وكان من كبار الجند وأصحاب الولايات ، وقد دخل في خدمة الطولونيين وتولى لهم الشام وأخلص في خدمتهم ؛ وهو الذي قبض على قتلة خمارويه في الشام ، مع أن خمارويه كان قد أزمع الفتك به ثم حال مصرعه دون ذلك . وظل طغج واليا على دمشق وطبرية أيام أبي العساكر جيش . وفي أيام هارون بن خمارويه نجده واليا على الشام مستبدا بالأمر فيه ؛ ثم تمكن رجال الدولة الطولونية من استرضائه واستمالته ؛ فدخل في طاعتهم وأقروه على الشام. وعندما قتل شيبان هارون لم يعترف طغج بشيبان ، وانضم الى محمد بن سليمان الكاتب ، وشارك معه في القضاء على دولة الطولونيين. ثم انتقل طغج الى بلاط العباسيين وناله ما كان ينال رجال الدولة اذ ذاك من الأذى ، فحبسه الخليفة المكتفي بالله مع ابنيه محمد وعبيد الله سعاية الوزير العباس بن الحسن . وقد مات طغج في السجن سنة ٢٩٤ / ٩٠٦—٩٠٧ وهرب محمد وعبيد الله . وكان محمد أكبر أبناء طغج ويكنى بأبي بكر ؛ أما اخوته الآخرون فهم أبو الحسين محمد وأبو المظفر الحسن وأبو نصر الحسين وأبو القاسم علي ، وسيكون لمعظمهم دور في أمور مصر أيام دولة أخيهم وأبنائه .

وتنقلت الأحوال بمحمد بن طغج حتى ظهر أمره سنة ٣٠٢/٩١٤ وكان في خدمة تكين والي مصر ؛ فقد اشترك في رد غزوة فاطمية على مصر ؛ فقربه تكين حتى أصبح منه بمنزلة الولد . وعندما نقل تكين عن مصر صحبه محمد بن طغج ؛ فلما تولى دمشق جعله نائبا

عنه في حماه وجبل السراة . فلما عاد تكين لولاية مصر ولاه الاسكندرية ، وهناك انبعثت له الفرصة لرد الفاطميين عن مصر مرة أخرى. وفي أثناء ذلك وثق محمد بن طغج علاقته بأبي بكر محمد بن علي المادرائي والحسين بن أحمد المادرائي المعروف بأبي زنبور ، وعرف منهما شيئا كثيرا عن شؤون مصر المالية انتفع به فيما بعد . ثم ولاه تكين أمر الحوفين الشرقي والغربي ، وفي أثناء ولايته على الاسكندرية ثم الحوفين بدأ يظهر شرهه الى المال ، فأقبل على مصادرة المياسير والاستيلاء على التركات . وقد أنكر ذلك منه تكين وبدأت العلاقات تسوء بينهما .

وأحس محمد بن طغج بذلك ، فسعى حتى دبر له بعض معارفه ولاية الرملة بالشام ثم هرب من تكين الى الرملة . ثم حصل على ولاية دمشق سنة ٣١٩/٩٣١ ومكن لنفسه فيها . وهنا أخذ يكون لنفسه قوة عسكرية يعتمد عليها في صراع السلطان الذي كان دائرا اذ ذاك ، ثم استقدم اخوته عبيد الله والحسن والحسين ، وأخذ يستعد لانتهاز أول فرصة تسنح . ولا شك أن عينيه كانتا متجهتين على مصر ، فأخذ يجمع المال بالمصادرات وغصب التركات ، وكلما اجتمع له مال اصطنع به جندا يقربونه من غايته .

واستطاع وهو في الشام أن يستصدر من الخليفة القاهر أمرا يضم مصر الى ولايته في الشام ، ولكن أحمد بن كيغلغ استطاع أن يعزل محمد بن طغج ويحل محله ، ودخل مصر واليا للمرة الثانية في شوال سنة ٣٢١/٩٣٣ ، أي أن محمد بن طغج تولى مصر للمرة الأولى نحو ٣٠ يوما دون أن يدخلها . ولكنه لم ييأس ، ولم يزل يسعى حتى حصل على ولايتها مرة ثانية من الخليفة الراضي ، ودخلها واليا في رمضان سنة ٣٢٣ / سبتمبر ٩٣٥ وظل يحكمها من ذلك الحين الى وفاته سنة ٣٣٤/٩٤٦ .

ولم تكن الظروف التي تولى فيها محمد ابن طغج الاخشيد مصر مواتية فقد كان ضعف رجال الدولة فيها عظيما . أما من جهة الغرب فقد اشتد طمع الفاطميين ، ولم يمض يمر عام دون أن يوجهوا الى مصر حملة . وقد عاش الاخشيد وخلفاؤه بين حجري الرحى هذين طوال مدة حكمهم مصر ، وانتهى أمرهم عندما غلبهم المعز الفاطمي على البلاد ، وفصل مصر عن الخلافة العباسية جملة .

ولم يكد محمد بن طغج الاخشيد يتولى أمور مصر حتى نهض محمد بن رائق . وكان هذا من فحول الرجال ودهاة ذلك الزمان ، لم يزل أمره يعلو حتى اضطر الخليفة الراضي الى تقليده جميع أمور الدولة « وبطل حينئذ أمر الوزارة والدواوين وبقي اسم الوزارة لا غير » كما يقول أبو المحاسن ، أي أن ولايته كانت تمهيدا لنشوء وظيفة أمير الأمراء فيما بعد . وقد فزع الاخشيد من التفات محمد بن رائق اليه وسار لحربه ، والتقى الجانبان عند

اللجئون على مقربة من طبرية فى فلسطين . وقد انتصر الاخشيد ، ولكنه أحس رغم انتصاره أنه لن يستطيع الصمود لابن رائق ، فصالحه على أن يحمل اليه كل عام ١٤٠٠٠٠ دينار على أن تكون له الرملة ، ويترك باقى الشام لابن رائق ، وكان ذلك فى المحرم ٣٢٩/ أكتوبر ٩٤٠ . ثم توفى الخليفة الراضى فى ربيع الآخر من السنة وخلفه أخوه المتقى ، وقتل ابن رائق فى العام التالى ، فسار الاخشيد ودخل دمشق وضم الشام الى ولايته ، وأقره المتقى على ذلك . وقد عرف محمد بن طغج كيف يكسب ثقة المتقى ، بل دعاه الى ترك بغداد والمجىء الى مصر ، مقلدا فى ذلك ما فعله ابن طولون مع المعتمد ، ولكن المتقى لم يقبل هذا الرأى .

وفى ذلك الحين كان أمر بنى حمدان فى حلب قد اشتد ، وبدأ الصراع بينهم وبين الاخشيد ، وهو صراع كتب النصر فيه للاخشيد ، فظلت ولايته على مصر والشام خلال بقية أيام المتقى ثم المستكفى ثم المطيع . وفى خلافة هذا الأخير توفى الاخشيد فى دمشق فى ذى الحجة ٣٣٤/ أغسطس ٩٤٥ وخلفه ابنه أبو القاسم أونوجور أو انوجور ، أى أن الاخشيد ظل واليا على مصر ١١ سنة و ٣ أشهر ويومين كان فى معظمها واليا على الشام أيضا ، وكانت سنه عندما توفى ٦٦ سنة ودفن بالقدس .

وقد استطاع محمد بن طغج الاخشيد أن يحتفظ بملكه خلال هذه السنوات بفضل القوة العسكرية التى استطاع أن ينشئها ، ثم انه كان الى ذلك كيسا مداورا يستطيع أن يراوغ ويداور وينحنى للعواصف ، وما كان أكثرها اذ ذاك ، وقد رأينا موقفه من ابن رائق . وكان الزمان عصيا لا يسلك فى متاهته الا من كانت له هدى الضلال ، فقد كانت غارات القرامطة لا تتكف عن الشام والحجاز ، وليس هنا موضع تفصيل أفاعيلهم ، وانما المهم أن نقول ان الله رحم المسلمين بموت أبى طاهر سليمان بن أبى سعيد الجنابى القرمطى فى سنة ٣٣٢/٩٦٣ بعد أن فصل بالشام والحجاز والحجاج الأفاعيل ، وسرق رجاله الحجر الأسود من الكعبة عشرين سنة ، ولم يردوه الا بعد عناء . هذا والأتراك المستبدون بدولة بنى العباس ينهزمون أمامه مرة بعد أخرى ، وكلما انهزموا لم يجدوا أمامهم الا الخلفاء المساكين يعذبونهم ويسملون أعينهم ويقتلونهم . ولم يكن أولئك الخلفاء على شىء من المهابة واحترام النفس ، وقد بلغ من أحدهم — وهو القاهر ، وكان قد خلع وسملت عيناه — أنه لما بلغه خبر قبض توزون التركى على المتقى وسمله عينيه قال : « صرنا اثنين ، ونحتاج الى ثالث » يعرض بالمستكفى الذى بويع بعده . ولم يكن الوزراء بخير من الخلفاء ، ويكفى أن نذكر أن الوزير ابن شيرزاد وزير المتقى كان قد أمّن لصا فاتكا « وخلع عليه ، وشرط عليه

أن يصله كل شهر بخمسة عشر ألف دينار ، وكان يكبس بيوت الناس بالمشمل والشمع ويأخذ الأموال » .

وكان محمد بن طغج يحاول التشبه بأحمد ابن طولون ، ولكن شتان بين الرجلين من كل ناحية . وقد ألممنا بصفة ابن طولون والمشابه بشيء من خصال محمد بن طغج ، ويبقى أن نضيف أن جشعه الى المال واستهانته بما فى أيدى الناس وقلة تمنعه جعلته موضع الزراية والانكار والتندر . بل كان يطمع فى القليل ، حتى لقد طمع فى فرو كان يلبسه أحد رجاله ، فجعل يعرض له به لعل الرجل يهديه اياه ولكنه لم يفعل ، فلما أيس منه حرض بعض غلمانه فغصبوا الرجل الفرو وهو خارج من عند الاخشيد ثم أنكروه . ثم أراد الاخشيد أن يتفرقه فلبس الفرو ، فلما دخل عليه الرجل مرة أخرى ورآه عليه ضحك الاخشيد وقال : « كيف رأيت ؟ ما أصفق وجهك ! ولكنك ابن أبيك .. وكم عرضت لك وأنت لا تستحى فلم تفعل ، حتى أخذناه بلا شكر ولا منة ! »

وربما خفف من ذلك أن الرجل كان شديد التقى ، ولكن تقاه لم يكن يظهر الا بعد قيامه بالأذى . ولم يكن حال الاخشيد من هذه الناحية يختلف عن حال غيره من رجال الدولة والسياسة فى ذلك الزمان ، فقد كانوا يظهرون الأسف والندم على ما يفعلون بعد فوات الوقت ، وكانت ضراعتهم الى الله خوفا من العذاب لا عاطفة دينية كريمة . وكان الاخشيد من هذه الناحية حريصا على الا تفوته فرصة لطلب الغفران ، حتى لقد تكاسل مرة عن حضور ختم القرآن فى جامع عمرو ، وكان حريصا على ذلك أثناء شهر رمضان ، فدعته احدى جواريه الى القعود على أن تعتق عنه عشر رقاب فقال : « أعشر رقاب ؟ ويحك ! لعله يكون فى هذه الليلة رجل صالح له عند الله منزلة فيقول فى دعائه : اللهم اغفر لجماعتنا ، فعسى أن أدخل بهم » ، ثم ركب الى الجامع العتيق فحضر الصلاة والختم . وقد حاول أن يتشبه بأحمد بن طولون فى مظاهره ، فلم يوفق . وظل الناس لا يوقرونه توقير الملوك حتى أصبح يطلب ذلك ويصر عليه ، وقد قرب نفرا من بقايا الطولونيين فأصبحوا من ندمائه ، وربما جلس للعلماء والشعراء .

وجدير بنا قبل الانتقال الى خلفاء الاخشيد أن نقف وقفة عند المادرائيين ، فهم كما قلنا يقاسمونه فضل ما أدرك من توفيق . وقد سبق أن ذكرنا أن أفراد هذه الأسرة كانوا فى مصر أيام الطولونيين . وهم فى الغالب أسرة فارسية الأصل أتى أولهم الى مصر أيام أحمد بن طولون وأصبح من حواشيه ، ثم تداعوا بعد ذلك حتى كثروا فى البلاد . وأهم رجالهم ثلاثة : أحمد بن ابراهيم أو محمد ابن أحمد بن ابراهيم المادرائى الأطروش ، والحسين بن أحمد المادرائى المعروف بأبى زنبور ، وعلى بن أحمد المادرائى ثم ابنا هذا الأخير أبو بكر محمد وأبو الطيب على .

فأما أحمد بن ابراهيم فقد ولي خراج مصر سنة ٢٦٦/٨٧٩ شركة مع ابن شعيب المدائني ، ويغلب أن الذي وضعه في هذا المنصب كان أحمد بن طولون نفسه ، ثم انفرد أحمد بن ابراهيم المادرائي بخراج مصر . وبعد قليل عهد ابن طولون الى الحسين بن أحمد المعروف بأبي زنبور في عمل من أعمال الخراج في الشام . ثم ظهر من بين أفراد البيت علي ابن أحمد المادرائي وعلا أمره أيام خمارويه حتى قال المقريزي انه « كان يلي النظر في جميع أمور مصر لأبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ووزارته » . وفي سنة ٢٧٤/٨٨٨ استقدم علي هذا ابنيه أبا بكر محمد بن علي وأبا الطيب أحمد بن علي ، واستخلف أبا بكر على الخراج ثم على الرسائل ، وهكذا أصبحت الأمور المالية والادارية كلها في مصر بأيدي أفراد هذا البيت .

وقد قتل علي بن أحمد المادرائي مع أبي العساكر جيش ، فنهض ابنه أبو بكر مكانه وتولى أمور هارون بن خمارويه . وعندما دخل محمد بن سليمان مصر انضم اليه أبو بكر محمد المادرائي ، ورافقه الى بغداد ، ثم عاد الى مصر وتولى خراجها الى سنة ٣٠٤/٩١٦ أيام تكين وأصبح صاحب السلطان المطلق في البلاد وحاز ثروة واسعة . ثم أبعد هو وعمه أبو زنبور عن مصر وطولبا في بغداد بأموال جليلة ، وظلا بعيدين عن خراج مصر ١٤ سنة ، ثم عاد أبو بكر الى خراج مصر سنة ٣٢١/٩٣٣ وأصبح صاحب السلطان الفعلي في البلاد . ويبدو أنه كان يعتمد على قوة عسكرية خاصة به تحميه من خصومه وترد عنه أيدي الطامعين في ثروته . ولم يكن الحسين بن أحمد المادرائي المعروف بأبي زنبور بأقل كفاية ولا مهارة من ابن أخيه أبي بكر ، فقد صار اليه الأمر بعد ذلك ، وعندما توفي سنة ٣١٧/٩٢٩ كانت شؤون مصر والشام المالية والادارية في أيدي أهل بيته . وكانوا جميعا ينهبون أموال الدولة ويزورون في الأوراق ، وكان رجال الدولة يعلمون ذلك ويستحلون مصادرتهم ، وكانت المصادرة جزءا من النفقة العادية عندهم ، يدخرون المال لما ينزل بهم منها ويبقى لهم بعد ذلك الثراء الطائل مخبأ في سراديب وأماكن لا يعلم بأمرها أحد .

وكان العمل الرئيسي للمادرائيين أنهم كانوا يضمنون الخراج للخلافة أو لصاحب الأمر في مصر ، فيدفعون مبلغا معينا ثم يستخرجون من الناس ما يشاءون . وقد اشتهر أمرهم بذلك ، حتى ان أصحاب الأمر كانوا يكرهونهم ويحسدونهم ولكنهم لا يستغنون عنهم ، نظرا لمعرفتهم بوجوه الايراد والانفاق ، ولم يكن هناك من يجرؤ على ضمان الخراج بالمبالغ التي كانوا يضمنونه بها .

وفي سنة ٣٢٧/٩٣٨ — ٩٣٩ أو التي بعدها استدعى الاخشيد أبا بكر المادرائي

وفوض اليه أمور المال ، وخلع على ابنه الحسين بن أبي بكر ، وأصبح أبو بكر أشبه بوزير للاخشيد . قال ابن سعيد : « وورد اليه الاخشيد التدبير بمصر والشام والرملة ، ولبس الدراعة ونزع الطيلسان ، وكان الاخشيد لا يصدر الا عن رأيه ولا يخليه من حضور مجلسه، ويقول الناس اذا انصرف : كم قبلت يده ووقفت بين يديه ! » — والدراعة هي شارة الوزراء ، فكأن أبا بكر الماذرائي قد أصبح بالفعل وزيرا وان لم يتسم بذلك . وقد غضب عليه الاخشيد سنة ٣٣١هـ/٩٤٢ - ٩٤٣ وعزله وحبسه في بيته مكرما وأجرى عليه رزقا يبعث اليه في سجنه .

وتقلبت الحال بأبي بكر ، حتى اذا توفى الاخشيد وتولى أبو القاسم أونوجور أظهر أبو بكر همة عظيمة في تأييده ، فأعاده الى ما كان عليه . ومن غريب ما حدث بعد ذلك أن قائدا يسمى غلبون خرج بالصعيد وغلب جيش أونوجور وتولى الأمر فخدمه أبو بكر وضمن له الخراج . فلما عاد الأمر الى أونوجور حبسه وصادره وضربه ، فلما صار الأمر الى كافور أخرجه من سجنه وأعاده الى ما كان عليه . أي أن هذا الرجل استطاع أن يطفو على السطح رغم كل شيء ، وقد ذهبت دول وقامت دول والماذرائيون على حالهم من السلطان والغنى والجاه . وقد توفى أبو بكر الماذرائي في الثامنة والثمانين من عمره أيام كافور سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م وكان قد ابتعد عن الأعمال في أواخر أيامه .

ولنعد الى خلفاء الاخشيد : فبعد وفاة محمد بن طغج خلفه ابنه أبو القاسم أونوجور، وكانت سنه أربع عشرة سنة عندما تولى الأمر . وانتهز كافور الاخشيدي الفرصة ووضع يده على الأمور كلها . ومن ذلك التاريخ الى دخول الفاطميين مصر سيطر كافور هذا على مصائر مصر وجزء من الشام في بعض الأحيان . وهو عبد أسود يصفه المؤرخون بقبح الشكل وكبر البطن والقدمين وثقل البدن ، وقالوا انه كان مثقوب الشفة السفلى . ويبدو أن هذه مبالغات من المؤرخين أرادوا بها أن يجعلوا كافورا مثلا لقدرة الله على اعطاء الدنيا لمن يشاء . ويرجح أنه ولد بين عامي ٢٩٢ و٣٠٨هـ/٩٠٥ و٩٢٠ بالنوبة أو الحبشة ، ويسمى في بعض الأحيان باللابي نسبة الى ناحية اللاب من بلاد النوبة . ويقال ان الاخشيد اشتراه بثمانية عشر دينارا . ومهما يكن من أمر فقد أخلص كافور للاخشيد اخلاصا عظيما فأدنى محله ورفع قدره ، وعهد اليه في تربية ابنيه أونوجور وعلى .

وكان الرجل ذكيا ملما بالكثير من شؤون الدولة ، ورأى خلفاء الاخشيد صغارا لا يرجى منهم خير ، ورجال الدولة لا يمتازون بأمانة ولا اخلاص ، فنظر الى الأمر وأخذ يمهد لنفسه بكسب الصداقات والأعوان . فلما صارت الأمور الى أونوجور أصبح هو صاحب الرأي الأعلى ، ودام له ذلك على أيام أخيه على . وقد حاول كلاهما أن يتخلص

منه دون جهود ، وظل كافور صاحب الأمر المطلق في البلاد مستعينا بأبي بكر المادرائي وغيره من رجال الدولة . ويذهب بعض المؤرخين الى أن كافورا تخلص من أبي القاسم أونوجور ثم من أخيه علي بالسم ، وذلك غير مستبعد وإن كنا لا نستطيع القطع به . وبعد أن توفي علي لم يعد هناك الا ابنه أحمد ، وكان صبيا في التاسعة من عمره ، فأزاحه كافور جملة ودعا لنفسه على المنابر وأصبح أمير مصر ولكنه اكتفى بلقب الأستاذ ، فكان يقال « الأستاذ أبو المسك كافور » . وقد صمد كافور في الحفاظ على كيان الدولة ورد عنها الفاطميين أكثر من مرة وحماها من عدوان رجال الدولة العباسية ، ولولاه لضاع أمر بني الاخشيد عقب وفاة محمد بن طغج مباشرة . أي أنه ظل يحكم مصر فعلا من سنة ٣٣٤/٩٤٥ الى سنة ٣٥٧/ ٩٦٧ ، وقد سقطت مصر في أيدي الفاطميين بعد وفاته بعام واحد .

وكان رجال الدولة يخشون بأس كافور ، أما جمهور الناس فكانوا يحبونه . وقد جمع من الصفات ما أهله لهذا وذاك ، فأما مع رجال الدولة فكان حاسما حازما بل قاسيا ، ولم يمنعه ذلك من القدرة على المراوغة والمطاولة . وأما مع الجمهور فكان يظهر التقى والتواضع وحب آل البيت . قال الذهبي : « وكان كافور يدني الشعراء ويجيزهم ، وكانت تقرأ له في كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وله ندماء ، وكان عظيم الحرمة ، وله حجاب يمتنع عن الأمراء ، وله جوار مغنيات ، وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف ، زاد ملكه على ملك مولاه الاخشيد ، وكان كريما كثير الخلع والهبات خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا جيد العقل داهية ، كان يهادي المعز صاحب المغرب ويظهر ميله اليه ، وكان يذعن بالطاعة لبني العباس ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء ، وتم له الأمر . وكان لا ينفك عن ارسال الأموال والهبات الى الحجاز . وكان يتظاهر أمام الناس بكل ما يحببه الى قلوبهم . ذكروا أن خطيبا عرض به في احدى مواعظه وذكره في معرض التدليل على هوان أمر الدنيا على الله فسمع كافور بذلك فأرسل اليه خلعة ومائة دينار ، فصار الواعظ يقول بعد ذلك : ما أنجب من ولد حام الا ثلاثة : لقمان وبلال المؤذن وكافور » .

ويكفي للتدليل على ما بلغه كافور من المكانة ما وقع له مع المتنبي ، وقصد هذا الشاعر الكبير اياه ومدحه والتقرب اليه ، حتى لقد كان المتنبي على احتقاره لكافور يخافه ويركب في موكبه . ولم يبلغ المتنبي من كافور شيئا ، فاتجه الى رجل من منافسيه هو أبو شجاع فاتك الرومي المعروف بالمجنون ، فمدحه ، وحصل منه على ألف دينار وهدايا أخرى ، ثم خاف كافورا فهرب من مصر ، وعندما صار على حدودها أطلق لسانه فيه .

وبعد أن توفى كافور اجتمع رجال الدولة وولوا أحمد بن على بن محمــد بن طغج الاخشيد فى جمادى الأولى سنة ٩٦٧/٣٥٧ وجعلوا الحسن بن عبيد الله بن طغج (ابن عم أبيه) خليفته ، وتولى أموره أبو الفضــل جعفر بن الفرات . وكان أحمد فى الحادية عشرة من عمره لا يستطيع أمرا ، وقد أساء جعفر بن الفرات التصرف وصادر بعض الناس وفى جملتهم يعقوب بن كلس وكان من سروات الناس ، ففر الى المعز لدين الله وأخذ يحرضه على دخول مصر ، وقد بلغ ابن كلس بعد ذلك مركزا عظيما أيام الفاطميين .

وكان الفاطميون لمصر بالمرصاد منذ أيام الاخشيد ، وقد أشرنا فى كلامنا عن الاخشيد الى بعض محاولاتهم لفتحها . والواقــع أن الفاطميين منذ أن قامت دولتهم فى القيروان لم يعرفوا راحة ولا اطمئنانا ، فقد ناصبهم أهل البلاد العداء وكرهوهــم وحاربوهم ، حتى ضاق ذرعهم . وكانت البلاد فقيرة لا تعينهم على ادراك ما كانوا يؤملونه من ملك عظيم ، ثم انهم عجزوا عن الســيطرة على المغـربين الأوسط والأقصى ، وبدا لهم بوضـــوح أن أمرهم الى زوال اذا هم ظلوا فى هذا الركن الذى شاءت المقادير أن تقوم دولتهم فيه . فاتجهت أنظارهم الى ضم بلاد أخـرى الى افريقية ، وبعثوا العيون والجواسيس فى كل ناحية ليعلموهم بأحوال بلاد مثل الأندلس ومصر ، غير أنهم بعد أن مات الاخشيد اتجه اهتمامهم نحــو مصر وطمعــوا فيها بسبب ما كانت عليه أحوالها من الاضطراب ، وقوى طمعهم عندما صار الأمر الى كافور ، ولكنه عرف كيف يرد أطماعهــم عن بلاده . وكان الفاطميون قد دعوا الاخشيد الى الدخول فى طاعتهم ، فجعل يراوغهم ، حتى وطد علاقته مع العباسيين واطمأن من ناحية رجالهم ، فوقف من الفاطميين موقفا حاسما . فلما مات الاخشيد عادوا يحاولون مع كافور ، فأخذ يراوغهم هو الآخر : لم يرفض طلبهم ولم يجبه ، وظــل يجتهد فى المحافظة على مركزه بين العباسيين من جهة والفاطميين من جهة أخرى .

وقد بدا للمعز الفــاطمى بوضـــوح ان فرصته لدخول مصر قادمة يوم يموت كافور ، وبدأ بالفعل يستعد للأمـــر ، فبدأ فى حفــر الآبار على الطريق من افريقية الى مصر من سنة٣٥٥/٩٦٥، وعندما وصلته الأخبار بموت كافور سنة ٩٦٧/٣٥٧ عجل باعداد الحملة . وزاده همة فى ذلك ما تسامع به من ســـوء سياسة الوزير جعفر بن الفرات . ويبدو ان دعاة الفاطميين فى مصر كانوا كثيرين ، لأننا نقرأ فى أخبار هذه الشهور الحاسمة ما يدل على أن الجــو فى مصر كان مهيأ لاســتقبال الفاتحين الجـــدد . وعنـــدما اقتربت عســاكر الفاطميين من مصر اجتمع جعفر بن الفرات بكبار رجال الدولة ، وقرروا مفاوضة القائد جوهر على شروط التســـليم ، ثم اجتمعوا بجوهر وحصلوا منه على أمان لأنفســم ولأهل

البلد . وقد أورد المقريزى نص هذا الأمان فى و اتعاظ الحنفا ، ، وهو لا يخرج عن تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم ، ولكنه حافل بما اشتهر عن الفاطميين من تمجيد لأنفسهم واستعلاء على غيرهم وامتنان على الناس بطاعتهم . وفى شعبان ٣٥٨/٩٦٨ دخل جوهر الصقلى مصر بجيوش الفاطميين بعد مناوشات يسيرة ، وبدأ فى تاريخ مصر عهد جديد .

ولم تكن للاخشيديين أثناء حكمهم فى مصر عناية حقيقية إلا بشؤون المال ، وقد وفقـوا فى ذلك بفضل الماذرائيين ، وظلوا يجبون مال مصر كل سنة نحو مليونين من الدنانير على قول و ٣٠٢٧٠٠٠٠ على قول آخر . والراجح أن الرقم الأخير أقرب الى الصحة . وقد تشدد الاخشيديون فى ذلك حتى أرهقوا الناس بالمغارم والجبايات ، حتى كان الجباة يستخرجون من الناس ضرائب على أراضى البور . وقد قرر المقدسى أن الضرائب والمكوس كانت ثقيلة ، وبخاصة فى تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل . وقد ذكرنا أن الاخشيد كان لا يتورع عن مصادرة الأموال أما كافور فقد كف يده عن ذلك ، ثم عدت المصادرات بعد وفاته ، وأسرف جعفر بن الفرات فى ذلك . ويبدو أن رجال الدولة قد أهملوا صيانة المرافق ، فقد توالت على البلاد الغلوات ، وفى السنة التى دخل الفاطميون مصر فيها كانت الحالة قد بلغت مبلغا جعل البلاد على حافة الخراب ، وقد تدارك المعز ذلك لأول دخوله .

تلك هى التجربة الاخشيدية ، أراد صاحبها من ورائها أن يعيد تجربة ابن طولون فلم يوفق ، وانقضت سنواتها الأربع والثلاثون وكأنها ظل مر على حائط دون أن يخلف أثرا . واذا كان ولابد أن نجد لها دورا فى تاريخ مصر الطويل فلنا أنها أتاحت للشعب المصرى عددا من السنوات عاشها بعيدا عن العواصف التى هزت بقية أجزاء الدولة العباسية فى ذلك الحين . فلقد شقيت الجزيرة العربية والشام والعراق بغارات القرامطة ، وتهددت الدولة البيزنطية حدود مملكة الاسلام من الشمال واجتاحتها فى مواضـع ، وبقيت مصر هادئة تجرى الحياة فيها على مألوف عهدها فى تلك العصور من التشابه والتكاسل . ولا شك أن محمد بن طغج كان حريصا على الدفاع عن مصر والابتعاد بها عن المعمعة الدائرة ، وضحى فى سبيل ذلك بمعظم الشام ، فلم يحتفظ منه الا بالرملة ، وهى مفتاح مصر من ناحية الشام .

وربما استطعنا أن نقول انه لولا الاخشيد وكافور لتقـدم استيلاء الفاطميين على مصر بضع سنوات . فقد ولدت الدولة الفاطمية فى افريقيـة بعـد زوال دولة آل طولون بأربع سنوات ، ومنذ أن تربع فى دستها عبيد الله المهدى فى سنة ٢٩٦/٩٠٨ أصبحت عيناه على مصر وأخذت حملات الفاطميين تنوش حدودها الغربية . وقد دافعها ولاة بنى العبـاس ما أمكنتهم المدافعة ، فلما جاء الاخشيد اهتم

بالمقاغ وأعد له عدته وتمكن من رد كل محاولات الفاطميين ، وأضاف الى ذلك سياسة مرنة جعلته يصانع الفاطميين حينا ويتصدى لهم حينا ؛ حتى ليبدو في بعض سنواته أميل الى الدخول في طاعة الفاطميين والخروج من دولة بني العباس ، ولكن قوى الفاطميين لم تبلغ أيامه المبلغ الذي يخيفه أو يدعوه الى طاعتهم ، ففضل البقاء على طاعة العباسيين ، فهم مهما كان أمرهم أضعف من الفاطميين ، وهم مشغولون عنه بما حزبهم من المتاعب ، فكانوا يقنعون منه بما يرسل ، ولم يكن الفاطميون ليرضوا منه بأضعاف ذلك .

ثم جاء كافور فمضى على سياسة مولاه ، وأخذ يراوغ الفاطميين ويدافعهم ، حتى اذا انتهت أيامه كان على عرش الفاطميين تميم أبو معد أعظم رجال دولتهم ، وفي خدمته قائد مظفر ماهر هو جوهر ، جاس خلال المغرب كله يغزو ويحارب ، حتى تجمعت له تجربة عسكرية جعلته من أكبر قواد زمانه ، وقد يئس المعز وقائده من مصير دولتهم في المغرب وتعلقت آمالهما بدخول مصر ، ووجها نحوها كل قواهما ، فصارت اليهما دون كبير جهد .

ولابد أن نضيف الى الاخشيد جانبا من الفضل في مدافعة البيزنطيين عن بلاد الاسلام، فقد كانت الدولة البيزنطية قد نهضت اذ ذاك نهضة كبيرة على يد نقفور فوقاس ثم يوحنا الشمشقي من بعده . وأغارا على بلاد الاسلام وخربا شمال الشام فسقطت أنطاكية ودفعت حلب الجزية وتهدد الخطر دمشق ، وتصدى لمدافعتهم الحمدانيون أصحاب الموصل وحلب والاخشيديون ومتطوعة المسلمين الذين تكاثروا في الثغور الاسلامية تدفعهم الحمية الدينية ، وخاصة ثغر طرسوس ، وعلى الرغم من أن دولتي الاخشيديين والحمدانيين لم تستطيعا رد عادية البيزنطيين عن بلاد الاسلام بصورة حاسمة ، الا أنهما تمكنتا من انقاذ ما أمكن انقاذه ، وأرسل الاخشيديون قواتهم لحماية الثغور وأخرجوا الأموال لافتداء أسرى المسلمين ، وقد هابهم البيزنطيون وكاتبوهم رأسا متخطين رجال الدولة العباسية . وكانت سياسة الاخشيد وكافور مع البيزنطيين سياسة ملاينة وموادعة في الغالب ، ولم يكونا ليستطيعا أكثر من ذلك على أي حال .





اولهما أننا لا نعرف على وجه التحديد متى بدأت الدعوة الاسماعيلية أو من بدأ بها ، فقد بدأت سرية ، وما كتبه المؤرخون السنيون عن أصولها ومبدئها فيه تناقض كبير واضطراب ، ويعتمد في أكثره على الشائعات المغرضة .

وثانيهما أن الاسماعيلية أنفسهم لجأوا في أول الأمر الى التقية فقد كان العهد عهد ستر ، وخضع الشيعة لعوامل الاضطهاد المختلفة من سجن وقتل وتشريد ، ولهذا لم يؤرخ الاسماعيلية لحركتهم بأنفسهم ، لأن الستر أصل من أصول مذهبهم ، ومن ضعف العقيدة عندهم كشف المستور ، وكانت النتيجة أن كل ما نعرفه عن عهد الستر -- وهو العهد الذي يبدأ بوفاة جعفر الصادق وينتهي بقيام الدولة الفاطمية -- يسوده التناقض والاضطراب ، ولا يمكن الركون اليه أو الوثوق به .

الحزب الشيعي ـ نشأته وتطوره

المشهور المتواتر أن محمدا عليه السلام توفى ولم يوص لأحد بالخلافة من بعده ، وترك الأمر شورى بين المسلمين ، وعن طريق هذه الشورى اختير الخلفاء الأربعة الراشدون ، وان اختلفت أساليب الشورى عند اختيار كل واحد منهم .

وكان علي بن أبي طالب يطمع في أن يلي هذا المنصب منذ اللحظة الأولى التي تلت موت الرسول عليه السلام ، ولكن المنصب فاته في الحالات الثلاث الأولى ، ولما أدركه في الحالة الرابعة أدركه في ظروف عسيرة عصيبة ، فقد تولى عليّ الخلافة في أعقاب الفتنة الكبرى التي انتهت بمقتل عثمان بن عفان .

وحدث الانقسام الأول الذي فتت الوحدة الاسلامية وجر الويلات الكبار على المسلمين والعالم الاسلامي منذ تلك اللحظة الى اليوم ، وتولى معاوية زعامة المعارضة ، وكانت حجته الكبرى أنه انما قام للمطالبة بثأر عثمان ، والانتقام من قتلته ومن حماة هؤلاء القتلة ، غير أنا نرى أن هذه حجة عاطفية اتخذها معاوية شعارا ليثير شعور المسلمين على عليّ ، أما الصراع الحقيقي فهو صراع سياسي تمتد جذوره الى الماضي البعيد ، الى عصر ما قبل الاسلام ، عندما كان التنافس على أشده بين بني أمية وبني هاشم في سبيل السيادة فلما ظهر محمد برسالته كان بنو أمية من أشد الناس عداوة له وكان أبو سفيان — زعيم بني أمية — حامل لواء المعارضة والمقاومة .

ونصر الله هذه محمدا ، وانتقلت السيادة الى بني هاشم ، فمنهم اختار الله نبيه ، وقد استجاب العرب جميعا لرسالته وخضعوا لنفوذه بعد أن كون دولته الجديدة التي

وحدت المؤمنين والمسلمين من العرب جميعا ليكونوا أمة واحدة من دون الناس .

ألم يئن لبني أمية أن ينال بنو هاشم هذا الشرف كله ولكنهم خضعوا على مضض ، وخاصة بعد دخولهم في الاسلام ، غير أن بذور هذا النزاع لم تمت بل ظلت كامنة في النفوس الى أن ولي عثمان — وهو من كبار بني أمية — الخلافة فاستيقظت عوامل الخلاف من جديد ، والتف رجال هذه الأسرة حوله يلونون سياسته باللون الذي يريدون ، فلما ثارت الفتنة وقتل عثمان ، وولي على الخلافة خشوا أن تستقر السيادة ثانية في بيت بني هاشم ، فحمل لواء المعارضة معاوية — كبير بني أمية في ذلك الوقت — وقاد معركة النضال في عنف واصرار شديدين مستعملا كل ما أوتي من مكر ودهاء .

فلم يكن الصراع بين علي ومعاوية اذن صراعا للاخذ بثأر عثمان أو للانتقام من قتلته ، وانما كان حلقة جديدة في سلسلة النزاع القديم في سبيل السيادة بين بيتين كبيرين من قريش هما بنو أمية وبنو هاشم ، ولقد كان تقي الدين أحمد بن علي المقريزي — زعيم مؤرخي مصر الاسلامية — أول من فطن الى هذه الحقيقة ، وأول من عالجها معالجة طيبة في كتابه الصغير القيم : « النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم » .

ابان هذا الصراع ظهر الحزب الشيعي وهو الحزب الذي يضم من ينتصرون لعلي أو يتشيعون له ، وقد انضم الى هذا الحزب كل الشانئين والمتذمرين من العرب وغيرهم ، ومن الموالي بوجه خاص ، وصنع رجال هذا الحزب لأنفسهم مبدأ خاصا ، وفلسفوا هذا المبدأ فلسفة تأثروا فيها الى حد بعيد بنظريات الحكم عند الفرس التي كانت تؤمن بحق الملك المقدس وحجر الزاوية في هذا المبدأ معتقدهم في الامامة ، وبنوا هذه العقيدة على حديث نبوي ، فقالوا ان الرسول عليه السلام مر عند أوبته من حجة الوداع بغدير خُمّ — وهو مكان بين مكة والمدينة — وعند هذا الغدير آخى بينه وبين ابن عمه علي وقال : « عليٌّ مولاي ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

وقالوا استنتاجا من هذا ان هذا الحديث يتضمن مبايعة ضمنية من محمد لعلي ، وان عليا وصيُّ الرسول ، أوصى له بالامامة من بعده لشروط خاصة ينفرد بها ، ولعلوم لدنية تلقاها عنه ، وان الامامة يجب أن تنتقل من علي الى أولاده الواحد بعد الآخر لأن هذه الشروط والعلوم تنتقل في نسل علي بطريق الوراثة من الاب الى الابن .

ولهذا وقف أتباع هذا الحزب فيما بعد الى جانب أولاد علي يحرضونهم على المناداة بحقهم في الخلافة ، فرشحوا أولا الحسن بن علي ليلي أمر المسلمين بعد مقتل أبيه ، ولكن الحسن كان رجلا بعيد النظر ، فرأى أن أهل الشام ومصر والحجاز واليمن قلوبهم مع





وبعد ثلاث سنوات من وصوله الى بلاد المغرب أي في سنة ٢٩١ هـ (٩٠٣) بدأ جهوده الحربية فخضعت له مدن كثيرة ، وساعده على هذا النجاح ما كان قد أصاب الدولة الأغلبية صاحبة الحكم في تونس حينذاك من ضعف وانحلال .

وعند ذلك أرسل أبو عبد الله الى عبيد الله المهدي — الامام الاسماعيلي صاحب الدعوة — وكان يقيم في مدينة سلمية بالشام ، يستدعيه للحضور الى بلاد المغرب ، فأسرع بتلبية الدعوة ، وخرج من الشام ومعه أموال وفيرة ، ويقال ان الخليفة العباسي علم بخروجه فأرسل الى عماله في مصر وافريقية يوصيهم بالقبض عليه ، ولكن عبيد الله استطاع بالتستر تارة ، وببذل المال تارة أخرى أن يفر من مراقبة الولاة ، وانتهت به الرحلة الى مدينة سجلماسة في المغرب الأقصى حيث قبض عليه واليها وسجنه بها .

وفي سنة ٢٩٦ هـ تم لأبي عبد الله النصر النهائي على الدويلات القائمة في شمال افريقيا : دولة بني مدرار في سجلماسة ، ودولة بني رستم في تاهرت ، ودولة الأغالبة في افريقية (تونس) ، وأطلق سراح عبيد الله ، فقاد الجيش بنفسه ، وسار حتى دخل مدينة رقاده في سنة ٢٩٧ هـ ، ونزل بقصر من قصورها ، وفي يوم الجمعة خطب باسمه على منابر رقادة والقيروان — بعد أن قضى نهائيا على ملك الأغالبة — ولقب بأمير المؤمنين عبيد الله المهدي .

وهكذا نجح الشيعة الاسماعيلية في الوصول الى عرش الخلافة بعد جهاد طويل مرير ، كان بعضه في العلن الى عهد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وبعضه في السر ويمتد من محمد بن اسماعيل الى نجاح الدولة وظهور عبيد الله ، ويعرف هذا العهد الثاني بعهد الكتمان ، فقد كتمت فيه أسماء الأئمة تقية وخوفا ، وكان يقوم بالدعوة العلنية ويشرف على توجيهها الأئمة المستودعون من نسل عبد الله بن ميمون القداح ، ومن هنا ثار الجدال حول صحة النسب الفاطمي فقد أصبح كتمان أسماء الأئمة المستقرين من محمد بن اسماعيل الى عبيد الله المهدي جزءا من المذهب ، ولم يكن الخلفاء الفاطميون يسيغون اعلان هذه الأسماء حتى بعد نجاح الدعوة وتوليهم الخلافة ، ومن هذه الثغرة دخل أعداء الدولة الفاطمية من العباسيين في الشرق والأمويين في الأندلس للطعن في نسب الأئمة الفاطميين يريدون بذلك أن يقوضوا الدعائم التي قامت عليها الدولة .

والى هذا الشك — الذي ثار حول نسب عبيد الله المهدي منذ اللحظة الأولى — يرجع بعض المؤرخين السبب في النزاع الذي قام بين عبيد الله وقائده أبي عبد الله ، والذي انتهى بقتل هذا الأخير بعد قيام الدولة بنحو عام .

الخلفاء الفاطميون

١ — فى المغرب

١ — ٤ ربيع الآخر ٢٩٧ (٩٠٩)	المهدى أبو محمد عبيد الله	ت ١٤ ربيع الأول	٣٢٢
٢ — ١٤ ربيع الأول ٣٢٢ (٩٣٤)	القائم بأمر الله أبو القاسم نزار	ت ١٣ شوال	٣٣٤
٣ — ١٣ شوال ٣٣٤ (٩٤٥)	المنصور بنصر الله أبو الطاهر اسماعيل	ت ٢٩ شوال	٣٤١
٤ — أول ذى القعدة ٣٤١ (٩٥٢)	المعز لدين الله أبو تميم معد	ت ٣ ربيع الآخر	٣٦٥

٢ — فى مصر

(وفى شعبان ٣٥٨ فتحت مصر ، وفى رمضان ٣٦٢ دخل المعز القاهرة)

٥ — ٥ ربيع الآخر ٣٦٥ (٩٧٥)	العزيز بالله أبو منصور نزار	ت ٢٨ رمضان	٣٨٦
٦ — ٢٩ رمضان ٣٨٦ (٩٩٦)	الحاكم بأمر الله أبو على منصور	اختفى فى ٢٧ شوال	٤١١
٧ — ١٠ ذو الحجة ٤١١ (١٠٢٠)	الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على	ت ١٥ شعبان	٤٢٧
٨ — ١٥ شعبان ٤٢٧ (١٠٣٥)	المستنصر بالله أبو تميم معد	ت ١٨ ذو الحجة	٤٨٧
٩ — ذو الحجة ٤٨٧ (١٠٩٤)	المستعلى بالله أبو القاسم أحمد	ت ١٤ صفر	٤٩٥
١٠ — ١٤ صفر ٤٩٥ (١١٠١)	الآمر بأحكام الله أبو على منصور	قتل ٢ ذو القعدة	٥٢٤
١١ — ١٥ المحرم ٥٢٥ (١١٣٠)	الحافظ لدين الله أبو ميمون عبد المجيد	ت ٥ جمادى الآخرة	٥٤٤
١٢ — ٦ جمادى الآخرة ٥٤٤ (١١٤٩)	الظافر بأمر الله أبو منصور اسماعيل	قتل ٣٠ المحرم	٥٤٩
١٣ — أول صفر ٥٤٩ (١١٥٤)	الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى	ت ١٧ رجب	٥٥٥
١٤ — رجب ٥٥٥ (١١٦٠)	العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله	خلع ٣ المحرم ، ومات ١٠ المحرم	٥٦٧

الأيوبيون





كان الغرض الأساسي الذي سعى العلويون دائما لتحقيقه هو تكوين خلافة جديدة تقضي على الخلافة العباسية السنية وترثها في ملك العالم الاسلامي ، وقد رأينا كيف نجح الفاطميون في تحقيق الشطر الأول من غرضهم فأقاموا دولتهم في المغرب ، ولكنهم لم ينسوا بعد نجاحهم الشطر الثاني والأهم وهو القضاء على الدولة العباسية ، ومصر هي أول جزء من أملاك العباسيين يجاور الدولة الفاطمية من ناحية الشرق .

لهذا كانت مصر حلم الفاطميين منذ المحنة الأولى ، ولهذا لم تكد الأمور تستقر نوعا ما للمهدي — الخليفة الأول — حتى أعد العدة للاتجاه شرقا وغزو مصر ، فأرسل في سنة ٣٠١ جيشا لتحقيق هذا الغرض ثم أرسل في سنة ٣٠٧ حملة أخرى ، ولكنهما منيا بالفشل ، وقد حذا حذوه ابنه القائم فأرسل في سنة ٣٣٦ حملة ثالثة — ولكنها لم تكن أسعد حظا من سابقتيها ، ولم يكتب النجاح الا للغزوة الرابعة التي تمت في عهد المعز لدين الله .

وقد ساعد على نجاح هذه الغزوة الرابعة أمور كثيرة ؛ أهمها ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر ، وضعف الدولة الأخشيدية صاحبة السلطان الفعلي فيها .

أما الخلافة العباسية فقد بدأت عوامل الضعف تتسلل الى كيانها في العصر العباسي الثاني ، فاستبد الأتراك بشئون الحكم الفعلية حتى غدا الخلفاء كالدمى في أيديهم يحركونهم كيف شاءوا ، وانطبق عليهم عندئذ قول الشاعر :

خليفة في قفص
بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له
كما تقول الببغا

وأدى هذا الضعف الى اجتراء كل طموح أو محب للشغب أو راغب في السلطة الى الثورة ، فقامت ثورة الزنج في اقليم البصرة والجزء الجنوبي الغربي من فارس ، وظلت مشتعلة خمسة عشرة سنة (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، ثم تلتها ثورة القرامطة الذين تقدموا حتى ملكوا بادية الشام وجنوبه وهددوا حدود مصر الشرقية ، وعاثوا في الجزيرة العربية فسادا ، واستلبوا الحجر الأسود حيث بقي معهم مدة اثنين وعشرين عاما ، ولم يردوه الا بعد أن دفع لهم الخليفة العباسي مبلغا كبيرا من المال ؛ وصاحب هذه الثورات انفصال الأطراف وقيام دول مستقلة فيها .

ففي الشرق قامت الدول الصفارية والسامانية والطاهرية ، وفي الغرب قامت الدولتان الطولونية والأخشيدية .

وفي قلب الدولة نفسها ، في العراق قامت دول ملكت زمام الحكم في أيديها ،

ففي الشمال قامت الدولة الحمدانية في نواحي الموصل وحلب ، وطالما حاولوا دخول بغداد نفسها ، وفي العاصمة بغداد قامت الدولة البويهية في سنة ٣٣٤ هـ ، واستبدت بأمور الخلافة جميعا ، وأصبحت للبويهيين الكلمة الأولى والعليا في تولية الخلفاء وعزلهم بل وقتلهم ، وصدق بذلك قول البيروني فيهم : « ان الدولة والملك قد انتقلا من آل العباس الى آل بويه والذى بقى فى أيدى الدولة العباسية انما هو أمر ديني اعتقادي ، لا ملكي دنيوي » (١).

وفي مصر انتهت الأمور بعد موت محمد ابن طغج الأخشيد في سنة ٣٣٤ الى الضعف اذ لم يخلفه أحد من نسله له مقدرته وشجاعته ، حقيقة لقد استبد كافور بالحكم دون ولدي الأخشيد ، فاستطاع أن يخمد الثورات التي نشبت وأن ينتصر على الحمدانيين ، ولكن هذه الولاية كانت أشبه شيء بصحوة الموت ، فقد ساءت أحوال البلاد الاقتصادية ففي سنة ٣٥٢ هـ قصّر النيل في فيضانه ، وحدث بمصر غلاء شديد نتجت عنه مجاعة ظلت نحو تسع سنوات ، قاسى المصريون في خلالها الشدائد ، فحدث في سنة ٣٥٣ هـ مثلا أن « عظم الغلاء ، وانتقضت الأعمال لكثرة الفتن ، ونهبت الضياع والغلات ، وماج الناس في مصر بسبب السعر : فدخلوا الجامع العتيق بالفسطاط في يوم جمعة ، وازدحموا عند المحراب ، فمات رجل وامرأة في الزحام ، ولم تُصلَّ الجمعة يومئذ ... » .

« وفي سنة ست وخمسين لم يبلغ النيل سوى اثني عشر ذراعا وأصابع ، ولم يقع مثل ذلك في الملة الاسلامية ، وكان على امارة مصر حينئذ الأستاذ كافور الأخشيدي ، فعظم الأمر من شدة الغلاء » .

وفي سنة ٣٥٧ هـ مات كافور ، فانهارت المقاومة « وكثر الاضطراب ، وتعددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء قتل فيها خلق كثير ، وانتهبت أسواق البلد ، وأحرقت مواضع عديدة فاشتد خوف الناس ، وضاعت أموالهم ، وتغيرت نياتهم ، وارتفع السعر ، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار ، واختلف العسكر : فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج — وهو يومئذ بالرملة — وكاتبَ الكثيرُ منهم المعز لدين الله الفاطمي ، وعظم الارجاف بمسير القرامطة الى مصر ، وتواترت الأخبار بمجيء عساكر المعز من المغرب ، الى أن دخلت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة : ودخل القائد جوهر بعساكر الامام المعز لدين الله ... » (١).

هذه صورة رائعة للحالة في مصر قبيل الغزو الفاطمي ، رسمها بقلمه المبدع تقي الدين المقريزي رئيس مؤرخي مصر الاسلامية ، ويستطيع أي فنان أن يحيلها بريشته وألوانه الى لوحة ناطقة نرى فيها

(١) البيروني : الآثار الباقية ، ص ١٣٢.

(١) المقريزي : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشر زيادة والشيال ، ص ١٢ - ١٣ .





بالبستان الكافوري ، ودير للنصارى يعرف بدير العظام وبناء يعرف بقصير الشوك ، وقد بنى مكانه بعد تأسيس القاهرة أحد قصور الفاطميين الكبيرة وسمي بقصر الشوك .

وقيل في سبب تسمية المدينة بالقاهرة أن جوهرا لما أراد تأسيس العاصمة الجديدة أحضر المنجمين ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس ، فجعلوا بدائرة السور قوائم من خشب ، ووصلوا بين كل قائمتين بحبل علقوا فيه أجراسا، وقالوا للعمال : اذا تحركت الأجراس فألقوا ما بأيديكم من طين وحجارة، وبينا العمال منتظرون اذ وقف غراب على أحد تلك الحبال ، فتحركت الأجراس جميعا وبدأ العمال في البناء ، فصاح المنجمون : لا ، لا ، القاهرة في الطالع ، فسميت المدينة بالقاهرة — والقاهر هو المريخ .

ولكننا لا نميل الى تصديق هذا الرأي ، فهو أقرب الى القصص الخيالية ، ويؤيدنا في شكنا المقريزي نفسه راوي هذه القصة ، فانه يقول في موضع آخر ان جوهرا « لما سار من الجيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ٣٥٨ بعساكره ، وقصد الى مناخه الذي رسمه له مولاه الامام المعز لدين الله أبو تميم معد ، واستقرت به الدار اختط القصر وأصبح المصريون يهنئونه فوجدوه قد حفر الأساس في الليل ، فأدار السور اللبن ، وسماها المنصورية ، الى أن قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب الى مصر ، ونزل بها فسماها القاهرة » [1] .

وهذا فيما نرى السبب الصحيح لتسمية القاهرة ، فان جوهرا عندما وضع الأساس للمدينة الجديدة سماها « المنصورية » ، ولعله كان يريد أن يتقرب الى خليفته المعز باحياء ذكرى والده الخليفة المنصور ، فسمى العاصمة الجديدة باسمه ، واختار لها موقعا خارج العاصمة القديمة الفسطاط لينزل بها الجند ، كما كانت المنصورية خارج القيروان ، وسمى بابين من أبواب المدينة الجديدة باسمي: زويلة والفتوح ، وهما اسمان لبابين بمدينة المنصورية في المغرب . فلما أتى المعز الى مصر سماها « القاهرة » تفاؤلا ، يريد بذلك أنها ستقهر الدولة القديمة التي قام الفاطميون لمنافستها والقضاء عليها ، وهي الخلافة العباسية ، فالمعز نفسه هو صاحب هذه التسمية ، وقد اختارها ، وهو بعد في المغرب ، فقد روي أنه قال عند وداعه لجوهر أمام جمع من شيوخ كتامة : « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ، ولتدخلن الى مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزلن في خرابات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى القاهرة ، تقهر الدنيا » [2] .

ومما ينفي قصة الغراب والحبال نفيا

---

(١) المقريزي . الخطط ، ج٢ ، ص ٤-٢٠٤ .

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، نشر الشيال ، ص ١٦٢ .

بانا أن المسعودي [1] يروى قصة شـديدة الشبه جـدا بهذه القصة وينسبها الى الاسكندر عند بنائه الاسكندرية ، فلعـل المقريزي نقلها عن مراجع متأخرة شتبه عليها الأمر عند الكلام عن قاهرة المعز ، فاقتبست ما قيل عن اسكندرية الاسكندر .

وأول ما بنى في القاهرة القصر الكبير ليكون سكنا للخليفـة وأتباعه ، ومقـرا لدواوين الحكم ، وضع جوهر أساس هذا القصر ليلة نزل بالمناخ .

وفي يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ (٥ مايو سنة ٩٧٠ م) اختطت القاهرة فنزلت كل قبيلة أو فرقة من فرق الجيش في مكان خاص بهـا ، وسميت خططها بالحارات ، ومنها حارة زويلة ، ونزلت بها قبيلة زويلة ، وحارة كتامة ، ونزلت بهـا قبيلة كتامة ، وحارة البرقية ، ونزل بها قوم من برقة .. وهكذا .

ويقال في سبب اختيار جوهر لهذا المكان كي يبنى مدينته عليه انه رغب « أن تصـير حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها ، فأدار السور اللبن على مناخه الذى نزل فيه بعساكره ، وأنشأ من داخل السور جامعا وقصرا ، وأعدها معقلا يتحصن به وتنزله عساكره ، واحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عسـاكر القرامطـة الى القـاهرة وما وراءها من المدينة » [1] .

[1] المسـعودي : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

وكانت القاهرة عند انشائها صـغيرة المساحة ، ويقدر على مبارك في كتابه الخطط أن كل جانب من جوانبها كان يبلغ وقتذاك ألفا ومائتي متر ، وأن مساحتها كانت ٣٤٠ فدانا (الفـدان ٤٢٠٠ متر) ، وكان القصر يشغل خمس هذه المساحة ، أى نحو سبعين فدانا ، وكان بستان كافور يشـغل عشر المساحة أى ٣٠ فدانا ، وكان الميـدان المعد لعرض الجند يشغل ٣٥ فدانا أخــرى ، أما الباقي وقدره مائتا فدان فقد خصص لنزول فرق الجند المختلفة .

وكان السور الأول الذى بناه جوهر من اللبن ، وقد أدرك المقريزى قطعة منه كانت باقية حتى سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٦ م) ، وأعجب ببنائه ، وذكر أن اللبنة الواحدة منه كانت قدر ذراع في ثلثي ذراع ، كما ذكر أن عرض جدار السور عدة أذرع ، وأنه يسع أن يمر به فارسان .

وكان للسور عـدة أبواب في جهـاته المختلفة ، فكان في جهتـه القبلية بابان متلاصقان يقال لهمـا « بابا زويلة » ، وفي جهته البحرية بابان متباعدان ، هما : باب الفتوح ، وباب النصر ، وفي جهته الشرقية بابان ، هما : باب البرقية ، والباب الجديد

[1] المقـريزى : الخـطط ، ج ٢ ، ص ١٧٦ ــ ١٨٠ .

وفي جهته الغربية بابان ، هما : باب القنطرة وباب سعادة . ثم أضيفت أبواب أخرى بعد نمو المدينة وتجديد السور .

ولم يكن هذا السور هو الوحيد الذي بني حول القاهرة ، وانما بني بعده سوران آخران : أحدهما بناه أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر في سنة ٤٨٠هـ (١٠٨٧ م) ليحيط بزيادات أضيفت الى القاهرة في الجهتين البحرية والقبلية ، وكان هذا السور من اللبن وأبوابه من الحجارة ، ولا زال بابان من أبواب هذا السور ، وهما باب النصر وباب الفتوح موجودين حتى اليوم وعليهما نقوش تحمل اسم منشئهما (بدر الجمالي) وتاريخ انشائهما .

وبنى السور الثاني صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، بدأ عمارته سنة ٥٦٦ هـ وهو وزير للخليفة الفاطمي العاضد ، وفي سنة ٥٦٩ هـ عهد قائده بهاء الدين قراقوش للاشراف على اتمامه ، وقد بنى هذا السور كله من الحجر ، وكان يضم داخله مدينتي القاهرة ومصر — أي الفسطاط — ولا تزال أجزاء منه باقية حتى اليوم جنوب أطلال الفسطاط ، وكان محيط هذا السور ٢٩٣٠٢ ذراع ، وكان يبدأ في الشمال عند قلعة المقس (ميدان باب الحديد الحالي حيث كان يجري النيل وقتذاك) ميناء القاهرة على النيل ، ويدور حول القاهرة والفسطاط جميعا ثم ينتهي جنوبا عند ساحل مصر (الفسطاط) ؛

وكان خارج السور خندق لحمايته وحماية المدينة ، وبذلك كان حدا المدينة الشمالي والجنوبي ينتهيان عند السور ، أما الحد الغربي فكان خليج أمير المؤمنين ، كما كان جبل المقطم هو الحد الشرقي .

وكانت القاهرة في العصر الفاطمي ضاحية ملوكية ، يسكنها الخليفة وحرمه وجنده وخواصه ، وكانت — كما وصفها المقريزي « معقل قتال يتحصن بها ويلتجأ اليها » ، فلما قدم الى مصر أمير الجيوش بدر الجمالي أثناء الشدة العظمى التي كانت في عهد المستنصر وجد أن القاهرة مدينة خالية غير عامرة « فأباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن ، وكل من وصلت قدرته الى عمارة بأن يعمر ما شاء في القاهرة مما خلا من فسطاط مصر ومات أهله ، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها ، وعمروا به المنازل في القاهرة وسكنوها »[1] .

ولما انتهت الدولة الفاطمية وولى حكم مصر السلطان صلاح الدين « نقلها عما كانت عليه من الصيانة ، وجعلها مبتذلة لسكن العامة والجمهور ، وحط من مقدار قصور الخلافة ، وأسكن في بعضها ، وتهدم البعض ، وأزيلت معالمه ، وتغيرت معاهده ، فصارت خططا وحارات وشوارع ومسالك وأزقة ، ونزل السلطان (صلاح الدين) منها في دار الوزارة الكبرى .. الخ » .

(١) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

ثم تخطيط القاهرة بعد الفتح الفاطمي بعام ، وفي يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ (٥ مايو سنة ٩٧٠ م) بدأ جوهر عمارة الجامع الأزهر في الجنوب الشرقي من القصر الكبير ، وتم بناؤه بعد عامين ، فتح للصلاة أول مرة في شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) .

وظل جوهر يحكم مصر ، ويمهد الفتوح في الأقاليم المجاورة نحو أربع سنوات ، ولما تم له اخضاع مصر والشام والحجاز ، وبعد أن أكمل تأسيس القاهرة وبناء القصر والمسجد الجامع أرسل للمعز يستدعيه الى مصر ، فخرج المعز من المنصورية يوم الاثنين لثمان من شوال سنة ٣٦١ هـ ، وفي يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢هـ وصل القاهرة ، ولما دخل القصر خر ساجدا لله تعالى ثم صلى ركعتين .

الجامع الأزهر

كانت القاهرة — كما أسلفنا — رابعة العواصم المصرية في العصر الاسلامي ،وكانت سياسة الدول الاسلامية تقضي بأن تنشأ في كل عاصمة جديدة مسجد جامع ، وترجع هذه السياسة الى عهد عمر بن الخطاب ، فقد كتب الى ولاته على الأقاليم المفتوحة — ومنهم عمرو بن العاص — أن يتخذ كل منهم في عاصمته مسجدا للجماعة ، واتباعا لهذه السياسة بنى عمرو مسجده في الفسطاط ، فلما أنشئت العسكر في أول العصر العباسي بني فيها مسجد جامع ، وعندما أسس احمد بن طولون مدينة القطائع بنى فيها مسجده الجامع كذلك .

فهذه المساجد الجامعة كانت رمزا لظفر المسلمين ، وكانت مركزا للدعوة الدينية ، وفيها كانت تقام صلاة الجماعة ، وكان يؤم الناس في الصلاة — في العصر الأول — ولاة مصر ، فقد كان الغرض الأساسي من الفتوح الاسلامية نشر الدين الجديد ، ولذلك كانت ولاية الصلاة ذات أهمية كبرى ، فكان الوالي على مصر يجمع بين الولاية على صلاتها وخراجها ، أو يكتفي بولايته على صلاتها ، ويعين الى جانبه وال آخر على خراجها .

وكانت المساجد أيضا مقرا لدواوين الحكم ، ومجلسا للقضاة ،ومعهدا لنشر العلم، ومنبرا لاذاعة الأوامر الحكومية .

بنى الجامع الأزهر اذن وفي مصر مسجدان جامعان : جامع عمرو وجامع أحمد ابن طولون ، لأن جامع العسكر كان قد هدم وزالت معالمه ، وقصد الفاطميون ببناء هذا الجامع أن يكون مصلى للخليفة وجنوده ، وأن يكون مسجدا جامعا للعاصمة الجديدة ، وأن يكون مركزا لنشر الدعوة الشيعية ، وأن يكون رمزا لانتصار الدولة الجديدة على الدولة العباسية .

بدىء في انشاء الجامع الأزهر في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (أبريل ٩٧٠ م) وتم بناؤه في عامين وثلاثة أشهر ، وافتتح للصلاة أول مرة في يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) .

وسمي الجامع عند انشائه جامع القاهرة — أي باسم العاصمة الجديدة — ، وظلت هذه التسمية غالبة عليه طول العصر الفاطمي ، ولم يتسم بالجامع الأزهر الا في تاريخ متأخر ، ودليلنا على ذلك أن معظم مؤرخي العصر الفاطمي — وفي مقدمتهم المسبحي وابن الطوير — يذكرون هذا المسجد دائما باسم جامع القاهرة ، وقلما يشيرون اليه باسم الجامع الأزهر .

ويرى البعض أن هذا المسجد سمي بالجامع الأزهر بعد انشاء القصور الفاطمية في عهد العزيز بالله ، فقد كانت هذه القصور تسمى بالقصور الزاهرة ، ومن ثم أطلق على الجامع اسم الجامع الأزهر ، ولكنا نرجح أن هذه التسمية مشتقة من لفظ الزهراء ، لقب السيدة فاطمة الزهراء ، ابنة الرسول وزوج علي بن أبي طالب ، واليها تنتسب الدولة الجديدة ، وباسمها تسمى .

ولبث الجامع الأزهر موضع عناية الخلفاء الفاطميين جميعا ورعايتهم فكان كل خليفة منهم يتولى الحكم يعمل على تجديده والزيادة فيه وتزيينه حتى زالت الدولة ، وبدأت في مصر دولة صلاح الدين ، وهي دولة سنية قامت للقضاء على المذهب الشيعي ، فأهمل الجامع الأزهر ، لأنه كان المركز الرئيسي لنشر الدعوة الشيعية ، وأبطل الخطبة في الجامع الأزهر قاضي القضاة في عهد صلاح الدين ، واسمه صدر الدين عبد الملك ابن درباس ، فقد كان شافعي المذهب ، والمذهب الشافعي يمنع اقامة خطبتين للجمعة في بلد واحد .

أبطل هذا القاضي الخطبة من الجامع الأزهر ، وأقرها بالجامع الحاكمي ، وظل الأزهر معطلا من اقامة الجمعة فيه نحو مائة عام حتى ولي عرش مصر الظاهر بيبرس ، فأعيدت الخطبة الى الجامع ، وعادت اليه أهميته ، وعني به كثيرا في عصر المماليك والعصور اللاحقة الى وقتنا الحاضر .

كان للأزهر عند انشائه الصفة الدينية الرسمية — شأنه في ذلك شأن المساجد الجامعة الأخرى — ولكن لم يلبث أن اتخذ صفة أخرى هامة هي الصفة العلمية التعليمية ، وذلك منذ فكر الفاطميون في نشر مذهبهم الجديد بوساطة دروس تلقى في حلقاته ، وقد كانت المساجد الجامعة التي بنيت قبله — وخاصة جامع عمرو — مراكز لنشر العلم ، وفي حلقاتها كانت تلقى الدروس في الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب وسائر العلوم المختلفة ، غير أن مسجدي عمرو وابن طولون كانا قد اتخذا لهما في العصر الاسلامي الأول تقاليد علمية خاصة ،

فكان من الأوفق اذن أن يكون المسجد الجامع الجديد هو المركز الجديد لنشر المذهب الجديد .

يقول المقريزي : « وفى صفر سنة خمس وستين وثلاثمائة جلس على بن النعمان القاضي بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر ، وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت .. وكان جمعا عظيما ، وأثبت أسماء الحاضرين » ، فكانت هذه أول حلقة عقدت للتدريس فى الجامع الأزهر ، ثم تتابعت حلقات بنى النعمان بعد ذلك لتدريس المذهب الشيعي .

وفى رمضان سنة ٣٦٩ (٩٨٠ م) جلس يعقوب بن كلس — وزير الخليفة العزيز بالله — وقرأ على الناس كتابا ألفه فى الفقه الشيعي على مذهب الاسماعيلية ، وكان يجلس بعد ذلك لقراءته فى الأزهر ، ويحضر دروسه الفقهاء والقضاة وكبار رجال الدولة .

ويعتبر الوزير ابن كلس أول من فكر فى جعل الجامع الأزهر معهدا للدراسة المنظمة المستقلة ، ففى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨م) استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله فى أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء (أى الطلاب) للدرس والقراءة فى أوقات منتظمة مستمرة على أن تعقد حلقاتهم فى الأزهر كل يوم جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، وكان عددهم خمسة وثلاثين فقيها ، ورتب لهم العزيز — تنفيذا لاقتراح ابن كلس — أرزاقا وجرايات شهرية ، وبنى لهم دارا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر ، « وخلع عليهم يوم عيد الفطر ، وحملهم على بغلات .. » ، « وكان لهم أيضا من مال الوزير صلة فى كل سنة .. » [١]

فمنذ هذا التاريخ اتخذ الأزهر صفته التعليمية الجامعة ، فعيّن له طلبة متفرغون للدراسة ، ووفرت الدولة لهؤلاء الطلاب كل ما يعينهم على الدراسة والتحصيل حتى لا تشغلهم مطالب الحياة أو السعي وراء الرزق ، فرتبت لهم الأرزاق والجرايات ، وبنت لهم المساكن ، وقدمت لهم الكسوة فى كل عيد ، ويسرت لهم سبل الركوب والانتقال .

وظلت هذه الصفة التعليمية الجامعية مميزة للجامع الأزهر طول العصر الفاطمى فزاد عدد طلابه وأساتذته ، وكثرت أروقته وحلقات التعليم فيه ونمت الدراسة وازدهرت حتى بدأ يجتذب اليه الطلاب والعلماء من خارج مصر ، وتعطلت هذه الصفة التعليمية وقتا ما فى العصر الأيوبى ، ولكنها لم تلبث أن عادت اليه مرة أخرى اقوى وأعظم مما كانت عليه ، وذلك منذ عهد الظاهر بيبرس ، وبرزت هذه الصفة بروزا واضحا فى عصر المماليك وما تلاه من عصور ، وساعد على هذا أن غزوات المغول فى المشرق قضت على

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٩ ؛ والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٦٧.

معظم المدارس فيه ، وأن معاهد العلم والمساجد الاسلامية المزدهرة بالمغرب انتهى أمرها أيضا حوالى هذا العصر الى الضعف والانحلال ، وتوافد العلماء من الشرق ومن الغرب الى مصر يجدون فيها الملجأ والملاذ ؛ فأصبحت القاهرة فى العصر المملوكى مركز العالم الاسلامى وأصبح الأزهر قبلة طلاب العلم من مختلف جهات هذا العالم الاسلامى.

وقد مرت بالأزهر عصور ازدهار وعصور اضمحلال ، ولكنه قاوم الأعاصير التى قابلته ، وحافظ على المكانة المرموقة التى يتمتع بها فى قلب كل مسلم فى جميع انحاء الأرض ، فانه يعتبر حتى اليوم أكبر معهد للدراسات الاسلامية .

العصر الفاطمى الأول

عصر القوة والازدهار

حكمت الدولة الفاطمية مصر مدة تنيف على القرنين (٣٥٨ — ٥٦٧ = ٩٦٩ — ١١٧١ م) غير أنا نستطيع أن نقسم هذه المدة قسمين على وجه التقريب ، كانت الخلافة الفاطمية تتسم فى كل منهما بسمات وصفات خاصة ، ففى القسم الأول ومداه قرابة قرن من الزمن وينتهى فى النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر تقريبا (حوالى سنة ٤٥٧هـ) بذلت الخلافة الفاطمية جهدها لتنظيم شئون مصر الداخلية ، فنشرت الأمن فى ربوعها ، ووضعت النظم الادارية الدقيقة ، وعنت بالجيش والأسطول ، ونمت الزراعة ، ونهضت بالتجارة الداخلية والخارجية ، وشجعت الآداب والعلوم والفنون .

وفى هذه الفترة أيضا امتاز خلفاء الفاطميين بقوة الشخصية فكانت السلطة كلها فى أيديهم ، ولهم على الشعب ورجال الدولة النفوذ الأول ، وللوزراء المكانة الثانية .

وفيها امتد النفوذ الفاطمى الخارجى حتى وصل أوجه واقصاه ، تخضعت لهم اليمن والحجاز ومصر والمغرب وصقلية والشام ، وخطب لهم فى الموصل وبغداد وقتا ما .

وخير ما يؤيد هذه السمات التى اتسمت بها الخلافة الفاطمية فى الشطر الأول من حكمها أن نستعرض جهود الخلفاء الذين تولوا الحكم فى هذه الفترة :

كان أول الخلفاء الفاطميين فى مصر هو المعز لدين الله ، وقد حكمها ثلاث سنوات (٣٦٢ — ٣٦٥ هـ) ركز جهوده فى خلالها لتنظيم مركز حكمه الجديد ، فمنى أول ما عنى بشئون مصر المالية ، لأن مصر كانت وشيكة الخروج من المجاعة الخطيرة التى أصابتها قبل الفتح الفاطمى واباته ، فمنع المعز النداء بزيادة النيل — كما كانت العادة قديما — وأمر الا يكتب بذلك الا اليه والى قائده جوهر ، حتى اذا تم الفيضان ووصل

الى أقصاه أعلن ذلك للناس ، واشترك فى الاحتفاء بوفاء النيل ، ثم عهد بادارة شؤون مصر المالية جميعا الى رجلين من أقدر رجال ذلك العصر وهما يعقوب بن كلس وعسلوج ابن الحسن ، فقاما بما عهد به اليهما خير قيام حتى زادت ايرادات الدولة فى وقت وجيز زيادة كبيرة ملحوظة .

وتأكيدا لاستقلال مصر الاقتصادى عن الدولة العباسية أمر المعز فضربت سكة مصرية جديدة باسمه ، وفضل الدينار المعزى فى المعاملات الحكومية على الدينار العباسى ، فقلت قيمة هذا الأخير وطرد من السوق شيئا فشيئا .

وفى عهده اشتد خطر القرامطة وهددوا مصر برا وبحرا ، ووصل أسطولهم الى مدينة تنيس ، فقاتلهم أهلها ، وأخذت عدة من سفنهم ، وأسر عدد كبير من جنودهم .

وأدرك المعز ما قد تتعرض له مصر من خطر الهجوم عليها من ناحية البحر ، فعنى بالأسطول عناية كبيرة ، وبنى دارا جديدة لصناعة السفن فى المقس — ميناء القاهرة — وأنشىء بهذه الدار فى عهده القصير ستمائة سفينة حربية « لم ير مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقة وحسنا » [1] .

وولى الخلافة بعد المعز ابنه العزيز بالله ، وكان رجلا سمحا كريما شجاعا ، ولئن كان

(1) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣١٧ (عن المسبحى) .

عصر المعز قد امتاز بالتنظيم الداخلى للدولة الجديدة ، فان عصر العزيز قد امتاز بالتوسع الخارجى ، وامتدت الدولة المصرية فى عهده من المحيط الأطلسى غربا الى الخليج الفارسى شرقا ، ومن أقصى الشام شمالا الى بلاد النوبة واليمن جنوبا ، وفتحت له حمص وحماة وشيزر ، وخطب له القلد المتقليلى — صاحب الموصل — بالموصل وأعمالها فى المحرم سنة ٣٨٢ ، وضرب اسمه على السكة والبنود ، وخطب له باليمن ، وخاف بأسه امبراطور الدولة البيزنطية فخطب وده ، وأرسل اليه رسلا يحملون الهدايا ، ويطلبون الصلح والهدنة ، فأجابهم العزيز واشترط شروطا شديدة التزموا بها كلها ، منها : أنهم يحلفون أنه لا يبقى فى ممالكهم أسير الا أطلقوه ، وأن يخطب للعزيز فى جامع القسطنطينية كل جمعة ، وأن يحمل اليه من أمتعة الروم كل ما اقترحه عليهم ، ثم ردهم بعقد الهدنة سبع سنين » [1] .

وهكذا بلغت مصر الذروة فى عهد العزيز فأصبحت امبراطورية واسعة تضم — كما أسلفنا — المغرب ومصر والشام والحجاز واليمن والجزيرة العربية والشام وجزيرة صقلية ، وبهذا فاقت الخلافة العباسية قوة ونفوذا واتساع ملك ، وأصبحت الدولة الاسلامية الكبرى فى الشرق ، وبدأت تهدد ما بقى فى أيدى

(1) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٥١ — ١٥٢ .

العباسيين من ملك ، وفى الوقت نفسه كان العزيز يرنو ببصره نحو الخلافة الثالثة ، وهى الخلافة الأموية السنية فى الأندلس ، يريد أن يزيلها من الوجود لتصبح فى العالم الاسلامى خلافة واحدة هى الخلافة الفاطمية ، لهذا أرسل العزيز الى خليفة الأندلس يهجوه ويتهدده ، غير أن الأندلس كانت فى ذلك الوقت فى عنفوان قوتها ، فأرسل صاحبها ردا على خطاب العزيز — الجملة المشهورة التى يعرض فيها بنسب الفاطميين والتى يقول فيها : « أما بعد ، فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك » .

وقد رأى العزيز أن الجيش القوى هو السياج الطبيعى لحماية هذه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف ، فصرف همه للعناية بالجيش ، وهو أول من استعان من الفاطميين بالعنصرين التركى والسودانى فأصبح فى جيش مصر فرق من هذين العنصرين بعد أن كان اعتماد الفاطميين على المغاربة الذين ساعدوهم فى فتح مصر واقامة ملكهم بها ، وقد كانت هذه العناصر مصدر قوة فى أول الأمر لما امتاز به الترك والسودان من الشجاعة والاقدام ، غير أنها لم تلبث أن أصبحت سببا من أهم أسباب ضعف الدولة وانحلالها عندما دب النزاع وقامت أسباب المنافسة والنضال بينها .

ولم تكن عناية العزيز بالأسطول أقل من عنايته بالجيش ، حتى لقد أصبحت مصر فى عهده أكبر دولة اسلامية فى الشرق الأوسط .

وقد عرف العزيز بالتسامح مع أهل الذمة فقد نعموا فى عهده بالحرية التامة فى أداء شعائر دينهم وترميم كنائسهم ، وبناء كنائس جديدة ، ولا غرو فقد كانت زوجته — أم ولده الحاكم — مسيحية روسية ، وقد عين العزيز أخويها بطريركين ملكانيين فى الاسكندرية وأورشليم ، وكان من وزرائه : يعقوب بن كلس اليهودى ، وعيسى بن نسطورس المسيحى .

وفى عهد العزيز نمت ثروة البلاد وزادت ثروتها فعاش الناس فى رفاهية وعاش الخليفة حياة كلها بذخ وترف ، وبنى لنفسه قصرا جديدا — عرف بالقصر الغربى — مقابل القصر الشرقى الكبير الذى بناه جوهر للمعز ، وكان يفصل بين القصرين ميدان متسع يستخدم لعرض الجند ، كما بدأ بناء جامعه الكبير الذى أتمه ابنه الحاكم فيما بعد ، وعرف باسم الجامع الحاكمى .

وكان من حسن حظ مصر أن طالت مدة حكم العزيز ، فقد حكمها واحدا وعشرين عاما ، وتوفى سنة ٣٨٦ هـ ، فخلفه ابنه الحاكم بأمر الله ، وهو بعد طفل لا يجاوز الحادية عشرة من عمره .

والحاكم شخصية عجيبة هى فى الحقيقة جماع المتناقضات مما يدل على أنه كان مشتت العقل غير متزن التفكير ، فقد امتاز عهده بالقسوة والعنف وكثرة سفك الدماء .

وأوضح ما يميز الحاكم التناقض وازدواج الشخصية ، فهو حينا دكتور جيكل وحينا آخر مستر هايد : وهو تارة شجاع متهور محب للعلم والعلماء وهو تارة أخرى جبان متردد منتقم من العلماء قاتل لهم ؛ وكان الغالب عليه السخاء ، غير أنه ربما بخل بما لم يبخل به أحد قط ، وأقام يلبس الصوف سبع سنين وامتنع من دخول الحمام ، وأقام سنين يجلس في الجمع ليلا ونهارا ، ثم عن له أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مدة ، وكتب على المساجد والجوامع سب أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، ثم محا ما كتب في سنة سبع وتسعين ؛ وأمر بقتل الكلاب،ثم نهى عنه،ونهى عن الاشتغال بالنجوم وكان ينظر فيها ،ومنع من صلاة التراويح عشرسنين،ثم أباحها، ومنع من بيع العنب ، وقطع الكروم ، وأراق خمسة آلاف جرة عسل في البحر خوفا من أن تعمل نبيذا ، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلا ونهارا ، وجعل لأهل الذمة علامات يعرفون بها ، وهدم الكنائس في بلاده - ومن بينها كنيسة القيامة — ثم أمر باعادة بنائها [1] .. وهكذا .

وقد قتل الحاكم عددا من وزرائه ، واتنهى به الأمر الى أن ادعى الالوهية وتكونت طائفة جديدة تنادي بألوهيته هي طائفة الدروز ، (نسبة الى الدرزى أول دعاتها) .

ورغم هذا التناقض العجيب في تصرفاته كان الحاكم شخصية قوية جبارة ، يخافها ويخشى بأسها الجميع ، وكان للخلافة الفاطمية في عهده الشأن الكبير والمقام العظيم ، ولم يكن لأحد من وزرائه ورجال جيشه ودولته نفوذ الى جانب نفوذه .

ومع هذا فقد كان لشخصية الحاكم المضطربة ولسياسته الخرقاء أثر جد خطير في الدولة ومستقبلها ، ففي عهده بدرت بوادر كثيرة مهدت لضعف الدولة واضمحلالها .

بدأت هذه البوادر باجتراء الخلافتين السنيتين المعاصرتين على مهاجمة الدولة الفاطمية ومحاولة القضاء عليها ، وقد حالت شخصيتا المعز والعزيز المتزنتان من قبل دون هذا الاجتراء وهذا الهجوم .

أما الخلافة العباسية فلم يكن لديها من القوة المادية ما يمكنها من تدبير هجوم ايجابي ، ولهذا فقد اتخذ هجومها شكلا سلبيا ، فجمع الخليفة القادر عددا من علماء بغداد وقضاتها وكتبوا محضرا طعنوا فيه في النسب الفاطمي واعلنوا فيه أن الحاكم وسلفه « أدعياء خوارج ، لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب ، وانما هم « كفار فساق زنادقة ، ملحدون معطلون ، وللاسلام

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٢٤ ص ١٧٦ — ١٧٨ نقلا عن سبط بن الجوزى في مرآة الزمان .

جاحدون ، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون » .

كتب هذا المحضر فى سنة ٤٠٢ هـ ووقع عليه الحضور من العلماء والقضاة وأرسلت منه نسخ الى مختلف أنحاء العالم الاسلامى ، فكان له صدى قوى .

وأما الخلافة الأموية فى الأندلس فقد اتخذ هجومها شكلا آخر أكثر ايجابية وخطرا ، فقد خرج فى الصحراء الغربية خارج اسمه أبو ركوة — وادعى أنه ينتسب الى بنى أمية ، وجمع هذا الرجل جيشا كبيرا ، وهاجم حدود مصر الغربية وانضم اليه بنو قرة — من عرب البحيرة — وكانوا ناقمين على الحاكم لكثرة ما أوقع بهم وغنم من أموالهم ، واشتد خطر أبو ركوة فأرسل اليه الحاكم جيشا لمقاتلته ، فهزم الجيش ، فأرسل اليه جيشا آخر فكتب له النصر وتتبع أبا ركوة فى الصعيد ، وانتهى الأمر بالقبض عليه فى بلاد النوبة وارساله الى القاهرة وقتله .

لقد اكتفت الخلافة العباسية بأضعف الايمان ، فاصدرت هذا المحضر وأرسلته الى أطراف العالم الاسلامى ، وانتهت ثورة أبى ركوة التى كانت تؤيدها الخلافة الأموية الأندلسية بالفشل ، ولكن هاتين الحركتين أثرتا دون شك فى الدولة الفاطمية ، فأضاعتا ما كان لهما من هيبة قديمة ، وبدأ الكل يجترئون عليهما ، وتطور الأمر الى أن قام النزاع فى الداخل بين العناصر المختلفة المكونة للجيش الفاطمى من مغاربة وأتراك وسودان ، واشتد النزاع بين كل فريق والآخر ، ولم تهدأ الفتنة الا بعد أن قتل عدد كبير من قادة الجيش .

ومن الأمور التى بدأت تزعزع كيان الدولة الفاطمية ما أقدم عليه الحاكم نفسه من محاولة تغيير أصل هام من أصول المذهب الاسماعيلى ، وذلك أن نظام الوراثة عند الشيعة الاسماعيلية يقضى أن تكون الامامة فى نسل على بن أبى طالب دون غيرهم ، وأن تنتقل دائما من الأب ، لأنهم كانوا يعتقدون أن للامامة صفات وعلوما خاصة تنتقل بالوراثة كما تنتقل الصفات الخلقية تماما ، وقد التزم الفاطميون منذ اقامة دولتهم هذا النظام ، فكان كل خليفة ابنا للخليفة السابق ، ولكن الحاكم حاول مخالفة هذا المبدأ فأوصى بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن الياس وأصدر أوامره بأن يضرب اسمه الى جانب اسم الخليفة على السكة ، وأن ينقش على البنود والطراز ، كما أمر أن ينوب ابن عمه وولى عهده عنه فى الخطبة والصلاة والنحر والنظر فى المظالم ، وأن يسايره فى المواكب .

وكادت هذه المحاولة أن تؤدى الى انقسام خطير بين الشيعة الاسماعيلية لأن فى تنفيذها هدما لركن قوى من أركان المذهب ، لولا أن الحاكم قتل ، وقضت ست الملك أخت الحاكم على هذه المحاولة ، فأرسلت الى عبد الرحيم من قبض عليه وقتله وأجلست الظاهر بن الحاكم على عرش الخلافة .

يتضح من هذا كله أن هـــذه البوادر الأربع : المحضر العباسي بالطعن في النسب الفاطمي ، وثورة أبي ركوة ، والنزاع بين عناصر الجيش الفاطمي ، ومحـــاولة الحاكم الخروج عن أصول المذهب الاسماعيلي ، كان لها أثر قوي في هز كيـــان الدولة الفاطمية فبدأت عوامل الضعف تعمل في بنيانها .

وولي الظاهر في سنة ٤١١ عرش الخلافة بعد أبيه ، وكان عند ذلك صبيا مراهقا في السادسة عشرة من عمره تحت وصاية عمته ست الملك ، فترك أمور الحكم بين يديها وبين أيدي رجال الدولة من وزراء وقادة وقضاة ، وأبرز ما يميز عهده أنه أباح كل ما كان قد حرمه أبوه ، بل انه قد غالى فأقبل هو نفسه على شرب الخمر ، ورخص للناس بشربها فأقبلوا على حياة اللهو .

ومما يحمد له أنه عمــل عــلى تحسين العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن كانت قد بلغت من السوء مبلغا كبيرا في عهد أبيه ، فجدد الهـــدنة مع صاحب الروم في سنة ٤١٨ هـ بشروط كان أهمها أن يفتـــح جامـــع القسطنطينية وأن يعــين فيه مؤذن ويخطب فيه للظاهر ، وأن يعيد الظاهر بنـــاء كنيسة القيامة بمدينة القدس .

وفي سنة ٤٢٧ ولي الخلافة المستنصر بن الظاهر ، وعمره ٧ سنوات ، وقد طالت مدة خلافته حتى بلغت ستين عاما ، وهي أطــول مدة حكمها خليفة مسلم ، وقد بلغت الخلافة الفاطمية في القسم الأول من حكمه أوجهـــا في المظلة داخليا وخارجيا ، وزار مصر في هذا النصف الأول الرحـــالة الفارسي ناصر خسرو ووصفها ووصف نظمها ومدنها وقناطها وثروتها وحضارتها وصف المعجب بما رأى وشاهد .

وبدأت مصر في هذا النصف الأول ترنو بأبصارها ثانية نحو العراق وبغداد مقر الخلافة العباسية المتهاوية ، وأحس الخليفة العباسي بوادر الخطر فأصدر في ســنة ٤٤٤ محضرا ثانيا شبيها بالمحضر الأول الذي صدر في عهد الحاكم للطعن في نسب الخلفاء الفاطميين ، ووقع عليه كبار العلماء والقضـــاة في بغداد وأرسلت منه نسخ الى أطـــراف العـــالم الاسلامي .

ولكن رد المستنصر كان قويا وايجابيا ، ففي ســـنة ٤٤٨ خرج على الخليفة العباسي أحد قواده وهو أبو الحارث البساسيري ، والتجأ للخليفة المستنصر فأرسل اليه الأموال والسلاح ، وتقدم البساسيري في سنة ٤٥٠ فدخل بغداد ففر منها الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وأرســل البساسيري ثياب هـــذا الخليفة الفار وعمامته الى القــاهرة ، وخطب للمستنصر على منابر بغداد نحو عشرة شهور ، وحذت مدن العراق الأخرى حذو بغداد ، فخطب للمستنصر في هذه السنة على منابر البصرة وواسط وأعمالها .

وهكذا بلغت الخلافة الفاطمية المصرية في النصف الأول من حكم المستنصر أوج عظمتها وأقصى اتساعها فامتدت من المحيط الأطلسي الى العراق ، ولكن عوامل الضعف الكامنة لم تلبث أن بدأت تنخر في كيان الدولة في النصف الثاني من حكم هذا الخليفة ، فدخل طغرل بك السلجوقي بغداد ، وقتل البساسيري ، وأعاد الخليفة العباسي الى عرشه ، فانقطعت الخطبة للمستنصر وعادت للقائم .

وقبل هذا بقليل نشب نزاع بين اليازوري — وزير المستنصر — والمعز بن باديس عامل الفاطميين على المغرب ، وآل الأمر الى أن قطع ابن باديس الخطبة للفاطميين بالمغرب وأقامها للعباسيين .

وفي سنة ٤٥٧ هـ أصيبت مصر بالمجاعة الخطيرة التي ظلت سبع سنوات (٤٥٧ — ٤٦٤) فكانت الطامة الكبرى ، وتدهورت أحوال مصر الاقتصادية تدهورا خطيرا ، والمقريزي يسمي هذه المجاعة « بالشدة العظمى » ، ويرجع أسبابها الى « ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة ، واستيلاء الأمراء على الدولة ، واتصال الفتن بين العربان ، وقصور النيل ، وعدم من يزرع ما شمله الري » .

وكان من نتائجها — في رأيه — أن : « نزع السعر ، وتزايد الغلاء ، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضي من الزراعة ، وشمل الخوف ، وخيفت السبل برا وبحرا ، وتعذر السير الى الأماكن بالخفارة الكثيرة وركوب الغرر ، واستولى الجوع لعدم القوت حتى أبيع رغيف خبز في النداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطرف بخمسة عشر دينارا ، وأبيع الأردب من القمح بثمانين دينارا ، وأكلت الكلاب والقطاط حتى قلت الكلاب ، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير ، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا .. ثم آل الأمر الى أن باع المستنصر كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره ، وصار يجلس على حصير ، وتعطلت دواوينه ، وذهب وقاره ، وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن : « الجوع ! الجوع ! » تردن المسير الى العراق ، فتسقطن عند المصلى وتمتن جوعا .. الخ .. الخ»[١] .

وكان من نتيجة الغلاء الذي صاحب هذه المجاعة أن منعت مصر ما كانت ترسله الى الحجاز من غلال ومؤن ، فقطعت الخطبة للمستنصر في مكة والمدينة ، وخطب للخليفة العباسي في سنة ٤٦٢ هـ ، وإن كانت قد أعيدت للمستنصر في سنة ٤٦٩ .

وهكذا توالى انفصال أجزاء الدولة ، فانفصل شمال افريقيا كله وخطب للعباسيين ،

(١) المقريزي : اغاثة الأمة ، نشر زيادة والشيال ، ص ٢٤ — ٢٥ .

ثم قطعت الخطبة من بغداد والعراق بعد أن أقيمت للفاطميين عشرة أشــهر ، ثم انقطعت الخطبة لهم في الحجاز لمدة سبع ســنوات ، وأخيرا في سنة ٤٦٣ دخل النورمان صقلية واستولوا عليها ، فخرجت بذلك عن حكم الفاطميين بعد أن ظلت جزءا من أملاكهم منذ قامت دولتهم في سنة ٢٩٧ هـ .

وفي ســـنة ٤٦٦ هـ تفاقم الحــــال ، واضطربت أمــــور مصر اضطرابا شـــــديدا واختلت أحوالها ، وعجــز المستنصر عن أن يصنع شيئا لعلاجها ، فاستدعى واليه عــلى عكا بدر الجمالي ، فلبى الدعوة وتولى بعد مجيئه أمور مصر كلها ، وتلاشت — منــذ ذلك الحين سلطة الخليفة ، وبدأ عهد سيطرة الوزراء .

وقد جرى المؤرخون الاسلاميون عــلى تقسيم الوزارة الى نوعين : وزارة تنفيذ ، وفيها تكون الســلطة كل السلطة بيد الخليفة وانما يقوم الوزير بتنفيذ أوامره ، ووزارة تفويض وفيها يكون الخليفة مغلوبا عــلى أمره ، والأمور كلها مفوضة للوزير .

وتطبيقا لهذا التقسيم النظرى نستطيع أن نقول ان وزراء العصر الفــاطمى الأول كانوا جميعا وزراء تنفيذ ، أما وزراء العصر الفاطمى الثانى فكانوا جميعا وزراء تفويض ، وكان أولهم أمير الجيوش بدر الجمالى .

وقد أنشيء لبدر سجل خاص بتفويض أمور الحكم اليه ، جاء فيه :

« وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره ، فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك مدبرا للبلاد ، ومصلحـــا للفساد ، ومدمرا لأهل العناد .. » .

وأصبحت الأمــور كلها مردودة اليه ، والاتصال بين الخليفة وبينه اتصالا مباشرا ، وجعل له تعيين قاضى القضاة وداعى الدعاة — وكان تعيينهما من اختصاص الخليفة دون غيره — ، ولهذا لقب بكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين .

وقد كان وزراء العصر الأول جميعا من أرباب القلم ، أى من رجال الفكر والدين ، أما بدر فقد كان من أرباب السيف — أى من رجال الجيش — ولهذا لقب أيضا بالســيد الأجــل أمير الجيوش ، وهــو اللقب الذى توارثه من بعده وزراء التفويض فى العصر الفاطمى الثانى ، فقد كانوا جميعا من أرباب السيوف .

ولم يحدث أن ولى الوزارة ابن بعد أبيه فى العصر الأول ، وانما حدث هذا فى العصر الثانى ، فولى الوزارة بعد بدر الجمالى ابنه شاهنشــاه ، فوزر للمستنصر ثم للمستعلى ثم للآمر ، وقد زيد فى ألقابه « الأفضل » وبه اشتهر حتى أصبح يعرف بالأفضل شاهنشاه ، وقد أضيف هــذا اللقب أيضا للوزراء من بعده .

ومنذ عهــد الخليفة الحافظ لقب الوزير

بلقب « الثلاث » ، وأول من لقب به رضوان ابن ولخشى وزير الحافظ لدين الله ، فقيل له: « السيد الأجل الملك الأفضل » ، ولقب به كذلك من أتى بعده من الوزراء ، فقيل للصالح طلائع بن رزيك « الملك المنصور » ، ولقب ابنه رزيك بن طلائع « بالملك العادل » ، ولقب شاور « بالملك المنصور » ، ولقب صلاح الدين — وهو آخر وزراء الدولة من أرباب السيوف — « بالملك الناصر » .

وخير ما تدل عليه هذه الألقاب أن الوزير في العصر الفاطمي الثاني أصبح هو كل شيء في الدولة ، فقد أصبح « السيد الأجل » ، ثم « أمير الجيوش » ثم « الأفضل » ثم « الملك » ، يقول المقريزي : « وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر الى آخر الدولة هو سلطان مصر ، وصاحب الحل والعقد ، واليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية ، وهو الذي يولي أرباب المناصب الديوانية والدينية .. » [١] .

ولهذا عرف العصر الفاطمي الثاني عند المؤرخين بعصر الوزراء العظام ، وتأييدا لسلطانهم بنيت لهم دار خاصة في القاهرة بالقرب من القصر الخليفي يباشر فيها الوزير شؤون الحكم ، وعرفت باسم « دار الوزارة الكبرى » .

(١) المقريزي : الخطط ، ج٢ ، ص ٢٠٥ .

وكان لتولي بدر الجمالي الوزارة نتائج أخرى كثيرة أهمها اضافة عنصر جديد الى العناصر المكونة للجيش الفاطمي ، فقد كان هذا الجيش في أول أمره مكونا من المغاربة — وخاصة قبيلة كتامة — الذين أتوا مع جوهر لغزو مصر ، ثم استعان العزيز بالله بالأتراك واستخدم عددا كبيرا منهم في جيشه ، ومنذ عهد الحاكم بدأ دخول السودان في الجيش الفاطمي ، فلما ولي المستنصر استكثرت أمه من السودان — فقد كانت منهم — حتى يقال انهم بلغوا نحوا من خمسين ألف أسود واستكثر هو من الأتراك ، فتجدد النزاع بين العنصرين ، وقامت بينهما — كما يقول المقريزي — « الحروب التي آلت الى خراب مصر وزوال بهجتها » .

ثم قدم بدر الجمالي من عكا ، وقتل رجال الدولة وأقام له جندا وعسكرا من الأرمن — فقد كان هو أرمنيا — ، وصار معظم الجيش منذ ذلك الوقت من الأرمن .

وهكذا تعددت العناصر المكونة للجيش الفاطمي ، فأصبح يتكون من المغاربة والعرب والأتراك والسودان والأرمن وغيرهم من الأجناس وبدأت أسباب النزاع بين كل عنصر وعنصر ، وكثيرا ما أدى هذا النزاع الى خراب البلاد ونهب أموال الأهلين ، وكانت أسوأ نتائجه ضعف الجيش الفاطمي وبالتالي ضعف الدولة نفسها .

ولم تكن هذه وحدها هي الأسباب التي

أدت الى ضعف الدولة وانحلالها ثم زوالها ، وانما كانت تضاف اليها كلما تقدم الزمن بالدولة عوامل جديدة ، منها أن معظم خلفاء العصر الثاني تولوا الخلافة وهم بعد أطفال صغار مما زاد في شوكة الوزراء واستقلالهم بأمور الحكم ، فقد ولي الخليفة الآمر وعمره خمس سنوات ، وولي الفائز في نفس العمر وتوفى في الحادية عشرة من عمره ، وولي العاضد كذلك وعنده أحد عشر عاما .

وقد ولي هؤلاء الخلفاء في هذه السن المبكرة لأن نظام الوراثة عند الشيعة الاسماعيلية كان يقضي — كما ذكرنا — أن تكون الامامة - أي الخلافة — في نسل علي ابن أبي طالب دون غيرهم ، وأن تنتقل دائما من الأب الى الابن [1] ، فهم في هذا يختلفون عن أندادهم الخلفاء السنيين من الأمويين والعباسيين ، الذين كانوا يبيحون أن تنتقل الخلافة أحيانا الى الأخ أو الى ابن العم أو الى أكبر أفراد الأسرة سنا ، لأنهم كانوا يشترطون فيمن يتولى الخلافة شروطا أخرى كثيرة من أهمها أن يكون بالغا عاقلا سليم الحواس ، وقد كان لنظام الوراثة عند الفاطميين فوائد كثيرة أهمها أنه كان عاملا من عوامل الاستقرار ، وأنه جنب الأسرة والدولة — الى حد كبير — عوامل المنافسة والنزاع والتخاصم في سبيل العرش .

غير أن هذا النظام كانت له — الى جانب هذه الفوائد — مضار وعيوب ، منها أنه كان يوجب تولية هؤلاء الخلفاء الأطفال لا لشيء الا لأن كلا منهم كان ابنا للخليفة السابق وقد نص على توليته ، مما أتاح الفرصة لاستبداد الوزراء بشئون الحكم ، وقيام أسباب التنافس والنزاع بين رجال الدولة المتطلعين الى منصب الوزارة .

وكان من الشروط الهامة لصحة الامامة عند الشيعة الاسماعيلية الوصية أو «النص» ، أي أن ينص الامام السابق على الامام اللاحق من أولاده ، فهم يعتبرون النص بمثابة أمر بالتعيين صادر عن الامام السابق ، ولذلك هو عندهم شرط هام من شروط صحة الامامة ، ويشترط في النص عندهم أن يصدر عن الامام وقت نقلته ، أي عند موته ، بمعنى أنه اذا صدر عن الامام أكثر من نص لأكثر من ولد من أولاده فانه لا يؤخذ الا بالنص الأخير الذي صدر عنه وقت نقلته وانتقاله الى الدار الآخرة ، لأنه في رأيهم يجب كل النصوص الأخرى السابقة .

وقد التزم الفاطميون منذ اقامة دولتهم هذا النظام الوراثي بجميع شروطه فيما عدا ثلاث حالات :

— في الحالة الأولى حاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يحرم ابنه ، فعهد بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن الياس ، وقد أشرنا الى هذه المحاولة وأثرها فيما سلف ،

---

(1) الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٠ .

ورأينا أنها لم يكتب لها النجاح ، فقد قتل الحاكم قتلة تحوطها الريب والشكوك ، وسمت أخته « ست الملك » حتى أقامت « الظاهر » ابن الحاكم على عرش الخلافة .

ـ والحالتان الثانية والثالثة خولف فيهما هذا المبدأ فعلا ، وتولى الخلافة ابن العم لا الابن ، فبعد وفاة الخليفة الآمر بأحكام الله ولى الخلافة ابن عمه الحافظ لدين الله وبعد وفاة الخليفة الفائز ولى الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله ، وهو آخر خلفاء الدولة .

وفى كل مرة خولف فيها نظام الوراثة ـ كما نص عليه المذهب ـ حدث انقسام مذهبى سياسى ، وهذه الانقسامات المذهبية السياسية ـ وقد حدثت كلها فى العصر الفاطمى الثانى ـ هزت الدولة هزات عنيفة، وكانت من أهم العوامل التى أدت الى اضعاف الدولة واضمحلالها .

فعند وفاة المستنصر حدث خلاف فى تحديد النص ، فقال نزار ـ الابن الأكبر ـ بأن النص والوصية له ، وقال الوزير القائم بالحكم الأفضل شاهنشاه بأن النص والوصية للابن الأصغر أبى القاسم أحمد ـ الذى ولى الخلافة باسم المستعلى ـ ، وانتهى النزاع بهزيمة نزار وتولية المستعلى ، وانقسم الاسماعيلية منذ ذلك الحين الى فرقتين .

ـ الاسماعيلية النزارية التى نجح دعاتها فى اقامة ملك لهم فى قلعة ألموت ثم فى الشام وقد لعبوا دورا خطيرا فى التاريخ الاسلامى فى القرنين الخامس والسادس .

ـ والاسماعيلية المستعلية أتباع الخلافة الفاطمية فى مصر .

وقد ناصب النزارية الفواطم فى مصر العداء ، ولم يلق الخلفاء الفاطميون ـ منذ عهد المستعلى ـ أعداء أشد قسوة من النزارية ، بحيث نستطيع أن نقول ان تاريخ الحركة الاسماعيلية بوجه عام ، وتاريخ الدولة الفاطمية فى مصر بوجه خاص كان من الممكن أن يتخذ شكلا آخر غير الذى عرفناه لو أن الاسماعيلية النزارية (الحشيشية) اتحدوا مع الفاطميين فى مصر بدلا من انتهازهم كل فرصة ممكنة للمكيدة لهم والاضرار بهم .

والحقيقة أن ابعاد نزار وتولية المستعلى يعتبر انقلابا سياسيا (Coup d'état) واضح المعالم ، قام به الوزير الأفضل شاهنشاه محافظة على السلطان القوى الذى كان يتمتع به منفردا منذ أواخر عهد المستنصر ، فقد كان نزار ـ عند موت أبيه المستنصر ـ رجلا مكتمل الرجولة ، ولم تكن العلاقات بينه وبين الأفضل ـ أثناء حياة المستنصر ـ علاقات طيبة ، بل لقد كانت على العكس علاقات يشوبها الكره المتبادل .

والانقسام المذهبى الثانى حدث بعد وفاة الخليفة الآمر ، فقد خولفت أصول

المذهب ، وولى الخلافة الحافظ ابن عم الآمر ، في حين أنه كان قد ولد للآمر قبيل وفاته ابن اسمه « الطيب » وأخذت له البيعة بولاية العهد ، ولهذا انقسمت الاسماعيلية مرة ثالية الى :

- اسماعيلية حافظية .
- اسماعيلية طيبية .

وقد مرت الدولة الفاطمية عند مقتل الخليفة الآمر بأزمة عنيفة كادت تودي بها وتضع حدا لحياتها ، وذلك أن بعض جواسيس النزارية تسللوا الى القاهرة وتربصوا للآمر وقتلوه في ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠م) ، وتذكر المراجع المطبوعة المتداولة — ومعظمها مراجع سنية — أن الآمر لم يكن عند قتله قد أعقب ، وانما ترك من بعده احدى زوجاته حاملا ، فعين الحافظ ابن عم الآمر حاكما مؤقتا ، على أن يكون وليا للعهد وكفيلا للطفل الذي يولد ان أتى ذكرا ، ولكن الزوجة أنجبت بنتا فاستقر الحافظ خليفة .

كان هذا هو الرأي الذي تعرضه المراجع السنية المتداولة الى عهد قريب ، ولا تذكر رأيا غيره ، ثم بدأت تظهر في عالم المطبوعات مراجع تاريخية سنية تشير الى رأي آخر ، وأول هذه المراجع «تاريخ مصر لابن ميسر» ، وقد أورد المؤلف فيه نصا يشير الى أن الآمر كان قد ولد له قبل موته بشهور ولد سماه أبوه « الطيب » ، واحتفل بمولده احتفالا علنيا رائعا ، وأعلنه وليا لعهده ، وأرسلت السجلات بتولية الطيب ولاية العهد الى اليمن ، وأعلنت هناك ، ولهذا سيظل اسماعيلية اليمن — في معظمهم — بعد ذلك طيبية ، ثم يكونون لهم جالية أخرى في الهند تتبع نفس المذهب والفرقة .

ولكن بعض المؤرخين لا يزالون مع هذا — وحتى اليوم — يشكون في هذه القصة وفي وجود الطيب ، لأنه منذ مات الآمر لم يظهر الى الوجود ، بل أعلنت القصة الجديدة قصة وجود زوجة من زوجات الآمر حاملا ، وقصة كفالة الحافظ للمولود المنتظر .

ثم ظهرت للنور بعد ذلك بعض المؤلفات السنية والشيعية تحمل نصوصا جديدة عن الطيب ، وكلها تثبت وجوده وأنه ولد في ربيع الأول سنة ٥٢٤ ، وأنه أعلن بعد مولده وليا للعهد ، وزينت القاهرة ومصر زينة حافلة بهذه المناسبة ، وورد في كتاب « البستان الجامع » الذي نشره الأستاذ كلود كاهن نص يفيد أن الحافظ دس لهذا الطفل — بعد مقتل أبيه — أحد أتباعه « فأخذه عنده ، ولم يظهر له خبر الى الآن بموت أو بغيره »[١] .

وهذه النصوص تفيد أيضا أن الطيبية — اتباع الطيب — انتشروا بعد ذلك في اليمن والشام دون مصر .

اختفى الطيب اذن من الميدان — بعد مقتل والده — وانتقلت السلطة الفعلية الى

(١) الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص ٧٩ — ٨٥ .

اثنين من رجال الجيش هما : هـزار الملوك وبرغش ، واختار هذان القائدان عبد المجيد — ابن عم الآمر — ليلي السلطة من الناحية الشكلية فقط وليكون كفيلا للمولود المرتقب ان أتى ذكرا .

واختار عبد المجيد (الحافظ) هزار الملوك ليكون وزيرا له ، ولكن هذا الوضع الجديد لم يعمر غير نصف يوم ، فقد دفعت الغيرة برغش الى تحريض قائد آخر له مكانته على الثورة ، هذا القائد الآخر هو أبو علي أحمد ابن الأفضل شاهنشاه — الملقب بكتيفات — وقد ثار هذا القائد فعلا ، وثار معه الجيش عقب الاحتفال بتولية هزار الملوك الوزارة ، وانتهت الثورة بالقبض على هـزار الملوك وقتله .

« واستقرت الوزارة لأبي علي أحمد بن الأفضـل شاهنشـاه بن أمير الجيـوش بدر الجمـالي ، وكان يلقب بكتيفات ، في يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة »[1] .

« واستدعى (الحافظ) الخلع لأبي علي، فأفيضت عليه يوم الأربعـاء خامس عشرة ، وركب الى دار الوزارة ، والجماعة مشاة في ركابه ، فكانت وزارة هزار الملوك نصف يوم بغير تصرف ... » .

وكان أول عمل باشره أبو علي أحمد بعد توليه الوزارة أنه : « أحاط بالحافظ وسجنه في خزانة فيما بين الايوان وباب العيـد وتمكن أبو علي ، واستولى على جميع ما في القصر من الأموال والذخائر ... » .

هذا انقلاب جديد واضح المعالم كاد يضع حدا نهائيا للدولة الفاطمية الاسماعيلية ، فأبو علي قائد قواد الجيش له مكانة خاصـة في الدولة ، فهو ابن وزير وحفيد وزير ، وأبوه وجـده كانت لهما السلطة الفعليـة الكاملة والمكانة الأولى في الدولة أيام وزارتهما ، وقد ثار أبو علي ثورة عسكرية انتهت بقتل الوزير القائم ، والقبض على الكفيل وسجنه ، ثم توليه هو السلطة كلها دون منازع أو مشارك .

ويضاف الى هـذا كله أمر هـام بالغ الاهمية ، وهو أن أبا علي لم يكن اسماعيلي المذهب ، بل كان اماميا ، ولهذا بدأ باتخـاذ اجراءات كثيرة تهدف كلها للقضاء على المذهب الاسماعيلي والقـائه ، والاعتراف بالمذهب الامامي ، ومعنى هذا انتهاء الدولة الفاطمية الاسماعيلية ، وقيام دولة علوية امامية ، يقول المقريزي : « وكان (أبو علي) اماميا متشددا فالتف عليه الامامية ولعنوا به حتى أظهـر المذهب الامامي »[1] .

ومن هـذه الاجـراءات التي اتخـذها أبو علي لاظهار المذهب الامامي أنه : — رتب في الحكم أربعة قضاة — قاضيا للشافعية ، وقاضيا للمالكية ، وقاضيا للاسـماعيلية ،

(1) المقريزي : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٣ ب .

(1) المقريزي : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٤ أ .

وقاضيا للامامية — وصار كل قاض يحكم بمذهبه ، ويورث بمذهبه ، ويعلق المقريزي على هذا بقوله : « ولم يسمع بمثل هذا فى الملة الاسلامية قبل ذلك »[1] .

— واسقط اسم اسماعيل بن جعفر الصادق — الذى تنسب اليه الاسماعيلية — واسم الحافظ من الخطبة .

— والغى الأذان الاسماعيلى الفاطمى .

— وجعل الخطبة على المنابر له وحده باعتباره « ناصر امام الحق فى حالتى غيبته وحضوره ، والقائم بنصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره » .

— وضرب دراهم ودنانير جديدة باسم الامام المنتظر .

حكم أبو على أحمد الآن حكما مطلقا ، واتخذ هذه الاجراءات الكثيرة التى تهدف جميعها الى القضاء على الاسماعيلية ومذهبهم، غير أنه ظل يشغله أمران : أمر الحافظ كبير أفراد الأسرة وولى العهد والكفيل السابق ، وأمر المولود الجديد الذى ولد للآمر .

أما الحافظ ، فيبدو أنه لم يكن ذا خطر ، ولم يكن له أعوان يشدون أزره ، وقد سجنه أبو على أحمد ، وشدد عليه الرقابة فى سجنه ، وقد فكر أكثر من مرة فى قتله ولكنه لم يفعل.

وأما المولود فقد ظل أمره يقلق بال أبى على أحمد ، وظل دائب البحث عنه ، وقد

تضاربت الأقوال فى شأن هذا المولود ، فبعض المراجع المنشورة المتداولة تشير الى أن المولود جاء بنتا ، وبهذا أمن أبو على أحمد واطمأن ، وبعض المراجع التى لا تزال مخطوطة تشير الى أن المولود جاء ذكرا ، وأن أمه عملت على اخفائه خوفا عليه من الوزير أبى على ومن الحافظ الى أن قبض عليه الحافظ فيما بعد وقتله .

والرأى الثانى ذكره المقريزى فى كتابه « اتعاظ الحنفا » نقلا عن الشريف محمد بن أسعد الجوانى ، وهو الصحيح ، بدليل ما تذكره المراجع أيضا من أن أمر هذا المولود قد شغل بال أبى على أحمد كثيرا أثناء السنة التى انفرد فيها بالحكم ، وانه ظل طول هذه السنة دائب البحث عنه ، فقد قال المقريزى فى نفس المرجع : « واشتد ضرره (أى ضرر أبى على أحمد) على أهل القصر من الارعاد والابراق ، وأكثر من ازعاجهم ، والتفتيش على ولد الآمر .. » .

ولبث أبو على أحمد يحكم مستقلا ما يزيد على السنة قليلا، ولو طالت مدة حكمه لكان قد قضى على الدولة الفاطمية والمذهب الاسماعيلى نهائيا ، ولكن الاسماعيلية لم يرضوا عن حكمه ، وتكونت منهم معارضة قوية تولى زعامتها القائد يانس ، وظلوا يتربصون بأبى على الفرص للقضاء عليه ، الى أن تمكنوا من قتله فى المحرم سنة ٥٢٦ هـ .

قضى الآن على أبى على أحمد ، وقضى

---

(١) المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٤ .

بطبيعة الحال على المحاولة التي حاولها لجعل الدولة امامية ، وعادت الدولة اسماعيلية كما كانت ، وأعيد الحافظ — بعد اطلاق سراحه — الى منصب الخلافة .

واعتبر هذا اليوم الذي قتل فيه أبو على أحمد وأعيد الحافظ الى الحكم يوم عيد قومي — لا للحافظ نفسه بمناسبة اطلاق سراحه واعادته للحكم — بل للدولة كلها ، وللمذهب الاسماعيلي وأتباعه ، فقد كان المذهب على وشك أن يقضى عليه ، ولهذا اعتبر هذا اليوم عيدا للاسماعيلية ، وسمى « عيد النصر » ، وضم الى قائمة الأعياد الرسمية ، وظلت الدولة تحتفل به سنويا فى عهد الحافظ ، وفى عهود من أتى بعده من الخلفاء الى أن دالت الدولة وزالت .

ورغم تولى الحافظ الحكم فقد كانت المشكلة الشرعية المذهبية لا تزال قائمة ، فالمذهب الاسماعيلي — كما أسلفنا — لا يبيح أن يتولى الخلافة من ليس ابنا للخليفة السابق ، والحافظ ليس ابنا للآمر ، بل هو ابن عمه ، والطفل الذى وُلد للآمر بعد مقتله والذى أخفته أمه كان لا يزال موجودا ، ويبدو ان الحافظ كان يعلم بوجوده ، فلا يصح اذن أن يتولى الخلافة مع وجود الطفل ، ولهذا لم يجرؤ رجال الدولة وشيوخ المذهب على تعيين الحافظ خليفة ، بل أعادوه — كما كان — وليا للعهد وكفيلا للطفل المختفى ، يقول المقريزى : « فاجتمع الناس ، وأخذ له العهد على أنه ولى عهد كفيل لمن لم يذكر اسمه »[1] .

ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية وجود عملة ضربت فى الاسكندرية فى سنة ٥٢٦ هـ (ومن المؤكد تبعا للحوادث التاريخية أنها ضربت فى المدة بين المحرم وربيع الأول من هذه السنة) تحمل اسم عبد المجيد ولقبه كولى للعهد ، ونص ما عليها : « أبو الميمون عبد المجيد ، ولى عهد المسلمين »[2] .

ويبدو أيضا أن الحافظ ظل منذ تلك اللحظة يعمل جاهدا للبحث عن هذا الطفل ليتخلص منه نهائيا ، ولتخلص له الخلافة من كل شائبة ، ولم يطل بالحافظ الوقت ، فقد عثر على الطفل بعد نحو شهرين ، وحسم الأمر بقتله ، ورأى أن يعلن على الملأ توليه الخلافة ، فان المقريزى يقول فى حوادث سنة ٥٢٦ هـ :

« وفيها استقرت حال الحافظ لدين الله ، وبويع له بيعة ثانية لما عدم الحمل »[3] .

وأخيرا ولى الحافظ الخلافة ، وبتوليته حدث انقطاع فى الفرع الفاطمى الأصيل ، فقد كان الخلفاء الفاطميون الذين حكموا قبله كلهم من نسل عبيد الله المهدى ، وكل خليفة

---

(١) المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٤ أ .

(٢) القبال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص ٩٨ — ٩٩ .

(٣) المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٥ أ ؛ وابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٧٥

منهم ابنا للخليفة السابق ؛ وسيصبح الحافظ أصلا لفرع جديد ، ولكن هذا التحول فتت الاسماعيلية تفتيتا جديدا ، فانقسموا — كما أسلفنا — الى اسماعيلية حافظية وهم أتباع الخلافة الفاطمية الجديدة في مصر، واسماعيلية طيبية وقد انتشروا في اليمن والهند .

وفي عهد الحافظ حدثت أزمة أخرى كانت معولا جديدا ساعد على تحطيم ما بقي للدولة الفاطمية من قوة ، فقد أراد الحافظ أن يتخلص من سيطرة الوزراء واستبدادهم بشؤون الحكم ، كما أراد أن يمهد لاستقرار الحكم في أسرته ، فاصدر في سنة ٥٢٨ سجلا بتولية ابنه الأكبر سليمان ولاية العهد وأقامه مقام الوزير .

ولكن سليمان توفي بعد صدور هذا السجل بشهرين ، فأصدر الحافظ سجلا آخر بتولية ابنه الثاني حيدرة ولاية العهد ، فشق ذلك على أخيه حسن فقد كان أكبر أولاد الحافظ سنا بعد وفاة سليمان ، وقام حسن بثورة حربية خطيرة ، وانقسم الجيش الفاطمي نتيجة لهذه الفتنة على نفسه ، وكانت هذه الوقعة — كما يقول المقريزي — « أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها ... » .

وحاول الحافظ محاولات كثيرة لاخماد هذه الثورة واسترضاء ابنه حسن ، ولم يجد بدا « من مداراة حسن ، وتلافي أمره عساه ينصلح ، وكتب سجلا بولايته العهد ، وأرسله اليه ، فقرىء على الناس ، فما زاده ذلك الا جراءة عليه ، وافسادا له » .

ولم تخمد هذه الفتنة الا بعد أن قتل حسن ، ولكنها كانت عاملا جديدا من عوامل اضعاف الدولة بعد انقسام الجيش على نفسه وقتل عدد كبير من كبار قواده .

ولم تنشب الصعوبات في هذا العصر الثاني في الداخل وحسب ، بل نشبت فيه صعوبات أخرى في الخارج ، أخذت تؤثر في كيان الدولة وتعمل على فصل أطرافها طرفا طرفا ، وقد أشرنا من قبل الى انفصال شمال افريقيا كله ثم انقطاع الخطبة الفاطمية في الحجاز لفترة ما ، ثم انفصال جزيرة صقلية .

وقد استمرت حركة الانفصال في طريقها ؛ ففي عهد المستعلي بدأ عدوان خطير يهدد أملاك الدولة في الشام ، فاستولى الأتراك السلاجقة على دمشق والأجزاء الداخلية من الشام وقطعوا الخطبة للمستعلي وخطبوا للخليفة العباسي ، وفي عهده أيضا ، في سنة ٤٩٠ تحركت الحملة الصليبية الأولى من القسطنطينية لأخذ سواحل الشام فملكوا أنطاكية ، وفي سنة ٤٩٢ ملكوا بقية الساحل وبيت المقدس ، ولم يبق بأيدي الفاطميين غير مدينة عسقلان .

وفي عهد الآمر استولى الفرنج على عدد آخر من مدن الشام وخاصة طرابلس وبانياس وصور .

وفي عهد الحافظ قطع الصليبيون الخطبة له في اليمن ، وخطبوا الطيب وهكذا تجمعت عوامل الضعف لتعمل مجتمعة على انهاء الدولة ، وأصبح وزراء الدولة هم أصحاب السلطان الفعلي ، بل لقد أصبحوا هم الذين يختارون الخلفاء ، ومن الشواهد القوية على عظم هذا النفوذ أن الصالح طلائع بن رزيك عمد الى اختيار طفل صغير ليلي الخلافة بعد موت الفائز ، وهو الذي سمي فيما بعد باسم «العاضد لدين الله» ، واجتمع الناس للإحتفال بتوليه وأحدثوا ضجة كبرى ، فسأل طلائع عن مصدر هذه الضجة فقيل له ان النـاس يفرحون بالخليفة ، فقال : « كأني بهـؤلاء الجملة يقولون : ما مات الأول حتى استخلف هـذا ، وما علمـوا أنني كنت من سـاعة أستعرضهم استعراض الغنم »(١) .

انتهـــاء الدولة

كان أهم الأسباب التي أدت الى ضعف الدولة — كما أسلفنا — هو استبداد الوزراء بشؤون الحكم ، لهذا أصبح منصب الوزارة محط انظار قواد الجيش وكبار رجال الدولة، فقامت بين بعضهم والبعض الآخر منافسات دامية في سبيل الوصول الى هذا المنصب ؛ وكان النزاع الذي قام بين شاور — وزير العاضد آخر خلفاء الفاطميين — وضرغام — صاحب الباب — هو آخر حلقة من حلقات هذه المنافسة ، وقد انتهى الصراع بين الرجلين بانتصار ضرغام وتوليه الوزارة ، وفرار شاور الى الشام .

وكانت الشـام قد انسـلخت من ملك الفاطميين واقتسمت ملكها قوتان : قوة نور الدين محمود بن زنكي في الداخل ، وقوة الصليبيين في الساحل وفي فلسطين .

وقد لجأ شاور الى القوة الاسلامية ، الى نور الدين ، وسأله أن يرسل معه جيشا الى مصر ليساعده في نضاله مع خصمه ضرغام ، وفي اعادته الى منصب الوزارة ، وعرض أن يدفع له — مقابل هـذه المساعدة — ثلث ايرادات مصر ، وأن يدين له بالولاء ان عادت اليه مقاليد الحكم والوزارة .

ورحب نور الدين بشاور واستضافه ، وتردد أول الأمر في اجابته الى مطلبه ، ولكنه لم يلبث أن وافق ، ففي هذه الموافقة تحقيق لخطته التي كان يهدف من ورائها الى توحيد الجبهة الاسـلامية توطئة لمقاومة الخطـر الصليبي والقضاء عليه .

وأرسل نور الدين مع شاور جيشا بقيادة قائده أسد الدين شيركوه وصحب أسد الدين معه ابن أخيه يوسف صـلاح الدين ، وعلم

(١) المقريزي : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ٦٥ ب ؛ وانظر : الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ص ١٢٠ — ١٢٣ .

ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله الى مصر ، فأصابه الفزع اذ لم يكن الجيش الفاطمى فى حالة تمكنه من المقاومة أو احراز النصر ، وأرسل ضرغام يستنجد بالقوة الثانية فى الشام ، بالصليبين .

ووصل أسد الدين شيركوه الى مصر — وفى صحبته شاور — ، وانتصر على جيش ضرغام ، وتفرق عن ضرغام قواده وأعوانه ، ثم قبض عليه وقتل ، وأعيد شاور — نتيجة لهذا النصر — الى دست الوزارة .

غير أن شاور كان من خلقه الغدر والخيانة ، فلم يلبث أن حنث بوعده ، ورفض أن يدفع لشيركوه المبلغ المتفق عليه ، بل طلب اليه الانسحاب بجيشه والعودة الى الشام ، وآلم شيركوه مسلك شاور ، وأبى أن يستمع له ، وعسكر بجيشه عند مدينة بلبيس ، وتحصن بأسوارها ، وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل ، فلجأ الى عمورى Amalaric ملك بيت المقدس الصليبى ، وأرسل يستنجد به ، ورحب عمورى بالدعوة وأسرع بالخروج بجيشه ، لأنه كان يخشى أن يملك نور الدين مصر فتصبح قوى الصليبيين وأملاكهم فى الشام محاصرة بقوى نور الدين من الشمال والجنوب .

اتجه عمورى بجيشه فى سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤م) نحو مصر ، وحاصر أسد الدين فى بلبيس شهورا ثلاثة ، وأحس نور الدين بما يهدد جيشه فى مصر من خطر ، فبدأ يضغط على أملاك الصليبيين فى الشام ، وهاجم بانياس ، مما جعل عمورى يفكر جديا فى الانسحاب ، واتفق أخيرا مع شيركوه أن ينسحبا معا وفى وقت واحد من مصر .

خرجت القوتان من مصر ولكن لتعودا اليها ثانية وثالثة ، وكل منهما كانت تحاول فى كل مرة من المرات الثلاث أن تستولى على مصر للقضاء على القوة الأخرى ، ولكن النصر كتب أخيرا وفى الحملة الثالثة لقوى نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه .

وقتل شاور لغدره وخيانته واستعانته بالصليبين المرة بعد الأخرى ، ولم يجد العاضد من بين رجاله من يصلح للوزارة ، فاختار أسد الدين ليكون وزيره ، غير أن أسد الدين لم يعمر فى الوزارة غير شهرين ثم مات ، فاختار العاضد ابن أخيه صلاح الدين وزيرا .

كان موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة موقفا غريبا ، فهو وزير لصاحب مصر الخليفة العاضد الفاطمى الشيعى ، وهو فى الوقت نفسه قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السنى ، فهو موزع الولاء ، ومع هذا كان يتبع فى سياسته ازاء الرجلين الحكمة والتؤدة .

غير أن نور الدين كان يود أن يبادر صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية ، وقطع الخطبة لآخر خلفائها العاضد ، والخطبة للخليفة العباسى ، وكان نور الدين مدفوعا فى هذا بسنيته ، وكرهه للشيعة ، ورغبته فى

اجابة الخليفة العباسى الى طلبه ، فقد كان دائم الالحاح عليه أن يقيم له الخطبة فى مصر، ولكن صلاح الدين كان أعرف من نور الدين بأحوال مصر ، ولهذا آثر التمهل ، وأن يمهد الطريق قبل أن يضرب ضربته الأخيرة فقد كان رجال القصر والدولة الفاطمية غاضبين ، ويودون لو استطاعوا أن يقضوا على صلاح الدين ومن معه ، ليستعيدوا نفوذهم وسلطانهم المسلوب ، وكان صلاح الدين يخشى ان هو أسرع بقطع الخطبة والقضاء على الدولة أن يتجمع هؤلاء فى الثورة عليه. يقول ابن واصل فى كتابه «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب »: « كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية ، وأنه لم يبق لهم منعة ، كتب الى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد، ويخطب للخليفة من بنى العباس ، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة لذلك ، لميلهم الى العلوية ، فلم يصغ نور الدين الى قوله ، وأرسل اليه يلزمه ذلك الزاما لا فسحة فيه .. »(1) .

وبدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره ، فأبعد هؤلاء القواد عن القاهرة واستولى على اقطاعاتهم ، ومنحها لقواده هو، ليضمن ولاءهم واخلاصهم ، ثم أرسل الى نور الدين يستأذنه فى أن يرسل اليه أباه نجم الدين أيوب وأهله ، فأرسلهم اليه ، وكان نجم الدين أيوب بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين ، فقد كان الرجل ذا دهاء ومكر وخبرة طويلة .

وبدأ صلاح الدين كذلك بتعميم حركة انشاء المدارس فى مصر ، وقد كان الهدف من حركة انشاء المدارس منذ بدأها السلاجقة وتبعهم فيها الأتابكة هو محاربة المذهب الشيعى ، والدعوة للمذهب السنى وتدريسه، وقد كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين فى مصر هى المدرسة الناصرية التى انشئت فى الفسطاط لتدريس المذهب الشافعى ، ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكى ، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته ، فأنشأوا مدارس أخرى كثيرة فى مختلف المدن المصرية.

وخطا صلاح الدين خطوة أخرى ، فعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى قاضيا للقضاة ، فجعل القضاة فى سائر الديار المصرية شافعية ، يقول ابن واصل معقبا على حركة انشاء المدارس ، وعلى حركة تحويل القضاة من المذهب الشيعى الاسماعيلى الى المذهب الشافعى : « فاشتهر مذهب الشافعية، واندرس مذهب الاسماعيلية بالكلية ، واضمحى أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به » ، وليس أبلغ من هذا القول للدلالة على قيمة هذه الخطوات التى كان يخطوها صلاح الدين فى حرص وحذر

(1) ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ، ج 1 .

للتمهيد لتحقيق رغبة الخليفة العباسي ونور الدين بقطع الخطبة للعاضد .

ولما تم له ذلك كله جمع أمراء جيشه يستشيرهم في أمر قطع الخطبة ، فترددوا كثيرا ، وأخيرا تقدم فقيه يدعى الأمير العالم وتطوع أن يبدأ هو بتنفيذ هذه الفكرة ، وفي يوم الجمعة الأول من المحرم سنة ٥٦٧ هـ خطب هذا الرجل ، ولم يدع للخليفة العاضد ، وانما دعا للخليفة العباسي المستضيء بنور الله فلم ينكر ذلك أحد عليه ، فلما كانت الجمعة التالية أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة العباسي في مساجد الفسطاط والقاهرة جميعا ، وبذلك انتهى آخر خيط في حياة الدولة الفاطمية .

أما الخليفة العاضد فيقال انه كان مريضا ، فلما سمع بهذا النبأ اشتد به المرض ، وتوفى في يوم عاشوراء ، أي في اليوم العاشر من المحرم من هذه السنة ، وهكذا انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان كانت مصر في خلالهما امبراطورية مستقلة واسعة مترامية الأطراف ذات حضارة مجيدة مزدهرة .

الدولة الأيوبيـــة

للدكتور محمد مصطفى زيادة

يقترب المؤرخ الحديث من تاريخ الدولة الأيوبية في مصر من زاويتين متكاملتين ، وهما البيئة السياسية التي نشأت فيها هذه الدولة ، والأصل العائلي الذي نبتت منه ، وهـذا التكامل يجعل العبارات الافتتاحية في قيـام الأيوبيين بمصر مزيجا من هاتين الزاويتين . أما البيئة السياسية التي نشأت فيها هـذه الدولة فهي الشرق الأوسط في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي وأما أهم عناصر هـذه السياسة وأوضحها أثرا في قيـام الدولة الأيوبية فهي الخلافة الفاطمية التي سـوف يحل الأيوبيون محلها في مصر ، ثم الخـلافة العباسية التي عدت تستمد قوتها من السلطنة السلجوقية المقيمة في بغداد عاصمة العباسيين، ثم المملكة الصـليبية التي تأسست في بيت المقدس وما حولها ، ثم الدولة الزنكية التي أسسها عماد الدين زنكي ، وهي الدولة التي تستطيع أن تكون نقطة بداية تاريخية لظهور الأيوبيين .

والمؤرخ الحديث يحسن صـنعا اذا هو اختار سنة من السنوات لوقفة يقفها متيمـة لاستعراض أحوال هذه الدولة الزنكية ، ثم يتقدم من هذه السنة المختارة بعد ذلك رويدا رويدا حتى يغدو تأسيس الدولة الأيوبية في مصر حقيقة تامة . ولتكن هذه السـنة المختارة ١١٢٧ م ، لا لأهمية تاريخية خاصة أو عامة ، بل لصلاحية نسبية معينة ، وهي أن عماد الدين زنكي أمير حلب بحق وراثة امارتها عن أبيه صار فيها أميرا كذلك على الموصـل ، بحق تعيينـه عليها من قبـل السـلطان محمود السلجوقي والخليفة المسترشد العباسي ، وبذا أصبح بحكم موقعه الجغرافي أمير أقوى دولة اسلامية في غرب آسيا في زمنه . ثم جمعت الصدفة التاريخيـة بين زنكي والأخـوين الكرديين نجـم الدين أيوب وأسـد الدين شيركوه ، وأولهما أبو صلاح الدين يوسف مؤسس الدولة الأيوبية في مصر ، وهذا هو الأصل العائلي لهذه الدولة

ووقعت هذه الصدفة سنة ١١٣٢ م ، حين وصـل زنكي الى قرب قلعة تكريت منهزما يريد عبور نهر دجـلة ، كيلا يقع بجيشه في يد أعدائه ، فساعده نجم الدين أيوب حاكم تلك القلعة على العبور ، ومن هـذه المروءة نشأت صداقة بين زنكي وأيوب وشيركوه . ثم حدث سنة ١١٣٨ م ما حمل أيوب وأخوه وأهلهما على الرحيل في شيء من السرعة ليلا من تكريت ، ويقال ان ميلاد صـلاح الدين يوسف تلك الليلة لم يستطع أن يؤخر ذلك

الرحيل . مما يشير بأن سببا خطيرا هو الذي دعا الى انتقال الأخوين أيوب وشيركوه وأسرتيهما عن تكريت .

وذهب أيوب وشيركوه الى زنكي بالموصل ، ودخلا في خدمته ، ولم يلبثا ان شاركا في حروبه وسياسته ، وهي العمل على تكوين جبهة اسلامية قوية لاخراج الصليبيين من الشام . وفي سبيل ذلك لم يتحرج زنكي من الهجوم على مدينة دمشق سنة ١١٣٩ ، على انه قنع من هذا الهجوم باستيلاء قائديه أيوب وشيركوه على بعلبك التابعة للامارة الدمشقية ، وعين أيوب حاكما عليها . وبفضل هذين القائدين وغيرهما من رجال الدولة الزنكية استطاع زنكي أن يتقدم بمشروع الجبهة الاسلامية المتحدة خطوات معنوية واسعة ، أهمها استيلاؤه من الصليبيين على الرها سنة ١١٤٤ م . ثم توفي زنكي بعد ذلك بسنتين ، اذ اغتيل وهو على حصار حصن جعبر الواقع على نهر الفرات الى الجنوب الشرقي من حلب .

ثم بدت وفاة زنكي فرصة لبعض أمراء البلاد المفتوحة أن يستردوها من ولديه ، وهما نور الدين محمود الذي آل اليه القسم الغربي من المملكة الزنكية وعاصمته حلب ، وسيف الدين غازي الذي آل اليه القسم الشرقي منها وعاصمته الموصل . ومن تلك البلاد بعلبك التي حاول الدمشقيون أمراؤها الأقدمون استرجاعها من حاكمها نجم الدين أيوب ، ولم يقو أيوب على دفعهم عنها بالقتال ، ففضل الرضوخ للواقع وسلم بعلبك سنة ١١٤٦ ودخل خدمة أمراء دمشق ، ولم يلبث أن أوغل في سياسة الامارة الدمشقية وحوادثها حتى أصبح القائد العام لجيوشها . أما شيركوه فانتقل بعد وفاة زنكي الى خدمة ابنه نور الدين محمود بحلب ، ولم يلبث هو الآخر ان صار القائد العام في الدولة النورية . وفي سنة ١١٥٤ جهز نور الدين حملة للاستيلاء على دمشق ، تحقيقا لسياسة توحيد الجبهة الاسلامية التي ورثها عن أبيه ، وعين شيركوه لقيادة هذه الحملة . ومن ثم بدأ شيركوه في مفاوضة أخيه أيوب لتسليم دمشق بالحسنى ، وانتهت المفاوضات أواخر تلك السنة بأن أصبحت الدولة النورية مسيطرة على محور عاصمتيه حلب الى دمشق .

اما الأخوان أيوب وشيركوه فبلغا ذروة القوة والنفوذ بعد تسليم دمشق ، اذ تعين أيوب حاكما على هذه المدينة من قبل نور الدين ، وميزه نور الدين عن سائر رجاله باعطائه حق الجلوس في حضرته ، رعاية لسابق علاقته بأبيه زنكي . وتعين شيركوه نائبا للسلطنة باقليم دمشق كله ، كما استقر باقطاع كبير في حمص . واما الشاب صلاح الدين يوسف بن أيوب فليس بوجه بالنصوص المعروفة ما يشرح تفاصيل حياته (اذا أردت توسعة فعندك على بيومي ص ٨ — ٨٤) ما عدا أنه عاش بالبلاط النوري بدمشق ،

وأنه تقلب في بيئة عالية ، ولابد أنه قضى معظم أيامه في تعلم علوم طبقته وفنونها ، ويستخلص كذلك مما هو معروف من اشارات مبعثرة أن السلطان نور الدين عين الشاب صلاح الدين، وهو في الحادية والعشرين من عمــره ، أي سنة ١١٦٠ م في وظيفة شحنة دمشق ، وهي وظيفة رئيس الشرطة والموكل بالأمن بها .

هذه خلاصة عابرة لبعض أحوال الدولة الزنكية النورية التي نشأ فيها مؤســـس الدولة الأيوبية في مصر ، ولا أقل هنــا من عرض مشابه لبعض أحوال الدولة الصليبية بالشام والدولة الفاطمية بمصر ، وكلاهما ذو شأن في تأسيس الدولة الأيوبية . والمقصود بالصليبيين هنا مملكة بيت المقدس سنة ١١٥٣ م بالذات؛ حين استولى ملكها بالدوين الثالث على ميناء عسقلان الواقعة على الطريق بين الشام ومصر؛ اذ ترتب على هذه الحركة الحربية قيام نور الدين بالاستيلاء على دمشق في السنة التالية؛ كما ترتب عليهــا كذلك تطور الســـياستين النورية والصليبية الى سباق جدي للاستيلاء على مصر من خلفائها الفاطميين .

وكانت الخلافة الفاطمية في مصر وقتذاك في دور الاحتضار ، وخليفتها العاضد ألعوبة لينة وسط حزبية فاسدة ، ولا سيما بعد أن دعا شاور أحد زعيمي هذه الحزبية السلطان نور الدين لمؤازرته ، على حين دعا ضرغام — وهو الزعيم الآخر — الملك عمـــوري الأول لمؤازرته . ولذا جرى السباق النوري الصليبي بين ثلاث حملات عسكرية صليبية ومثلهــا نورية ، وأولها سنة ١١٦٣ ، وآخرها ١١٦٩ ، وانتهى السباق حين استطاع القائد شيركوه أن يخرج الصليبيين من مصر ، وأن يتخلص نهائيا من الزعيمين ضرغام وشاور ، وأن يصبح وزيرا للخليفة العاضد الفاطمي . وبذا حقق شيركوه رغبات نور الدين ، ما عدا اعتلاءه الوزارة فان نور الدين رأى في ذلك شيئا من الطموح الخطير .

وصحب شيركوه في حملاته الثلاث صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب ، وشارك صلاح الدين في حروب هذه الحملات ومؤامراتها ، ودل على مهارة ملحوظة . فلما توفي شيركوه (مارس ١١٦٩) بعد ثلاثة أشهر فقــط من توليته الوزارة الفاطمية ، اختـــار الحيطون بالخليفة العاضد بعده للوزارة ظنا منهـــم أن السلامة السياسية تقترح عليهم احلال الشاب محل عمه ، وعمره وقتذاك احـــدى وثلاثون سنة ، باعتبار أنه أقل ضباط الجيش النوري خبرة بشئون الحـــرب والســـياسة . غير أن صـــلاح الدين لم يلبث أن ألقى على رجـــال القصر الفاطمي درسا تعلموه ولم يستطيعوا نسيانه ، وهو أنهم بيتوا له صيف تلك السنة مؤامرة بزعامة خصي نوبي اسمه مؤتمن الدولة نجاح ، واتصلوا بالملك عموري لترتيب هجوم داخلي وخارجي على القوات النورية في وقت واحد . غير أن صلاح الدين علم بتفاصـــيل المؤامرة قبل تنفيـــذها ، فقبض على زعيمها

وشركائه بالقاهرة وأمر باعدامهم وأخمد حركة عصيانية بالجيش الفاطمي ، كما استطاع اجلاء أسطول صليبي بيزنطي بنفسه عن دمياط . ودل صلاح الدين بذلك كله على مقدرة فائقة في غير جلبة ، كما دل سيده نور الدين بحركاته الحربية المتوازية ضد الصليبيين بالشام على عزمه على مساعدته ، ما دامت أهدافه تقوية مركز الدولة النورية بالقاهرة .

وكان اجلاء الصليبيين عن سواحل دمياط تلك السنة نقطة تحول في تاريخ صلاح الدين، وفي تاريخ الحملات الصليبية على مصر . ذلك أن رجوع هذا الوزير العسكري من دمياط منتصرا ، أقنع الخلافة الفاطمية والباقين من رجالها ، وكذلك القاهرة وأهلها بأنه يستطيع حماية الدولة من اغارة المغيرين ، فضلا عن حماية مركزه من مؤامرات المتآمرين وبدأ بذلك ما عمل على بنائه لنفسه في قلوب الخاص والعام . واغتنم صلاح الدين هذه الفرصة فأرسل الى سيده نور الدين يطلب ارسال الباقين بالشام من أهله حتى وفدوا الى مصر ، ليستعين بهم في وظائف الدولة ، فوصلوا الى القاهرة في فبراير سنة ١١٧٠ ، وعلى رأسهم أبوه السياسي الداهية نجم الدين أيوب ، فجعله صلاح الدين على بيت المال ، كما جعل بهاء الدين قراقوش مملوك عمه شيركوه واليا على القاهرة ، وأقطع اخوته وأعمامه وأولادهم اقطاعات الفاطميين الذين نفوا الى الصعيد بعد هدم ثورة مؤتمن الدولة.

ويبدو من تطور الحوادث بعد ذلك أن نجم الدين جاء الى مصر بتعليمات معينة من عند نور الدين وأن قيامه الى جانب ابنه يوسف ضاعف من حركة هذا التطور فأعقب وصوله الى القاهرة مثلا تأسيس مدارس (كليات) لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة وبذا بدأت مناهضة فقه المذهب الشيعي ومراكزه الرسمية . ثم أخذ صلاح الدين في ازالة كثير من مظاهر المذهب الشيعي في الآذان ، كما أخذ في اضافة أسماء الخلفاء الراشدين في الخطبة ، فضلا عن الدعاء للسلطان نور الدين بعد الخليفة العاضد . ثم حدث أن مرض الخليفة العاضد فاتفق صلاح الدين مع أبيه أيوب على استغلال ذلك بقطع اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة واحلال اسم الخليفة العباسي محله في أحد جوامع القاهرة وتم ذلك في الجمعة الأولى من شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر سنة ١١٧١ م) وتقرر أن يعم ذلك أنحاء القاهرة في الجمعة التالية ، لكن العاضد لم يمتد به أجله الى هذا الميعاد ، اذ مات خلال الأسبوع الواقع بين هاتين الجمعتين ، وسقطت الدولة الفاطمية سقوطا صامتا بعد قيامها في مصر قرنين ونصف قرن من الزمان .

وكان لسقوط الخلافة الفاطمية في مصر أصداء كثيرة في الشرق الأدنى كله ، فأرسل الخليفة المستضيء العباسي لنور الدين سيفين أحدهما رمزا لسيطرته على الشام بما في ذلك

دمشق ، وثانيهما رمزا لامتداد سلطانه الى مصر ، على أن يكون نائبه فيها صلاح الدين (على بيومي ١٨١ — ليبول ١٩٥ — مذكرات ٣٣) . أما صلاح الدين نفسه فأصبح القوة الكبرى فى مصر ، غير أنه لم يشأ أن يظهر بمظهر المنتصر بمأساة الفاطميين ، فظل مثلا فى دار الوزارة ، ولم ينتقل الى قصر الخلافة حتى لا يثير انتقاله شيئا من الظنون ، وفتح القصور الفاطمية ، لا ليستولى على ما فيها لنفسه ، بل ليوزع موجوداتها على أتباعه وأنصاره ، وليرسل لنور الدين منها هدية ضخمة . وأما أبناء البيت الفاطمى وأقاربهم فأودعهم صلاح الدين دورا مختلفة ، ومنع الاختلاط بينهم بتحديد اقامتهم .

ثم عكف صلاح الدين على التمكين لنفسه نهائيا فى مصر ، وضاعف من جهوده فى مد سور القاهرة حتى غدا محيطا بالفسطاط والقطائع والعسكر ، وبدأ فى تشييد القلعة على الطرف الغربى من جبل المقطم ، لتكون مشرفة على جميع أجزاء هذا السور ، وأنفذ حملة الى برقة ، وأتبعها بحملة ثانية الى فلسطين لتأمين الدولة التى أزمع انشاءها فى مصر وتقويتها عسكريا واقتصاديا ، ولم يشأ أن ينتظر قدوم نور الدين الى فلسطين ، بل قفل راجعا الى مصر اجتنابا للقائه .

وبدأ الشك يساور نور الدين بسبب هذه الحركات الداخلية والخارجية ، وشاع فى الأوساط الصديقة والمعادية للأيوبيين فى القاهرة ودمشق وحلب أن نور الدين يوشك أن يسير الى مصر على رأس حملة كبيرة يؤكد بها تبعية مصر وصلاح الدين للدولة النورية أو يقوم بعزل صلاح الدين ، واستدعت هذه الاشاعة مجلسا جمع بالقاهرة أبناء البيت الأيوبى وأقاربهم وخواصهم ، وأوردت المراجع العربية محضرا بما دار فى ذلك المجلس ، وفيه دلالات على ما جال فى قلوب الزعامات الأيوبية من مختلف النيات المعقودة على تكوين دولة للبيت الأيوبى فى مصر أو فى غيرها من بلاد الشرق الأوسط . وهو على أية حال يشرح نظرية المقريزى فى تكوين الدولة الأيوبية ، ونصه : « وفيها ابتدأت الوحشة بين .. نور الدين .. وصلاح الدين .. وعزم (نور الدين) على دخول مصر وقلع صلاح الدين منها فبلغ ذلك صلاح الدين ، فخاف وجمع أهله وخواصه واستشارهم ، فقال تقى الدين عمر ابن أخيه : « اذا جاء (نور الدين) قاتلناه كلنا ، وصددناه عن البلاد » ووافقه جماعة من أهله على ذلك . فسبهم نجم الدين أيوب ، وأنكر عليهم ، وكان ذا رأى ومكر وقال لابن ابنه تقى الدين : « اقعد » وسبه . والتفت الى ولده .. صلاح الدين .. وقال : « أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين الحارمى خالك . أتظن فى هؤلاء من يحبك ويريد الخير لك أكثر منا ؟ قال « لا » ، فقال (نجم الدين) : والله لو رأيت أنا وخالك هذا السلطان نور الدين لم يمكنا الا أن نترجل له ، ونقبل

الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقــك بالسيف لفعلنا . فاذا كنا نحن هكذا ، فكيف يكون غــيرنا ؟ وكل من تراه من الأمــراء والعساكر لو رأى السلطان وحده لم يتجاسر على الثبات فى سرجه ، وما يسعه الا النزول وتقبيل الأرض بين يديه . وهذه البــلاد له ، وقد أقامك فيها نائبا عنه . فان أراد عزلك فأى حاجة الى المجيء ؟ يأمرك بكتاب مع نجــاب حتى تقصد خدمته ، ويولى البلاد من يريد » . وقال للجماعة كلهــم : « قوموا عنا ، فنحن مماليك السلطان نور الدين وعبيده ، يفعل بنا ما يريد » . فتفرقوا على هــذا ، وكتب أكثرهم الى نور الدين بهــذا الخبر . ثم ان نجم الدين خــلا بابنه صــلاح الدين وقال له : « أنت جاهل قليــل المعرفة تجمع هــذا الجمع الكثير ، وتطلعهم على ما فى نفسك فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم أموره وأولاها بالقصــد ، ولو قصدك لم تر معك أحدا من هذا العسكر ، وأسلموك اليه . وأما بعد هذا المجلس فانهم سيكتبون اليه بقولى فاكتب أنت أيضــا فى هذا المعنى ، وقل له أى حاجة الى قصدى ؟ نجاب يجىء فيأخذنى بمنديل يضعه فى عنقى، فانه اذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج ، والله عز وجل كل يوم هو فى شأن » . ففعل صلاح الدين ما أشار به أبوه ، فانخدع نور الدين وعدل عن قصده ، وانفرجت الأيام كما قال نجــم الدين .

غير أنه يبدو أن صلاح الدين لم يطمئن الى هذا الموقف السالب ، فعاد الى عمليات تأمين مركزه داخليا وخارجيا ، بل تنبىء بعض هذه العمليات عن تفكيره فى الانتقال عن مصر الى غــيرها من البــلاد المجاورة اذا أخفقت مشروعات تكوين دولة أيوبية فى القاهرة ، مثال ذلك تقريره غزو بلاد النوبة وارساله حملة كبيرة الى تلك البلاد بقيادة تورانشاه وهو أكبر اخوته . وسار تورانشاه الى أســوان أواخر ١١٧٢ ، وزحف جنوبا حتى استولى على ابريم ، ثم عاد الى مصر بعد أن وجد أن تلك البلاد لا تصلح للأغراض التى تخيلها صلاح الدين . ومثال ذلك تقرير صلاح الدين ارسال حملة بقيادة أخيه تورانشاه أيضــا لمحاولة فتح اليمن ، حيث تكللت هذه المحاولة بالنجاح اواخر سنة ١١٧٣ . وأما من الناحية الداخلية فان صلاح الدين استطاع أن يهدم مؤامرة ثانية لاعادة الدولة الفاطمية اذ قضى على هذه المؤامرة وهى فى مهدها ؛ بأن قبض على زعمائها ورئيسهم عمارة اليمنى، واستفتى العلماء فيهم فأفتوا بقتلهم ، فشنقوا جميعا فى أبريل سنة ١١٧٤ . وفى الشــهر التالى توفى نور الدين وانفرجت الأيام ، كما قال نجم الدين أيوب الذى كانت وفاته فى السنة السابقة لوفاة نور الدين .

على أن الجو لم يصبح بذلك خاليا تماما لصلاح الدين ، ولذا لم يعلن استقلاله بمصر مباشرة ، بل عمد أولا الى معالجــة الموقف

الذى نشأ عن وفاة نور الدين ، وقيام ابنه الطفل اسماعيل فى المملكة النورية الشاملة لدمشق وحلب . ثم كان هناك سيف الدين غازي ملك الموصل، وهو ابن أخي نور الدين، ولابد لصلاح الدين أن يحسب له حسابه وهذا فضلا عن ملك السلاجقة بالروم (أى آسيا الصغرى) ، وهو قلج أرسلان الثانى، على أن صلاح الدين لم ير فى هذا أو ذاك ندا له أو منافسا أو بديلا ، اذ توقدت عنده أنه هو الوارث الكفء لمشاريع نور الدين وسياسته فى تكوين جبهة اسلامية متحدة لمجاهدة الصليبيين ، وأنه هو الذى يستطيع النهوض بذلك العبء المزدوج .

وبدأ صلاح الدين عمله فى سبيل تكوين جبهة اسلامية متحدة بالشام ، حيث كان المحيطون بالطفل اسماعيل بن نور الدين حزبين ، أحدهما دمشقى يريد أن تكون دمشق عاصمة للمملكة النورية ، وتكون اقامة الملك الطفل اسماعيل بها ، وثانيهما حلبى يريد أن تظل حلب عاصمة للمملكة النورية كما كانت منذ نشأتها . وتغلب الحلبيون بمساعدة الصليبيين، واستنجد الدماشقة بصلاح الدين، فخف اليهم بفرقة قليلة من الجند ، وأعلن أن غرضه حماية مصالح الملك الطفل ، ودخل دمشق فى نوفمبر سنة ١١٧٤ . وذهب منها الى حمص ثم حماة ثم حلب ، حيث كان الملك الطفل مقيما . غير أن مدينة حلب أغلقت أبوابها فى وجه صلاح الدين ، فحاصرها حصارا قصيرا ، ثم ارتد عنها قانعا مؤقتا بولاء الشام له ما عدا حلب . وهنا تحرك سيف الدين غازى ملك الموصل ، ولم يكن من المنتظر منه أن يقف صامتا ، على حين صلاح الدين يعلن أنه يعمل لمصلحة الملك الصغير . ولذا أرسل سيف الدين غازى حملة الى حلب لمؤازرة الحلبيين فيما سوف يقومون به من حركات لمقاومة صلاح الدين ، وانضمت هذه الحملة الى الجند الحلبى ، والتقت بجيش صلاح الدين قرب حماة عن بلدة اسمها قرون حماة فى ابريل سنة ١١٧٥ . وأعقب صلاح الدين انتصاره هناك بانتصار ثان على القوات الحلبية الموصلية فى أبريل من السنة التالية (١١٧٦) عند بلدة اسمها بئر التركمان ، ودخل مدينة حلب وعقد مع الملك اسماعيل بن نور الدين صلحا تم فيه الاعتراف بشرعية تملك صلاح الدين على جميع ما بيده من البلاد التى امتدت وقتذاك من مصر الى قرب أطراف الفرات .

ومنذ هذه السنة (أى ١١٧٦ م) غدا صلاح الدين ملكا مستقلا بمصر والشام اذ شهدت بذلك معاهدة الصلح بينه وبين الملك اسماعيل بن نور الدين ، كما شهدت به توقيعات وصلت اليه من عند الخليفة العباسى، وهذا وذلك فضلا عن سك النقود الذهبية والفضية والنحاسية باسم صلاح الدين بمصر والشام . وانصرف صلاح الدين مدة السنوات التالية حتى سنة ١١٨٢ الى أعمال

داخلية ، ومنها بداية بناء القلعة وتكميل السور المحيط بالقاهرة واسلافها من العواصم الاسلامية ، وتجديد بعض تحصينات دمياط والاسكندرية وترميم الأسطول باضافة سفن جديدة . ومن أعمال صلاح الدين في تلك السنوات كذلك تأسيس المدارس — أي كليات التخصص في علوم الدين على المذهب السني — لمناهضة الشيعة التي توطنت بمصر على أيدي الفاطميين ، ومن هذه مدرسة الامام الشافعي والناصرية والقمحية والسيفية بالقاهرة والفسطاط ، والحافظية والسلفية بالاسكندرية ، وبعض هذه المدارس يرجع أصله الى ما قبل أيام صلاح الدين . على أن هذه السنوات التي صرف صلاح الدين معظمها في أعمال سلمية داخلية لم تخل من أعمال عسكرية وسياسية أهمها بدء اصطدامه بقوى مملكة بيت المقدس الصليبية بقيادة أرناط أمير الكرك وانهزامه أمام تلك القوى عند الرملة سنة ١١٧٧ ، مما كان بمثابة درس نافع للمستقبل . ويبدو أن هذه الصدمة أجنحت صلاح الدين الى فكرة مهادنة الصليبيين مؤقتا ، بدليل عقده سنة ١١٨٠ هدنة لمدة سنتين مع مملكة بيت المقدس ، وعقده هدنة مشابهة في أواخر تلك السنة مع قلج أرسلان ملك السلاجقة بالروم ، وأمراء الموصل والجزيرة وأربل وكيفا وماردين . ودلت هذه الهدنة الثانية على مبلغ ما وصل اليه صلاح الدين من مكانة بالشرق الأوسط ولما يمض على استقلاله بمصر والشام سوى بضع سنين .

ثم توفي سيف الدين غازي أمير الموصل في أواسط سنة ١١٨١ ، وتوفي بعده اسماعيل ابن نور الدين في ديسمبر من تلك السنة . واضطربت شئون الهدنة القائمة بين صلاح الدين والأمراء المسلمين ، حين عمد بعض أولئك الأمراء الى مفاوضة الصليبيين ليكونوا يدا واحدة على منع صلاح الدين من الاستيلاء على الموصل أو حلب . وجعل صلاح الدين من هذه المفاوضات سببا للزحف من القاهرة في مايو سنة ١١٨٢ ابتغاء القضاء على جميع أنواع المقاومة ضده تمهيدا لاعلان الجهاد ضد الصليبيين . على أنه لم يشأ أن يكون البادىء بالعدوان ، احتراما للهدنة المعقودة ، فظل بدمشق حتى انتهى أجل هذه الهدنة في سبتمبر من تلك السنة ، ثم تحرك منها نحو الفرات ، فعبره عند مدينة البيرة وتتابعت انتصارات صلاح الدين في الأراضي الفراتية اذ سلمت له الرها وسروج والرقة وقرقيسيا ونصيبين وتقدم صلاح الدين أخيرا نحو الموصل في نوفمبر من السنة نفسها ، لكنها استعصت عليه ففضل الاستيلاء على غيرها من المدن مثل سنجار وآمد ، وما زال يعمل في تلك الأطراف حتى سلمت له حلب في يونية من السنة التالية .

وأضحى صلاح الدين بعد تسليم حلب أقوى ملوك المسلمين في الشرق الأوسط وأحس هو نفسه بأهمية هذا الحادث ، بدليل قوله للمحيطين به وهو صاعد الى القلعة الحلبية ما سررت بفتح مدينة كسروري بفتح

هـذه المدينة ، والآن قد تبينت اني أملك البلاد ، وعلمت أن ملكي قد استقر وثبت .. » ..

والواقع أن دولة صلاح الدين بعد تسلم حلب غدت من حيث القوة والسعة والمناعة الحربية أعظم دولة في الشرق الأوسط كله ، كما أضحى اسمه موضع التبجيل العميق ، ومصداق ذلك قول ابن جبير في مذكراته بصدد صلاة الجمعة أن الحجاج حين سمعوا دعاء الخطيب لصلاح الدين « ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بألسنة تمدها القلوب الخالصة والنيات الصادقة ، وتخفق الألسنة بذلك خفقا يذيب القلوب خشوعا لما وهب الله لهذا السلطان العادل (صلاح الدين) من الثناء الجميل ، وألقى عليه من محبة الناس » . وليس عجبا أن يشعر صلاح الدين بعد أن صارت له كل هذه التوفيقات أن واجبه أضحى متركزا في الجهاد ضد الصليبيين ، واذا كان ثمة ما يمنعه من الاقدام الكلي على الجهاد حتى وقتذاك كبقاء الموصل وبعض البلاد المجاورة خارجها عن دولته ، فان صلاح الدين سار لاخضاع هذه البقايا سنة ١١٨٥ ، ولم تنته السنة التالية حتى دخل أمراء الموصل وشهرزور واربل وغيرها في طاعته ، ولم يبق أمامه من كردستان الى السودان سوى مملكة الصليبيين وغيرها من الامارات الصليبية بفلسطين .

وكان صلاح الدين عليما بمواطن القوة والضعف في الأوساط الصليبية ، وذاق مرارة الهزيمة على أيديهم في وقعة الرملة سنة ١١٧٧ ، كما ذاق حلاوة النصر عليهم في وقعة مرج عيون سنة ١١٧٩ . على أن صلاح الدين لم يشأ أن يجعل مشروع توحيد الجبهة الاسلامية مرهونا بما يأتي به الحوادث من هزيمة أو نصر في ميدان النضال ضد الصليبيين ولذا فضل الانصراف الى شئون توحيد الجبهة الاسلامية ، وجنح سنة ١١٨٠ الى مهادنة مملكة بيت المقدس مؤقتا لمدة سنتين . غير أن عدوا صليبيا أفسد جو الهدنة ، وهو أرناط أمير حصن الكرك ، اذ عمد هذا الأمير في أوائل سنة ١١٨٣ الى القيام بحملة بحرية من خليج العقبة للاغارة على شواطىء البحر الأحمر ، تمهيدا للزحف على المدينة أو مكة . وأرسل العادل أخو صلاح الدين ، وهو وقتذاك والي مصر سفنا مصرية تعقبت السفن الصليبية حتى اشتبكت معها في ميناء الحوراء شمالي ينبع ، وألحقت بها وبجنودها هزيمة فادحة . حدث كل ذلك وصلاح الدين مشغول بأعمال توحيد الجبهة الاسلامية مرهونا بما تأتي به الحوادث من الصليبيين لمدة أربع سنوات تبدأ من ١١٨٥ . وللمرة الثانية كان أرناط أمير حصن الكرك سببا في افساد جو الهدنة القائمة بين الطرفين ، وذلك أنه هاجم قافلة تجارية سلمية وهي تمر على مقربة من حصن الكرك سنة ١١٨٧ فاستولى على متاجرها ، كما احتجز أختا لصلاح الدين كانت على سفر مع تلك القافلة على ما قيل . ولذا أقسم صلاح الدين ليقتلن أرناط اذا وقع في يده يوما من الأيام واعتبر حادثة القافلة اعلانا بانتهاء الهدنة وبداية

المدوان ، وأرسل فى طلب الجند من مصر والشام والبلاد الفراتية . وخرج صلاح الدين من دمشق فى مارس سنة ١١٨٧ مستعدا للقتال ، فعسكر عند عشترى جنوبى قصر يعقوب ، حيث تلاحقت اليه أجناد مختلف البلاد ، واستقر الرأى بين أرباب مشورته على السير نحو طبرية ، تمهيدا للزحف منها نحو صفورية حيث اجتمعت عساكر مملكة بيت المقدس ، وهى قرية فى منتصف الطريق بين طبرية وعكا . على أن الاصطدام وقع أخيرا بين الفريقين عند قرية حطين وهى فى منتصف الطريق تقريبا بين طبرية وصفورية ؛ وذلك فى يوم السبت ٤ يولية سنة ١١٨٧ ، وأسفر ذلك الاصطدام عن هزيمة صليبية فادحة ، ذهب فيها معظم جيش مملكة بيت المقدس ؛ فضلا عن جيوش الامارات الصليبية التى اشتركت فى المعركة ، كما وقع فيها ملك بيت المقدس وأرناط أمير الكرك ، وغيرهما أسرى فى يد صلاح الدين .

لذلك كانت هزيمة الصليبيين عند حطين بداية النهاية لمملكة بيت المقدس فى فلسطين ويكفى للبرهان على ذلك تسجيل خطوات صلاح الدين بعد يوم هذه الواقعة ، ففى اليوم التالى عاد صلاح الدين الى طبرية ، فسلمت اليه قلعتها من غير مقاومة ، وهى التى امتنعت عليه بعد استيلائه على طبرية نفسها قبيل حطين . ثم وجه صلاح الدين هجمات خاطفة نحو بلاد الساحل ، ليقطع بالاستيلاء عليها بما عساه يرد من نجدة أوربية لمملكة بيت المقدس ، فضلا عن أنه يصل بها بين مصر والشام . وكان أقرب هذه البلاد من مواقع صلاح الدين وقتذاك مدينة عكا ، فسلمت له فى ١٠ يوليه ، وكانت شروط التسليم أن يرحل الصليبيون عن البلد اذا شاءوا ، أو يقيموا حيث هم بشرط دفع الجزية المقررة ، فمن شاء الرحيل ضاعت عليه أملاكه الثابتة ، ومن شاء البقاء بقيت أملاكه فى يده وأسرع الى التسليم بهذه الشروط معظم مدن الساحل شمالى عكا وجنوبها ، فضلا عن كثير من المدن الداخلية بما فى ذلك مدينة بيت المقدس نفسها التى كان تسليمها له بعد حصار قصير ، وكل ذلك فى مدة لم تتجاوز ثلاثة أشهر من وقعة حطين . والواقع أنه لم تأت سنة ١١٨٩ م حتى سقطت معظم المدن الصليبية فى يد صلاح الدين ، ولم يبق فى حيازة الصليبيين سوى امارتى أنطاكية وطرابلس وبعض المدن الساحلية ؛ وأهمها صور التى نجحت فى مقاومة الحصار لها مرتين ، بسبب ما اجتمع بها من جاليات المدن التى استولى عليها صلاح الدين ، ووصول حملة صليبية صغيرة اليها وقتذاك .

ومن صور تبعث المقاومة ضد صلاح الدين ، فمنها سارت رسل الى أوربا تستنهض ملوكها لتجهيز الحملة المعروفة باسم الحملة الصليبية الثالثة ، ومنها تحركت القوات الصليبية نحو عكا لمحاصرتها أملا فى استعادتها من صلاح الدين . وغدت عكا منذ أواسط ١١٨٩ م ميدانا لعمليات حربية

نصف دائرية تقريبا ومركزها حامية أيوبية تحاصرها قوات صليبية ، وهـذه القـوات الصليبية يهاجمها صلاح الدين ليخفف عنها حصـارها للحامية الأيوبية المركزية . ثم لم تلبث الحملة الصليبية المعـروفة بالثالثة أن وصلت كذلك الى عكا بقيادة رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب اغسطس ملك فرنسا ، وانضمت السفن والجند الانجليزية والفرنسية الى القوات الصليبية المحاصرة ، وشددت على عكا الحصار من ناحيتي البر والبحر حتى سقطت فى يدها بعد حصار طويل حتى أواسط ١١٩١ (يولية)أى مدة سنتين مريرتين تخللتهما حـوادث بطـولة حقيقية وقصصية ، وكثير منها يدور حول صـلاح الدين ورتشارد قلب الأسد .

ثم رحل فيليب اغسطس ملك فرنسا عن الشرق الى بلاده بعد سقوط عكا ، على حين بقى رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا سنة كاملة بالشـام ، وجعل من عكا قاعدة لاستعادة مملكة بيت المقدس . وفى هذه المدة استطاع رتشارد أن ينتصر على صلاح الدين مرة واحدة فى أرسوف ، وأن يستولى على يافا ، غير أنه أخفق فى جميع محاولاته للزحف ضد بيت المقدس . ولم تنه أعماله الحربية كلها شيئا من مجرى الحوادث . لأن ما أحدثه صـلاح الدين بالصليبيين تطلب مجهـودا لا تستطيع حملة واحدة أو شخصا واحدا أن تمحوه فى بضعة أشهر ، ومن الدليل على ذلك أن ملك انجلترا عمد بعد انتصاره فى أرسـوف مباشرة الى فكرة المفاوضـة والمصالحة ، ليصل الى تسوية مرضية لعلها تكفل بقاء دولة صليبية أوربية بالشرق الى جانب دولة صلاح الدين . وانتهت هـذه المفاوضات بعقد صلح الرملة (سبتمبر سنة ١١٩٢) الذى اتفق فيه الطرفان على أن تظل المدن الساحلية بين عكا ويافا بيد الصليبيين، وأن يؤذن لفئات الحجاج المسيحى بزيارة بيت المقدس على شرط قدومها من عكا .

ويتضح من هذا الصلح أن صلاح الدين حقق فى عهده أقصى ما تطلعت اليه أجيال المسلمين بالشرق الأوسط ، منذ حلول الصليبين بفلسطين ، وأحس صلاح الدين وهو فى أوجه هذا أن مهمته تحققت فعلا ، غير أن الحروب والجهود التى تجشمها من أجل ذلك أنهكت صحته فأصابه المرض ، وتوفى بدمشق (مارس ١١٩٣) ، ولما يبلغ من العمر سـوى خمس وخمسين سنة ، وقبره على مسافة يسيرة من قبر أستاذه نور الدين بن زنكى ، ومن الجامع الأموى .

والباحث لا يستطيع الا أن يشعر بالفراغ الكبير الذى أحدثته وفاة صلاح الدين ، ومما يزيد فى هـذا الشعـور أن الدولة الأيوبية المتحدة سرى عليها بعد صلاح الدين ما سرى على أمثالها فى العصور الوسطى من تقسيم بين أفراد البيت الأيوبى ، اذ قسم صـلاح الدين دولته فى وصيته بين أولاده وأخوته وأولادهم . غير أنه لم تمض سبع سـنوات على وفاة صـلاح الدين حتى طـوى أخوه

الأكبر وهو العادل هذه الوصية ، وملأ هو الفراغ الذى أحدثته وفاة صلاح الدين ، وذلك بعد أن أخضع لسلطانه جميع أبناء البيت الأيوبى ، ووحد معظم أملاكهم تحت يده . وأعلن العادل موقفه هذا سنة ١٢٠٠ ، حين خطى الخطوة النهائية فى سبيل توحيد الدولة الأيوبية مرة أخرى ، بخلع حفيد صبى من أحفاد صلاح الدين بالقاهرة ، اذ قال فى مجلس من أمراء الدولة « انه قبيح بى أن أكون أتابك صبى ، مع الشيخوخة والتقدم . والملك ليس هو بالارث ، وانما هو لمن غلب .... والرأى أن يمضى هذا الصبى الى الكتاب وأقيم له من يؤدبه ويعلمه ، فاذا تأهل وبلغ أشده نظرت فى أمره وقمت بمصالحه» . وامتد عهد العادل فى الدولة الأيوبية ثمانى عشرة سنة (١٢٠٠ — ١٢١٨) وظلت السلطة بيد أولاده دون غيرهم من أبناء البيت الأيوبى ، ولهذا كان تاريخ الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين ، ثم بعد العادل كذلك ، سلسلة من المنازعات الداخلية حتى انتهت الدولة الأيوبية المتحدة سنة ١٢٥٠ . وتأثرت بهذه المنازعات الداخلية سياسة الدولة الأيوبية نحو الصليبيين ، فلم يستطع سلاطينها القيام بجهود مشابهة لما قام به صلاح الدين ، بل عمدوا الى سياسة المسالمة رغبة فى تجنيب البلاد ويلات الحروب .

وفى هذه السنوات تحول النشاط الصليبى نحو مشروع الاستيلاء على مصر بالذات ، اذ اعتقدت الزعامات الصليبية فى أوربا والشرق أنه لا فائدة من محاربة القوى الاسلامية بالشام ، ما دامت السلطنة الأيوبية قائمة بمصر . وشجعت المدن التجارية الايطالية على تنفيذ هذا المشروع ، لأن الاستيلاء الصليبى على مصر سوف يمكن لهذه المدن من انشاء جاليات تجارية لها بالموانى المصرية ، على غرار ما تم لها بالمدن الفلسطينية وسوف يفتح لها الطريق الى البحر الأحمر ومراكز التجارة الشرقية . ووافق هذا التحول فى النشاط الصليبى دعوة البابا انوسنت الثالث ١٢١٦ م لاعداد مشروع حملة صليبية هى المعروفة بالخامسة . وتم تنفيذ هذا المشروع سنة ١٢١٨ م بوصول أسطول صليبى كبير والقائه الحصار على دمياط . وأسرع السلطان العادل بالقدوم من شمال الشام الى مصر لدفع هذه الحملة الصليبية ، لكنه توفى فى الطريق قريبا من دمشق ، وأعقب وفاته تقسيم الدولة الأيوبية مرة أخرى بين أفراد البيت الأيوبى ، وكانت مصر من نصيب ابنه محمد الملقب بالملك الكامل ، فوقع عليه عبء الدفاع عن البلاد المصرية .

واستطاع الصليبيون الاستيلاء على دمياط ، ومع هذا أظهر السلطان الكامل روح المسالمة التى سار عليها الأيوبيون عموما نحو الصليبيين منذ أوائل أيام ابنه العادل فعمد الى معالجة المشكلة الصليبية الرابضة بسفنها وجنودها فى دمياط ، بعرض المفاوضة والمصالحة مع المحافظة على كرامة الطرفين . وخلاصة ما عرض السلطان الكامل أن

يجلو الصليبيون عن دمياط والشواطئ المصرية جلاء تاما ، ولا يقدم السلطان للصليبين مقابل ذلك مدينة بيت المقدس ، ومعظم المدن الفلسطينية التي أخذها منهم صلاح الدين ، أي مملكة بيت المقدس الصليبية وبلادها كلها تقريبا ، ما عدا بلدتين صغيرتين واقعتين عند الأطراف المصرية الفلسطينية ، وهما الكرك والشوبك لما لهما من أهمية استراتيجية ، غير أن الصليبين رفضوا هذا العرض السخي ، ولو كان غرضهم دينيا فقط لما ترددوا في قبوله ، بعد أن وضح لهم أن السلطان الكامل يتنزل لهم عن مدينة بيت المقدس وغيرها من المدن المتعلقة بأصول الديانة المسيحية . أما الأسباب التي دعت الى رفض عرض السلطان فهي أن المندوب البابوي في المعسكر الصليبي واسمه بلاجيوس رأى أن المفاوضة لا تكون الا بعد هزيمة الأيوبيين ، وأن المصالحة لا تكون الا بعد دفع فدية يتسلمها الصليبيون قبل أن يتحركوا من دمياط . ثم ان المدن الايطالية التي اشتركت في هذه الحملة بجنودها وأموالها وأطماعها عز عليها ان تكون هناك شروط معناها الجلاء عن دمياط ، وهي وقتذاك الثغر التجاري الهام الذي تستطيع المصالح التجارية الايطالية أن تنفذ منه الى جوف البلاد المصرية .

وفي صيف سنة ١٢٢١ م ، والنيل على وشك الامتلاء بماء الفيضان السنوي ، تحرك الصليبيون من دمياط ، حسبما اتفقت عليه نياتهم البليدة ، لأنهم لم يصلوا الى قرارهم هذا الا بعد ثمانية عشر شهرا من تفكيرهم فيه . وقبالة بلدة طلخا ، وشمالي المعسكر الأيوبي عند بحر أشموم طناح ، توقفت القوات الصليبية في البر والبحر استعدادا لدفع الأيوبيين الى الوراء ، وإزاحتهم عن الطريق الى القاهرة . غير أن السلطان الكامل أمر بفتح كثير من السدود والجسور ، فغرقت مساحات شاسعة من الأراضي ، ولم يلبث الصليبيون أن وجدوا المياه تعوقهم عن التقدم الى الأمام ، وتعزلهم عن قاعدتهم العسكرية بدمياط ، ما عدا طريقا ضيقا عند بلدة أشموم طناح . هكذا انحسر الصليبيون ، وذهبت آمالهم في الزحف جنوبا نحو القاهرة ، ولم يبق لهم محيص الا أن يشقوا لأنفسهم طريقا شمالا عن قاعدتهم في دمياط ، واهتبلوا فرصة المسيحيين الانسحاب في جنح الظلام فحال الماء والعسكر بينهم وبين مقصودهم ولحقتهم هزيمة فادحة . عند ذلك — وليس قبله — رضي الصليبيون بالجلاء التام عن الأراضي المصرية ، في غير فدية أو شرط ، أواخر سنة ١٢٢١ .

على أن فكرة معالجة المشكلة الصليبية بالمفاوضة والمصالحة لقيت هوى في نفس الامبراطور الألماني فردريك الثاني ، ودارت بينه وبين السلطان الكامل مراسلات وصلت الى مرحلة الاتفاق على معاهدة سلمية بين الطرفين ، وجاء الامبراطور فردريك الى فلسطين على رأس فئة رمزية من جنده

سنة ١٢٢٩ ، لتوقيع هذه المعاهدة الفريدة في تاريخ العصور الوسطى . وقضت هـــذه المعاهدة على أن يسلم السلطان الكامل مدينة بيت المقدس للامبراطور فردريك باعتبــاره ملك الدولة الصليبية ، وأن يسلم له كذلك بيت لحم والناصرة وطريق الحج من عكا الى بيت المقدس ، على أن تظل منطقة المسـجد الأقصى فضلا عن بعض المدن الفلسطينية بيد الأيوبيين . وتعهد الامبراطور فردريك الثاني مقابل ذلك بأن يعمل عـلى منع أية حملة صـليبية من أوربا ، وأن يوقف الأمـــداد الأوربيــة عن الامارات الصـليبية بأنطاكية وطرابلس ، وأن يكون حليفـا للسـلطان الكامل . غير أن هــــذه المعاهدة الكاملية الفردريكية لقيت نقدا مريرا في الأوســاط المسيحية الأوربية ، فضـلا عن الأوســاط الاسلامية في مصر والشام ، مع العلم بأنهـا ضمنت السلام بين المسلمين والصليبيين لمدة ستين . ومن الدليل على ذلك أن حـركة أو حملة صليبية كبرى لم تحدث برغم ما انتشر من أخبار النزاع والتخاصم فيما بين أبنـاء البيت الأيوبي بمصر والشام ، وبرغـم وفاة السلطان الكامل سنة ١٢٣٨ ، واضـطراب أحوال الدولة الأيوبية مدة الملك العـادل الثاني بن الكامل ، وهو الذي خلعه أخوه الصالح بن الكامل سنة ١٢٤٠ م .

غير أن خلو الأفق السياسي من سـحب صليبية كبيرة لم يكن معناه سلام عام دائم في الشرق الأوسط ، وذلك أن غيوما مغوليـة تجمعت وقتذاك فوق أطراف غرب آسيا حيث الدولة الخوارزمية ، ولم تلبث أن محت هذه الدولة محوا تاما جعل جنودها فلولا وعناصر مبعثرة تحاول الدخول في خدمة الراغبين في استخدامها ، كما جعل الشرق الأوسط كله عرضة لما سوف يقوم به المغول من زحف آجل أو عاجل طواعية لمقتضيات حركتهم التوسعية المترامية . وادخل الملك الصـالح أيوب بن الكامل من هذه الشراذم الخوارزمية فئـات عدتها عشرة آلاف فارس ، ووصلت هــذه الفئات الى الشام ، فهاجمت ضواحي دمشق المعادية ، كما هاجمت مدينـة بيت المقـدس الصليبية واحتلتها باسم الملك الصالح سـنة ١٢٤٤ ، وهكذا اختل التـوازن السـياسي اختـلالا أقلق الدوائر الصـليبية في أوربا والشرق الأوسط من جديد .

ومن باب الأمل في تصـحيح التـوازن السياسي تصحيحا صليبيا حاسما وصلت الى الشواطىء المصرية حملة صليبية فرنسية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا والفت هذه الحملة مراسيها كما فعلت الحملة الصليبية السابقـة خارج دمياط ، وكأنما أراد الملك لويس التاسع بذلك أن يعيد بهذه البداية من تجارب الحملة السابقة ، على حين أنه وقع في معظم أخطائها الى درجة تجعـل الكاتب مضطرا هنـا الى استعمال تعبيرات متشابهة لوصـف حوادث متشابهة في الحملتين .

وكان الملك الصالح بن الكامل مريضا ، لكنه لم يستـسلم للمرض بل عكف على تجهيز

قواته في البر والنهر ، فجمع جيوشه أولا عند بلدة أشموم طناح جنوبي البحر الصغير ، وكان معظمها من المماليك الأتراك ، وجعل مركز قيادته في بلدة المنصورة التي غدت مشهورة بانتصار أبيه الكامل على الصليبيين في الحملة السابقة . وأكثر الملك الصالح في تموين دمياط بالأسلحة والأقوات استعدادا لما عساه يقع عليها من هجوم أو حصار يتطلب مقاومة طويلة ، وأنفذ القائد فخر الدين بن حمويه بجزء من الجيش للنزول على البر الغربي قبالة دمياط نفسها على البر الآخر . غير أن القائد فخر الدين كان مشغولا بفكرة احتمال وفاة الملك الصالح ، وضرورة وجوده هو قريبا من المعسكر الأيوبي ليشترك في المؤامرات والمنافسات التي تتلو أخبار الوفاة ، وانسحب بعسكره الى أشموم طناح ، وباتت مدينة دمياط محرومة من الجيش المكلف بحراستها ، ولم تلبث أن رحل عنها أهلها خائفين . ولذا دخل الصليبيون دمياط دون حاجة الى قتال أو حصار ، واستولوا على ما فيها غنيمة باردة .

ثم استقر الرأي الصليبي على الزحف جنوبا نحو المنصورة ، وخرجت الجيوش الصليبية من دمياط في نوفمبر ١٢٤٩ . وبينما الصليبيون في أول زحفهم جنوبا توفي الملك الصالح ، فتراءى للملك لويس التاسع أن المقادير في مشيئتها كتبت للصليبيين نصرا سريعا ثم تمخضت الأخبار عن قيام زوجة الملك الصالح واسمها شجر الدر على شئون الدولة ريثما يصل ولي العهد الى مصر ، فاطمأن الصليبيون الى سرعة النصر الذي شاءته لهم المقادير . وأخيرا استطاع الملك الفرنسي أن يصل بالجيش الصليبي الرئيسي الى بلدة البرمون الواقعة على البحر الصغير ، وأصبح هذا البحر فاصلا بين المعسكر الأيوبي الممتد من أشموم طناح الى قرية جديلة وبلدة المنصورة وبين المعسكر الصليبي المتركز في البرموق وتناوش الجيشان من هذين الموقعين مدة شهرين ونصف شهر — أي حتى أواخر يناير سنة ١٢٥٠ . وكان الملك الفرنسي في هذه الأثناء مشغولا باقامة جسر من الخشب في عرض البحر الصغير ليعبر منه الى المعسكر المصري الأيوبي ، على أن هذا المشروع غدا مستحيل التنفيذ ، ووقف العمل فيه بعد أن جاء أحد الخونة الى المعسكر الصليبي وأرشد الملك الى مخاضة لعبور جيشه متها الى مواقع الجيش الأيوبي . وعبرت الطلائع الصليبية ذات يوم قبل الفجر بقيادة أخي الملك ، وتقدمت حتى هجمت فجأة على المعسكر الأيوبي في جديلة . واشتبك الطرفان اشتباكا عاما مات القائد فخر الدين قتيلا في أوائله وتقهقرت الجنود الأيوبية الى المعسكر الرئيسي بالمنصورة ، ووراءها الطلائع الصليبية . وظن أخو الملك الفرنسي أن النصر الصليبي السريع أضحى قاب قوسين أو أدنى ، غير أنه لم يلبث أن رأى ظنه في النصر السريع يخيب كل الخيبة ، اذ دخل بلدة المنصورة فوجدها خالية من المقاومة ، ثم لم يكد يقترب

من القصر الملكي حتى أحاطت بجيوشه حركة تطوقيـة متفق عليهـا . وبذا انقلب النصر الصليبي عند جديلة الى هزيمة طامة عنـد المنصـورة ، حيث بلغ عـدد قتلى الصليبيين ما يقرب من ألف وخمسمائة فى بضع ساعات، وهو معظم عدد الطلائع الصليبيـة .

أما الملك الفرنسي فعبر البحر الصغير ، وتقدم استمدادا لما سوف يقـوم به الجيش الأيوبي من حركات هجومية . ومنذئذ حمى القتال بين الفـريقين ، وتبـادل الأيوبيون والصليبيون النصر والهزيمة ، وظل المعسكر الصليبي فى مواضعه خارج المنصورة ، أملا فى أن يدب النزاع فى المعسـكر الأيوبي بين السلطانة شجر الدر وولي العهد تورانشاه عند وصوله الى مصر . لكن نزاعا لم يقع فى المنصورة أو فى السرعة التى تطامن اليها الملك الفرنسي ، بل وصـل الملك الجـديد الى المنصورة وتسلم زمام الموقف ودل على مهارة فائقة بما اتخذ من تدابير حربيـة متنوعة . وكان أول هذه التـدابير أن أمر تورانشاه باحضار أسطول من السفن الخفيفة ، وحملها وهى منفصلة على ظهور الجمـال الى مكان بعيد شمالي المنصـورة ، حيث تم تركيبها وتعويمها فى النيل واستخدامها لمنع المراكب الصـليبية الواردة بالمؤن من دميـاط من الوصول الى معسكر الصليبيين . واستطاع هذا الأسطول أن ينهض بهذه المهمة ، وباتت الجيوش الصليبية مهـددة بالمجاعة . ثم لم تلبث المجاعة أن أعقبتها الأمراض الوبائيـة الخبيثة ، ولا سـيما حمى التيفوئيـد التى اشتعلت فى المعسكر الصليبي اشتعالا مميتا . ولذا جمع الملك الفرنسي مجلس قادة جيشه ، وقرر معهم وجوب التقهقر الى دمياط ، على أن تكون عودة المرضى والجرحى على المراكب الصليبية الباقية فى النيل ، وأن تكون عودة الجيش عن طـريق البرمون وفارسـكور . وبدأت هذه الحركة التقهقرية فى البر والنهر أوائل أبريل سنة ١٢٥٠ ، وكانت هذه البداية مؤذنة للعساكر الأيوبيـة أن تخـرج من المنصورة لمطاردة الصليبيين وعرقلة تقهقرهم . ثم لم تلبث هذه العملية أن انقلبت من مطاردة وعرقلة الى حركة تطويقية غرضها الاحـاطة بالجيوش الصليبية واجبـارها على التسـليم وتراءت الهزيمة المحتومة للملك الفرنسي وهو يعالج آلام المرض بالحمى وقتذاك ، ولا يكاد يستطيع الجلوس على ظهر فرسه ، ولذا رضي بالتسليم قبل فوات الأوان . وجاءت طائفة من الجند الأيوبي فحملت الملك الفرنسي أسيرا مكبلا فى السلاسل الى المنصورة حيث سجن مدة بدار قاضيها ابراهيم بن لقمان ، وهى دار لا تزال قائمة بشارع الحـوار بالمنصـورة الحالية . ثم اتفق الطـرفان على أن يجـلو الصليبيون عن دمياط جلاء تاما ، وأن تبحر السفن الصليبية عن الشـواطىء المصرية فى سرعة ، وأن يتعهد الملك بدفع فدية مالية تعين مبلغها وموعـد دفعها وأن يدفع كل من كبار الصليبيين فدية عن نفسه ، وكل ذلك مقابل اطلاق سراح الملك وكبار الصليبيين ، فضلا

عن عامة الأسرى الذين تم الاتفاق كذلك على اطلاق سراحهم بعد الوفاء بآخر قسط من أقساط الفدية الملكية .

ثم كان زوال الدولة الأيوبية بعد هذه الحوادث التي ظهرت فيها بسالة مماليك السلطان الصالح وشجاعة زوجه شجر الدر ومهارة خلفه توران شاه . ذلك أن توران شاه أساء الظن بمماليك أبيه ، وهم أصحاب الفضل في وقعة المنصورة ، واعتقد أنهم يعملون مع شجر الدر على خلعه ، فأخذ يضايق شجر بمختلف الوسائل ، ويتهمها بحيازة أموال أبيه واخفائها عنه ، ودبر مؤامرة للفتك بها وبزعماء المماليك . غير أن هؤلاء سبقوه الى مثل ما دبره لهم ، اذ قتلوه شر قتلة في فارسكور سنة ١٢٥٠ . وهكذا كانت نهاية الدولة الأيوبية في مصر .

وربما يتبادر للذهن هنا أن تاريخ الدولة الأيوبية لا يعدو أن يكون تاريخا لتكوين جبهة اسلامية متحدة ، واستخدام صلاح الدين لما تأدى له تلك الجبهة المتحدة من قوة عسكرية هدم بها مملكة بيت المقدس الصليبية تقريبا وهذا وذاك صحيح في جملته وتفصيله ويدل عليه ما تحقق لمعظم سلاطين الأيوبيين منذ أيام صلاح الدين الى أيام توران شاه من توفيقات في ميادين الحرب والسلم وما بينهما من دبلوماسية ماهرة اشتهر بها السلطان العادل صاحب الفضل في معاهدة البندقية التى أبعدت الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عن مصر ، والسلطان الكامل صاحب المعاهدة الكاملية الفردريكية التي عطلت مشروعات الصليبيين لمدة عشر سنين ولدينا من الوثائق المنقولة من مسودات القاضي الفاضل ما يساعد على تقدير أعداد القوات البرية والبحرية التي استعان بها صلاح الدين في أعماله الحربية المختلفة وتقدر القوات البرية مثلا بما لا يقل عن خمسة عشر ألف فارس من الأتراك والأكراد ، وأولئك عدا جيوش الشام والجزيرة ، وعربان الأقاليم المصرية والشامية. واشتملت القوات البحرية على سفن متنوعة عدتها خمسون سفينة لحماية السواحل المصرية والشامية ، وثلاثون لأعمال الهجوم البحري على موانى الصليبيين . وتنوعت هذه السفن ، فكان منها الشيني والغراب والطريدة والحراقة والشلندية والبطسة والحمالة ، والمركوش والقورقل وجرى الاصطلاح على تسمية رجال هذه السفن باسم رجال الأسطول . كما بلغ من عناية صلاح الدين بشئون البحرية ما جعل لها ديوانا خاصا سماه ديوان الأسطول .

واعتمدت نفقات هذه القوات البرية والبحرية ، كما اعتمد جزء كبير من نفقات الدولة عموما ، على تنظيم اقطاعي أحله صلاح الدين بمصر والشام محل نظام الرواتب والأعطية ، أسوة بالسلاجقة والزنكيين قبله اذا صارت الأراضي كلها اقطاعات للسلطان وأبناء البيت الأيوبي وأمراء الدولة الأيوبية وأجنادها . وانقسمت هذه الاقطاعات الى نوعين ، وهما الاقطاعات الادارية التي اختص

بها السلطان وأبناء البيت الأيوبي وكبار الأمراء والموظفين وكل من هذه يتمن عادة مع وحدة اقليمية ادارية ، ثم الاقطاعات الحربية التى يمنحها السلطان مقابل ما يؤديه المقطع للدولة من خدمات حربية باقتناء عدد من الفرسان وتقديمهم للجيش العامل زمن الحرب، ولم تكن هذه الاقطاعات بنوعيها وراثية ، بل قلما ظل الاقطاع في يد واحدة مدى الحياة ، وكفى دليلا على ذلك أن الوظائف الكبرى كانت مربوطة الى اقطاعات معينة لا تتغير ، فاذا انتقل صاحب وظيفة ما الى وظيفة أعلى انتقل بذلك الى اقطاع جديد ، وهكذا .

وبالاضافة الى التنظيم الاقطاعي وموارده التي استمدت الدولة منها جزءا كبيرا من نفقاتها ، اعتمدت الدولة كذلك على عدة منابع مالية أخرى ، وأهمها الخراج المتحصل من الأراضي المزروعة ، وخراج المعادن مثل الزمرد والشب والنطرون ، وأموال الزكاة التى انشأ صلاح الدين من أجلها ديوانا خاصا ، وأموال الخمس المفروض على المتجر الاجنبية الواردة من أوربا الى دمياط والاسكندرية ، وأموال المكوس المرسومة على البضائع التي يجلبها التجار الكارمية في البحر الأحمر الى عيذاب والقصير والطور والسويس .

ونشطت التجارة في ذلك العصر الأيوبي نشاطا دل عليه أن أعداد السفن التجارية الأوربية الراسية في ميناء الاسكندرية وحدها بلغت في شتاء سنة ١١٨٨ م سبعا وثلاثين سفينة ولابد أن هذه الأعداد زادت كثيرا في فصلي الربيع والصيف حين تغدو ملاحة العصور الوسطى في البحر الأبيض المتوسط أقل تعرضا للأخطار .

وجلبت هذه السفن وأشباهها من أوربا الى ميناء الاسكندرية وسائر الموانى المصرية والشامية كميات كبيرة من الفراء والجوخ والقطران والحديد والأخشاب والأسلحة ، وذلك رغم تحريم المرسومات البابوية على التجار أن يتاجروا مع مصر في المواد الحربية التى يمكن استخدامها في أغراض حربية . وأغفل التجار الأوربيون — ومعظمهم من البنادقة والبياذنة والجنوية هذه المرسومات ، لأنهم اشتروا بأثمان بضائعهم هذه بضائع شرقية غذت الأسواق الأوربية التى تطلبها بكميات متزايدة سنة بعد أخرى ، وأهمها الفلفل والقرفة وجوز الطيب والقرنفل والسنبل والكافور والعاج والبخور والتمر والبهارات واللؤلؤ والزمرد والشب والنطرون والأقمشة الرفيعة والمنسوجات الكتانية والحريرية الموشاة بالذهب والفضة والبسط والسكر والحلوى .

وأنتجت مصر جزءا كبيرا من هذه السلع المعدنية والصناعية فأخرجت مناجمها الزمرد من قرب قوص ، والشب من قرب أسوان والواحات والنطرون من وادي النطرون ومنخفض الخطارة ، كما أخرجت مراكزها الصناعية في تنيس ودمياط والاسكندرية ودبيق أنواع المنسوجات ، فضلا عن المعاصر التى أنتجت كميات وفيرة من السكر بالوجه القبلي .

على أن القاهرة الكبرى التي استقامت لمصر في هذا الميدان التجاري هي كونها المستودع الدولي الهام لتجارة مناجر الغرب والشرق ، فكما تكدست البضائع الأوربية في الموانئ المصرية الشمالية ، امتلأت موانيها الجنوبية على نهر النيل والبحر الأحمر بحركة تجارية فيها من كميات البضائع الشرقية ما يجعل الطريق النهري من القاهرة الى المنيا ومن المنيا الى أسيوط وقوص وعيذاب ، أشبه بشيء بطريق الامبراطورية البريطانية الى الهند في القرن الثامن عشر الميلادي . ووصف ابن جبير هذا الطريق الدولي العظيم وصف حاج ناء بشئون الحج والتقوى عن شئون التاجر والأموال والمكوس ، اذ تنقل بين مراحل حتى عيذاب ، فوصف قوص مثلا بأنها كانت مدينة حفيلة الأسواق متسعة المرافق لكثرة الصادر والوارد اليها من التجار المصريين والمغاربة واليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة ، كما وصف عيذاب بأنها كانت من أحفل مراسي الدنيا في العصور الوسطى ، بسبب أن مراكب الهند كانت تهبط اليها وتقلع منها ، وهذا فضلا عن مراكب الحجاج الى جدة ، وهي التي كانت تسمى الجلاب ، وواحدتها جلبة . وشهد ابن جبير من قوافل البضائع في هذا الطريق ما أعجزه عن الاحصاء ، ولا سيما القوافل العيذابية المحملة بسلع الهند الواصلة الى اليمن ، ثم من اليمن الى عيذاب ، وخيل اليه أن أحمال الفلفل والقرفة في هذه القوافل توازي التراب في كثرة كمياتها ، فاذا تعطلت هذه الأحمال في الطريق بسبب اعياء الابل الحاملة لها بقيت مطروحة لا حارس لها حتى ينقلها صاحبها مصونة من الآفات والسرقات ، تنويها بأحوال الأمن والرخاء الاقتصادي في مصر زمن السلطان صلاح الدين غير أن هذه العبارات الوصفية الدالة على مركز مصر في تجارة الشرق زمن الأيوبيين لم تخل من نقد مرير لأعمال رجال الديوان (الجمرك) في مختلف الموانئ والمدن ، لأنهم لم يميزوا أحيانا بين الحاج والتاجر ، فيفحصوا متاع هذا وذاك بحثا عن المال ، ويفرضوا الزكاة على ما يجدونه ، سواء حال عليها الحول أو لم يحل ، مع العلم بأن صلاح الدين أبطل المكوس على الحجاج ، وهي سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية يدفعها الحاج الواحد عن نفسه بعيذاب أو جدة ، برسم ميرة مكة والمدينة .

وكان الغاء هذا المكس الثقيل جزءا من عملية سياسية ضخمة استهل صلاح الدين بها عهده من باب الدعاية الطيبة لدولته السنية وللتخفيف عن كواهل الناس . ولذا بلغت عدة المكوس التي ألغاها صلاح الدين مرة واحدة في مرسوم واحد خمسين مكسا ، قيمتها مائة ألف دينار سنويا ، أي مليون دينار في عشر سنوات ، ذلك فضلا عن كميات هائلة من الغلال التي سامح بها ، وأبطل تحصيلها من المستحقة عليهم . ومن هذه المكوس ما كان معروفا باسم مكس البحار ، ومكس البضائع والقوافل ، ورسم الخشب الطويل ، ورسم

التفتيش وسمسرة الكتان ، ومربعة العسل ، وغير ذلك من المكوس المثيرة للسخط . أما معنى هذه السياسة الضريبية الحكيمة فهو أن المجتمع الأيوبي المصري تمتع بكثير من الرخاء الاقتصادي سواء من ناحية هذه الاعفاءات العامة من المكوس ، أو من ناحية الحركة التجارية الناشطة في البر والبحر ، ومن ناحية النهضة الصناعية التي تطلبها حركة التجارة الداخلية والخارجية ، بالاضافة الى ما تطلبته الجيوش البرية والبحرية من أنواع الملابس والأسلحة والسفن والأطعمة .

ويبدو أن هذا الرخاء الاقتصادى ظل صبغة للمجتمع المصري الأيوبي حتى بعد صلاح الدين بدليل المعاهدات التجارية التى عقدها خلفاؤه من السلطان العادل فصاعدا مع الجمهوريات الايطالية والامبراطورية ، وبدليل انعدام ثورات الفلاحين في العصر الأيوبي كله ، وهذا وذاك فضلا عن دليل ثالث هو استطاعة القوات المصرية الأيوبية أن تتغلب على حملتين صليبيتين كبيرتين ، وهما الحملة المعروفة بالخامسة بقيادة حنا برين ، والحملة المعروفة بالسادسة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا .

وللدولة الأيوبية آثار روحية عميقة في الحضارة الاسلامية في مصر والشام ، نتيجة انتقال الحكم من الفاطميين الشيعة الى الأيوبيين السنيين ، وأول ذلك ما عمد اليه صلاح الدين وخلفاؤه من تعطيل معاهد الدعوة الشيعية ومذاهبها ، وتأسيس المدارس السنية بالقاهرة والاسكندرية ودمشق وغيرها من المدن الكبرى . وأهم هذه المدارس التى رادفت الواحدة منها الكلية الجامعية في العصر الحاضر ، المدرسة الناصرية الصلاحية التى بناها السلطان الناصر صلاح الدين بجوار مسجد الامام الشافعى لتدريس فقه الشافعية خاصة . وهذه المدرسة زارها ابن جبير قبل أن يكتمل بناؤها الفسيح الأنيق ، ووصفها بأنها لم يعمر بالشرق الأوسط مثلها من حيث المساحة والبناء ، حتى انه ليخيل لمن يتطوف عليها بأنها بلد مستقل بذاته ، وبازائها الحمام والمساكن للطلاب ، الى غير ذلك من المرافق . ولقى ابن جبير شيخ هذه المدرسة الناصرية الصلاحية ، وهو نجم الدين الخبوشانى ، ولم يلق من كبار رجال مصر غيره ، وليته صادف أو عمل على لقاء صلاح الدين ، أو أخيه العادل ، أو بهاء الدين قراقوش ، أو القاضى الفاضل ، وهم أصحاب الفضل الأول في اقامة الدولة الأيوبية .

على أن هذه المدرسة الناصرية الصلاحية لم تكن أولى المدارس التى أنشأها صلاح الدين في مصر ، كما أن فقه الشافعية الذى اتخذه مذهبا رسميا للدولة الأيوبية ، وخصص هذه المدرسة لتدريسه ، لم يكن كذلك المذهب السنى الوحيد الذى حظى بعناية . والواقع أن أول مدرسة أنشأها صلاح الدين بمصر هى مدرسة اسمها كذلك المدرسة الناصرية ، بجوار جامع عمرو بن العاص ، ثم لم تلبث هذه المدرسة أن اشتهرت باسم مدرسة ابن زين التجار ، نسبة الى احد أعيان الشافعية

الذي بدأ التدريس بها ، وصارت تعرف بعد ذلك باسم المدرسة الشريفية نسبة الى الشريف قاضي العسكر الذي درس بهما كذلك . وبجوار جامع عمرو بن العاص كذلك قامت المدرسة القمحية التي أنشأها صلاح الدين للفقهاء المالكية ، وعرفت باسمها هذا لأن القمح الذي جباه من أوقافها بالفيوم كان يوزع مباشرة على مدرسيها وطلبتها وأنشأ صلاح الدين كذلك المدرسة السيوفية لمذهب الحنفية ، واشتهرت هذه المدرسة باسمها هذا من أجل أنها أطلت على سوق السيوفيين بالقاهرة وقتذاك .

واستبدت هذه التقوى المشبعة بالحماسة المعمارية الى أبناء البيت الأيوبي وأمراء الدولة الأيوبية وكبار موظفيها ونسائها فأنشأ الملك العادل محمد أخو صلاح الدين المدرسة العادلية ، وأقام أخوه الآخر تقي الدين عمر المدرسة المعروفة بمنازل العز أو المدرسة التقوية نسبة الى الأمير تقي الدين نفسه ، كما أنشأ هذا الأمير مدرستين بالفيوم بعد أن صارت بلاد الفيوم جزءا من اقطاعه . وأنشأ القاضي الفاضل وزير السلطان صلاح الدين المدرسة الفاضلية للشافعية والمالكية ، وهي المدرسة التي احتوت على مكتبة بلغت كتبها فيما قيل مائة ألف مجلد في مختلف العلوم . ومن هذه المدارس كذلك المدرسة الأزكشية الحنفية ، نسبة الى مؤسسها أزكش أحد أمراء السلطان صلاح الدين ، والمدرسة العاشورية نسبة الى الست عاشوراء زوجة هذا الأمير . ومدرسة ابن الأرسوفي ، نسبة الى التاجر عفيف الدين عبد الله بن الأرسوفي.

واستمر عدد هذه المدارس الجديدة في ازدياد ونمو زمن الأيوبيين ، كما تطور التعليم فيها تطورا ملحوظا ، فظهرت المدارس المخصصة لتدريس علم الحديث ونموذجها المعروف هو المدرسة الكاملية التي أنشأها السلطان الكامل بن العادل ، وكانت الأولى من نوعها في مصر ، ولم يسبقها في هذا التخصص سوى المدرسة العادلية بدمشق نسبة الى السلطان العادل نور الدين محمود ابن زنكي وناحية أخرى من ذلك التطور أن بعض المدارس أخذت تسمح لتدريس فقه الحنابلة ، بحيث صارت هذه المدارس شاملة المذاهب الأربعة ونموذجها المعروف المدرسة الصالحية التي أسسها السلطان الصالح أيوب أواخر أيام الدولة الأيوبية .

ولم تقتصر هذه النهضة الثقافية الأيوبية على مصر ، بل تمدتها الى الشام ، بحيث بنيت العادلية الكبرى .

وفي هذه المدارس جرى تدريس عمدة علوم مساعدة الى جانب الفقه والحديث والتفسير والقراءات والمنطق والحساب فاشتملت برامجها على النحو والبلاغة والهندسة وعلم الهيئة والموسيقى ، على مستويات مختلفة بحسب الحاجة اليها .

واتماما في هذه النهضة السنية اجتذبت الدولة الأيوبية جماعات من الفقراء الصوفية من مختلف بلاد الشرق الأوسط ، وجعل السلطان صلاح الدين من أولئك المتصوفة

دعاة للمذهب السني ، وخصص لهم دورا تسمى الواحدة منها الخانقاه وهي كلمة فارسية معناها بيت العبادة ، كما شجع كثيرا من المتصوفة المصليين على سكنى الربط والزوايا ليكونوا هداة ووعاظا متجولين بين الناس . وأولى خانقاه أيوبية هي الخانقاه الصلاحية وأصلها دار فاطمية كبيرة اسمها سعيد السعداء بجوار دار الوزارة ، واختار صلاح الدين هذه الدار عمدا فيما يبدو لتكون للفقراء الصوفية ، وجعل لها رئيسا منهم ، وتوقف عليها عدة جهات ، ورتب لسكانها طعاما يوميا ، كما بنى بجانبها حماما خاصا . واتخذ رئيس الصوفية مكان هذه الخانقاه شيخ الشيوخ ، وتولى هذه الوظيفة أولاد ابن حمويه الجويني مع ما كان لهم من الدولة الأيوبية كلها من الوزارة والامارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش وتقدمة العساكر ، على قول المقريزي ، والمرهم فخر الدين يوسف الذي قتله الصليبيون في وقعة جديلة قرب المنصورة .

وأضحى لهذه الخانقاه الصلاحية صيت ديني ذائع ، وصار اسمها رمز الصوفية ، وغدا المتاد في كل يوم جمعة أن يأتي الناس من مختلف البلاد الى القاهرة ليشهدوا صوفيتها ، وهم متوجهون في موكبهم الى صلاة الجمعة بجامع الحاكم الفاطمي ، دون غيره من الجوامع ، ويبدأ هذا الموكب بخروج شيخ الشيوخ من الخانقاه ، وبين يديه خدام الربعة الشريفة وهي محمولة على رأس أكبر الخدام ، والصوفية سائرون وراءهم في سكون وخشوع . وعند وصول هذا الموكب الى جامع الحاكم ، يدخل الصوفية مقصورة اسمها وقتذاك مقصورة البسملة ، اشارة الى البسملة المكتوبة في صدرها بحروف ضخمة ، فيصلي شيخ الشيوخ ركعتي تحية المسجد ، ثم يجلس الصوفية ، وتوزع عليهم أجزاء الربعة للقراءة قبل الأذان والخطبة . ثم اذا قضيت الصلاة قام قارىء من قراء الخانقاه ، ورتل بضع آيات من القرآن ودعا للسلطان صلاح الدين ولسائر المسلمين ، وكان ذلك الدعاء بمثابة اشارة لاستعداد الموكب للعودة الى الخانقاه ، حيث يكون الناس في انتظارهم للتبرك بهم .

وبالاضافة الى هذه الخانقاه والمدارس التي غيرت ملامح المجتمع المصري ومقومه زمن الأيوبيين اختط صلاح الدين القلعة بالقاهرة وشرع في تسوير القاهرة ومصر بسور واحد من الحجارة ، والراجح أن صلاح الدين بدأ في هذين المشروعين الكبيرين في وقت واحد ، فأراد من بناء القلعة أن يجعل لدولته وحكومته وجيشه سكنا جديدا ، لا صلة له بالقاهرة الفاطمية وقصورها وذكرياتها ، كما أراد بناء السور أن يجعل من القاهرة ومصر وحدة حربية واحدة ، بحيث لا يحتاج كل منهما الى حربية خاصة من الجند . وتعتبر القلعة من الناحية المعمارية أعظم ما بدأه صلاح الدين من منشآت ، ومن المعروف أنه توفى قبل أن يكتمل بناؤه ، وأن خلفاءه من السلطان العادل فصاعدا أضافوا

اليها اضافات انشائية وتدعيمية كثيرة ، فبنى العادل الثلاثة الابراج الكبرى الكائنة بالجانب القبلي ، كما أتم بناء البرجين الكبيرين الواقعين في الركن الشمالي الغربي ثم جماء الكامل فبنى الايوان والقصور السلطانية وباب السر المؤدي اليهما ، والاصطبلات وقاعة الصاحب الوزير ، وأبراج حمام الزاجل التي غدت مركز البريد بين مصر وسائر بلاد الدولة الأيوبية من أسوان الى حلب ، وخزانة الكتب التي ضمت مكتبة القاضي الفاضل ، ونقل الكامل الى القلعة دواوين الادارة والحكم ، وتحول هو من دار الوزارة الفاطمية التي سكنها صلاح الدين وأخوه العادل بعده الى أحد القصور السلطانية الجديدة . ثم بنى السلطان الصالح أيوب بن الكامل القاعة الصالحية التي اعدت خصيصا لتكون مسكنا سلطانيا بعيدا عن سائر المباني الحكومية . وهكذا صارت القلعة مقر الحكومة والبلاط والجيش في مصر ، منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي . غير أن هذه المباني الأصلية لم يبق منها سوى أسماء او مواضعها ، وحلت محلها مبان جديدة في العصر المملوكي والعصور التالية .

أما أهمية بناء القلعة والسور فهي أولا : ان تركيز الجهاز الحكومي والاداري والجيش في القلعة جعل القاهرة تنمو نموا جديدا من ناحيتها الجنوبية ، حتى تم الاتصال الفعلي بينها وبين الفسطاط ، كما أن امتداد السور الجديد الى النيل من ناحيتها الشمالية جعل من اليسير أن تنمو القاهرة كذلك في هذا الاتجاه . ولهذا وذاك اشتغلت العاصمة الأيوبية بحركة بنائية واسعة ، وشهد الرحالة عبد اللطيف البغدادي الذي زار القاهرة أواخر عهد صلاح الدين ، ونزل بها مدة غير قصيرة ، ما نجم عن هذه الحركة البنائية من دور سكنية عالية البناء ، وحمامات عامة رحبة وأسواق مسقوفة .

واتصل عبد اللطيف البغدادي في أثناء رحلته هذه بأعظم رجال الدولة الأيوبية امثال الوزير القاضي الفاضل ، والكاتب المؤرخ عماد الدين الأصفهاني ، والاداري الشهير بهاء الدين قراقوش ، وكثير غيرهم ممن أسهموا في خلق حركة علمية أدبية كبيرة . وشجعت الدولة الأيوبية بدورها هذه الحركة العلمية تشجيعا واضحا منذ أيام صلاح الدين ، ولذا فمن حق هذه الدولة وسلاطينها أن يختم هذا التلخيص الحضاري الخاطف باستعراض لأسماء العلماء والأدباء ورجال السياسة الذين أنجبتهم هذه الدولة ، وهم بالاضافة الى المتقدمة أسماؤهم ، العالم الزاهد نجم الدين الخبوشاني شيخ المدرسة الناصرية ، والأسعد ابن مماتي ناظر الدواوين ، وموسى بن ميمون الطبيب ، وشيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه شيخ الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ، وبهاء الدين بن شداد المؤرخ وزميله شهاب الدين عبد الرحمن المعروف بأبي شامة ، والشاعر العظيم بهاء الدين زهير ، والقاضي جمال الدين بن واصل صاحب التاريخ الحافل بحوادث انتهاء الدولة الأيوبية وبداية عهد سلاطين المماليك .

الدولة المملوكية الأولى

للدكتور محمد مصطفى زيادة

(١٢٥٠ — ١٣٨٢)

لم يكد النصر يحقق على حملة لويس التاسع الصليبية سنة ١٢٥٠ حتى شهدت مصر قيام سلطنة المماليك ، وهى السلطنة التى شملت فى عز أيامها مساحات واسعة تشبه فى معالمها الرئيسية الامبراطورية الأيوبية التى سبقتها فى الشرق الأوسط . ذلك أن السلطنة المملوكية شملت جميع الأقاليم الحديثة المعروفة باسم مصر وفلسطين وسورية ولبنان ، فضلا عما كان لسلاطين المماليك من سيادة متقطعة على بعض القلاع والمدن فى أعالى الفرات والجهات الجنوبية الشرقية من آسية الصغرى وشمال السودان وبرقة والحجاز .

واذا نجحت السلطنة الجديدة فى أن تخلف البيت الأيوبى فى الحكم ، فان عوامل هذا النجاح لا ترجع الى النصر الذى أحرزه القادة المماليك على حملة لويس التاسع الصليبية فحسب ؛ بل الى عوامل باطنة مكنت لهؤلاء القادة من اقامة دولة استطاعت أن تكسر موجة الغزو المغولى فى وقعة فاصلة وأن تتزعم حركة الجهاد ضد الصليبيين فى المرحلة الأخيرة من مراحل الحروب الصليبية بالشرق .

وبالاضافة الى هذه التوفيقات الكبرى أسهمت السلطنة المملوكية الجديدة بسهم كبير فى تطور الحضارة الاسلامية وثقافتها ؛ نتيجة انتقال مركز الخلافة من بغداد الى القاهرة ؛ وهذا فضلا عما أسهمت به من دور فعال فى التجارة الدولية منذ القرن الثالث عشر الميلادى حتى كشف الطريق الى رأس الرجاء الصالح والهند وأمريكا فى أواخر القرن الخامس عشر .

والمماليك — كما يدل عليه اسمهم — أرقاء أصبحوا فى حيازة أو ملكية غيرهم عن طريق البيع أو المبادلة أو الأسر فى الحروب أو المهاداة ، أو كجزء من الضريبة المفروضة على أحد الحكام التابعين . ولكن اذا كان كل مملوك فى أصله رقيقا فلم يكن كل رقيق من طبقة المماليك . وذلك ان الرقيق فى الاسلام اما أسود أو أبيض ، وفق أصولهم والبلاد المختلفة التى جلبوا منها . فالنوع الأول كان من الزنوج والسود عامة وخير مثل لهم جماعات الزنج بجنوب العراق فى القرن التاسع الميلادى .

وكذلك الأمير كافور الاخشيدى الذى

حكم مصر فيما بين سنتي ٩٦٦ ، ٩٦٨ م .
أما النـوع الثـانـي وهو الرقيق الأبيض — فهؤلاء هم المماليك ومعظمهم في الأصـل أتراك جـاءوا من مختلف أقاليم آسـيـة الوسطى ، أوقات السلم والحرب . ثم لم يلبث لفظ مملوك أن اتسع معناه حتى شمل جميع أنواع الرقيق المجلوب من غرب آسـية وكثير من أقاليم أوربا ، بما فيها الجهـات المحيطة بالبحر البلطي .

***

تدفق أولئك المماليك على المجتمع الاسلامي في أعداد كبيرة تباينت باختلاف البلاد التي ينتسبون اليهـا ، وذلك منـذ أيام الخلافة العباسية في بغداد عندما أصـبـح الجيش العباسي يحوي أعدادا متزايدة من الرقيق لأبيض . ثم كثرت أنواع المـماليك نتيجة لنشاط حركة التوسـع الاسلامي عن طريق الفتح والغزو أو التجارة فكان منهم التركي واليوناني والصقلبي والكرجي والأرمني ، ولكنهم تباهوا جميعا بتسـمية أنفسـهم « أتراك » ، من باب اطلاق الجزء الغالب على الكل ، ولا سيما بعد أن غدوا أصحاب أثر واضح في توجيه السياسة الاسـلامية في العصور الوسطى ، كما أصبحت حيـاتهم موضع دراسة المؤلفين . ومن أمثـلة ذلك ما وصفه ابن حسون المتوفى سنة ١٠٥٨ للمملوك التركي بأنه : « لم يرض الا بأن يساويه سيده في مطعمه ومشربه وملبسه ومركبه ، لا ينصف في خدمته الى ما يضف اليه سواه من العاطلين في الرق ، والمجلوبين بالسبي ، ككنس الدار وسياسة الدواب ، وما أشبه ذلك مما يستخدم فيه سائر الرقيق .. وليس يرضى التركي اذا خرج من وثاقه الا بزعامة جيش أو الترسم بحجابه أو الرئاسة على فرقة ، والأمر والنهي على عصبية » .

وتدل شواهد تاريخية كثيرة في العصور المتقدمة والمتأخرة على مدى العنـاية بتربية هؤلاء المماليك وتدريبهم ليصبحوا عماد الجيوش التي اعتمدت عليها الدول الاقليمية المستقلة في العالم الاسلامي . ومن هـذه سلطنة السـلاجقة (١٠٣٧ — ١١٥٧ م) اذ اعتمد سلاطينها على هذا النوع من الجند ، ووصفه وزيرها الشهير نظام الملك (ت١٠٩٢) في مؤلفه « سياسة نامه » مختلف المراحل التي يمر بها المملوك منذ دخوله ملكية سيده الى وقت عتقه ، حين يغدو حرا ويصـبـح فارسا ، ومن ثم يستطيع أن يرتقي في سلك الوظائف العسكرية والسياسية وفي أيام هذه السلطنة السلجوقية تم التحول من الاقتصاد النقدي الى الاقتصاد الاقطاعي العسكري ، بحيث صار أرباب الوظائف العسـكرية والادارية — ومعظمهم من المماليك يتملكون على أساس اقطاعي شخصي حربي .

وسـارت الدولة الأيوبية (١١٧٤ — ١٢٥٠) التي تفرعت بطريق غير مباشر عن الامبراطورية السلجوقية ، على هذه القاعدة من حيث الاعتماد على المماليك الى مـدى

النصف تقريبا في تكوين الجيش الأيوبي ، ومن حيث التعميم في التمليك الاقطـــاعي لأولئك المماليك وغيرهم في مصر والشـــام وسائر أقاليمها في الشرق الأوســط . ومن الأدلة الباكرة على ذلك ان صـــلاح الدين احاط نفسه بمجمـــوعة مختارة من المماليك الذين انتقوا بعناية ودربوا تدريبا فائقـــا في فنون الحرب . وأخذ هـــذا النظام المملوكي الاقطاعي ينمو على نطاق أوسع زمن خلفاء صلاح الدين في ممالكهم واماراتهم ، وكانت كل جماعة من المماليك الأيوبيين ينسبها الى مؤسسها : أميرا كان أو سلطانا ، فالأسدية مثلا نسبة الى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين وسلفه في السيطرة على مصر ، والصلاحية نسبة الى صـــلاح الدين نفسه ، وهكذا .

وأسهمت هـــذه الجمـــاعات الصلاحية المملوكية بسهم كبير في حروب صلاح الدين قبل وقعة حطين وبعدها ، وتدل كثرة أسماء موتاهم وجرحاهم عـــلى مدى اعتماد هـــذا السلطان في حروبه وحملاته على جند المماليك الى جانب جنده الأحرار الذين كان معظمهم من الأكراد .

وثمة دليل آخر على ضخامة النفـــوذ المملوكي في امبراطورية صلاح الدين ، وهو ما تحمله الآثار والمؤسسات الخيرية والأوقاف من أسماء أولئك المماليك بالقاهرة ودمشق وغيرهما من المدن الكبرى في العصر الأيوبي .

ثم ترتب على حروب الأمراء الأيوبيين بعد صلاح الدين ازدياد أعداد المماليك وتضخم نفوذهم ، ولا سيما زمن الصالح أيوب بن الكامل (١٢٤٠ — ١٢٤٩) وهو السلطان قبل الأخير من سلاطين البيت الأيوبي في مصر — ذلك ان الملك الصالح لم يشعر بميـــل نحو الجند من المماليك الأكراد .

كما انه لم يثق كثيرا في الكاملية وغيرهم من طوائف المماليك الذين دان لهم بمساعدته في الوصول الى السلطنة . ولذا أكثر من شراء المماليك الجدد ، واستوردهم من مختلف الأســـواق ، وان كان معظمهم من الأتراك المتحدثين بالتركية ، وبعد ذلك شيد الصالح أيوب بجزيرة الروضة قلعه لنفسه تطل على بحر النيل . وانتقى من هؤلاء المماليك صفوة لتكون حرسا خاصا له بتلك القلعه . وأطلق التنظيم المملوكي على هذه الفئة اسم المماليك البحرية الصالحية ، تمييزا لهم عن ســـائر طوائف المماليك الصالحية السابقة واللاحقة ، كتمييز البحرية العادلية وغيرها من طوائف المماليك المشابهة التي عرفها التـــاريخ قبـــل قيام الدولة الأيوبية وبعدها .

على أن تسمية هذه الفئة باسم البحريه ليس مصدره بحر النيل ، اذ لصقت هـــذه التسمية بفئات معينة من المـــاليك في مصر والشام ، بل في اليمن كذلك زمن الرسوليين ولذا يبدو أن هذا اللفظ جرى على المماليك المجلوبين من البلاد الشمالية أو بلاد ما وراء البحار ، وشرح جوانفيل هذا اللفظ شرحا يطابق هذا المعنى تماما ، وهو المؤرخ الفرنسي

الذي عاش مدة بين المماليك البحرية في مصر . ومما يؤيد هذا التفسير أن المؤرخين العرب المعاصرين دأبوا على اطلاق لفظ البحرية على الجماعات الصليبية الواقعة من وراء البحار .

ولقى أولئك المماليك البحرية الصالحية صدمة الهجوم الصليبي على المنصورة (فبراير سنة ١٢٥٠) واليهم يرجع الفضل في انتزاع النصر من أنياب الهزيمة في وقت كانت مصر بدون سلطان بعد أن توفي سلطانها الصالح أيوب في نوفمبر من العام السابق . على أن حسن الحظ شاء عندئذ أن تمسك بزمام الدولة امرأة قديرة ، هي شجر الدر زوجة السلطان الصالح أيوب المتوفى ريثما يصل ابنه وخليفته توران شاه من مقره بحصن كيفا بأعالي العراق . ثم وصل هذا الابن الى مصر ، فسلمته شجر الدر مقاليد الدولة ومسئوليات القتال ضد الصليبيين ، على أن مقتل توران شاه ١٢٥٠ م على أيدي زعماء المماليك البحرية الصالحية — وهو الحادث الذي أنهى الدولة الأيوبية في مصر — أدى الى فراغ كان لابد من الاسراع الى ملئه ، قبل أن يفلت زمام الموقف من أيدي أولئك الزعماء . ذلك أنه كان بالشام عدد كبير من أمراء البيت الأيوبي الذين تطلعوا منذ سنين الى الفوز بالسلطنة على مصر . وهذا فضلا عن الخوف من مجيء نجدة صليبية حربية الى مصر للانتقام مما حل بحملة الملك الفرنسي لويس التاسع . ولذا وقع الاختيار على شجر الدر لمواجهة الأمراء الأيوبيين الطامعين في عرش مصر ، باعتبارها زوجة السلطان الصالح أيوب ، وربما أيضا كوسيلة لوضع حد لأحلام بعض الأفراد الطامعين كذلك في الاستبداد بشئون السلطنة ومنهم الوزير أبو علي الهذباني والزعيم المملوكي اقطاي .

ثم عرض بعد ذلك منصب أتابكية العسكر — وهو من أهم مناصب الدولة — على أحد الأمراء الذين ظلوا مغمورين حتى ذلك الوقت وهو أيبك التركماني ، فقبله وهكذا تم مولد دولة المماليك (مايو سنة ١٢٥٠) التي لم تكن في الواقع سوى استمرار للدولة الأيوبية في سياستها الداخلية والخارجية ، لأن المماليك أنفسهم صنائع سادتهم السالفين ، وخبرتهم في شئون الحكومة والادارة محدودة في دائرة النظام الاقطاعي الذي قام في مصر والشام في العصر الأيوبي .

وكان أول اجراء اتخذته السلطانة شجر الدر هو انهاء ذيول الحملة الصليبية الفرنسية باقرار شروط الفدية التي تم الاتفاق عليها بين توران شاه ولويس التاسع . واستطاعت زوجة الملك لويس في دمياط أن تجمع نصف المبلغ المتفق عليه ، وانجلت الحملة الصليبية عن الشواطيء المصرية الى عكا بعد قيام الدولة الجديدة ببضعة أيام على الرغم من المعارضة الشديدة التي لقيتها في مصر فكرة اطلاق سراح الملك الفرنسي .

ثم أخذت شجر الدر تسرف في توزيع العطاءات والمناصب والاقطاعات على جميع

فئات المماليك الذين دانت لهم بوصولها الى منصب السلطنة ، على حين بدأت الهمسات تتردد فى القاهرة مستنكرة قيام امرأة فى السلطنة ، على أن حركة خطيرة فى هذا الصدد بدأت من دمشق حيث رفض الجند الأكراد أن يقسموا يمين الولاء للسلطانة المملوكة الجديدة ، وأعلنوا الثورة واستنجد هؤلاء الثوار بالملك الناصر يوسف الأيوبى أمير حلب ، وطلبوا منه أن ينهض -- وهو سليل صلاح الدين — ضد مغتصبى الحكم فى القاهرة . ولذا زحف الناصر يوسف على دمشق التى فتحت له أبوابها ، فقبض على جميع من كان فيها من المماليك . ثم ان الخليفة العباسى فى بغداد لم يقر قيام امرأة فى حكم الدولة الأيوبية ولا سيما انها كانت فى وقت ما من جواريه ، وهذا فضلا عن وجود بعض آراء دينية تنكر قيام امرأة فى حكم أية دولة اسلامية .

لذلك استقر الرأى أخيرا فى القاهرة على أن تتزوج شجر الدر من أتابك العسكر أيبك، على أن تترك له العرش . وتم الاحتفال بزواج شجر الدر من أيبك واعتلى أيبك عرش السلطنة المملوكية فى شهر يولية سنة ١٢٥٠ ، وعلى هذا الوجه السعيد انتهت مدة الثمانين يوما التى قضتها شجر الدر فى دست الحكم. على أنه يبدو أن هذا الاجراء لم يرض المماليك ورئيسهم وقتذاك أقطاى ، ولكنهم اعترفوا بأيبك مؤقتا لعلهم يستطيعون التخلص منه فيما بعد ، ولذا لم تمض بضعة أيام على قيام أيبك فى السلطنة حتى استقر الرأى بينه وبين بعض المماليك المعادين لأقطاى على اشراك أحد أمراء بنى أيوب فى السلطة ، وسواء جاءت هذه الفكرة الناجحة نتيجة الاحساس بعدم صلاحية أيبك أو لمواجهة المعارضة المتزايدة من جانب الأيوبيين ، فموضع الأهمية هو أنه وقع الاختيار على طفل من بنى أيوب اسمه موسى لم يتجاوز العاشرة من عمره ، ليكون شريكا لأيبك فى الحكم .

لكن هذه الحيلة لم تنطل على أصحاب الحق الشرعى من أمراء البيت الأيوبى الذين أخذوا يزحفون فعلا نحو مصر ، بزعامة الناصر يوسف أمير حلب ودمشق ، ثم ان فئة من المماليك فى القاهرة نفسها اختارت أميرا آخر من بنى أيوب — وهو الأمير المغيث عمر أمير الكرك — ليكون سلطانا على مصر (سبتمبر سنة ١٢٥٠) أما أيبك الذى ظن البعض أنه شخص سهل يمكن التخلص منه دون صعوبة فاتضح أنه أكثر مهارة مما تراءى للناس ، اذ أعلن أن مصر تابعة للخلافة العباسية فى بغداد ، وأنه يتولى السلطنة فيها بوصفه نائبا عن الخليفة العباسى . ثم لجأ أيبك الى الحيلولة دون أى تقارب بين الأيوبيين الزاحفين على مصر والملك الفرنسى لويس التاسع الذى لم يزل مقيما وقتذاك فى عكا ، بأن أطلق سراح بعض الأسرى

الفرنسيين الذين لم يزالوا بمصر . ومع هذا لم يشأ أيبك أن يترك مجالا لاغراء لويس التاسع أو غيره من الصليبيين فأمر بهدم مدينة دمياط القديمة وتحصيناتها في أكتوبر سنة ١٢٥٠ ، تمهيدا لبنائها من جديد في موضعها الداخلي الحالي ، بعيدة عن ساحل البحر . وفي هذه الأثناء تمت الاستعدادات في مصر لارسال حملة لدفع الأيوبيين الزاحفين من فلسطين الى مصر ، ودارت معركة بين الجانبين قرب الصالحية الحالية (فبراير سنة ١٢٥١) أي داخل البلاد المصرية ، وحلت الهزيمة بالغزاة في هذه المعركة ، ووقع كثير من أمراء الأيوبيين أسرى في أيدي المماليك وان استطاع زعيمهم الناصر يوسف الفرار . على أن أيبك لم يقتنع تماما بهذه النتيجة ، فأرسل أقطاي لهدم معاقل المقاومة الباقية بفلسطين ، حتى لا يتمكن الأيوبيون بعد ذلك من الزحف الى مصر أو اجتياز حدودها في سهولة .

وحوالي ذلك الوقت تراءى الخطر المغولي واضحا في غرب آسيا ، تهدد الخلافة العباسية نفسها في بغداد . ورأى الخليفة انه من الأمور الحيوية أن يتناسى أمراء الدول الاسلامية ما بينهم من الخلافات لمواجهة الخطر الجديد ، وعقدت معاهدة (ابريل سنة ١٢٥٣) بين أيبك والناصر يوسف بحيث تكون لأيبك مصر وجزء من فلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك بيت المقدس — فضلا عن الأجزاء الساحلية حتى نابلس ، على حين يظل الناصر يوسف وغيره من أمراء البيت الأيوبي على اماراتهم بسائر فلسطين والشام . وهكذا اجتازت الدولة المملوكية العقبة الأولى التي اعترضت طريق تأسيسها في القاهرة ، ولو الى حين على الأقل .

على ان اعتماد أيبك على المماليك البحرية الصالحية في محاربة الأيوبيين زاد من سلطتهم بحيث صار من الصعب قيادتهم أو خضوعهم لأي شخص عدا زعيمهم أقطاي . ومع هذا ظل أيبك حريصا حذرا في تصرفاته نحوهم ، طالما كان الخطر الأيوبي قائما ، حتى اذا انعقدت معاهدة الصلح بينه وبين الناصر يوسف ، أخذ أيبك يتحرك في سرعة ، فأبعد الطفل موسى الأيوبي عن منصب المشاركة في الحكم ، وعين مملوكه قطز في منصب نائب السلطنة ، ولم يبق لديه من المنغصات سوى المماليك البحرية . غير أن قيام ثورة العربان ، ومناداة زعمائها بأن المماليك — وقد مسهم الرق — لا يصح أن يحكموا قوما من الأحرار ، جعل أيبك في حاجة الى قوة المماليك البحرية الصالحية مرة أخرى . فعهد الى أقطاي باخضاع هذه الحركة الخطيرة التي ضمت أعدادا ضخمة من البدو ، ونجح أقطاي في هدمها في وقعة حربية قرب بلبيس (يونية سنة ١٢٥٣) .

لكنه اذا كان النجاح في اخضاع هذه الثورة أدى الى ازالة عقبة أخرى خطيرة

اعترضت قيام السلطنة المملوكية فى مصر ، فان هذا النجاح زاد من خطر أقطاى والمماليك البحرية الصالحية .

وبدا ذلك واضحا عندما أخذ أقطاى ينتحل لنفسه بعض السلطات والشعائر التى هى من حق السلطان وحده ، ومنها ركوبه من داره بالقاهرة الى مقر السلطنة بالقلعة فى موكب حافل ، ثم تزوج أقطاى من احدى أميرات البيت الأيوبى فى حماة بالشام ، وطلب من أيبك أن يسمح له ولعروسه بالاقامة فى القلعة ، على أساس انه أصبح زوجا لسليلة أيوبية . وعند ذلك أحس أيبك انه أمام أمر واحد لا ثانى له ، وهو التخلص من أقطاى قبل فوات الأوان ، واستدعاه الى القلعة لبعض مهام الدولة ودبر مؤامرة سريعة لقتله ، وعندما ألقى برأس أقطاى الى أتباعه المنتظرين أسفل أسوار القلعة ، أصاب الذعر فئات المماليك البحرية الصالحية ، فهرب كثير منهم الى مختلف البلاد الخارجية كما قبض أيبك على الذى بقى منهم فى القاهرة . وهكذا يبدو ان أيبك أنقذ سلطنته ولكنه فى الوقت نفسه اثار على نفسه مشكلة كبرى بهروب كثير من المماليك البحرية الى بلاط خصومه من الأيوبيين بالشام حيث عاشوا لاجئين سياسيين يحرضون الناصر يوسف وغيره من أبناء البيت الأيوبى على مهاجمة مصر ، فضلا عن اغاراتهم المستمرة على فلسطين والأطراف المصرية . لذلك قضى أيبك معظم السنوات الواقعة بين ١٢٥٤ — ١٢٥٧ يرقب حركات المماليك البحرية فى الشام ، ولجأ الى أسلوبه القديم باعلان تبعيته للخلافة ، وارساله بعثة الى بغداد لطلب الخلع والتقاليد اللازمة ، ثم انه جدد المودة مع الصليبيين وحالف الأمير الأرمنى الأصل بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل على أن يتزوج ابنته ويتخلص بذلك من سيطرة شجر الدر ونفوذها من أهل المماليك البحرية المتمردين. غير أن هذه الخطوة الزواجية أثارت شجر الدر التى لم تتوقع أن يصل نكران الجميل بالسلطان أيبك الى هذا الحد ، وهو الذى أصبح سلطانا بفضل مساعدتها . وأحست شجر الدر بأن كبرياءها خدشت بعد أن هجرها أيبك ليقيم فى منزل مبنى قرب جهة باب اللوق الحالية . ودبرت مؤامرة للانتقام منه فدعته الى اجتماع للتوفيق والصلح ، ولقى مصرعه فى هذا الاجتماع على صورة وحشية فى حمام القصر السلطانى بالقلعة (أبريل سنه ١٢٥٧) . وأذاعت شجر الدر أن أيبك مات ميتة طبيعية فجأة ، غير أن الحقيقه انكشفت ، فتعرضت هى الأخرى للقتل على صورة وحشية كذلك ، بعد ثلاثة أيام من مقتل أيبك .

ولذا تتبعنا تاريخ أيبك فى شىء من التفصيل ، فذلك لأن سنوات حكمه بمثابة اختبار لمقدرة الدولة الجديدة على البقاء غير أنه لم يكن للصبى على بن أيبك أى حق

فى وراثة السلطنة بعد أيبك فى ظل النظام العسكرى المملوكى ، ما عدا رغبة من ناحية كبار الأمراء فى احترام وصية سلطان راحل ، وذلك حتى يمكن الاتفاق على أن يتولى السلطنة بين أولئك الأمراء أنفسهم ، وعندئذ يتخلصون من السلطان الصبى فى غير جلبة أو اضطراب . وتكررت هذه التمثيلية مرة بعد مرة عقب نهاية حكم كل سلطان مملوكى ، فأقام زعماء المماليك ابن السلطان المتوفى مؤقتا ، ثم تخلصوا من هذا الابن بالنفى الى بعض جهات مصر أو الخارج .

واذا استطاع بعض أولئك الأبناء أن يظل فى السلطنة مدة من الزمن ، فلم يكن ذلك راجعا الى اعتقاد المماليك فى مبدأ الوراثة . بل الى عجزهم أحيانا عن الاتفاق على من ينبغى أن تؤول اليه السلطنة من بينهم ، أما مبدأ الوراثة نفسه فلم يكن مقبولا أو معمولا فى أوساطهم .

هكذا خلف الصبى على آباه أيبك . وتعين الأمير قطز — وهو أقدم مماليك أبيه — فى منصب نائب السلطنة . وظل هذا الصبى سلطانا اسميا لمدة سنتين ، لم يدل فى أثنائهما على شىء سوى مهارته فى ركوب الحمير والطواف بها داخل أسوار القلعة على حين كان قطز يمهد لنفسه بممارسة السلطات الفعلية فى الدولة ، وفى خلال هاتين السنتين بالذات كان الخطر المغولى على أشده فى غرب آسية فسقطت بغداد والخلافة العباسية على يد هولاكو وجنوده فى فبراير سنة ١٢٥٨ وانتشرت موجة من الذعر فى جميع البلاد الاسلامية المجاورة وبخاصة بلاد الشام حيث أعلن الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب ودمشق عزمه على مقاومة المغول فى أول الأمر واتصل من أجل ذلك بالسلطنة المملوكية ، واستغل نائب السلطنة قطز هذه الحوادث وشرح لمجلس الثورة ان التهديد المغولى سوف يلتهم مصر بعد الشام ، وان الموقف يستدعى قيام رجل قوى فى الحكم بدلا من صبى قليل الخبرة بشئونه . وبهذا خلع السلطان الصبى على بن أيبك من السلطنة دون عناء وأعلن قطز سلطانا فى ٥ أكتوبر سنة ١٢٥٩.

ولم يمض شهر على هذا الانقلاب حتى أخذ هولاكو يزحف نحو حلب الأيوبية وسط مظاهر التدمير والسفك ، وشاركته فى الاستيلاء عليها فى فبراير سنة ١٢٦٠ فرقة عسكرية من عند هيثوم ملك أرمينيا الصغرى ، وبوهيموند السادس أمير أنطاكية الصليبية ، وفى حلب جاءت الأخبار الى هولاكو بوفاة الخان المغولى الأعظم منكوخان ، فاضطر الى الرحيل عن الشام الى المقر المغولى العام فى جوف آسيا للمشاركة فى اختيار الخان الجديد ، بعد أن أسند قيادة جيشه الى كتبغا وهو أحد المغول الذين اعتنقوا المسيحية على المذهب النسطورى . ثم لم يلبث كتبغا أن زحف جنوبا نحو دمشق ، وهى كذلك

أيوبية ، فانهارت أمامه قوات ملكها الناصر يوسف الأيوبي ، وسلمت له دمشق نفسها أخيرا في مارس سنة ١٢٦٠ . وزحفت بعد ذلك قوات مغولية نحو الجنوب ، وهددت أراضي السلطنة المملوكية في فلسطين ، فهب قطز لملاقاة هذا الزحف الداهم بجيش كبير . واستطاعت طلائع هذا الجيش بقيادة الأمير بيبرس البندقداري أن تطرد الطلائع المغولية من غزة حيث وصل قطز بعد قليل للزحف فورا نحو الشمال .

أما كتبغا القائد المغولي فوعد الصليبيين في عكا أن يحالفهم ويساعدهم ضد السلطنة المملوكية ، مقابل قيامهم بعرقلة الزحف المملوكي وعدم السماح للسلطان قطز بالمرور شمالا . غير أن الصليبيين لم يأمنوا لوعود المغول واستطاع قطز أن يحصل على حياد عكا الصليبية في هذه الحرب ، وأن يعبر بجيشه في غير صعوبة الى منطقة الجليل . ولذا لم يلبث المغول أن فوجئوا بوصول المماليك الى طبرية ، وبفضل هذه المفاجأة تمكن السلطان قطز من انزال الهزيمة بالمغول في وقعة حاسمة عند عين جالوت قرب بلدة الناصرة ، في سبتمبر سنة ١٢٦٠ ، وهي أول هزيمة لحقت بهم في تاريخهم الصاخب منذ أيام جنكزخان ثم أعقب ذلك تقهقر مغولي عام فأجلت القوات المغولية عن دمشق وحلب ، على حين عكفت القوات المملوكية على مطاردتها الى ما وراء الفرات .

وبذا أسس قطز سيادة السلطنة المملوكية على جميع بلاد الشام وفلسطين ما عدا امارة الكرك الصغيرة التي ظلت بيد أميرها الأيوبي ، وذلك فضلا عما حققه للسلطنة المملوكية من هيبة داخلية وخارجية بفضل هذا النصر العظيم ، لأن عين جالوت لم تنقذ مصر وحدها من المغول وقتذاك ، بل أنقذت كذلك أوربا المسيحية التي تعرضت أطرافها الشرقية للخطر المغولي .

على أن قطز لم يلبث أن جوزي على انتصاره هذا جزاء عكسيا ، اذ وقع فريسة مؤامرة لقتله وهو في طريق عودته الى مصر في أكتوبر سنة ١٢٦٠ ، على يد صديقه الأمير بيبرس البندقداري . وأسرع الأمير بيبرس الى دخول القاهرة حيث اغتصب عرش السلطنة وسط مزيج من الدهشة والرعب . ويقال ان بيبرس قام بارتكاب هذه الجريمة لا لرفض قطز تعيينه على حلب فحسب كما يتواتر في معظم المراجع ، بل تسوية كذلك لثأر قديم يرجع الى مقتل الزعيم أقطاى وتشريد المماليك البحرية ، وهي حوادث كان للأمير قطز دور هام فيها .

ومن الواضح ان وصول بيبرس الى منصب السلطنة كان معناه عودة نفوذ المماليك البحرية ، ولم يلبث السلطان الجديد ان دل من ذلك كما دل على براعة فائقة في شئون الادارة وقيادة الجيوش خلال حكمه البالغ سبعة عشر عاما (١٢٦٠ — ١٢٧٧) والواقع

ان أعمال بيبرس أكسبته لقب مؤسس دولة المماليك ، لأن هذا السلطان قام فعلا بتنظيم جهازها الادارى والحربى على أسس متينة . غير ان اغتصاب بيبرس للسلطنة لم يرق فى عين نائب دمشق وهو الذى أعاده قطز الى منصبه بعد طرد المغول ، ولذا رفض هـذا النائب أن يعترف بذلك الاغتصاب ، وأعلن نفسه سلطانا فى نوفمبر سنة ١٢٦٠ ، ودعا الأمراء الأيوبيين والنواب والمماليك بالنيابات الشامية الى الاعتراف به ، وأرسـل بيبرس حملة ضد هذا الأمير الخارج ، فقضت على حركته فى سرعة ، وجاءت به الى القاهرة مكبلا بالسلاسل (يناير سنة ١٢٦١) بعد أن أقامت مكانه فى نيابة دمشق الأمير علاء الدين البندقدارى ، وهو الذى كان فى وقت ما سيد بيبرس ، أى أستاذه الذى اشتراه ورباه على قول المصطلح المملوكى ، وفى تلك الأثناء قامت بالقاهرة حركة من نوع آخر بزعامة رجل من الشيعة اسمه الكورانى ، وناحت نداءات بدت كأنها صدى لثورة العبيد أيام أيبك فهدمها بيبرس هى الأخرى فى سرعة كذلك ، اذ قبض على رجالها وزعيمهم الكورانى الشيعى ، وشنقهم جميعا على باب زويلة (بوابة المتولى الحالية) .

وامتاز بيبرس فى جميع أعماله بسرعة التنفيذ ، كما امتاز فى سياسته بالحـزم والشجاعة وبعد النظر فضلا عن المقدرة على القيام بعدة أعمال فى وقت واحد ، وتصريف ادارة شئون الدولة أثناء أسفاره الكثيرة من مصر والشام . ووضحت هـذه المواهب فى بضعة الأشهر الأولى من حكمه ، حيث عمل جاهدا على ترتيب شئونه الداخلية ليتفرغ لمشكلة تطلبت منه جميع ما أوتيه من مهـارة سياسية وشجاعة وحزم ، وهى مشكلة الفراغ الذى نجم عن سقوط الخلافة العباسية فى بغداد ، وتفكير بعض ملوك الدول المجاورة فى احياء هذه الخلافة فى بلده . ومن أولئك الناصر يوسف الأيوبى حين كان أميرا على حلب ودمشـق . اذ حـاول استمالة أحـد العباسيين الفارين من وجه المغول الى الشام ليعلنه خليفة عنده ، وليستعين به فى مقاومة الزحف المغولى بقيادة هولاكو ، غـير ان سرعة الحوادث أفسدت عليه محاولته . وقام السلطان قطز بمثل هذه المحاولة بعد أن دخل دمشق ظافرا غـداة عين جالوت ، اذ أعلن خلافة لاجىء عباسى آخر . وأمـده بقوات وأسلحة للعمل على استرداد بغداد . وحدا بيبرس هذا الحذو ، أى انه لم يكن مبتكرا لهذه الفكرة ، ولكنه كان صاحب الفضـل النهائى فى احياء الخلافة العباسية بالقـاهرة سـنة ١٢٦٢ . وهكذا اسـتطاع بيبرس أن يجعل مصر قاعدة الخلافة الاسلامية ومحط أنظار المسلمين ، وأضحت القـاهرة مركز العالم الاسلامى ، وهى أقرب الى حواضر البلاد الاسلامية من بغداد . لذلك أخذ كثير من علماء المسلمين يفدون الى مدينة النيـل ، حيث وجـدوا ينابيـع وافرة من الرعـاية

والتشجيع وأحدثوا بمصر نهضــة علمية في مختلف الدراسات ، على حين أمسى الخلفاء العباســيون في القاهرة اتباعا لسـلاطين المماليك .

وحق لبيبرس أن يفخر بهذه النتيجة التي جعلت السلطنة المملوكية صاحبة الفضل في احياء الخلافة العباسية ، وأمنت السلاطين على مستقبلهم في الشرق الأوسط وسائر العـالم الاسلامي باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها . غير أن مشكلة أخرى عاجلة تطلبت من السلطان حلا عاجلا ، وهي ان المغيث عمر الأيوبي — أمير الكرك — ظل متعلقا بحقه الشرعي في السلطنة بمصر ، بخلاف غيره من أبناء البيت الأيوبي الذين ركنوا الى الهدوء بالشام ورضوا بالعيش في سلام في ظل الحكم المملوكي . وعرفه بيبرس أضــاع المغيث عمر جيد المعرفة منذ لجوئه الى امارة الكرك أيام تشريد أيبك للمماليك البحرية ، واشترك معه في الاغارة أكثر من مرة على الأطــراف المصرية . ولذا أسرع بيبرس على عادته الى مواجهة الكرك رغم وساطة الخليفة العباسي ، ولم يلبث أن ألقى القبض على المغيث وأرسله أسيرا الى القاهرة ، حيث اتهم بالاتصـــال بالمغول والتآمر معهم ، وحكم باعدامه في ابريل سنة ١٢٦٣ .

وعمل بيبرس في هذه السـنوات الافتتاحية الثلاث من حكمه على تنظيم الجيش المملوكي وتجديد بناء الأسـطول واعـــادة توزيع الاقطاعات على الأمراء والأجناد فضـــلا عن عنايته بانشاء الطرق واصلاح الجسـور وحفر القنوات في مختلف البلاد المصرية على مقياس لم تشهده مصر سوى أيام صلاح الدين . كذلك اهتم بيبرس بتقوية حصــون الشام وشحنها بالجنـــد من المماليك ، كما نظم المواصلات البريدية بين دمشق والقـاهرة بحيث صـار تبادل البريد بينهما مرتين في الأســبوع . أما الاسكندرية فعني بيبرس باصــلاح حصونها والسور عليها ، كما عني بمداخل النيل عند رشيد ودمياط باقامة الأبراج والسلاســل لحراستها ، وكل ذلك خشية حملة صليبية مرتقبة ، وفي هــــذه السنوات الافتتاحية كذلك بدأ بيبرس بنـاء الجامع والمدرسة المنسوبين اليه ، كما أنشأ مقبرة للفقراء .

وتدل هذه الأعمال الداخلية المتنوعة على أن بيبرس كان يبني لتســيير والســلطنة المملوكية في قلوب الناس ، وأنه كان يعــد العدة الحربية للقيــام بمشروعات عسكرية ضخمة ، والواقع أنه أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثاني ، واستطاع أن يحــرز نجاحا لا يقل عن نجاح سلفه العظيم ، وذلك في أكثر من جهة واحدة . ذلك انه تعين على السلطان بيبرس حمـاية الأطراف الفراتية لسلطنته من اغارات الدولة المغــولية التي تأسست بعد هولاكو في فارس والعراق ، وعقاب الامارات الصليبية مثل أنطاكية التي

دأبت على محالفة تلك الدولة ؛ وذلك فضلا عن الاستعداد لمواجهة أية حملة صليبية جديدة تأتى من أوربا . وطبيعى انه لم يكن لدى بيبرس أية معلومات عن الدول الأوربية وأحوالها السياسية التى جعلت ارسال حملة صليبية كبرى الى الشرق أمرا غير ممكن أو ميسور ؛ بدليل قيامه بالأعمال التحصينية المتقدمة لتأمين الشواطىء المصرية والشامية ؛ واهتمامه بعقد سلسلة من المعاهدات والعلاقات الودية مع حكام البلاد المجاورة ، ومنهم الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس — وهو الخصم اللدود للصليبيين بالشرق ، وملك صقلية مانفرد هوهنشتاوفن ابن الامبراطور فردريك الثانى . ويبدو أن هذا الحلف بين بيبرس ومانفرد حدا بالأمير شارل الأنجوى هو الآخر الى ارسال بعثة لتأكيد حسن علاقته بالسلطان بيبرس . واستقبل بيبرس هذه البعثة ، وأكرم وفادتها بالقاهرة سنة ١٢٦٤ . وحالف السلطان بيبرس الملك بركة خان صاحب القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق وعاصمتها سراى فى وادى الفولجا ؛ وهو أحد أحفاد جنكيزخان وكان بركة خان على دين الاسلام منذ شبابه ، غير ان العلاقة الدينية وحدها لم تكن هى التى أدت الى هذا الحلف ، بل كان اتجاه الدولة المغولية الفارسية نحو الأقاليم المجاورة لمملكة القبيلة الذهبية هى التى أدت الى تبادل الرسل والبعثات بين القاهرة وسراى ضد هذا العدو المشترك .

أما تحالف بيبرس مع دولة السلاجقة بالروم (آسيا الصغرى) فلم تقل أهمية عن هذه المحالفات السابقة ، لأن الوضع الجغرافى لهذه الدولة السلجوقية جعلها مبعث خطر على الأطراف المغولية الفارسية من ناحية ، وأطراف مملكة أرمينيا الصغرى المسيحية من ناحية أخرى . على أن أعظم ما اهتم له السلطان بيبرس وقتذاك هو احتمال قيام الدولة المغولية الفارسية بهجوم مفاجىء على الأطراف المملوكية الشرقية عن طريق أعالى العراق ؛ ولذلك خرب طريق الغزو ومعابره بين آمد وخلاط ، على حين أصلح القلاع الشامية التى سبق لهولاكو وجنوده تخريبها أثناء الزحف المغولى الأول .

لم يكن عجبا بعد هذه الاستعدادات والتحالفات والاحتياطات ، وبعد المناوشات التجريبية الناجحة التى قام بها بيبرس أوائل سنة ١٢٦٥ ضد الصليبيين والمغول أن يقوم هذا السلطان منذ أواسط هذه السنة بهجمات حربية عنيفة فى أكثر من جهة واحدة . واذا اصطبغت حركاته التالية فى هذه الجهات بكثير من الغدر والنكث والقسوة ، فان هذه الحركات كانت فى ذاتها سلسلة من انتصارات متواصلة دالة على أن السلطان بيبرس امتاز بعزيمة لا تكل ، وعقلية ناشطة ، ومقدرة على استمرار التنقل بين مصر والشام ، تارة لادارة دفة الحكم ، وتارة لتنظيم شئون القتال .

وبدأ بيبرس هذه الانتصارات المتواصلة بالاستيلاء على قيسارية وعثليت وحيفا

وأرسوف من الصليبيين قبـــل أن تنتهي سنة ١٢٦٥ ، ثم عاد الى مصر ليستأنف رحلة تفتيشية لمعرفة أحوال حصون الاسكندرية ، وبيدعم قواته بجيش جديد من المماليك . ثم رجع بيبرس الى الشام سنة ١٢٦٦ ، وأمـــر بمهاجمة المدن الصليبية على امتداد الســـاحل الشامي ، على حين استولى هو على صفد ، وعاد منها الى دمشق للسير بنفسه على رأس حملة ضد مدينة سيس عاصـــمة أرمينيا الصغرى وانتهت هــــذه الحملة الأرمينية بتخريب سيس ، وكل ذلك في سنة واحدة . وبعد زيارة قصيرة للقاهرة أوائل سنة ١٢٦٧، ذهب بيبرس الى الشام حيث تفقد تحصينات صفد الجديدة ، ثم عاد الى القـــاهرة مزهوا بنتائج حروبه . ثم رجع بيبرس الى الشام أوائل العام التالي (سنة ١٢٦٨) فاستولى على يافا وشقيف أرنون ، وألقى الحصار أخيرا على مدينـــة أنطاكية ، وهي وقتذاك عاصمة أهم الامارات الصليبية الباقية بالشام. وحقق الاستيلاء على هذه المدينة للسلطان بيبرس نصرا وأمنا ، فقضى أيام سنة ١٢٦٩ متنقلا في سلام بين مصر والشام وبلاد العرب، وأدى فريضة الحج في تجمل عظيم ، وأكد السيادة المملوكية على مكة والمدينة والحرمين الشريفين وعاد الى القاهرة بعد أن عين واليا في مكة للاشراف على الكسوة التي أعدها السلطان للكعبة مطرزة باسمه بحروف من الذهب .

وفي سنة ١٢٧٠ أجرى السلطان بيبرس مفاوضات مع طائفة الاسماعيلية الحشيشية بالشام ، وتم الاتفاق على أن يدفع شيخ هذه الطائفة — شيخ الجبل — جزية سنوية ثمنا للسلام بين الطرفين . وفي هذه السنة نفسها قام الملك لويس التاسع بحملته الصليبية على تونس ، فرأى بيبرس أن يظل بالقاهرة ليرقب أخبار هذه الحملة عن كثب ، وأعلن استعداده لمساعدة تونس ضد الغزاة الصليبيين . غير أن موت الملك لويس التاسع في تونس بدد جميع مخاوف بيبرس فسار الى الشـــــام سنة ١٢٧١ ، حيث استولى على صافيتا وحصن الأكراد وعكا ، وأعقب ذلك بحركات خاطفة استولى فيها على بعض قلاع الاســـماعيلية عقابا لهم على نقض ما بينه وبينهم من اتفاق وجزية وسلام . ثم رجع بيبرس الى القاهرة أواخر تلك السنة ، لكنه عاد مرة أخرى الى الشام سنة ١٢٧٢ ، حيث تفقد حاميات المدن التي استولى عليها من الصليبيين في حملاته السابقة .

وفي هذه السنة نفسها (١٢٧٢ م) أرسل بيبرس أسطولا عدته احـــدى عشرة سفينة للاغارة على قبرص ، فحطمته عاصفة قرب ليماسول ولم تستطع سفينة من سفنه أن تصل الى الشاطىء القبرصي . وفي العام التالي أي سنة ١٢٧٣ غادر بيبرس دمشق الى البيرة على الفرات ، لدحر غارة مغولية تلك السنة . فأنزل بالمغيرين هزيمة كبرى بعد أن عبر النهر سابحا على رأس قواته لملاقاتهم . وفي طريق عودته الى دمشق استولى بيبرس على بقية

قلاع الاسماعيلية ، على حين كانت قوات مملوكية تعمل في برقة وأرمينيا الصغرى ، فضلا عن النوبة التي اعتمدت منذئذ على الدولة المملوكية في حل مشاكلها الداخلية ، ولا سيما وراثة عرش مملكة النوبة .

وشعرت الامارات الصليبية وقتذاك بأن مستقبلها يتطلب هدنة عامة عقدها بيبرس مع كل من هذه الامارات سنة ١٢٧٤ ، وربما كانت هذه الهدنة هي التي شجعته على الزحف بنفسه على أرمينية الصغرى سنة ١٢٧٥ ، حيث استولى على سيس وأياس ، كما شجعته على الزحف بقوة حربية مرة أخرى الى أقصى الشمال سنة ١٢٧٦ ، حيث أحرز انتصارا كبيرا على قوات المغول والسلاجقة بالروم ، ودخل العاصمة السلجوقية قيصرية وجلس على عرش سلاطينها ، وأخيرا عاد بيبرس الى دمشق أوائل سنة ١٢٧٧ وتوفي تلك السنة وهو في أوج مجده بعد مرض قصير بسبب تناوله شرابا مسموما .

ويقال ان بيبرس كتب في أواخر أيامه وصيه الى السعيد بركة ، وهو أكبر أبنائه وولي عهده في السلطنة وانه نصحه في هذه الوصية بالحذر من كبار الأمراء بما نصه - « فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك ، وتحققت ذلك عنه ، فاضرب عنقه في وقته ، ولا تمهله ، ولا تستشر أحدا في هذا ، وافعل ما آمرتك به والا ضاعت مصلحتك » على أن الخطر على سلطنة بركة هذا جاء اليه من مأمنه في أغسطس سنة ١٢٧٩ ، حين خلعه حموه قلاوون ، وأقام مقامه ابنا ثانيا لبيبرس ، وهو طفل في السابعة من عمره اسمه سلامش . ثم لم يلبث قلاوون أن خلع سلامش كذلك في نوفمبر سنة ١٢٧٩ ، وأقام نفسه سلطانا .

وكان السلطان قلاوون — مثل بيبرس — من المماليك البحرية ، وشارك زملاءه زمن أيبك ، وعاد الى مصر صحبة بيبرس تلبية لنداء قطز في تعبئة القوى لصد المغول . ولما آلت السلطنة الى بيبرس خدمه قلاوون أحسن خدمة ، وظهرت كفايته في الحرب ضد المغول وأرمينيا الصغرى ، ولكنه بدا مغضوبا عليه أواخر أيام بيبرس لأسباب غير واضحة ، وواجه قلاوون معارضة قوية لسلطنته ، واصطبغت هذه المعارضة بشيء من الولاء لأبناء بيبرس ، وهي في الواقع لم تخرج عن أن بعض أمراء المماليك الذين أسهموا بقسط وافر في الانتصارات البيبرسية أحسوا بأن لهم حقا مثل قلاوون في السلطنة .

ومن هؤلاء سنقر الأشقر نائب دمشق الذي أعلن نفسه سلطانا بها ، ووجد تلبية لحركته في الشام وفلسطين . واستطاع قلاوون أن يقضي على هذه الحركة في وقعة حربية جنوبي دمشق ، غير ان سنقر تمكن من الفرار ، وذهب الى بلاط ايلخان أبغا بن هولاكو يطلب نجدته . وكان أبغا من أشد الدعاة لمشروع التحالف بين الصليبيين والمغول ضد المماليك ، مستعدا تمام الاستعداد لمساعدة أية حركة ثورية ضد السلطنة

المملوكية فى مصر أو الشام ، ولذا تحمس أبغا لنجدة سنقر ، وغزت فرقة مغولية شمال الشام فى سبتمبر سنة ١٢٨٠ ، ودمرت كثيرا من القوى المحيطة بحلب ، وخرج قلاوون الى الشام لمواجهة هذا الغزو ، على حين أرسل الى سنقر يسترضيه بأن تكون له بعض المدن فى شمال الشام ليحكمها حكما مستقلا ، وأن تكون مرتبته من حيث الوظيفة والاقطاع تالية لرتبة السلطان . وبفضل هذه الترضية استطاع قلاوون أن يركز جهوده ضد الغزاة الذين زحفوا نحو حلب مرة أخرى بقيادة منكوتمر — أخى أبغا ، تؤازرهم فئات من أرمينيا الصغرى وجورجيا وغيرهما من البلاد التى خضعت للمغول . وأخيرا وقعت الواقعة بين الطرفين عند حمص (أكتوبر سنة ١٢٨٠) حيث انهزم منكوتمر ، واضطر الى الانسحاب من الشام .

وبعد ذلك بعام توفى أبغا وخلفه فى الايلخانية الفارسية أحمد تكدار الذى ترك المغولية واعتنق الاسلام ، ودلت خطاباته الودية الى قلاوون على مدى تعلقه بدينه الجديد وهى خطابات كرر فيها تكدار رغبته فى العيش فى ظلال السلام مع جميع البلاد الاسلامية المجاورة . غير أن الايلخانية نفسها لم تشارك فى هذه الرغبة ، حتى اذا اعتلى عرشها سنة ١٢٨٤ أرغون انقلبت سياسة تكدار رأسا على عقب ، وأخذ أرغون فى احياء مشروع أبغا لانشاء حلف صليبى — مغولى ضد السلطنة المملوكية . على أن هذا المشروع لم يتحقق يوما من الأيام مع العلم بأن قلاوون نفسه كان يخشى تحقيقه فى عهده ، بدليل ما حرص على عقده من محالفات وصلات مع ممثلى القبيلة الذهبية والامبراطورية البيزنطية وملوك فرنسا وقشتالة وصقلية ، وجمهورية جنوا ، فضلا عن الامبراطور رودلف هابسبرج ، مقتفيا فى ذلك أثر سياسة بيبرس .

وفى طريقه لصد الغزو المغولى ، أى قبل وقعة حمص ، جدد قلاوون الهدنة العامة التى عقدها بيبرس فى أواخر أيامه مع المدن الصليبية . وكانت هذه الهدنة لمدة عشرة أعوام ، فأضاف اليها قلاوون شروطا مجحفة دالة على مدى ما صارت اليه الامارات الصليبية الباقية من ضعف واضمحلال . ومع هذا لم يكن فى نية قلاوون أن يحترم هذه الهدنة بعد فراغه من المغول ، اذ أراد — مثل بيبرس — أن يقوم كذلك ضد الصليبيين بدور حربى مشابه لما قام به صلاح الدين . ولذا لم يكد قلاوون يعلم بخيبة مشروع أرغون فى عقد حلف مغولى صليبى ضد سلطنة المماليك حتى أخذ هو يركز جهوده ضد المدن الصليبية .

وكان قلاوون عندئذ فى الخامسة والستين من عمره ، ويبدو أنه اشتهى أن يختم حياته بصفحة من الجهاد الذى أكسب بيبرس شهرته فى خدمة الدين . وجعل قلاوون هدفه الأول حصن الاسبتارية بالمرقب قرب الأطراف الشمالية لامارة طرابلس ، فهاجمه والعم

أسواره في سرعة أذهلت حاميته واضطرها الاستشارية الى التسليم والجلاء في مايو سنة ١٢٨٥ . ثم زحف قلاوون صوب مرقية وهي قلعة حصينة على ساحل البحر ، وصاحبها تابع اقطاعي للكونت بوهيمند السابع أمير طرابلس . وأنذر قلاوون الكونت بوهيمند بأنه اذا لم تتجرد هذه القلعة من سلاحها وحاميتها ، فانه سوف يشن الحرب على امارة طرابلس نفسها . فأسرع بوهيمند الى اصدار التعليمات بتنفيذ ذلك سنة ١٢٨٦ ، في سبيل انقاذ الامارة الطرابلسية . وأسرعت كذلك مرجريت أميرة مدينة صور الى شراء الصلح من قلاوون بشروط من املائه ، وعقد ليو الثالث ملك أرمينيا الصغرى اتفاقية مشابهة تعهد فيها بدفع جزية سنوية باهظة للسلطان .

واحس قلاوون بأنه حقق مغانم كبيرة من الصليبيين في عسير عناء ، فأغراه هذا التوفيق بخصيمه القديم سنقر الأشقر ، واستطاع أن يخرجه من امارته الواسعة في شمال الشام سنة ١٢٨٧ ، وأن يحمله على القنوع بالعيش في القاهرة بطالا ، أي بعيدا عن الحياة السياسية .

وفي السنة التالية (١٢٨٨) انصرف جهود قلاوون الى النوبة ، اذ أرسل حملتين تأديبيتين لتنظيم العلاقة بينها وبين السلطنة المملوكية على قاعدة التبعية التي أنشأها بيبرس سابقا . وفي السنة نفسها توفى بوهيمند السابع أمير طرابلس دون أن يعقب وريثا ، فأغرت الخلافات الصليبية حول هذه المشكلة قلاوون بالاستيلاء على مدينة طرابلس لنفسه، وحاصرها وضرب حصونها ، حتى تم له الاستيلاء عليها سنة ١٢٨٩ . وبعد ذلك بقليل استولى قلاوون على قلعة البطرون جنوبي طرابلس بعد أن خربها هي الأخرى ثم عاد الى مصر حيث أعد العدة لحصار عكا ، وهي البقية الباقية للصليبيين بالشام بعد أن ادعى أن التجار المسلمين يعاملون فيها معاملة سيئة ، تبريرا لما بينه من زحفه حربي صدها . غير أنه مرض ومات قبل أن يحقق هذه الخطوة النهائية ضد الصليبيين وكانت وفاته في (نوفمبر سنة ١٢٩٠) بمعسكره خارج القاهرة ، وهو في السبعين من عمره .

واذ اقتفى قلاوون أثر بيبرس في سياسته ضد الصليبيين والمغول ، بحكم تشابه الأهداف والأحوال ، فانه اقتفى أثر بيبرس كذلك في اقامة المباني والمآثر في مدن مصر والشام ، بما في ذلك مسجد وضريح مشهوران بالقاهرة . أما المستشفى العام (البيمارستان) الذي أنشأه قلاوون بالقاهرة ، فاكسب صاحبه شهرة خاصة ، مع العلم بأن هذا المستشفى لم يكن الأول من نوعه في قاهرة العصور الوسطى . واهتم قلاوون بتنظيم الجيش المملوكي ورفع مستواه ، وأضاف اليه فرقة جديدة تبلغ ثلث عدده القديم ، وجعل اقامة هذه الفرقة الجديدة بأبراج القلعة ، ومن ثم تسمى أفرادها باسم البرجية .

وعين قلاوون ابنه الأكبر عليا ليكون خلفا له في السلطنة ، غير أن هذا الابن توفى في حياة أبيه ، فصار أخوه خليل هو الوريث التالي ، برغم ما اشتهر به من ميل الى العنف

والشر ، فضلا عن الظن بأنه دس السم لأخيه الشوق .

ولذا رفض قلاوون التوقيع على تعيين خليل لولاية العهد ، وقال « أنا ما أولى خليلا على المسلمين » أملا منه في الاحتفاظ بولاية العهد لابن صغير أنجبه في أخريات أيامه من زوجة مغولية شابة ، اسمه محمد . لكن وفاة قلاوون على غير انتظار لم تترك مجالا للتردد، وأقيم خليل في السلطنة وعلم في اجتماع مجلس المشورة بإعلان سلطنته في نوفمبر سنة ١٢٩٠ ، وتقليده بولاية العهد ، فقال « ان السلطان امتنع أن يعطيني ، وقد أعطاني الله » .

غير ان السلطان خليل اســـاق وراء ما اشتهر به من ميل الى الشر والعنف ، فعكف على الانتقام من رجال أبيه ، اعتقادا منه بأنهم السبب في تشويه سمعته واتهامه بدس السم لأخيه . ولذا بدأ حكمه من هـذه الناحية الداخلية سلسلة مخيفة من أعمال المصادرة والتعذيب والسجن والقتل ، وكان الأمير طرنطاى خصيمه القديم أول من ناله كل هذا وذاك حتى مات في السجن . واقتابت خليل مع هذا نوبات من كرم الخلق وحسن السلوك اذ نزل مثلا عن أملاك طرنطاى لابنه ، وأعفى أرض مصر والشام من المتأخر عليها من بعض الضرائب من عهد أبيه ، كما أنه أحيا ذكرى أبيه قلاوون احياء سنويا حافلا .

أما من ناحية السياسة الخارجية ، فدلت أعمال خليل على شجاعة ومقدرة وقوة كما هو واضح من تصرفاته في أكثر مواقفه . ذلك أنه أخذ في تنفيذ مشروع أبيه للزحف على عكا ، فأضاف الى الاستعدادات الكائنة امدادا من الجند وكميات من أدوات القتال ، حتى فاقت آلات الحصار حول عكا في ربيع سنة ١٢٩١ أية كمية سابقة ضد أية مدينة من مـــدن الصليبيين بالشرق . على أن عكا كانت هي الأخرى محصنة تحصينا قويا ، ولذا قاومت مقاومة مستمرة عشرة أيام متتابعة ، حتى قرر خليل مهاجمتها والاستيلاء عليها عنوة .

وهنا يضيق المجال عن وصف أعمـــال الشجاعة والبطولة التي بذلها المهاجمون والمدافعون سواء ، مع العلم برجحان كفة الجيوش المملوكية ، بعد أن بات الصليبيون وليس لهم في الشام من المدن الكبرى سوى عكا . ثم كان الهجوم النهائي على عكا صباح يوم الجمعة ١٨ مايو سنة ١٢٩١ ، فغادت المدينة لمدة عشرة أيام منذ ذلك الصباح ميدانا للهجوم والدفاع ، والكر والفر حتى انتهى الأمر بهدم تحصيناتها وسقوط المدينة نفسها في أيدي جيوش السلطان خليل ابن قلاوون . وهكذا سقطت عكا آخر معاقل الصليبيين بالشام ، وفي بضعة الأشهر التالية تم الاستيلاء على سائر المدن الساحلية التي كانت لا تزال في قبضة الصليبيين ، فهدمت جميعها ، ماعدا بيروت التي استجابت الى طلب التسليم بدون قتال .

وأخيرا رحل السلطان خليل عن عكا الى دمشق ، وفي موكبه عدد كبير من الأسرى

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

ثم عاد خليل الى القاهرة واول سنة ١٢٩٢ [illegible]
لاهو مشغول بمشروعات عريضة واسعة الفتح [illegible]
والغزو بعد توقيعه الذى جعله بطل النصر [illegible]
الشامي على الصليبيين ، ولذا عزم خليل الى [illegible]
الخليفة العباسي بأن يعلن الجهاد [illegible]
المغول ، وخرج بنفسه على رأس حملة الى [illegible]
الاراضي العراقية ، لكن جهوده في [illegible]
الحملة لم تعد حصار قلعة الروم والاستيلاء [illegible]
عليها وتسميتها قلعة المسلمين ([illegible]
سنة ١٢٩٢) وهي مدينة محصنة [illegible]
[illegible] وأمضى خليل [illegible] هذا بالقبض [illegible]
على عدد من رجال حكومته غداة عودته الى [illegible]
القاهرة واتهمهم باثارة المتاعب [illegible] أثناء [illegible]
غيابه [illegible]

[illegible] أخذ خليل [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
بالعاصمة حتى وصلت اليه [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
بالزحف على بغداد التى اغتصبها المغول [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]) [illegible]
بضع عدة أيام .

ولم يخلف خليل سوى ابنه [illegible]
فلم يكن ثمة مجال مثلا الى تكرار قصة شجر [illegible]
الدر باقامة هذه البنت مؤقتا في السلطنة ، [illegible]
[illegible] زعماء الدولة في اخر سنة ١٢٩٣ الى [illegible]
تنصيب أخي خليل ، وهو كذلك ولد في [illegible]
التاسعة من العمر ، وهو الناصر محمد ، وذلك [illegible]
ريثما يتفقون على اختيار واحد منهم [illegible]
للسلطنة على طريقتهم المعهودة ، غير أن هذه [illegible]
الطريقة المملوكية لم تنفع رغم عزل الناصر [illegible]
محمد هذا عن السلطنة [illegible]
الأمراء الى اعادة تنصيبه كذلك مرتين ، أي [illegible]
أنه تولى السلطنة ثلاث مرات ١٢٩٣ ، ١٢٩٨ ، [illegible]
١٣٠٩ . [illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]

القرن الخامس [illegible]

ويحكم الناصر محمد [illegible] دولته حكماً [illegible] جديدة مكسوة بمناعم القطيفة على طول [illegible] التصير الأوربي [illegible] سلطنته الثالثة التي امتدت حتى وفاته سنة ١٣٤١ أزهى عصور السلطنة المملوكية على الإطلاق [illegible] أن هذا العهد لا [illegible] الحكم عليه [illegible] الطول والاستمرار [illegible] بما ساده من رخاء عام [illegible] وخلو من الحروب [illegible] واهتمام برجال العلم وتشجيعهم ، فضلاً عما امتاز به [illegible] من هيبة في أوربا وآسيا ، وما زخرفت به حياة [illegible] بالقاهرة من الرونق والأبهة . واشتهر الناصر محمد بالولع بالعمارة والفنون واقتناء التحف [illegible] ، فلم يضارعه في ذلك أحد في زمنه [illegible] في التاريخ المملوكي ، ولم يستطع أحد من الأمراء [illegible]

[illegible]

والقصور الرائعة ، بفضل ما توافر من الموارد الضخمة المستمدة من التجارة العالمية ، وبفضل ما أجراه الناصر في زمنه من إصلاحات في طرق الزراعة في كل من مصر والشام .

واذ تولى السلطنة المملوكية بعد الناصر محمد ثمانية من أبنائه ، واثنان من أحفاده ثم اثنان من أبناء أحفاده على التعاقب ، فيتضح من هذا وحده أن شيئا من مبدأ تولية الابن الأكبر الحكم أخذ محل ما سبق تفصيله من تنصيب أمير السلطان المتوفى مؤقتا على الطريقة المملوكية المعهودة . ولذا أشبهت هذه السلسلة الطويلة من أبناء السلطان الناصر محمد سلسلة الملوك الميروفنجيين المتأخرين الذين حكموا فرنسا أوائل العصور الوسطى . غير أن سلطنة الواحد من أولئك السلاطين من أبناء الناصر وأحفاده لم تمتد الا بمقدار ما سمح به زعيم أو آخر من زعماء المماليك ، وظل الأمر على ذلك تقريبا حتى استطاع برقوق ، زعيم المماليك البرجية ، أن يتخلص من آخر سلالة الناصر محمد في سنة ١٣٨٢ ، فأضحى بذلك أول سلاطين المماليك البرجية أو الجراكسة في مصر .

وفي خلال هذه المرحلة التي استغرقها حكم أولاد الناصر وأحفاده ، ومدتها البالغة احدى وأربعون سنة ، وقعت ثلاث حوادث تختلف في أهميتها ودلالتها في التاريخ المملوكي . وأول هذه الحوادث الوباء الكبير المعروف في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى باسم الوباء الأسود ، وهو الوباء الذي أنزل الفناء والدمار بأهل مصر وسائر سكان الشرق الأوسط بين سنة ١٣٤٨ وسنة ١٣٥٠ ، وامتد كذلك الى أوربا وأدى الى خسائر فادحة في الأرواح والماشية والزراعة وترتب عليه نتائج اقتصادية واجتماعية في الشرق والغرب .

أما الحادث الثاني فهو أن أسطولا مؤلفا من سفن قبرص ورودس والبندقية وجنوه ، جاء بجنسود من عناصر مختلفة ، وهاجم الاسكندرية في خريف سنة ١٣٦٥ وتولى قيادة هذا الأسطول بطرس الأول لوزيجنان ملك قبرص ، وهو الذي أنشأ طائفة الفرسان الصليبيين المعروفة باسم طائفة السيف ، لاسترجاع بيت المقدس من المسلمين . واستولى هذا الأسطول على الاسكندرية واستباحها جنوده أسبوعا ، فلم يسلم من شرهم ونهبهم مسلم أو يهودي أو مسيحي . ثم غادر الأسطول مياه الاسكندرية ، بعد أن حملت سفنه ما يقرب من خمسة آلاف أسير من الرجال والنساء من اليهود والمسلمين والنصارى ، ويروي شاهد عيان من المسلمين أن سبعين سفينة من هذه السفن أبحرت من ميناء الاسكندرية محملة بأنواع الغنائم ، فضلا عن هذا العدد الكبير من الأسرى . وأعقبت هذه الكارثة مفاوضات تعرضت للفشل والانقطاع بسبب ما جرى من حين الى آخر من اغارات قبرصية على سواحل الشام ومصر للضغط على السلطان وأخيرا تقرر عقد الصلح بين قبرص والسلطنة المملوكية

سنة ١٣٧٠ بعد أن توسط بينهما كل من جمهوريتي جنوة والبندقية .

أما الحادث الثالث فيرتبط بالمملكة المسيحية في ارمينيا الصغرى باقليم قليقية بأطراف آسيا الصغرى مما يلي الشام ، اذ دأبت هذه المملكة منذ تأسيسها على تقديم المساعدة للصليبيين في الشرق ، فأصبحت بذلك هدفا للاغارات المملوكية المتكررة . فلما سقطت عكا في يد السلطان خليل غدت مملكة ارمينية الصغرى هدف الهدف التالي للحملات المملوكية ، حتى استولى أمير حلب المملوكي على عاصمتها سيس ، سنة ١٣٧٥ ، باسم السلطان شعبان ، واقتسم الأمراء المملوكيون أراضي هذه المملكة ، بعد اعلان تبعيتهم للسلطنة المملوكية . أما ليو السادس آخر ملوكها فانه وقع أسيرا ، وحمل الى القلعة بالقاهرة حيث بقي في أسره الى أن جرى افتداؤه سنة ١٣٨٢ ، وهذه السنة هي التي صار فيها برقوق أول سلطان في دولة المماليك الجراكسة أو الدولة المملوكية الثانية.

يبقى للقارىء هنا بعد هذا العرض العابر تصور عام للحكم المملوكي من حيث البناء السياسي ونظم الحكم والجهاز الاداري والاقتصادي ، فضلا عن التركيب الاجتماعي والحركة الفكرية ، والنشاط البنائي المعماري الذي اشتهر به عصر سلاطين المماليك وأول ما يبدو واضحا من ملامح هذا التصوير ان أقلية حربية مملوكية حاكمة مستندة الى طبقة عسكرية من المماليك هي التي تسيطر على البلاد . ورمز سيطرتها سلطان هو نفسه مملوك من هذه الطبقة الا اذا كان ابنا لسلطان وأحاط زعماء هذه الاقلية المملوكية الحاكمة بالسلطان وكلهم بدأوا حياتهم مثله مماليك صغارا في الجيش السلطاني الخاص أو جيوش الأمراء ثم تدرج الواحد منهم في المراتب العسكرية تدرجا متناسبا مع طبقته . وكان المماليك جميعا — مثل السلطان — غرباء عن البلاد ، ينتمون الى بلاد وأصول عديدة ، واذ كان معظمهم في القرن الثالث عشر من عنصر القفجاق الذين انتمى اليهم بيبرس وقلاوون فان أفرادا منهم جاءوا من ايطاليا والمانيا وروسيا والصين ونشأ أولئك المماليك على أساس من الفروسية الاقطاعية ، وفق مراتب عسكرية ووظائف سياسية معينة ، بحيث غدت في أيديهم جميع المناصب العسكرية والوظائف البلاطية واقطاعاتها فضلا عن الوظائف الادارية الكبرى واقطاعاتها في مصر وسائر أقاليم الدولة المملوكية . وكانوا جميعا مسلمين منذ اندماجهم في الزمرة المملوكية ، وأطلق عليهم عموما اسم رجال السيف تمييزا لهم من رجال القلم ، وهم أصحاب الوظائف الديوانية المدنية ، من أهالي البلاد المسلمين وغير المسلمين ، ويبلغ عدد غير المسلمين في الوظائف الديوانية ، ولاسيما الوظائف المتعلقة بالأموال وحسابها أعدادا كبيرة معظم الأحيان .

[illegible]
[illegible] عسكرية [illegible]
[illegible] الدولة [illegible]
[illegible]
[illegible]
أن [illegible]
أو [illegible]
[illegible] الاقطاعات [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الاقطاع [illegible]
[illegible] المماليك [illegible] الذين [illegible]
في حروب السلطان واختص ديوان الجيش
[illegible] الاقطاعات [illegible] واذا [illegible]
هذا الديوان كذلك باسم ديوان الاقطاع
[illegible] الاقطاعات [illegible]
من المطلوبات [illegible]
[illegible] على أرباب السيوف وأرباب
القلم كذلك في مناسبات معينة من السنة
عن طريق ديوان [illegible]
الدولة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
عشر والتنظيم الاقطاعي [illegible]

[illegible]
في أصولهما [illegible]
[illegible] الاقطاع
[illegible]
[illegible] الاقطاع [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] السلطان [illegible]
[illegible]
[illegible] السلطنة [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] على [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
السلاطين المماليك في [illegible]
من الأمراء المماليك [illegible] السلطان [illegible]
[illegible] السلطان [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible] السياسية أو الاجتماعية بل اشتغلوا في [illegible]

[illegible] اليه [illegible]

[illegible]

[illegible] المصري [illegible]
[illegible]
ابن خلدون [illegible] شرح أحوال الدولة
المملوكية وأهلها [illegible] مصر في
[illegible]
غاية [illegible] إنما هو سلطان
[illegible]
ورعية [illegible] ودولتها قائمة بملوك الترك
[illegible]

[illegible]

[illegible]

الاحتفالات المملوكية [illegible]
السلطان ظافرا من الحرب أو الاحتفال بختان
[illegible] ابن السلطان أو بزواج ابنته

[illegible] الصليبيين والمغول على مصر [illegible]

[illegible]

برغم أجنبيتهم عن مصر التي عدت مركز سلطنتهم ، أو كان كونهم جديدين على شئون الحكم جعلهم يشعرون شعورا خاصا بمسئولياته ، أو كان حداثة عهدهم بالاسلام جعلتهم متحمسين لاقامة الشعائر الدينية ، من باب التقوى والزلفى الى الله ، أو من باب السياسة واجتذاب القلوب . وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن السلاطين المماليك عنوا أكبر عناية بتخليد أسمائهم في منشئات معمارية أعطت ملامح القاهرة ومعالمها وآفاقها مسحة من الجمال الهندسي والذوق الفني بالاضافة الى مسحتها التي امتازت بها منذ أيام الفاطميين والأيوبيين .

ومن هذه المنشئات المعمارية المملوكية عدد كبير من المساجد والمدارس والخوانق التي تزين السماء القاهرية بقبابها الرائعة ، من مآذن سامقة وقباب فاخرة ، وتملأ أحياء القاهرة القديمة بآثار لا يرى فيها الزائر سوى صنها البليغ . وأول هذه المنشئات مدرسة بناها السلطان المعز أيبك التركماني بمصر (مصر العتيقة الحالية) ، على شاطيء النيل ، قبالة مقياس جزيرة الروضة ، وأطلق عليها اسم المعزية نسبة اليه وهي فيما يرجح أول مباني الدولة المملوكية بالقاهرة ، وأعقب هذه الفاتحة المعمارية سلسلة من المباني المتنوعة الدالة بكثرة عددها على استقرار الدولة المملوكية نفسها ، واقتناع سلاطينها بما لتلك المباني من نصيب في ذلك الاستقرار ، فضلا

عن تأثيرها في مصائر السلاطين أنفسهم في الحياة الدنيا والآخرة . ولذا بنى السلطان الظاهر بيبرس مسجده العظيم المعروف باسمه، والذي يعرف به أحد أحياء القاهرة الحالية ، وهذا المسجد بالاضافة الى المدرسة الظاهرية وهي كذلك بالقاهرة بشارع النحاسين . أما السلطان المنصور قلاوون ، فهو صاحب المارستان المنصوري الذي وصفه أحد مديريه الاداريين ، وهو النويري المؤرخ ، وصفا تفصيليا في كتابه : « نهاية الأرب في فنون الأدب » ولا يزال جزء من هذا البناء يستخدم لعيادة طبية لأمراض العيون ، ويسمى مستشفى قلاوون ، ولهذا السلطان وعهده يرجع كذلك بناء المدرسة المنصورية ومدرسة زوجته أم ابنه الأكبر الصالح علي ، ومدرسة ابنه الثاني خليل ، وهذه وتلك فضلا عن القبة المنصورية ، ومكتب السبيل المخصص لتعليم الأيتام .

ثم يأتي بعد ذلك عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهو عصر الذروة المعمارية المملوكية ، بكل ما في ذلك الوصف من معنى ، اذ استمر الحكم الفعلي المباشر لهذا السلطان مدة اثنين وثلاثين سنة (١٣٠٩ — ١٣٤١) ، وخلت هذه السنوات الطويلة من أية حروب خارجية أو فتن داخلية كبرى ، فانصرف السلطان — ونساؤه وامراؤه معه — الى أعمال معمارية مختلفة المقاصد والمنافع ، وأولها من حيث الأهمية عدد حافل من

الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والقباب ، اذ هي تبلغ نحو تسعين مبنى ، ومنها على سبيل المثال جامع السلطان الناصر محمد نفسه بالقلعة ، ومسجد الأمير الطنبغا المارديني ، بالتبانة ، ومدرسة الأمير اقبغا عبد الواحد داخل الجامع الأزهر ، وخانقاه الأمير قوصون بالقرافة القبلية ، وقبة طشتمر حمص أخضر بالقرافة الشرقية ، وجامع ست حدق القهرمانة بحي الناصرية . ويضيق المجال هنا عن ذكر ما عدا ذلك من هذه المباني التي تملأ أوصافها صفحات من كتاب المقريزي الذي عنوانه : « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » .

وبالاضافة الى هذه المنشآت ذوات الصفات الدينية والتعليمية والتذكارية أنجب النشاط المعماري المملوكي مجموعة معمارية ثانية من القصور السلطانية والدور الأميرية التي بناها السلاطين لأنفسهم أو لأمرائهم ، أو بناها الأمراء اقتداء بمخدومهم سلاطينهم بالعمار . واذ أنتجت عهود السلاطين العسكريين وهم أيبك وقطز وبيبرس وقلاوون وخليل ، عددا قليلا نسبيا من هذا النوع الثاني من المنشآت السلمية ، نظرا لاهتمامهم بالمنشآت العسكرية ، فان هذه القلة النسبية أبرزت عظمة النشاط المعماري الذي امتاز به عصر السلطان الناصر محمد ، وتوصل ذلك أنه على حين اقتصر عصر السلطان بيبرس على بناء القصر المعروف بالدار الجديدة بالقلعة (مواعظ ٢ — ٢١٢) واقتصر عصر السلطان قلاوون على مبانيه التي تقدمت الاشارة اليها ، كما اقتصر عصر السلطان خليل بالدار الأشرفية وقصر الرفوف (مواعظ — ٢ — ٢١٣) امتلأ عصر السلطان الناصر محمد بعدد كبير من هذه المنشآت السكنية ، ومطلعها القصر الأبلق الذي بناه السلطان الناصر لنفسه ، وجعله مطلا على الميدان المخصص للعب الأمراء بالكرة والصوالجة (البولو) وعمر السلطان الناصر كذلك القصر المعروف باسم السبع قاعات بقلعة الكبش (مواعظ ٢ — ٢٦٢) ، وجعله لجواريه وسراريه ، كما انه عمر بالقلعة لكل أمير من الأمراء أزواج بناته الاحدى عشرة دارا خاصة . ثم ان السلطان الناصر عمر عدة قصور لغير أولئك الأزواج من كبار الأمراء ، ومنها قصر طقتمر الدمشقي بحدرة البقرة وقصر بكتمر الساقي على بركة الفيل ، وقصر بهادر الجوباني تجاه قلعة الكبش (سلوك — ٢ — ٥٤٠) . ولم يكتف هؤلاء وأولئك من الأمراء بما أغدق عليهم السلطان الناصر محمد من منشآته ، بل أخذوا يتنافسون فيما بينهم لتشييد قصور اضافية لأنفسهم ، وهي قصور امتدت على طول الخليج الناصري (الخليج المصري) من قرب ميدان باب اللوق الحالي الى بلدة سرياقوس الواقعة على مسافة عشرة كيلو مترات شمالي القاهرة الحالية ومن هذه القصور دار الأمير ايدغمش أمير آخور ، دار آقبغا ، ودار طقزدمر .

[illegible]

[illegible] أم السلطان شعبان .

[illegible]

***

[illegible]

هذه خلاصة صغيرة لناحية كبيرة من عديد [illegible] نواحي الحضارة المصرية [illegible] المماليك ، وهي تقرب [illegible] الحضارة [illegible]

[illegible]

والهوامش والحواشي عن ظهر قلب وهؤلاء وأولئك فضلا عن الصوفية ، وهم في خوانقهم وربطهم وزواياهم منصرفون الى [illegible] والدرس [illegible] الوعظ والارشاد .

غير ان المجال لا يتسع لغير [illegible] الاجتماعية العابرة ، ولذا يحسن استكمال موضوع المنشآت المملوكية بذكر منشآتهم [illegible]

[illegible]

بيبرس يعقد بها مجلسين في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع فيستعرض شئون [illegible] ، ويستمع الى الشكاوى التي تصل اليه . ومن هذه المباني السلامة بالقلعة كذلك دار النيابة التي بناها السلطان [illegible] — وجعلها مقرا لأعمال نواب السلطنة ، وهي التي صار شباكها المشهور مصدرا [illegible]

[illegible]

الدولة المملوكية الثانية

للدكتور محمد مصطفى زيادة

(١٣٨٢ — ١٥١٧ م)

دلّ المقريزي المؤرخ على حساسية قوية بالحتمية التاريخية الدينيـة ، حين وقف في كتابه : « السلوك لمعرفة دول الملوك » عند منتهى أيام السـلطان حاجي بن شعبان ، وهو آخر سلاطين الدولة المملوكية الأولى ، وقال معقباً : « فسبحان محيل الأحوال ومديل الدول » ؛ ثم بدأ في السطر التالي بداية عهد السـلطان برقوق ، وهو أول سلاطين الدولة المملوكية الثانية . بعبارة أخرى وقف المقريزي وقفته هذه ليودّع دولة ويستقبل أخرى في آن واحـد ، لأنه يعلم تمام العلم أن الدولة المملوكية الثـانية لن تكون في جملتها أو تفصيلها سـوى امتداد للدولة المملوكية الأولى من حيث الخصـائص الحضـارية ، والتنظيمات الادارية ، والاتجاهات الاقتصادية والقواعد السـياسية ، وهذا فضلا عما انتشر بين أهل مصر والشام وغيرهما من الولايات المملوكية من الرضى العام بالحكم المملوكي — أوله وثانيه — رغم أجنبيته وصبغته الاستعلائية على أهل البلاد .

غير أنه لم يكن من المنتظر أن يمر حادث خلع السلطان حاجي واقامة السلطان برقوق دون احتجاج من ناحية بعض الشـخصيات المملوكية التي سئمت حكم السلطان المخلوع كما نقمت على السلطان الجديد وصوله الى دست السلطنة . ولذا لم تلبث هذه الشخصيات المملوكية أن تآمرت لاقامة الخليفة المتـوكل العباسي سلطانا في دولة من نوع جديد ؛ كما لم يلبث السلطان برقوق أن هدم هذه المؤامرة سـنة ١٣٨٣ ، لكن مؤامرة ثانيـة تكونت سـنة ١٣٨٩ ، وتزعمها أميران مملوكيان مناهضان للسلطان برقوق ؛ وهما منطاش أمير حلب ، ويلبغا أمير ملطية . واستطاعت هـذه المؤامرة الثانية أن تقبض على السلطان برقوق وترسله منفيا الى الكرك ، وأن تقيم الصبي حاجي في السلطنة مرة أخـرى . ثم هرب برقوق من سجنه ، وجمـع لنفسـه جيشا استطاع به أن يستعيد مركزه ، وأن يدخل القاهرة سنة ١٣٩٠ محوطا بأنواع الاحتفال والترحيب ، بعد أن أمر بخلع الصبي حاجي ، مع السماح له بالاقامة بالقلعة وسط جواريه ومغانيه .

وبينما يتغلب برقوق على هذه الأخطار الداخلية ظهرت في الأفق الخارجي أخطار من

ناحية الدولة المغولية التي أسسها القائد الصاعقة تيمورلنك ، وأزعج بها أرجاء آسيا الوسطى والهند والشرق الأوسط ، أواخر القرن الرابع عشر الميلادي . ذلك أنه لم يكد تيمورلنك يعود من فتوحاته المخربة بالهند حتى بدأ متعطشا للحركة بجنوده للبحث عن ميدان جديد للحرب والتدمير ، فزحف على العراق واستولى على بغداد سنة ١٣٩٣ ، وعلى ماردين في السنة التالية ، وهي مدينة تابعة للسلطنة المملوكية وقتذاك . ولم يكن السلطان برقوق تعوزه الشجاعة ، فنهض لمقاومة هذا الخطر المحدق ، واستطاع أن يقيم جبهة قوية متحدية لتهديدات تيمورلنك وانذاراته . وأول ما قام به برقوق في سبيل تكوين هذه الجبهة أنه اتصل بملوك البلاد المعرضة لحركات تيمورلنك ، وهم قرا يوسف التركماني ، وبرهان الدين أمير سيواس ، وبايزيد الأول السلطان العثماني ، وطقتمش خان القبيلة الذهبية المغولية على نهر الفلجا . وتوفر للسلطان برقوق من الصلابة والشجاعة ما جعله يرحب بلجوء الشريد سلطان بغداد المعروف باسم أحمد الجلائري الى القاهرة . ولما أرسل تيمورلنك الى برقوق سفارة لمفاوضته على قاعدة الاعتراف بالسيادة التيمورية ، أمر برقوق بقتل السفراء ، فجرى بذلك على نهج ما فعله السلطان قطز قبيل معركة عين جالوت وأعقب ذلك أن احتشد جيش مملوكي عند مدينة البيرة على نهر الفرات ، وهي المدينة التي شهدت انتصارات المماليك على المغول زمن بيبرس وقلاوون . أما تيمورلنك فانه وجه كل اهتمامه وقتذاك الى جورجيا (بلاد الكرج) بأقصى الشمال ، لقتال طقتمش الذي اعتبره أخطر أعدائه ، وأما برقوق فانه مات في يونية سنة ١٣٩٩ قبل أن تتهيأ له الفرصة وشجاعته وبطولته في قتال المغول .

وتولى السلطنة بعد برقوق ابنه فرج ، وهو أكبر أبنائه ، وأمه يونانية ، وكذلك كانت أم أتابكة تمري بردي والد المؤرخ المعروف أبي المحاسن يوسف ، مؤلف كتاب : « النجوم الزاهرة » . ولم يكن فرج عند سلطنته يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، غير أن تنصيبه جاء في جو خال من المؤامرات الداخلية المعتادة عند قيام سلطان صغير ، ولم يلبث أن سار الى الشام أواخر سنة ١٤٠٠ على رأس الجيش المملوكي الزاحف لوقف التقدم التيموري المباشر نحو الأراضي المملوكية . وكان تيمورلنك يتحول وقتذاك جنوبا في سرعة مدهشة ، فنهب حلب واقترب من دمشق . وجرت معركة عنيفة شمال دمشق ، فارتد الجيش المملوكي على أعقابه ، وبادر السلطان فرج الى الانسحاب الى القاهرة ، وترك جيشه في كفة المقادير ، فاستسلمت دمشق على شروط استخلصها المؤرخ ابن خلدون من تيمورلنك ، وتعرضت عاصمة الشام برغم ذلك لكل ما اشتهر به المغول من التخريب .. وبديهي أن السلطان فرج لم يكن كفئا

[illegible]

أن تحقق أن السلطان بايزيد وقع في أيدي تيمورلنك وجاءت هذه الأخبار الى السلطان

[illegible]

[illegible]

[illegible] المملوكية من [illegible]

داخل البلاد [illegible] وعلى الرغم مما [illegible]

الحكم بسبب ذلك من فساد وخلل [illegible]

سلاطين الجراكسة استطاعوا المحافظة على [illegible]

[illegible]

وساد السلام أرجاء الدولة المملوكية بمصر والشام ما يقرب من سنة ونصف سنة ولم يعكر صفو ذلك السلام الا خروج نائب صفد بالشام ونائب الهنسا بالاطراف الشمالية ، فأخمد السلطان هاتين الحركتين فى سهوله . غير أن برسباى ارتاع لما ورد فى أغسطس سنة ١٤٢٣ من خبر هروب منافسه الخطير جانبك الصوفى ، من سجنه بالاسكندرية ، فأمر بالقاء القبض على كل من له صلة بالأمير الهارب ، ولكنه لم يستطع الحصول على شىء من أخباره . وكأنما كان هروب جانبك الصوفى مؤذنا بقيام عدة مشاكل مختلفة فى وجه برسباى فى وقت واحد ، وهى خروج نائب دمشق عن الطاعة ، واغارة القراصنة الافرنج على سواحل مصر على البحر المتوسط وامتناع الأمير حسن بن عجلان شريف مكة عن الاعتراف بالولاء والخضوع للسلطنة المملوكية . وبدأ برسباى معالجة هذه المشاكل الثلاث بارسال حملة الى الشام صحبة نائب جديد لدمشق اسمه سودون ، حتى اذا جاءته الأخبار بانتصار سودون هذا على النائب الثائر وسجنه بقلعة دمشق ، وجه اهتمامه لمعالجة المشكلتين الأخريين . وكانت قاعدة القراصنة الافرنج وقتذاك جزيرة قبرص اللوزجنانية ، فأغار برسباى على سواحلها غارتين ناجحتين ، ثم عزم على الاستيلاء عليها نهائيا سنة ١٤٢٦ ، ففى تلك السنة أنفذ برسباى جيشا يسانده أسطول كبير من مصر والشام الى المياه القبرصية ، فاستولى على ليماسول ولارناقا ، وأوغل فى الداخل حتى هزم جيشا قبرصيا بقيادة الملك جانوس لوزجنان ، ودخل عاصمته نيقوسيا . وعادت تلك الحملة المنتصرة بالملك جانوس أسيرا بين الأسرى ، ثم لم يلبث السلطان أن أطلق سراحه مقابل فدية كبيرة ، على أن يصبح تابعا للسلطنة المملوكية فى مملكته قبرص . أما حسن بن عجلان شريف مكة فجرى اخضاعه قبل نهاية هذه المشكلة القبرصية . وبذلك استردت مصر سيادتها على مكة وميناها جده وقدم الشريف حسن الى القاهرة صحبة ركب الحاج المصرى والجيش المملوكى العائد ، فأكد لبرسباى ولاءه واخلاصه للسلطنة ، وتعهد بأن يدفع جزية سنوية تأكيدا لتبعيته . غير أن تقرر ابقاؤه بالقاهرة رهينة حتى يتم تأدية القسط الأول من هذه الجزية .

وحدث قبيل مغادرة الجيش المملوكى سواحل بلاد العرب أن وصلت الى جده قافلة من السفن تحمل متاجر الهند وذلك بعد أن أضحى ميناء جده خاضعا للسيادة المملوكية ، بعد أن تعهد القائد المملوكى لقائد هذه السفن بتقديم كل ما تحتاجه سفنه من المساعدة . وكان ميناء عدن باليمن حتى وقتذاك الميناء الوحيد الذى ترد اليه التجارة الهندية ، غير ان سوء المعاملة بهذا الميناء صرف قائد هذه السفن شمالا حتى جدة ، فأدت هذه الاتفاقية الى تحويل التجارة الشرقية كلها اليها تدريجيا . ولم تلبث جدة أن أصبحت مركزا ومستودعا

لهذه التجارة الهائلة . واهتم السلطان برسباى صاحب السيادة على جدة بهذا المورد التجاري الجديد . فأنشأ بالقاهرة ديوانا خاصا أطلق على متوليه اسم شاد جدة ، وصار هـذا الشاد يجمع من هذه التجارة السنوية ضريبة عـلى قاعـدة العشر من قيمتها . ولم يكتف برسباى بهذا الدخل الفجائي الضخم بل عمد الى احتكار التجارة الشرقية كلها لنفسه ، فضلا عن صناعة السكر في مصر . وترتب على هذه الاجراءات ارتفاع جنوني في الأسـعار بحيث لم يعد في استطاعة التجار الأوربيين احتمالها ، على الرغم من استعدادهم للشراء . وأدى هذا الى قيام كل من البندقية وقطلونية وأرجونة بالشكوى والتهديد بمقابلة هـذه الاجراءات بمثلها ، أي برفع أثمان جميع السلع الأوربية الواردة الى مصر والشـام ومعظم هذه أسلحة وحديد ومـواد معدنية وحجرية مما يلزم للجيش المملوكي والقصور المملوكية .

على أن برسـباى لم يكتف باحتـكار التجارة بل عمد أيضا الى التدخل في العملة والنقد بأن غيَّر عيار الذهب والفضة بما يتفق مع مصلحته وغرضه ، ومنـع تداول النقد الأجنبي كيما يشتريه بسـعر منخفض . ثم أطلق تداوله بعد ذلك ، مما أدى الى الحاق الخسائر الكبيرة بالتجار الوطنيين والأجانب على السـواء . واشتد سخط الأهالي أيضـا على السلطان بسبب ما اتخذ من طرق تعسفية لجمع الأموال ، ومنها رفع أسعار السكر مع احتكاره على حين اشتد الاحتكار واتسعت دائرته حتى شملت خشب الوقـود واللحم والحبوب ، ولم يعد بيع الماشية مباحا . ولذا انتشرت المجاعة في جهات كثيرة بمصر ، كما استحل الوباء أكثر من مرة بالقاهرة ، وزاد الحالة سـوءا ما حدث على أيدي فئات المماليك الجلبان من أذى الناس في الطرقات والشوارع .

وترتب على تطبيق سياسة الاحتكار في الشام أن حل بالتجار والنـاس من الشدائد والمتاعب مثلما حدث بمصر ، غير أنه لم يتعرض السكان لما تعرض له أهل مصر من اسـاءات المماليك الجلبـان لندرة وجودهم بالمـدن الشامية . ثم شـهدت الشام منذ سنة ١٤٢٩ عـدة تجمعـات حـربية موجهـة لمراقبة قـبائل التركمـان ، ومراقبـة حـركاتهم المختلفة عـلى الأطـراف المملوكية . وهم قبيلة الشاة البيضاء ، وقبيلة الشاة السوداء وقبيلة الدلغادرية . وكان وراء هذه الحركات العـدائية التركمانية شاه رخ بن تيمور لنك الذي ساءه رفض السلطان برسباى السماح له بالمشاركة في كسوة الكعبة ، ولذا حالفه قبيلة الشاة البيضاء ، وشجع زعيمها عثمان قرايلك على تحدي برسباى ، ومقاومة الحصار المملوكي الذى ضربه برسباى بنفسه حول آمد سنة ١٤٣٢ . أما قبيلة الدلغادرية التابعة فعلا للدولة المملوكية فقد كان خلاصة حركتهم العدائية أنهم التجأوا الأمير جانبك الصوفي الهارب من سجن الاسكندرية منـذ

السنة الأولى من سلطنة برسباى ، وأنهم أعلنوا حمايتهم له ، على أن النصر تحقق أخيرا للسلطان برسباى ، اذ لقى عثمان قرايلك مصرعه في حرب ضد قرا يوسف زعيم قبيلة الشياه السوداء ومات جانبك الصوفي قتيلا ، وعادت قبيلة الدلغادرية الى تبعيتها القديمة .

ولم يعش برسباى طويلا ليتمم بهذه الانتصارات التى لم يكن جديرا بها البتة ، على قول المقريزى المؤرخ المعاصر ، ومات هذا السلطان غير مأسوف عليه ، في يونيه سنة ١٤٣٨ ، بعد أن جعل ابنه يوسف الذى يبلغ من العمر أربع عشرة سنة خلفا له في السلطنة ، وعين أحد خلفائه من الأمراء وصيا عليه ، واسمه جقمق . وكان برسباى ملكا عسوفا محبا للمال . ولم يكن ما انتشر في عهده من هدوء وسلام دليلا على شيء من الرخاء أو الطمأنينة بين الناس ، فان فتح جزيرة قبرص لم ينتفع به الا مماليكه ، وسياسته الاحتكارية لم تملأ جيوبا سوى جيوبهم الواسعة . أما أهل مصر والشام فتحملوا أنواع الارهاق أثناء ذلك العهد الذى امتد الى ستة عشر عاما اذ هددتهم المجاعات والغلاء حتى في سنوات وفرة المحاصيل .

ولم يبق يوسف بن برسباى في السلطنة سوى تسعة وأربعين يوما : عمل أثناءها جقمق على جمع مقاليد الأمور في يده . ثم ما لبث جقمق أن عزل يوسف وسجنه بقلعة الجبل ، وأقام نفسه مكانه في السلطنة في سبتمبر سنة ١٤٣٨ . وبينما يتجهز جقمق للسير على رأس حملة الى الشام لقمع حركة المعارضة لسلطته في دمشق وحلب فر السجين يوسف من القلعة متخفيا في زى خدم المطابخ السلطانية ، ولحق به مؤيدوه في جوف الصعيد حيث قامت حركة معارضة أخرى ضد السلطان . على أن جقمق استطاع التغلب على هاتين الحركتين في سهولة ، اذ قبض على يوسف في أبريل سنة ١٤٣٩ وأرسله الى الاسكندرية ليقضى أيامه بها حبيسا مكرما ، وفى الشهر التالى تهدمت حركة دمشق وسار جقمق على نهج بارسباى المحد من القراصنة المسيحيين الذين نشطوا في البحر من جديد ، على الرغم من حرمانهم من موانى جزيرة قبرص ، وذلك لأنهم جعلوا من جزيرة رودس التابعة لهيئة الفرسان الاسبتارية موئلا ، وأغاروا منها على السواحل المصرية والشامية وعاثوا فيها فسادا . ولذا أرسل جقمق في أغسطس سنة ١٤٤٠ حملة لمحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس . ومع أن المحاولة تجددت سنتى ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، فان الجزيرة استطاعت مقاومة الاغارات المملوكية الثلاث ورضى السلطان جقمق بالصلح على قاعدة منع القراصنة من اللجوء الى سواحل رودس ، واحترام مصالح هيئة الفرسان الاسبتارية في كل من قبرص وسواحل آسيا الصغرى ، وساعد على عقد هذا الصلح

التاجر الفرنسي الشهير جاك كير على أن هذا التاجر الذي سيطر في زمنه على جزء كبير من التجـــارة بين فرنسا والدولة المملوكية لم يستطع أن يقنع السلطان جقمق بضرورة الغاء السياسة الاحتكارية التي بدأها برسباي.

واتجه جقمق نحو الدول الاسلامية المجاورة سياسة مبنية على التساهل والتضامن فلم يكترث لآراء أمراء المشورة بشأن شاه رخ بن تيمور لنك بل سمح له سنة ١٤٤٣ بإرسال كسوة الكعبة، فأنهى بذلك مشكلة النزاع القائم بين الدولتين المملوكية والتيمورية منذ أيام برسباي، وذلك دون أن يفقد شيئا من حقوقه أو كرامته. وحرص جقمق على استمرار العلاقات الودية مع السلطان العثماني مراد الثاني، وأمراء آسيا الصغرى، وكل ذلك في سبيل السلام.

على أن جقمق لم يحرز من النجاح في السياسة الداخلية ما أحرزه في السياسة الخارجية بسبب ما دأب عليه فتنة المماليك السلطانية من حركات التمرد والاعتداء على الأمراء ورجال الحكم والادارة، مما يملأ صفحات عديدة من التواريخ المعاصرة وازدادت اعتداءات أولئك المماليك على الكبير والصغير حتى النساء في أيام المواسم والأعياد، دون أن يستطيع السلطان جقمق ردعهم، وكذلك لم يستطع جقمق أن يوقف ما تسرب من الفساد في الاحتكارات التجارية. ومع هذا اشتهرت حكومة جقمق بالاعتدال وحب الخير بالقياس الى ما اشتهرت به حكومة سلفه من الجشع. واتصف جقمق بصفات وخلال شخصية نابعة من تقوى عميقة، على غير المعهود في معظم سلاطين المماليك، اذ راعى في حكمه ما ورد في القرآن الكريم من أحكام، فلم يتناول طعاما نهى عنه الشرع، ومنع شرب الخمر، وحرم استخدام الأدوات الموسيقية وكره الملابس المبهرجة وألزم رجال القصر والأمراء بارتداء الثياب القصيرة، وقص شواربهم الطويلة. واشتهر جقمق بسخائه وكرمه مع العلماء، واعتقد أن الكتاب القيم لا يقدر بثمن مهما ارتفع هذا الثمن. ثم مات جقمق وهو يناهز الثمانين، في فبراير سنة ١٤٥٣، بعد مرض طويل ظل يعانيه في صبر وشجاعة مدة سنة.

وتنازل جقمق عن السلطنة وهو على فراش الموت، وهو أمر لم يكن له سابقة عند المماليك، وترك أمر تعيين سلطان بعده للخليفة العباسي والقضاة وجماعة الأمراء، اذ استدعى هؤلاء وأولئك لحضرته، وخاطب الحاضرين قائلا: «الأمر لكم، انتقروا فيمن تسلطنوه» اعتقادا منه أنهم سوف لا يغفلون ابنه. وهكذا أجري اختيار عثمان بن جقمق ليخلف أباه في الحكم.

وبلغ عثمان بن جقمق التاسعة عشرة من العمر حين صار سلطانا، أي أنه لم يكن طفلا صغير السن، غير أنه كان أقصر عهدا من صغار الأبناء الذين خلفوا آباءهم في السلطنة.

ويرجع سبب خلعه بعد ستة أسابيع فقط من اعلان سلطنته الى طيشه الذي أدى به الى استبعاد جميع فئات المماليك عن شئون الحكم ما عدا مماليك أبيه ولذا حاصرته هذه الفئات المملوكية بزعامة الأتابك اينال بالقلعة في مارس سنة١٤٥٣ وجرى خلعه قبل استسلامه للمحاصرين ، بموافقة الخليفة العباسي الذي اشترك في الاحتفال .

ومع أن اينال تولى السلطنة وهو في الثالثة والسبعين من عمره ، وأنه بلغ من الأمية والجهل ما جعله عاجزا عن كتابة اسمه ، فانه استطاع أن يظل في الحكم ثماني سنوات وتعليل هذا ، أن السلطان اينال التزم الليونة والمطاوعة والاستجابة لمطالب الفئات المملوكية التي وصل على أكتافها الى السلطنة ، ولا سيما فئة المماليك الجلبان . غير أن استمرار خضوع السلطان للمطالب المالية التي عكفه الجلبان على تقديمها جعل هذه الفئة أخيرا مصدر فتنة وخطر على مركز اينال ، بدليل رميهم اياه مرة بالحجارة ، وهو في طريقه اليهم من القصر لمناقشة مطلب من مطالبهم سنة ١٤٥٦ . ومما زاد الطين بلة أن هذه الفئة العارمة أدت بالسلطان اينال الى الاستجابة لطلب الجلبان ، ووصف المؤرخ أبو المحاسن بوصفه هذا الامعان في استرضاء الجلبان ، بأنه « الاحتمال الذي يؤدي الى قلة المروءة » .

والواقع أن الجلبان غدوا بسبب هذه الترضيات المستمرة فئة خالية من كل احساس بالكرامة والاحترام ، ولم يلبثوا أن ملكوا زمام الحكم ، فصاروا يعزلون ويولون من يريدون من الموظفين ، ولم يجرؤ السلطان أن يؤنبهم على ما ارتكبوه باسمه .

ولذا يبدو عجيبا أن السلطان اينال استطاع اصلاح النقود الفضية سنة ١٤٥٨ ، اذ أمر بسحب النقود التي أصدرها السلاطين السابقون منخفضة العيار وأحل محلها عملة جديدة ، كما أمر بتوقيع العقوبة القصوى على المتهمين بغش النقود ، وهم الزغلية الذين كثرت أعدادهم منذ أيام التلاعب بالنقد زمن برسباي .

وأصاب السلطان اينال كذلك نجاحا في السياسة الخارجية فاتسمت علاقاته بالسلطان العثماني محمد الثاني بالود الخالص ، وذهبت من القاهرة سفارة خاصة لتقديم التهنئة للسلطان بفتح القسطنطينية . ورضيت السياسة الايبالية بما حل بامارة قرمان بآسيا الصغرى من اعتداءات العثمانيين ، وهي امارة معروفة بولائها القديم لسلاطين المماليك ، وترتب على ذلك أن أغار أمير قرمان على الأطراف المملوكية بشمال الشام ، واستولى على عدة بلاد من اقليم قيلقية (أي أرمينيا الصغرى سابقا) ، غير أنه لم يلبث أن ارتد عنها بعد أن نهض اينال الى مصالحته سنة ١٤٥٨ ثم تدخل في النزاع حول وراثة العرش في مملكة قبرص التابعة للسلطنة المملوكية منذ أيام برسباي اذ قدم الى القاهرة

جيمس لوزجنيان رئيس نيقوسيا ، وطالب بحقه في العرش كما طالبت بحقها كذلك أخته الملكة شارلوت لوزجنان . وعاد جيمس الى قبرص صحبة حملة مملوكية لنجدته ، واستطاع بمساعدة هذه الحملة أن يحتل العاصمة نيقوسيا غير أن النزاع بين جيمس وشارلوت استمر بضع سنوات ولم تظهر نتائجه في حياة اينال الذى كانت وفاته في فبراير ١٤٦١ ، وترك اينال أسرة اشتملت على أربعة أفراد : بنتان وولدان من زوجة وحيدة ، وهو أمر نادر الحدوث في التاريخ المملوكي . غير أن مثارا كثيفا لابد أن يسدل على حياة السلطان الشخصية .

وتنازل السلطان اينال ، قبيل وفاته بيوم واحد ، عن العرش لابنه الأكبر أحمد الذى تولى وظائف مسئولة مختلفة في حياة أبيه ، واشتهر بحبه للاصلاح ، وبلغ الثلاثين من عمره حين آلت اليه السلطنة ، ولهذا كان لأحمد بن اينال من الخبرة الادارية والحماسة والنضوج السياسي ما يبشر بعهد جديد . غير أن العصبية المملوكية التى رفض السلطان الجديد ترضيتها على طريقة اينال اجتمعت على تدبير مؤامرة لاقصائه عن العرش واقامة الأتابك خشقدم أو غيره مكانه . وتعرضت القلعة لهجوم المتآمرين في يونية سنة ١٤٦١ ، ولم يلبث السلطان أن أعلن التسليم ، وتم عزله واخراجه من القلعة سجينا الى الاسكندرية وجرت المناداة بخشقدم سلطانا .

ويختلف خشقدم عن سائر سلاطين المماليك السابقين من الجراكسة بأنه ينتمى الى أصل يونانى ، واليه ترجع تجربة مريرة في نكران الجميل ، وهى أنه تخلص بالقتل والسجن والتشريد والمصادرة من أمراء المماليك الذين أقاموه في السلطنة ، وألب الفئات المملوكية بعضها على بعض ، أملا منه في السيطرة بعد ذلك على مماليكه الجلبان ، واستخدام شغبهم في الاستيلاء على أموال الأغنياء من التجار ، فضلا عما استولى عليه من أموال الأمراء المصادرين . وهكذا أخلى خشقدم الجو للمماليك الجلبان ، فأخذوا يعيثون فسادا كما يشاءون ، ويقتلون الأبرياء ، وهذا على حين دأب السلطان خشقدم على جمع الثروة لنفسه فباع الوظائف الحكومية علنا ، وهدم موازين العدالة بمساومة المتقاضين أمامه في دار العدل . وأسوأ من ذلك كله ما لجأ اليه هذا السلطان من زيارة كبار الأغنياء وسيما في بيوتهم ، ومطالبة الواحد منهم بتقديم الهدايا اللائقة بالسلطنة .

أما من ناحية السياسة الخارجية فيعتبر عهد خشقدم بداية النزاع بين السلطنة المملوكية والسلطنة العثمانية ، وهو النزاع الذى أدى أخيرا الى زوال دولة سلاطين المماليك بمصر والشام ، واستيلاء العثمانيين على هذين القطرين أوائل القرن السادس عشر . وبدأ هذا النزاع في سنة ١٤٦٣ بسبب

جرى من اختلاف حول الوراثة فى امارة قرمان حيث أيد السلطان العثمانى محمد الثانى أميرا معروفا بعدائه للسلطنة المملوكية ، وأمده بقوة عسكرية مقابل نزوله عن عدة بلاد قريبة من الأطراف المملوكية ، غير أن هذا النزاع لم يؤد الى حرب بين الدولتين زمن السلطان خشقدم .

وجرى خشقدم فى قبرص على سياسة سلفه اينال لغرض أعمق من مجرد المساعدة الحربية لملكها جيمس الثانى ضد أخته شارلوت ، وكان هذا الغرض هو التخلص من بقايا الفئات المملوكية التى عدت ناقمة على السلطان بمصر والشام ، بدليل تكرار هذه المساعدة الحربية دون الحاجة اليها . وفى أواخر حكم خشقدم ، أخذت قبائل البدو تثير الرعب والاضطراب لا فى الوجه القبلى فحسب ، بل فى الشام وشمال بلاد العرب ، حيث تعرضت قوافل الحجاج لسطوهم ونهبهم . وبينما تجرى الاستعدادات لارسال الحملات اللازمة لقمع هذه الحركات البدوية حل المرض بالسلطان خشقدم ، ومع أن حملة سارت فعلا الى شمال بلاد العرب فان حملة أخرى الى الصعيد ، رفضت السير ، اذ فضل قائدها البقاء فى القاهرة ليرقب ما تأتى به الأيام بعد موت السلطان . وفى أكتوبر سنة ١٤٦٧ ، مات خشقدم ، وترك ولدين أكبرهما هو المعروف باسم منصور .

وفى الشهور الأربعة التالية غدت القاهرة مسرحا للمؤامرات واضطرابات بين الفئات المملوكية وتولى السلطنة فى هذه المدة الصاخبة سلطانان . وتفصيل ما حدث أن السلطان خشقدم لم يجر على القاعدة التى درج عليها السلاطين السابقون ، فلم يرشح ابنه منصورا ليخلفه ، ولم يوعز الى أحد بترشيحه ، ولم يحفل زعماء المماليك بدورهم بما عسى يكون للرجل الراحل من رغبات باطنة حول هذا الموضوع ، بل عقدوا اجتماعا قبيل وفاة خشقدم بساعات قليلة ، واتفقوا على اقامة أحدهم وهو الأتابك بلباى فى السلطنة ، وهو المشهور بالمجنون ، وجرى اعلانه سلطانا فى نفس اليوم بعد الانتهاء من تشييع جنازة خشقدم ودفنه . وبعد شهرين فقط قرر أولئك الزعماء عزل بلباى فعزلوه ، لأنهم أرادوا اقامة زعيم آخر منهم فأقاموه ، وهو تمربغا اليونانى الأصل فى ديسمبر سنة ١٤٦٧ . ولم يقم تمربغا فى السلطنة أكثر مما أقام سلفه سوى أيام معدودات ، وتراءى للمعاصرين أن سوف تتكرر الحال على هذا المنوال ، ما دامت الفئات المملوكية على ما هى فيه من منافسات وفتن ، وما دامت زعامتها لا تنطوى الا على أمثال بلباى وتمربغا . غير أن الحوادث لم تلبث أن أنجبت رجلا من نوع آخر ، وهو الأتابك قايتباى الذى أقامته الفئات المملوكية سلطانا فى يناير سنة ١٤٦٨ ، ظنا منها أنها سوف تتخلص منه سريعا كما تخلصت من سلفيه . لكن قايتباى ظل سلطانا ما يقرب من تسع وعشرين سنة . ويرجع هذا

التغيير الى شخصيته ، كما يرجع الى طبيعة المشاكل الخارجية التي واجهته منذ أوائل سلطنته وهي مشاكل صرفت الفئات المملوكية عن شغبها القديم الذي لم ينقطع منذ سنين ، وأدت بها أخيرا الى التكتل وراء السلطان في سبيل الدفاع عن مصالح الدولة المملوكية .

ولهذا لم يكن عهد قايتباي أطول عهود دولة السلاطين الجراكسة فحسب ؛ بل أكثرها توفيقا ونجاحا . وأول هذه المشاكل الخارجية حركة الزعيم التركماني شاه سوار رئيس امارة الدلغادرية وآسيا الصغرى ، اذ عكف هذا الأمير على الاغارة على أطراف السلطنة المملوكية ؛ معتمدا في ذلك على معونة الدولة العثمانية ، فما زالت الحملات المملوكية حتى هزمته وحملته أسيرا الى القاهرة حيث أعدم أواخر سنة ١٤٧٣ .

ولم يكن قايتباي أقل اسعافا في جهوده ضد أوزون حسن (حسن الطويل) زعيم الشاة البيضاء الذي حلا له أن يتظاهر بالولاء والاخلاص للسلطان قايتباي أثناء حركة شاه سوار وأرخى له قايتباي الحبل على الغارب حتى انتهى من هذه الحركة وصاحبها . ذلك أن أوزون حسن كان يطالب بمشاركة السلطنة المملوكية في كسوة الكعبة ، كما طالب بها قبلا شاه رخ تيمورلنك زمن السلطان برسباي ولذا عمل قايتباي على هدم هذه المطالبة بارسال حملة مملوكية تلو أخرى لغزو الأراضي العراقية التابعة للشاة البيضاء حتى وفاة أوزون حسن سنة ١٤٧٨ .

على أن المشكلة الخارجية الكبرى زمن قايتباي جاءت من ناحية الدولة العثمانية التي أخذت منذ تسب لها السيطرة على البلقان تعمل على الاستيلاء على ما تبقى خارجا عن طاعتها بآسيا الصغرى ؛ وهما امارتا قرمان وذلغادر المشمولتان بحماية السلاطين المماليك وعليهما اعتمدت الدولة المملوكية في شئون الأمن والدفاع على أطرافها الشمالية . ورأى قايتباي معالجة هذه المشكلة بمساعدة واتفقت السلطنتان العثمانية والمملوكية فيها على عدم التدخل في شئون هاتين الامارتين ، وبحسب هذا الاتفاق ظلت العلاقات في وئام ظاهر بين السلطنتين حتى وفاة السلطان العثماني محمد الثاني سنة ١٤٨١ . ثم حدث أن أساء قايتباي الى السلطان العثماني الجديد بايزيد الثاني باستقبال أخيه ومنافسه الأمير جم بالقاهرة سنة ١٤٨٢ ، بل ان قايتباي قدم لهذا الأمير عدة أنواع من المساعدة للقيام بثورة فاشلة ضد بايزيد الثاني في آسيا الصغرى . ولهذا السبب فضلا عما قام به عمال قايتباي من اعتراض سفارة هندية الى البلاط العثماني ؛ أعلن بايزيد الحرب على مصر في سنة ١٤٨٦ . فاستولى جيش عثماني على أذنة وطرسوس وسائر مدن قيليقية ؛ على حين قام جيش بحصار مدينة ملطية ، وكلها مدن تابعة لسلاطين المماليك وأعقب ذلك لمدة سنين حرب دفاعية هجومية رجحت فيها كفة الجيوش المملوكية على العثمانية أكثر من مرة ، واختتمت بصلح سنة ١٤٩١ لاعادة

الأوضاع السياسية الى ما كانت عليه قبل الحرب ، غير ان هذا الصلح لم يكن سوى ضحة من نفحات الهدوء قبل العاصفة .

واستطاع قايتباى برغم انصرافه الى كل هذه الحملات والحروب السابقة أن يجد وقتا للدبلوماسية الهادئة التي تطلبتها جزيرة قبرص بعد أن صار عرشها الى الملكة كاترينا كورنارو والتى ترجع الى أصل بندقي ، وبعد أن غدا للبندقية كلمة نافذة في شئون ذلك العرش . ذلك أن الملكة كاترينا لم تواظب على دفع ما هو مقرر عليها من جزية سنوية منذ ١٤٧٨، فما زال قايتباى يضغط على جمهورية البندقية ، ويهدد تجارتها بمختلف التضييقات التجارية بالاسكندرية ، حتى قامت البندقية بدورها بالضغط على كاترينا لارسال الجزية المقررة في انتظام . على أن دبلوماسية قايتباى لم تنجح في كل الأحوال ، اذ حاول مساعدة أبي عبد الله ملك غرناطة ، بأن هدد فرديناند ملك اسبانيا المسيحية بتدمير بيت المقدس واستئصال شأفة المسيحيين بمصر والشام اذا لم ينته من هذه الحرب بصلح عاجل . غير أن الملك فرديناند أبي أن يذعن لهذا التهديد وظل يحارب مملكة غرناطة حتى استولى عليها تماما ، وكل ذلك دون أن يفكر قايتباى في تنفيذ أية ناحية من نواحي تهديداته .

أما السياسة الداخلية زمن قايتباى ، فأول مميزاتها أن السلطان اتبع طرقا ووسائل مخالفة لما سار عليه سائر السلاطين الجراكسة قبله وبعده ، ومثال ذلك حسن معاملته لجميع من جرى خلعه من السلاطين وأبنائهم ، اذ حرص على دعوتهم الى مشاركته في لعب الكرة بالقاهرة ، وسمح لهم بتأدية فريضة الحج ، بل انه أجاز لهم النزول الى القاهرة أثناء غيابه ، ولم تساوره الشكوك فيهم ، ولم يخش كيدهم . وأكثر قايتباى من مغادرة القلعة لا للتنزه والصيد خارج القاهرة فحسب ولا للحج زائرا ، بل لمعرفة أحوال المدن والحصون ، فزار حبرون وبيت المقدس والاسكندرية ودمياط ودمشق وحلب ، وبلغ شاطيء الفرات ، وهو طرف السلطنة المملوكية . وخلف قايتباى أينما سار آثارا دالة على عظمته ، من طرق وجسور ومساجد ومدارس واستحكامات ، ومن هذه القلعة المعروفة باسمه بالاسكندرية حتى العصر الحاضر .

على أن قايتباى لم يبلغ ما بلغه من النجاح في سياسته الخارجية والداخلية الا بفضل شخصيته الناضجة ، فالى جانب ما اشتهر به من الكياسة والشجاعة ، كان قايتباى كذلك سلطانا حازما مسيطرا بقوة الخلق على مماليكه الجلبان تمام السيطرة وبفضل مساعدتهم الخالصة له استطاع أن ينجح في ضبط الأحزاب المملوكية الأخرى ، وبهذا انتشر في السلطنة المملوكية من مظاهر الأمن مالم يكن معروفا من قبل . غير أنه كان أمنا مشوبا بكثرة المطالب المالية الاضافية التى فرضها قايتباى على مختلف طبقات الناس بمصر والشام ، للصرف على حملاته الحربية وعمائره

الضخمة ، فلم يكتف مثلا بما فرضه عـــلى الأملاك العقارية من ضريبة مبلغها ايجار سبعة شهور ، بل فرض مكسا باهظا فى أواخـــر أيامه على ما يجرى بيعه من القمح . واشتد قايتباى كذلك فى استخلاص الأموال من اليهود والنصارى ، ولم يسلم كبار موظفى الدولة من مطالبه ، كما لم يسلم منها أعيان الأقاليم الذين أكرمهم الســـلطان بزياراته الرسمية ، كما يحصل منهم على هدايا ثمينة لم يقدموها اليه عن طيب خاطر .

ثم اشتعل بمصر وباء سنة ١٤٩٢ ، واجتاح القاهرة والأقاليم حتى أفنى ما يقرب من مائتى ألف من أهل البلاد ، عدا ثلثى المماليك من مختلف الفئات ، وذهبت ضحيته ابنة السلطان وأمها فى يوم واحد . وما كاد يمضى عـلى الوباء سنتان حتى أصاب القحط عامة البـلاد المصرية ، وتفشت الأمراض فى الماشية . ثم أعقب ذلك موجة من الشغب بين الفئـات الباقية المملـوكية ، ومع أن السلطان بلغ وقتذاك الخامسة والثمانين من عمره ، فانه نهض لاخماد الفتنة دون سـفك دمـاء سنة ١٤٩٥ ، غير أن الشيخوخة أثقلته ، والمرض تغلب عليه وكانت وفاته فى يوليـة سنة ١٤٩٦ .

وشهدت القاهرة فى السـنوات الخمس التى أعقبت وفاة قايتباى عهـود خمسة من الســلاطين طبعت بالفوضى الداخلـية والاضطراب ، وأولها عهد محمد الابن الوحيد للسلطان قايتباى من عتيقته أصـلباى ، وكذلك عهد خاله قانصوه الأشرفى ، ولذا لم تستقر الحال الا سنة ١٥٠١ ، حين أقيم فى السلطنة أمير شبيه بالسلطان قايتباى من حيث السن والخبرة بشئون الحكم والمهارة فى معاملة فئات المماليك واسمه قانصوه الغورى. وعلى الرغم من أن السلطان الجديد تجـاوز الستين من عمره ، وأنه تولى السلطنة بفضل اتفاق جماعة من الأمراء عـلى توليته ، فانه لم يلبث أن أظهر لأولئك الأمراء أنه لن يكون صنيعة أحـد منهم . ولم يختلف السلطان قانصوه الغورى عن سائر سلاطين المماليك فيما واجهه عند توليته من اجتماع فئـات المماليك حـول القلعة والحافهم فى طلب ما جرت به العادة من نفقة التولية ، غـير أنه استغل هذه المطالبة لمعالجة الضائقة المالية التى كدستها أحوال السلطنة المملوكية منذ أواخر أيام قايتباى ، ووعد بتوزيع أمـوال النفقة المطلوبة فى أقرب فرصة . ولذا فرض السلطان الغورى من الضرائب المجحفة مالم تشـهد دولة الجراكسة له مثيلا ، اذ أمر بجباية ايجار العقارات لعشرة شهور دفعة واحـــدة ، ولم يقتصر فى ذلك على الدور والحوانيت فحسب ،بل تعداه الى الحمامات والسواقى ، والطواحين والسفن ، ودولاب العمل . وتقرر على الأوقاف الخيرية أيضا أن تدفع ما مقداره ربع سنة كاملة ، وهذا فضلا عن تخفيض سعر النقود لمصلحة الخزانة السلطانية . وترتب

على هذه الاجراءات أن توفر للسلطان الغوري من الدخل ما استطاع به أن يدفع أموال النفقة لفئات المماليك بحسب وعده السابق ، كما أنه اشترى عددا كبيرا من الجلبان ألف منهم طوائفه جديدة انتسبت اليه ، وهي طائفة الغورية . على أن المعروف أن الغوري أنفق جانبا كبيرا من هذا المال كذلك في تقوية حصون الاسكندرية ورشيد وحلب ، وفي اصلاح طريق الحجاج الى مكة ، وتشييد مسجده ومدرسته بالقاهرة .

ولذا ساد الهدوء مدن السلطنة المملوكية؛ برغم ما أمعن فيه من جمع الأموال ولم يقع من الحوادث ما يعكر صفو الأمن في السنوات الأولى من عهده ، ما خلا حركات البدو المعتادة في مصر والشام ؛ وما تطلبته من حملات تأديبية على نحو ما جرى زمن جميع السلاطين . غير أن ما حدث من وصول البرتغاليين الى الهند واقامة أول محطة تجارية اوربية على الساحل الغربي الهندي أخذ يؤثر منذ أوائل عهد الغوري في التجارة الشرقية المتدفقة على مصر والشام عن طريق عدن وجدة ، اذ ذهبت معظم التجارة الضخمة تدريجيا الى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح . وذهبت معها حصيلة الضرائب المرورية الهائلة عند مرورها بالموانى المصرية التي جمعها سلاطين المماليك على هذه التجارة ، كما ذهبت أرباح التجار المصريين والشاميين الى البرتغاليين . وأضاف سوءا الى هذه الحال ما عمد اليه البرتغاليون من مهاجمة السفن المصرية في بحار الهند ، ولما رأى الغوري استمع وقتذاك لما كررته له جمهورية البندقية من النصح ، فبادر الى استخدام القوات البحرية المملوكية لوقف الاعتداء البرتغالي قبل استفحاله ، لكنه حاول الوصول الى تسوية سلمية ، وبعث رسولا الى روما سنة ١٥٠٤ يشكو الى البابا يوليوس الثاني تضمن التهديد بتدمير الأماكن المقدسة في فلسطين اذا لم يمتنع ملك البرتغال عن أذى مصالح التجار المسلمين بالهند ، وتهديد سفنهم التجارية . غير أن هذه السفارة لم تحقق شيئا ، وترتب على ذلك أن أعد السلطان اسطولا كبيرا في البحر الأحمر لقتال البرتغاليين في البحار الهندية وهاجم هذا الأسطول المملوكي البرتغاليين في ميناء شول بالهند سنة ١٥٠٨ ، واستطاع بمساعدة قوات بحرية من سلطنة جوجيرات الاسلامية ، أن تنزل الهزيمة بالبرتغاليين . غير أن البرتغاليين انتقموا لأنفسهم في السنة التالية في معركة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ ولم تقم للتجارة المملوكية في الهند بعد ذلك قائمة .

ولم يمض على معركة ديو البحرية سوى سبع سنوات حتى زالت السلطنة المملوكية من الوجود على يد السلطان العثماني سليم الأول ، وذلك أنه منذ صلح سنة ١٤٩١ بين السلطان قايتباي والسلطان بايزيد الثاني ، ظلت العلاقات ودية بين المماليك والعثمانيين .

ثم ما لبثت هذه العلاقات أن تحولت تحولا خطيرا سنة ١٥١٢ ، بعد سلطنة سليم الأول العثماني الذي اشتهر بأطماعه التوسعية اشباعا للحركة العثمانية الذاتية ، وتحقيقا لسيطرة العثمانيين على العالم الاسلامي ، فما كاد ينتهي سليم من هزيمة الشاه اسماعيل اول ملوك الأسرة الصفوية الشيعية بايران في معركة تشالدران سنة ١٥١٤ ، حتى وجه اهتمامه الى الأطراف المملوكية العثمانية بآسيا الصغرى ، فاستولى على امبارة دلغادر وعاصمتها الابلستين ، رغم الصلح القائم بين المماليك والعثمانيين . ثم عزم سليم الأول على محاربة السلطنة المملوكية ، فاتخذ من الاتهامات التافهة التي وجهها الى السلطان قانصوه ذريعة للحرب ، والتقى بالجيش المملوكي في أغسطس سنة ١٥١٦ في دابق شمالي حلب ، حيث انهزم السلطان قانصوه هزيمة ساحقة ، ولقي حتفه في الميدان . وترجع هذه الهزيمة الى تفوق عدد الجيش العثماني ، والى المدفعية العثمانية التي لم يكن لدى الجيش المملوكي ما يقابلها ، وهذا وذاك فضلا عن خيانة قائد الجناح الأيسر للجيش المملوكي ، واسمه جاير بك ، وهو الذي نعته التاريخ باسم خاين بك . فسلمت له حلب دون مقاومة ، كما سلمت له دمشق كذلك بعد مفاوضات قصيرة ، ولقي العثمانيون أينما حلوا كل مظاهر الترحيب بمعينهم لانقاذ البلاد وتخليصها من المماليك .

وبينما تموج القاهرة وأهلها بأخبار هزيمة السلطان قانصوه الغوري ومصرعه ، جرى اختيار سلطان جديد في أكتوبر سنة ١٥١٦ وهو الأمير طومانباي ، الذي عهد اليه قانصوه بتصريف أمور الحكم أثناء غيبته . وقبل طومانباي السلطنة كارها ، بعد أن أقسم الأمراء له في مقبرة ولي من أولياء الله وهو الشيخ أبو السعود ، بأنهم سوف يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل دفع العثمانيين عن البلاد .

أما العثمانيون فأسرعوا في زحفهم نحو مصر ، وعلى الرغم مما بذله طومانباي من جهود لوقف الزحف السريع حلت الهزيمة بالجيش المملوكي أولا في بيان قرب غزة ، ثم في الريدانية خارج القاهرة . ووقعت معركة الريدانية في يناير سنة ١٥١٧ ، وفي اليوم التالي لوقوعها تم الاعتراف بسليم الأول سلطانا على مصر والشام وجرت الخطبة باسمه من منابر القاهرة واستمر طومانباي يناضل بضعة أشهر ، غير أن الهزيمة حلت به مرة بعد مرة ، ووقع أخيرا في قبضة العثمانيين وجرى اعدامه شنقا في أبريل سنة ١٥١٧ ، على باب زويلة (بوابة المتولي الحالية) ، وباعدامه انتهى أمر السلطنة المملوكية .

ولابن اياس المؤرخ في وصفه الأيام الأخيرة من حياة طومانباي عبارات ملؤها الحزن على ما صارت اليه مصر من التغير ، بعد ذهاب السلطنة المملوكية ومجيء

العثمانيين . على أنه لم ير في ذلك التغيير شيئا الا ما جرت به المقادير التي ليس لانسان عليها سلطان ، ولم يدرك — أو أنه لم يستطع أن يدرك — أن عوامل داخلية وخارجية كثيرة كانت تنخر في الجسم السياسي للدولة المملوكية ، وأن معظم هذه العوامل وارد صراحة وتلميحا في تاريخه الكبير . وحز في نفس ابن اياس أن مصر صارت ولاية تابعة ، بعد أن كان سلطانها على قوله « أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة ، لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحاوي ملك مصر الذي افتخر به فرعون ... » .

وعاش ابن اياس بالقاهرة سنوات طويلة بعد حلول العثمانيين بالبلاد وشهد بنفسه اقلال مصر الى بداية عهد أجمعت المراجع على أنه من أحلك العصور في التاريخ المصري الطويل .

واذ اختتمت السلطنة المملوكية في مصر والشام وغيرهما من الولايات المملوكية على هذا النحو الكسير ، وذلك بعد مرحلة زمنية بدايتها ١٣٨٢ م ونهايتها ١٥١٧ ، أي مدة مائة وخمس وثلاثين سنة فلا أقل من استعراض بعض العوامل العامة التي مكنت لهذه الدولة أن تمكث مدتها في شيء من الاطمئنان الداخلي ، والخارجي كذلك . أما من الناحية الخارجية فمن الواضح أن الاعمال المملوكية في قبرص ورودس وأطراف العراق وآسيا الصغرى جعلت للحكم المملوكي هيبة عامة في البلاد المصرية والشامية ، على غرار ما كان للدولة المملوكية الأولى من هيبة عامة في قلوب الناس ، بفضل توفيقاتها في احياء الخلافة العباسية بالقاهرة ، وفي دفع الخطرين الصليبي والمغولي من البلاد .

أما العوامل الداخلية التي مكنت لهذه الدولة استمرارها رغم قصور سلاطينها عن مستوى سلاطين الدولة المملوكية الأولى ، فلا مشاحة أن أول هذه العوامل هو أن المماليك سيطروا على جميع الوظائف العسكرية والادارية كما سيطروا على وظائف البلاط السلطاني ، ثم انهم حرصوا — ابتداء من السلطان الى المملوك المجلوب حديثا — أن يظلوا طبقة أوليجاركية ممتازة منعزلة عن سائر أهل مصر والشام وغيرهما من الولايات المملوكية ، ومن هذه الطبقة تألفت فئات الجهاز العسكري الوحيد في البلاد . وأدركت هذه الطبقة ضرورة التكتل والتماسك بين أجزائها ، وعرفت كيف تحصر ما وقع من منازعات داخلية في دوائرها المملوكية ، ولم تلتمس في هذه المنازعات مساعدة المصريين أو البدو بالأقاليم ، ولم تقبل أن يتدخل فيها جيرانها . ولم يخرج على هذه القاعدة سوى قلة من الأمراء المتمردين الذين التمسوا لأنفسهم مأوى خارج البلاد ، وتسببوا للسلطان القائم في اثارة القلاقل على أطراف السلطنة ، على أن معظم البلاد المجاورة لم تستجب لحركات أولئك الأمراء

المتمردين ، بل فضل ملوكها البقاء في سلام ووئام مع السلطان المملوكي .

ثم ان السلطنة المملوكية توفر لها جهاز اداري بالغ الدقة والمقدرة على الاستمرار الذاتي ، برغم ما أحاط به أحيانا من مظاهر الاضطراب لأن عامة موظفي هذا الجهاز الاداري كانوا من المصريين والشاميين على اختلاف عقائدهم الدينية ، فلم يحفلوا بما جرى في دوائر السلطنة ، أو بين زعماء المماليك من أحقاد ومنافسات .

والواقع أن أهل مصر والشام لم يجدوا نحكامهم المماليك متاعب كثيرة ، اذ قنعوا بزراعة الأرض ودفعوا ما هو مفروض عليهم من ضرائب ثقيلة متعددة ، وصنعوا ما احتاج اليه السلطان والأمراء والجيش من معدات مدنية وعسكرية ، ورضوا بما أضفت عليهم أعمالهم في الزراعة والصناعة من أرزاق يومية قليلة . ولذا لم يكن أهل مصر والشام أداة راضية في أيدي السلاطين فحسب ، بل أداة طيعة كذلك ، وكان ما اشتهروا به من الوداعة والهدوء مما يسر للسلاطين المماليك بأن يقوموا بحروبهم خارج البلاد ، أما البدو بالأقاليم الذين لم يحفلوا بما للقاهرة من سلطان فلم يشتهروا بما اشتهر به المصريون والشاميون من الرضى العام والميل الى السكون والهدوء ، بل كانوا خطرا على الحكم المملوكي منذ أيامه الأولى ، وكانت كراهيتهم للمماليك سببا من أسباب انهيار المقاومة المملوكية ضد العثمانيين .

ويستطيع سلاطين الدولة المملوكية الثانية أن يفخروا بعدد من المباني التعليمية والتذكارية ، فضلا عن المآثر التجارية الدالة على ما بلغته تجارة مصر الخارجية في زمنهم ، من ضخامة وتنوع زمن هذه الدولة ، سواء مع فرنسا واسبانيا والجمهوريات الايطالية من ناحية ، أو مع الهند والصين عن طريق البحر الأحمر من ناحية أخرى . أما المباني التعليمية والتذكارية فأهمها ، مدرسة السلطان برقوق ، وموضعها شارع المعز لدين الله الحالي ، وهي المدرسة التي ألقى فيها المؤرخ الفذ عبد الرحمن بن خلدون دروسه في مذهب فقه المالكية . ولابد أنه تخلل هذه الدروس اشارات كثيرة الى نظرياته الاجتماعية والاقتصادية التي امتلأت بها مقدمته المشهورة . وهي النظريات التي تأثر بها المقريزي في مؤلفاته . ومن هذه المباني كذلك ، خانقاه السلطان فرج بن برقوق ، وموضعها القرافة الشرقية الحالية بالقاهرة ، ثم مسجد المؤيد شيخ ، وهو المسجد الذي ظل حافلا بحلقات مدرسية أزهرية حتى العصر الحديث ، وموضع هذا المسجد بالسكرية بجوار باب زويلة (بوابة المتولي) . وهناك كذلك المدرسة الأشرفية برسباي ، وهي التي وافق الانتهاء من بنائها مجيء الأخبار الى القاهرة بوصول الملك القبرصي جانوس الثاني أسيرا الى الاسكندرية في ركاب الحملة المملوكية العائدة من قبرص ، ولذا أمر السلطان برسباي بتعليق خوذة

جاقوس على باب تلك المدرسة ، تذكارا لتبعية قبرص للسلطنة المملوكية ، ولا تزال هذه المدرسة قائمة على رأس سوق الصليبين بالقاهرة الحالية . وللسلطان برسباى كذلك خانقاه ومدفن بالقرافة الشرقية ، فضلا عن مسجد لا يزال كذلك قائما بلدة الخانكة الحالية ، شمالي القاهرة . وللسلطان اينال كذلك خانقاه ومدرسه ومدفن بالقرافة الشرقية ، أما السلطان قايتباى وهو الذي ظل في دست السلطنة المملوكية ثمانيا وعشرين سنة ميلادية ، فهو صاحب أكبر مجموعة من المنشآت المعمارية ، ومنها مسجد ومدفن بالقرافة الشرقية ، ومنها كذلك القلعة التي بناها هذا السلطان بالاسكندرية على أنقاض المنار القديم ، وفي شأنه لها دلالة واضحة على خشية الدولة المملوكية من ازدياد القوة البحرية العثمانية ، بعد أن أخذ السلاطين العثمانيون يمدون أبصارهم نحو جزيرة رودس وسواحل آسيا الصغرى . وللسلطان الغوري مدرسة وقبة بجوار الجامع الأزهر ، ولا تزال القبة تستخدم لأغراض ثقافية ، وهي احدى القباب المملوكية التي شاءت المقادير أن يموت صاحبها بعيدا عنها ، فلا يدفن فيها . ومما يشيد باسم السلطانين : قايتباى والغوري في ميادين المنشآت المعمارية ، وكالة قايتباى عند باب النصر ، ووكالة الغوري في نهاية شارع الغورية ، وكلاهما كنز زاخر بالمعلومات الدالة على المستويات التجارية والفنية أواخر عصر سلاطين المماليك .

واحتذى عدد من أمراء الدولة المملوكية الثانية حذو سلاطينهم في البناء والعمارة ، كما حدث أيام الدولة المملوكية الأولى ، ولكن على مقياس أصغر من حيث الضخامة والفخامة والكثرة العددية ، فبنى جركس الخليلي الخان المعروف باسمه ، وهو السوق الذي يعد أحد المباهج السياحية بقاهرة العصور الوسطى ، وبنى القاضي يحيى مدرسته الكائنة بشارع الأزهر الحالي ومسجده الأول بشارع المحكمة ببولاق ومسجده الثاني بالحبانية ، وترجع لعهد قايتباى عدة مبان أميرية ، أولها مدرسة الأمير قجماس الاسحاقي ، ومدرسة أبو بكر مزهر ، وقبة يشبك بن مهدي الدوادار ، وهي القبة الفداوية بالعباسية .

وهناك كذلك مدرسة ازبك اليوسفي في طولون ومدرسة تغرى بردى المؤذى بالصليبة .

وفي هذه المباني السلطانية والأميرية ما يبرهن على أن سلاطين الدولة المملوكية الثانية وأمراءها لم يكونوا أقل اهتماما بالمباني الدينية والتذكارية عن سلاطين الدولة المملوكية الأولى وأمرائها ، طواعية لنفس العوامل السابقة ، واشباعا لنفس الأغراض الدنيوية والأخروية .

واعتز سلاطين الدولة المملوكية الثانية

بالقلعة اعتزازا بمصرها ، وهم الذين نشأوا بها — واشتهروا باسم البرجية نسبة الى سكنهم بأبراجها ، ولم يكن لديهم من الحروب الخارجية ما يضطرهم الى التنقل والسفر بعيدا عنها ، بل كان لديهم من الفتن الداخلية ما جعلهم يعتصمون بها ، ولذا أقاموا بيوتها أكثر مما أقام سلاطين الدولة المملوكية الأولى . على أنهم لم يحدثوا بها جديدا ، نظرا لاكتمال مبانيها وأسوارها وأبوابها وأبراجها وأحواشها ، فضلا عن بيوتها السكنية والحكومية ، منذ أيام سلاطين الدولة المملوكية الأولى . ولذا اقتصر اهتمامهم بها على أعمال ترميمية واضافات تكميلية وتجديدات تحصينية ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر أن السلطان برقوق عمّر بها صهريجا وطاحونا ، واشترى بها جديدة لدار العدل ، وأن السلطان جقمق جدد باب المدرج ، وأن السلطان قايتباي جدد عمارة الايوان الكبير ، وأنشأ مقعدا وبيتين بالحوش السلطاني ، كما أن السلطان الغوري جدد عمارة المطبخ الكبير ، وأنشأ المقعد البيض الشهير .

• • •

والى هنا تكون الدولة المملوكية الثانية صورة مكررة تقريبا من الدولة المملوكية الأولى ، بعد تصغيرها . غير أن هذه الدولة الصغرة امتازت على سالفتها بما انبعث من حركة جديدة في كتابة التاريخ ، بفضل قدوم ابن خلدون الى القاهرة وقيامه بشرح نظرياته الاجتماعية والاقتصادية في حلقات دروسه ، وتأثيره في تلميذه أحمد المقريزي وغيره من المعاصرين الذين تتلمذوا عليه . ووضح ذلك أول ما وضح في كتاب صغير عنوانه : «النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم » حيث أرجع المقريزي مشكلة اسلامية كبرى الى جذور قبلية قديمة ، كما وضح في كتاب : « السلوك لمعرفة دول الملوك » حيث خصص المقريزي تأليفا عظيما في أربعة أجزاء ضخمة لتاريخ مصر زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية حتى سنة وفاته ، وهو الكتاب الذي تقدمت الاشارة اليه في الفاتحة من هذا الفصل .

ويلاحظ أن المقريزي خصص كتبا أخرى لعصور معينة من التاريخ المصري ، مثل «عقد جواهر الأسفاط في ذكر تاريخ الفسطاط » ، واتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء الفاطميين .

وتبدو هذه النزعة المصرية القومية الخالصة في مؤلفات أخرى للمقريزي مثل : « المقفى الكبير » الذي أراد المقريزي أن يجعل منه معجما مصريا قوميا من أقدم العصور الى عصره ، ومثل « درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة » وهو معجم قومي لمعاصريه . واستمرت هذه النزعة القومية في تلاميذ المقريزي والتابعين لهم ، فكتب يوسف بن تغري بردي تاريخه الضخم المسمى : « النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة » وكتب عبد الرحمن السيوطي : « حسن المحاضرة في

تاريخ مصر والقاهرة » كما كتب محمد بن اياس : «بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، وهو كذلك فى التاريخ المصرى .

ويبدو تأثير ابن خلدون واضحا فى نوع جديد من المؤلفات ، منها : « اغاثة الأمة بكشف الغمة » للمقريزى ، « والاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » للسخاوى ، « والشماريخ فى التاريخ » للسيوطى .

وفى هذه العناوين شواهد بليغة ناطقة بالتطور فى مفاهيم التاريخ ، ولكنها شواهد لم تلبث أن زالت بزوال ما لمصر من كيان سياسى ، نتيجة للفتح العثمانى الذى جعل البلاد المصرية ولاية تابعة لدولة لا تعرف ولا تدرك من اللغة العربية وتراثها سوى النزر اليسير الضرورى لشئون الدين .

الحياة الدينية في مصر الإسلامية

من ظهور الإسلام إلى مطلع العصر الحديث

للأستاذ أمين الخولي

حول المنهج :

الدين .. والتدين

« هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينشئ السحاب الثقال ، ويسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء .. »

(سورة الرعد آيتي ١٢ و ١٣)

منذ وجد الانسان على ظهر هذا الكوكب الأرضي ، قبل أن يكتب تاريخه وبعد ما كتبه ؛ كان يتحكم في حياته هذان الشعوران : الخوف والطمع ، اثرا لوقفه أمام الظواهر الجبرية ، أرضيه وسماويه ، واحساسه الواضح بضعفه ، وعجزه ، وجهله ، أمام ضخامتها ، وشمولها ، وغموضها ، وتكرارها .. وما الى ذلك .

ولذلك تدين الانسان في كل زمان ، وكل مكان لونا ما من ألوان التدين ، بنوع ما من أنواع الدين .. فعرفت له ديانات وثنية مختلفة في أنحاء الأرض ، كما كانت له ديانات توحيدية ، في أرجاء من الدنيا .

والدرس العلمي لظاهرة التدين ، والأديان المختلفة يمضى على منهجه المحرر ، فيحدث عن نشأة – وتطور – ومقارنات .. ونواميس تنظم الحياة الدينية .. وسنن اجتماعية لها .. ونحو ذلك .

وهو منهج لا يد لأحد بالخروج عليه ، ولا قدرة على انكاره .. وما أخالنا في الحديث عن الحياة الدينية المصرية الا مصغين لما يقوله في هذا ، غير منكرين لما يرى من صلات مثلا ، بين ألوان التدين المختلفة ، في مصر ، وفي سواها من بلدان أخرى ، وما يجد من روابط بينها ، أو تشابه ، وما يفسر به شيئا من هذا كله .

وهو اتجاه يخلي أن يجد فيه صاحب دين سماوي : مسلما أو مسيحيا ، أو غيرهما شيئا من غضاضة ، أو مساسا بكرامة عقيدته ، اذا جمع الدرس بينها وبين ألوان من التدين

البدائى أو المتطور ، لا يعدها صاحب الدين السماوى الا أساطير ، أو خرافات ، أو تحريفا شوهت عقائد سليمة الأساس ، كريمة المصدر .

ومن أجل هذه الخشية المتحرجة عدمنا هذه الكلمة عن « الدين .. والتدين » لنقول فيها لمثل هذا المتحرج أو المنكر لبعض مقررات المنهج العلمى الاجتماعى ، فى درس تاريخ الأديان ومقارناتها .. الخ : ان هذا المنهج لا يسىء الى الأديان السماوية المنزلة ، حين يقرنها فى درسه الى الديانات الأخرى ، التى تعدها الديانات السماوية ضلالات ، وخرافات ، أو تحريفات لحقائق صحيحة .

نعم .. لا يسىء ذلك الى الأديان السماوية فى شىء ، ويبين هذا بيانا كافيا وقوف الاسلام بخاصة ذلك الموقف الذى يقدم لنا تفسيرا يقر العلم فيما يعمل به بين هذه الديانات التى يختلف نظر المتقدين اليها ، وهو موقف يتجلى فى أصلين اجتماعيين دينيين ، قد قررهما القرآن فى صراحة ووضوح ، وفيهما التوفيق بين تناول العالم ، وتكريم المؤمن لعقيدته ، وبهما تصير الجمع بين أديان هى تحريفات ، أو ضلالات فى رأى المؤمنين مع غيرها من الأديان المنزلة ، فبهما يمكن للعلم أن يسلكها معا ، حينما يدرس ظاهرة التدين الانسانية .

وهذان الأصلان الاسلاميان اللذان يهيئان هذا التوفيق هما : —

أولا — وحدة الأديان ، التى يقررها القرآن ، بوضوح وصراحة تكررت فى مثل[1] آية ١٣ من سورة الشورى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم ، وموسى ، وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه .. الآية .. فهو يقرر أن الحقيقة التى شرعها فيما وصى به الرسل المتعددين واحدة .. والوحى الذى أوحاه اليهم جميعا متماثل .. وهذه الرسالات قد دخل عليها مع الزمن من التغيير ما دخل ، وجرى حولها من التخالف والتناكر ما جرى ؛ كما يحدث القرآن عنه عن ذلك فيما بين اليهود والنصارى وسواهم ، لكنه مع ذلك كله يقرر وحدة أصلها ، وأن ما أوحى الى رسلها ، وأوصوا به واحد . والصلة بينها قائمة فى الأصل ؛ وفهم العوامل التى طرأت عليها فى تأثرها وتطورها يبيح لباحثها أن ينظر اليها فى ظل هذه الوحدة ، وأن يلتمس العوامل الفعالة فى حياة هذا الأصل الموحد ، وما طرأ عليه من تغيرات ، دون أن يجد المتدين المؤمن غضاضة فى الجمع بين ما صارت اليه رسالة نوح وابراهيم ، وما فى رسالة موسى وعيسى ومحمد بعدهما مثلا .

---

(١) فى معنى هذه الآية الفردة للوحدة الدينية آية ١٦٣ من سورة النساء : انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق .. الآية ، وآية ١٣٦ من سورة البقرة ، وآية ٨٤ من سورة آل عمران ، وغير هذه الآيات مما لا حاجة بنا الى احصائه .

وثاني الأساسين اللذين يفرضها الاسلام، ويسمحان للمنهج العلمي بخطته هو : أن كل أمة قد جاءها نذير ، أي أنه قد أتيت اليها رسالة مبلغة ، كانت مناسبة لوقتها ، ملائمة لحالها وهو ما تقرؤه قويا ، بصيغة القصر في آية ٢٤ من سورة فاطر : وان من أمة الا خلا فيها نذير .. ونظائرها الى حد ما آية ٤ من سورة ابراهيم : وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » ..

وما دام الأمر كذلك فممكن أن يقال : ان ما عند كل جماعة بشرية من دين قد جاءها على يد نذير ، وله أصل سماوي ، ثم تغير مع الزمن كما تقضى بذلك سنة التطور ، فان كانت فيها حقيقة أو حقائق قد جاءت بها رسالات سماوية أخرى فليس ذلك مما اتفق فيه تدين خرافي أو ضبان مع تدين سماوي ، يتزهه المؤمنون ، بل هي من الحقائق التي اشتركت فيها الوحدة الدينية في الرسالات ، ووصية السماء ، وما حولها من باطل في رأي المؤمنين هو ما لحقها من تشويه أو تحريف أو تغيير .. وخذ لذلك مثلا يزيد الأمر وضوحا وهو الميزان الأخروي ، ووزن الاعمال في دار الجزاء على النحو الذي يوضح به ويرسم في الوثنية المصرية ، فهل هو من الوثنية المصنوعة ، وقد انتقل الى الديانات الموحاة المنزلة بعد ذلك ؟ وفي هذا ما فيه من المساس بحرمة تلك الأديان المنزلة ؟ أو أن هذا الوزن والميزان في الوثنية المصرية يمكن أن يقال — في ظل ما يقرره القرآن من الوحدة الدينية ، وارسال النذر الى جميع الأمم قاطبة — انه حقيقة دينية موحاة خلا بها نذير ، ثم تغير من أمر هذه الرسالة ما تغير ، وحفت بها التغيرات والتحولات الوثنية ..

واذا ما أمكن أن يقال هذا فلا بأس على الدارس المصطنع للمنهج العلمي في فهم ظاهرة التدين الانساني أن يقرر الصلة بين التدين في مختلف ألوانه ، ومتعدد صوره ، وأن يقارن، ويوازن بين الأديان المختلفة ، وأن يخضعها لقوانين مطردة ، وسنن موحدة ، لأنها في حديث الوحي المنزل ، من القرآن ، ليست الا حقيقة واحدة ، ولا غرابة في أن يكون قد خلا في أمتها — حيث كانت — نذير من السماء بها .. ولا بدع في الربط بين الأديان المختلفة ، في أي زمن من الأزمان ، ولا يصح أن يشق ذلك على مؤمن ، أو يرى فيه بأسا ، أو منالا من دينه الذي يدين به .

وهكذا يزيل الهدى القرآني كل صعوبة تعترض المنهج العلمي في درس الأديان على مستوى اليوم .. فيستطيع المتحدث فيها أن يقول ما يجد من صلة بين الدين .. والتدين في الحياة المصرية ، على اختلاف أزمنتها ، وتنوع دياناتها ، وأن يلمح أوجه المشابهة بين هذه الصور المختلفة .. وأن يستخرج منها دلالات على الشخصية المصرية الدينية مثلا ، غير مشفق من أن يظن ظان بهذا المنهج خطرا على ايمان مؤمن برسالة سماوية ، أو نيلا

منها فى شىء .. وعلى هذا المنهج تتقدم الى الحديث عما نقصد اليه من :

التاريخ الحضارى

فنقول : لئن أمكن — بكل تساهل — أن يكتب التاريخ العام ، أو التاريخ السياسى، وما أشبه ، على أنه أحداث مسرودة ، وأسماء معدودة ، وسنين مرقومة ، فانه لا مجال مطلقا لأن تفى — بأى تساهل — كتابة التاريخ الحضارى على مثل هذه الصورة .

انما تاريخ الحضارة حديث عن خصائص ومميزات لجماعة من الناس ، وطوابع لها ، ومقومات ، يمكن فى ضوئها تفسير اتجاه خطوات تلك الجماعة المؤرخة ، فى طريق التقدم الانسانى ، ومسير التمدن البشرى .. وفهم أهدافها فى نشاطها ذاك ، وكشف البواعث والدوافع التى صدرت عنها أعمالها ، فى هذا المجال .. وتبين العوالم النفسية التى سيطرت عليها فى أدوارها المختلفة وسادت أنفس أجيالها المتتابعة .. وتحديد الفكرة الثابتة التى دارت عليها حياتها ، وصنعت تاريخها ، وكانت محور فلسفتها الخاصة ، ومدار تفسيرها لشئون الكون ، ومنهج ادراكها لمشكلات العالم ، وآفاق المستقبل ..

وعن طريق معرفة ذلك وما اليه فى حياة مجموعة انسانية موحدة يمكن فهم شخصيتها المميزة ، وهل هى متماسكة ، واضحة ، متسقة ، كما يكون الانسان الفرد القوى ، فى شخصيته .. أو هى منها فئة مهترئة منهارة ، كما يكون الانسان الفرد الضعيف ، وتكون شخصيته ..

ومن هنا يدق القول فى هذا التاريخ الحضارى ، دقة هذا التمثيل للشخصية .. والاهتداء لعناصرها ، بالجمع والتتبع تارة .. وبالتحليل والتجزئة تارة .. وما يتطلب كل أولئك من النظرة الشاملة ، العميقة ، الفاحصة .. المتتبعة للحياة المؤرخة فى مختلف عصورها ، ومتغير أحوالها ، ومتنوع مجالاتها ، منذ عرف عنها خبر ، أو كتب لها تاريخ ، وتقلبت بها الظروف ، بين بؤس ونعيم ، ونصر وغلبة ، أو هزيمة وضعف ، ورخاء وجدب ، وجهل وعلم ، وما الى ذلك.. تجول هذه النظرة النفاذة المستشفة فى حياة الجماعة ، على أنها كل لا ينفصم .. ووحدة لا تتجزأ ، مثلها مثل النهر المتواصل الجريان، المتلاحق الأمواج .. لا نجد فى تياره فجوة ، ولا نرى بين أمواجه ثغرة .. وان تقسمت واديه دولات .. أو توزعته سياسات ..

وليس من الصواب فى شىء أن يخال باحث يقظ أن حاضر جماعة بشرية ينبتر من ماضيها ، أو يثبت ما بين مستقبلها وحاضرها، فذلك ما لا تسمح به الحياة ، ولا يجيزه تسلسل الوراثة ، ولا يمكن منه تأثير البيئة ، ولا تقبله النواميس الكونية والاجتماعية المطردة ..

وما دام الأمر كذلك فلن نستطيع الحديث عن شىء من أمر الحياة الدينية ، فى مصر الاسلامية ، خلال وسيط التاريخ وحديثه

الا تحت أضواء من الشخصية المصرية الدينية في قديم تاريخها وأوله ..

وكذلك لن يكون حديثنا الحضاري عن هذه الفترة الا حقائق اجتماعية عامة تصورها، وتمثلها ، وتقررها ، عوامل الشخصية المصرية، التي سيرت تاريخ هذه الأمة ، منذ سمت في هذا الوادي ، وما رست الحياة في جنباته .

ولئن ألزمنا ذلك — ولا محالة — بأن نستحضر في أنفسنا ، ونحضر القارىء معنا صورة واضحة الملامح للشخصية المصرية الدينية بخاصة — على الأقل — فانا سنحاول ذلك ، في أقصى ما يمكن من الايجاز والاجمال ، تاركين كل تفصيل أو استدلال لثقافة القارىء ، ونحن نعتقد أن التاريخ الحضاري لمصر ، فيما كتب من هذا الكتاب قبل الفترة الاسلامية التي نحدث عنها ، لابد أن قد هيأ القاريء لما نحيل عليه ، ونجمل القول فيه ، من سمات هذه الشخصية ، وسلوك الأمة المصرية ، في أعصرها السابقة على العهد الاسلامي من حياتها .

والى القارىء ما لا بد منه ، أساسيا ، من الفكرة القصيرة المركزة عن :

__ملامح الشخصية المصرية الدينية__

ولمصر — على سير التاريخ — شخصية واضحة السمات ، بادية القسمات ، بينة الملامح ، راسخة العرق ، ثابتة الخطو .. بعيدة عهد بالتحضر ، قديمة الأثر في التمدن .. مؤسسة معلمة ..

وتلك الشخصية المصرية حقيقة يعرفها العلم ، فيما يدرس من شئون الجنس ، والوراثة ، والبيئة ، ويقررها الدرس حين يحسابه ولا يتحيز .. وليس القول بتلك الشخصية زخرفا من الكلام ، وسحرا من البيان ، أو اندفاعا من عواطف قومية .

وكما رسمنا خطة الحديث لا نتعرض لشيء من أصول ذلك ودلائله ، بل نكتفي بالاشارة الخاطفة ، بعبارة موجزة لجوستاف لوبون ، تشير من أمر هذه الشخصية الى أصول عامة ، وعوامل جامعة ، وهي : —

« .. نـدرك الآن السبب الذي أدى بالجنس المصري ، بعـد تكونه البطيء ، في عزلة من الدنيا بحاجزي الصحراء والماء الى بلوغ الوحدة القوية ، التي استخرجها من أصله الغامض ، واحتفظ بها الى أيامنا هذه ظاهرة على أبنائه ظهورها على غرائب معابده ، وقبوره القائمة من آلاف السنين » .

* * *

وتلك الشخصية المصرية جوانبها المختلفة ، ونواحيها المتعددة ، من دينية ، وخلقية ، وعقلية .. وسواها ، ويعنينا هنا من ذلك الجانب الديني ، الذي سنمضي الى الحديث عن بضعة عشر قرنا من تاريخه .. فنحاول بتمثل ما قدمنا الآن من اشارة خاطفة أن نصف ملامح تلك الشخصية الدينية ، لنضع في يد القارىء بذلك ما يفسر ظواهر الحياة الاسلامية في مصر ، ويردها الى المستقر المعروف ، من أمر شخصيتها على الزمن .

ومن أبرز ملامح الشخصية المصرية الدينية : —

فمنذ أول الدهر عرف المصريون بقـوة التدين ، ولا نطيل فى ذلك ، بل نكتفى بما قاله أبو التاريخ هيرودوت : ان المصريين أشد البشر تدينا ، ولا يعرف شعب بلغ من التقوى درجتهم فيها ، فان صورهم بجملتها تمثـل ناسا يصلون أمـام الرب ، وكتبهم — على الجملة — أسفار عبادة ونسك ..

وسنرى لسيطرة الشعور الدينى ما يمكن أن نلمحه من أثر فى حيـاة المصريين الدينية على اختلاف العصور ، ومع مختلف الأديان..

ثم ان من أوضـح ملامح الشـخصية المصرية الدينية أيضا : —

قوة الايمان بالحياة الأخرى

فحين لا نجد فى أصول اليهودية مثـلا عناية بتلك الحياة نجد أن المصريين قد احتقروا الحياة الدنيا مخالفين كل جنس سـواهم ، وتعلقـوا الموت — كما قيـل — فلم يكن المصرى يهتم بما يسر أو يحزن ، أو بمن يحب ويمسل ، ويبكى ويغنى ، على ضفاف النيل ، وانما يصرفه همه الى المومياء الخـالدة .. والمصريون — وهم أقدر البنائين القدماء فى العـالم لم تكن قصـور ملوكهم الا خانات بالنسـبة للقبـور ، وذلك لأن المسكن يبنى عندهم ليأوى اليه الانسان فى حياته ، والقبر يبقى خالدا على الدهر ، ومنذ القدم قد لحظ هذا المعنى فى فنهم المعمارى من حولهـم من الأمم ، كاليونان .

ومن الأثر القريب لهذا الايمان القـوى بالحياة الثانية : سيادة عقيـدة البعث ، وما اتصل بهـا من الايمان بالخـلود ، وتفنن المصريين فى بيان ذلك ، ثم فى العمل من أجله.

فعقيـــدة البعث فى النفس المصرية هى محور النشاط العملى فى وجـودها ، وهى أوضـح البواعث والدوافع فى أعمالها ، وهى سر تاريخها ، وخلاصة فلسـفتها فى تفسـير حياة الكون والانسـان .

وقد وجدت فى البيئة المادية حولها تعبيرا وتصويرا لهذا المعنى ، فالشمس تحكى ذلك كل يوم بشروقها الناشىء فظهيرتها الشابة ، الى أصيلها الكهل ، فغروبها الفانى فى ظلام ، يعقبه بعث وميـعاد مصبح ، اذا الصبح تنفس..

والنيل يكتسح بفيضانه الزاخر رمـال الصحراء ، وجمود الجـدب الميت ، فيحيى الأرض بعد موتها ، ثم اذا هو يهبط ويفتر فى تحاريقه فتتسرب الحياة من الأرض الرابيـة رويدا ، ويســودها الموت الى بعث جـديد بفيضان معاود ، وكذلك عبر القلب المصرى بأمل لا يخيب فى الحيـاة الدائمـة بفضـل ما يمثله من ذلك نيلهـا الدافق وشمسها الوضاءة .

وفى سـبيل هذه العقيدة وبتوجيهها دبرت مصر ما دبرت ، وبذلت ما بذلت لأجلها من التمـاس عوامل البقـاء ، ومهيئات المعاد ، فكانت قبور راسيات كالأطواد ، وأهـرام شامخات ، راسخات ، ومعـارف ، ومباحث

تهيء لذلك كله ، وتمكن من صون الجسم ، ليتلقى الروح في الوقت الموعود .. وانتثرت في الوادي تلك المعاقل الخفية في جوف الأرض ، وتلك المعالم الشامخة على سطحها..

وكانت مصر بذلك بيئة دينية لها بتلك الجهود الجبارة ايحاءاتها وتأثيراتها الرامية الأصل ، وان اختلفت صورها . فمصر البرابي هي هي مصر الأديرة ، ثم هي هي مصر السباحة الصوفية .. بعمق روحها الدينية ، وتمثلها للحياة الأخرى -- واطمئنانها الروحي الآمل..

ومصر بهذه المعاني هي مصر التي ستحي من معاني تدينها في اخلاصه ، وتشبثه ، وتفاؤله من العقيدة أصداء تلك الجهود الجبارة التي كانت صورها صلوات .. وكتبها أسفار عبادة .. وفنونها اعدادا للبعث وتمكينا من الخلود .. وسنرى حياتها الدينية الاسلامية -- فيما يلي -- امتدادا متصلا لهذه المعاني المتدينة بلا تخلف .

ثم من أبين ملامح الشخصية المصرية الدينية التي توازر عمق التدين ، وقوة اليقين الأخروي .

سعة الافق الديني

فقد أوتيت مصر بسطة في النظر الديني ، وتطلعا الى فسيح الآفاق وبعيدها في عالم التدين . وكان من ذلك أن عرف البحث المقارن في الأديان البشرية صلات لها ، وروابط ، ومشابه بأديان مختلفة في مواطن عريقة التدين ، فاذا لمصر مشاركة واسعة المدى في تدين البشرية بما هو ظاهرة اجتماعية ، في حياة الجنس الانساني .

وحينما كان التدين وثنية تجسيمية عرفت مصر من هذه الوثنية الكثير جدا ، مما عرفت الوثنيات القديمة في أقاصي الأرض واتصل بعقائد مختلفة الصور في ديانات متعددة .. فوثنية مصر قد عرفت تعدد الآلهة ، بمختلف الأقانيم من ثلاثة الى ما بعد التسعة .. كما عرفت تلك الوثنية عقيدة الفداء والتخليص وولادة المخلص الالهي ، وقيامه من بين الأموات .. وكما عرفت أمومة العذراء .. وما يتصل بذلك .. وكان لها من الطقوس الكثير ، فعرفت التعميد والرهبنة و .. و .. مما تكشف مقارنة الأديان عن قوة المشاركة المصرية فيه ..

ثم اذا ما كان التدين توحيدا عرفت الديانة المصرية في هذا التوحيد ما لها من محاولات وتفسيرات . وهكذا تدرك من هذا الاجمال ما في الشخصية المصرية الدينية من سعة الأفق ، وبسطة النظر الديني .. وتقدر أنها بذلك وما اليه من مشخصات تشارك في حياة التدين البشري بعامة ، وفي حياة الأديان الكبرى المعروفة اليوم بخاصة .. مشاركة نظرية اعتقادية .. وعملية ايجابية .. فاليهودية ربيبة مصر ، وفي حجرها ربي رسولها موسى -- عم -- والصلة بين التوراة والبيئة المصرية موضع الدرس الواسع عند المختصين ..

والمسيحية لا تنقض العهد القديم ، بل

تعد تراث اليهودية شطرا منها .. والاسلام مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل .. وتلك لفتة الى المشاركة النظرية الاعتقادية من مصر في حياة الأديان الكبرى عندنا ..

وأما المشاركة الايجابية العملية وما أدت مصر في مختلف عصورها ، من خدمات جلى لحياة هذه الأديان فقـدمها فيها راسخة ، وجهدها عبقري ، في لحظات دقيقة ، ومواقف حاسمة ، تعدل في عظمتها ما أدته كذلك من الخدمات الجليلة الخالدة لحماية الحضارات وصون التراث الانسـاني ، العقـلي ، كما صانت التراث الانساني الوجداني الاعتقادي .. وهذه المشاركة العملية الايجابية في حيـاة الأديان والحضارات مما لا فرصة هنا للقول فيه بتفصيل ولا اجمال ، وحسب القارىء ما تذكره به هذه الاشارة من ثقافته التاريخية عن تلك المشاركة المصرية .

* * *

وحسبنا هنا أن نقول ان هذه الشخصية المصرية الدينية قد هيـأت لمصر المشاركة في الأديان الكبرى ، بمعرفتها . واتقانهـا .. وتقبلها في أناة وعقلة .. وتمكينها من الحياة في بيئتها الاعتقادية ، ثم الوقوف الى جانبها بعد التمثل الصحيح لها ، وتوف المستشهد العميق الايمان .

ولعلك بعد هـذه الاشارات العـابرة ، المصورة لقسـمات الشخصية المصرية وملامح تكوينها تستجيب لما قصدت اليه من هـذا التصوير ، فتدرك المظاهر العامة المفردة التي تجلوها هذه الشخصية ، فتسلم معي بأن : مصر صاحبة هذه الشخصية الدينية قد حققت على اختلاف الأدهار معاني نعتمد عليها في فهم حياتها الدينيـة الاسـلامية ، ليتسق فهمنا للتاريخ الحضاري من جانبه الديني .. وتلك المظاهر العامة هي أنها : —

(أ) ثابتة التدين ليست كما يقول التعبير العربي ، قبضة رقضة ، تعتقد في سـهولة وتصبأ في سهولة .. كلا .. بل هي متـانة فيما تقبل من عقيدة ، لا تهدم أصلا في أقدم تدينها ، وسترى ذلك في الحديث قريبا عن تلقيها الاسلام ..

ثم هي اذا ما تقبلت في أناة ظهر أثر هذا التأني في تدينها ، فرأيت لذلك أنها : —

(ب) متعمقة روح الدين الذي تعتقه .. لا تقف منه عنـد القشور والمظهـريات بل تستشف اللباب وتدرك الجوهر ، وسترى هذا في اسلامها بعد اعتناقه .. ولعلها لهـذا لاتبذل جهدا كبيرا في متشعبة الخلاف الديني، وافتراق المقالات الاعتقادية ، بل ترى موقفها في هذه النحل والخـلافات هو موقف غير المتقبل ولا المعرف .. وهو ما ستجد أمثلة له في الكلام على حياة الاسلام فيها ..

ثم اذا ما تعمقت في تدينها رأيت لذلك انهـا :

(جـ) مضحية في سبيل الدين الذي تلقته في أناة وتعمقت روحه . وكذلك تجد لهـا الضحايا في مختلف الأديان على شتى الصور،

ناضلت عن الوثنية التي عاشت بها أجيالا .. ثم لما تلقت المسيحية قدمت لها شهداءها مقاومة عن مسيحيتها ، حتى تلقت الاسلام فى أناة — ولما تمكنته بذلت فى سبيل حماية عقيدته ودولته ما بذلت فى صراعها الدامى ، مع الغرب الصليبى، والشرق التترى الهمجى، وقد كادا يطبقان عليها من الجانبين فى عصر واحد .

وبمثل هذه الملاحظة العامة نشعر أننا قد مهدنا للقول الاجتماعى فى التاريخ الحضارى الدينى لمصر الاسلامية ، واقتنا من المعالم ما يرد الحديث عن هذا العهد الاسلامى الى معان عامة ، تدل على تتابع أمواج نهر الحياة المصرية ، متلاحقة متواصلة يجيء السابق منها للاحق .. ويزيد الأول وضوح الثانى .. ويتسق به البيان مترابطا متواصلا ، متطورا متدرجا .. كما ينبغى أن يكون الأمر فى تاريخ الحضارة ، ليمكن أن يلقى أضواء جلية مركزة على الأحداث وتطورات الحياة ، وليحصل القول فى شخصية مصر الحضارية ثابت الأسس ، أصيل المنهج ، لا تكلفا .. ولا تحيزا .. ولا تعصبا .. ولا افتراءا مدعى .

وعلى هذا الأساس ننظر الى :

مصر تتلقى الاسلام

ولمصر بعهد الاسلام ووطنه الأول صلات كثيرة ، بعضها يحدث عنه التاريخ الدينى الرواية .. وبعضها يحدث عنه التاريخ المادى المصادر .

فأما ما يحدث عنه التاريخ الدينى فأمومة هاجر المصرية للعرب المستعربة ، اذ أهداها صاحب مصر لابراهيم — عم — حين دخل مصر ومعه زوجته سارة ، وكان من أمره وأمرها مع ملك مصر ما يحكى ..

ثم هى صلة يجددها اهداء المقوقس مارية القبطية التى ولدت للرسول محمد — عم — ولده ابراهيم على ما هو معروف .

ويلحق بما يحدث عنه التاريخ الدينى من صلات ما تحكى الرواية العربية من دخول العرب الى مصر ، وقصة عمرو بن العاص ، ووقوع الكرة فى كمه ، بملعب الاسكندرية ، وأن من كانت تقع فى كمة تلك الكرة يملك مصر ، ولذا عجب المصريون من وقوعها فى كم هذا الأعرابى .. ولكنه أخيرا ملك مصر..!!

ومهما يكن الرأى فى تلك المرويات كلها فان لها دلالة اجتماعية على صلة ما بين الاقليمين القائمين على شاطىء بحر واحد هو البحر الأحمر .. ولهذا الجوار ما يكون لمثله من اتصالات ، ومبادلات ، مادية ومعنوية لا مفر منها .

والتاريخ المادى المصادر يحدث من هذه الاتصالات بأشياء معينة ، من رحلات مصرية وتجارات لا نخوض فى شىء منها ، ولكن نشير الى ما يذكره ذلك التاريخ من صلة دينية بين الوثنية المصرية ، والوثنية العربية جعلت المعبودات الوثنية العربية ترجع فى أصلها الى معبودات مصرية ، حتى أمكن رد

أسماء لآلهة المشهورة التي ورد ذكرها في القرآن وهي : اللات ، والعزى ، ومناة — بل رد غيرها أيضا — الى تظائر من آلهة مصر ، اسمها شبيه بالاسم العربي ، ووصفها شبيه بوصفه مصر لتلك الآلهة وعملها ، فاسمها ورسمها مصري .

واللات مثلا ، هي معبودة مصرية ، اسمها المصري شبيه بالاسم العربي ويرمز بها في مصر الى الحصاد ، حين يذكر في العربية أن الاسم من لت السويق ، المتخذ من الحنطة والشعير .

وقد تولى هـذا البيان الأثري المصري المرحوم أحمد كمال باشا .. ولا يتسع المقام للخوض في شيء منه هنا ، لكننا هي الاشارة الى تلك الصلة بين مصر والجزيرة العربية على أساس أقوى من مجـرد الخبر الذي تعرضه الروايات الدينية الشائعة .. هو اتجاه الى الناحية الدينية في البلدين بخاصة ، وهي موضع عنايتنا هنا .

ولا نعرض كذلك لشيء من أخبار تلك الصلة بين البـلدين في العهـد القريب من الاسلام . ولكنا بالنظرة الجامعة نشـعر في اطمئنان أن بين البلدين من المشاركة الناتجة عن الجوار ما يمتد الى جـذور عميقـة في حياتهما ، ويجعل لهما من الروابط الدينيـة والاجتمـاعية ما يتطلب الدرس المفـصل باعتبارهما جارتين متقاربتين على جانبي بحر واحد — كما قلنا — .

ولعله ليس من البعيد أن نجد الصلة بين قيام المركز الديني الهـام في الحجـاز غرب الجزيرة العربية وبين مقابلة هذا الغرب لمصر بلد الحياة الدينية الحافلة القوية ، الواسعة الأفق .. وهو احتمال تكتفي منه هنا بالاشارة الى قوة الاتصال بين مصر وبين مهد الاسلام ومنشئه الأول ، لنرى أن الاسلام لم يكن دعوة غريبة على مصر .. ولا بعيدة عن جوها وبيئتها الدينية ، على ما أشرنا اليه ..

وقد كان لهذا الجوار أثره في أن وجهت الدعوة الاسلامية الى مصر برسالة من محمد نفسه الى المقوقس أو — قيرس — حاكمها السياسي وزعيمها الديني ، في السنة السادسة من الهجرة .. وكان الرد على هذه الرسالة من خير الردود على ما وجهه الاسلام من رسـائل الى الملـوك والحكام حـوله ، ان لم يكن خيرها .. وتتوسع المصادر العربية في وصف تقبل المقوقس للرسالة ، وسؤاله حاملها في خلوة خاصة ، عن صفة رسـول الاسـلام — ص — واعلانه فهم الدعوة الاسلامية ، وانتظار ظهورها وغلبتها الى حد القول بأنها ستنزل بساحتهم هذه — مصر —

وان لم يكن هذا كله قد كان كما وصفت الروايات الاسلامية فان الهـدايا المرسـلة ، والرد الحسن يكفي في وصفه تقبل المقوقس لهذه الدعوة .. وسواء أكان هـذا التقبل الحسن سياسة من الرجل ، أم كان حسن فهم لسير الحياة الدينية فانه يتصل — على كل حال — بما وصـفنا في ملامح الشـخصية

المصرية ، من سمة أفقها الديني ومشاركتها الواسعة في حياة التدين الانساني .

ولعل مما يؤيد هذا المعنى أيضا ما تسوقه المصادر العربية كذلك من أن المغيرة بن شعبة في جرحة له الى مصر ، قبل أن يسلم ، قد تحدث الى المقوقس بشأن صاحب الدعوة الاسلامية الجديدة في بلاد العرب ، كما تحدث الى أسقف قبطي ، بهذا الشأن ، لم ير المغيرة أحدا أشد اجتهادا منه ، فأخبره عن آخر الأنبياء ، النبي الأمي العربي .. الخ ..

وهي روايات ، ان لم تصح كلها فان لها دلالتها على ما كان في البيئة المصرية من علم بالشئون الدينية ، يؤيد ما وصفنا لها من أفق واسع في التدين .

ثم لم تمض بضعة عشر عاما من هذه الدعوة السلبية حتى جاءت دعوة الاسلام الموجهة .. فأقامت له دولة داعية في مصر ، بعد ما كان من وقائع الفتح التي لم تستغرق وقتا قصيرا .

ولا نبعد اذا ما قلنا ان مصر القوية التدين ، العليمة بالأديان قد كانت لها مشاركة في حياة الدين الاسلامي ، خارج مصر ، في مهده بالحجاز ، ثم في مصر نفسها ، على عصور مختلفة .

ففي الحجاز يعد بين صحابة الرسول — عم — غير واحد ينعت بالقبطي ، مثل :—

جبر بن عبد الله - ت ٦٣ هـ — الذي ينعت في كتب الصحابة بالقبطي ، ويروى السيوطي أن القبط تفخر بأن منهم من صحب النبي — عم — .

وفي بعض خبر القوم عن هذا الصحابي القبطي : أنه كان رسول المقوقس بمارية الى رسول الله — عم — فبقي هناك وأسلم وصحب .. وان كانوا يقولون مع هذا : ان منهم من رأى بعض ولده بمصر .. فهو على هذا ليس مجهولا ، قد هاجر الى الحجاز نهائيا ، بل عاد هو أو بنوه الى مصر ، وكانت لهم فيها أسرة .

ومن الصحابة المنعوتين بالقبطية أيضا صحابي قوي الصلة برسول الاسلام نفسه هو :

أبو رافع القبطي مولى النبي — عم — .

لأنه هو الذي جرى في رواية — وليس فيما رأيت من خبرهم عنه ما يبين مصريته ، أو سبب انتقاله الى الحجاز الا شيئا واحدا هو رواية لهم ، في اسمه الأول ، اذ يقولون : كان اسمه «قزمان» ثم غير الى أسلم ، أو ابراهيم أو « بريه » بصيغة التصغير التي كان يلقب بها ..

وفي كل حال فان لهذا الذي نعتته كتب الطبقات بالقبطي رواية للحديث عن النبي — ص — وعن عبد الله بن مسعود ، كما روى عنه أولاده ، وأحفاده ، وغير قليل من الصحابة .

وفي هؤلاء وأمثالهم ممن اتصلوا بالاسلام في مهده ، ولأول عهده مشاركة من مصر

ويئتها في تلقي الدعوة الاسلامية التي وجهت لمصر منذ عهد مبكر — كما رأينا — .

ثم تصل مصر حبلها بالاسلام ، وتتجه العناية الى الثقافة الاسلامية الخاصة في مدارسة القرآن ، والحديث ، وما يتصل بذلك من العلوم الدينية كالفقه ونحوه فاذا مصر تشارك في ذلك برجال غير مقصورين ، ولا يزالون ينعتون بالقبطية ، عند الحديث عنهم بين المعدودين في حياة تلك الثقافة الدينية الخاصة .

ففي قراءة القرآن وتلقيه ، وتحرير نصه ، ووصل السلسلة في نقاله يشترك قبطي من وجوه القراء السبعة المعروفين ذوي الأسماء الشائعة الى اليوم ، هو القارىء :

ورش — القبطي المصري مولدا ووفاة — ١١٠ هـ — ١٩٧ هـ ، الثقة الحجة في القراءة ، والذي ينعته أصحاب هذه المادة فيهم بأنه : شيخ القراء المحققين ، وامام أهل الأداء المرتلين .. وأنه انتهت اليه رياسة الاقراء بالديار المصرية في زمانه .. أخذ عن نافع بن أبي نعيم .. وله اختيار — في القراءة — خالف فيه نافعا .. وكان جيد القراءة ، حسن الصوت ، لا يمله سامعه ..

ثم في ميدان الفقه ، ولعهد مبكر تجد بين الطبقة الأولى من أصحاب الشافعي الذين جالسوه فتلقوا فقهها هو :

أبو حنيفة الأسواني القبطي — ٢٧١ هـ — واسمه قحزم بن أبي قحزم ، ولعله اسم مصري في التعرب — صحب الشافعي ، وكتب الكثير من كتبه وروى عنه عشرة أجزاء من السنن والأحكام .. وكان آخر من صحب الشافعي موتا .. وبلغ في الفقه مبلغا طيبا فكان مفتيا .

* * *

هذه وما اليها شواهد على مشاركة من مصر ويئتها في تلقي الاسلام تلقيا مبكر الوقت ، واضح المساهمة ، مجيد الصور والتأثير في حياة الاسلام عقيدة ، وعلما دينيا ..

وهي شواهد نمدها لمصر مع ما نعرفه من أن الكتاب العرب في الموارد المختلفة ينعتون بالقبطية من في مصر ، ولو كان روميا مثلا .. ومع ما نعرف من أن المسيحية قد اعتنقها في مصر أخلاط من عناصر شتى ، ومع هذا وما اليه تعد تلك الشواهد مشاركة لمصر وبيئتها ومذاهبها الدينية ، الذي عرفنا معالمه قريبا ، لأن ذلك في التاريخ الحضري صواب ، ولا يتغير بشيء من عرق أو جنس .. فالبيئة بوقتة تمزج العناصر المختلفة التي تستقر فيها وتطبعها بطابعها ، على قدر قوته وأصالته ..

ونحن لا نعتمد الا على مثل هذا الأصل فيما قررناه ونقرره من المبادىء الاجتماعية التي نرى فيها التفسير المتسق للشخصية المصرية ، والحياة المصرية ، في العصور المختلفة ، فرغم اختلاف الأشكال والصور الخارجية تظل الحقيقة الجوهرية — فيما عرفنا من قوة الشخصية المصرية — واضحة

ثابتة .. وهو ما نرجو أن يجد القارىء صحته في هذا التفسير التاريخي بشواهد متعددة ، واطراد متسق .

ولئن كنا قد قدمنا شواهد المشاركة المصرية الإسلامية التي تشجع عليها قوة الدين المصري ، وسعة الأفق الديني المصري — كما بينا — فاذا لا ننسى ما لحظناه من المعالم الثابتة لتلك الشخصية ، وأنها سماتية فيما تقبل من عقيدة ، لا تهدم أصلا في تدينها — ص ٥٣٦ — فهل تختلف هذه المظاهر في تلقي مصر للاسلام ؟ سنرى الجواب فيما كان فعلا من .

تحول .. غير سريع

اذ انك تقرأ في تاريخ الطبري ، من حوادث سنة ٢٠ هـ : أن صاحب الاسكندرية عرض على عمرو بن العاص ، بعد ما أصاب سبيا كثيرا ، بلغ بعضه المدينة ومكة ، أن يعطيه الجزية على أن يرد عليه ما أصاب من سبي . وأن عمرا استأذن عمر في ذلك ، فرأى عمر أن ما تفرق من السبي بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن لا قدرة على رده ، وأما من في أيدي المسلمين بمصر من السبي فيخيرون بين الاسلام وبين دين قومهم ، فمن اختار منهم الاسلام فهو من المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه . وأن صاحب الاسكندرية قبل ذلك .. قال : فجمعنا ما في أيدينا من السبايا ، واجتمعت النصارى ، فجعلنا نأتي بالرجل ممن في أيدينا ، ثم نخيره بين الاسلام وبين النصرانية ، فاذا اختار الاسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين تفتح القرية ، قال : ثم نحوزه الينا ، واذا اختار النصرانية نخرت النصارى ، ثم حازوه اليهم ، ووضعنا عليه الجزية ، وجزعنا من ذلك جزعا شديدا ، حتى كأنه رجل خرج منا اليهم .. قال : فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم ، وقد أتى فيمن أتينا به بأبي مريم عبد الله بن عبد الرحمن قال : وقد أدركته وهو عريف بني زبيد — قال : فوقفنا فعرضنا عليه الاسلام والنصرانية ، وأبوه وأمه ، واخوته في النصارى ، فاختار الاسلام . فحزناه الينا ، ووثب عليه أبوه وأمه واخوته يجاذبوننا حتى شققوا عليه ثيابه . ثم هو اليوم عريفنا ..

وأحسب أنا لو أردنا أن نتمثل هذا التجاذب الديني في مصر منذ عرفت الاسلام لما وجدنا أوضح صورة مما تصور هذه الرواية التي ساقها الطبري ، فهي تصوير مادي ونفسي قيم لهذا التجاذب في أرض مصر على اختلاف الأزمان ، ومع سلطان العقيدة الدينية اذ ذاك .

ولهذا التصوير في الوقت نفسه دلالة على ما لحظناه في شخصية مصر من عدم سرعة تحولها من دين الى دين .. وأناتها في ذلك بل بطئها .. ان شئت أن تقول :

* * *

وتقرأ في الطبري ، من خبر هذه السنة نفسها — ٢٠ هـ — ما يلي :

.. وحضرت القبط باب عمرو ، وبلغ عمرا أنهم يقولون : ما أرث العرب وأهون عليهم أنفسهم ، ما رأينا مثلنا دان لهم ، فخاف أن يستثيرهم ذلك من أمرهم ، فأمر بجزر فذبحت ، فطبخت بالماء والملح وأمر أمراء الأجناد أن يحضروا، وأعلموا أصحابهم ، وجلس ، وأذن لأهل مصر ، وجيء باللحم والمرق ، فطافوا به على المسلمين ، فأكلوا أكلا عربيا : انتشلوا وحسوا ، وهم في العباء ، ولا سلاح ، فافترق أهل مصر ، وقد ازدادوا طمعا وجرأة ، وبعث في أمراء الجنود في الحضور بأصحابهم من الغد ، وأمرهم أن يجيئوا في ثياب أهل مصر وأحذيتهم ، وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ، ففعلوا ، وأذن لأهل مصر فرأوا شيئا غيرما رأوا بالأمس ، وقام عليهم القوام بألوان مصر ، فأكلوا أكل أهل مصر ، ونحوا نحوهم، فافترقوا وقد ارتابوا ، وقالوا : كدنا .. وبعث اليهم أن تسلحوا للعرض غدا ، وغدا على العرض ، وأذن لهم ، فعرضهم عليهم . ثم قال : اني قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم في شيء ، حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم فخشيت أن تهلكوا ، فأحببت أن أريكم حالهم ، وكيف كانت في أرضهم ، ثم حالهم في أرضكم ، ثم حالهم في الحرب فظفروا بكم ، وذلك عيشهم ، وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم في اليوم الثاني ، فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني ، وراجع الى عيش اليوم الأول .. فتفرقوا وهم يقولون : لقد رمتكم العرب برجلهم .. وبلغ عمر فقال لجلسائه والله ان حربه لينة ، ما لها سطوة ، ولا سورة كسورات الحروب من غيره ، ان عمرا لعيضي .. ثم أمره عليها وقام بها » .

وأحسب أن هذه القصة — مهما يكن أصلها — لتمثل أبين التمثيل التنافس الاجتماعي بين العرب والمصريين ، وعوامله ، وأهدافه ، حتى ما نجد أبلغ منها في عرض ذلك كله موجزا دالا .. وان فيها من هذا التمثيل الصادق الاشارة لما يجلي نظرة المصريين للعرب تلك النظرة التي تفعل فعلها في هدوء التحول الديني او الاجتماعي — ان لم يكن في بطئه — ان شئت أن تقول .

وتحت كل ما سبق من موجهات مؤثرات مضت الحياة في طريقها .. وكانت ثورات في مصر خلال القرنين الأول والثاني الهجريين ، وصدرا من القرن الثالث ، تارة من المصريين منفردين ، وتارة مع عناصر عربية شاغبة ، حتى أوفد اليها المأمون ولي عهده المعتصم ، ثم لم يكف ذلك ، واقتضى الأمر مجيء الخليفة بنفسه ، من بغداد الى مصر ، وحضر المأمون، فعبر للعرب وأشرف .. وأسرف أيضا .

وكل أولئك وما اليه تقضي به السنن الاجتماعية في سير الحياة .. وعلى مر الزمن تم هذا التحول البطيء ، وانتقلت مصر — في

أغانيها — الى الاسلام ، وقد أبقت الى جانبه ما أبقت من مسيحيتها وكنيستها المرقسية ، وما لها من شأن في المسيحية وحياة أهلها في هذه البقعة من أفرقية ، وملتقى القارات الثلاث .. وما لها من ميراث لاهوتي ، وفلسفي من مدرسة الاسكندرية ، وأديرة الوادي .

* * *

استقر الاسلام في مصر ذات الشخصية البارزة ، الواضحة المعالم الدينية ، على ما تبيناها — أول هذا الحديث — وحملت طوابعها التي ذكرناها في كبريات واضحة — ٥٣٤ ، ٥٣٥ — توجه حياة الاسلام في مصر توجيها بينا ، يميز حياة هذا الاسلام في مصر عن حياته في غيرها ، ويغذي التفكير في الاسلام ، كما يغذي العمل كذلك بعناصر غير خافية .. نشير هنا الى أمهاتها في اجمال لا يسمح المقام بأكثر منه .. فنتحدث عن :

روحية مصر .. في الاسلام

وتتجه في ذلك أول ما تتجه الى التصوف ، الذي هو حركة انسانية عالمية عامة ، متصاعدة ، في حياة التدين البشري ، على اختلاف ألوانه ، وتعدد صوره ، وتباعد دياره .. حركة انسانية من دقة الحس الديني ، ورقاقة الوجدان الاعتقادي ، تمضي بالتدين الى أعمق من التكاليف العملية ، والعبادات المرسومة ، وتمثل روح الايمان ، ودفعه الى التفاني في المعبود ، وامتلاء القلب بشغله ، وحبه ، ونسيان كل ما سواه ، والصدور في كل شيء عن رضاه ، وهي مشاعر لا تتم

الا عن تطهير للروح ، وتصفية للقلب ، وتهذيب للنفس ، وتحطيم لضراوة الشهوة ، وتخلص من ظلام المادة .. كما يعرف الفضل ذووه ..

وقد كان للمسلمين نصيبهم من هذا الاتجاه منذ ظهور الاسلام ، بما في كتابه ، وهدى نبيه ، من زهد مترفع عن الشهوات ، لا يمد عينيه الى زهرة الحياة الدنيا ..

ثم تقدم عمل المسلمين في ذلك الى الأخذ بصور من الرياضة الخاصة في العبادة ، والعمل ، ثم الى امداد ذلك بتفكير روحي ديني ، يأخذ بأسباب من الفلسفة وآراء قوية التمثل في تفسير الكون والحياة والصلة بالله ، وهو تفكير لا يعدم تأثرا بمذاهب الحياة من الفلسفة العامة ، والأديان القديمة ، من أقصى الشرق أو أدناه ، قد توثقت الرابطة بينها وبين الفكر الاسلامي ، حين خالطها في بيئات كانت موائل لها ومواطن ..

وما ننس لا ننس أن هذه الصورة الجميلة من التصوف الانساني ، أو التصوف الاسلامي ، لا تثبت حيث تمثلناها في تلك الآفاق المتسامية ، بل تتغير مع الزمن حتى تصير الى صور من الشكليات التافهة ، والظواهر السطحية الجامدة ، يوجهها جهل بشئون الدين وشئون الدنيا جميعا ، وتسودها محرفة ومشعوذة ، يتأذى بها الدين والدنيا ، أخيرا .. وهو ما لن ننساه ، ولا نحب أن ينسى القارىء أننا لا ننسيه حين نتحدث هنا

عن التصـوف ، وعن أثر الروح المصرية فى تصـوف الاسـلام ، فـلا نزيد من ذلك الا التصوف فى نشأته ، وتطوره نحو الكمال لا فى فترة تدهوره الأخيرة .

* * *

وقد كانت مصر بما هى بيئة دينية ، قوية التدين ، واسعة الأفق ، على ما بينا ، .. ثم بما هى بيئة فكرية أيضا ، قد شاركت فى جهاد الانسـانية العقلى ، وأعطت ما حولها من أقطار ذات ماض فكرى ، وأخذت منها ، وجمعت الثقافات والحضارات — كما أشرنا — . كانت مصر بكل أولئك فى عهد انتشار الاسلام بأنحاء الدنيا القديمة ، ذات تأثير واضح ، فى بعث النشاط الروحى الصوفى للمسلمين .. وفى امدادة بغير قليل من العناصر الدينيـة والفلسفية جميعا ، ومشاركتها فى عمق هذا التصوف وتطوره .. ولو اكتفينا بهذا الاجمال لكان فى ثقافة القارىء ما يبينه وجهـا من البيان ، قريبا أو بعيدا .. وذلك لان الزهد الاسلامى الذى حمله القرآن ، وسارت به السنة قد اتصل فى مصر — خاصة — بمؤثرات دينية ، من الأديان الشرقية المختلفة ، وصلت لمصر عن طـرق متعـددة ، من الحـروب والرحلات ، ووفادة الأمم المختلفة ، وجـالة الأديان المتعددة فى مصر نفسها ، من وثنية .. ويهودية .. ومسيحية ..

واتصل الزهد الاسلامى كذلك فى مصر — خاصة — بتراث فلسفى من الأفلاطونية الحديثة ، والفلسـفة الدينية اليهـودية ، والفلسـفة الدينيـة المسـيحية ، والمذهب الغنوصى ، وهو المذهب الفلسـفى الدينى الذى نستطيع أن نسـميه « المذهب اللدنى » لأنه يقوم على المعرفة بلا واسطة ..

فكل أولئك وما اليه من النماذج الفكرية كانت الاسكندرية من أهم مراكزه .. اذ فى مصر تأثرت الفلسفة بالدين ، وتأثر الدين بالفلسفة .. واليها هاجرت الثقافة اليونانيـة بعد سقوط عاصمتها .. وبعد اتصال طويل أصيل بين مصر وهذه الثقافة والحضارة ..

ومؤرخ الفكر الاسلامى يعرف جيدا أن المسلمين قد عرفوا فلسفة أرسطو نفسها عن طريق الأفلاطونية الحديثة التى انتشرت بينهم أوسع الانتشار .. ومصر وما حولها قد كانت موطن تلك الفلسـفة ، ثم موطن ما أشرنا اليه من التيارات الأخرى ، عقلية واعتقادية .. كما يعرف مؤرخ التصوف الاسلامى أن هـذه المنطقة نفسها كانت وطن الصوفية والتصوف الاسلامى المتطور ، الذى تبدو فيه آثار تلك الروافد الفكرية والاعتقادية واضحة ، يتولى بيانها الباحثون .

ولو اكتفينا كذلك بهـذا الاجمال من البيان اعتمادا على ثقافة القارىء العامة لكان له من ذلك ما يفتح السبل الى ادراك تأثير روحية مصر على الاسلام فى تصوفه ، الذى هو أعمق شعور دينى فيه .. لكنا نجد كذلك وراء هذا من مظاهر التأثير ما لابد من الاشارة الى بعض خطوطه الكبرى ..

فهذا مصري — أو نوبي — من اخميم، كان كثير الملازمة لبربا اخميم ، لأنها بيت من بيوت الحكمة القديمة — فيما يقول القدماء — كما يقولون أيضـا : انه قد فتح على هـذا الاخميمي علم ما فيها من كتابات !!! .. ذلكم هو الحكيم الصوفى :

ذو النـون المصرى — ت ٢٤٥ هـ —

تقول عنه المصادر الاسلامية : انه وحيد دهره علما وعبادة ، وحالا ، ومعـرفة ، وأدبا .. وانه : هو رأس هذه الفرقة — الصوفيه — ، فالكل قد أخذ عنه ، وانتسب اليه ، وقد كان المشايخ قبله ، ولكنه أول من عبر باشارات الصوفية ، وتكلم في هذا الطريق ..

ويقول الباحثون المحـدثون عن هـذا المصري : هو أحق رجال الصوفيه — على الاطلاق — بأن يطلق عليه اسم واضع أسس التصوف .

ولو كان في المجال شيء من سعة لبينا من أقوال ذي النون المصرى وأفعاله ما يكشف السبيل الواضح للتـأثير على التصـوف الاسلامي من البيئـة المصرية الخاصـة ، بمذاهبها الفكرية عن المعرفة ، وبالمتداول فيها من معارف كيماوية ، وغـيرها ، وبالنشاط التعبدى في صور مختلفة .. الخ .. لكنا ندع ذلك كله للبحث المختص .. وحسبنا ما قيل برهانا على ما دلت عليه ملامح الشـخصية للمصرية من بث الروحيـة .. في الاسـلام ، بتوجيه تصوفه واعلائه ..

على أن الصوفية يكون لهم ما لهم من المواجد ، والأذواق ، والأحوال ، فاذا هـم يتنحون من القرآن آفاقا رفافة شفافة ، تتجاوب فيها أنغام موسيقية سـاحرة من شعرهم ، وحبهم ، وتفانيهم .. فاذا مصر تقدم في هذا الميدان الصوفى ، المحب ، الشاعر :

ابن الفارض — ت ٦٣٢ هـ — الذى يوضع في الطبقة الأولى ، من أصحاب الشعر الصوفى ، بما في كثير قصائده من جمـال النظم ، ورقة الأسلوب وأناقته ، وقوة الروح، وعمق المعنى ، مما يقول الباحثون المحدثون عنه : انه من البعيد أن يكون عملا تعمليا ، بل هو نتيجة لوحي أحوال الوجـد الصوفى ، الذى يشابه ما يسمى في عرف علم النفس الحديث « الكتابة الآلية » .

وكذلك قدمت البيئـة المصرية المتمصر الفنى ، المفعول بالألباب ، بمتع التصـوف ذى الحب الالهى المتفاني .. ولا أعمق من هذا في الروحية .. ولا أدل منه على ما أشرنا اليه من روحية مصر .. في الاسلام .

* * *

والحديث عن التصوف جدير بأن يضع القارىء في جو من التـسامح الوديع ، يشعره بجوهر التـدين ولبـابه ، ويشرف به على الوحدة الدينية ، التى سمتها القرآن نفسه يقررها في قوة وجلاء — ص ٥٣٠ —

وفى هـذا الجو يتمثل الفـارى، كذلك شخصية مصر واضحة القسمات ، جلية المعارف ، تعبر الأجيال ، وتمضى فى التاريخ بخطى ثابتة ، وطيدة ، متسقة . فهى فى تاريخ الرهبنة المسيحية ، أو الرهبنة العالمية ، هى هى فى تاريخ التصوف الاسلامى ، أو التصوف العالمى . هى فى كليهما بيئة صالحة — بقوة التدين التى استقرت فيها منذ قديم الزمن — لانماء التجرد الروحى ، والتبتل النفسى ، والخشوع القلبى ، واستشفاف أسمى معانى التدين وأنبل أغراضـه .. ومن الترهب والتصوف مشابه شاخصـة ، بل مسـالك واصلة ، لا يسهل على النظر الثاقب تجاهلها أو تناسيها .. وللفـولى فى مثل هـذا مكانه الخـاص .

ويتغير الحـال بالرهبنـة ، على الزمن وأحداثه ، كما يتغير بالتصوف كذلك ، فيكون فيهما من السوء والفسـاد ما يكون .. وتشقى منهما الحياة بما تشقى به . وهو ما قد نشير الى شىء منه فى الكلمة عن الدين والمجتمع المصرى .

وفى الذى أجمل عن روحية مصر .. فى الاسلام ما يهيىء لاشارات عامة كذلك عن :

حيوية مصر .. فى الاسلام

ففى هذه البيئة التى قاد حياتها الايمان بالبعث .. وفسر تاريخهـا هـذا البعث دينا يعتقد ، وفلسفة تتوارث .. فى هذه البيئـة تكون الحياة الدائبة المتصلة واقعا شاهدا ، وفكرة سائدة .. وأنت واجد ذلك فى قرب قريب ، ووضوح سافر ، يشخص أمامك حين تمر بذاكرتك شريطا تاريخيا سريعا ، لمعالم الحياة فى مصر ، منذ تفـدمت سكان هـذا الكوكب ، وقاد طرق الحضارة ، الى الساعة التى أنت فيها . فسيبدو لك جليا أنها كانت دائما على مسرح هذا التاريخ ماثلة ظاهرة .. لم تختف منه لحظـة ما ، كما اختفت أمم قديمة ذات يد على الحضارة ، بعد ما لعبت دورها القصير أو الطويل ، فاليونانيون .. والفينيقيون .. والأشوريون .. الكلدانيون .. وسواهم قد قاموا بنصيبهم من المشاركة فى الحياة ، ثم شملهم ظلام غامر ، حجبهم عن الأنظار ، فخفتت أصواتهم ، وفتر نشاطهم ، فاذا بلادهم أقاليم مهملة ، أو مناطق مستعمرة لا تنهض فيها دولة ، ولا يتميز لها كيان .. على حين ترى مصر فى قـديم التـاريخ ، ومتوسطه ، وحديثه ، تقدم للدول المثال الحيوى الصالح المسعد على الثبات والنهوض ، فى مصر .. ولمصر .. وباسـم مصر .. فتراها يوم كانت تحمل مشعل الحضارة : دولة واحدة تنافس أمهات العواصم ، التى دارت حولها الدنيا .. لا يفرق حالها مع روما ، عن حالها مع بغداد ، ولا يتغير عن مركزها مع الاستانة .. يعوذ بها الرافزة .. ويحتمى الخلفاء .. ويعتز السلاطين ، ويجد الطامحون من الفرصـة للاسـتقلال المنفرد عن العاصمـة الكبرى

ما يهيء لها الدولة القوية ، والفاعلية الناجحة ، ويجرى الأمر فى ذلك على نسق متماثل ، بل يكاد يكون موحدا فى مصيره . « فابن طولون » والخلافة فى بغداد فى القرن التاسع الميلادى كمحمد على وخلافة الاستانة فى القرن التاسع عشر ، ترسم البسمة لأهدافها سياسة متماثلة . تنهض بهم مصر ، وينهضون هم بمصر ليصادموا الخلافة الكبرى ، ويزايلوا منها ما اتصدع به مصر .. فأنت واجد دائما ، وعلى مر الأيام ، وفى كل حين « مصر » فى الميدان التاريخى ، والملعب الحيوى لاعبة مرموقة ، فعالة مؤثرة . دائمة الحيوية .

وتلك الحيوية الزاخرة هى التى نحاول أن نلمح أشعتها الدائبة فى حياة الاسلام بمصر .. ونشاهد — بين يدى ذلك — ما فى طبيعة التدين من ميل الى المحافظة ، وجنوح الى الثبات ، ونفور من التغير ، بل شبه انكار للتطور . ولكننا واجدون مع هذا فى الاسلام انبعاثا حيويا ، يتطلع لاستئناف النشاط ، وتجديد النظر ، واستدامة النماء ، واسعاف الحياة بالتطبيق الجديد ، والتصرف المرن ، الذى يحفظ للأصول الحيوية صلاحيتها ، ويقيها من عوامل التجمد والجفاف — وهذا هو ما يشير اليه حديث : « ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها .. » أو ما فى هذا المعنى وهو تعبير عن تلك المحاولة المرنة التى عاشت فكرتها فى العالم الاسلامى ، وأعانت المصلحين على شق الطريق للتيار الاسلامى الجارى مع الأجيال .

فى حياة هذه الفكرة التجديدية نجد مصر — كدأبها — مشاركة بحيويتها ، حاضرة بانبعاثها ، الذى يجدده تدينها المنطلف ، وتعلقها المتدين ، وعملها الجاد فى البحث .. ومن أجل البحث .

فهذا التجديد كل قرن ليس الا صورة من صور البحث الذى آمنت به مصر وعملت له ، فكان من عطائها الاسلامى أن قدمت جمهرة من الرجال ، الذين زينهم وأنضجتهم ، فكانوا مجددى قرون متعددة ، بين أولئك البضعة عشر نفرا ، الذين نهضوا على رأس البضعة عشر قرنا من حياة الاسلام ..

ويبدأ العادون من القدماء ، والمحدثين بعمر بن عبد العزيز ، ربيب مصر ، وساكن حلوان ، ويمضون فيعدون غير واحد حتى يكون الكثرة — أو الأغلبية المطلقة — منهم الى اليوم — ممن نشأتهم مصر ، وانتسبوا لمصر ، من وجوه رجال الدين — ثم يطمئن المحدثون الى أن يعدوا مجدد القرن الرابع عشر الهجرى فى الاسلام مصريا .. مصريا .. وهو ما نشير اليه حين نحدثك ، عن الحياة الدينية بمصر فى العصر الحديث .

ولا نجد للمجال شىء من التفصيل لفكرة التجديد ، والمجددين المسلمين ، فلهذا مكانه

كذلك — وحسبنا هنا تلك المعالم العامة ، التي تهيء لمؤرخ الحضارة أن يحدث عن حيوية مصر في الاسلام ..

ولنمض بعد ذلك الى لمحة من خصائص تدين مصر بالاسلام ، واعتقادها له فنرى :

اسلام مصر .. بلا نحل ولا مقالات اعتقادية

ونحب أن نرد هذا — كما اعتدنا — الى خصلة أصيلة لمصر ، وطبع لها مألوف ، بعد الذي عرفنا ، من ملامح شخصيتها الدينية فنجد أن مصر القوية التدين ، الواسعة الأفق الديني ، المستنكرة لجوهر الدين الذي تؤمن به وروحه — ص٥٣٤ ، ٥٣٥ — نجد أن مصر الذي هذا شأنها — كما عرفنا — لم تهتم كثيرا للجدل الاعتقادي في الاسلام ، ولم تفسح صدرها كثيرا لأصحاب النحل ، وأرباب المقالات الاسلامية .. وقبل أن نمضي في بيان هذه الظاهرة وتعليلها نقف أمام :

سر تاريخي .. قصته .. وذلك ما يذكره بتلر صاحب «فتح العرب لمصر» ، عند حديثه عن مقاومة المصريين لما أراده « هرقل » من حملهم على المذهب الديني الذي قرره بطاركته ، وانهم تلقوا ذلك بكراهة شديدة .. ثم تفسيره لهذه الكراهية بقوله « .. وقد كان استقلالهم في أمور الدين أكبر ما تتعلق به نفوسهم فانهم لم يعرفوا الاستقلال القومي قط ، ولعلهم لم يحلموا يوما بمثل ذلك الأمل ، وأما الاستقلال في أمر الدين فقد ناضلوا من أجله وجاهدوا في سبيله ، لم ينثنوا عن ذلك في وقت من الأوقات منذ مجلس خلقدونية ، وكانوا حريصين على بلوغ ذلك الغرض لا تغفل عنه قلوبهم ولا يحجمون عن بذل كل شيء في سبيله مهما يعظم . ذلك هو سر حوادث تاريخهم جميعا » .

هكذا يصل المؤرخ الى أن سر تاريخ هؤلاء المصريين — أو القبط ان شاء — هو أنهم لم يعرفوا الاستقلال القومي قط ، ولعلهم لم يحلموا يوما بمثل ذلك الأمل ، وانما عرفوا الاستقلال الديني ، وناضلوا من أجله ولم يحجموا عن بذل أعظم شيء في سبيله .

ونقول للسيد المؤرخ : انها شنشنة لقومك معروفة .. فسرتم بها تاريخنا تفسيرا ضالا مشوها مغرضا مفسدا .. تزعمون به أننا لم نعرف هذا الاستقلال القومي منذ آخر عهد الفراعنة .. وتم تحكم فينا منذ ذلك العهد .. ولم .. ولم .. مما افتريتم وجاراكم فيه سذج منا ، نعلمهم حتى اليوم ، وبعد ذهاب ريحكم يرددونه .

وانكم بذلك لتنكرون خاصة ظاهرة جلية من خصائص هذه البيئة المصرية ، وتلك هي صلاحيتها بتكوينها المتميز المتحيز ، المتجدد ، المحوط بفواصله من الصحراء والماء ، لأن تكون مهدا للوجود المستقل ، والدولة المتفردة ، والقومية الشاخصة .. وبهذه الخاصة الفطرية الطبيعية ، وما تكسبه لأهلها

من خصائص معنوية وفنية تهيأت لقيام الدول ذات الشخصية في ابان قوة الأمم التي اتصلت بها ، وناوأت — كما أشرنا — آثينا وروما ، وبغداد ، والقسطنطينية .. وكانت منفردة عالية الرأس في كل الامبراطوريات التي وصلت حبلها بها ، وظلت على مسرح التاريخ لم تختف منه أبداً ، بل لم تسقط عليها ظلال ما تطل الأضواء على قسماتها ومميزاتها .

فحديث التاريخ الصريح : ان مصر بنية استقلال بطبيعتها .. واهلها بذلك من أكثر الناس شعورا بهذا الاستقلال .. وليس هذا العناد الذي وصف « بطر » منه روائع في المقاومة : الا لونا من قوة تلك الشخصية التي لا تتجزأ .. ولا ينفصل منها جانب عن جانب .

وحديث غير المصريين من الحاكمين بمصر ليس الا سذاجة وغرارة أو هو تغرير بالسامعين ، لأن تلك العهود لم تعرف القومية الاقليمية ، والوطنية المحلية .. بل كانت تطويها وتشملها عصبيات من غير هذا اللون ، هي في الأعم الأغلب عصبيات دينية أو سياسية ، تلونها أمة غالبة حينما كانت ظروف الحياة المادية ومواصلاتها تتيح لأمة واحدة أن تحمل شعلة الحضارة .. حتى يهن ساعدها فتتلقاها أمة أخرى .. فلم يقف المؤرخ « بتلر » بقوله هذا على شيء من سر تاريخ المقاومة المصرية للمذهب الديني الوافد ، ولعله بعد وقفتنا هذه أمام زعمه الذي زعم يطمئن الى ما نجد من تفسير لهذه الظاهرة الدينية ، بعد أن نصف عمل مصر الاسلامية فيها ، ونشير الى شواهد عليها .

ففي الحادث الذي تقدم جاء الخلاف الديني من القسطنطينية بأمر « هرقل » وقاومته مصر مقاومة شديدة ، يمثلها ما يروى من أمر أحد رجال المسيحية فيها ، اذ يعذب بالقاء المشاعل ، وتسليط نارها على جسمه ، حتى يسيل دهنه من جانبه الى الأرض ، ولكنه لم يتزعزع عن ايمانه ، فخلعت اسنانه ، ثم وضع في كيس مملوء من الرمل ، وحمل في البحر ، حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطىء ، ثم عرضوا عليه الحياة اذا هو آمن بما يعرضونه ، وفعلوا ذلك ثلاثا ، وهو يرفض في كل مرة ، فرموا به في البحر ، فمات غرقا ... !

ولك أن تجد في هذا مبالغة ، أو كثيرا منها ، بل لك أن تعده مختلقا .. لكن له على كل حال دلالته النفسية والاجتماعية ، بما فيه من تعبير الذين صاغوه أنفسهم عما يجدونه من شعور ديني ، يقتضي المؤمن مثل هذه المقاومة المطلقة ، ويتجسم هذا الشعور في تعقيب راوي خبر هذه المقاومة بقوله بعدها : ولكنهم بعملهم هذا لم يقهروا « فلانا » الذي مات شهيدا ، بل قد غلبهم هو بصبر الايمان المسيحي .. !

ثم يمضي أكثر من مائتي عام ، وتتجدد

الأحداث في الميدان الديني بمصر فاذا القيلة أشبه بالبارحة ، فهذا المأمون شبيه « هرقل » في فرض مسألة اعتقادية ، هي قضية خلق القرآن المعروفة التي تطول وتجادل بعد عصره ! ويكتب الخليفة الواثق الى الولاة بالامتحان فيها ، كما فعل المأمون ، ويجيء الأمر الى والي مصر ، بامتحان البويطي الفقيه الصعيدي، أكبر أصحاب الشافعي، ت ٢٣١ هـ -- .. وامتحنه الوالي : فلم يجب ، وقرر المخالفة ، وكان الوالي حسن الرأي فيه فيقول له : « قل فيما بيني وبينك » ، فيرد عليه البويطي : انه يقتدي بي مائة ألف لا يدرون المعنى !! . ثم يحمل البويطي من مصر الى بغداد ، على بغل ، في أربعين رطل حديد ، هي غل في عنقه ، وقيد في رجليه ، وبين الغل والقيد سلسلة ، فيقول : لئن أدخلت عليه — يعني الخليفة — لأصدقنه ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم . ويسجن في هذا الحديد وقد عجز عن أداء الفرائض من الطهارة والصلاة ، اذ كان مقيدا الى أنصاف ساقيه ، مغلولة يداه الى عنقه ، ويموت البويطي في سجن بغداد ، في القيد والغل ، كما مات أخ له ذو دين في البحر قديما .

وما شك في أن ناسا كانوا يفتنون بمثل هذه الاضطهادات ، وينزلون على ارادة أمثال « هرقل » ، « والمأمون » لكن الذي يلفتنا هنا هو الحال العامة ، وان مصر لا تلجج في النزاع الاعتقادي ، ولا تتولاه بتأليف أو كتابة تنبيء عن رواج ، وحسن تقبل ؛ بل تعارضه مثل هذه المعارضات المسرفة في التحدي ، على نحو ما سمعنا في حادثين ، من دينين مختلفين ، في زمانين متباعدين ، يؤكدان أن للبيئة في هذا ميلا خاصا ..

ولو نظرت النظرة الجامعة الى موقف مصر من مقالات الاسلاميين الكلامية على اختلافها لخرجت بالنتيجة التي صدرنا القول بها ، وهي عدم الاقبال في اسلام مصر على هذا الجدل الاعتقادي .. وعدم رواج النحل الاسلامية في مصر ، مهما تشتد عناية المسلمين بها في غير مصر .. ومهما ينصبوا التأليف فيها والخصومة حولها ومهما تساعد الظروف السياسية أو غيرها على رواج هذه النحلة أو الفرقة أو المقالة ، ومهما تظفر فعلا بشيء من ذلك في مصر ، تحت تأثير العوامل المختلفة فانها لا تلبث أن تفتر ، ولا تترك من الانفعال بها ما يسم مصر بسمة خاصة ، في المقالات الكلاميه ، أو يجعلها وطنا خاصا لفرقة من الفرق ، كما كانت ايران مثلا مركز التشيع قديما وحديثا ، أو كانت اليمن موطنا خاصا للزيدية .. أو ما الى ذلك .. بل لا تلبث مصر أن تعود بالمعنى الجامع ، والكلمة الشاملة ، أي بالجوهر الخالص ، واللباب من الدين .. وكأنما تحول سعة أفقها الديني دون

الاندفاع الحاد ، والتحزب المتطرف لفرقة دينية دون فرقة .

ولعلنا واجدون فيما يلي من قول عن النظرة المصرية في الأمور العملية ، والنظم القانونية الفقهية ما يؤيد هذه السمة الفسيحة في الأفق .. والرحابة السمحة في ادراك هذه الشئون الحيوية والتدبير لها .. وعدم الاطمئنان الكثير الى الافتراق المذهبي فيها ..

* * *

وفي عرض موجز عابر ننظر الى بعض الفرق الاسلاميه في البيئة المصرية ، وما كان من أمرها .. مختارين لذلك أولا :

نحلة ذات صفة سياسية واضحة ، هيأت لها الحياة الصلة من أسباب التأثير القوى قدرا كبيرا فخدمت السياسة دعوتها ، وعملت القوى الحكومية على نشرها وحمايتها بمختلف وسائل الترغيب والترهيب ، وتلك هي :

التشيع : فقد جاء مصر أصله وجذره المسمى « ابن سبأ » – مهما تكن شخصيته – حين طورد في خارجها ، فاستقر بها وجعل يعمل لما يعزى اليه من توهين الاسلام ووحدة المسلمين بمختلف الوسائل .. ومن ذلك حديثه عن وصاية علي ، وأخذ عثمان الخلافة منه بغير حق . فكان لمن بمصر تشاغبهم ضد عثمان — كما هو معروف — واتجه الاهتمام الى التشيع لعلي - - لكن مشاطرة عمرو بن العاص لمعاويه ، واطعام معاوية عمرا مصر جعل الأمر يستقر لمعاوية والعثمانية ، ويخفت صوت التشيع .. ويتظاهر الناس بسب علي..

ثم بسقوط الأموية خمدت العثمانية .. وفي عهد العباسيين كان يخرج بمصر علويون أو كانوا يظاهرون الخارجين على أبناء عمهم العباسيين ، فتكون النتيجة هي اخراج العلويين من مصر الى العراق ، غير مرة .. ويضطهدون فيخرج الأمر في مصر بألا يقبل علوى ضيعة ، ولا يركب فرسا ، ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها ، وأن يمنع العلويون من اتخاذ العبيد ، الا العبد الواحد .. وأن من كان بينه وبين علوى خصومة يقبل قوله في العلوي ولا يطالب ببينة .. الخ .

ثم يجيء العصر الطولوني فيثار الحديث عن أفضلية أهل البيت ويتقسم الناس بشأنه حتى يرجع القول به .. فيقوى أمر الشيعة بمصر شيئا ما .. لكن لايستمر ذلك ولا يزداد .. ففي منتصف القرن الرابع الهجرى يهيج السودان على الناس منكرين ذلك ، متشددين فيه ، حتى ليسألون الذي يلقاهم في الطريق : من خالك ؟ .. فان لم يقل : خالي معاوية بطشوا به .. وكان في مصر من يهتف على باب المسجد يوم الجمعة معاوية خالي ، وخال المؤمنين ، وكاتب الوحى ، ورديف رسول الله — عم — .. وكان المتشيعون يعذبون ..

ويبث الفاطميون من المغرب دعاتهم ، ويجدون في مصر تلك البيئة التي تقوم بدولة

متميزة فيقبلون اليها دولتهم الجـديدة من المغرب ، وتستقبل مصر عهدا من التشيع السياسي ، تدير الدولة فيه للدعوة المتشيعة العاصفة بأولئك الفواطم تدبيرا فسيح المدى ، عميق الأساس ، معانا من المال والرجال ، بمثل ما تبذل اليوم وزارة الدعاية الحديثة أو بأكثر منه .. وحديث التاريخ عن رجال الدعـوة ، ونظمها وخطواتها ، والسرى منها والعلني .. الخ مما يستهان وصفه كتبا لهم ، وكتبا عنهم.

وهكذا يسود التشيع فى مصر ، ويجرى العمل على الفقه الشيعى ، فمثلا : لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ، ولا عم ، ولا جـد ، ولا ابن أخ ، ولا ابن عـم .. لأن فى ذلك معاداة لفاطمة بنت الرسول — عم — .

ويمتد ذلك الى الأعمال العادية فى حياة الناس الخاصة فيصـدر مرسـوم حكومى بتحريم بيع شربات الشعير ، وضرب من يبيعه لأن عليا كان يكرهه ، والى مثل هذا ترجع نزوات الحاكم بأمر الله فيما كان يصدر من الأوامر بتحريم الطعام أو الشراب ..

ويمتد الى كان يسب علىّ على المنـابر بكتب سب الصحابة على أبواب المساجد ، وفى داخلها ، وعلى الدكاكين بل على المقابر وفى الصحـراء ، ويطلـون ذلك بالأصـباغ ويذهب بالذهب .

وانتهاء الدولة الفاطمية يتبخر كل هذا ، ولا يمضى كثير من الزمن حتى تنبش قبـور خلفائهم التى كانت فى مكان خان الخليلى ، وكانت تعرف بتربة الزعفران ، وتحمل عظامهم على الحمير لترمى فى المزابل . وتلك نهـاية مقالة اسلامية سياسية أيدتها قوى الدولة ، وأتيح لها من أسباب التشجيع والانتشـار ما لعله لم يتح لمقالة أخرى من مقالات الفرق الاسلامية .. ولكن مصر فيما رأينا لا تتشيث بمثل هذا ، ولا تعده شيئا فى الدين .

ويزيد الأمر بيانا أن نلمح فى سرعة لونا آخر من ألوان النزاع الاعتقادى غير السياسى فى أصوله وهو :

الاعتزال : فانه مقالة كلامية ، فلسفية ، ليست سياسية فى أسـاسها كالتشيع ، وان انغمست عمليا فى السياسة بعد .. والاعتزال — كما نعرفه — قد هز أركان الحياة العقلية الاسـلامية بدعوته الى احترام العقـل ، وتمكينه من النظر ، كما هز أركان الحيـاة الاسـلامية العملية مدى طويلا ، اذ حمل الخلفاء قضـاياه عقائد يلزم النـاس بها ، ويضطهدون أقسى اضطهاد لمخالفتها ، كمـا فعـل المأمون وخلفاء بعده فى مسـألة خلق القرآن ، التى هى فكرة اعتزالية ... قاسى الناس بسـبها المحن الكثير ، وكان منـه فى مصر ما سمعنا قريبا من أمر البويطى الفقيه الصعيدى ، حتى سميت فى التـاريخ بحق « محنة خلق القرآن » .

ونسأل ماذا كان أمر هـذا الاعتزال فى مصر فنعرف أنه كانت بمصر ، فى حين ما حلقه للاعتزال تحدث عن خـلق القـرآن ، لأن

السياسة قد تدخلت فيه .. وقد جاءت المقالة الى مصر من الخارج .. وفيما وراء ذلك تشعر أن الاعتزال لم يأخذ في مصر أهمية تماثل في شيء الى ما كان له في بغـداد ، وغيرها من ضجة .. وتأليف .. ومؤلفين .. وخلافات .. ومجادلات .. وكذلك ثبتت مصر اسلامها .

بلا خلاف اعتقـادي هام — ولا فرق .. ولا مقالات واتجاه .

* * *

والجدل الاعتقادي في الاسـلام انما كان صدى من أصداء الصناعة المنطقية ، وضربا من عدوى الفلسفة الميتافيزيقية النظرية ، التي تلقاها العرب عمن قبلهم ، وكانت في تقدير بعض المقدرين مشـغلة للقوم عن النزوع العملي الجاد ، وسواء أكان الرأي الحق انها كذلك ، أو لا ، فان صـلة علم الكـلام الاسلامي بالفلسفة قوية واضحة .. ومن هنا تشعر أن صدوف مصر عن الجدل الكلامي ذو صلة — الى حـد غير قريب — بنظرها الى الفلسفة ، وقلة نشاطها في ذلك .. ولبعض القائلين تعليلات في هذه الظاهرة تسـتحق المناقشة — ولكن ليس من عملنا الأول هنا أن نؤرخ لمركز مصر الفلسـفي ، في العصر الاســلامي .. فنترك ذلك كله للناظرين في الحياة العقلية ، من هذا التاريخ الحضاري ، شاعرين بأن نظرة مصر المسلمة الى الفلسفة لم تكن نظرة الحفي بها ، ولا المهتم .. وكذلك سببه من طابع الحضارة المصرية العام .. ومن الظروف الخاصة في مصر الاسلامية مما يقف عنده المختصون .

وتمام القول في خصائص اسلام مصر أن نتحدث عن :

مصر .. وراء الخلاف الفقهي

ونعرف أن هـذا الخـلاف الفقهي في استخراج الأحكام العمليـة مما يقتضيه اختـلاف طبائع البيئـات ، التي عاش فيها المسلمون ، واختلاف عاداتهم ومعاملاتهم .. كما نقدر أن هذا الاختلاف رحمـة — كما يقولون — ولكنا في الوقت نفسه لا ننسى أن التطلع الى وحدة تشريعية جامعة قد وجد منذ عصر مبكر ، حينما ظهرت آثار هـذا الاختلاف التشريعي ، ولا نشير من هذا الى أكثر مما يذكر من سـبب تأليف « مالك » لمجموعه الحديثي الفقهي المعـروف باسـم « الموطأ » وأن طلب تأليفـه من الخليفـة العباسي الذي طلبه — على اختلاف الرواية في تعيينه — انما كان تطلعا الى هذه الوحدة التشريعية ، وبرما بآثار هذا الخلاف ، كما يبدو ذلك صريحا في رسالة « ابن المقفع » المعروفة برسالة الصـحابة .. وفي الحوار بين الخليفة ومالك .. ورغبة الخليفة في حمـل الناس على الموطأ ..

وهذا التطلع الى وحدة مركزة في التشريع الاسلامي قد أيدت حوادث التاريخ بعد ذلك حسن أثره ، اذ كان بين الفقهاء من سـعة

الخلاف وعنفه ما كان مما رأينا معه تنابذ القوم وتناحرهم بقسوة ، من كل منهم على صاحبه ، قسوة لا تشغل القارىء في هـذا الموجز بشيء من تفاصيلها .. وخلطهم الفقه بالكلام أحيانا فكانت الفتن بين الشـافعية والحنابلة .. وفرق كل ذلك كلمة المسلمين ، حتى شعر أبناء عصرنا هذا بالحاجة الماسـة الى التقريب بين المذاهب ، وكانت لهـم في ذلك التقريب محاولة تأخذ طريقهـا .. كما اشتغل بعض المصريين بجمع ما سموه الفقه الموحد .. يرجون رجوع المسلمين كلهم اليه .

وكل أولئك كاف لبيان الآثار الاجتماعية عبر المحبة للمذهبية الفقهية ، واعتبار الشعور بضررها في العصور السـابقة ضربا من دقة الايمان وسلامة الفطرة ، ونقاء التدين .

وبعد هذا البيان نستطيع أن نقدر عمل مصر في هذه الناحية اذا ما وصفنا موقفها من الخلاف الفقهي .

* * *

وما عرفنـاه عن السـلوك المصري في الخلاف الكلامي يهيىء للرأي في شعور مصر نحو الخلاف الفقهي ، منذ أول شيوع لهذا الخـلاف ..

لقد عرفت مصر المذهب المالكي ، لتقدمه، وصلته بدار الهجرة ، ثم وفد عليها الشافعي في القرن الثاني الهجري ، وقد أصـاب من فقه الرأي حظا بتلمذته على محمد بن الحسن الشيباني ، وصيرورة كتبه اليه ، لتزوج محمد أم الشافعي ، فكان له حظه من النظر والنقاش، الذي لم يعرف قبـله بمصر .. وقد شـعر المصريون بما لهذه الوفادة من خطر الفرقة ، فكان قاضي مصر اذ ذاك يصيح بالشـافعي ويقول له : يا كذا .. دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ، ورأينا واحد ، ففرقت بيننا ، وألقيت بيننا الشر ، فرق الله بين روحك وجسـدك .. ومهما يكن لقول هذا القاضي من أسباب شخصـية أو غيرها فانه يدل على رغبة البيئة في هذه الوحـدة في الأمر والرأي .. وعلى أن افسادها مما يعاب به فاعله .

ولعله لشيء من ذلك لم ينتشر المذهب الحنفي بمصر ، لأنه فقه الرأي الواضح ، وان كان المقريزي يعلل ذلك بأن مذهب أبي حنيفة ابطـال الاوقاف ، فثقل أمره على أهل مصر وسئموه .. وهو تعليل غير كاف وحده لأن صاحبي أبي حنيفة لا يبطلون الأحبـاس ، والعمل قد جرى على قولهما ..

وفي كل حال فقد هيأت الشخصية المصرية التي عرفنا خصائصها لكراهية الجدل ، في أي لون ما ، ويزيد تلك الكراهية وضوحا عند هذه الشخصية ما نقله الينا التاريخ من شعور الفقهـاء بعد تفشي الاختلاف وتأسفه بأن التوفيق الموحد لهذه المذاهب المختلفة نعمة يقوم بها فقيه جليل ، رشحوه هو من فقهاء مصر النازرين ، ففي مطلع القرن السـابع الهجري حدثت بمكة مائدة من العلماء يقولون لو قدر الله تعالى بعد الأئمة الأربعة في هذا

الزمان مجتهدا عارفا بمذاهبهم أجمعين يركب لنفسه مذهبا من الأربعة بعد اعتبار هذه المذاهب المختلفة كلها لازدان الزمان به ، وانقاد الناس له ، فاتفق رأيهم على أن هذه الرتبة لا تعدو الشيخ تقي الدين السبكي ، ولا يتعدى لها سواه ، والسبكي هذا هو الذي انتهت اليه رياسة العلم بمصر ، وقالوا : ما جاء بعد الغزالي مثله ، فقال الصفدي : انهم يظلمونه بهذا ، وما هو عندي الا مثل سفيان الثوري .. ولعل العلماء رشحوه لهذا التوفيق المصلح لأن نزعته نحوه معروفة ...

واذا لم يكن هذا الميل الى التوفيق مصريا فقط في هذا الشاهد فانا نجد هذا الميل المصري للتوفيق ، بل الدعوة اليه يتجه اليها صوفي مصري بلدي السبكي المتوفى هو الشعراني المتوفى أيضا ، وهو أصيل في الفقه فوق كونه صوفيا من الطراز الأول وقد حاول التوفيق بين المذاهب الأربعة ، كمحاولته التوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال ، ويقول الباحثون الغربيون : انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا .. وحسبنا به تزكية لميل البيئة المصرية الى هذا التوفيق الفقهي ، الذي لا نسمع فيه لهذه العصور صوتا أجهر من هذا الصوت ..

* * *

وبذلك يبدو اسلام مصر متسق الجوانب متناسق الأجزاء : في روحيته التي قادت التصوف .. وفي ايمانه الذي لم يهتم للجدل .. وفي فقهه الذي ارتفع عن الخلاف المذهبي المفرق .. ودعا الى التوفيق الموحد منذ بضعة أجيال .. وحاوله فعلا .. وكل أولئك يؤيد ما تمثلناه من ملامح الشخصية المصرية الدينية .. في عمق تدينها .. وسعة افقه .. وادراك الجوهر الصافي للدين ..

* * *

على أنا حين نلتمس الدلالات الاجتماعية العليا لموقف مصر من المذاهب الفقهية ، ونظرتها الى الاختلاف والتحزب لا ننسى مع كل ذلك ان هناك عوامل سياسية واجتماعية وغيرها تؤثر في انتشار المذاهب الفقهية وشيوعها ، فتستقر مذاهب غير قليلة في مصر ، أو يسود مذهب منها لمثل هذه الاعتبارات .. أو تقدم البيئة المصرية العلمية أعيانا ووجوها من علماء المذاهب المختلفة .. أو يكون في مصر قضاة ممثلون لتلك المذاهب على اختلافها .. فذلك كله وما اليه لا يؤثر على ما اطمأننا اليه ، من تشوف الروح المصرية الاجتماعية الى تلك الآفاق العامة ، والغايات السديدة من الترفع على الخلاف ، والدعوة الى الوفاق ، في الأصلين الاعتقادي والعملي ، مما سميناه عن كلامها وفقهها .. ولا تأثير لهذا على ذلك ، ولا ابطال لهذا بذاك .. وليمض مؤرخو الفقه مثلا الى وصف جهود مصر وأثرها في حياة المذاهب الفقهية المختلفة، مع كل هذا الذي يقرره التاريخ الحضاري في نظرته التكاملية العامة .. ولكل وجهة ،

والآن وقد تبينا اتجاه مصر ، وآمالها في الحياة الاســـلامية الاعتقادية ، والحيـــاة الاسلامية العملية وما تمثه بيئتها ذات الطابع المتميز الواضح .. الآن نشعر بضرورة توجيه مثل هذه النظرة الكلية الشاملة الى :

الاسلام ... والمجتمع المصرى الشـــعبى :

هذه العصور التى نتحدث عنها من القرن السابع الهجرى الى قرابة القرن الثانى عشر الهجرى أيضا عصور تسود فيها النزعة الدينية ، وتســيطر الروح الدينية فى توجيــه الحياة وتدبيرها .. ومصر هذه بخاصة قد عرفنا لها هذا النزوع الدينى القوى ، وذلك التعمق الروحى فى التدين فلا غرابــة فى أن يكون التدين فى تلك العصــور مسيرا قويا للشئون الســياسية والاقتصادية والاجتماعية كلها .

* * *

وقد كان المجتمع المصرى يتــألف من مــسلمين ، وذميين ، من أصحاب الديانات السماوية الأخرى ، كالنصرانية واليهودية .. ودون أن ننظر الى نظام الذمة النظرى فى الاسلام ، ومدى انسانيته ، نستطيع أن نقرر فى ثقة أن النظام الاسلامى للذمة لم يكن دائما وفى كل حين هو النظام الواقعى الفعلى فى الحياة ، اذ لابد من وجود الفرق — رغم كل شىء — بين المثال المتمثل ، والواقع المتحقق .. والتاريخ الحضارى انما يلتمس وصفه سير الحياة الفعلى ، وان لم يخص التنظيم المثالى حقه ، فى الدلالة على حسن استعداد منظميه .

وبملاحظة الواقع العملى نجــد أعمالا مختلفة : بعضها لا يحقق المثال الاسلامى لحياة الذميين ، وبعضها يحاول أن يحمى المثل الصحيح الذى أراده الاسلام .. فحينا يتحمس وال مسلم فيهدم الكنائس المحدثة مثلا .. وآنا يأذن وال آخر ببنائها ، بمشورة الفقهاء أو القضاة الخبيرين ، الذين يحتجون بأن بناء الكنائس من عمارة البلاد ، وأن الكنائس التى بمصر لم تبن الا فى الاسلام زمن الصحابة والتابعين .

واذا ما قدرنا أن حكومات هذه العهود لم تكن تفكر فى شىء من اصــلاح عقلى أو اجتمــاعى ، للشعوب المحــكومة الا بقــدر ما تسير الأمور ويستقر النظام ، وأن الأعمال الاصلاحية الاجتماعيــة كانت نشاطا فرديا شخصيا من تفضــل الخيرين ، يتقربون به الى الله .

ثم اذا ما قدرنا أن حكام هذه العصور أنفسهم لم يكن لهم من سعة الأفق وبعد النظر ما يفهمون به المعانى الدينيــة الســامية أو يتشربون روح التسامح الذى توحيه نظرة الاسلام الى الوحدة الدينية الانســانية مثلا ... وكان العامة أعمارا جاهلين يدركون من التدين معناه القريب ، ويرون المخالف عدوا محاربا ، وضالا مضلا ، والحكام فى حاجة الى ترضيهم اذا شغبوا على أهل الذمة أو بطشوا بهم ، ثم الحكام أنفسهم — كما قلنا — ضيقوا الآفاق ،

والى جانبهم علماء ، منهم من كانت تنقصهم تلك السماحة الروحية .. وبكل أولئك يقع ما يقع من ارهاق أو اعنات للذميين بالزامات قاسية ، وتشريعات خشنة ، دفعت اليها طبيعة الحياة اذ ذاك وروح العصر نفسه .

وهكذا يتردد الأمر بين تسنم بولى الذميين من النصارى واليهود مراكز رئيسية في الوزارة والادارة .. وتعنت يضطهدهم ويتطرف في ذلك .. فلا يستطيع المنصف أن يتخذ من التسامح الأول صورة لحياة هؤلاء الذميين في المجتمع المصرى لعهد من العهود ، أو في العهود جميعا .. كما لا يستطيع أن يتخذ تلك الصورة لحياة الذميين في المجتمع المصرى من الاضطهاد الذي قد تمارسه قلوب قاسية شرسة ، وتقشعر الأبدان من فظاعتها .. ولعل الانصاف أن يقدر المؤرخ الحضارى الدرجة التي يقف فيها هؤلاء الناس — حكاما وأفرادا — من سلم الرقي الانساني .. ويدرك أنهم لم يكونوا يستطيعون أن يرتفعوا على آفاق عصرهم ، ويقفزوا الى درجة فوق الدرجة التي أهلهم زمنهم للصعود اليها .

والحق الذي ينبغي أن تنتهي اليه اليوم هو عدم التكثر في ادعاء الانصاف دائما .. مع عدم التجني في المؤاخذة بالاعتساف دون تقدير الظروف المحققة .. ولو قدرنا أن السياسة لا قلب لها .. وان الملك — كما قالوا — عقيم .. وأن هؤلاء الحكام في معاملتهم للمسلمين أنفسهم ، بل في معاملة أعضاء الأسرة الحاكمة منهم بعضهم بعضا ، قد كانوا يقسون بل يتوحشون ، لرأينا ما يقضي به الواجب الاجتماعي علينا من الحكم المنصف الذي يجب أخطاءهم لعصرهم ومستواه الانساني .. ولا يحمل ذلك للدين في نظامه النظرى وروحه الاجتماعية .. ولا يثير به شيئا في الأنفس اليوم ، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .. ولا يسأل عن أخطائها دين أو نظام .. بل تفسر تصرفها مستوى الحياة لعهدها ، ودرجة الشعور بالمعاني الانسانية في أيامها .

وعلى كل حال فقد كان العنصر الاسلامى في المجتمع المصرى يقدر العنصر المسيحي بخاصة ، ويعرف عند اللزوم ما له من أثر في خدمة المصالح المصرية ، عن طريق الصلة الدينية بين مسيحيي مصر ومن حولهم من أصحاب مذهبهم ، كالذي كان في القرن الخامس من ارسال الخليفة المستنصر بطرك مصر الى بلاد الحبشة بهدية سنية لملكها ، من أجل نقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك فأمر ملك الحبشة بفتح سد يجرى منه الماء الى أرض مصر ، ففتح ، وزاد النيل في ليلة واحدة ثلاثة أذرع .. — على ما يروى — .

الحكومة : في مثل هذا الجو تكون الحكومة ثيوقراطية — الى حد ما — فأساس السلطان فيها الأمر الالهي بطاعة أولى الأمر مع الأمر بطاعة الله ورسوله « وأطيعوا الله

وأطيعوا الرســـول وأولي الأمــر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » ..

وقد يكون من حكامها — ولاة أو أمراء أو خلفاء أو سلاطين — من هو خير يستشير من حوله ، دون نظام مقرر أو ترتيب ملزم ، مع الأمــر القــرآني الصريح بالشــورى « وشاورهم في الأمر » وانها الشأن الثابت « وأمرهم شورى بينهم » .

وفي هذا الوضع كان العلماء الدينيون ، بطبيعة ثقافتهم وعقيدتهم ، هم الذين يمثلون سلطة الشعب ، لأنهم كما قيل « يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء» . وهم يعرفون أن أفضل الجهاد عند الله كلمة حق في مجلس حاكم ظالم ، وهم يعلمون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي صارت به هذه الأمة خير أمة أخرجت للنــاس . وأن تغيير المنكر مأمور به : باليد ، أو اللسان ، وأضعف الإيمان أن يكون التغيير بالقلب .

ولكن العلماء المثاليين ليسوا هم الموجودين دائما ، فمنهم — كما رأينا — حتى في أعصرنا — من يأول الآية القــرآنية « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » بترك الأمر وعدم التدخل . بل منهــم من كانوا أدوات ووسائل لتحقيق رغبات الحكام ، وافتائهم بما يريدون ، والتوقيع الكتابي بذلك على ما يطلب منهم الافتاء به .

وفي مصر بالذات قد عرفت لممثلي سلطة الشعب هذه وقفات مذكورة في مقاومة الظلم، ومواجهة الطغيان ، ففي القرن الثالث رأينا البويطي يريد أن يموت في حديده ليعرف من بعده أن ناسا ماتوا في حديدهم ، كما رأينا الليث بن سعد وغيره قبل ذلك يقاومون هدم الكنائس ويرونه تعميرا من عمارة البلاد ، وفي القرن الثامن الهجري نرى بين مؤلفــات السبكي كتابا اسمه « كشف الدسائس في هدم الكنائس » وهو اسم ان دل على شيء فانما يدل على مقاومة رغبة هوجاء في هدم الكنائس والاســتيلاء على ما فيها كما كان يحدث في الظروف التي أشرنا اليها سابقا .

بل اننا في القرن السابع الهجري نسمع العز بن عبد السلام الفقيه الشافعي الجليل — ت ٦٦٠ هـ — يعلم في مصر والشام : أن المخاطرة بالنفس مشروعة في اعزاز الدين ، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وأن من قال بأن التغرير بالنفوس لا يجوز فقــد بعد عن الحــق ، ونأى عن الصواب ..

وقد عرف هذا العالم الكريم بأنه سلطان العلماء وامام عصره بلا مدافعة ، والقــائم بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر في زمانه .. وله في الشجاعة والمخاطرة ، وتحدي الطغيان مفاخر جــديرة بأن تذاع ، وهي من الكثرة بحث لا نجد لها المكان هنا ، وحسبنا منها واحدة هي : موقفه من أمراء دولة المماليك

الأتراك في مصر : اذ لم يثبت عنـده أنهـم أحرار ، بل أن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مـال المسلمين ، ومن جملتهـم نائب السلطنة نفسه .. فهالهم ذلك واستشاطوا غضبا فاجتمعوا وأرسلوا اليه فقال : نعقد لكم مجلسا ، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين ويحصل عتقكم بطريق شرعي .. فرفعوا الأمر الى السلطان ، وبلغ الشيخ أن السلطان أنكر دخوله في الأمر ، وقال : ان هذا لا يتعلق به.. فغضب الشيخ « عز الدين » ، وحمل حوائجه على حمار ، وأركب عائلته على حمير ، ومشى خلفهم خارجا من القـاهرة ، قاصدا نحـو الشام ، فلحقه غالب المسلمين : لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه اليـه يتخلف ، ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار فبلغ نبأ هذه المظاهرة الهائلة الى السلطان ، وقيل له : متى راح ذهب ملكك ، فركب السـلطان بنفسه ، ولحقه ، واسترضاه ، وطيب قلبـه فرجع .. واتفقوا معه على أنه ينـادى على الأمراء .. ثم أرادوا ملاطفته فلم يفد ذلك معه وأصر على رأيه .. وفزع هؤلاء الأمراء : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض !! وقال نائب السلطنة : والله لأضربنه بسيفي هـذا .. وركب بنفسـه في جماعته ، وجاء بيت الشيخ والسيف مسلول في يده فطرق الباب .. وخرج الشيخ الحال فما اكترث ، ولا تغير ، وقال لابنـه الذى وصف له ما رأى : يا ولدي ، أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله .. ثم خرج ، وكأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة ، فحين وقع بصره على النائب يبست يده وسقط السيف منها وأرعدت مفاصله ، فبكى ، وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال : يا سيدى خير .. أي شيء تعمل ؟ قال : أنادى عليكم وأبيعكم .. قال : ففيم تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين

قال ، من يقبضـه ؟ .. قال أنا .. فتم له ما أراد ونادى على الأمراء ، واحدا واحدا ، وغالى في ثمنهم ، وقبضه وصرفه في وجـوه الخـير ..

ثم مع كل اعجابنا بهذا الموقف وغيره مما يروى عن حياة العز بن عبد السلام لا نقول الا أنها قلة من قبـيل عن مظاهر الانسانية ، وأحداث الاضطهاد في معاملة الشعب ، نقول: اننا لا نستطيع أخذ الصورة الصحيحة لموقف علماء الدين من الحكومة من مثـل هـذه المواقف البطولية وحدها .. كما لا نستطيع التقاط تلك الصورة من مواقف المسالأة والتراجع أمام الحكام .. فلا هنـاك سلطة مقررة لمعارضة العلماء ، ونهيهم عن المنكر .. ولا هناك ضعف دائم أمام السلطة الحاكمة .. وانما هو مجتمع في مرحلة مناسبة لعصره : لا حماية مقررة لحقوقه .. ولا اهدار مستمر لهذه الحقوق .. هي نوبات من الصـدف والاتفاق .. والجود المتفضل .. لم تشـعر الحكومة فيها بواجب فتلتزمه .. ولم يشعر

العلماء فيها دائما شعورا واضحا بحق فيقررونه .. ولا الشعب بين هذين يدرك حقه فيصمم على طلبه .. ويتقدم من يقتضيه كما اقتضى الشيخ العز بن عبد السلام أثمان الأمراء الأتراك الحاكمين، وصرفها في المصالح العامة — فذلك كما قال ناقلو هذه الحوادث « مما لم يسمع بمثله » .

* * *

الى هنا حدثنا عن الحياة الدينية، في سير الحضارة الانسانية بمصر خلال أجيال تاريخها المتوسط عصر الاسلام ، من القرن السابع الهجري الى مطلع التاريخ الحديث ، فوضعنا بين يدي القارىء .. فيما نرجو — الاطار العام ، الذي يحدد ويضبط صور الحياة ، وأحداث الزمن في هذه العصور ، واضحة الدلالة ، مفسرة الأسباب ، مفهومة الأهداف في الحياة الدينية ، وجانب من الحياة الاجتماعية بما يؤثر فيها الدين بعامة .. والاسلام بخاصة

ولعلنا بهذا الاطار قد ميزنا صورة مصر المسلمة ، أو صورة اسلام مصر من غيرها من البيئات الاسلامية الأخرى .. أو عن الاسلام في تلك البيئات .

... وفي كل حال فالذي قدمناه يهيىء للحديث عن :

الحياة الدينية بمصر في العصر الحديث .

الحياة الفنية في مصر الإسلامية

من الفتح العربي إلى الفتح التركي

للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

لئن كانت الروح الموجهة للحضـــارة الاسـلامية – وهى الاسلام — قد بزغت أول ما بزغت فى بلاد العرب ثم بدأت تؤتى ثمارها فى البلاد التى أشرقت عليها والممتدة من المحيط الأطلسى الى ما وراء الخـــليج الفارسى فى بلاد الهند والصين ، الا أن تراث هـذه الحضــارة قد ضاعت معظم معالمـه — بفعل الحـروب أو الاهمال أو بفعلهما معا — من كثير من تلك البلاد الا مصر فقد بقى فيها جانب كبير من هذا التراث تشاهده فى مساجدها وكنائسـها وفى مدارســـها وقصورها وفى خوانقها وقلاعها وأســوارها وفيما تنطوى عليه جوانح متاحفها الاسلامية من تحف منقولة .

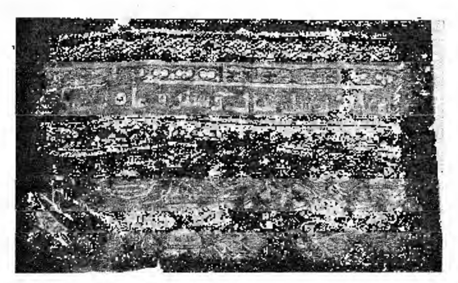
وتكون هذه الآثار ، سواء ما كان منها ثابتا أو منقولا ، سلسلة متماسكة الحلقــات



١ ـ أثر من عصر الخلفاء الراشدين (شـــاهد قبر مؤرخ سنة ٣١ هـ بالمتحف الاســــلامى بالقاهرة) .



٢ ـ أثر من عصر الأمويين (قطعة قماش مؤرخة سنة ٨٨ هـ بالمتحف الاسلامى بالقاهرة) .



٣ ـ أثر من عصر العباسيين ، قطعة قماش من مدينة القيس من عصر الخليفة المهدي (١٦٨ هـ) بالمتحف الاسلامي بالقاهرة) .

تنتظم العصور المختلفة للحضارة الاسلامية : ففي مصر آثار من عصر الراشدين (صورة رقم ١) ، وفيها آثار من عصر الأمويين (صورة رقم ٢) ، وفيها آثار من عصر العباسيين يوم كانوا أقوياء (صورة رقم ٣) ، وآثار من عصرهم يوم أصبحوا ضعفاء ، وفيها آثار يتجلى فيها قيام المذهب الشيعي وثبات أركانه ، وفيها آثار تنطق باستعادة المذهب السني مكانته ونفوذه .

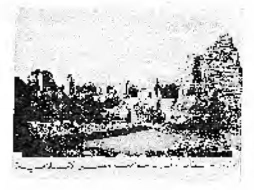
وهذه الميزة التي تتمتع بها مصر دون غيرها من بلاد العالم الاسلامي انما ترجع الى أمرين : الأول أنها كانت بمنجاة من بعض الكوارث التي تعرض لها العالم الاسلامي لاسيما في جانبه الشرقي ، والثاني أن الشعور بأهمية تراث الماضي قد استيقظ فيها قبل غيرها من البلاد الاسلامية فقامت تكشف عنه ، وتحافظ عليه ، وتقوى ما تداعى منه ، وتكمل ما ضاع من أجزائه ، وتسعى جاهدة لكي تجليه على الناس في الصورة الرائعة التي كان عليها يوم شيدته أو صنعه المصريون في العصور الوسطى .

والصفحات القليلة المحدودة لي في هذا الكتاب لا تكفي لابراز الصورة الكاملة لهذا الجانب الفني من حياة مصر الاسلامية ، ولكنني مابذلت قصارى جهدي في أن أرسم لهذا الجانب صورة ان أعوزها التفصيل في كثير من أجزائها فلا يعوزها الوضوح ، ولعل في هذه الصورة الصغيرة ما يحفز القارىء الى مشاهدة هذه الآثار ويستهويه الى مطالعة المراجع المطولة التي تعنى بها فيزداد ايمانا بعظمة مصر في العصور الوسطى ، ويؤمن بأنها قد شغلت نفس المكانة السامية التي شغلتها مصر من قبل في عصورها القديمة .

العمارة

(العصر ما قبل الطولوني)

وتعتبر الفسطاط . . أولى العواصم التي شيدها العرب في مصر . . نقطة الابتداء في هذا العرض السريع ، وخرائبها التي كان للمرحوم على بهجت فضل الكشف عنها في سنة ١٩١٢ تروي لنا فصلا شيقا من تاريخ المدن (صورة رقم ٤) ، فقد بدأت ساذجة ، تتم سذاجتها عن بساطة منشئيها ، ثم تطورت بمرور الزمن حتى وصلت الى ما وصلت اليه المدن الراقية في



شكل – ٤

عصرنا الحاضر فقد كان فيها الأحياء الراقية بمبانيها العالية التي وصل بعضها الى أربع عشرة طبقة ووقف بعضها عند سبع طبقات حيث أنشئ حديقة عليها roof-garden

٥ – جامع عمرو كما هو الآن وترى فيه تيجان الأعمدة ذات الطرز المختلفة .

فيها الأشجار والأزهار من سائر الأنواع على حد وصف الرحالة الايراني ناصر خسرو الذى زارها فى القرن الخامس الهجرى (١١ م) ، وكان فيها أيضاً الأحياء الفقيرة بمساكنها المتواضعة وشوارعها القذرة ، وكان فيها الأسواق العامرة بالمتاجر ، ومصانع السكر ، والصابون ، ومسابك الزجاج والنحاس ، وأفران الخبز والفخار ، ولا تزال بعض أطلالها تؤيد الى حد كبير ما ورد فى بطون الكتب عنها .

والأثر الوحيد القائم بين خرائب هذه المدينة والذى لا يزال الى اليوم يحقق الغرض الذى من أجله أنشىء هو جامع عمرو (صورة رقم ٥) الذى بدأ ساذجا كما بدأت الفسطاط، ثم أخذ ينمو ويتطور على مر السنين ، وكلما ازداد عدد المسلمين ، وكلما ارتقت حياتهم ، انعكس ذلك فيه فاتسعت رقعته ، وارتفع سقفه ، وكثرت أبوابه ، وأخذ الشكل الذى هو عليه الآن : صحن مكشوف ، يحيط به من جوانبه الأربع أروقة أربعة مسقوفة بعضها ضاعت معالمه ولكن بقايا الأعمدة تدل عليه ، وبعضها لا يزال محتفظا بشكله .

ومهما اختلفت آراء علماء الآثار فى مصدر هذا التصميم فالذى لاشك فيه أنه نابع من أعماق نفوس العرب ، متكيف بظروفهم ، وليس منقولا عمن سبقهم من الأمم . فاذا نحن تذكرنا حالة العرب قبل الاسلام وتذكرنا بساطة الاسلام وبعده عن الطقوس المعقدة سهل علينا ادراك هذه الحقيقة ،

فالمسجد الذى أسسه محمد ، صلوات الله عليه ، فى المدينة والذى اتخذ نموذجا للمساجد من بعده لم يكن سوى قطعة أرض مربعة الشكل أحيطت بجدران أسسها من الحجر وقوامها من اللبن وتجاه بيت المقدس — قبلة المسلمين الأولى — أقيمت سقيفة من الجريد المغطى بالطين فوق جذوع النخل ، ولما تحولت القبلة الى الكعبة فى مكة أقيمت سقيفة جديدة مثل السابقة وترك الأولى حيث هى ليستظل بها فقراء المسلمين وبذلك أصبح للمسجد سقيفتان بينهما مكان مكشوف احداهما الى الشمال والأخرى الى الجنوب ، ولما زاد عدد

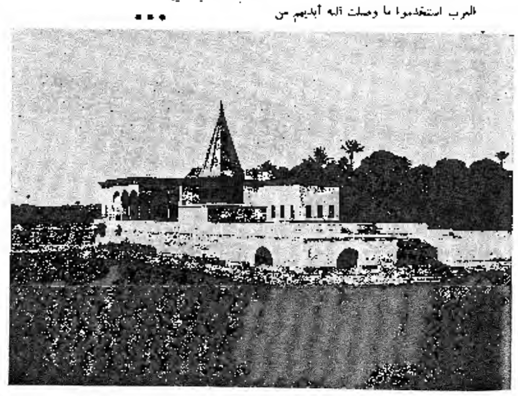


٥ — من زخارف نوافذ جامع عمرو كما كان فى العصر العباسى الأول

للمسلمين ، ومست الحاجة الى قدر أكبر من الظل ، وأصل ما بين هاتين السقفتين بسقيفتين جانبيتين احداهما لليمين والأخرى للشمال ، وهكذا ولد تصميم بناء المساجد .

وطبيعي أن يتطور المسجد بتطور العرب الذين تأثروا بما رأوا في البلاد التي فتحوها من الأبنية القديمة فاستبدلت جذوع النخل التي كانت تحمل السقف بعمد الرخـــام (صورة رقم ٥) . واذا نحن تأملنا في رؤوس الأعمدة التي تحمل سقف جامع عمرو وجدنا أن تيجانها من طرز مختلفة ، ذلك أن العرب استخدموا ما وصلت اليه أيديهم من عمد المعابد والكنائس المهدمة ، شأنهم في ذلك شأن الرومان من قبلهم الذين كانوا يفضلون نقل العمد اليونانية القديمة الى معابدهم . ولم يثبت قط أن العرب قد هدموا قصـــدا معبدا أو كنيسة لكي يحصلوا على أعمدته كما يدعي بعض الناس . وينبغي أن نبادر فنذكر ان الصـــور التي نراها اليـــوم في مسجد عمرو انما هي من عمل السلطان مراد بك أحد سلاطين المماليك في العصر التركي ولا علاقة بينها وبين المسجد الأصلي الا في البقعة المشيد عليها .

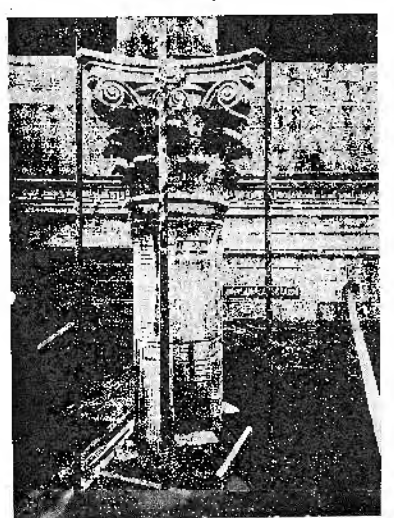
* * *



٧ ـ مقياس النيل من الخارج بعد ان جددته مصلحة الآثار .

وانتهى عصر الراشدين ثم عصر الأمويين وجاء عصر العباسيين الذين انشأوا فى شمال الفسطاط وعلى مقربة منها عاصمة جديدة هى العسكر التى ضاعت معالمها ولكننا نستطيع أن نتصور موضعها فى المنطقة القريبة من المدبغة النموذجية ومسجد ابى السعود .

والأثر الباقى من هذا العصر العباسى والذى يعد أقدم أثر مصرى اسلامى محتفظ بشكله وتفاصيله ، هو مقياس النيل بجزيرة الروضة الذى أمر بانشائه الخليفة العباسى

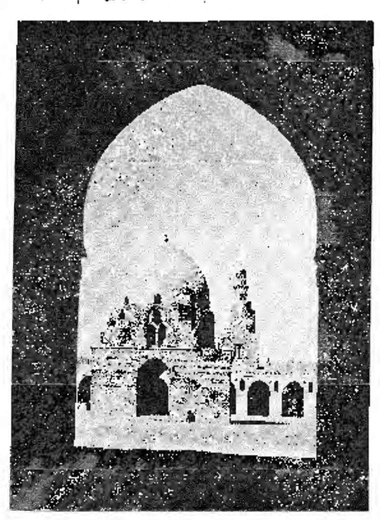


٨ . صورة مقياس النيل من الداخل ويرى بها أقدم طراز الكتابة الكوفية في مصر وأقدم مثال للعقود المدببة .

المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ (صورة رقم ٧). وإنشاء هذا الأثر يفصح لنا عن مدى عناية أجدادنا في العصور الوسطى بأمر النيل كما كان يعنى به أجدادهم في العصور القديمة . ولهذا الأثر الذى جددته مصلحة الآثار أهمية كبيرة للذين يعنون بالناحية الأثرية ففيه أقدم طراز للكتابة الكوفية في مصر وفيه أقدم مثال للعقود المدببة بها . (صورة رقم ٨) .

(العصر الطولونى)

وبدأ في مصر عصر جـديد عندما ولى أمرها أحمد بن طولون ، عصر أصبحت فيه أمة جديدة يدين معظم أهلها بالاســـلام ،



٩ ـ مسجد ابن طولون من الداخل وترى قبـه المئذنه والنافورة .

ويتكلم معظم أهلها العربية (بدلا من القبطية) واتجهت فيه الى استكمال شخصيتها الجديدة بالاستقلال ذاتيا عن الخلافة العباسية التي كانت عاصمتها في سامر من رأى ؛ وقد حقق لها حاكمها سالف الذكر هذه الرغبة فأنشأ عاصمة جديدة الى الشمال من مدينة العسكر سماها القطائع وشيد فيها مسجده الرائع الذي لا يزال قائما يحدد لنا مكان هذه العاصمة الجديدة على وجه التقريب ، ثم أقام الى جواره قصره الذي أتمه من بعده ولده خمارويه وكان آية في العظمة على حد وصف المؤرخين له ، فقد ضاعت معالمه من الوجود وبقيت في بطون الكتب .

أما المسجد فيسير في تصميمه على النهج الذي شاهدناه في مسجد عمرو ولكنه خطا نحو التطور خطوات تتجلى في خمسة عناصر هي الفاورة والمئذنة والدعامات والزخرفة واللوحة التأسيسية .

أما الفاورة التي تتوسط الصحن فقد أعدت في الأصل لشرب سها الناس ولكنها في عصر المماليك ، عندما جدد هذا المسجد ، انقلبت الى ميضأة كما تدل على ذلك الآية القرآنية المنقوشة بداخل القبة التي تغطيها .

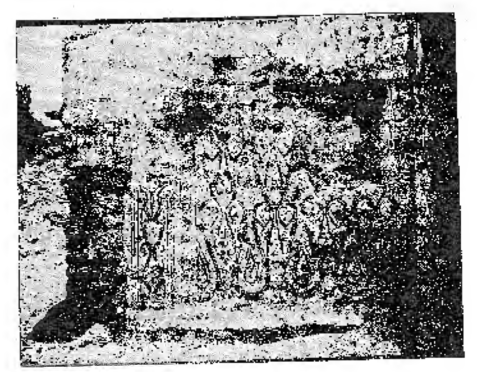
وأما المئذنة فهي الوحيدة في مصر التي لها هذا الشكل العجيب ، وهي متأثرة بمئذنة المسجد الجامع في مدينة سامر من رأى بالعراق ، وكلتا المئذنتين قد استمدت تصميمها في الأصل من معابد النار الفارسية المعروفة باسم الزيجورات .

وأما الدعامات التي تحمل العقود فهي الأولى من نوعها في مصر الاسلامية ، وهي كذلك من خصائص العمارة العراقية التي انتقلت الى مصر في هذا العصر الذي سيطر فيه الفن العباسي الذي شاع في العالم الاسلامي أجمع (الصورة رقم ٩) .

وأما الزخرفة فهي تجلو علينا صورة صادقة للفن الاسلامي كما ازدهر في العراق ونحن اذا تأملنا في هذه الزخرفة قليلا وجدنا اننا لا نستطيع أن ننسب الى الفنان المسلم فضل ابتكار وحداتها لأن هذه الوحدات كانت موجودة بالفعل في الفنون السابقة على الاسلام ، الا أننا لا يمكننا أيضا أن نجحد مقدرة الفنان المسلم في طريقة توزيعها ، والتأليف بينها ، وتنسيقها تنسيقا جعلها تبدو كأنما اخترعت لأول مرة وما هي كذلك ، ولكنه صهرها في بوتقته ، وسلط عليها أشعة عبقريته ، فخرجت من بين يديه فنا جديدا ، لا يخفى علينا أصله ولكننا لا نستطيع أن ننكر عليه شخصيته القوية .

وأما اللوحة التأسيسية المثبتة على احدى الدعامات ، فتدلنا على ما للكتابات التاريخية المنقوشة على الآثار من أهمية علمية ، فقد استطعنا بفضلها أن نقف على التاريخ الحقيقي لانشاء هذا المسجد (٢٦٣ هـ) بعد أن أعطانا المؤرخون له تواريخ مختلفة جاءت من غير شك نتيجة لأخطاء الناسخين ، أو عدم الدقة في نقل الأخبار .

والمنزل الطولوني الذي كشف عنه المرحوم حسن الهواري سنة ١٩٣٤ م بالقرب



١٠ - أحد جدران المنزل الطولوني ويرى به زخارف من طراز « سر من رأى » الثالث .

من منطقة أبي السعود من الأمثلة النادرة للعمارة المدنية في مصر (الصورة رقم ١٠) ، وهو في تخطيطه وزخرفته يسير على نهج دور مدينة « سر من رأى » بالعراق . وعلى أساس هذا التخطيط ، وتلك الزخارف ينسب هذا المنزل الى العصر الطولوني .

(العصر الفاطمي)

واذا لم يكن استقلال مصر تاما في العصر الطولوني ، فانه قد أصبح كذلك في العصر الفاطمي اذ صارت مصر مركزا لخلافة مناهضة للخلافة العباسية في العراق ، والخلافة الأموية في الأندلس ، وكان من أثر ذلك أن خطت البلاد في سبيل الحضارة المادية خطوات واسعة ، وسادت روح الترف في كل شيء ، وكتب التاريخ ، والآثار الثابتة ، والتحف المنقولة تعكس هذه الحياة المترفة ، وتبرز شخصية الفن المصري الاسلامي الذي تجلت فيه براعة المصريين في صور كثيرة تفرض الاعجاب على كل من يشاهدها .

واذا كانت حدود العواصم الاسلامية السابقة — الفسطاط والعسكر والقطائع — قد ضاعت ، فحدود القاهرة الفاطمية لا تزال قائمة نستطيع أن نتعرف عليها في يسر ؛ فسورها الشمالي لا يزال قائما نشاهد فيه

باب النصر (الصورة رقم ١١) وباب الفتوح ، واذا دققت النظر فى الكتابة المنقوشة على السور القديم بين هذين البابين وجدت أن اسمهما هو باب العز ، وباب الاقبال .

وسورها الشرقى لا يزال يجرى فى موازاة تلال الدراسة ، وقد كشفت معاول عمال البلدية وهم يعملون لتوسيع رقعة القاهرة الحديثة عن باب التوفيق منذ بضعة شهور .

وسورها الجنوبى لم يبق منه الا باب زويلة أو بوابة المتولى كما يسميها العامه .

وسورها الغربى كان يسير بموازاة شارع الخليج ، ولم يبق منه الا القليل الذى لا يستأهل الذكر ، ولكن « درب سعادة » المجاور لمحافظة القاهرة يذكرنا بحدود القاهرة فى هذه الجهة .

وتعد أبواب القاهرة وأسوارها من أروع العمائر الحربية فى العصور الوسطى فى العالم أجمع ، وقد كانت ، ولا تزال ، موضع الاعجاب والتقدير من كل من رآها أو يراها (الصورة رقم ١٢) .

وفى داخل أسوار هذه العاصمة الجديدة شيد الفاطميون قصرين عظيمين ضاعت معالمهما وبقيت مواقعهما : القصر الكبير ويشغل اليوم المشهد الحسينى وخان الخليلى جزءاً من

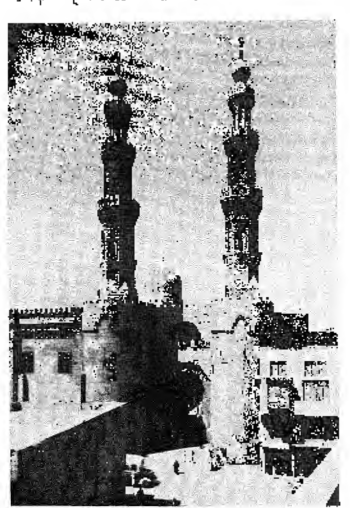


١١ - باب النصر احد الابواب الشمالية للقاهرة

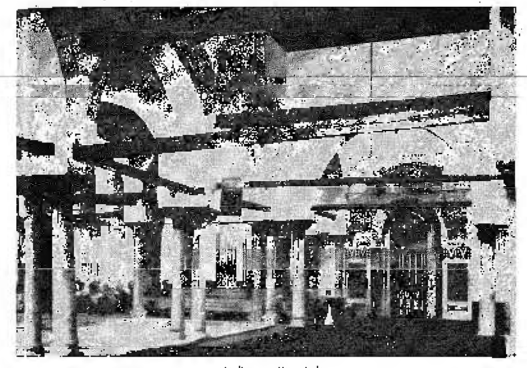
موقعه ، والقصر الصغير وتشغل اليوم الصاغة ومستشفى قلاوون جزءا من موقعه .

وفي القاهرة المعزية وفي خارجها شيد الفاطميون المساجد والمشاهد ولا يزال معظمها قائما حتى اليوم .

ويفرض علينا ضيق المجال أن نختار من بين الآثار الفاطمية الكثيرة ما كان محتفظا بمميزات هذا العصر في فن البناء ، فالأزهر (صورة رقم ١٣) على شهرته العظيمة لا يستطيع أن يحقق لنا هذا الهدف ، لما ضاع منه ، ودخل عليه من التعديل والتحوير ، بينما الأنور أو جامع الحاكم بأمر الله ، على



٢٠ ـ باب زويلة أحد الأبواب الجنوبية للقاهرة



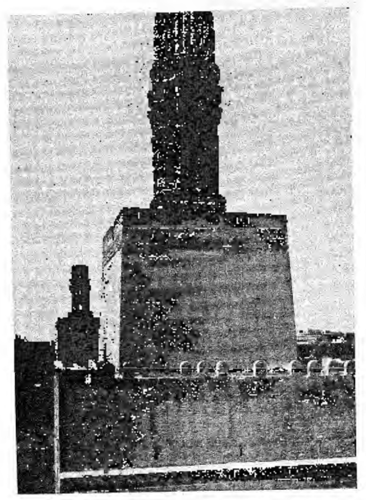
م - الجامع الأزهر من الداخل -

سوء حالته ، يبرز لنا هـذه الخصائص ، والجامع الأقمر على صغر حجمه يجلو علينا جمال الفن الزخرفي في صورة واضحة قوية ، ومشهد الجيوشي يكفي لبيان الغرض من مثل هذه الأبنية التي ظهرت لأول مرة في مصر في هذا العصر ، والحمام الفاطمي هو أقدم بناء موجود من نوعه في هذه البلاد .

فجامع الحاكم يحتفظ بالعناصر الرئيسية للمساجد الفاطمية وهي الواجهـة الفخمة ، والمدخل البارز ، ومجاز القبلة ، والقبـــاب الثـلاث .

أما الواجهة فمنقطعة النظير في مساجد مصر السـابقة ، يقوم في زاويتها برجان عظيمان يكسبان المسجد مظهر القلاع ، يخرج من كل منهما مئذنة عالية تعد أقدم المآذن المؤرخة في مصر (صورة رقم ١٤) ، تزدان كل منهما بزخارف رائعة ، وبكتابة كوفية تتضمن اسم الحاكم بأمر الله ، وقد تصدع الجزء العلوي من هاتين المئذنتين أثر زلزال شـديد أصاب البـلاد في عصر المماليك ، وأعيـد تشييد هذين الجزءين على الصورة التي نراها الآن .

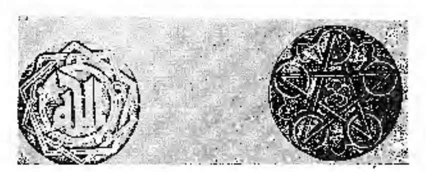
والمدخـــل الرئيسي واقع في منتصف الواجهة ، وبارز عن سمتها بروزا قويا ، وقد



١١٠ صورة جامع الحاكم من الخارج وتبدو فيها المئذنتان .

كان يتوجه لوح من الرخام ضاع أثره وبقي لنا رسمه الذي ينقش اسم الحاكم بأمر الله مع الآية الكريمة « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » . واختيار هذه الآية فيه اشارة الى ما عاناه الفاطميون من الناحية السياسية حتى ظفروا بالخلافة أخيرا وأصبحت لهم قوة عظيمة يناهضون بها الخلافة العباسية في الشرق والخلافة الأموية في الغرب .

ومجاز القبلة ممتد من الصحن الى المحراب مباشرة ، ويمتاز بعلو سقفه عن سقف المسجد ، وبوجود سلسلة من العقود على كل

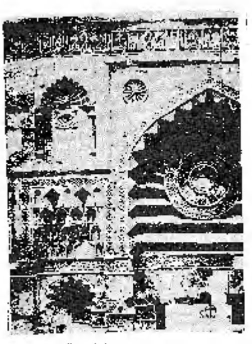


١٠ - من زخارف جامع الحاكم بأمر الله

من جانبيه الأيمن والأيسر تسير في اتجاه عمودي على جدار القبلة بينما تسير باقي عقود المسجد في اتجاه مواز لجدار القبلة . والغرض من هذا المجاز هو ابراز أهمية المحراب في المسجد باعتباره أهم بقعة فيه .

والقبة لم يبتدعها المصريون في العصور الوسطى ولكن فضلهم في تطورها عظيم ، فقد عرفها أجدادهم الفراعنة من قبل كما عرفها الرافديون والرومان ، ثم تسلمها المسلمون ساذجة بسيطة محدودة الاستعمال وأخذوا يتطورون بها حتى لقد أصبحت من المميزات البارزة في الفن الاسلامي . ولم تقف القبة المصرية الاسلامية عند الحد الذي نراه في القباب الثلاث الموجودة في هذا المسجد والتي نشاهدها في أقصى اليمين وأقصى اليسار من جدار القبلة كما نراها أيضا أمام المحراب — بل نراها قد تطورت تطورا بلغ أقصاه في عصر المماليك . والزخارف التي نشاهدها في هذا المسجد : في مئذنته (صورة رقم ١٥) ، وفي مدخله ، وفي واجهته كلها تنطق بأن الفنان المصري قد تخلص من تقاليد الفن الطولوني الذي نراه مستعملا في الجامع الأزهر ، وقد بدأ يستعين الآن بالعناصر الزخرفية التي كان يعرفها أجداده قبل الاسلام والتي انتقلت اليه عبر العصور . كما تدل أيضا زخارف بعض نوافذه على بدء ظهور الروح الأندلسية في الزخرفة المصرية الاسلامية .

والجامع الأقمر له واجهة تعتبر قطعة من الفن الجميل (صورة رقم ١٦) ، تنطق بالنضوج الفني الذي وصل اليه أجدادنا في القرن السادس الهجري (١٢ م) ، وتدل على أنهم يفتنون بحسن على قدم المساواة مع رجال الفن ، السابقين منهم واللاحقين . ولن نفصل القول في العناصر الزخرفية المختلفة الموجودة في هذه الواجهة انما يكفي أن نقول اننا نشاهد فيها لأول مرة الزخرفة المعروفة بالفرنسي Stalactite ، والتي أصبحت من أخص مميزات الفن الاسلامي ، كما نشاهد فيها الأحجار التي



١٦ - جزء من واجهة الجامع الأقمر .

تفنن البناء في قطعها وتعشيقها وهي ظاهرة معمارية ظهرت لأول مرة في مصر في عصر البطالمة في مقابر كوم أبوبلة ثم اختفت لتظهر من جديد في هذه الواجهة . كما نشاهد أيضا كثيرا من العناصر الزخرفية التي كانت مألوفة في العصر القبطي قد رسمت هنا بطريقة متقنة تدل على نضوج الملكة الفنية عند راسمها . والواقع أننا نلمس في زخارف هذا المسجد والمسجد السابق ، الروح الفنية المصرية ، وندرك أنها أخذت تبرز من جديد قوية واضحة بعد أن تخلصت من الفن الأجنبي الذي فرض على البلاد في العصر الطولوني .

والكلام على المشاهد الفاطمية التي اخترنا منها الجيوشي (صورة رقم ١٧) يفرض علينا أن نشير أولا الى تلك البدعة التي استحدثت في الاسلام ، ولقيت رواجا عظيما عند المسلمين في شتى البقاع ، وهي تشييد القباب وانشاء المساجد فوق قبور البارزين والعظماء من رجال الدنيا والدين ، وأغلب الظن أن الدافع الى هذه البدعة انما هو الرغبة في تمييز هؤلاء الناس بعد وفاتهم كما كانوا مميزين في حياتهم ، وقد ظهرت هذه البدعة أول ما ظهرت عندما اتجهت النية الى تمييز بعض البقاع التي تحتل من نفوس المسلمين مكانة سامية لاتصالها بتاريخ النبي الكريم مثل صخرة بيت المقدس التي يقال ان النبي عرج منها الى السماء ليلة أسري به ، فشيدوا عليها قبة عظيمة تعد حتى اليوم من أروع الآثار الاسلامية ان لم تكن أروعها جميعا ، وقد كان طبيعيا أن ينتقلوا من تكريم البقاع التي قدستها الذكريات الى تكريم القبور التي تضم رفات من كانوا أعزاء عليهم ، وهكذا ظهر هذا النوع الجديد من الأبنية التي سماها الفاطميون بالمشاهد أي مكان الشهداء لأنهم كانوا يرون أن أئمتهم وعظماءهم قد استشهدوا واستحقوا درجة الشهداء في سبيل نصرة مبادئهم ، ومشهد الجيوشي قد شيد ليدفن فيه الأفضل بن بدر الجمالي كما تدل على ذلك الكتابة التأسيسية التي تتوج مدخله ، ويستلفت النظر فيه استعمال الضوء في التسقيف لأول مرة في مصر ،

١٧- مشهد الجيوشي من الخارج .

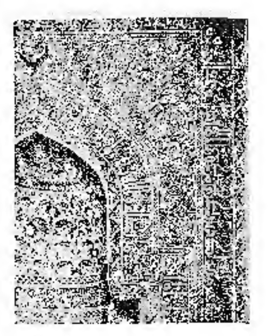
وهذا الاستعمال يكشف لنا عن ميزة معمارية تجعل للمهندس المصري في العصور الوسطى فضل السبق على زميله الأوربي المعاصر له ، ومحراب هذا المشهد يعد آية من آيات الفن الاسلامي تجلت فيه عبقرية الفنان في أروع صورها وأبدع مظاهرها . (صورة رقم ١٨) .

وآخر ما نذكره من العمائر الفاطمية « الحمام الفاطمي » الذي كشف عنه المتحف الاسلامي بالقاهرة سنة ١٩٣٤ م ، وهو يقع بالقرب من المنزل الطولوني الذي أسلفنا الاشارة اليه . وهو يعد أقدم حمام اسلامي في مصر .

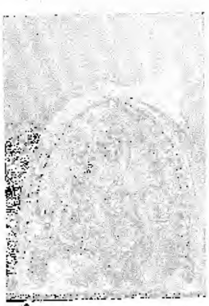
والحمامات عامة ليست من ابتداع العرب بل عرفها الفراعنة واليونان والرومان من قبلهم ، ولقد سار المسلمون في تخطيط حماماتهم على النهج الروماني الذي وجدوه بين أيديهم ، وتحدثوا عنها طويلا في كتب الأدب والتاريخ فذكروا صفاتها ومزاياها وآدابها ، ووصفوا ما ازدانت به جدرانها من صور جميلة ، وأوضحوا ما لهذه الصور من أثر في نفوس المستحمين ، ولقد لعبت الحمامات دورا هاما في الحياة الاجتماعية في العصور الوسطى في مصر وغيرها من بلاد العالم الاسلامي ، والحمام الفاطمي كان ، في أغلب الظن ، حماما خاصا ملحقا بأحد القصور صغر مساحته ، ولكنه على صغره يعطينا فكرة واضحة عن تصميم الحمامات ، وطريقة ايقاد النيران فيها ، وتوزيع المياه في أجزائها المختلفة ، ولا تزال البئر التي كان يرفع منها الماء موجودة حتى اليوم ، أما الصور التي كانت تزين قبته وجدرانه فقد نقلت الى المتحف الاسلامي بالقاهرة (صورة رقم ١٩) .

(العصر الأيوبي)

ولقد ضعفت مصر في أواخر العصر الفاطمي ، وطمع فيها من جهة سبيجيو العرب (الصليبيون) الذين أنشأوا لأنفسهم ممالك



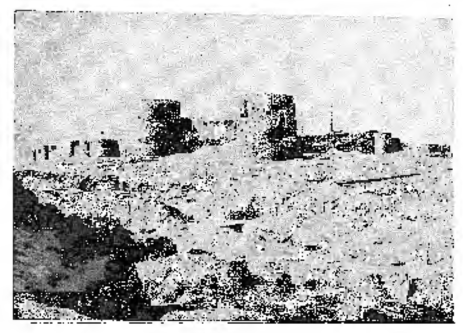
١٨ - محراب مشهد الجيوشي .



١٩ - صورة على الجص (فرسكو) كانت بالحمام الفاطمي ومعروضة الآن في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة .

صغيرة في بلاد الشام ، ومن جهة أخرى سلطو الشرق (الأتراك السلاجقة) ، وكان الممسك بأعنة الوزارة في مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي انتهز فرصة موت الخليفة الفاطمي العاضد ليعلن سقوط الخلافة الفاطمية وعودة الخلافة العباسية ، وسرعان ما كوّن هو الدولة الأيوبية التي رصدت نفسها للقضاء على الشيعة في مصر ، وعلى الصليبيين في الشام .

ولقد وجد صلاح الدين نفسه مهددا بثورات داخلية من المتشيعين للفاطميين الراغبين في اعادة ملكهم ، وبحروب خارجية من الصليبيين الطامعين في مصر لتأمين ملكهم في الشام والاستفادة بخيراتها العميقة ، فأوحى اليه هذا الموقف أن يبحث عن مكان حصين يتخذه مقرا له ، ويدفع به عن عاصمة البلاد شر العدو المهاجم ، ووقع اختياره على مكان القلعة المشرفة على القاهرة اليوم (الصورة رقم ٢٠) ولا تزال الكتابة الأثرية التي تتوّج باب المدرج - وهو أقدم أبواب القلعة - تتضمن نصا تاريخيا يشير الى بناء صلاح الدين لهذه القلعة سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) باشراف أخيه الكامل وعلى يدي وزيره قراقوش الذي



٢١ ـ قلعة صلاح الدين من الخارج .

لا يزال يردد العامة اسمه حتى اليوم للدلالة على جمود الفكر والعسف في الحكم . (الصورة رقم ٢١) .

وامتد العمار بين الفسطاط والعسكر والقطائع حتى أصبحت مدينة واحدة كانت تسمى مصر أحيانا وأحيانا الفسطاط . وأمر صلاح الدين باحاطتها بأسوار تتصل بأسوار القاهرة الفاطمية . وفقدت القاهرة أهميتها بعد أن انتقل منها الحاكم والحكم الى القلعة التي ارتفع نجمها منذ ذلك العصر حتى أيام الخديو اسماعيل الذي بنى قصر عابدين .

وتحدثنا القلعة بأسوارها وأبراجها ، وبما في ساحتها من أبنية مختلفة ، أصدق حديث عن تاريخ مصر منذ عصر الأيوبيين حتى عصر محمد علي ؛ فالعصر الأيوبي يتمثل لنا أوضح ما يتمثل في الأبراج التي نشاهدها في الجانبين الشرقي والجنوبي ؛ وعصر المماليك يتمثل لنا أجمل ما يتمثل في مسجد الناصر محمد ذي المئذنتين الرائعتين اللتين تزدان قمة كل منهما بالواح القاشاني الأخضر الجميل ؛ والعصر التركي يتمثل لنا بطرازه الجديد في بناء المساجد في جامع سليمان باشا والي مصر ، وهو أول مسجد يذكرنا بمساجد القسطنطينية التي تأثرت في تصميمها بكنيسة أيا صوفيا حيث نشاهد في وسط رواق المحراب قبة عظيمة تحيط بها أربعة أنصاف

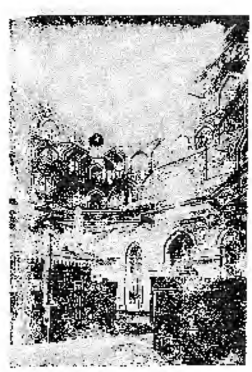


٢١– الكتابة الاثرية على اقدم ابواب قلعة صلاح الدين

٢٢–قناطر المياه التي كانت تحمل الماء من النيل الى القلعة .

قباب حافلة بالزخارف الملونة والكتابات ، كما يتمثل أيضا هذا العصر فى باب القلعة المشرف على ميدان صلاح الدين المعروف بباب العزب والذى يحف به من جانبيه برجان عظيمان ينطقان بأن البناء المصرى كان لا يزال فى هذا العصر يحتفظ ببراعته القديمة . وعصر محمد على يتمثل لنا فى المدخل الرئيسى للقلعة الذى نستعمله الآن ، وفيما وراء هذا الباب من المصانع الحربية والدواوين والمدارس ، وفى قصوره التى من أهمها قصر الجوهرة الذى ردت اليه الحياة وزارة الثقافة والارشاد بما وضعت فيه من أثاث يعيدها فى الصورة الجميلة التى كان عليها ، وفى مسجده العظيم الذى دفن به والذى يشرف بمئذنتيه الرشيقتين على القاهرة .

وطريقة ايصال الماء الى تلك القلعة العالية فى العصور الوسطى جديرة أن نقف عندها قليلا فهى تكشف لنا عن مدى نضوج أجدادنا فى تلك العصور فى الهندسة المدنية اذ كانت المياه ترفع من النيل بواسطة ست سواق كل منها ترفع الماء الى حوض كبير يجرى منه الماء فى قناة محفورة فى أعلى قناطر بنيت خصيصا لهذا الغرض تمتد من جوار مجرى النيل وتنتهى الى القلعة (صورة رقم ٣٣) ، ولا تزال حتى اليوم — عند فم الخليج — آثار هذه السواقى وكثير من قناطر المياه التى جددت فى عصر الغورى أحد سلاطين المماليك ، وتعمل مصلحة الآثار من جهة



٣٢ قبة الامام الشافعى من الداخل ٠

وبلدية القاهرة من جهة أخرى لاظهار هذه القناطر وتعبيد الطريق الذى يحف بها من الجانبين لتبدو فى الصورة التى كانت عليها عند انشائها . ولكن سكان القلعة ليسوا دائما فى مأمن من انقطاع مياه النيل عنهم لسبب من الأسباب ، لذلك حفرت فى داخل القلعة بئر عميقة تستخدم مياهها عند الضرورة ، وهى لا تزال موجودة حتى اليوم وتعرف ببئر يوسف .

وأنشئت فى هذا العصر فوق قبر الامام الشافعى قبة عظيمة تعد من أجمل القباب وأجملها وأغناها بالنقوش من الداخل

والخارج . وتتجلى في الزخارف المحفورة في رقبة هذه القبة من الخارج روح أندلسية لا يخطئها الشاهد . (صورة رقم ٢٣) .

وفي أواخر هذا العصر أنشأت شجرة الدر قبة فوق قبر زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب تشاهد فيها لأول مرة فصوص الفسيفساء المذهبة تزين المحراب .

(العصر المملوكي)

وضعفت الدولة الأيوبية ، واشتد النزاع والتحاسد بين أفراد أسرة بني أيوب ، واستكثر أغلبهم من شراء المماليك ليكونوا عونا لهم ضد منافسيهم من أقاربهم ، وسلموا هؤلاء المماليك زمام الجيش والقصر فوصلوا الى درجة عظيمة من النفوذ ، ونجحوا أخيرا في الاستيلاء على الملك والتربع على عرش مصر أكثر من قرنين ونصف قرن كانت البلاد فيها من الناحية السياسية مسرحا للفوضى ولكنها بلغت من الناحية الفنية درجة سامية لم تبلغها من قبل في عصرها الاسلامي . وفي الحق لقد استطاع هؤلاء المماليك أن يكتبوا لأنفسهم في تاريخ الفن المصري صفحات تشع من بين سطورها آيات النضوج الفني التي نقرأها فيما تركوه وراءهم من ثروة عظيمة من المساجد ، والقباب ، والخوانق ، والقصور ، والمدارس ، والخانات ، والقلاع ، والأسبلة ، والمارستانات ، ومن التحف المنقولة التي يفخر بها المتحف الاسلامي بالقاهرة ، ودار الكتب المصرية ، وكثير من المتاحف في الشرق والغرب .



٢٤ — مسجد الظاهر بيبرس من الخارج .

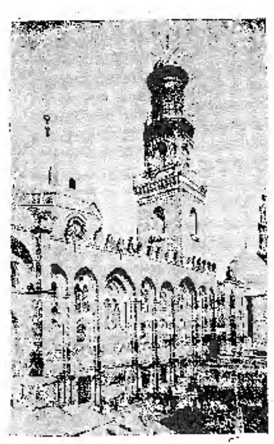
المساجد :

وأقدم المساجد المملوكية هو مسجد الظاهر بيبرس (٦٦٥ هـ) الذي خلع اسمه على حي عظيم من أحياء القاهرة (حي الظاهر) (الصورة رقم ٢٤) والذي يعد تاريخه مختصرا لتاريخ مصر منذ أمسك المماليك بزمام الحكم فيها حتى العصر الحديث : ففي بنائه الفخم مظهر لعظمة مصر في عصر المماليك ، وفي اهماله وبيع أنقاضه مظهر للفوضى التي شاعت في البلاد بعد الفتح التركي ، وفي جعل الفرنسيين منه قلعة في وسط القاهرة مظهر للغزو الفرنسي ، وفي تحويله على يد الانجليز الى مذبح يجهزون فيه ما يأكلونه من الحيوان حتى ليعرف الى اليوم عند العامة بمذبح الانجليز مظهر للاحتلال البريطاني ، وفي بدء العناية به ومحاولة اعادته الى أصله على يد مصلحة الآثار مظهر لعهد الاستقلال. وهو أول مسجد

تمتاز واجهته بتلك الظاهرة التي لعبت دورا هاما في العمارة الاسلامية حتى كانت تصبح علما عليها وهي تزيين الواجهة بأشرطة عريضة أفقية متوازية لونها أحمر وأسمر على التوالي، ويلاحظ أنها هنا انما أتت نتيجة لاستعمال نوعين من الحجارة يختلف كل منهما عن الآخر في لونه ، وصحن المسجد تشغله اليوم حديقة عامة ، وقد ضاعت معظم معالمه من الداخل الا بعض النوافذ الجميلة ورواق المحراب ، الذي بقي منه جزء تقام فيه الشعائر .

القباب :

وأجمل القباب قبة قلاوون (٦٨٣ هـ) التي تعتبر من أروع المدافن الأثرية الاسلامية في مصر ، (الصورة رقم ٣٥) وهي تتكون من غرفة مربعة الشكل يتوسطها مثمن تعتمد عقوده على أربعة أكتاف وأربعة أعمدة من الجرانيت الأحمر تتم تيجانها وقواعدها على أنها من صنع المصريين في عصر البطالة ، ومحرابها قطعة من الفن الجميل ، وواجهتها من الداخل ومن الخارج مثال ناطق على مدى ما وصل اليه البناء المصري في عصر المماليك من التضوج الفني (الصورة رقم ٣٦) ، والواقع ان هذه القبة ترهف الوجدان بجمالها الرائع ، وتغذي النفس بصنعتها المحكمة ، وتوسع أفق العقل بما فيها من كتابات تاريخية . واذا كانت التأثيرات الأندلسية قد ظهرت على استحياء في العصر الفاطمي في بعض نوافذ جامع الحاكم ، واسفرت قليلا عن نفسها في العصر الأيوبي في زخارف قبة الامام الشافعي ، فهي في عصر المماليك تبدو قوية واضحة في زخارف الواجهة الداخلية لهذه القبة (الصورة رقم ٣٧) التي نذكرنا عند مشاهدتها بالزخارف الجصية لقصر الحمراء .

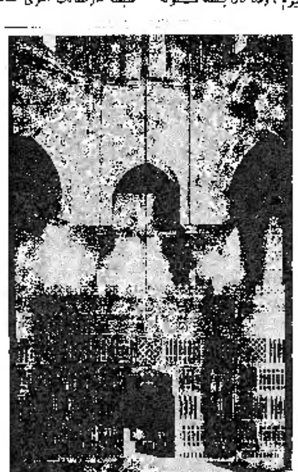


٣٥ - واجهة قبة السلطان قلاوون من الخارج .

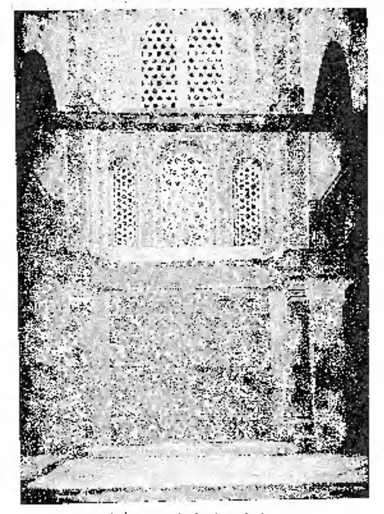
المارستانات :

والمارستان (دار الشفاء) بناء يتكون من أبهاء وحجر بها أسرة بعضها للنساء وبعضها للرجال ، ولكل مرض قسم خاص ، وفى مخازنه الملابس التى يرتديها المرضى عند تواجدهم به ، كما هو الحال فى أحدث المستشفيات اليوم ، وقد كان يتفقد شئونه أمناء من قبل الدولة يعاونهم موظفون يقومون بطبخ الأدوية والأغذية .

ومارستان قلاوون (٦٨٣ هـ) قد امتدت اليه يد الزمن فلم يبق منه الا الأرض التى يشغلها اليوم مستشفى حديث للرمد يحمل اسم قلاوون ، والابقايا لا تستأهل الذكر ، وهو لم يكن الأول من نوعه فى مصر بل سبقته مارستانات أخرى ضاعت معالمها .



(٥ ـ قبة السلطان قلاوون (من الداخل)



٧٢ - واجهة قبة السلطان قلاوون من الداخل

وهذه المنشآت العامة التي كانت تنشئها الدولة لكي توفر وسائل العلاج للشعب كما هو الحال في هذه المارستانات ؛ ولكي توفر المعرفة لهم كما هو الحال في المدارس التي سنذكرها فيما بعد ؛ ولكي تخفف عنهم وطأة الظمأ في بلد حار — كما هو الحال في الأسبلة التي سنشير اليها — تعد من مفاخر الحضارة الاسلامية (التي كان لمصر النصيب الأوفر فيها) والتي سبقت بها غيرها من الحضارات ؛ وأوربا عندما نهضت نهضتها العظيمة ، واتجهت الى هذه النواحي الانسانية انما اقتفت أثر الشرق واقتدت بأجدادنا ، ولعل خير ما يترجم

عن سمو حضارة هؤلاء الأجداد في العصور الوسطى — عصور التعصب للجنس وللدين وللطبقة الاجتماعية — هو تلك العبارة التي قالها قلاوون عند الفراغ من بناء هـــذا المارستان : « اني بنيته لوجه الله ، لمعالجة المرضى من جميع الطبقات والأجناس ، ممن هو مثلي أو دوني ، للغني والفقير ، للحر والعبد ، للذكور والاناث » .

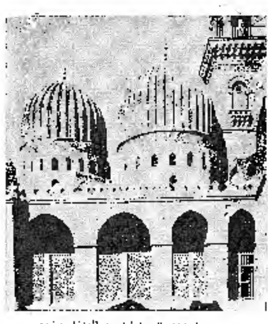
الخوانق :

والخانقاه (دار الصوفية) أشبه ما تكون بالدير عند المسيحيين (الصورة رقم ٣٨) ،



٣٨ — خانقاه بيبرس الثاني (من الخارج) .

وقد نشأت فكرتها عند المسلمين عندما ضعفت روح التدين في النفوس مما دفع ببعض الناس الى العزلة زهدا في الحياة الاجتماعية التي أصبحت حافلة بألوان اللهو فشيدوا هـذه الأبنية التي تحتوي على غرف متعددة يعيش فيها هؤلاء المتصوفون ، وقد ظهرت الخوانق في مصر أول ما ظهرت في عصر صلاح الدين ، وتعد الخانقاه الجاولية (٧٠٣ هـ) من أجمل ما شيد من هذا النوع ، وواجهتها المطلة على شارع مارسينه تفصح عن مقدرة المهـندس الذي خططها ، والبناء الذي نفذ هـذا التخطيط ، فالقبتان المتماثلتان معلوم المختلفتان ارتفاعا ، والمئذنة القائمة الى جوارهما تكونان معا لوحة فنية تتوفر فيها أصـول الجمال الفني بصورة رائعة . وقد امتدت يد التخريب الى الغرف المعدة للصوفية ، ولكن بقي لنا بعض النوافذ التي تغطيها شبابيك من الحجر مزخرفة بزخارف جميلة لا مثيل لها في العمارة الاسلامية في مصر . (الصورة رقم ٣٩) .



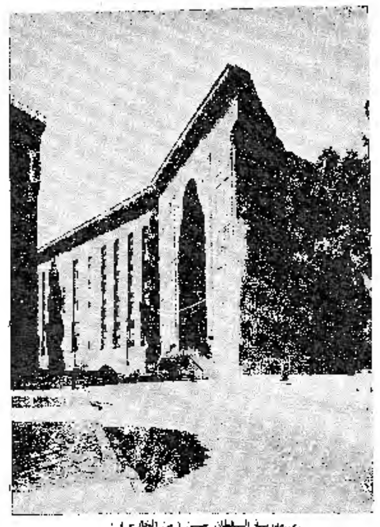
٣٩ — الخانقاه الجاولية من الداخل وتبدو في الصورة الشبابيك الحجرية الجميلة .

القصور :

وقصر الأمير بشتاك (٧٣٥ هـ) كان من أعظم مباني القاهرة يستطيع الانسان أن يشرف من اعلاه على القـاهرة والقلعة والنيـل والبساتين ، كما يقول المقريزي ، ولم يبق لنا منه الا قدر قليل يتمثل في قاعة عظيمة ذات سقف جميل ونافورة رائعة ، ثم بعض الأجزاء التي تعاون على اعطاء فكرة عن شكل القصر من الخارج في هذا العصر الذي ندرت فيه القصور كما ندرت في جميع العصور المصرية الاسلامية قبل الفتح التركي ، ولعل السبب في ذلك خشية الناس من الاعتداء على بيوت الله من عقاب الله فبقي الكثير من هذه البيوت حتى وصل الينا ، أما بيوت الأعداء من البشر فما أهون الاعتداء عليها اذا ما ملك الانسان السلطة والقوة .

المدارس :

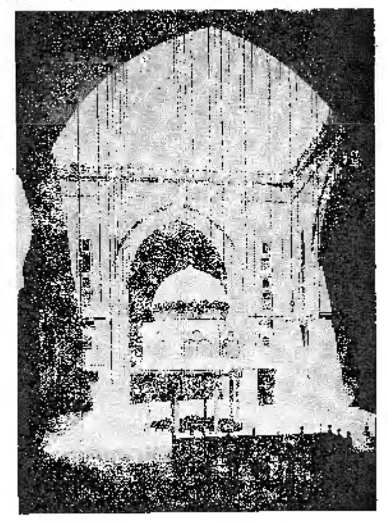
وقد كانت مجالس العلم تعقد في المساجد، وظلت كذلك الى ان اتسعت دائرة المعرفة وتشعبت فروعها ، وحينئذ أحس الناس ان المناظرة والجدل — وهما من أسس الدراسة — قد يخرجان بالطلاب والأساتذة أحيانا عن



٣٠ - مدرسة السلطان حسن (من الخارج) .

حد الهدوء الواجب توفره في المساجد ، فرأوا أن يخصصوا للدراسة قاعة في دورهم ، فلما ضاقت القاعات بالطلاب أنشأوا أماكن خاصة هي المدارس التي عرفها المسلمون لأول مرة في القرن الخامس الهجري في ايران ثم انتشرت بعد ذلك في العالم الاسلامي . ودخلت مصر مع صلاح الدين ، ثم أقبل الناس على انشائها بعد ذلك اقبالا شديدا .

وتعد مدرسة السلطان حسن (٧٥٧ هـ) (صورة رقم ٣٠) من أعظم الآثار الاسلامية

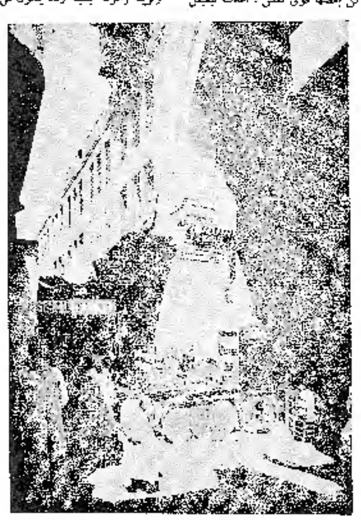


٢٠ ـ مدرسة السلطان حسن (من الداخل) .

فى العالم وأروعها فى مصر ، والواقع ان عظمة الفن الاسلامى وجلاله يبدوان واضحين فى كل جزء من اجزاء هذه المدرسة العظيمة . وتلخص لنا واجهتها الرئيسية جميع خصائص هــذا الفن : ففيها الخط الكوفى والخط النسخى ، وفيهما الزخارف التى تعلمها المسلمون ممن قبلهم من الأمم ، والزخارف التى أبدعوها وصارت من أخص مميزات فنهم .

وتصميم المدرسة يقوم على صحن

مكشوف تتوسطه نافورة ، وتطل عليه من الجهات الأربع أربعة عقود عظيمة (الصورة رقم ٣١) . وفى الزوايا الأربع لهذا الصحن أقيمت أربع مدارس يتكون كل منها من ايوان ، وقناء تتوسطه نافورة ، وتحف به مساكن بعضها فوق بعض ، أعدت ليعيش فيها الطلاب والأساتذة . واختصت كل مدرسة بتدريس مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة ؛ ويتصل بهذه المدرسة أو الجامعة على الأصح مدفن أعد لكي يدفن فيه مؤسسها السلطان حسن ، تعلوه قبة شاهقة وتزينه زخرفة جميلة وقد يكون من الطريف

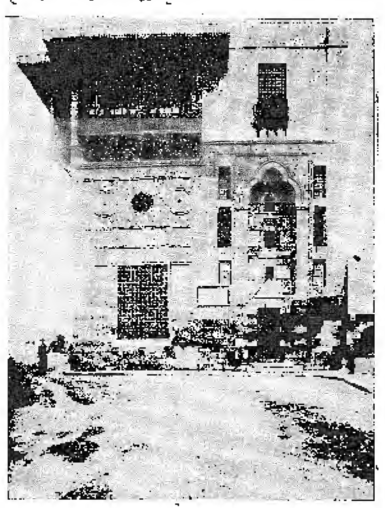


٢٢ – خان الخليلي

أن نذكر أنه كان فى هــذه الجامعة بكلياتها الأربع مراقبان لمراقبة الحضور والغياب ، أحدهما يعمل بالنهار والآخر بالليل ، وكان لها اطباء ثلاثة اختص أحدهم بالطب الباطنى والثانى بطب العيــون والثالث بالجراحة . وكان فى كل كلية مكتبة عظيمة لها أمين خاص بها .

الخانات :

وخان الخليلى الذى ذاعت شهرته يستمد اسمه من سيف الدين جركس الخليلى أحد امراء المماليك الذى كان يعيش فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، وقد كان الخان فى الأصل أشبه ما يكون بعنادق اليوم مع فارق واحد هو أنه كان يتســع لدواب



٢٢-سبيل السلطان قايتبـــاى وربى بإعلاء الكتاب .

المسافرين — وقد كان أغلبهم من التجار — ويتسع كذلك لما يحملونه من بضاعة ، ففي صحنه المكشوف كانت تربط الدواب . وهي وسيلة السفر في تلك الأيام — وفي غرفه التي تطل على الصحن كانت تحفظ البضاعة ، وفي غرفه التي تفتح على الطريق العام كان يعرض البعض من هذه السلع للبيع أو المبادلة ، وفي الطبقة العليا غرف متعددة أعدت لنزول التجار وغيرهم من المسافرين . وقد هدم السلطان الغوري هذا الخان وانشأ مكانه حواصل وحوانيت وجعل له ثلاثة أبواب لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم (الصورة رقم ٣٢) .

الأسبلة :

وسبيل السلطان قايتباي (٨٨٤ هـ) بالصليبة يعد من أروع ما شيده هذا السلطان من عمائره الكثيرة ، ومن أجمل ما يحفظ علينا هذا النوع من الأبنية ، وهو يتكون في أسفله من مورد ماء عذب يشرب منه الناس ، وفي أعلاه « كتاب » لتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والحساب ، وقد كان السبيل « والكتاب » جزءا من المدرسة أو المسجد ثم استقلا بوجودهما كما هو الحال هنا . وأقبل الناس على الاكثار منهما ، وحبسوا عليهما الأعيان التي يصرف ريعها على التلاميذ ومعلميهم وعلى توفير ماء الشرب للناس في بلد اشتهر بجوه الحار ، فليس أقرب الى الله من سقي الماء ونشر العلم . (الصورة رقم ٣٣) .

الفنون الزخرفية

بقي علينا ان نتحدث في ايجاز عن المصنوعات وما كان يزينها من فنون زخرفية وهي الركن الثاني من ركني الحياة الفنية في مصر الاسلامية .

واذا كان للعمائر الدينية التي درسناها طابع خاص يكاد يكون منقطع الصلة بما سبقه من عمائر دينية في مصر ، طابع يترجم عن الدين الجديد الذي دخل الى هذه البلاد ويتمشى من حيث التصميم والمظهر مع العمائر الدينية الاسلامية خارج مصر فالأمر ليس كذلك في المصنوعات ، وما تزدان به من فن زخرفي اذ ظلت التقاليد المصرية السابقة على الاسلام واضحة وسيطرتها قويا في العصر السابق على الطولوني حتى ليصعب علينا في بعض الأحيان أن نفرق فيها بين ما صنع قبل الفتح العربي وما صنع بعده بقليل .

ولكي ندرك مدى ما أحدثه أجدادنا في العصور الوسطى من تطور في هذه المصنوعات وزخارفها نرى لزاما علينا أن نخص كل مادة من المواد التي استخدمت في الصناعة بكلمة خاصة نبدؤها بما كانت عليه قبل الفتح العربي ثم نسير معها متتبعين تطورها حتى الفتح التركي .

مواد البناء

ففي مواد البناء نلاحظ أنه على الرغم من وجود المحاجر التي استمد منها المصريون في عصورهم السابقة الأحجار لتشييد عمائرهم

فان العرب استصعبوا قطع الحجر واستسهلوا عمل اللبن فبنوا به مساجدهم الأولى . وعندما جاء ابن طولون الى مصر حمل معه تقاليد العراق فى البناء وهى تقوم كذلك على استخدام اللبن والطوب المحروق لعدم توفر الحجر عندهم فظلت مصر تسير على نهجها السابق ، وقد كان طبيعيا أن يغطى الطوب بالجص وأن تنقش الزخارف على هذا الجص.

وفى العصر الفاطمى — ذلك العصر الذى أحيا تقاليدنا القديمة كما ذكر من قبل — نجد البناء بالحجر يظهر من جديد ، ويعود النشاط الى المحاجر ، ونلمس فى واجهة جامع الحاكم ومئذنتيه ، وفى واجهة جامع الأقمر ، وفى أبواب القاهرة وأسوارها ، أمثلة رائعة للمهارة الفائقة فى البناء وفى النقش على الحجر .

وظل استعمال الحجر بارزا فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، وتجلى فى هذا العصر حذق أجدادنا فى نقشه ، وفى طريقة استعماله فى المآذن والقباب والشبابيك .

ولم يستخدم الحجر فى البناء وحده بل اتخذت منه شواهد القبور (الصورة رقم ١)، والمتحف الاسلامى بالقاهرة غنى بهذه الشواهد التى تعطى الباحث فكرة واضحة عن تطور الخط الكوفى والنسخى ، كما صنعت منه أيضا المنابر والأوانى والتماثيل ، وهذه الأخيرة وان كانت نادرة الا انها كافية لكى تثبت أن الفن الاسلامى قد عرف فن النحت وهو وان كان لم يصل فيه الى الدرجة التى سمت اليها الفنون القديمة السابقة على الاسلام الا أن هذا لا يعد دليلا على تأخر المبدعين له وليس فيه ما يزرى بمكانة هذا الفن بين الفنون ، لأن لكل فن بيئته التى نشأ فيها والعوامل التى تحكمت فى نشأته ، والقرآن الكريم لم يحرم فن النحت (صناعة التماثيل) وقد أدرك أسلافنا أن التحريم ان وجد فهو منصب على التماثيل التى تعبد من دون الله ، وأما غيرها فلم يتحرجوا من استعمالها فى تزيين قصورهم وقد وصلت الينا أمثلة عدة ، منها ما هو على هيئة الانسان ومنها ما هو على هيئة الحيوان ، وفى القاعة الفاطمية بمتحفنا بالقاهرة تمثالان من الحجر يمثلان أسدين يزحفان على مهل تتجلى فيهما العضلات واللبد بشكل واضح .

ولا ينبغى أن ننسى أن استعمال الحجر



٢) طريقة الحفر المائل كما تتجلى فى قطع الخشب طولونية بالمتحف الاسلامى بالقاهرة .

ليس معناه عدم استعمال الطوب والجص بل فقد سارا معا ، والخبرة التي اكتسبناها منذ العصر الطولوني في استعمال الجص ظلت تتطور وتتبلور حتى وصلت الى غاية نضجها في عصر المماليك الذي شهد أروع أمثلة الزخارف الجصية سواء في النوافذ أو على الجدران .

والرخام الذي استعمل على قلة قبل عصر المماليك قد شاع استعماله في هذا العصر ووصلت الينا منه ثروة عظيمة منها ما تراه في الأبنية القائمة ومنها ما هو معروض بالمتحف الاسلامي بالقاهرة . ويكفي أن نشير الى أرضية كثير من المساجد التي تكسوها ألواح الرخام المختلفة الألوان ، والى النافورة الرائعة في المتحف سالف الذكر .

الأخشاب

ولقد كانت مصر طوال تاريخها فقيرة في الأنواع الجيدة من الأخشاب ، فاستوردتها من لبنان (الأرز والصنوبر) ، ومن السودان (الأبنوس) ومن الهند (الساج) ، واستعملتها مع بعض الأنواع المحلية (الجميز والنبق) في صناعاتها المختلفة . وفي المتحف المصري وفي المتحف اليوناني الروماني ، وفي المتحف القبطي أمثلة رائعة تدل على المهارة والحذق في صناعة النجارة .

وسار المصريون في العصر الاسلامي على النهج القديم في الصناعة وفي الزخرفة ، فاستعملوا الحفر ، والتلوين ، والتطعيم كما



٣٦ - محراب السيدة رقية من الخشب وتتجلى فيه طريقتا التجميع والحفر بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .

فعل أجدادهم ولكنهم في العصر الطولوني خرجوا على ما ألفوه من قبل ، واستعملوا طرازا زخرفيا جديدا جلبه معه أحمد بن طولون هو الحفر المائل (الصورة رقم ٣٠) . ويشير المقريزي الى التماثيل الخشبية التي كانت تزين قصر خمارويه والتي تدل من غير شك على استمرار تقاليدنا القديمة في هذه الناحية .

على أننا قد عدنا الى التقاليد القديمة بشكل واضح في العصر الفاطمي ، فظهرت من جديد طريقة الحفر العميق التي ألفها أجدادنا ، وتجلت في صور رائعة تشاهدها في حجاب كنيسة الست بربارة بالمتحف القبطي وفي المنبر الموجود في مسجد قوص ، وفي محراب السيدة رقية (صورة رقم ٣٥) ، وفي ألواح القصر الفاطمي الصغير في المتحف الاسلامي .

واذا كانت هذه التحف الخشبية تعكس لنا رقي الذوق الفني عند أجدادنا في العصور الوسطى فالتحفتان الأولى والأخيرة تساعدنا على تكوين فكرة عن الحياة الاجتماعية في تلك العصور بما عليها من صور تمثل مناظر الصيد ، ومجالس الطرب ، وأشكال الرقص ، وطرق الاحتفال ، ومظاهر الزي .

وتقدم فن الحفر على الخشب تقدما ملحوظا في العصرين الأيوبي والمملوكي ، وقد عني النجارون في هذين العصرين أكثر ما عنوا بالزخارف الهندسية والنجمية التي أتقنوها اتقانا ينتزع الاعجاب من كل من يراها ، ويكفي دليلا على ذلك ما نراه في تابوت الامام الشافعي (بقبته) وتابوت الامام الحسين (بالمتحف الاسلامي) ، والمنبر الموجود بمسجد ابن طولون .

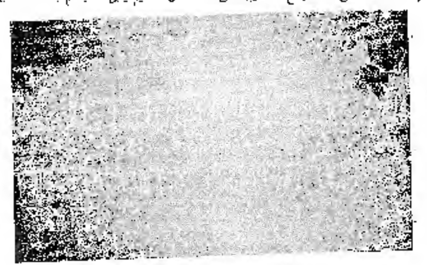
على أننا لم نقف في العصور الوسطى جامدين عند تلك الطرق التي ورثناها عن أجدادنا في زخرفة الأخشاب بل ابتدعنا طرقا جديدة لم تكن معروفة من قبل ، وذاعت بفضلنا في شرق العالم وغربه كطريقة التعشيق ، وطريقة التجميع ، وطريقة الخرط ، والطريقتان الأولى والثانية تشاهدهما في التحف التي ذكرناها وفي غيرها من منابر كثيرة ، والطريقة الثالثة تتجلى فيما يعرف « بالمشربيات » التي كانت تزين واجهات كثير من منازلنا وقصورنا في العصور الوسطى والتي كانت من غير شك متفقة مع جو بلادنا ، ومتلائمة مع نظامنا الاجتماعي حينئذ ، فهي تساعد على دخول الضوء اللطيف ، ومرور النسيم العليل ، فتوفر بذلك في المنزل جوا مناسبا في بلد اشتهر بشمسه الساطعة ومناخه الحار ، وفي المتحف القبطي ومتحف أندرسون أمثلة جميلة لهذه المشربيات .

التصوير

والاستعانة بالتصوير في تزيين الجدران أمر كان معروفا عند أجدادنا المصريين ، وكان معروفا أيضا عند العرب في جاهليتهم فقد زينوا دعائم الكعبة — قبل الاسلام — بصور الأنبياء ، وكان من بينها صورة ابراهيم خليل الرحمن ، وصورة السيد المسيح وأمه على حد قول الأزرقي في كتابه أخبار مكة وما جاء فيها من الأثر .

ولما جاء الاسلام اقتصر المسلمون في استعمال التصوير على تزيين القصور والحمامات دون المساجد ، ولم يكن الدافع الى ذلك كراهية التصوير كفن ولكن كان سموا بالاسلام كدين يرتفع فوق الماديات ، ويجعل الصلة بين العبد وربه صلة روحية

قوامها التجرد من كل ما هو مادى ، وقد كشفت الحفائر الأثرية سواء فى مصر أو فى خارج مصر عن حمامات وقصور ترجع الى القرن الثانى والثالث والرابع بعد الهجرة كانت تزدان بالصور الجميلة ، وفى القاعة الفاطمية بمتحفنا الاسلامى مثل رائع للتصوير على الجدران نقل من الحمام الفاطمى الذى أثبتنا انه من قبل (الصورة رقم ١٩) ولعل فيما ذكرناه هنا أبلغ رد على الذين يتهمون الاسلام بتحريم التصوير ، فعلى الرغم من أن القرآن الكريم خلو من أى نص يحرم هذا الفن فان المنطق السليم يأبى أن يسلم بأن هذا الدين



٢٠- قطعة نسيج من العصر الفاطمى بالمتحف الاسلامى بالقاهرة .

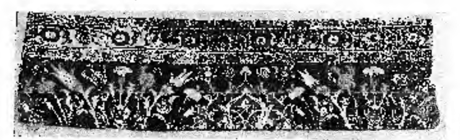


٢٢- قطعة قماش نسجت فى القرن الثالث تسجل فيها زخارف الفن القبطى والكتابة العربية التى لها هنا طابع خاص بالمتحف الاسلامى بالقاهرة .

فقد حرم التصوير مع ما له من دور خطير في الحياة العلمية والحياة الاجتماعية .

المنســوجات

ومنذ فجر التاريخ بل وقبل أن يشرق هذا الفجر عرفت مصر صناعة المنسوجات ، والأمثلة التي تنطق بمهارة أجدادنا في هــذه الناحية في كل العصور تفخر بها المتاحف في مصر وفي الخــارج . والمكانة السامية التي وصلنا اليها في العصور القديمة في هــــذه



٣٨ - قطعة من طنفسة مصرية عملت للبـــلاط العثماني بأيد مصرية .

الناحية بلغناها أيضا في العصور الوسطى ، (الصورة رقم ٣٦) وكان في تقاليدنا في تلك العصور من كسوة الكعبة ، وعادة منح الخلع ما عاون على بلوغ هذه الدرجة بل وتجاوزها في كثير من الأحيان كما تشهد بذلك قطع النسيج الإســلامية المعروضة في المتحف . والفضــل في ذلك راجــع الى الدور الذي لعبتــه « دور الطــراز » أو بعبارة أوضح المصــانع الحكومية للنسيج التي انتشرت في طول البلاد وعرضها وكانت تســتخدم أمهر النساجين وأشــهر الرســامين وأغلى المواد الخــام حتى تستطيع أن تخرج من الأقمشة ما يليق بالخلفاء والأمراء والحكام ومن يلوذ بهم ، وقد كان الشعب من ورائهم يترسم خطا هــــذه المصــانع ، وينســج على هــديها (الصورة رقم ٣٧) وليست «دار الكســوة» الموجودة حتى اليوم الا بقية من «دور الطراز» القديمة ، وهى لا تختلف عنها الا في انكماش اعمالها ، واقتصارها على نسج كسوة الكعبة التي ترسلها كل عام الى مكة .

ولقد ساهم اجدادنا في العصور الوسطى في نشر الحرير في مشارق الأرض ومغاربها ، وقد تزعموا تجارته في تلك العصور ، ولعبت الاسكندرية دورا هاما في هذه التجارة اذ كانت هى التي تحدد اسعاره للعالم المتحضر حينئذ .

الطنـــافس

وهناك صفحة من عظمة مصر في الصناعة طواها النسيان ، وكشف عنها البحث الأثرى هى تفوق مصر في العصور الوسطى في صناعة

الأبسطة ذات الخمل أو الطنافس كما ينبغي أن تسمى . وقد كانت حينئذ أكبر منافس لبلاد العجم في هذه الصناعة ، وأمدتنا حفائر الفسطاط بما يثبت قيام هذه الصناعة عندنا منذ العصر العباسي ، واستمرت كذلك حتى العصر المملوكي الذى بلغت فيه ذروة نضوجها (الصورة رقم ٣٨) والأمثلة القليلة الموزعة بين متاحف أوربا لا سيما في فينا تشهد بهذا النضوج ، وفي متحفنا بالقاهرة مثال منها يقل في أهميته وجماله عن تلك الأمثلة التي تعيش في دار الغربة ، وتؤدى لنا هناك رسالة عظيمة اذ هي في الواقع سفير صادق يكشف للغير عن مجدنا وحضارتنا في العصور الوسطى .

المعـــادن

ولقد سرنا في صناعة المعادن في العصور الوسطى على النهج القديم الذى كان يسير عليه أجدادنا من قبل ولكننا أضفنا الى طرق الزخرفة القديمة : من حفر غائر أو بارز ، أو تخريم ، أو ترصيع بالمينا ، طريقة جديدة هي طريقة التكفيت . . أي تطعيم الأواني بالذهب او بالفضة أو بهما معا — التي ابتكرها أجدادنا من المسلمين ، وقد شاعت هذه الطريقة ، وتعلمها الأوربيون على أيدينا ، ويمكن أن نشاهد في المتحف الاسلامي عندنا أمثلة مصرية اسلامية ، وأمثلة قد صنعت في ايطاليا تقليدا لهذه التحف الاسلامية حتى ندرك مدى الفرق بين عمل الأستاذ وعمل التلميذ .

ويلاحظ أنه لم يصل الينا من التحف



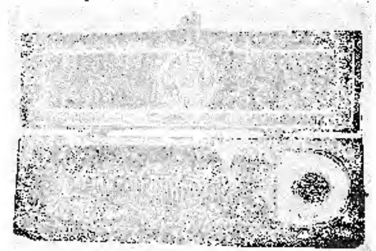
٣٩- تمثال صغير من البرونز وجد في حرائب الفسطاط — بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .



٤٠- تمثال من البرونز من العصر الفاطمي موجود الآن في مدينة بيزا بايطاليا .

المعدنية الا القليل ، اذ جرت العادة بصهر الأواني المعدنية كلما تقادم عليها العهد لكي تستبدل بأوان جديدة . وفي المتحف الاسلامي بالقاهرة بعض التماثيل الفاطمية المصنوعة من البرنز (الصورة رقم ٣٩) على أن أروع تمثال برنزي من هذا العصر موجود في مدينة بيزا بايطاليا وهو يمثل حيوانا له جسم أسد ورأس نسر وبه زخارف محفورة من بينها كتابات عربية (الصورة رقم ٤٠) . وقد أولع الناس في عصر المماليك - - كما يقول المقريزي بالأواني المعدنية ، وفي المتحف مجموعة قيمة من هذا العصر تتمثل في تلك الثريات والشماعد والأباريق والأواني ، ونخص بالذكر منها كرسي (مائدة صغيرة) من عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون (الصورة رقم ٤١) ودواة من عصر حفيد هذا السلطان (الصورة رقم ٤٢) وكلاهما من أروع التحف المعدنية في العالم .

٤١ : كرسي (مائدة صغيرة) من النحاس المكفت بالفضة من عصر المماليك – بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .



٤٢ - دواة من النحاس المكفت بالفضة من العصر المملوكي .

الخـــزف

وإذا كانت التحف المعدنية التي وصلت إلينا قليلة كما ذكرنا فإن التحف المصنوعة من الفخار والخزف كثيرة لا تحصى ولا عجب في ذلك ، فالأولى من اليسير صهرها والثانية لا تبلى مهما تقادم عهدها .

وصناعة الأواني من الفخار عريقة في القدم ، أتقنها أجدادنا الفراعنة فأخرجوا لنا أواني فخارية جميلة ، وابتكروا الخزف أي الفخار المطلي بطبقة زجاجية ، وحذقوا صناعته ، وعلموها لغيرهم من الأمم . والملاحظ أن صناعة الأواني الفخارية أو الخزفية في العصور السابقة على الاسلام لم تكن موضع رعاية الحكام والملوك لأن هؤلاء قد اتخذوا معظم أوانيهم من الذهب والفضة والبرنز ، وعندما ظهر المسلمون على مسرح التاريخ لم تشهد هذه الصناعة في أول الأمر تطورا يذكر ، ويظهر أن الخلفاء الأمويين في الشام قد ساروا على نهج ملوك الدولتين الساسانية والبيزنطية ففضلوا استعمال الأواني المعدنية على غيرها ، أما في العصر العباسي فقد تغير الحال ، إذ كان من أثر تبادل الرحلات والتجارة بين البلاد الاسلامية وبلاد الصين أن وجدت الأواني الخزفية الصينية طريقها الى أسواقنا ، وأصبح لها مكانة ممتازة بين السلع المختلفة مما حملنا على تقليدها وقد نجحنا في هذا التقليد نجاحا باهرا يتجلى في « خزف الفيوم » الذي نشاهد منه أمثلة جميلة في المتحف الاسلامي . ثم انتقلنا من مرحلة التقليد الى مرحلة الابداع وكان لبعض الأحاديث النبوية التي كرهت الناس في استعمال الأواني المصنوعة من الذهب او الفضة أثر واضح في هذا الابتداع فظهر نوع جديد من الخزف لم يعرفه الشرق القديم ولا الصين نفسها ، له بريق كبريق الذهب هو المعروف « بالخزف ذي البريق المعدني » الذي نراه لأول مرة في العصر الطولوني (ولا يستبعد أن تكون الفكرة قد أتت الينا من العراق مع أحمد بن طولون) ، وتفوقنا في صنعه في العصر الفاطمي فوصلنا به الى درجة سامية يؤمن بها كل من يشاهد الأمثلة الفاطمية المعروضة من هذا الخزف في المتحف الاسلامي (الصورة رقم ٤٣) .

وقد استمر انتاجنا في شتى أنواع الخزف يتقدم عبر العصور ، وأبدعنا في عصر المماليك أنواعا جديدة منها ما هو مبتكر (الصورة رقم ٤٤) ومنها ما هو تقليد لأنواع شتى من خزف الصين (الصورة رقم ٤٥) وخزف ايران .

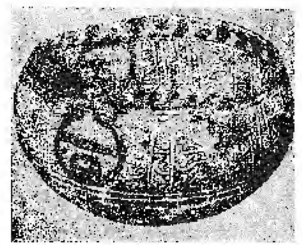
وقد عرفنا الكثير من أسماء الخزافين الذين عاشوا في العصر الفاطمي أو العصر المملوكي ولكن معرفتنا بهم لا تتجاوز أسماءهم المنقوشة على الأواني التي صنعوها .

وفي خلال عصر المماليك ظهرت صناعة القراميد (ألواح القاشاني) التي تستعمل في تكسية الجدران ولا تزال بقاياها ماثلة في بعض المآثر المملوكية . (الصورة رقم ٤٦) .

وثمة سلعة تعتبر أرخص مما يمكن أن يصنعه صانع ، وهي على رخصها تكشف لنا عن ميزة توفرت لأجدادنا في العصور الوسطى هي انهم أحبوا الفن للفن ، وحرصوا على أن يضفوا على كل ما أخرجته أيديهم جمالا زخرفيا يشيع الغبطة في النفوس ويشهد لبدعه



قطعة من الخزف ذي البريق المعدني به صورة للسيد المسيح بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .



آنية من الفخار المطلي في العصر المملوكي بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .

بحسن الذوق يستوي في ذلك آنية الأمير المصنوعة من الذهب ، وآنية الفقير المصنوعة



آنية من الخزف الذي قلدنا به خزف بلاد الصين في العصر المملوكي ـ بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .



تربيعات من القاشاني من العصر المملوكي ـ بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .



٤٧ ـ شباك قلة من الفخار بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .

من الطين ، هذه السلعة الرخيصة ليست سوى « قلل » من الفخار تغنى الفخرانى فى زخرفة شبابيكها (الصورة رقم ٤٧) تمتنا ستزع الاعجاب من كل من يراها .

الزجاج

ولقد كانت صناعة الزجاج مزدهرة فى مصر منذ عصر الفراعنة ، وكانت مدينة الاسكندرية فى عصر البطالمة والرومان والبيزنطيين من أعظم مراكز صنعه فى العالم ، وقد حافظت مصر فى العصور الوسطى على هذه المكانة ، ولا عجب فلقد أدرك أجدادنا حينئذ الدور الذى يلعبه الزجاج فى الحضارة فاقبلوا على صنعه ، وأشاروا فى كتب الأدب الى ما له من مزايا على غيره من المواد ، فقالوا ان أوانيه لا تصدأ ، ولا تندى ، ولا يتخللها وسخ ، واذا اتسخت فالماء وحده ينظفها ، ومتى غسلت بالماء عادت جديدة ومن يشرب فيها فكأنما يشرب فى اناء وماء وهواء وضياء .

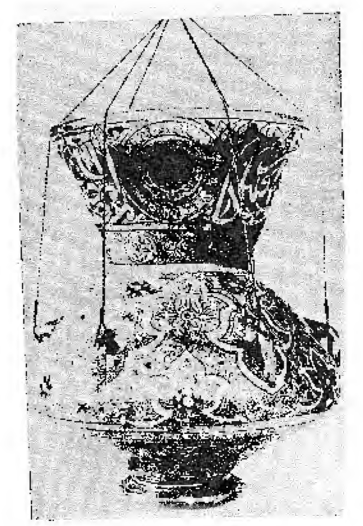
وفى العصر الطولونى أخذت الفسطاط مكان الصدارة فى صناعته ، وأمدتنا حفائرها بكثير من القطع الزجاجية ومن القنينات الصغيرة ذات الأشكال المختلفة الجميلة ما يدل على أننا قد سرنا بهذه الصناعة الى الأمام خطوات واسعة . (الصورة رقم ٤٨) .

وفى العصر الفاطمى استمرت عجلة التطور تدور ، وقد أثبت ذلك الرحالة ناصرى خسرو اذ قال انه كان يصنع بمصر زجاج شفاف عظيم النقاوة ، وقال أيضا ان التجار فى مصر كانوا يمنحون المشترين أوانى من الزجاج لكى يضعوا بها السلع التى اشتروها مما يدل على انتشار صناعة الزجاج وشيوعها ، وقد ابتكرنا فى هذا العصر « الزجاج ذا البريق المعدنى » وأضفنا الى هذا الابتكار ابتكارا جديدا اهتدينا اليه فى العصر الأيوبى هو « الزجاج المموه بالمينا » الذى وصلنا فيه الى ذروة الاتقان فى العصر المملوكى (الصورة رقم ٤٩) والمصابيح الزجاجية أو « المشكاوات » كما تسمى عادة التى يفخر بها متحف الفن الاسلامى (الصورة رقم ٥٠) هى خير ما يعرض علينا جمال هذه الطريقة التى ابتدعناها لزخرفة الزجاج فى العصور الوسطى ، والتى تعلمها منا الايطاليون وقلدونا فيها تقليدا نراه فى بعض التحف المعروضة بقاعة الزجاج فى المتحف الاسلامى .



٤٨ ــ آنيــــة من الزجاج من العصر الطولوني بالمتحف الاسلامي بالقاهرة .

٤٩ ــ دورق من الزجاج المموه بالمينا من العصر الايوبي بالمتحف الاســلامي بالقاهرة .



٩٠ — مشكاة من الزجاج المموه بالمينا من عصر المماليك بالمتحف الاسلامي .

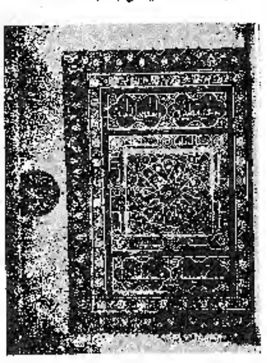
فن الكتاب

ولعل خير ما نختم به هذا العرض السريع للجانب الفني من حياة مصر الاسلامية هو ما كان لأجدادنا في العصور الوسطى من فضل عظيم على « فن الكتاب » أي فن اخراج الكتاب في الصورة التي نراه عليها الآن ، وهو فن متشعب النواحي يتصل بالمواد التي كان يكتب عليها ، وبالخط الذي كان يكتب به ، وبالصورة التي توضح موضوع الكتاب ، وبالتذهيب وبالتجليد .

وقد كتب أجدادنا على الحجر والخشب وعلى الفخار والعظم وعلى الكتان والجلد ، وفي معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة أمثلة كثيرة لذلك ، على أن أهم ما استخدم للكتابة عليه هو البردى والرق والورق ، والبردى نبات كان ينبت بكثرة في مصر ، وقد لعب في العصور القديمة والعصور الوسطى نفس الدور الذى يلعبه الورق في عصرنا الحاضر ، ولم يكن لمصر منافس في انتاجه ، والكتاب المتخذ منه كان يتكون في معظم الأحيان من صحائف مختلفة يلصق بعضها الى بعض بحيث يتكون من ذلك شريط طويل مستطيل الشكل يلف ليصبح في شكل الاسطوانة ، وقد كانت الصحيفة الأولى في هذا الملف أكثر سمكا من الصفحات الأخرى لأنها كانت تغطى الملف وتكون له بمثابة غلاف .

ولكن سرعان ما اتخذ الكتاب شكلا آخر غير شكل الملف هو الشكل الذى نراه عليه الآن وذلك في الغالب عندما استعمل الرق (وهو ما اتخذ من جلد الحيوان لا سيما الماشية والغزال) للكتابة عليه ، اذ كان جمع الرقوق المختلفة بعضها الى بعض يحتاج الى غلاف يمسكها ، ويحفظها من التلف ، فوضعت بين لوحين من الخشب . وقد عنى أجدادنا قبل الاسلام بزخرفة هذه الألواح الخشبية ، وتجميلها بالمعادن النفيسة والأحجار الكريمة ، ثم خطوا نحو التطور خطوة جديدة عندما استبدلوا هذه الألواح الخشبية بقطع من البردى قد أحكم لصقها بعضها الى بعض حتى أصبحت كأنها الورق المقوى (الكرتون) ثم كسوها بالجلد ، وزخرفوا هذا الجلد وهذه تكاد تكون نفس الطريقة التى تتبع اليوم في تجليد الكتب .

واختراع الورق ، ثم استعماله بدلا من الرق ، لم يحدث تغييرا في صناعة التجليد التى ظلت تسير على نهجها القديم ، على أننا نستطيع أن نسجل لأجدادنا في العصور الاسلامية فضل التقدم نحو الأمام خطوة جديدة في هذه الناحية هي ابتكار « اللسان »



١٥ - الصفحة الأولى من مصحف السلطان شعبان احد سلاطين المماليك - في معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة .

الذى يطوى لحماية الأطراف الأمامية للصفحات . واذا كنا قد تعلمنا صناعة تجليد الكتب من البيزنطيين فقد علمناها بدورنا للإيطاليين فى البندقية ومن هناك تعلمها باقى الأوربيين .

ولقد عنى أجدادنا بانشاء المكتبات فى كل عصور حياتهم عناية عظيمة ، ومكتبة الاسكندرية الشهيرة ، ومكتبات الأديرة والكنائس والمساجد خير شاهد على ذلك ، ولولا الفتن والاضطرابات الداخلية لوصلت الينا أمثلة كثيرة من كتبهم التى ساهم فى عملها الخطاطون ، والمذهبون ، والمصورون ، والمجلدون ، ولكن القليل الذى وصل الينا والذى نستطيع أن نراه بالمتحف القبطى ، ونراه فى المجموعة الرائعة بدار الكتب المصرية يعوضنا بعض العوض .

والواقع أن « فن الكتاب » قد بلغ ذروة نضجه فى عصر المماليك ، كما تشهد بذلك المصاحف الجميلة المعروضة فى دار الكتب . (الصورة رقم ٥١) .



فهرس

سلسلة تاريخ الحضارة المصرية

العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي

المجلد الثاني



العصر اليوناني والروماني والعصر الاسلامي ـ للدكتور ابراهيم نصحي

مصر في عصر البطالمة : ـ

صفحة

صفحة

صفحة

من ديوقلديانوس الى دخـــول العرب ـ للدكتور مراد كامل

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

القسم الثاني

العصر الإسلامي :

تاريخ مصر من الفتح العربي الى ان دخلها الفاطميون ـ بقلم الدكتور حسين مؤنس

صفحة

تاريخ الحضارة المصرية

المجلد الثاني

العصر اليوناني و الروماني

و العصر الإسلامي

تأليف

أمين الخولي * محمد مصطفي زيادة * إبراهيم نصحي * مراد كامل

حسين مؤنس * جمال الدين الشيال * محمد عبد العزيز مرزوق

